

أسس الصحة النفسية

الدكتور عبد العزيز الوحي

أستاذ علم النفس بمعهد التربية للمعلمين
ومدير المعهد وزميل بالجمعية البريطانية لعلم النفس

الطبعة الرابعة

منقحة

(١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م)

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها، حسن يوسف محمد وأخواتها
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة - ٤

أسس الصحة النفسية :

الطبعة الأولى : ١٩٤٥

الطبعة الثانية : ١٩٤٦

الطبعة الثالثة : ١٩٤٨

الطبعة الرابعة : ١٩٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ستتناول في هذا الكتاب — كما يتبين من عنوانه — ما يسمى «أسس الصحة النفسية» • وهو يتضمن خبرة شخصية بدأت منذ سبع عشرة سنة تقريبا ، وقد استقيت هذه الخبرة من الحالات التي قمت أنا وزملائي بدراستها في العيادة الطبية السيكولوجية الملحقه بمعهد التربية للمعلمين ، ومن حالات الأحداث التي درستها في أثناء عملي كاختصاصي نفسي بمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة ، وقد استمر عملي به أربع سنوات تقريبا • ويكاد النظام الذي يسير عليه كل من مكتب الخدمة الاجتماعية وعيادة المعهد يكون واحدا • ويجدر بنا أن نشير إشارة سريعة الى نشأة كل منهما •

يرجع انشاء العيادة السيكولوجية في مصر الى عام «١٩٣٤» ، حين قام المعهد بانشاء أول عيادة من هذا النوع • وقد ظهرت الحاجة اليها بعد أن أنشأ المعهد فصولا تجريبية^(١) لتطبيق بعض الأساليب الحديثة في التربية ولأجراء بعض التجارب ، اذ لاحظ المشرفون على هذه الفصول أن عددا من التلاميذ فيهم نوع من الشذوذ يتناول السلوك الاجتماعي في بعض الحالات ، والتقدم الدراسي في البعض الآخر • وكان هذا الشذوذ أكبر من أن يتمكن المدرس العادي من معالجته ، لأن مواجهته تتطلب دراسة عميقة شاملة من النوع الذي لا يتسع له وقت المدرس ، ولا تمكنه منه (١) كانت هذه الفصول النواة الاولى للمدرستين النموذجيتين بالقبة والاورمان •

خبرته . وقد قامت بعض الهيئات فى انجلترا وأمريكا وغيرها بإنشاء العيادات السيكولوجية لدراسة هذا النوع من الحالات ومعالجته ، وعلى نظام هذه العيادات أنشئت عيادة المعهد . فكان العمل فيها يقوم على أساس تصافر جهود المتخصصين فى النواحي المختلفة التى تهمن معرفتها لفهم الحالة ، والتمكن من معالجتها . وكان التلميذ يدرس من الناحية النفسية لمعرفة ما لديه من ذكاء واستعدادات أخرى ، ولمعرفة ما لديه من صفات نفسية : مزاجية ، وخلقية ، وما الى ذلك . كما كان يفحص من الناحية الطبية فحصا دقيقا ، لأن كثيرا من أنواع الشذوذ يرجع كله أو بعضه للعلل المزمنة أو الحادة ، أو للخصائص الجسمية الأخرى ، وما الى ذلك .

ومن الضروري لنجاح العلاج بحث العوامل البيئية المختلفة التى تؤثر فى التلميذ سواء أكانت هذه العوامل كامنة فى المنزل ، أم فى المدرسة ، أم فى الرققاء ، أم فى المجال الذى يقضى فيه التلميذ وقت فراغه ، أم فى غير ذلك . وفى كل هذا يجب الوقوف على هذه المؤثرات بكافة أنواعها ، نفسية ، أو صحية ، أو بيئية ، ماضية وحاضرة . لذا كان من الضروري الاستعانة بجهود سيدة مدربة تدريبيا خاصا تتصل بالمنزل لجمع المعلومات ⁽¹⁾ التى يصح أن يكون لها علاقة بمشكلة الشذوذ . وتقوم هذه السيدة أو الباحثة الاجتماعية بعد ذلك بزيارات متعددة لتنصح من فى المنزل بما يجب عليهم اتباعه مع الناشئ .

ويشترك مع هؤلاء المتخصصين الثلاثة — النفسانى والطبى والاجتماعى — فى كثير من الأحيان مدرسون ومتخصصون فى المسائل التربوية ، لوضع الخطة اللازمة لمواجهة الشذوذ أو علاجه على ضوء المعلومات التى جمعت من الميادين المختلفة .

سار العمل على هذا المنوال ، وقامت العيادة بدرس عدد من حالات التهمة ، والسرقه ، والتأخر الدراسى ، وفقد الثقة بالنفس ، والاضطراب النفسى والغضبى ، والمشاكسة ، وما الى ذلك . وقد نجحت نجاحا كبيرا مع

(1) يستعان الآن فى بحث ذلك بخريجات وخريجي معاهد الخدمة الاجتماعية

عدد من الحالات ، ولم تنجح هذا النجاح في بعضها • ولم تكن الحالات التي كان نجاحها جزئيا أو منعما أقل أهمية — من الناحية العلمية — من الحالات التي كان النجاح فيها كبيرا ؛ اذ تمكنت العيادة — مع ذلك كله — من الوقوف على الكثير من العوامل التي أدت الى ظهور السلوك المشكل ، ووقفت كذلك على العوامل التي أدت الى عدم النجاح في مواجهته ، مما يساعد كثيرا في وضع الأسس الوقائية والعلاجية •

وما كاد العمل يسير في هذه العيادة الناشئة حتى زاد الضغط عليهما من جهات متعددة ، فقام كثير من الآباء والنظار بارسال أطفال وتلاميذ بسبب ما ظهر عندهم من مشكلات في السلوك • ولم تتمكن العيادة في بدء أمرها من مواجهة الضغط ؛ لعدم تفرغ أعضائها للعمل بها تفرغا كاملا ، فكانت تقبل في كل عام من أحوالها الأولى عددا قليلا من الحالات يتراوح بين خمس عشرة وخمس وعشرين • وبهذا تمكنت في السنوات العشر الأولى من درس « ٢٢٠ » حالة • وقد مكنتنا الظروف من دراسة الكثير من هذه الحالات باستيفاء ، على حين لم تمكنا من ذلك في بعضها •

وفي أوائل سنة « ١٩٤٠ » أنشئ مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة ، وبدأ هذا المكتب يدرس من يرسل اليه من الأحداث المشردين أو مرتكبي الجرائم المعروفة باسمهم • وكان من نصيبي أن اخترت في أول صيف « ١٩٤٠ » لأكون الاختصاصي النفسي لهذا المكتب ، وبقيت في هذا العمل زهاء أربع سنوات قمت فيها بدراسة ثلثمائة حالة تضم أعبارا مختلفة ، وجرائم وذنوبا مختلفة ، قام بها صبيان ، وعدد صغير من البنات •

وتمكنت في حالات عيادة المعهد ومكتب الأحداث معا — وهي تزيد في مجموعها على خمسمائة حالة — من دراسة ظروف كل حالة ، وفي هذا درسنا البيئة ، والأهل والاختوة ، والوالدين ، والرفقاء ، ومعاملات المدرسين ، وأصحاب الأعمال وغيرهم • وبذلك اتسع ميدان الدراسة اتساعا كبيرا شمل بيانات تختلف فيما بينها اختلافا شاسعا ، وشمل صنوبا مختلفة في السلوك ، والمزاج ، والعقلية ، والمستوى الاجتماعي ، والثقافي ، والعمر ، والجنس ، وما الى ذلك •

يضاف الى كل هذا أنني قضيت صيفين في العيادات السيكولوجية بلندن ، وذلك في عامي «١٩٣٤» و«١٩٣٦» وكنت ملازماً في هذين الصيفين للدكتور «هاملتون بيرسون» رئيس قسم الأطفال في معهد لندن لعلم النفس الطبي ، ودرست معه عدداً من حالات الصغار والمراهقين التي كانت تحال الى ذلك المعهد .

وقد جمعت نتائج كل هذه الخبرة في الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وأضفت الى طبعاته الأخرى بعض ما تلا ذلك من خبرات .

ويحتوي هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء : الجزء الأول منه يشمل القواعد العامة للصحة النفسية ، وأغلبها قواعد نظرية مدعومة بالأمثلة العملية المشتقة من الحالات النفسية التي درسناها ، ويدخل في ذلك أثر الناحية الصحية وأثر الوراثة . كما يشمل نزعات الطفل الفطرية ، وتعديل هذه النزعات مما يؤدي إلى تكوين خلقه ، وعواطفه ، وميوله ، واتجاهاته .

وأما الجزء الثاني فانه يشمل بيئة الطفل الاجتماعية ، وقد قسمناها الى جزئين : البيئة المنزلية وتشمل الوالدين والاخوة ، والبيئة المدرسية ويدخل فيها التلاميذ والمعلمون .

والجزء الثالث منه يشمل بعض المشكلات التي تعرض للآباء والمعلمين والقائمين بتربية الأطفال ، وتدرجنا في شرح كل هذا مبتدئين بالمشكلات الأولى من نوم وتغذية ، وبيننا أسبابها وآثارها النفسية ، وأهميتها في نشأة الفرد ، وتدرجنا الى مشكلات الطفولة المتأخرة ، ثم الى مشكلات المراهقة ، فعرضنا للمشكلات الجنسية . ثم ختمنا الكتاب بفصل عن التربية الجنسية اكتفيافيه بغرض عام غير مفصل لما يجب أن يعمل ، وبيان تفصيلي عما يعمل في الخارج مما يمكن أن نسميه « التربية الجنسية المقصودة » ولعل دراسته ما يغفل في الخارج قد توخى إلينا بما يمكن عمله في مصر (١) .

وقد حرصنا عند استشهدادنا بحالات منا درسنا ألا يتمكن القارئ

(١) قمت بالفعل مع زميلي (الدكتور أحمد طنطاوي) بوضع كتاب يقرؤه المراهقون في هذه الناحية ، وسميناه « قصة الحياة في جميع الأحياء » .

الماعى من معرفة أصحاب هذه الحالات ، وضجنا أحيانا بالاشارة الى بعض الحالات الطريفة ، لا لسبب سوى أن شرحها قد يسهل الاستدلال على معرفة أصحابها .

وأجزاء الكتاب موضوعة بحيث يمكن قراءة كل منها مستقلا عن الآخر ، ويجدر بالذين يدرسون على النفس دراسة منظمة أن يقرءوها جميعها . وقد راعينا فى فصول الجزء الأول الاختصار والوضوح والشمول والدقة العلمية . ويتحتم على من ينشء دراسة فصوله دراسة وافية أن يكمل قراءته من مراجع أخرى أكثر استيفاء . ومن هنا رأينا تذييل كل فصل بثبت واف لخير مراجعه . وليس معنى هذا الثبت أن كل مرجع قد استعملناه استعمالا صريحا فى صلب الكتاب ؛ ولكننا استعملنا كل هذه المراجع استعمالا ضمينا كافيا فى أهم ما جاء فيها . والغرض الأساسى من إيرادها فتح ميدان القراءة لمن يهمهم البحث والاطلاع .

ولا يسعنى فى ختام هذه المقدمة الا أن أشكر جميع من عاونونى فى تجهيز مادة هذا الكتاب ، وأخص بالذكر منهم زملائى أعضاء القيادة السيكولوجية بمعهد التربية ، وأعضاء مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة . وأرى لزما على أن أنوه بفضل أستاذى الجليل اسماعيل محمود القبانى بك ، فهو أول من علمنى علم النفس ، وملائى اهتماما به ، وتحمساً له ، وكان يقوم دائما بتشجيعى وتهئية الظروف لانمام هذا الكتاب ، وقد أفدت من ملاحظاته القيمة التى أخذت بها ، وكان لها فى تحسين هذا الكتاب أثر كبير . وهناك اثنان يخجلنى أن أشكرهما ؛ اذ لا فى حقهما أى شكر مهما عظم ، وهما صديقائى : الأستاذ أحمد حسن عبيد والأستاذ السيد محمد على عثمان . وأقدم شكرى كذلك الى حضرات أساتذة المعهد وطلابه وخريجيه فقد أفدت منهم فى ذلك فائدة كبيرة .

وأشكر السيدة زوجتى ؛ اذ لم تقتصر مساعدتها على تهئية الجو الصالح للعمل المثمر ، وإنما امتد فضلها الى المعونة الفنية والعملية فى كل جزء من أجزاء هذا الكتاب .

عبد العزيز القرصى

معهد التربية فى مارس سنة ١٩٥٢

فهرس

الباب الأول

المبادئ العامة لعلم الصحة النفسية

الفصل الأول : معنى الصحة النفسية . (٣-١٢)

تعريف (٣) ، الشذوذ والصحة النفسية (٨) نسبة الصحة النفسية (١٠) ، ميدان الصحة النفسية (١١) ، المراجع (١٢) .

الفصل الثاني : الوراثة والبيئة . (١٣-٢٧)

مقدمة (١٣) ، الآراء المختلفة في الوراثة والبيئة (١٤) ، المقصود بالوراثة والبيئة (١٥) ، بعض الأدلة على أثر الوراثة والبيئة (١٧) ، دراسة العظام والموهوبين (١٧) ، دراسة المجرمين وضعاف العقول (١٧) ، دراسة التوائم (١٩) ، الوراثة والصفات العقلية والخلقية (٢٠) ، الذكاء والوراثة (٢١) ، الخلق والوراثة (٢٣) ، صعوبات البحث في الوراثة والبيئة (٢٤) ، الوراثة (٢٧) .

الفصل الثالث : الجسم والعقل وأثر كل منهما في الآخر (٢٩-٥٩)

مقدمة (٢٩) ، التطور في الجسم والعقل (٣٠) ، الجسم والعقل في عمليات الإدراك الحسى (٣٠) ، الاثعالات (٣١) ، أنواع الشخصية وعلاقة الجسم بها (٣٣) .

أثر الجسم في العقل : التأخر العام في النمو الجسدى (٣٥) ، العاهات وأثرها (٣٦) ، الأثر المباشر للجسم على العقل (٤٠) ، أثر التوكسينات والمخدرات والميكروبات (٤١) ، أثر العدد (٤٤) ، البنكرياس (٤٥) ، الغدة الدرقية وجاراتها (٤٦) ، الغدة النخامية (٤٧) ، الغدة التناسلية (٤٩) ، الغدة فوق الكلوية (٥١) ، غداتا الطفولة (٥٢) ، الاتزان الغددى (٥٣) .

أثر العقل في الجسم (٥٣) : الحالات الاتفعالية (٥٤) ، أمثلة من تحقيق الجسم للنزعات العقلية (٥٥) ، أثر الايحاء (٥٧) ، خاتمة (٥٨) ، المراجع (٥٩) .

الفصل الرابع : الفرائز والحاجات . (٦١ — ٨٤)

مقدمة (٦١) ، الفرائز (٦٣) ، النزعات الفطرية العامة (٦٨) ، الحاجات النفسية (٧٢) ، الدوافع والقدرات العقلية (٧٦) ، طرق تعديل الفرائز (٧٨) ، الطريقة الأولى (٧٨) ، الطريقة الثانية (٧٩) ، الطريقة الثالثة (٨٠) ، الاعلاء والقلب (٨٠) ، الابدال (٨٢) ، خاتمة (٨٢) ، المراجع (٨٤) .

الفصل الخامس : تكامل الشخصية « العواطف والخلق » (٨٥ — ١٠١)

معنى (٨٥) ، أنواع العواطف (٨٦) ، العواطف وتنظيم الدوافع الفطرية (٨٧) ، العاطفة السائدة (٨٨) ، تكامل الشخصية (٨٩) ، الصراع النفسى وعاطفة اعتبار الذات (٩٠) ، نشوء عاطفة اعتبار الذات (٩٢) ، العوامل الاجتماعية في تكوين الخلق (٩٤) ، رأى في السعادة (٩٨) ، المراجع (١٠١) .

الفصل السادس : انحلال الشخصية « اللاشعور » (١٠٣ — ١٢٧)

خلاصة ومقدمة (١٠٣) ، ال « أنا » (١٠٥) ، الذات العليا (١٠٦) ، ال « هي » (١٠٨) ، ال « أنا » والقوى المؤثرة عليها (١٠٩) ، الصراع

والكبت وتكوين العقد (١١٢)، العواطف والعقد (١١٧)، مظاهر اللاشعور (١١٩)، الأحلام (١٢١)، المراجع (١٢٧) .

الفصل السابع : العمليات العقلية اللاشعورية . (١٢٩ — ١٤٣)

مقدمة (١٢٩) ، الكبت والنسيان (١٢٩) ، النكوص (١٣١) ،
الاسقاط (١٣٢) ، التحويل (١٣٤) ، التقمص (١٣٥) ، التبرير (١٣٦) ،
التعويض (١٣٨) ، الأعراض المرضية والدفاعية والهروبية (١٤١) ، خاتمة
(١٤٢) ، المراجع (١٤٣) .

الفصل الثامن : مراحل النمو . (١٤٥ — ١٦٢)

مقدمة (١٤٥) ، التقسيم الى مراحل (١٤٦) ، السنتان الأوليان (١٤٩) ،
المرحلة من سن ٢ الى سن ٥ (١٥٠) ، المرحلة من ٥ الى ١٢ (١٥١) ،
المراهقة والبلوغ (١٥٤) ، التغيرات الجنسية (١٥٥) ، التغيرات الوجدانية
(١٥٦) . التغيرات الاجتماعية والخلقية (١٥٧) ، تحرر المراهق من السلطة
ونمو فرديته (١٥٩) ، النمو العقلي (١٦٠) ، الكبار وموقعهم نحو المراهق
(١٦١) ، المراجع (١٦٢) .

البَابُ الثَّانِي

الطفل في بيئته الاجتماعية

الفصل التاسع : الطفل ووالديه . (١٦٥ — ١٨٣)

اعتماد الطفل على والديه وتحريره منه (١٦٥) . مدى تدخل الآباء في
حياة الأبناء (١٧٠) ، التدخل اللاإرادي للآباء في حياة الأبناء (١٧٢) ،
جزاءات الآباء (١٧٦) السياسة الثابتة والطاعة (١٧٩) ، الروابط بين الوالدين
(١٨١) ، المراجع (١٨٣) .

الفصل العاشر : الطفل واخوته * (١٨٥ — ٢٠٨)

مركز الطفل بين اخوته (١٨٥) ، الطفل الأول والثاني (١٨٥) ، الطفل الأخير (١٨٨) ، الطفل الوحيد (١٨٩) ، دراسة حالات (١٩٠) ، خاتمة (٢٠٧) ، المراجع (٢٠٨) .

الفصل الحادي عشر : المدرسة ومشكلات النشء . (٢٠٩ — ٢٢٨)

مقدمة (٢٠٩) ، المدرسة وعلاقتها بكل من المنزل والمجتمع (٢٠٩) ، الغاية من المدرسة وأثر الامتحانات (٢١٢) ، قيمة العمل المدرسي (٢١٥) ، طرق التعليم المتبعة (٢١٧) ، الشعور بالنجاح (٢١٩) ، الحياة الاجتماعية (٢٢٣) ، نوع المعاملة السائدة في المدرسة (٢٢٤) ، المدرسة ومشكلات النشء (٢٢٥) ، المراجع (٢٢٨) .

الفصل الثاني عشر : المعلم وعلاقته بالتلميذ (٢٢٩ — ٢٣٩)

مقدمة (٢٢٩) ، درجة شعور الطفل بالحاجة للمدرس (٢٣٠) ، درجة اغتباط المعلم بعمله (٢٣٠) ، قسوة المعلمين (٢٣٣) ، مشكلات المعلم ومشكلات المتعلم (٢٣٣) ، المعلم كقائد أو مرشد للطفل (٢٣٥) ، المراجع (٢٣٩) .

البَابُ الثَّالِثُ

مشكلات تربية النشء

الفصل الثالث عشر : المشكلات المتعلقة بالتغذية (٢٤٣ — ٢٦٤)

مقدمة عامة (٢٤٣) ، حالات (٢٤٥) ، أنواع المشكلات وطرق تحديدها (٢٤٩) ، كيف تدرس مشكلات التغذية (٢٥١) ، البطء في تناول الطعام (٢٥٤) ، موقف الآباء وما يترتب عليه (٢٥٤) ، الشره (٢٥٨) ، القيء (٢٥٩) ، خاتمة (٢٦٠) ، المراجع (٢٦٤) .

الفصل الرابع عشر: المشكلات المتعلقة بالنوم (٢٦٥ - ٢٧٧)

مقدمة (٢٦٥) ، الحاجة الى النوم عند الأطفال (٢٦٦) ، نظام النوم (٢٦٨) ، بعض المشكلات العادية (٢٧١) ، التقلب والمشى والكلام في أثناء النوم (٢٧٥) ، المراجع (٢٧٧) .

الفصل الخامس عشر: التبول اللاارادى (٢٧٩ - ٢٩٧)

مقدمة (٢٧٩) ، الأسباب الجسمانية وعلاجها (٢٨٠) ، الأسباب النفسية (٢٨٢) ، مصاحبات التبول (٢٨٧) ، العلاج والوقاية (٢٨٩) ، التبول في أثناء اليقظة (٢٩٢) ، خاتمة (٢٩٥) ، المراجع (٢٩٧) .

الفصل السادس عشر: الحركات العصبية: مص الأصابع ، وقرض الأظافر (٢٩٩ - ٣١٣)

مقدمة (٢٩٩) ، العصبية العامة وانعدام الاستقرار (٣٠٠) ، مص الأصابع (٣٠٤) قرض الأظافر (٣٠٨) ، اللزمات العصبية (٣٠٨) ، خاتمة (٣١١) ، المراجع (٣١٣) .

الفصل السابع عشر: صعوبات النطق ٣١٥ - ٣٣٣

مقدمة (٣١٥) ، بعض الحالات (٣١٧) ، التشخيص والعلاج (٣٢٣) ، عوامل ظهور صعوبات النطق (٣٢٥) ، مصاحبات التتهمة (٣٢٦) ، المدرسة والتتهمة (٣٢٨) ، علاج التتهمة (٣٢٩) ، خاتمة (٣٣١) ، المراجع (٣٣٣) .

الفصل الثامن عشر: الخوف وضعف الثقة بالنفس (٣٣٥ - ٣٦٠)

الخوف العادى والشاذ (٣٣٥) ، أنواع المخاوف (٣٣٧) ، مخاوف الأطفال ومصادر تكوينها (٣٣٨) ، الخوف من الموت (٣٤٤) ، الخوف من الظلام (٣٤٥) ، القلق والخوف العام (٣٤٦) ، واجب الآباء ازاء مواقف

الخوف (٣٤٧) ، ضعف الثقة بالنفس (٣٤٨) ، الثقة عند الطفل الصغير (٣٤٩) ، بعض العوامل الطبيعية للشعور بالنقص (٣٥٠) ، التصور الجسماني العقلي (٣٥١) ، أثر الموازنات (٣٥٢) ، اعتماد الطفل على نفسه وعلى غيره (٣٥٤) ، السلطة الوالدية (٣٥٥) ، العلاقات بين الوالدين (٣٥٦) ، التربية والروح الاستقلالية (٣٥٧) ، مظاهر ضعف الثقة بالنفس (٣٥٨) ، خاتمة (٣٥٩) المراجع (٣٦٠) .

الفصل التاسع عشر : الكذب : (٣٦١ — ٣٧٧)

الكذب (٣٦١) ، الاستعداد للكذب (٣٦٢) ، الكذب الخيالي (٣٦٣) ، الكذب الالتباسي (٣٦٤) ، الكذب الادعائي (٣٦٥) ، الكذب الغرضي (٣٦٦) ، الكذب الانتقامي (٣٦٧) ، الكذب الدفاعي (٣٦٧) ، كذب التقليد (٣٧٠) ، الكذب العنادي (٣٧٠) ، الكذب المرضي أو المزمن (٣٧٠) ، بعض القواعد العامة (٣٧٢) ، العوامل المدرسية التي تشجع على الكذب (٣٧٥) ، خلاصة (٣٧٦) ، المراجع (٣٧٧) .

الفصل العشرون : السرقة : (٣٧٩ — ٣٩٣)

حالة في السرقة (٣٧٩) ، حالة أخرى في السرقة (٣٨١) ، السرقة والاستعداد لها (٣٨٢) ، الشعور بالملكية وانماؤه (٣٨٣) ، الدوافع للسرقة (٣٨٦) ، دراسة حالات السرقة (٣٩٠) ، بعض القواعد العامة (٣٩٢) ، المراجع (٣٩٣) .

الفصل الحادي والعشرون : الميل للاعتداء والتشاجر ونوبات الغضب : (٣٩٥ — ٤١٣)

مقدمة (٣٩٥) ، دراسة حالات (٣٩٨) ، حالة في نوبات غضب لطفل في سن الخامسة (٤٠١) ، حالة غضب ومعاودة لتلميذ في السادسة عشرة (٤٠٤) ، (ك)

أسباب الغضب في الحالات الشاذة (٤٠٣) ، مشاجرات الأخوة (٤٠٧) ، بحث حالات الغضب والتشاجر (٤٠٩) ، بعض القواعد العامة (٤١١) ، خاتمة (٤١٢) ، المراجع (٤١٣) .

الفصل الثاني والعشرون : التخريب (٤١٥-٤٢٧)

ميل الأطفال الى الفحص والتخريب والحركة (٤١٥) ، بعض الظروف التي تعارض ميل الطفل الى اللعب (٤١٩) ، عوامل التخريب (٤٢٠) ، التدمير وعقاب الذات (٤٢٤) ، خاتمة (٤٢٥) ، المراجع (٤٢٧) .

الفصل الثالث والعشرون : الغيرة (٤٢٩-٤٤٣)

معنى الغيرة (٤٢٩) ، الغيرة والثقة (٤٣١) ، كيف تنشأ الغيرة (٤٣١) ، بعض الحالات (٤٣٣) ، الغيرة عند الطفل الوحيد (٤٣٦) ، الغيرة من المولود (٤٣٧) ، الغيرة بسبب الموازنة (٤٣٨) ، خاتمة (٤٤٠) ، المراجع (٤٤٣) .

الفصل الرابع والعشرون : التأخر الدراسي (٤٤٥-٤٦٢)

مقدمة (٤٤٥) ، تحديد معنى التأخر الدراسي (٤٤٦) ، بعض الحالات في التأخر الدراسي (٤٤٩) ، العلاقة بين التأخر الدراسي والتأخر العقلي (٤٥٦) ، طريقة بحث حالات التأخر الدراسي (٤٥٧) ، مصاحبات التأخر الدراسي (٤٥٩) ، المراجع (٤٦٢) .

الفصل الخامس والعشرون : المشكلات الجنسية (٤٦٣-٤٧٨)

أنواع المشكلات الجنسية (٤٦٣) ، الناحية الجنسية في مراحل النمو المختلفة (٤٦٤) ، بعض الحالات (٤٦٦) ، الاستمناء (٤٧٢) ، تلخيص المشكلات الجنسية وأسبابها (٤٧٦) ، المراجع (٤٧٨) .

الفصل السادس والعشرون : التربية الجنسية (٤٧٩ — ٥٠٥)

مقدمة (٤٧٩) ، موقف الطفل من المسائل الجنسية (٤٨١) : موقف الآباء من الأطفال في المسائل الجنسية (٤٨٥) ، التربية الجنسية للآباء (٤٨٥) ، قواعد عامة للتربية الجنسية (٤٨٧) ، بعض المحاولات في التربية الجنسية (٤٩٠) ، التربية المختلطة (٤٩٤) ، تجارب في التعليم الجنسي بالمدارس (٤٩٩) ، المراجع (٥٠٥) .

ثبت بالمصطلحات : ٥٠٧ — ٥١٦

للمؤلف (مؤلفات) أخرى : ٥١٧

الباب الأول

القرأءة العامة لعلم الصحة النفسية

- الفصل الأول : معنى الصحة النفسية •
- الفصل الثاني : الوراثة والبيئة •
- الفصل الثالث : الجسم والعقل وأثر كل منهما في الآخر •
- الفصل الرابع : الغرائز والحاجات •
- الفصل الخامس : تكامل الشخصية « العواطف والخلق » •
- الفصل السادس : انحلال الشخصية « اللاشعور » •
- الفصل السابع : العمليات العقلية اللاشعورية •
- الفصل الثامن : مراحل نمو الفرد •

الفصل الأول

معنى الصحة النفسية

تعريف الصحة النفسية :

تخطر ببالنا فكرة الصحة النفسية ، عندما يقف الواحد منا أمام مشكلة بارزة من مشكلات السلوك • فإذا لاحظنا أن شخصا ما ، لا يصدر عنه السلوك الملائم في أثناء تعامله مع ما يحيط به من الأشخاص والكائنات ، فالتأنا نلاحظ أن هذا السلوك غير الملائم يكون غالبا مصدرا لمشكلات وصعوبات . وسلوك الفرد في أثناء تعامله مع ما يحيط به من الأشخاص والكائنات لا يخرج عن كونه نوعا مما يسميه علماء الحياة « تكيف الكائن الحي للبيئة المحيطة به » • ومعروف أن الكائنات الحية بمختلف صنفاتها تتفاعل مع البيئة ، وتتكيف لظروفها تكيفا غاية ضمان الحياة واستمرار النمو وبقاء النوع • كذلك الإنسان عندما يتعامل مع بيئته المادية والاجتماعية ، فالتأنا نجده يفصح عن سلوك لا يخرج عن كونه نوعا من أنواع التكيف للبيئة • وهذا النوع من التكيف يمكن تسميته « التكيف النفسي » • فان كان هناك شخص لا يكيف نفسه التكيف النفسي المناسب لبيئته المادية والاجتماعية ، قلنا عادة اننا نشك في صحة حالته النفسية • ومن أمثلة التكيف النفسي المناسب خوف الإنسان من موقف يضر حياته ، كوقوعه أمام حيوان مفترس • والتكيف النفسي في هذه الحالة هو أن يسلك الإنسان طريقة تمنع الخطر عنه ، فيهرب مثلا من الحيوان ولكن اذا ظهر خوف الإنسان البالغ من حيوان عادي نألفه كقط أو أرنب — أو ما شابه ذلك — اعتبرنا مظاهر الخوف تكيفا نفسيا غير مناسب • ونعتبر عادة — كما قلنا — أن حالات التكيف المناسب دالة

بوجه عام على الصحة النفسية ، وأما حالات التكيف غير المناسب ، فانهما
تفصح عن انحراف في الصحة النفسية •

ومن المفيد أن نقيم بعض الموازنة بين الصحة النفسية والصحة الجسمية
- من حيث مناهج كل منهما - حتى نفهم الأولى على ضوء الثانية •
فالصحة الجسمية نصل اليها بمناهج ثلاثة : أولها المنهج العلاجي (Remedial)
وهو ما يتبعه الفرد العادى للتخلص من مرض أو انحراف • وثانيها المنهج
الوقائى (Preventive) وهو ما يتبعه الفرد عادة لكى يتجنب الاصابة بمرض ما •
وثالثها المنهج الانشائى أو الايجابى (Positive or Constructive) ، وهو
ما يتبعه الفرد العادى حتى تقوى صحته ، ويزيد نشاطه ، ويتمتع بالشعور
بالقوة الحيوية • وهذه المناهج الثلاثة ليست منفصلة تماما عن بعضها ؛
ولكنها متداخلة تداخلا كبيرا •

كذلك الصحة النفسية لها ثلاثة مناهج كالسابقة تماما • فهناك المنهج
العلاجى ، وهو ما يتبع لعلاج الفرد من الانحراف فى الصحة العقلية حتى
يعود الى حالة الاعتدال ولدينا المنهج الوقائى ، وهو الطريق الذى يسلكه
الفرد مع نفسه ومع غيره حتى يقى نفسه وغيره الوقوع فى حالة اضطراب
نفسى • وهناك المنهج الانشائى ، وهو ما يحتذيه المرء ليزيد شعوره بالسعادة ،
وليزيد كفاءته الى أقصى حد مستطاع • ومن أمثله ما يقوم به بعض الناس
من محاولات لتقوية الذاكرة ، أو الخيال ، أو الارادة ، أو الشخصية • وهذه
المحاولات سواء آكانت صحيحة أم غير صحيحة من حيث الأساس العلمى
الذى تستند عليه الا أنها موجودة للغرض الانشائى • ويقابلها فى الناحية
الجسمية ما أشرنا اليه من محاولات زيادة الحيوية والقوة عن طريق التغذية
والرياضة والتمرينات الموضوعة خصيصا لذلك •

وعلى ضوء ما تقدم يمكن فهم معنى الصحة النفسية فهما تقريبا •
ولزيادة الايضاح نعود مرة أخرى الى الصحة الجسمية فنعرّفها بالتعريف الآتى :
الصحة الجسمية هى التوافق التام بين الوظائف الجسمية المختلفة ،

مع القدرة على مواجهة الصعوبات العادية المحيطة بالإنسان ، ومع الاحساس
الاجابى بالنشاط والقوة والحيوية •

ونقصد بالتوافق أن تكون الوظائف الجسمية متعاونة تعاوناً تاماً لصالح
الجسم كله ، فلا يجوز فى الحالة الصحية ، أن يقوم عضو من الجسم بنشاط
أكبر أو أقل مما يتطلبه الجسم كله ، والا نشأت حالة مرضية ، تختلف فى
شدتها ، ومدة بقائها باختلاف نوعها وظروفها ، فإذا زاد أو قل نشاط غدة
من الغدد عما يتطلبه الجسم كله كوحدة أدى ذلك الى حالة مرضية ، فزيادة
نشاط الغدة الدرقية مثلاً عما يستدعيه الاتزان الكلى لمجموع نشاط الغدد
يترتب عليها عادة الحالة المعروفة باسم (Exophthalmic Goitre) وانخفاض
نشاط الغدة الدرقية عن الحد الذى يتطلبه اتزان مجموع نشاط
الغدد ينتج عنه حالة (Myoedema) كذلك قد تستقل فى النمو مجموعة من
خلايا الجسم — لسبب ما — عن بقية الأنسجة المحيطة بها ، فتتحول الى خلايا
خبيثة ، لا تقوم بوظيفة ما فى الجسم سوى الدمار للخلايا الطبيعية ، وتسحب
عندئذ كثيراً من نشاط الجسم وغذائه لحسابها الخاص ، وهذه هى الحالة
المعروفة بالسرطان^(١) • من هذا كله يتضح المقصود بالتوافق ، وهو أن
تعمل أجزاء الجسم متعاونة لصالح الجسم كله •

وإذا عدنا الى التعريف الذى نحن بصدده ، نجد أنه ينص على قدرة
الجسم على مواجهة الصعوبات العادية التى تحيط بالإنسان ، فيجب أن يكون
بحيث يقاوم التغيرات المألوفة فى درجة حرارة الجو مثلاً ، وأن يكيف نفسه
لتغيرات فى التغذية ، ومواعيدها وألوانها ، بحيث تقع هذه التغيرات فى حدود
معينة • وأساليب التكيف الجسمى لهذه التغيرات كثيرة ومعروفة ، منها :
ارتفاع درجة الحرارة ، واسراع القلب فى أداء عمله • وهجوم الكرات البيضاء
أحياناً على نقطة الإصابة ، وغير ذلك • وهناك حالات تكون فيها التغيرات
الطارئة أقوى مما يمكن أن يقاومه الجسم ، مهما تضافرت قواه فى هذا
الاتجاه • وهنا يصل الى حالة اعتلال أو وفاة •

(١) راجع هذه النقطة ووافق على ما جاء بها الدكتور ابراهيم أبو سنة
الاختصاصى فى علم العلاج بالأشعة بكلية الطب بالعباسية •

وواقع الأمر أن الجزأين السابقين من التعريف ، وهما : التوافق والقدرة على مواجهة الصعوبات ليسا منفصلين ، وإنما هما جزء واحد . فالتوافق بين وظائف الجسم المختلفة هو التعاون بين أعضائه ، لتساعد هذه الأعضاء الجسم على الحياة في البيئة الطبيعية ، وعلى مواجهة الصعوبات الناشئة من التغيرات الواقعة في حدود معينة .

أما الجزء الأخير من التعريف وهو الاحساس الإيجابي بالنشاط والقوة والحيوية فهو واضح لا يحتاج إلى شرح . وله وظيفة ترتبط بالجزأين السابقين ، فوجود هذا الاحساس يدل الفرد على تمتعه بالتوافق ، وغياب هذا الاحساس يدل على حاجته إلى القيام بإعادة هذا التوافق .

• وان صح القياس بين الحياتين الجسمية والنفسية ، أمكن — قياساً على ما تقدم — أن نعرف الصحة النفسية بالتعريف نفسه الذي قدمناه للصحة الجسمية مع ابدال كلمة « النفسية » بكلمة « الجسمية » . وعلى هذا تكون الصحة النفسية هي التوافق التام أو التكامل^(١) بين الوظائف النفسية المختلفة ، مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية العادية التي تطرأ عادة على الإنسان ، ومع الاحساس الإيجابي بالسعادة والكفاية .

ومعنى التوافق التام بين الوظائف النفسية المختلفة هو خلو المرء من النزاع الداخلي كوقوعه بين اتجاهين مختلفين ، كأن يتردد بين تحقيق كرامته في نظر نفسه ، واشباع جوعه عن طريق السرقة . أو كما يحدث في موقف يتنازع إرادة الشخص فيه أمران : تضحية بنفسه وأولاده لانتقاد الوطن ، أو تضحية بالوطن لانتقاد نفسه وأولاده . هذه حالات واضحة يبدو فيها النزاع الداخلي النفسى . والواجب أن يكون المرء بحيث لا يقع في نزاع نفسى ، أى أن يكون قادراً على الجسم في مشكلاته بناء على فكرة أو فلسفة

(١) تستعمل أحيانا كلمة تكامل Integration ويلاحظ أن هذه الكلمة مشتقة من Integer ومعناها العدد الصحيح أو الكمية الكاملة ، ولهذا نعتبر أن كلمة تكامل كلمة مناسبة . كذلك كلمة صحة وهي مصدر الصفة المشتقة من صحيح أى غير مقسم . فالصحة فيها معنى الوحدة وعدم الانقسام سواء أكان ذلك فى صحة الأجسام أم فى غيرها .

معينة • فخلو المرء من النزاع وما يترتب عليه من توتر نفسى وتردد ، وقدرته على حسم النزاع حال وقوعه هو الشرط الأول للصحة النفسية • ويمكن الوصول اليه عن طريق فلسفة دينية أو اجتماعية أو خلقية أو غير ذلك من الاتجاهات المحدودة •

ووظيفة الحياة النفسية بمختلف عناصرها هى تكيف المرء لظروف بيئته الاجتماعية والمادية • وغايتها تحقيق حاجات الانسان ، وهى تتحقق عادة بالتعامل مع البيئة • وهذه البيئة متغيرة ، وهذا التغير يثير مشكلات يقابلها الانسان بحالات التفكير والافعال ومختلف أنواع السلوك • ولكن التغيرات التى تحدث قد تكون شديدة لدرجة خارجة عن الحد الذى يقوى عقل الفرد على مقابله والتكيف له • وهنا تنشأ الحالات المرضية •

لهذا كان لا بد من تعاون الوظائف النفسية المختلفة • ولا بد من تقويتها لمقاومة التغيرات العادية • وضرورى فوق ذلك أن يكون هناك شعور ايجابى بالسعادة والكفاية • وهذا الشعور هو فى العادة دليل الفرد على كونه فى حالة جيدة من حيث الصحة النفسية •

وهناك تعريف آخر لا يختلف فى جوهره عن التعريف السابق ، مؤداه أن الصحة النفسية هى الشرط أو مجموع الشروط اللازم توافرها حتى يتم التكيف بين المرء نفسه وكذلك بينه وبين العالم الخارجى ، تكيفا يؤدى الى أقصى ما يمكن من الكفاية والسعادة لكل من الفرد والمجتمع الذى ينتمى اليه هذا الفرد •

وهذا التعريف لا يختلف — كما قلنا — فى جوهره عن التعريف السابق ، غير أنه يؤكد فكرة العلاقة بين الفرد وبيئته توكيدا أشد مما فى التعريف السابق • وهو فوق ذلك يتضمن ضرورة إيقاظ القدرات العقلية الطبيعية عند الانسان ، واستغلالها الى أقصى حد مستطاع يؤدى الى سعادة الفرد وسعادة غيره • وبهذا نصل الى تطابق تام بين الغايات النهائية للتربية وغايات الصحة العقلية •

يتبين من كل ما تقدم أن الصحة النفسية ليست مجرد الخلو من المرض ،

لأننا نلاحظ أن مجرد الخلو من المرض لا يحتم قدرة المرء على مواجهة الأزمات العادية • ولا يتبعه الشعور الإيجابي بالسعادة • ولا يمكننا كذلك أن نعتبر أن الصحة النفسية هي ما تترتب عليه الكفاية والسعادة الفردية • فالنتائج الفردية — إذا كانت هي الغاية الوحيدة — لابد أن تصطدم مع رغبات الآخرين اصطداما قد ينقصها أو يقضى عليها ، إلا إذا اعتبرنا أن شرط الكفاية والسعادة الاجتماعية داخل ضمانا لتحقيق النتائج الفردية • ومعنى هذا أن مراعاة التعامل الاجتماعي واجبة بحيث تؤدي مع تحقيقها الأهداف الاجتماعية الى ضمان تحقيق الأهداف الفردية في الوقت نفسه • كذلك لا يمكن أن نعتبر أن الصحة النفسية هي مجرد العمل لسعادة المجتمع ، لأن هذا بدوره لا يحتم سعادة الفرد وكفايته • إلا إذا اعتبرنا أن النقص في سعادة الأفراد وكفايتهم يترتب عليه حتما نقص في السعادة والكفاية الاجتماعيتين •

ويعترض على فكرة السعادة والكفاية الاجتماعيتين ، والتكليف بين المرء والمجتمع بأن المجتمع نفسه ليس — دائما — مجتمعا صالحا • فالتكليف الصحيح للمجتمع كثيرا ما يتطلب في الوقت نفسه اعلاء للمجتمع ذاته أي أنه يتطلب ألا يقوم الأفراد بمجرد التلبية للمجتمع كما هو ، وإنما يحاولون أن يقوموا بأنصبتهم في أحداث تغيير في المجتمع ، ينقله الى حالة أحسن مما هو فيها • وبهذا يمكن الوثوق من أن كلا من الأفراد والمجتمع يعمل على رقي نفسه ورقي الآخر رقيا مستمرا مطردا •

لهذا كله لا يمكن أن نعتبر أن الصحة النفسية هي الحالة التي تمكن الفرد من تقدير سلوكه وسلوك غيره على نفس المستوى الذي يقدره عليه بقية المجتمع لأن معنى هذا كما قلنا أن موقفنا ازاء المجتمع سيصير موقفا سلبيا جامدا محافظا لا موقفا ايجابيا مجددا مطردا التقدم •

الشذوذ والصحة النفسية :

يعتقد بعض الناس أن الشذوذ واختلال الصحة النفسية أمر واحد ، ولكن اذا علمنا أن الشذوذ هو الخروج عن المألوف ، كان هناك تفريق

بين الشخص العادى أو المتوسط ، والشخص الصحيح العقل • لنأخذ مثالا من الناحية الجسمية ؛ فالشخص قد يكون عاديا فى طول قامته ، وقد يكون شاذا من حيث قصره أو طوله • وكذلك يكون عاديا فى لون بشرته أو شاذا بسبب شدة بياضه أو شدة سواده ؛ ولكن هذه الأنواع من الشذوذ ليس معناها المرض • كذلك فى الناحية النفسية قد يكون الشخص عاديا فى ذكائه ، وقد يكون شاذا عن العادى فى فرط ذكائه أو فرط غبائه • وهذه الأنواع من الشذوذ العقلى ليس معناها المرض أيضا •

لهذا لا نعترف أن الشذوذ مرادف لاختلال الصحة النفسية أو الجسمية • ولكن يلاحظ أن الشذوذ فى التكوين الجسمى أو التكوين العقلى يعرض صاحبه لصعوبة احداث التكيف بينه وبين المجتمع • فالشخص العبقري والشخص الضعيف العقل (القليل الذكاء) لكل منهما صعوباته فى التكيف • ولهذا يخلط الناس عادة بين العبقريه وما يصاحبها من نتائج ثانوية ، وضعف العقل وما يتسبب عنه بطريق غير مباشر •

ولكن اذا أخذنا الوظائف النفسية المختلفة يمكن أن نتخذ الشذوذ فيها دليلا مبدئيا لفرض احتمال اعتلال الصحة النفسية ، على شرط ألا تقبل هذا الفرض الا بناء على ما نجره بعد ذلك من ملاحظات ودراسات ؛ فاذا أخذنا الغضب مثلا ، فانتا نعلم أن كل شخص لابد أن يغضب فى بعض الظروف • وأما الذى لا يغضب اطلاقا أو الذى يغضب لأتفه الأسباب ، فانه لا شك شاذ • ومن الجائز أن يكون عنده بعض الانحراف — القليل أو الكثير — فى الصحة النفسية • كذلك اذا أخذنا الشك ؛ فمعروف أن كل شخص عادى تثور شكوكه فى مناسبات معينة ، ولكن الذى لا يستثار عنده الشك بحال من الأحوال ، أو الذى يقضى حياته معذبا بالشك دائما ، فانه أيضا شاذ ، ويغلب كذلك أن يكون به بعض الاضطراب من ناحية الصحة النفسية • وهكذا اذا أخذنا مظاهر الحياة العقلية كلها ، من خوف ، وتدين ، ووحدة ، وكلام ، وميل جنسى ، وضحك ، ونوم ، وأكل ، وميل للظهور ، واتجاه للتملك ، وميل للفرح ، وشغف بالراحة ، وغير ذلك ، وجدنا أن

لكل منها مظهرا عاديا ، ولها في الوقت نفسه مظاهر شاذة ، يمكن أن تتخذ دليلا مبدئيا يرجح لدرجة ما وجود اختلال في الصحة النفسية .

ولكن المقياس العلمى للصحة النفسية هو — كما قلنا — التوافق الداخلى المصحوب بحسن التكيف مع البيئة ، بحيث يؤدي الى أقصى درجة ممكنة من الكفاية والسعادة . ولا بد لنا أن نستدرك أنه ولو أن الشذوذ ليس مرادفا لاختلال الصحة النفسية بدرجاته المختلفة ، الا أن العكس ليس صحيحا . فالانحراف في الصحة النفسية شذوذ . وعلى ذلك فالفرد قد يشذ عن العادى — أو ينحرف — بالنسبة لنفسه ، أى بالنسبة لما ينتظر منه ، وأحيانا ينحرف أيضا عن العادى بالنسبة لغيره من الناس .

نسبية الصحة النفسية :

وإذا أخذنا الصحة النفسية واختلالها وجدنا أن الأمر فيها نسبي كما هو في الشذوذ فكما أنه لا يوجد حد فاصل بين الشاذ والعادى ، كذلك لا يوجد حد فاصل بين الصحة النفسية والمرض النفسى . والصحة النفسية شبيهة في ذلك بالصحة الجسمية ، فالتوافق التام بين الوظائف الجسمية المختلفة لا يكاد يكون له وجود . ولكن درجة اختلال هذا التوافق هي التى تبرز حالة المرض عن حالة الصحة . كذلك التوافق التام بين الوظائف النفسية المختلفة — عند فرد ما — أمر يكاد لا يكون له وجود . ودرجة اختلال التوافق هي التى تميز حالة الصحة عن غيرها .

ومن أركان الصحة النفسية التى أثبتناها — الى جانب انعدام النزاع الداخلى — نجاح التكيف مع البيئة ، ونجاح التكيف هذا أمر نسبي كذلك . فليس هناك حد فاصل ندرك عنده الفرق بين حالتى تحقق التكيف مع البيئة ، وانعدام تحققه .

ونلاحظ أن التكيف مع البيئة نسبي من ناحية أخرى ، وهى الناحية المتوقعة على النمو . فالطفل الصغير يعتبر في حالة صحية عادية ، اذا رضع ثدى أمه حتى سن الثانية من ولادته ، ولكنه لا يعتبر كذلك اذا استمر يرضع الى سن السادسة . كذلك الأنانية تعتبر حالة عادية من حيث الصحة

النفسية في السنوات الخمس الأولى ، ولكنها لا تعتبر كذلك في دور المراهقة • كذلك الميل الجنسي الناضج يعتبر عاديا بعد المراهقة ، وغير عادى اذا ظهر في الطفولة وهكذا ...

ميدان الصحة النفسية :

سبق أن أشرنا الى أن علم الصحة النفسية يبحث في تكوين الأفراد ، وفي علاجهم وفي وقايتهم من العيوب السلوكية أو النفسية في مراحل نموهم المختلفة • لهذا يتحتم علينا لدراسة هذا العلم أن ندرس الفرد في أسرته ، وفي أثناء تعلمه بالمدرسة ، وفي أثناء اضطلاع به عمله في الحياة ، وكذلك ندرسه من حيث علاقاته بالمجتمع • وعلينا أن ندرس في كل هذا مجموعة القوى التى تؤثر فيه وتبين الحال التى يجب أن تكون عليها هذه القوى بحيث ينمو على أحسن نمط ممكن •

ولكن من الأمور الثابتة ، أن هذا النوع من الدراسة ، يكون أقرب منالا اذا قمنا به عن طريق فحص مشكلات السلوك في مراحل النمو المختلفة ، لأن درس هذه المشكلات يجعلنا نصل الى كيفية ظهورها ، وأساليب معالجتها ، وطرق تجنب وقوعها وهذا بدوره يهديننا الى درس العوامل المختلفة التى تؤثر عادة في سلوك الفرد ، ومعرفة الطرق التى يعمل بها ، واستنباط أمثل الوسائل لضبط هذه العوامل وتوجيهها لصالحه وخيره •

المراجع

- Bannister : Psychology and Health.
Burham : The Wholesome Personality.
Burham: The Normal Mind. Ch. II.
Groves & Blanchard : Introduction to Mental Hygiene.
B. Hart : Psychology of Insanity.
Home and School Council of Great Britain:
 Advances in Understanding the Child. Ch. I.
Howard : Mental Health.
Kirkpatrick : Mental Hygiene and Effective Living. Chapters I & II.
Ragsdale : Modern Psychology and Education. Ch XVI.
Rees : The Health of the Mind. Ch. I.
Shaffer : Psychology of Adjustment. Ch. XV.
Wallin : Personality Maladjustment.
White House Conference : The Handicapped Child, p. 261.

الفصل الثاني

الوراثة والبيئة

مقدمة:

عندما تعرض لنا مشكلة من مشكلات السلوك نجد أن كثيرا من الأفراد عندهم استعداد لتفسير المشكلة على أساس بسيط . فإذا ظهر على طفل سرعة الغضب ، أو ظهر عنده ميل الى الكذب ، أو السرقة ، أو التخريب ، أو غير ذلك ، واتصلنا في الوقت نفسه بشخص له بالطفل صلة وثيقة ، كوالده ، أو معلمه مثلا ، نجد أن هناك اتجاها لتقديم تفسير بسيط لسبب الحالة ، ففي بعض الحالات يقدم سبب جسماني ، كالجوع أو البرد العادي ، أو اختلال في افراز بعض الغدد . وفي البعض الآخر يقدم تفسير مبنى على الفكرة العلمية عن الوراثة ، فيقال ان الولد قد أخذ الغضب أو السرقة بالوراثة عن أبيه ، أو أمه ، أو جده ، أو غير ذلك . ونلاحظ عادة أن الذي يقدم رأيه في الحالة — ان كان ينسب ما بها من شذوذ الى أصل وراثي — فانه ينسبه عادة الى الأصل البعيد عنه . ففي إحدى الحالات تقول الأم ان نوبات الغضب عند الابن راجعة الى أن الأب عصبى . وأما الأب فانه يقول : ان ابنه عاق ، ويميل الى معاشره الأشرار ، لأن أحوال الولد كذلك . وانه يخشى اليوم الذي يرى فيه ابنه قد تطور . ووصل الى ما عليه أحواله الآن من سكر وسرقة ومقامرة وغير ذلك .

ولمثل هذه التفسيرات البسيطة خطرهما في موقفنا ازاء الحالة ، فقيام الشخص المسئول — معلما كان أو والدا أو غير ذلك — بنسبة الشذوذ أو السلوك المشكل الى أصل وراثي دون الاستناد في ذلك الى الدراسة العلمية الكافية معناه أن يقوم الشخص المسئول عن رعاية الحالة بإبعاد

التبعة عن نفسه • وقد يتضمن كذلك أنه يعتبر الشذوذ أمرا حتميا يجب الاستسلام له ، ولا تجدى محاولة علاجه بحال من الأحوال •

الآراء المختلفة في الوراثة والبيئة :

نرى مما تقدم أنه لا بد لنا من أن نتكمن من تقدير الأثر النسبي للوراثة والبيئة ، حتى يمكننا أن نضع خطة لمعالجة الحالات ، وتربية الأطفال على أساس دقيق • ولكن يلاحظ أن معلوماتنا عن الجزء المتعلق بتوارث الصفات الجسمية والخصائص الفسيولوجية قد تقدمت بدرجة محسوسة ، لأن الباحثين قد قطعوا أشواطا بعيدة في جمع الحقائق المتعلقة بها • ولأنهم لم يختلفوا كثيرا في جوهر تفسيراتهم لها • أما الناحية التي تهمننا — أكثر من هذه — وهي المرتبطة بالحياة العقلية ، بما فيها من عادات ، وخلق • وصفات شخصية ومستوى ثقافى ، ومهارة عقلية ، وكفاية اجتماعية ، وغير ذلك ، فما زال فيها بعض الخلاف • ولعل هذا يرجع الى شدة مرونة الصفات العقلية ، وقابليتها للتأثر بالعوامل المحيطة ، والى تعدد العوامل التي تؤثر فيها ، وصعوبة تحديد هذه العوامل ، وصعوبة بيان الوزن الذي يمكن أن ينسب لكل عامل على حدة •

فعلماء الوراثة أمثال جولتون (Galton) وبيرسون (K. Pearson) يؤكدون أهمية الوراثة • وأما المصلحون الاجتماعيون فانهم يؤكدون عادة أهمية البيئة • وكل من الفريقين ، ولو أنه على شيء من الصواب ، الا أنه أيضا على جانب من الخطأ لا يجوز اغفاله • فلم يكن بيرسون مصيبا تماما عندما قال : « ان الناس » يرثون عن آبائهم القدرة ، والخجل ، والمشاعر ، والحالات النفسية بالطريقة نفسها التي يرثون بها الشكل ، واللون ، وطول القامة ، وغير ذلك «^(١) • كذلك « هنرى جورج » لم يصب كبدا الحقيقة عندما ذكر أن العوامل الوراثية التي يبالغ الناس الآن في أهميتها

(1) Quoted by D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child, p. 3 & 4.

لا قيمة لأثرها اذا قورن بأثر العوامل التي تؤثر في الانسان ، من هذا العالم^(١) .

ونجد أيضا في الدراسات المرتبطة بأصل الخلق مثلا خلافا كبيرا بشأن أثر كل من الوراثة والبيئة فيه . فالذين يؤكدون الأصل الوراثي للخلق فيما يسمونه بالحاسة الخلقية (Moral Sense) هم بعض فلاسفة الأخلاق ، الذين يتكلمون عن هذه الحاسة كأنها ملكة توجد في الشخص ، فتساعده على التمييز بالفطرة بين الخير والشر . ومن ممثلي هذا الرأي جون لوك (J. Locke) . لورد شافتسبري (Shaftesbury) . ولكن أثبت المحدثون من علماء النفس الذين بحثوا فكرة الملكات بصورتها القديمة خطأ هذا الرأي . ورغم هذا فما زال قليل من الفلاسفة يؤكدون فكرة « الضمير الخلقى » الموجودة بالفطرة ، وجعلوا هذه الفكرة محورا لنظرياتهم في علم الأخلاق . وقد أثرت فكرة « الحاسة الخلقية » و « الضمير الخلقى » في بعض علماء الطب العقلي في إنجلترا ، أمثال مودسلي ومرسير (Maudsley & Mercier) فكثير منهم يؤكد وجود نزعات إجرامية وراثية في بعض الأفراد ، وقد تكلموا أحيانا عن بعض هذه النزعات الإجرامية باسم النقص الخلقى (Moral Defect) . وظل هذا الاصطلاح يكتسب قوة الى أن احتل مكانا بارزا في صلب القانون الانجليزي^(٢) . وهذا على الرغم من قيام علماء النفس ببيان ما فيه من خطأ .

يتبين من هذا كله مدى الخلاف الموجود في قيمة كل من العوامل الوراثية والعوامل البيئية من حيث أثرها في السلوك .

المقصود بالوراثة والبيئة :

المقصود بالبيئة : جميع العوامل الخارجية التي تؤثر في الشخص من بدء نموه ، ، والمقصود بالوراثة : جميع العوامل الموجودة في الكائن الحي

(1) Quoted by D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child, p. 3 & 4.

(2) C. Burt : The Young Delinquent, Chapter II.

من اللحظة التي تتم فيها عملية تلقيح الخلية الأنثى بالخلية الذكرية • وقد أثبت علماء الحياة أن بالخلية خيوطا في شكل العصى اسمها الصبغيات أو الكروموسومات (Chromosomes) ، وأن هذه الخيوط يمكن تقسيمها الى مناطق متعددة ، وافترضوا على ضوء الحقائق العلمية أن على كل منطقة منها ما يسمى بالجينات (Genes) • وأثبت علماء الوراثة أن هذه الجينات هي حوامل الاستعدادات الوراثية • فالخلية الناتجة بعد التلقيح تحمل كروموسومات جينات بعضها من ناحية الأم ، وجينات بعضها من ناحية الأب • ثم تبدأ الخلية تتكاثر مكونة الجنين • ولأجل أن تتكاثر الخلية وتنمو ، وتبدو فيها مظاهر الحياة ، لا بد لها من بيئة • والبيئة في حالة الطفل الآدمي هي الموجودة في داخل الرحم ، بما فيها من حرارة ، ورطوبة ، ووقاية ، وتغذية وغير ذلك • ولولا هذه البيئة واستيفاء شروط معينة متعددة. فيها لما تمت عملية النمو • فكأن عوامل البيئة من الخارج وعوامل الوراثة من داخل الكائن الحي تعمل كلها معا منذ اللحظة الأولى في الحياة • ويستمر الكائن الحي ينمو ويتأثر بالظروف المحيطة به ، ثم يخرج من الرحم الى العالم الذي يعيش فيه • وهنا أيضا ينمو في نواحيه المختلفة نموا يتأثر بآلاف الظروف التي تحيط به • ويمكن أن يقال ان الفروق بين الأفراد ترجع الى مجموعتين من العوامل : المجموعة الأولى هي الاستعدادات الوراثية الكامنة في الجينات ، والمجموعة الثانية هي مجموعة الظروف المحيطة بالفرد من تغذية ، وحرارة ، ومعاملة ، ووقاية وتعليم ... وغير ذلك • ومن المستحيل الفصل — الا نظريا — بين هذه العوامل ، بحيث يظهر أثر كل مجموعة منها قائما بذاته • فبالنسبة للحياة النباتية والحيوانية بمراتبهما المختلفة وصورهما المتعددة نرى مظاهر هذه الحياة كمحصلة نهائية لهذه العوامل مجتمعة • فمن هذا نرى أن الوراثة والبيئة يعملان جنبا الى جنب في كل مظهر من مظاهر الحياة •

لهذا كان ضروريا للوصول الى القواعد العامة لأثر العوامل الوراثية والبيئية أن نلجأ الى منهج خاص من مناهج البحث العلمي ، فنعمد الى

تسوية ظروف البيئة ما أمكن ، فتكون الفروق الناتجة بين الأفراد في مظاهر الحياة راجعة الى فروق في الوراثة • أو نعمل على تسوية العوامل الوراثية ، وبذا تكون الفروق البادية في مظاهر الحياة راجعة الى فروق بين آثار مختلف البيئات • وهذا المنهج على قدر ما يبدو فيه من بساطة الا أنه عند محاولة تطبيقه تظهر أمامه صعوبات تستنفد جهودا كبيرة من أئمة الباحثين •

وقد كان لنتائج البحوث التي أجريت على أعداد كبيرة أثرها في افارة الطريق لنا في أثناء دراسة الحالات الفردية •

بعض الأدلة على أثر الوراثة والبيئة :

(١) دراسة العظماء والموهوبين :

للاستدلال على أثر الوراثة قام جولتون (Galton) بدراسة أقارب العظماء في انجلترا ، من القضاة الى رجال السياسة ، الى رؤساء الوزارات ، الى البارزين من قادة الأدب ، والعلم ، والتصوير ، والموسيقى ، ... الى غير ذلك • وخلص من بحثه الطويل الى أن للعظماء في العادة أقارب عظماء من بين الآباء ، أو الأجداد ، أو الأبناء أو الأحفاد ، أو الأعمام ، أو ما شابه ذلك • ولكن يعاب على بحث جولتون أن عوامل البيئة وعوامل الوراثة في حالاته التي درسها تكاد تعمل بدرجة واحدة • فالعظماء وأقاربهم متشابهون في أصل السلالة ، أو يكادون يتحدثون من حيث العوامل الوراثية • وهم متشابهون أيضا في أن البيئات التي يعيشون فيها — هم وأقاربهم — تكاد تكون عادة فوق المتوسط من حيث المؤثرات الثقافية وغيرها • وبذا لا يسهل الوصول الى نتيجة حاسمة في جانب الوراثة أو في جانب البيئة •

وقد قام ترمان (Terman) حديثا بدراسة أدق من هذه لأقارب ما يزيد على الألف من الأطفال الموهوبين ، ووازن نتائجهم بمثلها على الأطفال غير الموهوبين ، ووصل الى نتائج تدعم نتائج جولتون •

(٢) دراسة المجرمين وضامف العقول :

ومن الدراسات الكلاسيكية في هذه الناحية دراسة أسرة الجوك (The Jukes) وأسرة الكاليكاك (The Kallikaks) أما أفراد أسرة الجوك

تُقد نشأ أجدادهم في بقعة مرتفعة مغطاة بالغابات تبعد عن نيويورك بمائتي ميل تقريباً • وقد لفت أفراد هذه الأسرة — ومن يمت إليهم بصلة القرابة — نظر الباحثين بسبب كثرة الجرائم الصادرة منهم • فقام أحد الباحثين بتتبع أفراد هذه الأسرة ، ودرس منها ٩ طبقات من الأجيال تحوى ما يقرب من ثلاثة آلاف فرد • ووجد أن نسبة الاجرام فيها ٣٤٪ ورغم كبر هذه النسبة استنتج الباحثون — ومنهم جولدتون — أن الجريمة ليست متأصلة في نفوس أفراد هذه الأسرة • ولكن ما حدث — في رأيهم — هو أن طبيعة هؤلاء الناس لم تلائمها مدنية أمريكا ، لا سيما أنهم احتفظوا بطريقة العجر في معيشتهم (Gypsy Life) بالقرب من مدينة أخرى مخالفة لأسلوب نشأتهم ، ولكن بتفريق هؤلاء الناس ، وادماجهم في المدنية الأمريكية ، وبحسن توجيههم ، زالت اتجاهاتهم الاجرامية ، مما يدعم الفكرة التي تنفى أن أصل الجرائم وراثي •

وأما أسرتا كاليكاك ، فقصتهما أن جنديا يدعى مارتن كاليكاك كان قد أنجب طفلا غير شرعى من فتاة ضعيفة العقل ، وأمكن تتبع ٨٠ فردا من ذراري هذه البنت في أجيال متعاقبة ، ووجد أن من بينهم ٦٤ شخصا فقط يمكن اعتبارهم عاديين ، وأما الباقون فينبهم حالات الصرع ، والاجرام ، والبغاء والادمان على الخمر • وضعف العقل ، • • • وغير ذلك • وبعد مدة من الزمن كان مارتن كاليكاك قد تزوج بفتاة عادية من أسرة طيبة • وأمكن تتبع ٩٦ فردا من ذراري هذه السيدة في طبقات الأجيال المتعاقبة • فكان لدينا مجموعتين من الأفراد تختلفان اختلافا واضحا في الأصل الوراثي من ناحية الأم ، وعلى ذلك يمكن موازنتهما بعضهما ببعض • وقد وجد بين أفراد المجموعة الثانية أن عدد العاديين ٩١ فردا ، نجح كثير منهم في الحياة بنجاحا ظاهرا • أما الخمسة الباقون فينبهم حالة ضعف عقلى واحدة ، وحالة استهتار جنسى ، وحالتا ادمان على الخمر ، وحالة جنون التدخين (١) •

يتبين من دراسة الأسرة الأولى والأسرتين الثانيةين أن كلا من الوراثة

(I) Goddard : The Kallikak Family.

والبيئة له وزنه الظاهر في احداث حالات الاجرام والضعف العقلى ، ولو أن علاقة الوراثة بكل من الاجرام والضعف العقلى تحتاج الى دراسة مستفيضة.

(٣) دراسة التوائم :

وقد قام الباحثون بدراسات متعددة على التوائم بحكم أنهم متحدون — عادة — في الوراثة ، ولكن النتائج التى أدى إليها البحث ، وهى شدة اتفاق التوائم فى الصفات العقلية المختلفة يعترض على الأخذ بها والتصديق بكمال صحتها ، لأن التوائم متفقون أيضا فى البيئة منذ النشأة الأولى — داخل الرحم • فأى تشابه يعزوه أحد الباحثين الى الوراثة ، يمكن أن يعزوه آخر للبيئة •

وقد فرق الباحثون فى دراستهم بين نوعين من التوائم : وهما التوائم المتحدة أى الناشئة من تلقيح بويضة أنثية واحدة ثم انقسامها الى أكثر من جنين واحد والتوائم المختلفة ، وهى الناشئة من تلقيح أكثر من بويضة أنثية واحدة • وظاهر أن التوائم المتحدة تكون متفقة تماما من حيث جيناتها (Genes) أى حملة الاستعدادات الوراثية فيها •

وقام هولزنجر (Holzinger) ^(١) بإيجاد درجة التشابه (بحساب معامل الارتباط) ^(٢) للصفات الجسمية (الطول والوزن ... الخ) ، والصفات العقلية (الذكاء والتحصيل الدراسى ... الخ) ، والصفات الخلقية (قوة الضبط والاندفاع فى تنفيذ الرغبة ... الخ) فى مجموعة التوائم المتحدة فوصل الى النتائج الآتية :

(1) K. Holzinger : The Relative Effect of Nature and Nurture Influences on Twin Differences; Journal of Educational Psychology, Vol. 20.

(٢) راجع مبادئ الاحصاء الجزء الاول للدكتور عبد المنعم ناصر الشافعى ، وقياس الذكاء للأستاذ اسماعيل القبانى بك — ص ١٨٠ .

الصفات	متوسط معامل الارتباط للتوائم المتحدة (١)	متوسط معامل الارتباط للتوائم المختلفة	الفرق
جسمية	٠.٩٤	٠.٥٨	٠.٣٦
عقلية	٠.٨٨	٠.٦٤	٠.٢٤
خلقية	٠.٤٧	٠.٤٥	٠.٠٢

وتدل هذه الأرقام على أن الفرق بين مجموعتي التوائم يرجع بعضه الى الوراثة ، وتدل كذلك على أن بعض الصفات العقلية أكثر خضوعا لآثار البيئة من الصفات الجسمية ، وأن الصفات الخلقية أكثر من كل من الجسمية والعقلية قابلية للتأثر بالبيئة .

وقد قام بعض الباحثين بالفصل بين التوائم بعد الولادة ، ووضعهم في بيئات مختلفة من حيث المعاملة ، والتعليم ، والمستوى الاقتصادي ، وغير ذلك . وجاءت النتائج كلها معززة للنتيجة السابقة : وهى ثبات التشابه الجسمى والعقلى بدرجة كبيرة وتغير نسبى فى الناحية الخلقية . ويمكن أن يقال : ان التشابه العقلى يبدو فيه الثبات بدرجة كبيرة ولكن غير تامة ، لأن كثيرا من البحوث (٢) التى أجريت فى أمريكا أثبتت أن التوائم الذى يعيش فى بيئة حسنة يتفوق قليلا فى الذكاء على زميله الذى يعيش فى بيئة رديئة . هذا قد يكون صحيحا ، وقد يرد عليه بأن تفوق الذكاء فى البيئة الطيبة قد لا يكون هو الذكاء الطبيعى ، وانما الذكاء كما تقيسه اختبارات الذكاء . وهناك فرق بين الاثنين لا مجال للتوسع فيه هنا .

الوراثة والصفات العقلية والخلقية :

ويهمنا أن نعرف ما يولد به الانسان موروثا ، وما يكتسبه من البيئة من الصفات العقلية والخلقية ، والذى نعرفه الى الآن أن الانسان يرث الذكاء

(١) لحساب معامل الارتباط نفرض أن التوائم هم (س ١ ، ص ١) ، (س ٢ ، ص ٢) ، ونفرض أن نتائج قياسهم فى صفة معينة كالطول هى (اس ١ ، ص ١) ، (اس ٢ ، ص ٢) ، (اس ١ ، ص ٢) ، (اس ٢ ، ص ١) . فى هذه الحالة نحسب معامل الارتباط بين اس ١ ، ص ١ ، اس ٢ ، ص ٢ ، وبين اس ١ ، ص ٢ ، اس ٢ ، ص ١ .

(2) F. S. Freeman. Individual Differences.

عن والديه ، ويرث كذلك ما يمكن أن نسميه المزاج أو الطبع . ويعتقد علماء النفس أن هاتين الناحيتين تخضعان لقوانين الوراثة المعروفة .
الذكاء والوراثة .

عملت عدة دراسات لمحاولة معرفة المدى الذى يورث به الذكاء ، وأول هذه المحاولات كانت محاولات جولتون التى أشرنا إليها فى دراسة النواذب ، وجودارد لدراسة أسرته كاليكاك . ولكن من أدق ما عمل فى هذه الناحية ، هو ما عنى بدراسة التوائم . وقد قام جولتون نفسه بدراسة التوائم بطريقة الاستفتاءات . ثم جاء ثورنديك^(١) وأخذ خمسين توأماً واخوتهم ، وطبق عليهم عدة مقاييس ، بعضها لصفات جسمية ، وبعضها لصفات عقلية ، وقد وضع ثورنديك مشكلته بالصورة الآتية :—

إذا كان الشبه بين التوائم يرجع للوراثة أكثر مما يرجع للبيئة فإن درجة التشابه (وتبين من معامل الارتباط) فى سن مبكرة تكون أكبر منها فى سن متأخرة ، ودرجة التشابه بين التوائم تكون أكبر منها بين الاخوة .

وإذا كان العامل المهم هو عامل البيئة فلا بد أن درجة التشابه بين التوائم فى سن متأخرة تكون أكبر منها فى سن مبكرة لطول مدة اتحادهم فى بيئة واحدة . وكذلك درجة التشابه بين الاخوة تكون مساوية لها بين التوائم . وباستعمال الاختبارات العقلية وحساب معامل الارتباط وصل الى النتائج الآتية :—

متوسط معامل الارتباط للتوائم	= ٠.٧٨
متوسط معامل الارتباط للاخوة	= ٠.٣٠
متوسط معامل الارتباط للتوائم الصغار	= ٠.٨٣
متوسط معامل الارتباط للتوائم الكبار	= ٠.٧٠

وقد أجريت عدة تجارب شبيهة بالسابقة نلخص منها نتائج التجارب التى قام بها ونجفيلد^(٢) وزملاؤه ، وقصدوا إيجاد درجة الاختلاف فى الذكاء باختلاف القرابة . ووصلوا الى النتائج الآتية :—

(1) Thorndike : Educational Psychology, Vol. III, 1014, pp. 247-251.
(2) wingfield quoted by R. Knight : Intelligence and Intelligence Testing, p. 71.

معامل الارتباط في الذكاء بين التوائم المتحدة الأصل والجنس Sex

• ٩٠ =

معامل الارتباط بين التوائم المختلفة لكنها متحدة الجنس • ٨٢ =

معامل الارتباط بين التوائم المختلفة ومختلفة الجنس • ٥٩ =

معامل الارتباط بين الاخوة • ٥٠ =

معامل الارتباط بين أبناء العم • ٢٧ =

معامل الارتباط بين من لا قرابة بينهم • • • =

تدل هذه البحوث على أن الذكاء يورث ، وأن أثر البيئة في تغييره قليل ،
بدليل أن الأخوة يعيشون معا في بيت واحد ، ولكن درجة التشابه بينهم
أقل كثيرا منها بين التوائم • وزيادة على ما تقدم فقد ثبت أن التوائم المتحدين
يتساوون الى درجة كبيرة في ذكائهم في مراحل العمر المختلفة حتى ولو غيرت
بيئاتهم تغيرا واضحا (١) •

ولبحث وراثية الذكاء درس الكثيرون العلاقة بين ذكاء الآباء وذكاء
الأبناء بأساليب مختلفة ، أهمها إيجاد العلاقة بين ذكاء الأطفال ومهن الآباء •
وقد وجد الباحثون من هذا الاتجاه الأخير أن أبناء المشتغلين بأعمال فنية
أو ادارية أذكى في مجموعهم من أبناء المشتغلين بأعمال بسيطة أو يدوية
أو آلية (٢) ، (٣) فلو رجحنا أن الآباء المشتغلين بالأعمال الفنية والادارية
يكونون في العادة أذكى من الآباء المشتغلين بأعمال آلية أمكننا أن نستنتج
أن أبناء الأذكاء يكونون غالبا أذكاء •

ووقفنا على وراثية الذكاء أمر مهم ، لأن الذكاء عامل أساسي في التكيف
بين الشخص والمحيط المادى والاجتماعى • وسنجد أن كثيرا من المشكلات
ترتبط ارتباطا مباشرا أو غير مباشر بمقدار الذكاء • فمقدرتنا على قياس

(1) Hirsch : Identical Twins Reared Apart : Readings in Psychology,
edited by Skinner p. 205.

(2) C. Burt : Mental & Scholastic Tests p. 190-192.

(٣) قياس الذكاء في المدارس الابتدائية بالقاهرة للأستاذ اسماعيل محمود
القبانى بك من ص ٨٨ - ٩٥ .

الذكاء تجعلنا قادرين على توجيه الفرد توجيهها له قيمة كبيرة في جميع المشكلات التي يكون فيها مقدار الذكاء عاملا أساسيا •

الخلق والوراثة :

وهناك عامل آخر يؤثر في سلوك الانسان وفي مقدرته على تكيف نفسه للبيئة وهو الخلق • ويلاحظ أن الخلق نفسه نتيجة لتفاعل الفرد مع بيئته ، وهو بدوره يحدد — الى درجة ما — الصورة التي يحدث بها تكيف المرء لبيئته بعد ذلك • ويمكن أن يقال : ان الخلق هو سلوك الانسان في مجموعه ، وتدخل في تحديده عوامل وراثية من أنواع مختلفة • وللخلق أساسان وراثيان مهمان غير الذكاء ، وهما الغرائز والمزاج •

فالغرائز يعتبرها البعض أمثال مكدوجل⁽¹⁾ وبرت⁽²⁾ أنها وحدات وراثية • فالانسان يرث غرائزه بدرجات متفاوتة في الشدة • لهذا نجد في بعض الأحيان تشابها بين جرائم الآباء والأبناء خصوصا في جرائم السرقة وترتبط بغيرزة التملك ، والجرائم الاعتدائية وترتبط بغيرزة المقاتلة ، والهرب وترتبط بغيرزة التجول ... الى غير ذلك •

ولكن اذا كان الانسان يرث غرائزه بقوة معينة فان توجيه الغرائز نحو الخير أو الشر مرتبط بالتعليم والبيئة • فكأن أساس الخلق وراثي ، ولكن اتجاه الخلق في الطريق المقبول أو غير المقبول متوقف على البيئة •

وأما المزاج فهو مجموع الخصائص الفسيولوجية المؤثرة في الخلق • وهذه الخصائص ناتجة من مجموع افرازات الغدد ، ومما بالدورة الدموية من خصائص ومركبات ، ومن المميزات الطبيعية للمجموع العصبي نفسه • وهذه الصفات المزاجية التي تلون خلق الانسان لها أساس جسماني تتحكم فيه الوراثة الى حد بعيد⁽³⁾ •

ويلاحظ أن الغرائز أو الصفات المزاجية تساعد في حالة التطرف على عدم

(1) Mc Dougall : An Outline of Psychology p. 104.

(2) C. Burt : The young Delinquent p. 58.

(3) Hadfield : Psychology and Morals ch. II.

حدوث التكيف السوى بسهولة بين المرء وبيئته المادية والاجتماعية • ولكن ليس معنى هذا أن التطرف في شدة الفرائز أو الصفات المزاجية يحتم حسن السلوك ، أو سوء السلوك • فهذا بالذات متوقف على التوجيه والتعليم كما أوضحنا •

صعوبات البحث في الوراثة والبيئة :

رغم ما تقدم فانه ليس من السهل — عادة — في دراسة الحالات أن ننسب السلوك الى الوراثة أو الى البيئة ، فاذا أخذنا مثلا سرعة الغضب ، أو الجبن ، أو عدم الاستقرار ، أو غير ذلك ، فانه ربما كانت الصفة الخلقية راجعة في أساسها الى صفة وراثية مزاجية • وربما كانت قد انتقلت الى الطفل من الكبار المحيطين به • فمن طريق المحاكاة غير المقصودة بأنواعها المختلفة من تأثر بالايحاء ، والمشاركة الوجدانية ، والتقليد ، تنتقل الآراء ، والانفعالات ، وأنواع السلوك ، من فرد الى فرد ، ومن الآباء بنوع خاص الى الأطفال •

كذلك معاملة الآباء للأبناء تختلف من طفل الى طفل اختلافا كبيرا ، وتبعاً لاختلاف المعاملة تتأثر شخصيات الأطفال الأخوة ، بينما يكون المعتقد أنهم جميعا عاشوا في بيئة مختلفة من حيث المعاملة •

وحتى اذا اتحدت المعاملة — ظاهريا — من جانب الأب والأم ، فان موضع الطفل في أسرته له في الطفل أثر واضح ، فكون الطفل هو الأول ، أو الثاني ، أو الأخير ، أو كونه الطفل الوحيد ، أو الذكر الوحيد ، أو الأنثى الوحيدة ، أو مجيئه بعد عدة وفيات ، أو مجيء عدة وفيات بعده ، أو سرعة تتابع الأطفال في الولادة ، أو بعد المسافة الزمنية بين طفل وآخر ، كل هذا يجعل من المستحيل اعتبار طفلين في أسرة واحدة خاضعين لظروف بيئية متفقة تمام الاتفاق •

كذلك التغير في المستوى الاقتصادي للأسرة ، والتغير في سن الولدين بالنسبة للأطفال المختلفين ، كل هذه توجد عوامل بيئية مختلفة بالنسبة للأطفال الأسرة الواحدة •

لهذا كان من الصعب الفصل بين أثر الوراثة وأثر البيئة للأسباب المتقدمة ونلخصها فيما يأتى :-

(١) تعمل البيئة منذ اللحظة الأولى التى تعمل فيها الوراثة ، ولا يمكن أن يظهر أثر الوراثة الا فى البيئة • فمظاهر الحياة فى أى لحظة هى محصلة مجموعتى عوامل الوراثة وعوامل البيئة •

(٢) عوامل المحاكاة والمعاملة تغطى آثار الوراثة ، بحيث يصبح من الصعب الفصل بين أثر الوراثة ، وأثر المعاملة والمحاكاة ، وهذان من عوامل البيئة •

(٣) البيئة بأوسع معانيها لا تتحد بالنسبة لشخصين بحال من الأحوال • فمجرد اختلاف المعاملة ، واختلاف ترتيب الولادة • وغير ذلك يجعل اتحاد البيئة بالنسبة لشخصين أمرا مستحيلا •

الوراثة والتربية :

علمنا أن الكائن الحى عنده - عن طريق الوراثة - استعدادات تظهرها وتنميتها البيئة ، وعلمنا أن أى مظهر من مظاهر الحياة ما هو الا نتيجة مجموعتين من العوامل ، وهما الوراثة والبيئة • ومن الجائز أن تكون البيئة بحيث لا يظهر فيها أثر العوامل الوراثية فى أبعد مدى ممكن لها • فاذا زرعنا نوعا جيدا من النبات فى بيئة غير ملائمة ، فإن الناتج لا يكون بالجودة المنتظرة من هذا النوع • ولكن اذا تحسنت الظروف المحيطة به فإن النتيجة تكون أحسن ، واذا هيأنا أحسن ظروف ممكنة فالتا نحصل على أحسن نتيجة يمكن الحصول عليها فى حدود نوع النبات ، أى فى حدود استعداده الوراثى • ولا يمكن مهما ارتقينا بظروف البيئة بعد ذلك أن تتعدى الحدود التى وضعتها الوراثة •

ففى حالة ولدين نسبة ذكاء^(١) أحدهما ٨٠ ونسبة ذكاء الآخر ١٢٠

(١) نسبة الذكاء هى النسبة بين العمر العقلى والعمر الزمنى مضروبة فى ١٠٠ فالشخص الذى عمره الزمنى ١٠ سنوات وعمره العقلى يساوى العمر العقلى لطفل عادى عمره ٨ سنوات يكون عمره العقلى ٨ سنوات • وبذلك تكون نسبة ذكائه ٨٠ • وأما الشخص المتوسط الذكاء أى الذى يكون عمره العقلى يساوى العمر العقلى لطفل عادى من سنه ، فإن نسبة ذكائه تكون ١٠٠ • لأن عمره العقلى يكون مساويا لعمره الزمنى •

نستطيع أن نضع الثانى فى بيئة تسمح له بأحسن نمو ممكن فى حدود ذكائه، ولا يمكن أن تتعدى هذه الحدود • ويمكن بالطبع إهمال تعليمه وإساءة معاملته ، ووضعه فى ظروف لا تسمح باستغلال كل ما عنده من ذكاء • كذلك الولد الأول يمكن توجيهه ، وإمأؤه فى حدود نسبة ذكائه المنخفضة وهى ٨٠ ، ولكن لا يمكن مهما أدخلنا من التحسينات على ظروف بيئته وعلى تعليمه أن تتعدى النتيجة التى يؤهلها لها ذكاؤه المنخفض •

من هذا نخلص الى أن البيئة المثالية للفرد هى البيئة التى تهىء للوصول الى أحسن نمو ممكن فى الحدود التى وضعتها العوامل الوراثية • فالتغذية والرياضة البدنية وما إليهما لا تخلق من الأقزام مثلاً عمالقة • والعناية التعليمية ، والدروس الخصوصية ، وجبك النظم ، لا يخلق من ضعاف العقول مثلاً عباقرة ولا عاديين • وإنما يمكن أن نهىء البيئة بعواملها المختلفة بحيث نحصل على أحسن نتيجة يمكن الحصول عليها حسب الاستعداد الوراثى •

النتيجة :

علينا إذن فى دراستنا للأفراد أن نضع نصب أعيننا الفروق الوراثية من ذكاء ، ومزاج وتكوين جسمى ، وما شابه ذلك • وعلينا كذلك أن ندرس الظروف المختلفة المتعددة التى عاشوا فيها ، وهذه الدراسة تفيدنا فى التشخيص كما تفيدنا فى التوجيه والعلاج •

المراجع

- C. Burt : The Young Delinquent. Ch. II.
Freeman : Individual Differences. Ch. III & IV.
Goddard : The Kallikak Family.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
O. Macguinnes : Environment and Heredity.
Murchison : Handbook of Social Psychology.
Murphy : Experimental Social Psychology.
Sandiford : Educational Psychology Ch. I.
E. Schuster : Eugenics.
Spearman : Abilities of Man. Ch. XXII.
Starch : Educational Psychology. Ch. VI
D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child Ch. I.
Thomson : Instinct, Intelligence and Character. II.
Thorndike : Educational Psychology. Vol. III.
Valentine : The Difficult Child.

الفصل الثالث

الجسم والعقل وأثر كل منهما في الآخر

مقدمة :

ذكرنا في بداية الفصل السابق أن الناس في غالب الأحيان عندهم ميل لأن ينسبوا حالة الشذوذ في السلوك الى سبب بسيط واحد كالوراثة ، أو الرفاق • والمرض الجسماني أو الحالة الجسمية على وجه العموم تحتل مكانا بارزا عند الناس في هذه الناحية • فحالات الخمول أو القلق أو انعدام القدرة على التركيز أو ضعف الهمة كثيرا ما تنسب — بشيء من التسرع — اما الى سوء التغذية ، أو تعاطى المكيفات ، أو الى امساك ، أو الى خراج ، أو الى غير ذلك • وهذا النوع من التفسير قد يكون له نصيب من الصحة في بعض الحالات • ولكن في البعض الآخر قد تزال جميع العوامل الجسمية المحتملة دون حدوث أى تحسن •

لهذا كان ضروريا أن ندرس ما بين الحياة الجسمانية والحياة العقلية من رابطة • وليس معنى هذا أننا ننوى أن نبث كنه العلاقة بين الحياة الجسمية والحياة العقلية فهذا بحث تحطمت أمامه جهود أئمة الباحثين^(١) ، لا سيما ديكارت ومن أتى بعده ، ولم يصلوا فيه الى الآن الى نتيجة مرضية • ولكن الذى نقصد اليه هو أن نبين أن هناك علاقة ، وأن تبين على قدر الامكان

(١) يمكن الاطلاع على بحث واف يلخص هذه الجهود في أحد الكتب الآتية :

Mc Dougall : Body and Mind. Joad : The workings of the Mind

C.Fox : The Mind and Its Body. Bode : How we learn.

Aveling : Personality and Will.

مدى هذه العلاقة ، حتى يمكننا أن نستفيد من هذا في تشخيص بعض الحالات وفي محاولة معالجتها •

التطور فى الجسم والعقل :

ولعل أقوى ما يلفت النظر فى ميدان العلاقة بين الجسم والعقل ما نجده بين التطور الجسمى والتطور العقلى من موازاة ، فنجد أن التطور الجسمى يسير جنباً الى جنب مع التطور العقلى • ففى التطور العضوى والجسمانى نلاحظ أن الكائنات الحية تترقى من الدنيئة ذات الخلية الواحدة الى المتعددة الخلايا ، ثم نجد — كما ارتقينا فى سلم التطور — تنوعاً وتعددًا فى أعضاء الكائن الحى • وهذا التنوع والتعدد يتبعه تخصص فى الوظائف • فإذا انتقلنا من ذوات الخلية الواحدة تدريجياً الى الأسماك ، ثم الى الزواحف ، ثم الى الثدييات بدرجاتها المختلفة التى تنتهى بالقرودة ثم بالإنسان ، نجد أن هناك تطوراً جسيماً يصاحبه عادة تطور عقلى يبدأ بال بسيط وينتهى بالمركب أو الراقى • معنى هذا أن الكائنات الحية البسيطة نجد لها حياة عقلية بسيطة ، وبالتدرج الى الكائنات الحية الراقية نجد أن لهذه حياة عقلية راقية •

ويلاحظ أن مظهرها هاما من مظاهر التطور الجسمى ما ثبت وجوده فى المجموع العصبى من ترقى تدريجى من البسيط الى المركب فى مراحل التطور المختلفة • وقد استنتج البعض بسبب هذا التوازى والتناظر أن الحياة العقلية وظيفية للمجموع العصبى فإذا كان المجموع العصبى بسيطاً كانت الحياة العقلية بسيطة ، وإن كان المجموع العصبى مركباً كانت الحياة العقلية مركبة • أى أن الحياة العقلية فى نظر هؤلاء نتيجة مباشرة للمجموع العصبى ، أى أنها نتيجة مباشرة للجسم • ولكن ليس هناك من المبررات العلمية ما يكفى لقبول هذه العلاقة البسيطة ، مع تسليمنا بأن هناك نوعاً من العلاقة على أى حال •

الجسم والعقل فى عمليات الإدراك الحسى :

ويبدو وجود العلاقة واضحاً بين الحياة الجسمية والحياة العقلية أيضاً فى الإدراك الحسى الذى هو الخطوة الأولى اللازمة لبقية العمليات العقلية الإدراكية الأخرى • ففى الإدراك الحسى تتأثر الأطراف العصبية والحاسة

بمؤثر معين ، سواء أكان هذا المؤثر تموجات حرارية ، أم ضوئية ، أم ضغطا ، أم غير ذلك ، ثم ينتقل هذا التأثير بواسطة الألياف العصبية الى مركز من مراكز المخ ، وهنا تنتهى مجموعة عمليات ميكانيكية وفسيولوجية سابقة وضرورية لعملية الادراك الحسى • ثم تبدأ عملية عقلية صرفة هى عملية الادراك الحسى نفسها • فلأجل أن تتم عملية الادراك الحسى — وهى كما ذكرنا عملية عقلية صرفة — لابد من تعاون ظواهر بعضها جسمية وبعضها عقلية • أما كنه العلاقات بين الحوادث العقلية والجسمية فى عملية الادراك الحسى فانه أمر نجهله الآن جهلا تاما •

الانفعالات :

وجود العلاقات بين الجسم والعقل يبدو جليا كذلك فى الحالات الانفعالية • فكل حالة من هذه كـالـخوف ، أو الغضب ، أو التقزز ، يمكن تحليلها الى عناصر ثلاثة ، ففى حالة الخوف مثلا نجد ما يأتى :

(أ) احساسات وادراكات صادرة من الموقف أو الموضوع المسبب للخوف •

(ب) الشعور النفسى الخاص المعروف بالخوف •

(ج) حالة نزوعية ترمى للتخلص من الموضوع أو الموقف المسبب للخوف والى جانب هذا توجد تغيرات فسيولوجية مصاحبة للانفعال ، ويوجد ادراك لبعض هذه التغيرات •

فلدينا إذن فى الحالة الانفعالية التى نحن بصدد نواح ادراكية تسبقها وتصحبها • وكذلك توجد تغيرات جسمية نشعر ببعضها ، كجفاف اللعاب وسرعة دقات القلب وسرعة التنفس ، وكثير من مثل هذه التغيرات يمر دون أن نشعر به اطلاقا •

ولدينا كذلك الحالة النزوعية التى تتخلص فى الرغبة فى الخلاص من الموقف أو الموضوع بطريقة ما • وهى فى العادة طريقة الهرب •

ومن التجارب التى أجراها كانون^(١) (Cannon) للملاحظة ما يصحب

(١) Cannon : Bodily Changes in Pain Hunger, Fear and Rage.

الانفعال من تغيرات أنه فحص بأشعة « اكس » قطة بعد أن تناولت غذاءها ، فرأى أن المعدة تقوم بحركتها المنتظمة في عملية الهضم • ثم أظهر أمام القطة كلبا كبير الحجم ، فلاحظ كانون أنه بعد ادراك القطة للكلب ، ظهرت عليها علامات الخوف المعروفة ، ولاحظ في الوقت نفسه أن عملية الهضم وقفت دفعة واحدة • ووصل بملاحظاته الاكلينيكية الى أن الأوعية الدموية انقبضت في المعدة ، واتسعت في أطراف الجسم ، وأن ضغط الدم قد زاد زيادة كبيرة في هذه الأطراف ، وأن تغيرات عدة طرأت على افرازات الغدد مما أدى الى أن يزيد العرق ويقل اللعاب ، ويزيد الأدرنالين الذي يساعد على رفع نشاط الجسم كله الى درجة كبيرة • فمن وظائف الأدرنالين مثلا مساعدة الكبد على اخراج السكر المخزون الى الدم ، وهذا السكر يحترق أثناء نشاط الكائن الحي ، فيمد بالطاقة والقدرة على الاستمرار في نشاطه •

وقد أثارت التغيرات الجسمية المصاحبة للانفعال نقاشا وبحوثا كثيرة ، منها النظرية المشهورة لجيمس ولانج^(١) التي أشارت بأن الحالة الانفعالية هي الاحساس بالتغيرات الفسيولوجية • ولكن الأدلة التي قدمها كانون وأمثاله ترجح أن الانفعال حالة تنشأ في شعور الكائن الحي بعد ادراكه نفسه في مجال معين • وترجح كذلك أن التغيرات الفسيولوجية تتبع ذلك مباشرة ، ووظيفتها على حسب رأى مكدوجل^(٢) أنها تساعد الفعل الغريزي ليتم على أكمل وجه ممكن • فاذا ما أثيرت غريزة الهرب ، فإن غرض الغريزة يتحقق بسرعة الهرب • ولأجل أن يتم ذلك على أكمل وجه ممكن ، فإن الأعضاء الداخلية تتكيف لتساعد هذه العملية وهي عملية الهرب ، فيسرع القلب في عمله ليوزع الدم على أجزاء الجسم ، وتسرع الرئتان في عملهما لأخذ الهواء النقي وطرد الفاسد ، حتى تتم عملية الاحتراق بسرعة • ويتوزع الدم بحيث يترك المعدة والأمعاء اذ يمكن لهاتين أن تكفا عن عملهما بعضه أو كله في هذه اللحظة ، وذلك لأن الجسم في حاجة الى كل ما به من

(1) James : Principles of psychology, Vol. II

(2) Mc Dougall : An outline of psychology Ch. XI.

نشاط^(١) ويتوزع الدم أيضا بحيث ينتشر في المخ وفي العضلات الكبيرة التي تساعد الفرد على الهرب • كذلك تقوم الغدد فوق الكلوية (الكظرية) بزيادة افراز الادرئالين الذي ينشط العضلات كلها بما فيها عضلات القلب • وعن طريق غير مباشر ينشط العضلات الكبيرة للأيدى والأرجل وبذلك تتمكن هذه العضلات من مواصلة النشاط الذي يساعد على اتمام الفعل الغريزي • كذلك يأخذ الدم من الكبد كمية من السكر المخزن به بعد تحويله بحيث يصبح سهل الاحتراق • وبذلك تكسب العضلات نشاطا كبيرا يساعدها في أداء عملها •

وهذا الرأي الذي قال به مكدوجل عن وظيفة التغيرات الفسيولوجية المصاحبة للانفعال يتفق كثيرا مع رأى كانون (Cannon)^(٢) ورأى داروين (Darwin)^(٣) الذي يسمى هذه التغيرات بالأفعال المساعدة المصاحبة (Serviceable Associated Actions)

يدلنا ما ذكرناه هنا عن الأفعال على أن الحالات الانفعالية وهي حالات نفسية صرفة يصحبها ويتبعها مباشرة تغيرات فسيولوجية ضرورية للحالة النفسية • أى أن هناك علاقة قوية بين الحالات النفسية والجسمية عند حدوث الشعور الانفعالي ، ولو أننا لا نعلم على وجه التحقيق كنه هذه العلاقة •

أنواع الشخصية وعلاقة الجسم بها :

وهناك سلسلة طويلة من المحاولات بذلت لفهم اتجاه العلاقة بين الجسم والعقل ، بحيث يمكن فهم الحياة العقلية من معرفة حالة الحياة الجسمية • فمنذ ألقى عام تقريبا قام حكيم من حكماء الاغريق وهو جالينوس بوضع نظرية الأمزجة • وكان قد سبقه أبقرط في ذكر أمزجة الجسم الأربعة (الدم ،

(١) عمليات الاستثارة والكف المصاحبة للانفعال يقوم بها المجموع السمبتاوى

The Sympathetic Nervous System والباراسمبتاوى The Parasympathetic
واستثارة أحد المجموعتين الى درجة كبيرة يتطلب كفاً الآخر

(2) Cannon : Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage.

(3) Darwin : The Expression of Emotions in Man and Animals.

والبلغم ، والصفراء ، والسوداء) ، ولكن جالينوس هو أول من ربط بين
الفروق في الشخصية والفروق في الأمزجة •

وقد ظلت نظرية الأمزجة المعروفة حافظة لكيانها مع تغيرات بسيطة جدا
الى أن جاء العهد الحديث ، حيث ظهرت نظريات متعددة لأنواع الشخصية •
بعض أصحاب هذه النظريات يرى أن يقسم الشخصيات الى أنواعها بحسب
السلوك الظاهر • وبعضهم يرى أن يربطها بسرعة تأثر المجموع العصبى
أو بطنه • وبعضهم يرى أن يربطها الى حد ما بافرازات الغدد ؛ وممن غالوا
في التحمس لهذا رأى الأخير برمان (١) ، (٢) (Berman) الذى قال : ان
كيمياء الخلية هى بعينها كيمياء النفس • ويتلخص رأيه فى أن نواة الشخصية
تكونها حالة المجموع العصبى وحالة الغدد الهرمونية (ذات الافراز الداخلى) •
ونحن نميل الى الأخذ بالرأى الذى يعتبر الحالة الجسمية كعامل من
العوامل المتعددة التى تتدخل فى تلوين الشخصية باللون العام الذى يسمى
عادة مزاجا (Tempérament)

ومن الآراء التى كان لها دوى كبير رأى كرتشمير الذى يربط بين صفات
الشخصية ، والصفات الجسمية الظاهرة ؛ كأبعاد الجسم والنسب بينها ،
وشكل العضلات والجلد ، والعظم ، والشعر ، وغير ذلك • وقد قسم الناس
الى ثلاثة أنواع رئيسية وهى : الهزيل (The Asthenic) والرياضى
(The Athletic) ، والسمين (The Pyknic) والنوع الأول — وهو يشبه
الثانى بدرجة أقل — يميل الى أن يكون هادئا ، محافظا جادا ، قليل الاجتماع
بغيره ، قليل القلب بين حالة انفعالية وأخرى • وأما النوع الأخير فهو نوع
صريح ، يميل الى المصادقة مرح ، سريع القلب بين حالة انفعالية وأخرى •

(١) Berman : The Glands Regulating Personality.

Or ,, : The Personal Equation.

(2) Miller : Types of Mind and Body.

ونوع الشخصية الأولى يسميه كرتشمير^(١) بالمنطوى (Schizoid) ، أما النوع الثاني فيسميه بالمنبسط أو المتقلب (Cycloid)

أثر الجسم في العقل

التأخر العام في النمو الجسمي :

عرفنا مما تقدم أن هناك محاولات للربط بين حالة الجسم والحالة العقلية ، بحيث يمكن اتخاذ الجسم — بسهولة ملاحظته — دليلا على الحالة العقلية ، وهذه الدراسات أفادت كثيرا ، ولو أنها لم توصلنا الى ما كنا نأمله منها . ونزداد يقينا مع مضي الزمن بأن خير الطرق لدراسة الحياة العقلية لا يكون بدراسة الصفات الفسيولوجية أو الجسمية ، وانما يكون بدراسة الحياة العقلية نفسها ، وبحث مظاهرها في سلوك الانسان وفي تصرفاته . وليس معنى هذا أننا ننادى باهمال درس النمو الجسمي ، فهذا يمكن اتخاذه — لا سيما في الأدوار الأولى من الحياة — دليلا ، ولو أنه غير قاطع في صحته ، على النمو العقلي . فنحن نلاحظ أن ضعاف العقول (Mentally Defectives) والمتأخرين أقل على وجه العموم في نموهم ، من حيث الوزن والطول من زملائهم العاديين والمتفوقين في الذكاء . وهم متأخرون عن زملائهم الأذكاء كذلك في سن المشي ، وسن الكلام ، ووقت التسنين ، وغير ذلك . هذه ليست قاعدة مطردة ، ولكنها في غالب الأحيان صحيحة . وقد وجد الأستاذ برت^(٢) (C. Burt) أن معامل الاتفاق بين العمر العقلي والطول ٥٠٠ ومعامل الاتفاق بين العمر العقلي والوزن ٤٠٠ إذا جعلنا العمر الزمني ثابتا في الحالتين^(٣) . وهذان المعاملان ايجابيان كبيران يدلان على أن النمو في الوزن والطول يتمشى عادة مع النمو العقلي .

(1) Kretschmer : Physique and Character.

(2) C. Burt : The Backward Child p. 138.

(٣) ويكون ذلك بتطبيق معادلة يول لمعامل الارتباط الجزئي
(U. Yule's Partial Correlation Formula)

ولحالة النمو أثرها بطريق غير مباشر في حياة الفرد المتعلقة بشخصيته •
فاذا كان مستوى الشخص في النمو أقل أو أكثر مما هو متوقع له بشكل
واضح ربما يؤثر هذا في معاملة الناس له ونظرتهم نحوه • وهذا بدوره قد
يؤثر في نظرتة نحو نفسه ، وموقفه من الناس • وكثير من أنواع الشذوذ
كالتعاطف ، أو الشعور بالضعف ، أو الشعور بالحقد ضد المجتمع ، سببها
الأصلي الشذوذ في النمو الجسمي العام •

العاهاات وأثرها :

يلاحظ كذلك أن العاهاات التي تنتاب الشخص كفقء البصر ، أو السمع ،
أو النطق ، أو فقد ذراع ، أو رجل ، أو إصابة عضو بأصابة شديدة تقلل من
كفايته في أداء وظيفته قد يكون لها آثارها المباشرة في النمو العقلى ،
والتحصيل الثقافى ، والكفاية المهنية • ولهذه العاهاات فوق ذلك آثارها غير
المباشرة • فصاحب العاهة يقابل عادة من غيره بأنواع متباينة من المعاملة ،
فبعض الناس يهزءون به ، وهذا قد يثير نقمته عليهم ، ثم قد يحدث انتشار
أو تحويل لهذه الحالة النفسيه ، فتصبح نقمته عليهم نعمة على المجتمع عامة •
وبعض الناس يعطفون على صاحب العاهة الذى قد تتور نفسه على هذا
العطف ؛ إذ أنه يشعر بالضعف ويذكره بعاهته باستمرار ، وكثيرا ماتكون نتيجة
هذا العطف الحصول على امتيازات يرفض صاحب هذه العاهة أن يتنازل عنها
فيما بعد • وتنشأ عن هذا الرفض مشكلات عدة • وفي أحوال غير قليلة
يستغل صاحب العاهة — دون قصد — ضعف الناس نحو ضعفه ، وقد
يؤدى هذا الى نمو جبروته وقوته الى درجات كبيرة • وليس من الضرورى
أن تتجه هذه القوة فى الاتجاه الهدمى ، فقد تتجه أحيانا فى الاتجاه الذى
يعده المجتمع اتجاها منتجا •

ولتوضيح أثر العاهة نذكر حالة ولد فى الثالثة عشرة من عمره ضبط
بيبع جلبابا مسروقا فى سوق المؤيد بالقاهرة • واعترف الولد اعترافا جريئا
صريحا خاليا من كل خجل • وكان الولد أصم أبكم ، ولكنه كان واضحا

فى تعبيره بالاشارة وضوحا كبيرا • وقد بينت الدراسة أن الولد ابن أحد التجار الذين كانوا قد نزحوا الى القاهرة ، ثم اشتغل الوالد بعمل حكومى يتقاضى منه ما يقرب من ثمانية جنيهات • وقد تزوج الرجل عدة مرات مما جعل عنايته بأسره موزعة على عدد غير قليل من الأفراد • والولد هو الذكر الأول بعد بنت ، وبعد مولود مات فى السنة الأولى ، وبذا كان له عند والديه مركز ممتاز للغاية ، وولد بعده ولد ، ثم مولود مات صغيرا ، ثم بتان • هذه هى ذرية والد الحدث وللوالد ذريات أخرى من زوجاته الأخريات • أصيب هذا الولد فى سن الخامسة بحمى قيل انها النخاعية الشوكية ، وشفى منها غير أنه فقد على أثرها سمعه ونطقه • وقد فشلت المحاولات الكبيرة الكثيرة التى بذلت لمعالجة سمعه ونطقه ، وبدأ يتكلم بالاشارة ، ويفهم عن طريقها ، أو بالنظر الى حركات شفاه الناس حين يتكلمون • لهذا بدأ بعض أناس من طبقة العمال فى الحى الذى تعيش فيه الأسرة يتخذونه تسليية لهم • ثم أغروه على سرقة بعض أدوات من المنزل ، كالأطباق ، والملاعق ، والسكاكين ، وكان يعطيها لهم نظير دريهمات قليلة • أو يعطيها لبائع حلوى جائل نظير بعض الحلوى • واستمر الصبى هكذا حتى وقع فريسة لأحد كبار الأشرار فى الحى ، فقطع فى السرقة من منزل والده ومن منازل الناس أشواطا بعيدة ، واكتسب فيها خبرة كبيرة ، ووصل به الأمر الى أنه سرق ملابسه الخاصة به من المنزل لبيعها ، واضطر والده لشراء غيرها ، وسرق حلى والدته وباعها بثمان بخس • وكثيرا ما كان يسطو على منازل الجيران ، واستفحل أمره ، ومع ذلك كان والده يحميه فيدفع عنه كل ما يحدث منه حتى لا يقع الولد فى أيدي « البوليس » فيرسل الى الاصلاحية • وكان والده أحيانا يضربه ضربا مبرحا ، فكانت الأم تحميه ، أو تبكى بكاء مرا • ولهذا كانت تستتر عليه فيما يبدر منه •

ولما اشتد الوالد على ولده ، ورفض شراء ملابس له لأنه يبيع عادة

ما يشتري له ، هرب الولد من الحى الذى يعيش فيه واشتغل فى مصنع ، وسرق من المصنع كثيرا من الأدوات وباعها • وفى أثناء هذا تشرد ، وجمع الأعقاب ، وأغرم بالذهاب الى السينما ، وأولع بركوب العجل ، وتقلب فى أعمال كثيرة ؛ ولكنه فى أثناء هذا كله كان يسرق باستمرار تقريبا • ومن أبرز ما فعل أنه كان يسطو على الموتى الحديثين فى مدافنهم فىأخذ ما بأيديهم من حلى ، ويقال انه اذا أعجزه خاتم من الذهب مثلا ، فلا مانع عنده من كسر الأصبع بطريقة ما للحصول على الخاتم • وكان يفهم من اشاراته أنه يريد أن يقول ان الحى أولى من الميت بهذه النفائس •

وبلاحظ أن حالة الولد تطورت بهذه الصورة بفعل عوامل متعددة ، ولكن يبدو أن العامل الرئيسى الأول هو فقدان السمع والنطق • وأما العوامل الأخرى من ظروف المنزل ومعاملة الوالدين ، وغير ذلك فهى عوامل مساعدة ربما كانت قليلة الأثر لولا هذا العامل الرئيسى •

ومثال آخر حالة ولد فى سن الحادية عشرة ، وسيم الوجه ، جميل الطلعة ، حاد العينين ، عليه كل علامات اليقظة ، والنشاط ، وخفة الحركة • هذا الولد فقد ذراعه اليمنى بسبب ققزه فى الجانب الأيسر من الترام • وكان فى ذلك الوقت يعمل مع صانع أحذية بأجر طيب بالنسبة لسنة • ولكنه من وقت فقد ذراعه ترك العمل وبدأ يتسول • وللولد أقارب من ناحية أمه كجدته وأخواله وخالاته ، وهؤلاء كانوا يدللونه قبل هذه الحادثة ، ولكنهم بعد الحادثة أخذوا يسرفون فيما يعطونه من تقود • وكان الولد طول حياته مدللا من والديه • اذ كان هو الذكر الأول والوحيد بين أربع أخوات • ولما ساء سلوك الولد بعد الحادثة أراد الوالد أن يشتد عليه فلم يتمكن لمرضه واصابته بالسل واضطراره فى الوقت نفسه للعمل كحارس فى حى رطب حتى يكسب قوته وقوت أولاده البالغ ١٦٠ قرشا فى الشهر • جمع الولد فى سلوكه ، وكان يخرج للتسول مبرزا ما بقى من ذراعه ملتصقا بكتفه ،

وتمكن من تعلم بضع جبل انجليزية ، استعملها في استدراج عطف الجند الانجليز عليه • وبلغ ما يصل الى يده عن طريق التسول عشرين قرشا تقريبا في اليوم • وجد الولد متعة في خفة عقول الناس وسهولة اعطائهم اياه ما يطلب من نقود ، وكان يعتبر أن كسبه من التسول أحسن بكثير من كسبه من العمل • ومن العجيب أن الولد يصرف مما معه من النقود على مأكله ، ثم يذهب آخر النهار للسینما ، وكثيرا ما يدعو أصدقاءه من المتشردين للذهاب معه على حسابه الخاص ، ثم يقضى ليلته بعد ذلك تحت مقعد في الشارع العام ليستأنف عمله في اليوم التالي على الأسلوب الذي فصلناه •

وكانت في هذه الحالة حادثة فقد الذراع الفاصل الظاهري بين حيتين احدهما مستقيمة والأخرى معوجة ، وكانت — كما بينا — عاملاهما في تغيير سلوك الطفل •

ومثال ثالث حالة ولد أصيبت رجله اليمنى اصابة شديدة جعلتها في نهاية الأمر أقصر من أختها اليسرى بدرجة واضحة • وهذا الولد فيه كثير من صفات الولد صاحب الحالة السابقة فهو جذاب ، حسن الحديث ، مملوء بالحيوية • نمت في هذا الولد ناحية عدم الاستقرار في العمل ، والميل الى الخطف ، فهو يخطف الفاكهة من عربات الباعة ويجرى • والباعة في العادة يرثون لحاله فيتركونه وشأنه ، وأصبح الولد في سن الحادية عشرة كثير السرقة ، والخطف ، قليل الاستقرار ، يميل الى لعب القمار • وللولد ظروف أخرى منها أنه الذكر الأول في الأسرة ، ولو أنه ليس الذكر الوحيد • ومنها أن العلاقة بين والده ووالدته كانت على أسوأ ما يكون خشونة وقسوة وأنانية من جانب الوالد • ومنها كذلك أن الوالد كان يتفنن في تعذيب ولده الى حد كبير ، ومع كل ذلك كانت حالة الولد الجسمية عاملا رئيسيا في توجيه سلوكه الوجهة التي بينها •

والحالات التي فحصناها من هذا النوع تربو على العشرين ، ولكن من بينها حالة واحدة لولد كان على أسوأ ما يكون من السلوك من تشرد وسرقة وعدم استقرار في العمل • وأصيب في رجله يوما ما اصابة بالغة تركت عنده عاهة مستديمة • ومن ذلك الوقت استقام ونظر الى هذه الاصابة كأنها عقاب سماوى أنزله الله به وبدأ حياة جديدة مستقيمة أدت الى جمع شتات والدته واخوته •

تدلنا هذه الدراسة على أن التأخر الجسمي أو الاصابة بعاهة لها في العادة آثارها أو مصاحبتها في سلوك الفرد • ولكن هذه الآثار لا تأتي بطريق مباشر ، فقد تكون مثلاً رداً على شعور بالنقص ناشئ من موقف غيره ازاء العاهة ، وقد تكون ثورة على عطف غير مطلوب ، وقد تكون استغلالاً لضعف الناس ازاء العاهات • الى غير ذلك • ولكن الجسم له أيضا أثره المباشر على الحياة العقلية •

الآثر المباشر للجسم على العقل

يؤثر الجسم في الحياة العقلية عن طريق الفعل المباشر للدم ، فالتغيرات الطارئة على حالة ما يصل الى المخ من الدم ، أو ما يحمله الدم من مركبات تصل اليه عن طريق الأدوية كالاستركنين ، أو المكيفات كالقهوة ، والشاي ، أو المركبات التي تفرز في الدم مباشرة بواسطة الغدد ، أو تأتيه من مصادر التوكسينات مثلاً ، كلها تؤثر في الحالة العقلية للفرد تأثيراً واضحاً معروفاً • وأما التغيرات الطارئة على ما يصل الى المخ من دم ، فيمكن ملاحظة تأثيرها في الحياة اليومية بعد أكلة ثقيلة ، اذ يشعر الانسان بعدها بخمول ، وميل الى النوم • ويمكن ملاحظتها كذلك من نوع الجلسة التي يجلسها الانسان ، وأثر ذلك على نشاطه العقلي ، ففرق بين درجة النشاط العقلي التي تصاحب جلسة متراخية على كرسي لين مريح منخفض ، وتلك التي تصاحب جلسة

منتصبة على كرسى خشبي مرتفع • والفرق بين الجلستين يؤدي الى الفرق بين ما يصل من الدم الى المراكز العصبية العليا في كلتا الحالتين •

وهناك فرق كذلك بين الحالات العقلية المختلفة المصاحبة لأنواع ضغط الدم المختلفة ، ففي حالة الضغط العالي نلاحظ ميلا الى قلة النوم ، وكثرة العمل العقلي وسرعته ، وسرعة الانفعال • هذا بخلاف حالة الضغط المنخفض ، فنلاحظ معها ميلا الى الخمول ، وعدم القدرة على التركيز في أثناء العمل العقلي ، وبطء العمليات العقلية ، وبطء التأثير الانفعالي (١) •

أثر التوكسينات والمخدرات والميكروبات :

أشرنا فيما تقدم الى أثر المخدرات والمكيفات ، اشارة بسيطة ، ومعروف أن الخمر لها آثار تختلف من درجة الى أخرى ، ومن شخص الى آخر ، فالخمر بكميات قليلة جدا له أثر منشط ، ولكنه بكميات كبيرة يكون مهبطا ، فتتعطل العمليات العقلية العليا ، ويفسد تفكير الشخص ، وتختل الأحكام التي يصدرها ، وتضطرب ادراكاته • والخمر يدفع بعض الناس للبكاء ، وبعضهم للالتعاب ، وبعض ثالث للمرح ، ويدفع فريقا من الناس للغضب والهياج ، وفريقا آخر للمبالغة في التأدب نحو غيرهم • وللادمان على الخمر في بعض الحالات نتائج عقلية دائمة كضعف الذاكرة ، وتأخر في القدرة على التفكير المنطقي المنظم ، وتسلب الأوهام والوساوس •

وللمكيفات الأخرى من شاي ، وقهوة ، وكوكايين ، وأفيون ، ومورفين ، وهروين ، وحشيش ، وغير ذلك ، آثارها المعروفة في الحياة العقلية ، فالمنبهات تؤخذ لتنشيط الحياة العقلية ، وأما المخدرات فانها تؤدي الى حالة تراخ وكسل ، وتمر على الشخص أثناء التأثير بها خيالات يقال انها لطيفة ، وبزوال الحالة السارة الطارئة يصبح الشخص قلقا ، غير مستقر ، سريع القابلية للتهيج • ولذا يحدث تعاطى هذه المخدرات ميلا الى الادمان

(1) Rees : Health of the Mind pp. 61-63.

في أخذها • والادمان عليها يؤدي كما ذكرنا في حالة الخمر الى نتائج عقلية دائمة •

ومن الحالات التي يظهر فيها أثر التوكسينات حالات التعب الناشئ من العمل العقلي والجسمي ، فنتائج الاحتراق كحامض اللبنيك (Lactic Acid) وثنائي أكسيد الكربون قد تتراكم في الأنسجة فتعطل الاستمرار في العمل • ولذا كان التخلص من هذه التوكسينات شرطا ضروريا لتجديد النشاط • وهذه التوكسينات الناتجة من الاجهاد تعطل العمليات العقلية من انتباه وتفكير وغير ذلك • ونتائج التعب لا تعزى كلها لتراكم التوكسينات ، وانما يعزى بعضها لفقد الطاقة من الأنسجة والألياف العصبية والعظمية بسبب العمل نفسه •

والتوكسينات في حالة خراجات الأسنان ، أو اللوزتين ، أو التهاب الجيوب الموجودة خلف الأنف ، أو الخراجات المعدية أو المعوية ، أو غير ذلك كلها لها أثرها في الحالة العقلية من حيث تخفيض الشعور بلذة الحياة ، وتقليل القدرة على العمل العقلي ، والتخفيض من سرعته ، وزيادة الشعور بالقلق ، وعدم الاستقرار ، والقابلية لسرعة التهيج ، وما شابه ذلك •

وبخلاف ما تقدم من التوكسينات بأنواعها توجد الميكروبات أو البكتريا في حالة الأمراض المعدية • ففي الزهري سواء أكان مكتسبا بعد الولادة أم قبلها^(١) نجد أن من بين أعراضه الخطأ في الحكم والميل الى المغالاة والتأخر العقلي • ويرى جوردون^(٢) وهيلي^(٣) أن نوعا من جنوح الأحداث من أعراضه الهرب والسرقة والعناد يرجع الى الزهري الولادي ، وتدل الحالات

(١) الزهري الولادي Congenital Syphilis هو المكتسب قبل الولادة وتسميته بالزهري الولادي أصح من تسميته بالزهري الوراثي . وهذا يتفق مع رأى المختصين في علم الوراثة .

(2) Gordon : Juvenile Delinquency ch. VIII.

(3) Healy : The Individual Delinquent.

القليلة التى درسناها من هذا النوع لجرائم الأحداث فى حالة الزهري
الولادى أنها نتيجة ثانوية وليست نتيجة أولية للزهري نفسه •

وقد وجد ستراتون^(١) (Stratton) من فحصه ٩٠٠ طالبا أن الذين كانوا
قد أصيبوا بأمراض معدية فى حياتهم الأولى أكثر قابلية للتهيج الانفعالى
من غيرهم • وأن لبعض الأمراض أثرا أثبت فى الشخصية من غيرها ، فالحمى
القرمزية بحسب رأيه لها أثر فيما يظهر فى حياة الشخص من ميل للغضب •
ولكن ليس معنى هذا أنه يمكننا أن نصل الى نتيجة مقطوع بصحتها
فى هذه الناحية فالنتائج كلها رغم ما ذكرنا من الأدلة تعتبر تخمينية الى درجة
غير قليلة • ويرجح أن الأمراض المعدية التى من شأنها أن ترفع درجة حرارة
الجسم رفعا غير عادى قد تؤثر فى المجموع العصبى ، وبالتالي تؤثر فى الصفات
العقلية والخلقية لا سيما اذا حدثت الإصابة فى سن مبكرة •

مثال ذلك حالة لطلاب فى مدرسة ثانوية ، يتصف بالكسل ، والتقذارة ،
والجشع والعنف ، والتأخر الدراسى ، والميل لمخالطة من هم أقل منه فى
المستوى الاجتماعى والثقافى بكثير • يمارس العادة السرية ويتصل بالخدم
اتصالا جنسيا • ووالداه يعاملانه معاملة معقولة ، وسبل الحياة الطيبة
ميسرة له ، ولم نجد عنصرا بارزا فى حياته أكثر من الأمراض التى ابتاتته •
ففى سن الخامسة أصابه التيفويد وكان شديد الوطأة ، وأعقبته الحصبة بعد
قليل ، ثم أعقبها السعال الديكى مباشرة بعد ذلك •

ونعتقد أن هذه الأمراض ربما كانت عوامل مساعدة وليست عوامل
أصلية • فيحتمل أنها سببت تراخيا وتديلا من جانب الوالدين ، فخلقت
حول الطفل ظروفًا ساعدته على انماء هذه الصفات الدالة على تواكله وتدله
وعجزه عن مقاومة شهواته الغدائية والجنسية •

(١) Quoted by Shaffer : Psychology of Adjustment.

وهكذا نجد مع الكثير من الحالات مرضا أو عدة أمراض بعضها معد كالحصبة والتيفويد ، والجديري ، والدفتريا ، والحمى النكفية ، والسعال الديكى . وبعضها غير معد لكن يصحبه رفع شديد لدرجة الحرارة ، كالنزلات المعوية ، والمعدية ، والخراجات .

والنتائج السيكولوجية التى أشرنا إليها قد تنشأ من هذه الأمراض ، ولو أن كثيرا من الأطباء يشكون فى صحة هذا ، وقد تنشأ هذه النتائج من تأثير الطفل بموقف أهله ازاءه أثناء مرضه فالقلق الذى يصيب الوالدين ، وما يصحبه من مظاهر الذعر التى يحسها الطفل عادة ، تهز ثقته فى نفسه وفى والديه . والعناية الشديدة التى تعطى للطفل فى أثناء المرض تصحبها عادة امتيازات أخرى من التدليل والمعاملة الخاصة يتمسك بها الطفل غالبا تمسكا شديدا بعد شفاؤه ، ويصعب على الوالدين تحويله عنها ، الا اذا وضعوا لأنفسهم سياسة ثابتة فى هذا الاتجاه .

لهذا كان من الواجب ألا يعطى الطفل من العناية فى أثناء المرض أكثر مما يستلزم التمريض ، ويجب أن يشغل قدر الامكان بعمل ملائم يسليه حتى ينصرف عن التفكير فى نفسه ، وحتى يسهل تحريره من التعلق بمن يرعاه فى مرضه عند شفاؤه منه . وبالجمله يجب العمل على عدم اعطاء الطفل فى أثناء مرضه امتيازات يعز عليه أن يتحرر من التمتع بها بعد شفاؤه .

أثر الغدد :

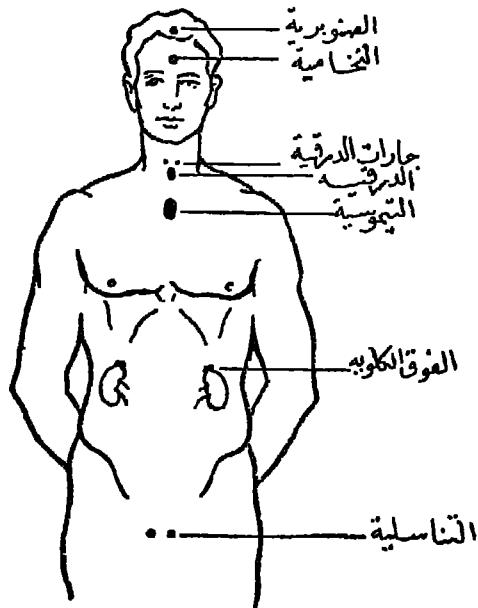
وهناك مصدر مهم للطريقة التى يؤثر بها الجسم مباشرة فى الحياة العقلية عن طريق الدم . وهذا المصدر هو الغدد التى تفرز هرمونات (Hormones) تصب مباشرة فى الدم . وسبق أن ذكرنا أنه أمكن بدراسة الغدد العثور على ما يحقق بعض ما فى النظرية القديمة السائدة عن أنواع الخلق ، وهى التى تقسم الناس الى أنواع هى : الدموى ، والصفراوى ، والليمفاوى ،

والسوداوى • وذلك بحسب ما يسرى فى الدم من مركبات كيماوية أو أمزجة
كيماوية •

ورغم كثرة ما اكتشف عن الغدد فإن ما نحس أننا نجهله عنها ما زال
كثيرا جدا • والغدد على العموم ثلاثة أنواع : نوع يقذف بافرازاته الى
الخارج ، كالغدد اللعابية ، والدمعية ، وغدد العرق ، وغير ذلك • ونوع
يقذف بافرازاته مباشرة فى الدم ، كالغدة النخامية ، والدرقية • ونوع له
افرازان ، كالبנקرياس ، والغدد التناسلية • وسنذكر الآن نبذة قصيرة عن
بعض الغدد التى لها أهمية فى التأثير على سلوك الفرد : —

١ — البנקرياس : له افرازان أحدهما خارجى يصب فى الاثنى عشر ،
ويساعد عملية الهضم • والآخر داخلى ويسمى بالأنسولين ووظيفته تنظيم
اختزان السكر فى الكبد والعضلات بعد تحويله الى نشا حيوانى •

وتنظيم هذه العملية يتوقف عليه ما يستعمل من السكر لعملية الاحتراق
اللازمة لنشاط الحيوان أو الانسان • والأنسولين ان كان مقداره أكبر من



صورة تبين مواضع الغدد الأساسية

اللازم تتج الشعور بالجوع ، والرعدة ، والقلق ، وكثرة التعب • وإن كان أقل مما يلزم تتج الخمول ، ومعه شعور بالهبوط العام • وأحيانا تزداد نسبة السكر في الدم ، وأحيانا أخرى يظهر السكر في البول • ويصاحب هذا ما يصاحبه من خمول ، وشعور بالهبوط ، وقابلية للتعب وما شابه ذلك •

٢ - الغدة الدرقية ومهاراتها :

وهي أسفل الرقبة أمام القصبة الهوائية ، ووظيفتها إفراز مركب يعرف بالثيروكسين (Thyroxin) • يقوم هذا المركب بتنظيم نشاط الأنسجة من هدم وبناء (Metabolism) ، ولهذا نجد أنه في حالة عجز الدرقية عن قيامها بوظيفتها تبدو على الشخص السمنة الزائدة ، وقلة النشاط ويبدو الشخص بطيئا ، خمولا ، كثير النسيان قليل القدرة على تركيز الانتباه أو على سرعة التفكير • وعلى وجه العموم يبدو الشخص قليل النشاط ، وضعيف الحيوية • وأما إذا زاد إفراز الدرقية عن الحد الضروري فإن الشخص يبدو قليل الاستقرار ، كثير الاستفزاز ، قلقا مضطربا في نومه وتكثر في العادة أفكاره وأوهامه التي تتوارد على ذهنه بسرعة كبيرة • وتزداد ضربات القلب ، ويرتفع ضغط الدم ، ويخف الوزن •

وفي حالات كثيرة لا تكون إصابة الدرقية أثناء الحياة ، بل يولد الشخص بدرقية ضعيفة ، كما في حالة نوع من الناس يكونون صغار الأجسام (cretins) ناقصي النمو من كل ناحية ، سواء في ذلك الناحية الجسمية ، أم الناحية العقلية • فالضعف الولادي في الدرقية يصحبه عادة نقص عقلي • ولكن العكس ليس صحيحا ، فليس كل نقص عقلي ولادي أو وراثي يصحبه ضعف في الدرقية (١) •

(١) وقد قمنا في العيادة السيكولوجية بدراسة حالات ضعف عقلي تمثل النوعين : نوع يتميز بخموله الشديد ، والنوع الثاني يتميز بكثرة نشاطه وعدم استقراره .

ويمكن قياس درجة نشاط الغدة الدرقية بصعوبة كبيرة باستعمال أجهزة أخرى خاصة تعين نسبة ما يأخذه الفرد في الشهيق من هواء نقي إلى ما يخرجه من مواد محترقة في الزفير ويسمى الاختبار (Basal Metabolism Test) وصعوبة قياس نشاط الدرقية يجعلنا غير متأكدين من نتائج هذا القياس خصوصا في حالات الضعف العقلي .

ويوجد قريبا جدا من الغدة الدرقية أربع غدد صغيرة الحجم تعرف بجارات الدرقية (Parathyroids)، ووظيفتها تمثيل الكلسيوم والفوسفور، وهى تعادل بعملها نشاط الغدة الدرقية + فاذا أزيل جزء من جارات الدرقية كان الشخص سريع التهيج شديد العصبية، وكان عرضة للرعشة اذا ما ارتفعت حرارته +

٣ — الغدة النخامية : (The Pituitary)

وموضعها فى الشق الأسفل بين نصفي الكرتين المخيتين، وهى صغيرة الحجم، ووزنها فى العادة نصف جرام تقريبا + وهى تعتبر من أعقد الغدد وأهمها، اذ يسميها البعض سيدة الغدد (The master Gland) والسبب فى ذلك أن لها تأثيرا على أغلب الغدد الأخرى، فهى تؤثر فى الدرقية، والتناسلية، والفوق الكلوية والبنكرياس، وربما كانت تؤثر فى بقية الغدد أيضا + ومن بين هرمونات الفص الأمامى للغدة ما ينظم عملية النمو، ولذا كان الاختلال فيه مسببا للنقزم أحيانا وأحيانا أخرى يسبب طول العظام^(١) +

ويظهر أن هرمونات النخامية بعضها يوازن البعض الآخر، فالهرمونات

(١) وللنخامية فصان رئيسيان: الفص الأمامى، والفص الخلفى. وقد ثبت أن كلا من الفصين والوصلة التى تربطهما يفرز هرمونات خاصة. وقد ثبت كذلك أن الفص الأمامى يفرز ١٢ هرمونا على الأقل، والفص الخلفى يفرز كذلك أكثر من هرمونين. واحد هرمونات الفص الأمامى ينظم عملية النمو فالنقص فيه يسبب القزم، ولكنه قزم يختلف عن القزم الناشئ من النقص الوراثى أو الولادى فى الغدة الدرقية. فالقزم فى حالة النقص فى هرمون النخامية لا يصحبه ضعف عقلى. والزيادة فى هذا الهرمون نفسه تسبب زيادة فى النمو. فاذا وجدت هذه الزيادة منذ الطفولة سببت ضخامة عامة وأما اذا وجدت بعد اكتمال النمو، سببت نموا فى عظام الأطراف كالأيدي والأرجل والأنف.

ويكون مصاحبا للزيادة فى نشاط الغدة النخامية عادة ورم يمكن أحيانا مشاهدته نتائجه بمشاهدة الزيادة الناشئة فى الغلاف المحيط بها والمعروف باسم (Sella Turstica) ويتم هذا بالكشف بأشعة رونتجن.

ولا يجوز أن ننسى أن ننوه بشدة التعقيد فى وظيفة النخامية، وشدة علاقتها بالكثير جدا من الوظائف الجسمية الأخرى، مما أثار فى السنوات الأخيرة مئات الأبحاث فى أفرانها.

الجنسية الناتجة من النخامية تضاد في عملها هرمونات النمو ، بدليل أن عملية ازالة الخصيتين ينتج عنها ابطال الوظيفة التناسلية ، وايقاف الهرمونات الجنسية النخامية تبعا لذلك ، اذ أن هذه الهرمونات تصبح غير مطلوبة ، ويتبع ذلك زيادة في النمو كما نلاحظ فيمن بقى من الأشخاص الذين خضعوا لهذه العملية والمعروفين في الشرق الآن باسم الخصيان (الأغاوات) •

وليس من السهل أن نحدد تحديدا تاما العلاقة بين بعض مظاهر السلوك ؛ والاختلال في افرازات النخامية : ولكن من الأمراض المعروفة (Frohlich's Disease) وينسب في العادة الى اختلال في بعض هرمونات النخامية • هذا المرض يظهر في الصبيان ، ويكونون عادة متأخرين في نمو العظام ، وعلى درجة كبيرة من السمنة ، ويكسو الدهن بنوع خاص المنطقة الحوضية ، وما فوق الصدر • ويكون هؤلاء الصبيان على درجة كبيرة من الضعف الجسمي ، والتأخر الجنسي ، مما يغري أحيانا رفقاءهم الأقوياء باستغلالهم جنسيا •

ومن أمثلة اختلال الغدة النخامية حالة ولد أحيل للعيادة بحجة أنه مشاكس ، وغير قابل للتعليم • ولكن بمجرد النظر اليه لوحظت أعراض المرض (Frohlich's Disease) السابقة الذكر • والولد فوق هذا قليل الشعور بالمسؤولية ، يميل الى الجولان ، والتسكع في الشوارع ، وعدم التركيز في عمل واحد ، ويجب الأعمال المتغيرة البسيطة • نسبة ذكائه حسب الاختبار ٥٠ ، أى أنه حين كان عمره ١٢ سنة كان المستوى العام لعقله لا يزيد عن المستوى العام لعقل طفل عادى عمره ٦ سنوات • وكان يهرب من كل مدرسة يلحق بها لعدم قدرته على متابعة العمل الذى يتوقعه منه • أهله ومدرسه وأصحابه بحسب سنه • وهو متأخر في نموه الجنسي بدليل صغر خصيتيه ، وعدم سقوط واحدة منهما في الكيس الخاص لذلك • ولوحظ كذلك أن نمو الشعر على العانة ، وتحت الإبطين متأخر جدا بالنسبة لسنه • وبعد فحصه جسديا وعقليا ، أمكن توجيه أهله لمحاولة علاجه طبيا عند

أحد الأطباء الاختصاصيين في الغدد ، ولعدم إرهاقه بالتعليم التقليدي المعروف في مصر ، والاكتفاء بتعويده عادات بسيطة في حدود عقليته ، والكف عن معاقبته جسدياً ، وعن حبسه كما كانوا يفعلون • وأمكن بهذا التوجيه حل كثير من مشكلاته ومشكلات أسرته •

ومن الحالات التي ظهرت فيها الزيادة في النمو ، وتختلف عن السابقة اختلافاً بينا حالة ولد أرسل الى العيادة وعمره ١٤ سنة ، ولكن وجد أن نسبة ذكائه ٦٨ ، أى أن مستوى ذكائه لا يزيد عن مستوى ذكاء طفل عادى عمره تسع سنوات ونصف وكان طول الولد ١٧٨ سم ووزنه ٧٠ ك ج ؛ أى أنه في طول شخص بالغ النمو • والولد متلاف ، عنيف ، غير متزن في حركاته ، خامل ، مشاكس ، عنيد ، ميال للظهور ، ولم يتمكن من الاستفادة من التعليم • عنده شئ كثير من عدم المبالاة بما يقول أو يفعل • وقد ظهرت في غلاف الغدة النخامية زيادة واضحة جداً عن الحجم العادى •

وقد نصحننا الوالد بأن يقلع عن فكرة التعليم النظرى المعروف ؛ بل يعطيه عملاً آلياً في الهواء الطلق ، يستدعى منه حركة جسمه كله ، كالعمل في حديقة صغيرة • وبالفعل وضعه والده في عمل من هذا النوع واستراح من الكثير من متاعبه • واستراح الولد كذلك من الكثير من مضايقات والديه •

وهناك حالة أخرى لطالب بالسنة الرابعة الابتدائية عمره خمس عشرة سنة طوله ١٧٥ سم ووزنه ١١٠ ك • ج • وكما يبدو من وزنه وطوله فهو ضخيم جداً رغم صغر سنه ، وهو لا يميل مطلقاً للعمل العقلى ، وقد تكرر رسوبه في الشهادة الابتدائية رغم المجهودات الجبارة التي بذلت معه •

٤ — الغدد التناسلية : (Gonads)

والغدد التناسلية هي الخصيتان في الرجل وتفرزان الحيوانات المنوية ، والمبيضان في المرأة وتفرزان البويضات • وهاتان المجموعتان من الغدد تفرزان هرمونات أهم وظائفها الخواص الجنسية الثانوية ، ومن هذه

الخواص في الرجل خشونة الصوت ، ونمو الشعر على العارضين والشفة العليا • وكذلك من الصفات السيكلوجية الميل الاستقلالي ، والميل للاعتداء ، وحب الزعامة ، والميل للمخاطرة والانتاج ، والميل نحو الجنس الآخر • ومن الصفات الجنسية الثانوية في المرأة نمو الشعر على العانة ، وتحت الإبطين ، وكبر الثديين ، ونشاط الغدد اللبنية ، والميل نحو الجنس الآخر وهذه الهرمونات بنوعها موجودة في كل من الرجل والمرأة غير أنه تغلب الهرمونات الذكورية عند الرجل ، والأثنية عند الأنثى • ويعزى لهذا في نظر بعض المفكرين وجود الصفات الأثنية عند بعض الرجال ، وبعض صفات الرجولة عند بعض النساء •

وقد كان للغدد الجنسية حظ وافر من التجارب العلمية ، فأجريت على الحيوان تجارب تتعلق بالنشاط الجنسي ودورته ، وسلوك الكائن الحي في أثناء هذا النشاط . وقد أجرى (Vornoff) تجارب على إعادة الشباب بواسطة مستخرجات الخصية من القرود ، ولاحظ مع عودة الشباب رجوع الخصائص السيكلوجية المصاحبة عادة لذلك • وقد أجرى (Steinach) تجارب عدة على الحيوان منها أنه نقل الغدد الذكورية إلى أنثى الخنزير الهندي من الخنزير الذكر ، والغدد الأثنية إلى ذكر الخنزير الهندي من الخنزير الأنثى ، ولاحظ تغير صفات الخنزير تغيرا واضحا تبعا للغدد التي نقلت إليه •

ويلاحظ أن الخصيان « الأغاوات » يفقدون بازالة خصاهم صفات كثيرة من صفات الرجولة ، فتجدهم في مجموعهم على شيء من نعومة الصوت ، والخمول ، والانصراف عن النزعات الجريئة ، وعن العمل لتحقيق أغراض جديّة •

وقد لوحظ في الحالات المعروفة بالجنون المبكر (Dementia Praecox) التي تتصف بالخور التام ، والاستسلام ، والشعور بالنقص ، أن تشريحها بعد

الوفاة يدل على ضمور في الخصيتين • ولا يمكننا أن نستنتج من هذه الحقائق فقط اذا كان ضمور الخصيتين سببا أو نتيجة للحالة العقلية المذكورة (١) •

٥ — الغدة الفوق الكلوية (الكظرية) (Supra-Renal Glands)

وهناك غدتان كل منهما فوق إحدى الكليتين ، وتتكون كل غدة من جزأين : خارجي ويسمى بالقشرة (Cortex) ، وداخلي ويسمى بالب Medulla وكل من هذين الجزأين يختلف عن الآخر في تركيبه ووظيفته • فهرمون القشرة يساعد على مواصلة بذل الجهد العضلي ، وعلى مقاومة العدوى • وزوال هذه القشرة يتسبب عنه الوفاة ، وضعفها يترتب عليه الضعف ، والكسل ، وعدم الاهتمام بالجنس الآخر ، وهبوط عام في الحيوية وفساد الحكم ، وعدم الميل للتعاون وقلة الصبر (٢) • أما الزيادة في نشاط القشرة فيترتب عليه زيادة مظاهر الرجولة سواء في المرأة أو الرجل • وهذه المظاهر تتناول الناحيتين العقلية وبعض النواحي الجسمية أيضا •

أما هرمون اللب واسمه الأدرنالين فيسبب في حالة زيادته عن حد الاتزان ازدياد ضربات القلب ، وازدياد عمل الرئتين ، وازدياد افراز السكر من الكبد ، وازدياد افراز العرق ، واتساع حدقة العين ، واندفاع الدم للمخ والعضلات ، بحيث ينشط العضلات الخارجية ، ويحدث تأثيرا مضادا على بعض الأعضاء الداخلية كالمعدة • فكان وظيفة الأدرنالين هي تنشيط الكائن الحي تنشيطا عاما ، وغايتها أنها في حالة وقوع الكائن الحي في مأزق يريد التخلص منه اما بالهرب أو بالمقاتلة تساعد على سرعة الخلاص ، أو سرعة المقاتلة ؛ فالأدرنالين يزيد من كفاءة الكائن الحي لتحقيق هذه الغاية •

وقد أشار برمان (Berman) (٣) الى ما سماه (The Adrenal Centred Type)

(١) Sir Fredrik Mott as Quoted by Rees : The Health of The Mind p. 68.

(٢) Woodworth; Psychology (4th edition); Henry Holt p. 175.

(٣) Berman : The Personal Equation p. 278.

وهذا النوع يكون سريع الاستفزاز ، نشطا ، سريع الغضب ، يبدو دائما متوتر الأعصاب ويكون عنده ضغط الدم مرتفعا ، ويصاحب هذا الارتفاع ما يصاحبه عادة من اضطراب النوم ، وسرعة توارد الأفكار ، وكثرة الهواجس وغير ذلك •

٦ - غماتا الطفولة :

وهناك غدتان تعرفان بغدتى الطفولة ، وهما الغدة التيموسية أو الصعترية (Thymus) وتقع فوق القلب ، والغدة الصنوبرية (The Pineal Gland) وتقع فى الدماغ خلف النخامية • وتسميان غدتى الطفولة لأنهما تضمزان عادة قبل البلوغ • وإذا لم يحدث هذا الضمور فالغدة تبقى رغم نموه كالطفل فى سلوكه وموقفه ، ويعيش ضعيف الإرادة بطيء التفكير نحيف الجسم طويله دقيق التقاطيع رفيع الصوت •

ويقال : ان عمل هاتين الغدتين مضاد لعمل الغدد التناسلية ، فنشاطهما يكف من نشاط التناسلية ويساعد على النمو فى الطول والوزن • وأما ضمورهما فانه يعطى الفرصة للغدد التناسلية لتظهر أثرها من حيث الخواص الجنسية بجميع أنواعها •

الاتزان الغددى :

لاحظنا أن كثيرا من الغدد لها مقابلها فى الوظيفة ؛ فـلغدة ما وظيفة ، ولغدة أخرى وظيفة مضادة • ومن أمثلة ذلك الدرقية وجاراتها ، وكذلك التناسلية وغدد الطفولة ، وكذلك بعض هرمونات الفص الأمامى للنخامية تضاد بعض هرمونات الفص الخلفى • لاحظنا كذلك أن بعض الهرمونات من غدة معينة تثير هرمونات غدد أخرى ، كما هو حادث بين النخامية والدرقية ، أو بين النخامية والتناسلية • لهذا نجد أن الهرمونات المتعددة مثلها مثل عدد كبير من القوى المعروفة فى علم « الميكانيكا » والتى تؤثر على جسم ما ، والنتيجة النهائية فى حالات الاتزان العادية هى سكون

الجسم تحت تأثير القوى المختلفة • ولذا فانه ليس من السهل اذا لاحظنا سلوك شخص ما أن تنسب حالته للزيادة أو النقص في افراز غدة معينة • فيكفى أن يختل الاتزان الغددي بأى طريقة كانت فنحصل على أعراض قد نخطئ وننسبها الى زيادة في نشاط الغدة الدرقية أو النخامية أو غير ذلك •

وليس معنى ما ذكرنا عن الغدد هو محاولة استيفاء الموضوع ، أو الاشعار بأن من وظيفة المعلم أو الوالد أو الباحث النفساني أو الاجتماعى أن يتدخل فيها تدخلا ايجابيا • وانما معناه أن يكون يقظا لاحتمال تأثيراتها ، فيوجه الحالات في الاتجاه الصحيح الى اختصاصى في الغدد ليقوم بدراستها ومعالجتها اذا لزم الأمر • والى جانب العلاج الطبى تحتاج الحالة في بعض الأحيان الى علاج نفسانى •

وقد ذكر شيفر^(١) حالة (لويز) وهى بنت كان أبوها يتوقع لها تقدما في التعليم ، فخابت ظنونه ، ووقف منها موقف الناقد المفرح ، مما زاد حالتها سوءا • ولما عرضت حالتها على الاختصاصى النفسانى ، ورأى الى جانب الأعراض الأخرى بطئا شديدا في التفكير رغم سلامته ، اقترح عرض الفتاة على اختصاصى في الغدد • وبالفعل وجد الأخير أن الغدة الدرقية في حاجة الى تنشيط ، وعولجت من هذه الناحية ، ولكن الى جانب العلاج الطبى كانت الفتاة في حاجة الى تصحيح موقفها نحو نفسها ، وكانت الحالة تستدعى أيضا تصحيح موقف الوالدين نحو الفتاة ، وهذا الجزء من العلاج قام به الباحث النفسانى بنجاح كبير •

أثر العقل في الجسم

لعل التصديق بأن الجسم يؤثر في العقل أسهل بكثير من التصديق بأن العقل يؤثر في الجسم ، فمن السهل على الناس أن يصدقوا كيف أن شرب

(١) Shaffer : Psychology of Adjustment p. 335

الخير يسبب « الهلوسة » المؤقتة ، وكيف أن أكلة ثقيلة تؤدي الى الشعور بالخمول ، وكيف أن حالة الزكام أو الامساك ، يترتب عليها شعور بالضيق والاقباض ، ولكن المشاهدات العديدة تدلنا كذلك على أن الحياة العقلية لها أثر قوى على الحياة الجسمية ، ولا ننوى الدخول فيما نسمعه عن مقدرة بعض الهنود مثلاً على اخضاع جسومهم لارادتهم الى الحد الذى يمكنهم من وضع أذرعهم مثلاً فى النار دون أن تحترق ، أو السير على أسنة مدببة دون أن تدمى أقدامهم العارية ، ولكن نكتفى بما يلاحظ فى الحياة اليومية والميادين العلمية المألوفة .

الحالات الانفعالية :

سبق أن تكلمنا عن الانفعال على أنه حالة عقلية صرفة يترتب عليها تغيرات جسمية واضحة . ولعل كثيراً من الناس يلاحظون أن شعورهم بالقلق النفسى ينتج عنه حالة امساك ، وحالة الامساك بدورها تزيد من حدة الشعور بالقلق ، وهذه الزيادة تزيد من حالة الامساك ، فكأنه تنشأ أحياناً فى مثل هذه الحالات حلقة مفرغة لا بد من قطعها فى نقطة ما حتى يمكن التخلص من حالتى الامساك والقلق فى وقت واحد .

ونعرف كذلك ما لحالات الغضب والخوف من آثار . فإذا كان الغضب متكرراً نتجت حالة مزمنة من سوء الهضم ، وارتفاع ضغط الدم ، ثم تنشأ الدائرة المفرغة التى يزيد تبعاً لها كل من الحالتين الجسمية والنفسية .

ومن الحالات التى يشير اليها كانون^(١) . حالة سيدة سافرت من الريف الى المدينة ليجرى عليها اختبار الغذاء ، حتى يساعد هذا الاختبار على تشخيص حالة معدتها . وطريقة ذلك هى اعطاء وجبة غذائية أول الأمر فى الصباح ، ثم استخراج جزء منها بعد مدة معينة بواسطة أنبوبة طويلة تولىج فى المعدة من الفم . وكانت السيدة قد حضرت الى المدينة فى اليوم السابق ،

(١) Cannon : Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage.

وقضت الليلة في فندق ، ثم ذهبت في الصباح الى الطبيب المختص ليجرى عليها الاختبار . ولكنه وجد باستخراج « العينة » من المعدة أن معها كثيرا من طعام عشاء الليلة السابقة لم يهضم بعد وبلاستقصاء اتضح أنه بعد أن تناولت هى وزوجها طعام العشاء . خرج الزوج القادم من الريف ليمتع نفسه بشرب الخمر في المدينة ، فقلقت الزوجة عليه ، وتأملت من عمله . وكانت نتيجة الحالة الانفعالية أن بطل عمل المعدة في هضم طعام بقى ما يزيد على اثنتى عشرة ساعة ، وكان في الظروف العادية لا يبقى منه شيء في ظرف ساعتين أو أكثر من ذلك بقليل .

امثلة من تحقيق الجسم للنزعات العقلية :

هناك حالات عادية تمر علينا كل يوم يمكن تفسيرها بعد تأملها . ومن هذا مثلا حالة شخص كان ينتابه صداع شديد في أيام الجمعة عند الاستيقاظ من النوم . واستمر يظهر هذا الصداع عنده مدة طويلة . واتضح بعد ذلك أن ظروفه كانت تفرض عليه واجبا عائليا لابد أن يؤديه يوم الجمعة . وهذا الواجب ليس في الحقيقة محببا الى نفسه ، ولكن التقاليد والمجاملات تحتم عليه ابداء سروره من قيامه بهذا الواجب . فالتأبته لهذا حالة صداع يستيقظ به يوم الجمعة . ويساعده بالطبع على الاعتذار عن أداء هذا الواجب دون أن يشعر بتأنيب الضمير لقراره من واجب بغير سبب وجيه . وهناك اعتقاد بأن أوجاع الرأس والأمراض التى تنتاب التلاميذ في الفترة السابقة للامتحان لا ترجع كلها للانهاك ، أو لسبب جسمانى ، وانما يرجع قسط كبير منها عادة للخرف اللاشعورى من مجابهة الاختبار الذى لا مفر من مجابهته . وهناك حالة أخرى لسيدة تزوجت بشخص ينتمى لأسرة متدينة محافظة . فلما حل شهر رمضان عقد الزوج وزوجته نيتهما على أداء فريضة الصوم ، فلما جاء ميعاد الوجبة التى تؤخذ قبل الفجر (السحور) شعرت السيدة فجأة بالآلام شديدة حادة في أوراكها ، وانهمرت دموعها من شدة التألم .

واقضى الوقت دون أن تتناول طعامها ، وأصبح لديها بذلك عذر مقبول
يرر عدم الصوم • ولما جاء الوقت الذى يكف فيه كل صائم عن الأكل
وهو قبيل الفجر أفاقت السيدة اذذاك من حالتها ، وأصبحت كأن لم يكن بها
ألم بالمرّة • فالألم الجسمى فى هذه الحالة — وكان حقيقيا لا ادعاء فيه —
أدى وظيفة هامة ، وهى حماية هذه السيدة من الصوم دون المساس بتقاليد
الأسرة الجديدة •

وحالة ثالثة وهى لطالب أرسله والده الى العيادة السيكولوجية وسنه
تسع عشرة سنة بشكوى أن الولد تتابه نوبات عصبية شديدة مصحوبة
بغيبوبة • والولد على درجة كبيرة جدا من الذكاء والحساسية وصحته
العامّة فى مجموعها حسنة ، ما عدا بعض الضعف الناشئ من وقت بدء
النوبات مما يرجح فكرة أن النوبات لا ترجع لسبب جسمى ، وانما ترجع
لسبب عقلى ، وقد أمكن الوصول الى هذه النتيجة بعد فحص الشاب
فحصا طبيا دقيقا للغاية شمل مع النواحي العادية المعروفة نواحي تحليل
الدم والبول والبراز • ثم اتجه البحث بعد ذلك لدراسة حالته النفسية ،
فتبين أن والده كان قد اختلف مع والدته فطلقها وتزوج غيرها • وفى أحد
الأيام كان الطالب جالسا مع زوجة أبيه فأخذت تحدثه عن علاقتها بأبيه
وكيف اتفقا على الزواج ... الى غير ذلك • وشعر الولد فى ذلك الوقت
أنه ممزق بين أمرين : أحدهما وجوب حسن الاستماع تأدبا منه ، والآخر
تفوره من الاستماع لقصة مبغضة الى نفسه ، لعلاقتها بما ينغص معيشته
ومعيشة أمه • وبعد هنيهة نادى خادمتة واحتد عليها بلا سبب كاف ، ثم
بكى وضاق صدره وأغمى عليه ، وتكررت بعد ذلك نوبة الاغماء فى ظروف
يطول شرحها فى هذا المقام • وقد أمكن معالجة الولد من النوبات الى
أن انقطعت تماما وذلك بتركه يتحدث ويربط حاضره بماضيه • ويجعله
يواجه ظروفه وصعوباته مواجهة أقوى مما سبق له أن يفعل •

وحالة أخرى وهى حالة بنت عمرها احدى عشرة سنة أصاب ابصارها فجأة ضعف شديد واتضح أنه لم يكن هناك سبب عضوى يفسر هذا الضعف • ولكن البنت كانت تعيش فى وسط يهتم بأخيها وبأختها أكثر منها بكثير • وقد نجح هذا الضعف فى أداء وظيفة هامة للبنت ، وهو أنه حول اهتمام الأسرة كلها اليها بدرجة شديدة • أما العلة فى أن الحالة النفسية للبنت تعبر عن نفسها بهذه الصورة فشرحها يحتاج الى افاضة ليس هذا مكانها •

وهناك حالات كثيرة من هذا النوع يقوم فيها عضو أو أكثر من أعضاء الجسم بخدمة الفرد عن طريق المرض المؤقت أو الدائم • ومن أمثلة ذلك حالات الشلل فى الجند لحمايتهم من الحرب دون أن يفقدوا شرف الجندية ، وحالات الشلل بين العمال بصورة تريخهم من العمل ومن تحمل المسئولية ، وتذهب بهم الى حيث يجدون العطف والرعاية ، وحالات الحمل الكاذب عند السيدات اللواتى طالت بهن مدة الزواج دون أن يحملن وهن يتمنينه أحيانا ارضاء لرغباتهن أو رغبات أزواجهن • وهناك حالات فى الصمم والعمى وغير ذلك يمكن تفسيرها بنفس الطريقة •

أثر الايحاء :

وأثر الايحاء فى الحالات الجسمية أمر معلوم ، ففكرة الصحة ، أو المرض ، أو الغثيان يمكن أن تؤدى الى الصحة ، أو المرض ، أو الغثيان • وقد أجرى أحد الأطباء النفسيين واسمه ساتو (Satow) ^(١) تجربة قال انه ندم بعض الندم بعد اجرائها • كان ساتو يعالج مرضاه الى حد كبير بالايحاء الجمعى ، وفى يوم من الأيام وزع على مرضاه كتوسا من النيذ ، وبعد أن شربوا بقليل عاد اليهم ، واعتذر وأبدى أسفه الشديد ، وقال (بغير حق) انه كشف أن الذى أعطاه اياهم لم يكن نيذا ، وانما كان دواء مقبى ، وقد أخطأ

(١) Satow : Suggestion and Hypnotism.

لتشابه الزجافات عليه ، وبعد قليل قام أحد المرضى ليتقيأ ، ثم تبعه ثان ، ثم ثالث الى أن تقيئوا جميعا •

والعلاج الطبى يرجع قسط كبير من نجاحه الى ما يصاحبه من ايحاء بالشفاء ، واذا توافرت العقيدة أمكن الوصول أحيانا الى الشفاء دون أخذ الدواء وطريقة كوى (Coulé) قائمة على هذا الأساس • وعلى سبيل المثال أذكر حادثا وقع لكاتب هذه السطور ، فقد كان عنده يوما ما صداع شديد ، ولم يرد أن ينقطع عن العمل ، فأخذ معه في جيبه قرصا من « الأسبرين » ؛ ولكنه نسى أن يبتلعه ، واعتقد أنه أخذه ، وشعر فعلا بالدفع والانتشاء الذى يصاحب أخذ « الأسبرين » ، واكتشف بعد ذلك أن « الأسبرين » ما زال كما هو بجيبه •

وحادث آخر لشخص كان مصابا بالربو (Asthma) ، وكان يسكن بأحد الفنادق فاستيقظ بالليل ضيق الصدر ، شاعرا بالحاجة الى هواء نقي ، فقام يتلمس مفتاح النور فلم يعثر عليه ، فأخذ يتلمس مكان النافذة ، وأخيرا أحس بلمس الزجاج ، فحاول فتحه فلم يتمكن ، فدفعه بيده بعد أن وقاها بملابسه وكسره وأخذ نفسا عميقا ، واستراح مما كان عنده من ضيق ، ونام هادئا مسرورا • واستيقظ فى الصباح فوجد أن زجاج النافذة ما زال مغلقا وأن الذى كسره هو زجاج ساعة كبيرة معلقة فى الحائط • وأنه لم يستشق فى واقع الأمر ما ظن أنه استنشقه من هواء نقي (١) •

خاتمة :

بحثنا فى هذا الفصل أهم النواحي التى توضح وجود علاقة بين الحياة الجسمية والحياة العقلية للفرد ، ووجدنا أن من اللازم عند دراستنا لمشكلات الصحة العقلية أن ندرس الناحية الجسمية دراسة مستفيضة • فكثير من الأعراض الجسمية يمكن أن نعثر له على عوامل عقلية • وكذلك الأعراض العقلية يمكن فى كثير من الحالات أن نعثر لها على عوامل جسمية •

المراجع

- Aveling : Personality and Will.
Bannister : Psychology and Health. Ch. XIII & XIV.
Berman : The Glands Regulating Personality.
Berman : The Personal Equation.
C. Bloor : Temperament.
Bode : How We Learn.
C. Burt : The Young Delinquent. Ch. V & VI.
C. Burt : The Backward Child. Ch. VI & VII.
Cannon : Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage.
Firth : Human Types.
Fox : The Mind and Its Body.
Gordon : Juvenile Delinquency. Ch. VIII.
Joad : The Workings of the Mind.
Kretschmer : Physique and Character.
Mc Dougall : Body and Mind.
McDougall : An Outline of Psychology.
Miller : Types of Mind and Body.
Rees : The Health of the Mind. Ch. II & III.
Shaffer : Psychology of Adjustment.
Starling : Principles of Human Physiology.
Woodworth : Psychology : The Study of Mental Life.

الفصل الرابع

الغرائز والحاجات

مقدمة:

لكي نفهم مشكلات الصحة العقلية — أو مشكلات السلوك بوجه عام — يلزمنا أن نفهم أولاً السلوك العادي ، وتتقضى دوافعه والعوامل التي تفسره ، ونقف على تطوراتها ، وكيفية تأثره . وتطلق كلمة سلوك على الأفعال التي يأتيها الفرد ويكون لها بالحياة النفسية أو العقلية عنده علاقة ، ولذا تطلق كلمة سلوك عند أغلب علماء النفس الحديثين على السلوك العقلي (Behaviour) ، ولهذا نخرج من حسابنا الأفعال العشوائية والأفعال المنعكسة . والأفعال العشوائية (Random Movements) هي تلك الأفعال الآلية التي نلاحظها في صغار الأطفال من تحريك اليدين والرجلين حركات مختلفة مستمرة لا يبدو لنا فيها نظام أو توافق . وربما كان لهذا حكمة في تمرين عضلات الطفل ، وفي إيصاله بالعالم الخارجى عن طريق الاصطدام الذى لابد أن يحصل بين هذه الأعضاء وبين أجزاء العالم الخارجى . وأما الأفعال المنعكسة (Reflex Actions) فهي مجموعة ردود أفعال تصدر عن الإنسان بطريقة آلية ثابتة ، ومن أمثلتها انقباض حدقة العين ، وضيق فمحتها بازدياد الضوء الواقع عليها ، واتساعها بقلتها ، وكالسعال ، والعطس ، وسيلان اللعاب ، وغير ذلك من الأفعال الآلية . وكل من الأفعال المنعكسة والأفعال العشوائية يمكن أن تتم دون تدخل من الشعور أو الحياة العقلية ، ولكل منها حكمة لا يقصدها الكائن الحي أثناء صدورها منه .

أما ماعدا ذلك من الأفعال فيطلق عليها اسم السلوك العقلي ، وهو يتميز بصفة هامة ، وهى أن الكائن الحى عند قيامه بها يرمى الى تحقيق غرض معين . وهذا الغرض (الموجود فى عقل الكائن الحى) ، والذي يرمى الى تحقيقه يعطيه صفة هامة وهى صفة التلقائية (Spontaneity) ؛ فالإنسان أو الكلب أو القط يتحرك من تلقاء نفسه لغرض يرمى الى تحقيقه ؛ كالنزهة ، أو اللعب ، أو تناول الطعام ، أو غير ذلك . والكائن الحى يتأثر عادة فى سلوكه بالمؤثرات الخارجية ، ولكن ليس كل ما يقوم به الكائن الحى من سلوك عبارة عن رد آلى للمؤثرات الخارجية . وانما يدل السلوك على أن هناك مجموعة من القوى أو الدوافع أو المحركات التى تدفع الكائن الحى للقيام بسلوك يرمى الى تحقيق غرض معين .

وبالموازنة بين سلوك الانسان وسلوك الحيوان ، وكذلك بالموازنة بين أنواع سلوك الانسان فى مراحل النمو المختلفة وصل علماء النفس الى أن الدوافع الأولية للسلوك واحدة فى الانسان والحيوان الراقى . وهذه الدوافع فطرية وراثية . والذي سهل كشف هذا هو ما بين سلوك الانسان والحيوان من تشابه لا يصعب ادراكه فى كثير من الأحيان . فالمرء اذا جلس فى حضرة شخص عظيم استشعر الخضوع ، وبدأ على عضلاته بعض الترهل ، ولم يجرؤ على رفع صوته أو الاحتداد ، أو تقطيب الوجه ، كذلك الكلب الصغير مثلاً فى حضرة الكلب الكبير ، تبدو عليه علامات الذلة والخشوع كتهدل العضلات ، وانخفاض الذيل واختفائه بين الأرجل الخلفية وما الى ذلك . وأما الكلب الكبير فيبدو عليه فى مثل هذا الموقف التيه والتعاضم ؛ كما يختال الانسان ويتيه فى حضرة من هم دونه . وكما أن الأم تهيب لطفلها المكان والملابس وكل اللوازم قبل الوضع وتعنى به بعد الولادة ، وتحميه من كل خطر تتوقعه ، فكذلك الحمامة ، تعد عشها ، وتهيبه بالقش وتثبته عادة فى مكان آمن بعيد ، ثم ترقد على بيضها ، وتبدى عنايتها الشديدة به ،

وتخنو على صغارها وتدفع عنهم الأذى • وهكذا نجد تشابها كبيرا بين الحيوان والانسان في الحالات المعروفة بالخوف والغضب والجوع والاجتماع الجنسي والاستطلاع والاستجداد وغير ذلك •

وهذا النوع من الدراسة التتبعية (Genetic Method) الذى تتبع به السلوك فى الحيوان بمراتبه المختلفة الى أن نصل الى الانسان ، وتتبع به سلوك الانسان فى أدوار نموه المختلفة ، أدى الى سهولة كشف الدوافع الفطرية للسلوك •

وتنقسم هذه الدوافع الفطرية بحسب رأى مكدوجل^(١) الى نوعين :

(أ) النزعات الفطرية الخاصة أو الغرائز •

(ب) النزعات الفطرية العامة •

الغرائز :

الغرائز عند الانسان هى ما لديه من استعدادات فطرية تدفعه للقيام بسلوك خاص اذا ما أدرك نفسه فى موقف أو مجال معين ، ومن الغرائز التى أثبت وجودها مكدوجل ما يأتى :

١ — غريزة الخلاص : وهى استعداد يستثار فى الانسان اذا ما أدرك نفسه فى موقف خطر ، ويشعر ازاءه بانفعال الخوف ، ويرمى اذ ذاك الى تخليص نفسه بالهرب ، وهذه الغريزة موجودة بالطبع عند الانسان والحيوان ، ولا يتعلمها الكائن الحي ، وتظهر فيه منذ الطفولة •

٢ — غريزة المقاتلة : وهى استعداد يستثار فى الانسان اذا ما أدرك نفسه ازاء عائق يقف فى سبيل تحقيق رغباته ، ويشعر ازاء هذا العائق بشعور الغضب ، وينزع الى تهشيم العائق والتخلص منه عن طريق هجومه عليه

(١) رأى مكدوجل هو أكثر الآراء شيوعا واقواها الى الآن ، ولم نرد أن نتوسع فى التعرض لآراء الآخرين أمثال نورنديك والسلوكيين وأئمة مدارس التحليل النفسى ومدارس الجشتالت وأمثال شنيدر وترتر وتانسلى وغيرهم لعدم ملاءمة المجال لعرض نقط جدلية ومناقشة نظرية صرفة •

ومقاتلته اياه • وغريزة المقاتلة موجودة عند الانسان والحيوان ، وتظهر في الطفل دون أن يعلمه اياها أحد •

٣ — غريزة الوالدية : واتعمالها المصاحب هو الجنو ، وهي تستثار عند ادراك الضعف في الآخرين وحاجتهم الى المساعدة • وهي تظهر متأخرة عند الانسان ، أى أنها لا تظهر على الأقل في السنوات الأولى : وتتجه بصورتها الفطرية نحو حماية الذرية ، ولكنها بصورتها المعدلة تتجه الى موضوعات أخرى كالفقراء أو العجزة أو الحيوان أو المجتمع •

٤ — غريزة الاستطلاع : وتستثار اذا وجد الانسان نفسه أمام موقف يهمه ، مألوف منه جزء بالنسبة اليه ، فينزح الى استطلاع بقيته • وهذه الغريزة هى التى تدفع الأطفال الى العبث بكثير مما يقع تحت ناظرهم •

٥ — غريزة البحث عن الطعام : وهى ظاهرة معروفة عند الكبار والصغار سواء في ذلك الحيوان أو الانسان ، وتظهر بعد الولادة مباشرة •

٦ — غريزة الاستغاثة : وتظهر عند شعور الانسان بالضعف ، والعجز ، والحاجة الى المعونة ، ومظهرها البدائى الصراخ عند الحيوان والانسان • وتظهر في الأطفال كذلك دون سابق تعليم •

٧ — غريزة النفور : وتستثار في الأصل من دخول بعض المواد الغريبة في الفم ، ولكن يستثيرها في الكبر منظر مقزز ، أو سلوك شائن •

٨ — الغريزة الجنسية : وغايتها الأصلية هى الاتصال الجنى المؤدى الى التكاثر وتظهر في الانسان مكتملة النمو في دور المراهقة •

٩ — غريزة السيطرة : وتظهر اذا وجد الانسان نفسه في موقف يشعره بالقوة ، ونشاهدها في الأطفال ، وفي الحيوان ، كالخيل والطاووس ، وغير ذلك •

١٠ — غريزة الخنوع : وتظهر اذا وجد الانسان نفسه في موقف يشعره

بالعجز ، ويترتب على هذه الغريزة وسابقتها تقسيم الجماعات الى زعماء وتابعين • كما يترتب عليهما — الى حد ما — الشكل الذى تتخذه فكرة المرء عن نفسه •

١١ — غريزة التملك : وغايتها حيازة الأشياء ، وتظهر فى الطفل منذ مد يده للقبض على ما يراه • ولكنها تظهر بصورة قوية فى الأطفال بعد سن الخامسة ، عندما تجد جيوبهم محشوة بمختلف الأشياء • وهى موجودة عند الحيوان وتظهر بوضوح فى السنجاب والنمل • ولو أنها فى الحيوان تخدم — بصورة واضحة — غرائز أخرى كالبحث عن الطعام •

١٢ — غريزة الحل والتركيب ، أو الهدم والبناء : وهى تبدو فى عبث الانسان بيديه بالأشياء لمجرد العبث ، وهى ظاهرة فى الأطفال ، وفى الكبار بدرجة أقل • وقد يقوم نشاط هذه الغريزة بخدمة أغراض غريزة الاستطلاع •

١٣ — الغريزة الاجتماعية : ومظهرها ميل الانسان الى الاجتماع ببنى جنسه وهى بارزة فى الحيوانات الضعيفة كالغنم ، والجاموس ، والطيور غير الجارحة • وهى ضعيفة فى الحيوانات القوية ذات العضلات القوية والمخالب والأنياب الحادة • الا أن انتقال الحيوانات القوية الى حالة الضعف يثير عندها هذه الغريزة •

١٤ — غريزة الضحك : وقد اختلف العلماء فى تفسير الضحك تفسيراً واضحاً الا أنهم اتفقوا على أنه سلوك غريزى فى الانسان • وتوجد بضعة غرائز أخرى يرتبط أغلبها بالحاجات الجسمية العادية كالنوم والتبول وغير ذلك •

واذا حللنا سلوك الانسان فانا نصل فى النهاية الى غريزة أو مجموعة غرائز ، فالتدخين مثلاً قبل أن يصبح عادة يمكننا أن نقول : ان مصادره هى غرائز السيطرة ، والاجتماعية ، والاستطلاع • فالسيطرة تفسر تدخين الولد

عندما يفعل ذلك خصوصا في سن المراهقة ويشعر بذلك أنه كبير ، أو يريد أن يعتبر نفسه كبيرا ، وأن التدخين أسلوب يصل به الى مصاف الكبار ، والاجتماعية تفسر كيف أن التدخين أسلوب بسيط للسلوك ، اذا قام به أكثر من فرد واحد في مكان واحد ، فانه يربطهم بعضهم ببعض . والاستطلاع يفسر كيف أن أول (سيجارة) يدخنها الفرد ، انما يدخنها للاستطلاع ، والتجريب ، ولمعرفة طعم الدخان ، وكيف توقد (السيجارة) ، وكيف تنتهى . الخ . ويلاحظ أن السيطرة والاجتماعية والاستطلاع كلها هنا دوافع ، أو قوى ، تدفع الانسان للقيام بالتدخين . ولم تقصد في هذا المقام أن نستكمل تفسير التدخين بعد التعود ، وانما قصدنا الى ذكر أهم الدوافع الأصلية التي تجعل التدخين محببا الى المرء أول الأمر .

والدوافع للسلوك تكون في أحيان كثيرة دوافع غير مباشرة ؛ فحب العلم والانكباب على طلبه قد يكون حقيقة بدافع الاستطلاع ، وقد يكون من بين الدوافع اليه دافع المقاتلة ، وذلك اذا واجهت المرء مشكلة تتحدها وأراد التغلب عليها . ولكنه قد يكون كذلك بدافع كسب الرزق للبحث عن الطعام ، وبدافع تحسين الذات ، حتى يروق المرء في نظر شخص آخر يميل اليه ، وفي هذه الحالة قد يكون الدافع الجنسي سببا غير مباشر في الانكباب على طلب العلم . ونعلم أن العالم الرياضى — نيوتن — كان متأخرا جدا في سنى دراسته الأولى ، وفي يوم تشاجر مع تلميذ آخر ، وهزم هزيمة منكرة ، فصمم على التغلب على خصمه في الدراسة . وبالفعل شد عزيمته ، وركز اهتمامه في الدراسة ، وكان له ما أراد . ومن ثم تدرج من نجاح الى آخر ، حتى وصل الى ما نعرفه عنه من وضع أسس العلوم الرياضية والفلكية الحديثة . فكان الدافع الأول لنيوتن على العمل والبحث كان مزيجا من دافعى السيطرة والمقاتلة . ليس معنى هذا أن الدافع وحده يفسر تفوق نيوتن ، فلا بد مع وجود الدافع من توافر المقدرة على تحقيق غايات هذا الدافع .

لنأخذ مثلاً آخر : المدرس الذى يضرب تلميذا ضرباً عنيفاً ، لأنه لم يؤد واجبه المنزلى . يحس احساساً غامضاً بأن عدم أداء الواجب المنزلى مظهر من مظاهر العصيان . وهذا يصطدم مع غريزة السيطرة عند المدرس . وربما يكون عند المدرس احساس غامض آخر بأن عدم أداء الواجب المنزلى قد يؤدى الى تأخر التلميذ ، وهذا بدوره قد يؤدى الى سوء نتيجة الامتحان فى الفصل ، أو سوء تقارير المفتشين عن المدرس ، مما قد يؤثر — ولو الى حد — فى كسب المدرس لعيشه ، فيصطدم الموقف بذلك — ولو اصطداماً جزئياً — بغريزة البحث عن الطعام . أو قد يؤثر فى شعور المدرس بكرامته ، فيصطدم الموقف بذلك مع غريزة السيطرة . هذا مع العلم بأن المدرس لو لجأ الى التفكير المنطقى لسلک سبيلاً أخرى .

تدلنا كل هذه الأمثلة على امكان ارجاع سلوك الانسان الى الدوافع الأولية الفطرية المسماة بالغرائز . وهذه الغرائز هى القوى أو المحركات الأساسية للسلوك . وقد أدى كشفها الى تغيير موقف المربى ازاء عمله ، فبعد أن كان الطفل عندما يولد ينظر الى عقله كأنه صفحة بيضاء ، ينقش عليها المربى كل ما يريد ، أصبح من المعروف أنه يولد وعنده قوة تدفعه للقيام بأنواع من السلوك يخدم كل منها غاية حيوية معينة . وبذلك أصبح لدى المربى نقط أساسية يمكنه أن يبدأ منها عند محاولته توجيه الطفل أو تربيته ، أو محاولة فهم سلوكه . وقد أصبح للتربية معنى جديد ، فبعد أن كان المفروض أن يقوم المربى بكل العمل لتكوين الطفل بالصورة التى يريد ، أصبحت مهمته هى تهيئة الظروف لانماء القوى الموجودة فعلاً فى الطفل على أحسن وجه ممكن . وهذه القوى هى الخامات أو المواد الأولية التى تستعمل فى تكوين الفرد فى نواحيه العقلية والخلقية المختلفة .

النزعات الفطرية العامة :

والى جانب الغرائز يقرر علماء النفس وعلى رأسهم مكيدوجل أن هناك مجموعة نزعات يسميها بالنزعات الفطرية العامة وهى^(١) : —

١ — القابلية للاستهواء Suggestion

٢ — المشاركة الوجدانية Sympathy

٣ — التقليد Imitation

٤ — اللعب Play

والمشاركة الوجدانية هى أن الكائن الحى يشعر بالحالات الانفعالية التى تجرى فى كائن حى آخر من نفس النوع عند ادراكه المظاهر الخارجية لهذه الحالات الانفعالية فاذا سمع الانسان شخصا يضحك ، فانه يشعر بشعور الطرب ، ويضحك أو يبتسم ؛ أى أن شعور الفرح أو الطرب ينتقل من شخص الى آخر ، بعد ادراك الأخير لمظاهر التسلية فى الأول، بسماعه ضحكه أو رؤيته ابتسامه . والمشاركة الوجدانية تزيد بازدياد الرابطة الاجتماعية . وهى نفسها عامل أساسى فى تقوية الروابط الاجتماعية . وتنتقل الانفعالات فى الجماعات الكبيرة أسهل مما تنتقل فى الجماعات الصغيرة ؛ فالنكتة التى تنتقل فى وقت ما من شخص الى شخص واحد فقط لا تثير فى العادة كمية الضحك التى تثيرها اذا سمعها جمهور من خطيب . وكمية الضحك فى هذا الجمهور اذا كانت تربط أفراده علاقة تكون أكثر وأقوى غالبا مما اذا لم توجد بينهم علاقة ما . والجو المنزلى ، أو المدرسى ، الذى تسوده حالة انفعالية ما ؛ كالكتابة أو تقدير الجمال ، أو الكراهية ، أو الحنو ، أو الإعجاب بالعظماء ، أو غير ذلك ، تجد أن من يعيشون به من الصغار يتأثرون به تأثرا سريعا عميقا ، لا سيما اذا كان المصدر الأول لهذه الحالات الانفعالية هو الكبار المهيمنون على هذا الجو . وفى الانسان ما يساعده على التعبير

(١) لا يتسع المقام هنا لتفصيل أسباب تسميتها بالنزعات الفطرية العامة ، وسنفصل هذا ان شاء الله فى مناسبة أخرى .

الانفعالي ، كالصراخ ، والضحك وتقطيب الوجه ، والجري والرقص ، وتحريك اليدين وغير ذلك • وفي زميله الانسان ما يساعده على ادراك هذه التغييرات ، والشعور توا بما وراءها من انفعالات ، مما يؤدي الى تكوين وحدة في الشعور الانفعالي بين جماعات الناس ، ومما يساعد على فهم الشخص المتأثر للحالة النفسية الداخلية عند الشخص المؤثر •

والتقليد هو انتقال السلوك من كائن حي الى كائن حي آخر يكون غالبا من نفس النوع • فالولد يقلد أبويه في الكلام ، والمشية ، وأسلوب المعيشة ، وغير ذلك • والمواطنون يقلد بعضهم بعضا في الملبس ، وطرق التحية ، وأساليب التعامل بوجه عام • وأنواع السلوك التي يقوم بها أفراد أمة نوعان : تقاليد ثابتة كالأديان وأخرى متغيرة كأشكال الملابس • والتقليد يكون مصحوبا بمشاركة وجدانية في أحيان كثيرة ، أو مصحوبا باعجاب المقلد بالمقلد • ويدفع للتقليد شعور الفرد بالاعجاب بالشخص ، ولهذا تقلد العظماء والكبراء والآباء ، والمدرسين ، أو شعور بالاهتمام بالعمل نفسه ، فاذا رأيت شخصا يقوم بحركة معقدة ، فقد أنزع الى تقليدها لكي أفهمها أو لكي أتقن أدائها ، أو رغبة في تحقيق الغاية التي يرمى اليها هذا العمل • والصغير شديد التقليد لمن هم أكبر منه لشعوره بأن التقليد يجعله في مصاف الكبار ، والطفل ميال للسيطرة والنمو •

• والقابلية للاستهواء هي استعداد الشخص لتقبل فكرة من آخر مع عدم استيفاء الأسباب المنطقية الكافية لذلك • فيكفي أن نسمع خبرا من حجة فنصدق هذا الخبر ، ويكفي أن نقرأ رأيا في كتاب ، أو خبرا في جريدة يومية ، فنصدقه أو على الأقل نميل الى تصديقه • ويتقبل الأطفال كثيرا من آراء الكبار المحيطين بهم ، ويأخذونها أحيانا عقائد راسخة • فتقبل الطفل لعقيدة والديه ، أو لكثير من مبادئهما ، يأتي عن هذا الطريق • ويسهل امتصاص الأفكار من الزعماء ، والقادة ، والآباء ، والمعلمين المحبوبين لوجهة مراكزهم وصيتهم • وهذه النزعات الثلاث تسمى بالنزعات الاجتماعية ، لأنها تكون أظهر ما يمكن في المجتمعات • وهي التي تعمل فوق ذلك على تقوية الروابط

الاجتماعية ، وزيادة الانسجام العقلى فى الجماعات • ومن الضرورى الاهتمام بها فى تكوين الوعى الاجتماعى • ومن المهم جدا كذلك مراعاتها فى دراسة الأطفال ، وطرق تربيتهم •

والنزعة الرابعة هى نزعة اللعب ، والفرق الأساسى بين الجد واللعب أن العمل الجدى لا يقصد عادة لذاته ، وانما يقصد لغاية خارجة عنه • وأما اللعب فانه يقصد لذاته • ولعب الأطفال فى مراحل نموهم المختلفة له وظائف هامة فى حياتهم • ففى اللعب فرصة طيبة للتعبير عن غرائزهم التى لا يعبرون عنها التعبير الكافى فى حياتهم الجدية الواقعية • ففى اللعب الالهامى يقوم الطفل بدور المدرس أو الوالد أو الطبيب ، ويسيطر على زملائه كأنهم جميعا أصغر منه • وبذلك يعبر عن السيطرة التى لا تتاح له الفرصة فى الحياة الواقعية لأن يعبر عنها تعبيراً كافياً • وفى اللعب فرصة طيبة يستغلها الفرد ليمرن عضلاته ويمرن عقله ويمرن نفسه على فهم غيره ، وعلى حسن الاتصال به • وقصارى القول يمكن أن يمرن الفرد — عن طريق اللعب — قواه واستعداداته كلها للحياة المستقبلية •

وهذه النزعات الأربع كلها نزعات فطرية ؛ الثلاث الأولى منها كما قلنا اجتماعية • أما اللعب فانه يمكن أن يكون فردياً ، ويمكن أن يكون اجتماعياً • ويضاف الى ذلك أن التقليد ، والمشاركة ، واللعب كلها موجودة لدى الحيوان بشكل واضح • وأما القابلية للاستهواء فانها يغلب أن تكون لدى الانسان فقط •

ويضيف بعض علماء النفس نزعة فطرية خامسة وهى الميل للتكرار ، وبنوع خاص التكرار الايقاعى (Rhythm) • والذين يلاحظون الأطفال يجدون أنهم يكررون قذف كرة مثلاً مئات من المرات ، أو النطق بكلمة ما أو بصوت ما مرات عديدة كذلك • ويعلل هذا الميل للتكرار بأنه يؤدى الى سهولة الأداء ، وبذا تصحبه لذة السيطرة والشعور بالقدرة • فقيام الطفل بحركة ما ، ورغبته فى اتقانها ، تدفعه الى تكرارها • والنجاح فى الاتقان يدفعه الى تكرار الحركة • ولا مانع من اعتبار الميل للتكرار نزعة عامة خامسة أو اعتبارها داخلية فى

النزعة للعب • ويمكن أن تفسر بالميل للتكرار المنتظم ميل الأطفال الى الرقص والموسيقى والرسم الزخرفى البسيط وما الى ذلك •

وقد اختلف علماء النفس فى تقسيمهم للنزعات الفطرية اختلافات كبيرة • فقد أكد فرويد (Freud) مثلا أن الغريزة الجنسية هى مصدر الطاقة البشرية • ولكن فرويد توسع فى معنى الغريزة الجنسية توسعا أخرجها عن معناها المعروف • ففى رأيه أن كل لذة أو سرور انما مصدره الغريزة الجنسية ، التى تبدأ تعمل بصورة ما منذ الولادة • ففى رأى فرويد أن التلذذ من الامتناس ، ومن التبرز ، والتبول ، والاحتضان ، — وكلها تحدث فى السنة الأولى — انما هو تلذذ جنسى • ويوجه الى هذا الرأى اعتراضات وجيهة ، لعل أهمها الرأى القائل بأن هذه العمليات لها قيمة بيولوجية هامة • وعلى ذلك فانها يجب أن تكون لذيدة حتى تتم على وجه مفيد • فتناول الطعام ومضغه لذيد ما دام الانسان جائعا لقيامه بسد حاجة بيولوجية • فاذا ما شبع الانسان قد تصبح أشهى أنواع الأطعمة مقززة ممجوجة • هذا الرأى قال به سبنسر (Spencer) • وأخذ عنه من علماء النفس الحاليين كثيرون أمثال هادفيلد^(١) (Hadfield) • واعتراض آخر أن تفسير فرويد^(٢) وأتباعه لأنواع السلوك بالغريزة الجنسية يستلزم كثيرا من اللف والدوران ، فليس من السهل أن تفسر ميل شخص للعلوم الرياضية وعدم ميله للعلوم اللغوية مثلا على أساس الغريزة الجنسية بتفسيرات قريبة المنال •

ومن الآراء التى ظهرت فى هذا الميدان وأصبح لها شأن كبير رأى أدلر (Adler) الذى يعتقد أن الدافع الوحيد لدى الانسان فى كل أنواع سلوكه هو دافع السيطرة • وهذا الرأى شبيه بسابقه فى أنه يصدق فى حالات كثيرة ، ولكن تفسيره لكل أنواع السلوك بدافع واحد وهو السيطرة يبدو فى كثير من الأحيان صناعيا متكلفا •

(١) محاضرات الدكتور هادفيلد فى الصحة العقلية لطلبة جامعة لندن سنة ١٩٣٣ •
(٢) لا يقلل هذا النقد من قيمة فرويد فهو كما سماه مكدوجل — وهو من أكبر ناقديه — أكبر عالم نفسى ظهر بعد أرسطو •

ومن الاتجاهات المتطرفة اتجاه « ثورنديك » وأتباعه الذين يؤمنون بالسلوك الغريزي (Instinctive Behaviour) ويهملون فكرة الغرائز . وبذلك يضعون قوائم مطولة تصل أحيانا الى ما يقرب من المائة . وكذلك اتجاه « ديوى » ، « وينج » وأمثالهما وهم لا يتعرضون لأى تقسيم ؛ بل يتكلمون عن الطاقة الحيوية العامة . وبذلك يبدون أشد احتياطا من غيرهم .

وقية الرأي الذى أثبتناه وهو رأى مكدوجل تنحصر فى أنه عملى من الناحية التطبيقية . فقد ثبت فى ميادين التربية أن من المفيد الاعتراف بغرائز مكدوجل ومحاولة توجيهها ، ومن المفيد استغلالها فى تفسير السلوك سواء فى ذلك سلوك العاديين أو سلوك الشواذ^(١) .

الحاجات النفسية :

وقد وجد بعض المشتغلين بدراسة الأطفال فى العيادات السيكولوجية أن الغرائز وإن كانت تفسر سلوك الأطفال، إلا أنه لا يسهل دائما لمس غاياتها وإدراكها . ووصلوا الى تفسيرات أخرى أكثر وضوحا وأكثر لمسا من الغرائز، وسموها بالحاجات النفسية (Psychological Needs) فالطفل يعبث مثلا بما يحيط به من الأشياء ، ويرى مكدوجل أن الذى يدفعه الى ذلك هو الميل للاستطلاع ، والميل للحل والتركيب والميل للعب . ولكن أصحاب فكرة الحاجات يقولون ان الطفل يرغب فى الشعور بالأمن فى بيئته التى يتعامل معها . ومما يزيد شعوره بالأمن الوقوف على أسرار هذه البيئة . ولذا نجده دائما البحث فى محتوياتها . والذين رأوا تفسير سلوك الأطفال بالحاجات اختلفوا فى عدد هذه الحاجات وأسمائها .

وفى نظر بعض الباحثين توجد ثلاث حاجات أساسية^(٢) وهى :

- ١ — الحاجة للنمو Growing up
 - ٢ — الحاجة الى أن يكون للفرد ميول Loving
 - ٣ — الحاجة الى أن يكون الفرد نفسه موضوع ميل Being Loved
- أو حب من الآخرين .

(1) Is the Instinct Theory Dead ?; A Symposium; Brit. Journ. of Ed. Psych. 1940-1943

(2) Miller : Advances in Understanding the Child, ch. I.

والمقصود بالحاجة للنمو هو النمو من جميع النواحي ، فهناك النمو الجسمي ، ونمو المعرفة ، وغير ذلك . ويمكن أن تفسر الحاجة للنمو بفرائز عدة : كالبحث عن الطعام ، وغريزة حب الاستطلاع، وغريزة الحل والتركيب، وغير ذلك .

وأما حاجة المرء لأن يكون له ميول ، فانها تبدو في رغبة الطفل في تكوين الأصدقاء ، وفي تكوين الهوايات ، وغير ذلك . وأما الحاجة الى أن يكون هو موضوع ميل ، فمعناها أن يكون محبوبا من والديه وزملائه ، ورؤسائه، ومرءوسيه ، ومواطنيه ، وغيرهم ممن يتعامل معهم . ولا شك أنها أيضا حاجة أساسية يمكن تفسيرها بالغريزة الاجتماعية والسيطرة وما الى ذلك . والذين يدرسون الحالات الفردية ذات المشكلات السلوكية يمكنهم استغلال هذه الحاجات الثلاث في فهم سلوك الأطفال ومحاولة توجيههم الى السلوك السوى .

ويرى بعض الباحثين أن الحاجات الأساسية اثنتان : وهما الحاجة للأمن، والحاجة للمخاطرة ، وهاتان النزعتان ظاهرتان في المجتمع . فالمجتمع يبدو كأن فيه قوة للمحافظة ، أو صون التقاليد ، وأخرى للتجديد ، والابتداع ، والمخاطرة . وهاتان القوتان تتنازعان المجتمعات والأفراد بشكل واضح . ويمكن تفسيرهما وتفسير ظواهرهما على أساس الفرائز التي وضع قائمتها مكندوجل . ويسهل علينا أن نتبين في سلوك الأطفال تعبيراً عن هاتين الحاجتين . فبحث الطفل عن الطعام ، والتصاقه بوالديه وهربه من الخطر ، واجتماعه بزملائه ، انما هو اتجاه نحو الأمن . وأما اتجاه الطفل الى المقاتلة، وحل الأشياء وتركيبها ، والتجول ، فانه اتجاه نحو المخاطرة . ويرى بعض الباحثين أنه يمكن الاستغناء عن التفسير المبني على الحاجة للمخاطرة ، واعتبارها نتيجة للشعور بالأمن . فالليل للمخاطرة يزدد ويبرز اذا ازداد توافر الشعور بالأمن . فالطفل الذي يهاجم غيره انما يفعل ذلك لوثوقه من قوته . والفرد الذي يكسب عيشه من عمل معين ، لا يقدم بجرأة على الاستقالة منه عادة الا اذا وثق من عمل آخر أو من احتمال وجود مورد

آخر للرزق • أى أن الحاجة للأمن هى الحاجة الأساسية فى نظر هؤلاء الباحثين • ومن المفيد تذكر هذه الحقيقة فى تربية الأطفال ؛ وهى أن الصغير لا يشعر بالاطمئنان الذى يساعده على معالجة المشكلات الصعبة — مما يساعده على التقدم المدرسى — الا اذا كان متقنا للمبادئ الأساسية واثقا من نفسه فيها • ولايجرؤ على الاتصال الاجتماعى الناجح الا اذا كان مطمئنا الى قدرته على ذلك اطمئنانا مشتقا من فكرته عن نفسه فى المواقف الاجتماعية السابقة • ويلاحظ أن الشعور بالأمن يترتب عليه النزوع للمخاطرة ؛ ونجاح هذه يكسب الشخص ثقة فى نفسه ، مما يزيد من ميله للمخاطرة ، وهكذا مما يبين أن المخاطرة والأمن يمكن النظر اليهما كحلقة متصلة الأجزاء يؤثر كل منها فى الآخر •

ومع وجود هذه العلاقات يعتبر بعض الباحثين أن اختزال الحاجات كلها الى الحاجة بالأمن فقط يجعلها غير مفيدة من الناحية العملية الشاملة لنواحى فهم السلوك ومحاولة توجيهه فى الفرد^(١) •

ولهذا أيضا تقسيم آخر أكثر تفصيلا وأكبر فائدة من الناحية العملية ؛ سواء فى ذلك التفسير أو العلاج ، وتبعا لهذا التقسيم تكون الحاجات الأساسية ستا وهى :

- ١ — الحاجة للأمن Security
- ٢ — الحاجة للمحبة Affection
- ٣ — الحاجة للتقدير Recognition
- ٤ — الحاجة للحرية Freedom
- ٥ — الحاجة الى النجاح Success
- ٦ — الحاجة الى سلطة ضابطة أو موجهة Control

(١) ولكن من المفيد أيضا فى بعض الأحيان اختزال جميع الاتجاهات النفسية الى اتجاه واحد فأساس الإصلاح الاجتماعى الأمن الاجتماعى • فاذا اطمأن الفرد فى المجتمع الى قضاء حاجاته الأولية أمكن اعتبار أساس التقدم الاجتماعى ثابتا • وفكرة الأمن هى أساس اتجاه الأوضاع الاجتماعية الحديثة القومية منها والفردية • ويمكن أن تقوم الدراسة المقارنة بين النظم الرأسمالية المتطرفة وغيرها أو بين النظم الديمقراطية وغيرها حول فكرة واحدة وهى فكرة « الأمن » وما مشروع بفرديج الذى ظهر فى انجلترا أخيرا الا قائم حول فكرة واحدة وهى مقدار « الأمن » الذى تقدمه الدولة للفرد •

والحاجة للأمن تبدو في النواحي الجسمية والعقلية • فالطفل يريد أن يأوى الى والدته ويريد أن يتغذى، ويريد أن يأمن من البرد والحر وغير ذلك • والحاجة الى الأمن العقلي تبدو في خوف الطفل من كل غريب ، ورغبته في فحصه ، ومعرفته اذا أمكن ، حتى يتيسر له — بناء على معرفته به — أن يطمئن اليه ، أو يبتعد عنه نهائيا • فالرغبة في الأمن رغبة كيدة ، ولا يتقدم الطفل بسهولة — في ميدان ما — الا اذا اطمأن اليه ، وشعر بالأمن نتيجة لفهمه الموقف • وفقدان الأمن يترتب عليه القلق والخوف وعدم الاستقرار • وقد يترتب عليه تكوين الكراهية لمصدر فقدان وتوجيه النزعات الاعتدائية اليه •

وأما الحاجة للمحبة فتبدو في أن الطفل يريد أن يشبع من حب أمه وحب من حوله له ، ويريد كذلك أن يعبر لهم عن حبه نحوهم ، ويخطئ بعض الآباء اذ يربون أولادهم تربية يظنون أنها مبنية على العقل والمنطق • وقد تكون في الواقع مؤسسة على مجموعة من القواعد الجافة الخالية من كل لون • بينما يريد الطفل أن يشعر شعورا كاملا بحبه لوالديه ، وبحب والديه له • وهذا أحد أسباب أفضلية التغذية الطبيعية مثلا من ثدى الأم على التغذية الصناعية • ففي الأولى تحضن الأم طفلها ، ويتمتع الطفل بأمرين : هما الغذاء والحنان • وأما التغذية الصناعية فانها تخلو غالبا من شعور الطفل بحنان أمه ، ولذا يحسن في حالة الأطفال الذين تضطربهم ظروفهم الى تغذية صناعية أن تحملهم أمهاتهم عند تغذيتهم الى صدورهن ، وأن يضعنهم في الوضع الخاص الذي ينصح به أطباء الأطفال (١) •

وسنجد أن كثيرا من الحالات كحالات السرقة أو الهروب من المنزل سببها جفاف الآباء وخلو الجو المنزلي من العطف •

وأما الحاجة الى التقدير فانها تبدو في شغف الأطفال لأن يعترف بهم ، ويعاملوا كأفراد لهم قيمتهم • فاذا كلمنا الطفل فيحسن أن نلتفت اليه ، ولا تقدم عليه غيره في كل مرة أو نهمله • ويستحسن أن نثق به ، ونكل اليه

(١) راجع مؤلفات الدكتور خليل عبد الخالق والدكتور مصطفى الديوانى

أعمالا تشعره بقيمته عندنا وتشعره بقيمته في نظر نفسه • وحاجة الكبير لتقدير المجتمع الذي ينتمى إليه تلعب دورا هاما في تصرفاته •
وميل الطفل الى الحرية يبدو في أبسط صورة من غضبه اذا قيدنا حركاته ومن شغفه باللعب ، والتسلق ، والتزحلق ، والجري ، وميله للحرية في الحركة • ويتبعه ميله لحرية التعبير ، وحرية الكلام ، وحرية التفكير • والحرية من العوامل الهامة التي تساعد على النمو ، غير أننا نلقت النظر الى أن الطفل يتضايق من الحرية التامة • فهو يود أن يعلم من آن الى آخر حدوده وما يراد منه عمله • ويريد أن يكون متأكدا من سلوكه ان كان يوافق عليه الغير أم لا • ومن هذا ينشأ الميل الى عامل موجه أو سلطة ضابطة ، ترشد الطفل وتوجهه ، ولكنها لا تقيده بقيود جامدة ، تحد من حرية نموه • وتلعب هاتان الحاجتان دورا هاما في علاقة الأفراد الكبار بما ينتمون اليه من مجتمعات •

كذلك يبيل الطفل للنجاح ، ويتطلع له • والنجاح هو الذي يجعله يثق بنفسه ويشعر بالأمن ، ويقوم بمحاولات أخرى لتحسين سلوكه • فالنجاح في أول خطوة يخطوها الطفل عند أول تعلمه المشي هو الذي يدفعه الى محاولات أخرى • ويتضاعف معنى هذا النجاح عنده اذا شجعه من حوله وأظهروا سرورهم به • ولذا لا يجوز وضع الطفل في مجال يتكرر شعوره بفشل محاولاته فيه • ولا يجوز أن نحفز الطفل للوصول الى مستوى بعيد عنه بحيث يتكرر فشله في محاولة الوصول الى هذا المستوى •

وهذه الحاجات التي ذكرناها ليست مقصورة على الأطفال وانما هي تفسر بسهولة سلوك الكبار والأطفال على السواء • وكل ما تمتاز به الحاجات عن الغرائز هي سهولة استغلالها في تفسير السلوك وتوجيه العلاج ، ولكن نتذكر أن الحاجات ليست مصادر أولية للسلوك ، وانما يمكن تفسيرها بالغرائز التي تعتبر المنابع الأولى للطاقة البشرية •

الدوافع والقدرات العقلية :

وعلينا أن نميز بين مأرين : وهما الدوافع للسلوك ، والقدرة على أدائه ؛

أذا كثيرا ما يتوافر الدافع ولكن لا تتوافر القدرة لتحقيق هذا الدافع •
ففرق بين الدافع للمقاتلة والقدرة على المقاتلة • والدافع للتفوق الدراسي
والقدرة على التفوق الدراسي يختلفان كذلك بعضهما عن بعض •

ويمكن أن تشمل القدرات النواحي الجسمية كسرعة العدو والقوة
العضلية ، أو القدرات الاحساسية كدقة السمع أو قوة البصر ، أو القدرات
العقلية كالقدرة على التفكير أو التذكر أو غير ذلك •

ومن أهم ما يدخل تحت القدرات العقلية الذكاء ، ويعرف بأنه القدرة
على تكيف الكائن الحي تكيفا شعوريا للمواقف الجديدة^(١) • وقد أجريت
تجارب وملاحظات عديدة على حيوانات راقية كالكلاب والقرود ، وعلى
حيوانات أقل منها في مرتبة الرقي ، وثبت منها أن هناك قسما من الذكاء
يزيد كلما ارتقينا مع الكائنات الحية في سلم التطور •

ومن التجارب المشهورة تلك التي أجراها كهلر Kohler^(٢) ، ففى تجربة
منها تمكن « الشمبانزى » سلطان Sultan من أن يصل عصاتين من الغاب
بوضع طرف احديهما فى ثقب طرف الأخرى حتى يجعل منها عصا كبيرة ،
ويتمكن من احضار موزة بعيدة عنه لم يمكنه احضارها بكل عصا على حدة •
فسلوك « الشمبانزى » فى هذه التجربة يدل على الذكاء ، ولكن الذكاء
يعمل فى خدمة الغرائز ، فالشمبانزى لجأ الى ذكائه ليحصل على الطعام الذى
يندفع الى الحصول عليه بغريزة البحث عن الطعام •

ومن الملاحظات العديدة التى أجريت على الانسان وعلى أنواع الحيوان،
يمكن أن يقال : ان الغرائز هى القوى الدافعة ، وأما الذكاء فهو القدرة
المرشدة؛ أى التى ترشد الكائن الحى حتى يحقق الغاية التى يندفع لتحقيقها •
ولا يتسع المجال هنا لتحديد كنه الذكاء ، وحقيقة علاقته بالغرائز •
ولكن من المسلم به أن غرائز الانسان — نظرا لوفرة ذكائه واقتداره على

(١) « شعوريا » هنا يقصد بها استبعاد التكيف الفسيولوجى الذى
يحدث فى المواقف الجديدة كشدة البرودة أو الجوع أو غير ذلك •

(2) Kohler, Mentality of Apes.

الافادة من سابق خبرته — تتعدل كثيرا في ضوء تجاربه • وتعديلها في الانسان هو الذى يجعلنا نحكم على أعماله بأنها خير أو شر • بخلاف أعمال الحيوان فاننا في العادة لا نصدر عليها هذا النوع من الحكم وذلك لقلّة احتمال خضوعها للتعدل •

طرق تعديل الغرائز :

وقد حصر مكيدوجل طرق تعديل الغرائز في أربع^(١) وهى :-

١ — تعدل من ناحية المثير ، فبعد أن كانت الغريزة تستثار بمثيرات فطرية تصبح استثارته ممكنة بموضوعات أخرى غير المثيرات الفطرية • وكذلك قد تفقد بعض المثيرات الفطرية قدرتها على إثارة الغرائز •

٢ — تعدل من الناحية النزوعية ، وبعبارة أدق من ناحية أسلوب السلوك الذى يحقق الغرض الغريزى •

٣ — تعدل بسبب استشارة غرائز مختلفة في وقت واحد •

٤ — تعدل ناشئ من تنظيم الغرائز وانفعالاتها حول موضوعات معينة لتكوين ما يسمى بالعواطف •

وسنشرح الآن الطرق الثلاث الأولى ، أما الطريقة الرابعة فسنعالجها في الفصل القادم •

الطريقة الأولى :

نلاحظ في كثير من الأحيان أن بعض ما كان يستثير الغريزة قد تضعف قدرته على استثارته • فالصوت العالى مثير طبيعى لغريزة الخلاص وانفعال الخوف • ويستثار الخوف بالأصوات العالية سواء أكان مقترنا بخطر يؤذى الفرد أو لا يؤذيه • ولكن قد يتعلم الفرد بالتجربة أن الصوت العالى غير مقترن بخطر فيسمعه دون خوف كما يحدث في المحاجر والمناجم • كذلك الدواب التى تعيش في القرى يبدو عليها الخوف عند أول حضورها الى المدينة وتعرضها لحركة السيارات السريعة وأصواتها العالية • ولكن

(١) Mc Dougall; Social psychology p. 27.

بتعود الدواب السير في المدينة تفقد سرعة حركة السيارات وما تصدره من الأصوات العالية مقدرتها على إثارة الخوف .

كذلك يحدث أن الموضوعات التي لم تكن تثير غريزة ما تصبح قادرة على إثارتها . فالمعلم بطبيعة كونه انسانا لا يثير الخوف في الطفل ، ولكن ان كان المعلم يضرب الطفل يصير مثيرا للخوف . ذلك لأن الضرب يثير الخوف ، والمعلم يقترب في ذهن التلميذ بالضرب فيصير المعلم مثيرا للخوف . فاستثارة الغريزة تتعدل عن طريق الترابط بنوعيه ، وهما : الترابط بالاقتران ، والترابط بالتشابه . ومن أمثلة الترابط بالاقتران ما ذكرناه من اقتران المعلم بالضرب في ذهن الطفل . ومن أمثلة الترابط بالتشابه خوف الطفل من كل شخص يرتدى كسوة رسمية سواء أكان من رجال المطافئ أو البريد أو غير ذلك لأنه سبق له أن خاف من شرطى . وهناك مثال آخر لطفل خاف عند رؤيته رجلا أسود لأنه كان يخاف الظلام ، وصرح فعلا بأنه يخاف الرجل الأسود لأنه خرج له من الظلام .

ويلاحظ أن ادراك علاقة التشابه عملية عقلية خاصة بالحيوان الراقى . والانسان بحكم رقيه قادر على ادراك علاقات تشابه دقيقة ومتعددة . وهذا مما يجعل احتمال تعديل غرائز الانسان كبيرا جدا ، فقدرته على الربط عن طريق التشابه تفتح أمامه ميادين واسعة لتعديل غرائزه .

الطريقة الثانية :

وأما النوع الثانى من التعديل وهو الخاص بالناحية النزوعية وبالطريقة التنفيذية لهذه الناحية النزوعية فانه واضح في حياة الانسان . لناخذ لذلك مثالا غريزة المقاتلة . يثير هذه الغريزة كل ما يقف في سبيل تحقيق الغرائز الأخرى . فاذا دفع الجوع بحيوان الى البحث عن طعام ثم وجدته ، وقبل أن يتناوله اختطفه منه حيوان آخر ، فان الحيوان الأول يفضب ويشور وينقض على الحيوان الثانى لضربه وعضه ومقاتلته اذا تمكن منه . كذلك الطفل الصغير قد يشور ويضرب ويعض من يمنعه عن لعبته . ولكن بحكم الخبرة الشخصية وبالتوجيه يتعلم أساليب أخرى لتحقيق أغراضه . ومن

أساليب المقاتلة المكتسبة غير الفطرية السب ، والهزاء ، وتدبير المؤامرات ، والايقاع وترويج الشائعات ، وحرب الأعصاب ، وغير ذلك •

ويمكن أن يخضع الأسلوب الذى يتبعه الفرد لتحقيق غاياته الغريزية. لتعديلات متعددة ، فاشباع غريزة البحث عن الطعام يمكن أن يتم بأساليب متعددة ، بعضها فطرى وبعضها مكتسب ، كذلك موقف المرء ازاء حق. انتزع منه يمكن أن يتخذ اتجاه المقاتلة ، ويمكن أن يتخذ اتجاه الاستعانة بالسلطة الحاكمة وغير ذلك •

وأساس هذا النوع من التعديل أن أسلوب السلوك الذى ينجح فى تحقيق الغاية الغريزية يثبت ، وأما ما عداه فانه ينمحي • لهذا كان السلوك الفطرى فى بعض الأحيان غير ناجح لأنه يتعرض فى البيئة المحيطة به لعوامل تجعله فاشلا • لهذا ينمحي ويحل محله أسلوب آخر أكثر منه نجاحا •

الطريقة الثالثة :

أما الطريقة الثالثة فهى تعدل الغريزة بسبب استثارة غرائز أخرى. فى نفس الوقت • فإذا رأى شخص جائع طعاما مغريا ليس له فيه حق ولكنه فى متناول يده فان غريزة البحث عن الطعام تدفعه لتناوله ؛ ولكن الخوف. يمنعه — أى أن غريزة الهرب قد تدفعه الى الكف عن ذلك خوفا مما يقع عليه من عقاب — ولهذا يتردد فى تلبية دافع البحث عن الطعام بسبب استثارة الدافع الغريزى الآخر • كذلك اذا اقترب طفل صغير جرما ما ؛ فان هذا قد يستثير فى الوالد افعال الغضب وغريزة المقاتلة ، ولكن قد يمنعه من ايقاع العقوبة استثارة الحنو وغريزة الوالدية • فبدلا من أن يضرب الوالد ابنه يكتفى بتوبيخه والتوبيخ أخف من الضرب والذى خفف من حدة المقاتلة ظهور الوالدية فى نفس اللحظة •

الاعلاء والقلب :

سبق أن أشرنا الى أن أمكان تعدل الغرائز عند الانسان هو الذى يجعلنا نحكم على سلوكه بأنه خير أو شر • وتوجيه الطاقة الغريزية فى اتجاه راق.

صالح يقره المجتمع يسمى اعلاء أو تصعيدا للغريزة • فبدلا من سير الغريزة في المسالك الطبيعية غير المهذبة تسير في مسالك راقية •

والذين يعملون مع الناشئين يحاولون في كثير من الأحيان تشخيص الشذوذ على أنه ناشئ عن انحراف في بعض النواحي الغريزية • فغريزة حب السيطرة قد يظهر شذوذها في محاولة احتقار النظم القائمة وعدم تنفيذ الأوامر المدرسية ، ومعاكسة الزملاء ، والحط من قيمتهم وغير ذلك • وقد تسهل معالجة هؤلاء الأطفال اذا أسند اليهم جانب من حفظ النظام، وأصبحوا مسئولين عن بعض اخوانهم الضعفاء ، واذا اقتنعوا بأن السيطرة عن طريق الآداب العالية ، ودمائة الخلق ، والتفوق الدراسي هي السيطرة ذات القيمة الحقيقية • بهذا نكون قد حولنا المجرى الغريزي الى مجرى راق صالح لكل من الفرد والمجتمع ، ويسمى هذا التحويل اعلاء •

وكل غريزة من الغرائز يمكن توجيهها في مسلك اجتماعي صالح • فالغريزة الاجتماعية يمكن أن تكون أساسا للتنظيم الاجتماعي • وغريزة المقاتلة يمكن أن تتجه لمقاتلة المفساد ومحاربة الأمراض وغير ذلك • وقد أخذت كلمة الاعلاء عند فرويد وأنصاره معنى خاصا لا مجال لاثباته في هذا المقام •

وأما اذا كان المجرى الذي يسير فيه السلوك الغريزي مضادا لصالح المجتمع ولصالح الفرد فان هذا النوع من التحويل يسمى قلبا (Perversion) ومن أمثلة القلب تخريب ممتلكات الغير في حالة المقاتلة أو الحل والتركيب ، وكالسرقة في حالة حب التملك ، والاستهزاء بالناس واحتقارهم لاشباع حب السيطرة ، ومزاولة العادة السرية وما شابهها لاشباع الغريزة الجنسية • ويطلق القلب عادة على الحالات الشاذة • ومن الأمثلة البارزة لها شخص يغسل يديه على فترات متقاربة جدا ، ويطلب أن يغسل كل ما يقدم اليه ، ولا يقرأ كتباً تناولها الغير بأيديهم الا اذا مسح غلافها بمادة مطهرة ، وهو لا يقرأ الجريدة ، ولا يصافح الناس ، وان اضطر لمصافحتهم غسل يديه مرارا وتكرارا بعد ذلك • وهو لا يتسلم تقودا من شخص آخر الا بعد غسلها

بالماء والصابون قبل أن تمس جيوبه ويخلق له هذا الاتجاه مشكلات متعددة في حالة النقود غير المعدنية وعنده لكل موقف حلول خاصة • هذا السلوك قلب في غريزة التقزز وفي غريزة الخوف كذلك • ويرجعه أصحاب مدارس التحليل النفسى الى قلب في الغريزة الجنسية ومتعلقاتها •

الاببدال :

وهناك اتجاه آخر يؤخذ ازاء الغرائز — ولو أنه لايتناولها مباشرة — ويسمى الاببدال • ومعناه أن تشغل وقت الفرد بعمل نافع حتى ينصرف عن نشاط غريزى معين ، فالطفل الذى يحاول الحصول على لعبة طفل آخر قد تلهيه عنها بأمر آخر • كذلك الرياضة البدنية وتكوين الميل للمطالعة والموسيقى وغير ذلك يمكن أن تكون كلها ابدالاً للغريزة الجنسية في دور المراهقة •

ويحسن على وجه العموم في حالة صعوبة اعلاء الغريزة أن نعمل على الاقلال من مثيراتها الخارجية ، وأن نثير ميولا أخرى يشغل نشاطها وقت الفرد ، فالغريزة الجنسية مثلاً ليس من السهل اعلاؤها ، لأن الاعلاء معناه الارضاء بالطرق التى يوافق عليها المجتمع • وهذا تقابله صعوبات تنشأ من كبر المسافة الزمنية الواقعة بين سنى النضوج الجنسى والنضوج الاقتصادى • لهذا وجب أن تكون فى النشء قبل المراهقة ميول مختلفة يمكن استغلالها لشغل وقت الفراغ عند الناشئ • وهناك حلول أخرى سنعرض لها عند البحث فى التربية الجنسية •

خاتمة :

يتبين مما تقدم أنه من المستحسن توجيه الغرائز والحاجات مع مراعاة مساهمتها ، اذ لا يجوز الوقوف فى وجهها • فمهمتنا يجب أن تنصب على اعلاء الغرائز وتوجيهها الوجهة المقبولة • ولا يجوز أن تصبح مهمة المربى محاولة بتر الغرائز والحاجات أو اقتلاعها • فان كان لدينا طفل وبرز عنده الميل للظهور أو لاثبات الذات فعلينا أن نوجه هذا الميل وجهة مقبولة مفيدة للطفل وللمجتمع • من أمثلة ذلك أن بعض الأطفال يؤلفون قصصا عن أعمال

ومخاطرات لم يقوموا بها ، وانما ينسجونها من خيالهم ويقصونها على غيرهم ، ويسرهم ما تحدثه في نفوس سامعيهم من أثر • فبدلاً من أن تنهر هؤلاء الأطفال ، تذكر أنهم انما فعلوا ذلك بدافع قوى ، وهو الميل الى اثبات الذات ، أو الحاجة الى التقدير • وواجبنا اذ ذاك أن نوجههم بطريقة عملية الى القيام بعمل حقيقى يمكنهم أن يفخروا به • فبدلاً من أن يشبعوا سيطرتهم عن طريق التخييل والكذب يشبعونها عن طريق الحقيقة المطابقة للواقع وهذا الطريق يوافق عليه المجتمع ويقره ويعتبره راقياً كالتمثيل والأدب القصصى •

ويجب أن تذكر أن الاعلاء كحل لمشكلات النشاط الغريزى يمكن أن يكون حلاً دائماً • وأما الابدال فيحسن اعتباره حلاً مؤقتاً ، ولكن ليس معنى هذا أن نهمله • ولكل غريزة أو حاجة أوجه خاصة بها من الاعلاء والقلب والابدال •

المراجع

أولاً - الاستعدادات الفطرية

- Aveling : Personality and Will, ch. VI.
Banks : Conduct and Ability ch, III.
Burt and Others : Is the Instinct Theory Dead, Brit. J. Ed. Psy
1941, 1942
Drever : An Introduction to the Psychology of Education.
Flugel : A Hundred Years of Psychology Part IV ch. VII.
Garnett : The Mind in Action
Heath : How we Behave.
McDougall : Energies of Pen. chs. III, IV, V, VI, & VII.
McDougall : Social Psychology. chs. II, III, & IV.
McDougall : An Outline of Psychology, ch. V.
Murphy : Modern History of Psychology, ch. XX.
Ross : Groundwork of Educational Psychology, ch. IV.
Stout : Groundwork of Psychology : 2nd Ed. chs. XV & XVIII.
Thouless : Social and General Psychology.
Valentine : Psychology of Early Childhood.

ثانياً - الحاجات النفسية

- Healy : New Light on Delinquency.
Gates and Others : Educational Psychology, pp. 628—631.
Miller : Advances in Understanding the Child.
Miller : The Growing Child and its Problems.
Trow : Educational Psychology.
Valentine : The Difficult Child.

الفصل الخامس

تكمّل الشخصية — «العواطف والخلق»

معنى العاطفة :

لا تبقى الدوافع للسلوك عادة بصورها الفطرية ، وانما تنتظم وتنعدل وينتج عنها أحيانا ما يسمى بالعواطف • فالذى يدفع المرء لسلوك خاص مع والده هو عاطفة تكونت مركزها الوالد • والذى يدفع المرء لمحاربة الرذيلة هو عاطفة كراهية الرذيلة •

وتتكون العواطف نتيجة الخبرة المتكررة بموضوعات هذه العواطف • فالطفل بعد ما يولد تظهر انفعالات مختلفة سريعة التغير من لحظة الى أخرى، ويصحب هذه الانفعالات سلوك الصراخ الدال على الغضب أو الخوف ، وسلوك الابتسام الدال على الرضا أو السرور • ونظرا لأن الأم في السنة الأولى تقوم بقضاء حاجات الطفل الأولية ، فانه يمر في خبرات متعددة تتكرر في كل منها الأم • فهي موجودة لديه عند اشباعه ، وموجودة عند ازالة ألم عنه ، وموجودة عند تغطيته ، وموجودة عند تسليته • فكان ظهور الأم يصحبه عادة عند الطفل ارتياح واشباع لحاجاته وغرائزه المختلفة • وبذلك ترتبط الأم — في العهد الأول — في ذهن الطفل بخبرات في جملتها سارة • نلاحظ بعدئذ أن الأم اذا بعدت غضب الطفل ، أو خاف وصرخ • واذا ظهرت هلال وفرح ، وعندما يكبر يتألم اذا مرضت ، ويفضب اذا أهينت ، ويحنو عليها اذا ضعفت ، ويسر اذا فرحت • ويتبع هذه الانفعالات — وهي الغضب والخوف والتألم والحنو والسرور — السلوك الملائم الذى يتطلبه

الموقف من دفاع ومساعدة وتمريض ومرح • وفي هذا نقول : ان الطفل تكونت لديه عاطفة حب الأم ، أى تكونت لديه عاطفة مركزها الأم • وأصبح لديه استعداد مكتسب يستثار في مواقف مختلفة تكون الأم عنصرا هاما فيها • ويستتبع هذه الاستثارة الشعور بافعال يختلف باختلاف الموقف ، والقيام بسلوك معين يختلف كذلك باختلاف الموقف •

انواع العواطف :

والعواطف الرئيسية هى عواطف الحب والكراهية • فالموضوع الذى يتركزه يرتبط بخبرات فى مجموعها سارة تتكون حوله عاطفة حب ، والموضوع الذى يتركزه يرتبط بخبرات فى مجموعها مؤلمة تتكون حوله عاطفة كراهية • ومن العواطف المألوفة فى حياتنا عواطف الاحترام ، وعواطف الاعجاب ، وعواطف الصداقة ، وعواطف الاحتقار ، وغير ذلك • وكل عاطفة يتمركز فيها موضوع معين • فالطفل سرعان ما تتكون عنده عاطفة نحو أمه ، وأخرى نحو أبيه ، وعاطفة نحو كل من اخوته ، وعاطفة نحو لعبته ، وعاطفة نحو كلبه ، أو قطه • • • وهكذا •

والعواطف على وجه العموم مادية ومعنوية فالمادية تتمركز فيها المحسوسات كالأشخاص والأشياء • وأما المعنوية فتتمركز فيها المعنويات • ومن هذه عاطفة حب الجبال ، والصدق ، والشرف ، وكراهية الرذيلة والاستبداد • • • وتتطور العواطف مع نمو الشخص ، ونمو خبرته ، فباتساع دائرة خبرات الشخص تتسع دائرة عواطفه أو ميوله • ففي الأشهر الأولى من حياة الطفل قد تقتصر عاطفة الطفل على أمه ، ثم تتسع فتشمل الأب ، ثم بقية أفراد الأسرة ، ثم الأقارب ، ثم زملاء اللعب • وبعد ذلك قد تتسع فتشمل المدرسة ، فالبلدة ، فالوطن كله • ويصح أن تتسع فتشمل العالم بأسره • والعاطفة نحو العالم بأسره هى أوسع دائرة للعواطف وأرقاها ، وهى عاطفة نحو الانسانية وخيرها عامة •

والعواطف المادية نفسها نوعان : مادية فردية ، ومادية جمعية • فالمادية الفردية تكون نحو فرد • وأما المادية الجمعية ، فانها تكون نحو مجموعة أفراد من نفس النوع عادة • فالمادية الفردية كعاطفة المرء نحو كتاب معين ، أو حيوان معين • والمادية الجمعية كعاطفة المرء نحو الكتب عامة ، أو الحيوانات عامة • والعواطف المادية بنوعها الفردية والجمعية خطوة ضرورية لتكوين العواطف المعنوية السابقة الذكر تكويننا ثابت الأساس • ولهذا التطور في عواطف الفرد — كما نرى — قيمة كبيرة في انماء شخصيته وتوسيع مجالاتها •

العواطف وتنظيم الدوافع الفطرية :

العواطف كما رأينا عبارة عن نوع هام من الدوافع المكتسبة للسلوك ، ويترتب على تكوينها تعديل السلوك • وتنظيم الدوافع الفطرية وتوجيهها وجهات معينة مقيدة بقيم تتحدد بعناصر البيئة المحيطة • ويعتبر تكوينها من أهم أنواع ملائمة عقل الفرد للبيئة التي تحيط به •

والعواطف تكسب الفرد قسماً كبيراً من الثبات والاستقرار ، وتجعلنا قادرين على التنبؤ بسلوكه ، لأن الفرد بعد أن كان قابلاً للاتجاه أية وجهة مرتبطة بما يستثير غرائزه ، أصبحت لا تستثار غرائزه إلا المرتبطة بموضوعات معينة تهمة ، كالأولاد والعلم والوطنية وأشخاص معينين وأماكن معينة • • وهكذا • • ولنوضح هذا بمثال : نفرض أن تلميذاً ما عوقب من أحد مدرسيه ، فإن طريقة مقابلته لهذا العقاب يتحدد اتجاهها بنوع عاطفته نحو المدرس ، فإن كان يحب مدرسه تقبل العقاب ، وربما استفاد منه • وأما إن كان يكره المدرس ، تضر من العقاب ، وثار في وجهه ، ولم يستفد منه شيئاً مهما حسن قصد المدرس • ويمكننا أن نتنبأ بموقف التلميذ اذ ذاك متى عرفنا عواطفه • والقدرة على التنبؤ بسلوك الشخص — في موقف ما — دليل على ثبوته واستقراره ووحدة اتجاهه •

وتوجد عادة لدى الفرد عاطفة سائدة ، فعاطفة نحو المال ، أو نحو العلم ، أو نحو الوطن أو نحو أولاده ، أو نحو ذاته • وإذا وجدت عاطفة سائدة فانها توحد وجهة العواطف والنزعات الغريزية المختلفة • فاذا تصورنا شخصا يحب المال حبا شديدا ، ولا يفضل على ذلك أمرا آخر • فان هذا الشخص يصادق من يساعدونه على ذلك ، ويكره من عداهم ، ويجب أولاده اذا شاركوه اتجاهه ، وساعدوه على تحقيق غاياته ، ويكرههم اذا هم عملوا ضد ما يسيطر على عقله ، ويغضب غضبا شديدا اذا تأخر عليه مدينوه في دفع ما عليهم • وقد لا يغضب لكرامته في المواقف التي يغضب الناس فيها عادة لكرامتهم ؛ أى أن نشاطه العقلى يسير كله نحو غاية واجدة وهى اشباع عاطفته السائدة •

وفي شخص آخر قد تكون العاطفة السائدة هى عاطفة حب الذات ، فتجد جهوده كلها موجهة نحو ذاته لتعظيمها وارضائها • فهو يحب من يتحدثون عنه بالمدح ، ويعطف عليهم ، ويكرمهم ويكثر من التشديق بالحديث عن نفسه ، وتشتاق نفسه لأن يكون هو مركز الانتباه والاعجاب • وقد يكون مغرما بالتألق ، وإطالة النظر فى المرأة ، أو فى صورة نفسه التى يملأ بها أركان منزله • وقد يكون مغرما برؤية امضائه أو اسمه على الورق أو صورته فى جريدة أو كتاب • وبعبارة أخرى تجد نشاطه موجها نحو ذاته ، وهذا ما يجعله سعيدا • وهذه الظروف نفسها تسبب الضجر والسآمة لفرد آخر عاطفته السائدة تتمركز فى نشر العلم. أو نصرة الانسانية ، أو خدمة المجتمع ، أو ما شابه ذلك • فاذا عرفنا العاطفة السائدة عند شخص ما تتمكن من التنبؤ بسلوكه فى مواقف عدة ، لأننا نعرف الاتجاه الموحد الذى تتخذه نزعاته وغرائزه وعواطفه •

والوحدة التى يتصف بها اتجاه النزعات الفطرية والمكتسبة عند الفرد

دون الخضوع أو احتمال الخضوع للتغير والتناقض سنسميها مبدئياً تكامل الشخصية ♦

تكامل الشخصية :

العناصر الأولية التي تتكون منها الشخصية هي ما يأتي :—

١ — الاستعدادات الفطرية المختلفة وما يتكون منها من عواطف وعقد وعادات وغير ذلك ♦

٢ — الصفات الجسمية والمزاجية المختلفة ♦

٣ — القدرات العقلية المختلفة بما فيها من ذكاء وقدرات خاصة فطرية ومكتسبة ♦

وكل عنصر من هذه العناصر يوجد عند الفرد بقدر معين ، ففرزة المقاتلة مثلاً تختلف في قوتها من شخص الى آخر ♦ وافرازات الغدد وما يترتب عليها تختلف كذلك من شخص الى آخر ♦ وكذلك يختلف الذكاء ♦

واذا أخذنا أى فرد فيمكننا أن نشبه ما لديه من الاستعدادات الغريزية والمزاجية والعقلية والجسمية — الفطرية منها والمكتسبة عن طريق التعامل مع البيئة المادية والاجتماعية — بعدد كبير من الأشخاص الذين لا يصح أن نطلق عليهم اسم جماعة ؛ الا اذا ربطتهم بعضهم ببعض رابطة متينة ♦ فالذى يقف عند ملتقى شارعين كبيرين مثلاً من شوارع القاهرة ، فانه يلاحظ عادة أنه ليست هناك علاقة خاصة تربط المارة بعضهم ببعض ♦ ولهذا يصعب عليه التنبؤ بما يمكن أن يحدث من هؤلاء الأفراد من سلوك ♦ والسبب في هذا أن كل فرد يتجه لتحقيق غرض خاص ♦ وتعدد الأغراض لا تتأتى معه وحدة المجموعة ؛ ولكن اذا اتحد غرض هؤلاء الأفراد ، أمكن النظر اليهم كجماعة ، وتعتبر الجماعة قوية أو ضعيفة بقدر ما بين أفرادها من روابط ، وبقدر اتحاد الغرض الذى يرمون الى تحقيقه مجتمعين^(١) ♦ كذلك تعتبر

(١) راجع الفصل الاول فى معنى الصحة العقلية .

الشخصية قوية ، اذا ارتبطت عناصرها واتجهت لفرض واحد في الحياة •
فان هذا الترابط والتوحيد في عناصر الشخصية وأغراضها ، يسمى كما قلنا
تكامل الشخصية^(١) •

وقد يحدث تعارض بين بعض النزعات وبعضها الآخر عند الشخص
الواحد ، كما يحدث أحيانا في الحرب عند بعض الجنود ، الذين يتنازعهم
الميل الى المحافظة على حياتهم ، والرغبة في الظهور بمظهر الوطني المخلص
الذي لا بد له أن يخاطر بنفسه في ظروف الحرب • فالميل الى المخاطرة يتنازع
هنا مع الميل الى المحافظة على الحياة • ويسمى التنازع بين ميلين بالصراع
النفسى (Mental Conflict)

الصراع النفسى وعاطفة اعتبار الذات :

وعند حدوث صراع نفسى بين عدد من النزعات — لنفرض أنها على
سبيل التبسيط نزعتان مثلا — فان المرء يتردد بينهما ترددًا يطول أمدّه
أو يقصر على حسب موقفه من النزعتين • ولا يصل المرء الى حالة سكون
أو استقرار ، الا بعد اختفاء احدى النزعتين أو كليهما اختفاء لا اراديا
(أى غير مقصود) •

ولمجرد التوضيح نأخذ مثلا بسيطا : لنفرض أن شخصا ما لديه حاجة
ملحة شديدة الى النقود ، ولنفرض أن صديقا له أعطاه نقودا ليسلمها لشخص
ثالث ، فانه قد يتخذ واحدا من المسالك الثلاثة الآتية (٢) : —

١ — يسلم النقود لصاحبها بغير تردد •

٢ — يأخذ النقود لنفسه بغير تردد ، ولا يسلمها ، أو يؤجل تسليمها
لما بعد قضاء حاجته •

(١) التكامل هنا شبيه بالتكامل الرياضى لان التكامل فى العلوم الرياضية
هو التوحيد بين عدد كبير من العناصر الصغيرة لتكون وحدة كبيرة •
(٢) هذه لا تستنفد كل الاحتمالات وانما تقتصر على الأكثر شيوعا منها •

٣ — يحدث صراع تقع فيه نفسه بين الرغبة في قضاء حاجته ، والرغبة في أن يكون أميناً، وينتج عن هذا الصراع تغلب إحدى الرغبتين على الأخرى .

فإن سلم النقود لصاحبها فهذه لأن فكرته عن نفسه من حيث الأمانة فكرة سامية لا يزعمها وصول النقود الى يده ، وفكرته عن نفسه في هذه الحالة توجه سلوكه وجهة معينة .

أما اذا أخذ النقود لنفسه ، فهذا لأن فكرته عن نفسه من حيث الأمانة فكرة ضعيفة أو معدومة .

وأما حدوث الصراع فمعناه وجود قوتين متقاربتين ، يسمح لهما المرء بالوقوف وجها لوجه ، ويكون الحسم في الموقف عادة بالرجوع الى فكرة المرء عن نفسه ، بأن يقول الشخص لنفسه : هذا لا يليق ، أو هذا لا يتناسب مع الكرامة ، أو غير ذلك .

نجد في هذا المثال الفرضي أن لدينا نزعتين : احدهما خلقية ، والثانية غريزية ، والفصل بينهما يرجع الى الفكرة عن النفس . وهذه الفكرة عن النفس تعمل صريحة في حالة التردد والنزاع ولكنها تعمل بطريقة ضمنية في غير هذه الحالة .

والعاطفة التي مركزها فكرة المرء عن نفسه ، اسمها «عاطفة اعتبار الذات» . وهي التي تستثار فيشعر الانسان بالغضب من نفسه ان فعل أمراً لا يرتضيه لنفسه ، ويشعر بالسرور اذا حقق لنفسه ما يريد لها . . . الى غير ذلك .

وينظر مكدوجل الى «عاطفة اعتبار الذات» ، على أنها المنظم الأساسي للسلوك ، أو القائد الأعلى لبقية النزعات . وهي التي تتوقف عليها قوة الشخصية ، ووحدة أفعالها ، وتكامل نزعاتها .

وفي دراستنا للحالات نحس عادة ما عند الفرد من عواطف سائدة ،

ونحاول أن نختبر قوة عاطفة اعتبار الذات • ففى بعض الحالات كنا نجد أن العاطفة السائدة هى حب الولد « للسينما » ، أو « لركوب العجل » ، أو لفتاة ، أو لوالدته ، أو لنفسه • وكنا نلجأ لهذه العاطفة السائدة ، ونوجهها توجيهها حسنا ، أو نستغلها لحسن التوجيه • ففى حالة ولد كان يسرق ليذهب « للسينما » أمكن أن نجد له عملا مربحا فى دار من دور السينما • وفى حالات أخرى كثيرة أمكننا أن نكشف الى أى حد يمكن استغلال عاطفة اعتبار الذات فى توجيه صاحبها الى السلوك الصحيح • فإذا قام بعمل طيب نذكره له ، ونشجعه على مثله • وإذا قام بعمل سيئ ، فقد نقول له اننا لم نكن نتظر عملا كهذا من شخص مثله • وبهذا تقوى فكرته عن نفسه فى الوقت الذى ندفعه ليحجم عن سلوك غير مرغوب فيه • ونستغل نفس العاطفة لدفع صاحبها للقيام بعمل آخر يرتضيه المجتمع ويقدره من أجله •

نشوء عاطفة اعتبار الذات :

يتوقف نشوء هذه العاطفة على التفاعلات المستمرة القائمة بين الفرد والمحيطين به • فعاطفة اعتبار الذات تنشأ من أثر الثواب والعقاب ، والمدح والذم ، وعلامات الرضا والاستياء ، ومن التفكير الشخصى أيضا ؛ أى انها نتيجة تفاعل الشخص مع البيئة الاجتماعية • ويمكن أن تفصل نشوءها فى المراحل الأربعة الآتية : —

- ١ — المستوى الغريزى الذى نجد فيه مواقف بسيطة ، تتعدل باللذة أو بالألم الذى يصحب الفعل الغريزى • وهذا المستوى نجده فى صغار الأطفال ، فالطفل الذى يمسك كل ما تقع عليه يده ، ويضعه فى فمه ، يقلع عن ذلك فى حالة الأشياء التى يجد أن طعمها مر مؤلم ويصر على أكل ما يجده لذيذا حلوا ، فنجد هنا أن الفعل الغريزى يثبت فى الناحية التى تجلب اللذة ويضعف فى الناحية التى تسبب الألم ، وهناك من الأمثلة ما لا حصر له •
- ٢ — المستوى الغريزى الذى يتعدل فيه السلوك بالثواب والعقاب •

وهذان يناظران اللذة والألم اللذين ذكرناهما في المستوى السابق • فبعد أن يكبر الطفل قليلا عن سنتين تشبه عادة بقطعة من الحلوى أو بلعة أو بفسحة ان كان منتظما في أكله مثلا • لا يطلبه في غير الميعاد ، ولا يطلب منه أكثر مما يعطى له • ونعاقبه ان فعل غير ذلك ، أو اذا ضرب ولدا آخر بغير حق •• الى غير ذلك فهنا تتعدل أعمال الطفل عن طريق اللذة والألم ، الصادرين عن الثواب والعقاب اللذين يوقعهما المجتمع المحيط به فيتكيف سلوك الطفل تبعا للتفاعلات التي تقع خاصة بينه وبين المجتمع • وأنواع السلوك التي توجه عادة بالثواب تكون غير محببة بطبيعتها للطفل • وأما أنواع السلوك التي تمنع عاة بالعقاب فانها تكون عادة محببة بطبيعتها (١) •

٣ — والمرحلتان السابقتان ضروريتان للوصول الى المرحلة الثالثة ، وفيها نجد مستوى الأعمال معدلا بالمدح والذم ، أو بعلامات الرضا والغضب أو السخط ، فاثابة الطفل على بعض الأعمال تكون عادة مصحوبة بعبارات المدح وعلامات الرضا • وكذلك العقاب يكون معه بعض عبارات الذم وعلامات التألم والغضب • ويكفى لبعض الأطفال أن تظهر لهم عدم ارتياحنا ليقبلوا عن بعض الأعمال ، ونبين لهم علامات الاغبطاء ، فيستمرون في أداء بعضها الآخر • وكثير من الأطفال عند شروعهم في عمل ما ينظرون الى وجوه أهليهم عليهم يرون علامات خاصة يسترشدون بها للاستمرار في العمل ، أو الانقطاع عنه • وبعد ذلك يهتم بالسلوك بناء على موافقة الجماعة التي ينتمى اليها ، ونتيجة لكل ما تقدم يحدد الطفل بعض الأعمال بأنها تتفق معه ، والبعض الآخر بأنها لا تتناسب معه • والأولى هي التي كانت تجلب رضاء المجتمع (بمعناه الواسع) ، والثانية هي التي كانت تجلب له سخطه ، ثم يكون الشخص فكرة عن نفسه مشتقة من تفاعلاته مع المجتمع فيرضى لعمل من

(١) من هنا نرى بدء فكرة الفصل والكبت مما سنشرحه في الفصلين التاليين •

الأعمال لأنه يتفق مع فكرته عن نفسه • ولا يرضى عن الآخر لأنه لا ينسجم مع هذه الفكرة (١) •

وهذه المرحلة التي يكون فيها المرء فكرة عن نفسه مشتقة من رضاء المجتمع أو سخطه يقف عندها كثير من الناس فلا ينمون بعدها ولا يعملون الا على ارضاء المجتمع • وهذا يفسر محافظة بعض الناس على بعض العادات والتقاليد رغم اقتناعهم — أثناء مناقشتهم مثلا — بفسادها • فخوفا من سخط الغالبية المحيطة بهم يستبقونها وفكرة هؤلاء في رضائهم عن أنفسهم مشتقة مباشرة من فكرة رضاء المجتمع عنهم •

٤ — وهناك مستوى أرقى من المستويات الثلاثة السابقة ، وفيه يقوم الانسان بعمله بناء على فكرة خاصة أو تحقيقا لغرض أو مبدأ خاص ، بصرف النظر عما قد يقع عليه من ثواب أو عقاب أو يتجه اليه من مدح أو ذم وبصرف النظر عن رضاء المجتمع عنه أو غضبه عليه • وهذا ما يتصف به ناشرو المبادئ الدينية ، أو الخلقية ، أو الوطنية • وهم عادة يصممون على السير في عملهم رغم المقاومة الشديدة التي يلقونها في بعض الأحيان • ومن بين الأنبياء والفلاسفة وقادة الاصلاح الاجتماعى أمثلة متعددة يسهل ايراد بعضها لمن يريد •

العوامل الاجتماعية في تكوين الخلق :

وننتقل الآن الى بيان السبب الذى يجعل للعوامل الاجتماعية أثرا في تكون فكرة المرء عن نفسه • هذه العوامل أولها عامل السلطة ؛ ويؤثر هذا العامل عن طريق الثواب والعقاب في ادماج الشخص مع المجتمع • ومن المبادئ الأولية في نفسية الجماعات ، أن أفراد الجماعة ميالون الى الانسجام

(١) كثيرون من الاطفال ، يقول الواحد منهم عن نفسه : انه يفعل هذا لانه « عفريت » ولأن كل الناس يقولون عنه انه « عفريت » وفي مثل هذه الحالات يرى الطفل في نفسه نوما من البطولة أو المهارة أو القدرة على مضايقة الناس دون تمكنهم من إيقافه عند حد •

والاندماج مع الغالبية • فيميل المجتمع دائما لأن تكون عناصره متشابهة • ولهذا فهو يميل الى نبذ العناصر التي تشذ عنه • وذلك يفسر كراهية المجتمع للعابرة ، ونبذه للمعتوهين والمجانين ، كما يدعم المثل القائل « ان الطيور على أشكالها تقع » • فالثواب والعقاب هما أداتان تستعملهما السلطة لمن يشذ عن المجتمع الذى ينتمى اليه حتى تدمجه فيه ، وتجعله ينسجم مع الباقين فى سلوكه وخلقه •

وأما العامل الثانى فهو عامل المشاركة الوجدانية ، وهذه هى النزعة العامة التى تثير فى الناس حالة وجدانية واحدة ، وهى التى تفسر لنا اجتماع الناس لفرح ، واجتماعهم للبكاء فى المآتم ، واجتماعهم للاحتجاج وأظهار التألم والاستياء • فالمشاركة الوجدانية اذن عامل آخر يرمى الى انسجام المجتمع ، وهى من أهم العوامل التى تربط أعضاء بعضهم ببعض •

فهذان العاملان : عامل السلطة ، والمشاركة الوجدانية هما اللذان يدفعان المرء للاهتمام برأى المجتمع عنه • فالمرء يجب أن يتأكد عادة ان كان مرضيا عنه أم لا ، أى ان كانت لديه المؤهلات الانسجامية أم لا • فان لم يكن حائزا للرضا — الذى هو أهم المؤهلات الانسجامية — كان مهددا بالعقاب أو بالفصل أو بالنبذ •

ولهذا كان سلوك كثير من الناس محددا بهذين العاملين ، وهما اللذان سبق الكلام عنهما فى تكوين فكرة المرء عن نفسه • وفكرة المرء عن نفسه هى التى تعمل على توجيه نزعاته ورغباته ، وهى التى تقوم بتوحيدها — أى بتكاملها •

ولكن عاملى السلطة والمشاركة لا يؤديان الى أعلى مراحل التكامل • فهناك الفلاسفة والعظماء والأنبياء الذين يلاقون من تعذيب السلطة واهانتها لهم الشئ الكثير ، وهم كثيرا بالاضافة الى ذلك لا يجدون مشاركة فى الشعور ، ولا عطا من غالبية المجتمع • ومع ذلك فانتا نعتبر أنهم وصلوا

الى أعلى المراحل الخلقية • وهم عادة يشعرون بالسعادة أو بما يسمى راحة الضمير رغم التعذيب ، والاهانة والنقد ، وعدم العطف • ويشعرون بهذه السعادة لاعتقادهم في صحة آرائهم ، دون الاكتراث بآراء الغير • ويشعرون بالسعادة كذلك متى أدوا رسالتهم أو جاهدوا في أداء هذه الرسالة التي يشعرون بها ، ويعتقدون في صحتها •

من ذلك نرى أنه لاستكمال الخلق يجب أن يعمل الفرد على تحقيق مثل أعلى أحيانا في مستواها المثل التي تحددها المجتمعات ، وذلك للأسباب الآتية :

١ — اهتمام المرء برأى المجتمع فحسب يمكن أن يعتبر دافعا أنايا غير راق •

٢ — تقاليد المجتمع ومستوياته الخلقية قد تختلف من وسط الى وسط ، وفي الوسط الواحد قد تختلف من وقت الى آخر •

٣ — يسهل على المرء أحيانا أن يخدع المجتمع فيوهمه بأنه شخص طيب الخلق ، جدير برضائه عنه ، وذلك بأن يظهر الشخص غير ما يبطن ، ويبدو أمامه بغير خلقه الحقيقي •

ولهذا السبب الثالث ندرك أثر الاعتقاد في وجود قوة الهية كبرى ترصد جميع الأعمال وتعلم ما يظهر منها وما يخفى ، وتحاسبنا على نياتنا وضمائرنا ، لا على أعمالنا الخارجية ، أى تؤاخذنا بالدوافع الداخلية لا بسلوكنا الخارجى •

وهذه الأسباب الثلاثة في مجموعها هى التى تحتم وجوب محاولة المرء الانتقال الى مرحلة أعلى من مرحلة رضاء المجتمع عنه • وهذه المرحلة العليا ، ولو أنها تبدو مستقلة عن رأى المجتمع ورضائه ، الا أن الوصول اليها متوقف على العوامل الاجتماعية السابقة الذكر •

ولو أمكن للإنسان أن يتجرد من جميع الدوافع الشخصية ، سواء اهتمامه بالثواب والعقاب ، أو ذم المجتمع ومدحه ، فإنه يكون لنفسه مستوى خاصا به يؤمن به إيمانا راسخا ويحاول تحقيقه . وهذا المستوى الخاص يختلف عند الناس بعضهم عن بعض فالمستوى الذى يأخذ به زعيم يرمى الى تحرير وطنه من انقسام ، أو من استعباد أو غير ذلك ، تجده يوجه جميع نزعاته ورغباته لخدمة هذا الغرض . ولذا نجده يتساهل مع نفسه فى الماديات البسيطة ، كتوافر النقود ، أو التأق فى الملابس . ونجده لا يهتم بما يقع عليه من عقوبات النفى والسجن . وتجرد زعيم « كغاندى » من هذه الماديات مثلا ، واهتمامه بتحسين حال مواطنيه . أدى الى تقدير الهنود له تقديرا يقرب فى شكله من العبادة . ومثل « غاندى » سعيد فى أى زمان ومكان ، ما دام يعمل ناجحا لتحقيق غايته .

والذين يعملون على افادة أكبر جزء ممكن من المجتمع الانسانى يعتبرون أرقى الشخصيات جميعا ، وهم فى الغالب أقربها الى أعلى درجات التكامل . ويمكننا أن نقول على وجه التقريب : ان درجة تكامل الشخصية تتناسب تناسبا طرديا مع اتساع دائرة المجتمع الذى يرمى الفرد الى اسعاده . فأقلها تكاملا التى يسعى صاحبها فقط لاسعاد ذاته ؛ اذ لابد أن تتعارض نزعاته الذاتية مع نزعاته الاجتماعية فى تحقيق غاياته الذاتية . ويليه من يسعى صاحبها فقط لاسعاد أسرته وأولاده . ثم يليها من يعمل صاحبها على اسعاد أقاربه . ويليه من يعمل صاحبها على اسعاد هؤلاء وأصدقائه . ويليه من يعمل صاحبها على اسعاد أهل بلده أجمعين . وهكذا الى أن نصل الى من همه الأول والأخير اسعاد المجتمع بأوسع معانيه . وهنا قد نصل الى مرحلة ربما تبدو مجردة كالبحت عن الحقيقة ومناصرة العدل وخدمة الانسانية . وهذا يتفق مع رأى مارشال سمطس^(١) فى أن تكامل الشخصية له درجات

(١) Quoted by Burnham : The Wholesome Personality p. 7.
from Smutts : Holism and Evolution.

التكامل التي يمكن أن يصل إليها الإنسان ، والتي يترتب عليها ما سببها
سمطس التوافق والأمن الداخلي (Harmony and Internal peace) ، ولا يد
أن نشير هنا الى أن غرض الأسعاد ليس من الضروري أن يكون واضحاً
صريحاً في كل حالة •

رأى في السعادة :

يرى مكدوجل أنه لفهم معنى السعادة علينا أن نغرق أولاً بين مغاني كل
من اللذة (Pleasure) ، والسرور أو الطرب (Joy) ، والسعادة (Happiness)
فهذه المظاهر تمثل في رأى مكدوجل مراحل تصاعدية لأمر واحد • فاللذة
قصيرة المدى وزائلة • وكثيراً ما ترتبط بالناحية المادية الجسمية ، كاللذة
الصادرة من المآكل والملبس والمشرب وغير ذلك • وأما السرور فانه أطول
مدى ، ويتصف بأنه نفسى متصل ببعض العواطف ؛ فالإنسان يسر من مقابلة
صديق ، أو من شفاء قريب • وأما السعادة فانها أطول عادة في عمرها من
كل من اللذة والسرور ، وقد تستمر مع الشخص مدى حياته • والإنسان
يسعد عادة لقيامه بواجب يؤمن به • ومتى ظهرت فكرة الواجب الذي يؤمن
به الشخص ظهرت فكرة عاطفة اعتبار الذات ؛ أى فكرة أن أداء هذا الواجب
يحقق فكرة المرء عن نفسه ، ويشعره بالسعادة تبعاً لذلك • فالسعادة نتيجة
لتحقيق الذات (Self Realisation) وبعبارة أخرى هي نتيجة لوضع النزعات
التي تعتر بها الذات موضع التنفيذ العملى •

من هذا نرى ارتباط فكرة السعادة — بهذا المعنى — بعاطفة اعتبار
الذات ، التي هي المنظم الأعلى للشخصية • وعلى ذلك فالسعادة ترتبط
بتكامل الشخصية • وهي تنشأ من الوحدة أو التوافق التام الموجود بين
نزعات الشخص وعواطفه • ووجود هذه الوحدة يضمن توجيه الطاقة
البشرية التابعة بالطبع من الاستعدادات الغريزية لتحقيق غرض واحد أمام
الشخص • فالسعادة إذن — حسب رأى مكدوجل — في تكامل الشخصية (١)

(١) قال مكدوجل في ص ١٣٤ من كتابه علم النفس الاجتماعى •

Happiness arises from the harmonious operation of all the sentiments of a well-organised and unified personality, in which the principal sentiments support one another in a succession of actions all of which tend towards the same or closely allied and harmonious ends.

ويمكننا الآن أن نتبع مستويات السعادة من أدناها الى أعلاها :
فالطفل مثلا سعادته وقتية ، فهو سعيد اذا كانت حاجته الجسمية ونزعاته
الغريزية مشبعة ؛ بأن يتحقق له الشبع والراحة واللعب وما شابه ذلك .
وهذا المستوى من السعادة يصح أن نسميه مستوى اللذة ، وهي وقتية
قصيرة العمر . كذلك سعادة الحيوان (ان صح هذا التعبير) نجدها من
هذا النوع . وهناك الأشخاص الذين يجدون سعادتهم في ارضاء لذاتهم
الوقتية ، أو عمل ما تمردوه ، فهم مدفوعون بنزعاتهم الفطرية أو الاعتيادية ،
لا بمبادئ أو أفكار سامية . وأرقى من ذلك قليلا من لا يجد السعادة
الا في اسعاد أولاده ، فإن لم يكن قادرا على ذلك ، أو ان ماتوا جميعا ،
أصبح شقيا لا يجد السعادة في أمر آخر . فكان هذا النوع من السعادة
محدود العمر ، ولا يرتبط بأعلى مراحل التكامل الخلقى . ولكن السعيد
حقا هو ذو الشخصية القوية الذي يعمل دائما لتحقيق غرض سام خاص ،
والذى لا تتعارض نزعاته مع صالح الانسانية . وربما كان أقرب الأمثال
لذلك الأنبياء الذين لم يسعدهم المأكول والملبس ، ولم يشقهم الجوع والبرد
والاهانة ، ولم تسعدهم كثرة الأولاد ، ولم يشقهم فقدهم . وانما كان
يسعدهم أمر واحد ، وهو الجهاد والسعى لتحقيق الفكرة السامية . وكذلك
رجل مثالى « كإبراهيم لنكولن » الأمريكى الذى قضى قسما كبيرا من حياته
لا يفكر ولا يعمل الا لأمر واحد وهو محو الرق . وقد ضحى بالكثير من
رغباته وملذاته الأخرى في سبيل تحقيق فكرته . وقد أفادت أمريكا خاصة
والعالم عامة من مثاليته في نواح عدة . ويظهر أمثال لنكولن في مختلف
نواحي الحياة وبمختلف الدرجات فمنهم « محمد فريد » و « مصطفى
كامل » وغيرهما .

ولا شك في أن وجود فكرة واضحة شاغلة لذهن الفرد يوجه جهوده
لتحقيقها ، يترتب عليه أرقى أنواع التكامل الخلقى ، وفيه أيضا السعادة

الحقيقة • فإذا كان هذا الرأي في السعادة صحيحا ، فأننا نستنتج أنه لازيادة سعادة شخص ما لا يجوز أن نزيد فقط مجموع لذاته ، وإنما نعمل أيضا على تحسين شخصيته ، وتقويتها ، وانسجام عناصرها ، وربطها ، وتوحيد وجهاتها •

وهنا يمكننا أن نوفق بين آراء علماء التربية ، فبعضهم يرى أن الغرض من التربية الخلقية هو تكوين شخصيات قوية متماسكة ، وبعضهم الآخر يرى أن الغرض منها هو الزيادة في سعادة الانسانية عامة • ومما تقدم نرى أن أحد الغرضين نتيجة طبيعية للآخر • ويدل ما تقدم على ما يوجد من اتفاق تام بين غايات التربية وغايات الصحة العقلية ، ما دام كل منهما قائما على أسس معقولة •

المراجع

- Allsop: Educational Psychology. Chs. II. & VIII.
Aveling : Personality and Will.
Banks : Conduct and Ability. Ch. V.
Burham : The Normal Mind Ch. VI.
Ch. II. Burham : The Wholesome Personality Ch. VI.
Fox : The Body and its Mind. Ch. VI.
Granett : The Mind in Action.
Hadfield : Psychology and Morals. Ch. III.
Jung : Integration of Personality.
McDougall : Energies of Men. Ch. XXIV.
McDougall : Social Psychology. Ch. V, VI, VII, VIII, & IX.
McDougall : An Outline of Psychology. Ch. XVII.
McDougall : Abnormal Psychology. Chs. XXXIII & XXXIV
Morrison : Basic Principle in Education. Ch. VII.
Ross : Groundwork of Educational Psychology Ch. VII.
Shaffer : Psychology of Adjustment. Ch. XIII.
Stout : Groundork of Psychology. 2nd Ed. Chs. XVII & XIX.
Taylor : Readings in Abnormal Psychology.
Thouless : Social and General Psychology. Ch. VI.

الفصل السادس

انحلال الشخصية

«اللاشعور»

خلاصة ومقدمة:

تكلمنا الى الآن عن تكامل الشخصية ، وأشرنا الى العوامل المتعددة من دوافع فطرية ، الى قدرات عقلية مختلفة ، الى عوامل جسمانية ومزاجية • وكل عنصر من هذه العناصر يظهر بقدر يختلف من شخص الى آخر • ومركبات العاطفة الواحدة في الشخص الواحد تختلف في قدرها من موضوع الى آخر • فمقدار الحنو الداخلى في تركيب عاطفة حب شخص نحو أمه غيره نحو أبيه ، أو نحو ولده ، أو نحو صديقه • وبذلك تكون العواطف التى يمكن تكوينها متعددة جدا • ولكن مع ذلك فهذه كلها ترتبط أو تتكامل عند الشخص الواحد تحت تأثير عاطفة اعتبار الذات • والتكامل سنة مظاهر الحياة الجسمية والعقلية في الكائن الحي الواحد (١) •

ولكن سبق أن ذكرنا أن التكامل التام كثيرا ما لا يوجد • وبمثل العناصر التى يتكون منها الكائن الحي مثل الأفراد الذين تتكون منهم جماعة من الناس ، اذا حصل بينهم شئ من النزاع والانشقاق ، فإن العناصر المنشقة تعمل دائبة متخفية ضد بقية الجماعة ، وتنتظر هذه العناصر المنشقة حالات

(١) بل هو سنة نظام العالم اجمع بكل مظاهره كما أوضح المارشال سمطس في الخطاب الافتتاحي للمجمع البريطاني لتقدم العلوم سنة ١٩٣١ •

The Scientific World Picture of Today : British Association for the Advancement of Science 1931 . p. 5.

الغفلة عند بقية الجماعة ، ليزيد نشاطها الظاهر ضدها • فكأن الجماعة لا تشعر بفعل العناصر المنشقة عنها •

كذلك في الحياة العقلية كثيرا ما يحدث صراع أو نزاع يترتب عليه انفصال بعض العناصر النزوعية ، ولا تشعر الشخصية عادة بوجود هذه النزعات المنفصلة ، ولكن مع ذلك لا تنعدم هذه النزعات ؛ بل تظل تحاول التأثير في سلوك الفرد بأشكال مختلفة ، وبقية الشخصية تعمل على إبعادها عنها • فكأنه قد أصبح لدينا شخصية شعورية ، وقوة أخرى أو مجموعة قوى لا شعورية • أما الشخصية الشعورية فهي تمثل العناصر المنسجمة بعضها مع بعض • وأما القوى اللاشعورية فإنها النزعات التي لا تنسجم مع الشخصية الشعورية • ووجود مجموعتين من القوى المتعارضة في الشخصية الواحدة أدى الى افتراض وجود الفصل (Dissociation)، وادى الى افتراض « قوة » تمنع القوى اللاشعورية من التأثير في الشخصية الشعورية • هذه القوة المانعة أو الضاغطة سماها « فرويد » بالرقيب (Resistance or Censor) ووظيفة الرقيب في الحياة العقلية لا تختلف عن وظيفة الرقيب المعروف في المجتمع • فالرقيب وقت الحرب مثلا ينتقى الأخبار التي يسمح بنشرها • وأما مجموعة الأخبار التي تعارض سياسة المجتمع وترقله ، فإنها تحبس ، وتمنع ، وبضغظ عليها حتى لا تظهر • ولكن مع ذلك فإن كثيرا من الأخبار يتسرب خفية أو في أشكال مقنعة الى أذهان الشعب • ومن هذه الأشكال التنكرية الصور الرمزية والكاريكاتورية ، وما شابه ذلك • ومثل الرقيب في الحياة العقلية كذلك مثل الأب الصارم في الحياة المنزلية ، فإذا وجد الأب — وكان يقظا — كان الأولاد عادة على أحسن ما يكون من الأدب أو النظام ، وأما اذا غاب الأب أو نام أو غفل قليلا فإن الأولاد يهيجون ، ويلعبون ، ويمرحون ، ويخربون ، ويفسدون النظام • وهكذا يكون موقف الرقيب والنزعات العقلية كل منهما تجاه الآخر •

لهذا وصل فرويد من دراسته للمظاهر العادية والشاذة للحياة العقلية الى أن عناصر الشخصية الهامة ثلاثة ، وهى :

١ — ال « أنا » أو الذات ، أو الشخصية الشعورية (The Ego)

٢ — ال « هـى » ، أو القوى اللاشعورية (The Id)

٣ — الذات العليا (The Super-Ego) ، وتسمى أحيانا بالرقيب •

ال « أنا » :

أما ال « أنا » فهى تلك الشخصية التى نعرفها فى أنفسنا ، ونشعر بها •
« فأنا » أحب والدى ، و « أنا » أحب اخوتى ، و « أنا » أحب الصديق ،
و « أنا » أحترم من يتمسكون بمبادئهم ، و « أنا » أكره الكذب ، و « أنا »
أكره الاعتداء ، و « أنا » أعرف فى نفسى كل ذلك • فهذه ال « أنا » هى
صاحبة العواطف والميول ، وهى منطقية معقولة ، متصلة بعالم الواقع اتصالا
مباشرا ، وهى حلقة الاتصال بين النزعات الغريزية ومثيرات العالم الخارجى ،
وهى خلقية ترعى التقاليد • وهى تغفل فى ساعات النوم • وأما فى ساعات
اليقظة فانها تشعر بما لديها من خبرة •

وطريقة تكوين ال « أنا » أن الطفل الصغير يكون مدفوعا بما يسميه
البعض عوامل الحصول على اللذة والابتعاد عن الألم وما يسميه البعض
الآخر « غرائز » • ولكن اتفق الجميع على أن المنبع الأساسى لهذه الدوافع
أو العوامل هو الطاقة الغريزية • ويمكننا أن نقول أن الطفل الصغير من
الناحية النفسية ما هو الا مجموعة دوافع فطرية ، ويريد الطفل أن يحقق
هذه الدوافع • وهى لا تتحقق عادة الا باتصاله بالعالم الخارجى وعن طريق
تفاعلاته مع هذا العالم ، ومع ما فيه من قوى ومقاومات وأشياء ساكنة •
وأخرى متحركة ، وكائنات حية ، وأخرى ميتة ، وسلطات فردية ، وأخرى
اجتماعية ، تارة تعاقب ، وتارة أخرى تثيب • وهى توقع عقابها وثوابها

بأساليب مختلفة • يؤدي التفاعل مع كل هذا ومع غيره الى تكوين النفس
الشعورية أو ال « أنا » • وأقوى عوامل التفاعل الأولى هي الأم ثم الأب •
فكان ال « أنا » انفصلت من الطاقة الغريزية بعد اتصال هذه بالعالم
الخارجي • وطريقة تكون ال « أنا » شبيهة الى حد ما بطريقة تكون عاطفة
اعتبار الذات في نظر مكدوجل • ووصف فرويد لل « أنا » شبيه بوصف
مكدوجل لعاطفة اعتبار الذات^(١) •

الذات العليا أو الضمير اللاشعوري (Super-Ego)

علمنا أن ال « أنا » تتكون بتمييزها من الدوافع الغريزية بعد اتصال
هذه بالعالم الخارجي • وهناك جزء آخر يتكون بانفصاله من ال « أنا »
وهي في مراحل تكونها الأولى • واسم هذا الجزء الذات العليا • وطريقة
تكونه أن الطفل في أثناء اتصاله بالعالم الخارجي وتكون ال « أنا » عنده
يتصل شعوريا بمصادر السلطة الثابتة ، وأهمها سلطة الأب أو من يمثل
الأب • وسلطة الأب هذه توجه السلوك ، فهي تمنع أنواعا من السلوك
وتسمح بأخرى • والطفل يعجب بهذه السلطة لقوتها ، ويحبها لحمايتها له ،
ولقيامها على اشباع رغباته • لهذا نجد الطفل يتمثل بخصائص السلطة ،
ويقولها بأن يجرب أساليبها • فالطفل ان قيل له : ان من العيب أن يكشف
عورته ؛ ففي أول فرصة يجد أخاه الأصغر منه يفعل ذلك ينهره كما ينهره
والده من قبل ، أو قد ينهر دميته في موقف تمثيلي شبيه بالمواقف التي
ينهر فيها الأب •

ويخلص علماء النفس هذه العملية بأنها عملية امتصاص واسقاط
(Introjection & Projection) أي امتصاص الطفل لخصائص السلطة
واسقاطها على الخارج • وعمليتا الامتصاص والاسقاط مهمتان لتكوين

(١) Wm. Brown says « The Ego bears some relation to the more idealistic conception of the self-regarding sentiment of Mc Dougall » : Psychology & Psychopathology, p. 70.

هذه الذات العليا • ثم يقوم الطفل بعد ذلك — دون أن يشعر — بتحكيم هذه السلطة في سلوكه الخاص به • فإذا فرضنا أن فردا اشتاقت نفسه لاشباع غريزة من الغرائز بطريقة لا يقرها العرف ، فقد تقوم الذات العليا بعملية المنع أو بعملية السماح لا « أنا » بالتمتع باشباع هذه الغريزة بطريقة أخرى يقرها العرف • فكأن الذات العليا تقوم بتنظيم الصلة بين الغرائز من ناحية و ال « أنا » من ناحية أخرى •

والفرد عندما تتكون عنده الذات العليا يكون كأنما قد نصب على نفسه رقبيا أو حاكما أو والدا يتصرف في نزاعاته ، ويوجهها وينظم علاقتها بال « أنا » أو النفس الشعورية •

وتتصف الذات العليا بأنها تتصل اتصالا كبيرا بالطاقة الغريزية ، وفي نفس الوقت تسيطر على ال « أنا » ، ولو أنها تتكون أصلا بانفصالها منها ، وهى الناقد الخلقى الأعلى لا « أنا » • وهى التى تشعرها بالذنب شعورا شديدا ان صدر منها ما لا يروقها • وقد لخص فرويد وظيفتها بأن سماها « الضمير اللاشعورى » (The Unconscious Conscience) وقد لخص براون نفس الوظيفة بقوله : انها الناقد اللاشعورى الأعلى لعقل الانسان • (The Unconscious higher critic of the mind) (١، ٢، ٣، ٤)

وأما السبب الأساسى فى أن الذات العليا تتصف بأنها لا شعورية فانه أمر يحتاج الى شرح مطول نكتفى بتلخيصه فى أن الذات العليا تمثل سلطة الأب • وسلطة الأب نفسها مكروهة لوقوفها فى سبيل التعبير عن الغرائز بصورها الفطرية ، ولكنها فى نفس الوقت مقبولة لأنها سلطة الأب الذى يعطى ، ويحمى ، ويشبع الكثير من الحاجيات الأولية • فالذات العليا تمثل السلطة التى تعطى وتمنع ، وتثيب وتعاقب ، وتحمى وتؤذى الى غير ذلك

(١) Freud : The Ego and The Id. ch. III.

(٢) Freud : New Introductory Lectures to Psycho-Analysis ..

(٣) Wm. Brown : Psychology and Psychopathology.

من الأفعال التي يجلب بعضها المحبة، ويجلب بعضها الآخر الكراهية • ونتيجة هذا التناقص الوجداني (Ambivalency) إبعادها من الشعور • ولكنها مع ذلك تظل في غاية القوة • وهناك سبب هام آخر يجعلها لا شعورية، وهي أنها سلطة غير منطقية على عكس الخصائص التي تتطلبها النفس الشعورية، فهي تنزع لأن تبدو للعالم الخارجى بأن لها كيانا منطقيا • وهذا سبب آخر من أسباب فصلها وإبعادها عن الشعور •

والتسليم بوجود الذات العليا يوقفنا على أسباب التمسك الجامد بما يسمى التقاليد والذوق والقيم الخلقية وبعض الأمور الدينية، مع عدم وجود الأسباب المنطقية الكافية لذلك • وكثير من الناس يؤمنون مثلا بأفضلية السفور على الحجاب، ومع ذلك لا يطبقون السماح لذويهم بالسفور • وكثير لا يرى مانعا علميا أو منطقيا في جمع البنين مع البنات في المراحل الأولى من التعليم الابتدائي، ولكنهم مع ذلك لا يستسيغون تنفيذه، ولا يعملون سببا صريحا لاتخاذهم هذا الاتجاه •

ال «هى» (The Id) أو الطاقة الغريزية :

ذكرنا فيما تقدم جزأين من النفس : وهما ال «أنا» وال «أنا العليا» • أو الذات العليا • وهناك جزء ثالث لا يمكن الوصول إليه في العادة • ووصلنا الى معرفة ما به من دراسة الأحلام، ودراسة مسالك الأطفال والبدائيين، ومن التحليل النفسى للحالات المرضية والعادية • وهذا الجزء من النفس يسمى بال «هى» • وهى تحتوى مجموعة نزعات مختلطة بعضها مع بعض • وهى مضطربة قوية هائجة تندفع نحو اشباع النزعات الغريزية على أساس تحقيق اللذة وإبعاد الألم • وقد تكون متناقضة العناصر دون اتجاه للتوفيق أو التقريب • وهى بعيدة عن المنطق • ولا يدخل في حسابها الطيب أو السيئ • وليس عندها للقيم الأخلاقية أو المعايير المعروفة لنا أى اعتبار • فال «هى» تحوى مجموعة القوى أو النزعات بصور غير خلقية، وغير

منطقية ، وغير منظمة ، وغير شعورية ، وهي تندفع بقوة لتحقيق اللذة .
ولكن يلاحظ أن ال « أنا » وهي خلقية منطقية تسير التقاليد تكونت
بافتصالها من ال « هي » . فكان ال « هي » تشمل النزعات التي هي أساس
السلوك الخلقى ، وتشمل النزعات بصورها غير الخلقية ، ولكن صور
النزعات التي لا تتفق مع ال « أنا » تكبت وتستبعد . وكذلك تكبت النزعات
التي يترتب على تحقيقها إيلام الشخص ويكون مقرها ال « هي » . فال « هي »
تجوى النزعات المكبوتة بمختلف أنواعها .

ويرى فرويد أن عناصر ال « هي » الأساسية هي النزعات الجنسية .
ولكن تدل جميع الدلائل على أن ال « هي » تشمل النزعات الغريزية الأخرى
التي تكلم عنها آدلر ومكدوجل وغيرهما .

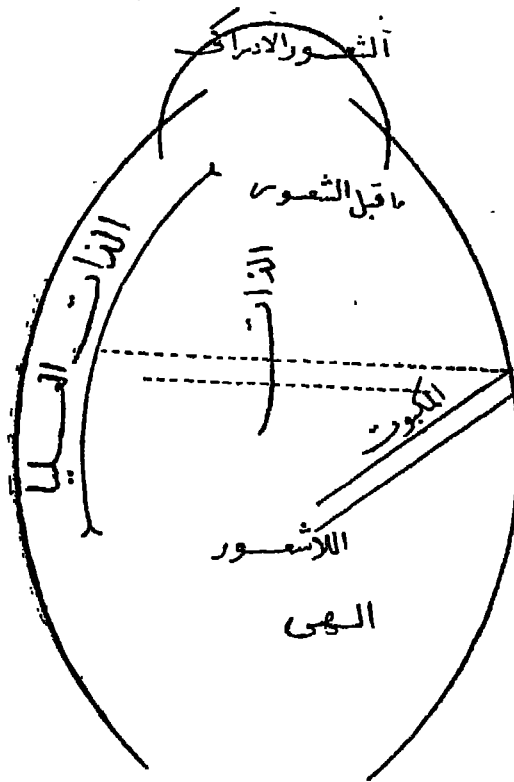
ال « أنا » والقوى المؤثرة عليها :

من كل ذلك نرى أن الشخصية الشعورية الظاهرية المألوفة لنا التي
نحس بها وهي ال « أنا » — تقع في كل شخص تحت تأثير ثلاث قوى في
غاية الشدة وهي :

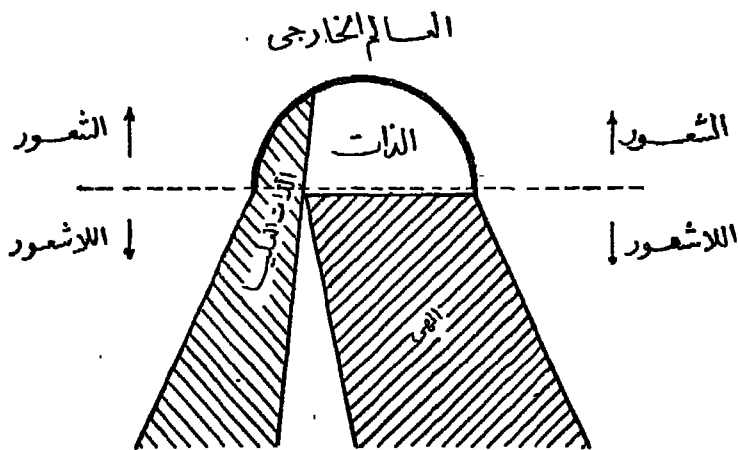
١ — ال « هي » بقواها النزاعة للتعبير عن نفسها ، وأهم القوى النزعات
الجنسية في صورتها المشروعة التي وضعها المجتمع ، والنزعات الاعتدائية .
والى جانب الناحيتين الجنسية والاعتدائية نجد النزعة للسيطرة ، والتملك ،
وما الى ذلك . كل هذا بصور فطرية غير مقيدة بقيود المجتمع وتقاليده .

٢ — الذات العليا بتحكمها في الشخصية الشعورية والسماح لها بقبول
بعض نزعات ال « هي » بصور خاصة ، وعدم قبول بعضها اطلاقا . والذات
العليا تتحكم في الشخصية تحكما جائرا لا منطق فيه .

٣ — العالم الخارجى أو عالم الواقع (The Reality) بمغرياته ومثيراته
وتقاليده ، فالعالم الخارجى فيه الأشخاص الذين يمنحون ويمنعون ،



شكل يبين مكونات الشخصية
كما يراها فرويد مأخوذ من :
Freud, New Introductory
Lectures of Psycho-Analysis
p. 501



شكل آخر يبين مقومات الشخصية الشعورية والاشعورية مأخوذ من :

Cattell : Crooked Personalities in Childhood and After; p. 29.

والأشياء التى تغرى ، والتقاليد الموضوعية المقيدة التى تضايق الناس . وفيه النقد ، وفيه المنطق ، وفيه الأسس الأخلاقية ، وفيه التقدير ، وفيه الرضا والسخط والثواب والعقاب ، والعدل والظلم ، والقسوة والرحمة . فالشخصية الشعورية المتكونة قبل أن تسمح لنفسها بالتمتع بالتعبير عن نزعة معينة لابد لها أن تزن ما يترتب على هذا الإفصاح من أثر متبادل بينها وبين عالم الواقع .

قال « أنا » تتنازعها قوى ثلاث . وهى الذات العليا ، والواقع ، وال « هى » . ولأجل أن تكون الشخصية الشعورية — أو ال « أنا » — فى حالة اتزان ، لابد أن تحقق من النزعات ما يسمح به العالم الواقعى بعد موافقة الذات العليا عليه . وللحصول على هذه الموافقة يلزم أحيانا تبرير هذه النزعات ، أو تقنيها ، أو التحايل عليها بشتى الوسائل التى سنشير إليها فى الفصل التالى .

ويمكن على حسب رأى فرويد^(١) تشبيه العقل بحجرتين : أحدهما صغيرة ظاهرة واسمها الشعور أو ال « أنا » ، والأخرى كبيرة جدا غير ظاهرة واسمها اللاشعور أو ال « هى » . أما الحجرة الأولى فانها مرتبة مقبولة تستعمل عادة لاستقبال الضيوف من العالم الخارجى ، ويؤخذ أحسن ما فى المنزل ليرتب فيها لهذا الغرض . وأما الثانية فانها غير مرتبة ، مليئة بألوان وأشكال من الحشرات الدائمة الحركة ، القدرة غير المقبولة . وبين الحجرتين ممر يقف به ما يسمى بالرقيب (Censor) . ومحتويات الحجرة الكبيرة تحاول النفاذ الى الحجرة الصغيرة الظاهرة . ولكن الرقيب لا يسمح بالمرور الا لأشياء معينة ، ولا بد أن تستوفى شروطا شديدة . ولكن تفلت أحيانا من الرقيب بعض الأشياء ، وتخرج للحجرة الصغيرة من الحجرة الكبيرة . وهذا الإفلات يحدث باستغفال الرقيب ، كما يحدث فى الأحلام ،

(١) لم يذكر فرويد كل ما ورد تحت هذا التشبيه بالنص .

وفى فلتات اللسان ، وفلتات القلم ، والنكات غير المقصودة وبغض الحركات الارادية ، وغير ذلك من أنواع السلوك العادى والشاذ •
الصراع والكبت وتكوين العقد :

لنتقل بعد هذا لشرح بعض الأمثلة التى تبين كيف أن العقل يفصل النزعات الى شعورية ولا شعورية • لناخذ حالة مألوفة ، وهى أنك وأنت سائر مع أصدقائك فى الطريق مثلا نبج عليك كلب كبير • فالطريق الطبيعى الذى تتبعه هو أن تتخلص من خطره ، ولكنك تحاول أن تظهر أمام أصدقائك اذ ذاك بمظهر الشجاعة ، والشجاعة والخوف لا يتفقان ، فتحاول أن تخفى الخوف • وقد تجد نفسك تبالغ بغير قصد فى اظهار الشجاعة • ومحاولة الاخفاء هنا قد تكون شعورية • ويلاحظ أنك تخفى وراءها من النزعات ما لا يقبله المجتمع • وتستبقى ما يؤيده فالصراع بين الشجاعة والخوف ينتهى هنا باستبقاء الشجاعة واخفاء الخوف •

ومن الحالات الكلاسيكية^(١) فى هذا الصدد حالة ذلك الطبيب العسكرى الذى كان يقاسى منذ طفولته قلقا — يصل أحيانا الى خوف ظاهر — اذا ما وجد نفسه فى مكان ضيق • وكان يعتبر هذا شيئا طبيعيا ، وكانت تظهر عليه فى بعض الأحيان أعراض اضطراب عصبى وتلعثم فى الكلام •

وعمل فى أثناء الحرب فى الميدان ، وكان يتحتم عليه بحكم عمله قضاء معظم وقته فى حيرات الخندق (dug outs) ، ولكنه لم يطق ذلك فكان يترك حبرته ويستمر طوال الليل يتجول فى الخندق ، وهنا تحقق للمرة الأولى أن خوفه لم يكن طبيعيا • وكان أن أرسل الى المستشفى بتقرير ذكر فيه أنه يعانى الأرق والتلعثم والأحلام المزعجة والاكتئاب والصداع وما إليها •

وطلب إليه محله أن يسجل أحلامه وأن يحاول استرجاع ذكرياته القريبة

(١) Rivers : Instinct and The Unconscious p. 170 .

التي تتصل بهذه الأحلام • وبعد بذل جهد قليل في هذه السبيل تذكر خبرة مرت به في سن الرابعة ، لم يتح له تذكرها في محاولاته السابقة لتعليل حالته • وكانت الحادثة التي تذكرها زيارة لمتجر في الأشياء القديمة اعتاد أن يعطى من يذهب اليه من الأطفال ومعه سلعة مما يتجر فيه مبلغا ضئيلا من المال • كان هذا التاجر يسكن قريبا من منزل الطفل ، وصادف أن وجد شيئا فذهب به اليه ، وكان منزل التاجر يقع في منتصف ممر مظلم ضيق ، دخله الطفل وباع الرجل ما كان معه وخرج • وصادف أن كان في نهاية الممر من الجهة الأخرى كلب كبير ، وعندما ذهب الطفل الى مدخل الممر وجده مغلقا فأسقط في يده ، وحينئذ بدأ الكلب ينبج نباحا عاليا فأتاب الطفل ذعر شديد • وكان من أثر ذلك أنه كان يخاف — دون وعي منه — أن يمر بدار هذا الرجل بعد هذا الحادث •

ونسيانه للحادثة قد تم بالطريقة الآتية : وهي أن الولد يتعلم أن يكون شجاعا وألا يخشى الحيوانات العادية كالكلاب والقطط وما شابه ذلك ولما حدث له هذا الحادث ، تولاه صراع بين الخوف الطبيعي والشجاعة التي غرسها فيه المجتمع • فاستبقيت الشجاعة وكبت الخوف من الكلاب : ونسى نسيانا تاما • ولكن الولد استبقى نوعا من الخوف لا يقوم المجتمع بتعزيزه من أجله كثيرا ، وهو أنه لا يجب المرور في الممرات الضيقة ، أو المكش في الأماكن المقفلة ، ويلاحظ أنه يدعى أنه لا يحبها ، ولا يقول : انه يخافها • فالخوف من الكلب ، وما أحاط به من ذكريات ترتبط بظروف الحادث ، كبت في اللاشعور • ولكن ظل الخوف يعمل في صورة أخرى ، وهي الخوف من الأماكن المغلقة • فكان الضابط كلما دخل نفقا أو خندقا شعر بخوف شديد • ولكن يتحدث هنا كبت من نوع آخر ، وهو أن الخوف في الخندق يتنافى مع واجب الجندي ، أو واجب الدفاع عن الوطن ، أو فكرة الشجاعة ، ولكن لا يلبث أن يتكرر الموقف ، ويتكرر نجاح انفعال الخوف في الظهور ،

وينجح هو في كبته • ولكن يأتي وقت يطفى فيه الانفعال المكبوت على الشخص ، ويصبح الانسان في حالة مرض عقلي ، أو انهيار عضبي ، أو ما شابه ذلك •

وأغلب الظن أن الكبت هنا لاشعوري ، فليس من المعقول أن يكون الطفل قد كبت الخوف كبتا شعوريا • والكبت في هذه الحالة هو المقاومة التي أدت الى فصل افعال الخوف مع الذكريات المرتبطة به من الشعور الى اللاشعور • والخوف المكبوت وما يحيط به من ذكريات يسمى عقدة (Complex)

وتعريف العقدة : أنها مجموعة الأفكار والذكريات ، المصطبغة بصبغة افعالية مؤلمة ، والمكبوتة في اللاشعور • ويتلخص العلاج على طريقة فرويد ، في ابراز العقدة بمكوناتها للشعور وادماجها فيه • فاللاشعور اذا يحتوى على الذكريات المؤلمة ، وعلى النزعات التي لا تنسجم مع تقاليد الحياة وآدابها المعترف بها •

لنأخذ حالة أخرى وهي من أولى الحالات التي عالجها فرويد^(١) مع زميله برويار (Breuer) • وهي حالة فتاة كانت مصابة « بالهستيريا » ، ومما كان لديها من أعراض ، شلل في بعض أطراف الجسم ، وفقدان الاحساس في النصف الأيمن من جسمها • وأصيبت أيضا بخوف من الماء وصل بها الى عدم المقدرة على الشرب • وفي يوم أرادت أداء الصلاة ، وكانت في حالة رعب شديد ، فلم تتذكر الإقطعة كانت قد حفظتها بالانجليزية ، ومنذ ذلك الوقت نسيت لغتها الأصلية — وهي اللغة الألمانية — ولم تتكلم سوى الانجليزية •

وبطبيعة الحال فحصت الفتاة أولا من الناحية الجسمية فحصا دقيقا ، أدى الى التأكد من عدم وجود أية اصابة جسمية كافية لظهور هذه

(١) Freud : An Autobiography, chapter II.

الأعراض • فلجأ فرويد وزميله بعد ذلك الى أساليب نفسية كالمحادثة والايحاء بحث تأثير التنويم المغناطيسى • وفى يوم من الأيام — والفتاة فى جلسة من جلسات العلاج — تذكرت أنها كانت ذات مرة تعبئة منهكة تشعر بعطش شديد • وكانت اذ ذاك تستريح فى حديقة منزلها • فأعطتها مرييتها كوب ماء لتشرب منه ، فأصاب البنت جزع وتقزز شديد ، لأنه سبق لها أن رأت كلبا يلعب هذا الكوب ، ولكن مرييتها الانجليزية هى التى قدمت لها الكوب ، وكانت تخافها وتكرهها فى قرارة نفسها ، ولكن لا تجرؤ على مخالفة أمرها ، فشربت الماء متألمة ، وضغطت على شعور التقزز ، ثم نسيت الحادثة كلها نسيانا تاما • ولكنها بعد ذلك — رغم نسيانها للحادث الأصيل — ظلت تتقزز من رؤية الماء ، ولا تقوى على ابتلاعه •

الاتصال المؤلم هو التقزز ، وما تجمع حوله من أفكار هو ، المربة ، والكلب ، والكوب ، والظروف المحيطة كلها ، والحادث نفسه • هذا كله كعقدة واحدة كبت فى اللاشعور • ولكن ظلت القوة الكامنة فى الاتصال تعمل فى صورة تقزز من الماء •

بعد أن ذكرت الفتاة كل هذا وبعد أن مرت بالخبرة الاشعالية السابقة من كره وتقزز وخوف وما اليه ، طلبت كوب ماء ، وشربت منه بشره شديد • وتمكنت فى ذلك الوقت من التمتع بشرب الماء ، ومن التكلم بلبقتها الأصلية وهى الألمانية • أى أن العلاج قد تم بسحب العوامل اللاشعورية ، وابرازها فى الشعور وادماجها فيه • وللحالة ظروف وملابس أخرى عديدة ، كل منها يحتاج الى تحليل طويل جدا • فنكتفى بما ذكرناه •

ولأجل أن تفهم الطريقة التى تمت بها عملية النسيان أو الفصل من الشعور — أو كما يطلق عليها اصطلاحيا الكبت — نعود الى الحادث الأصيل ، فنجد أن التقزز كان مرتبطا فى ذهن الفتاة بكوب الماء لأن الكلب

كان قد لقيه • والمربية هي التي قدمت إليها الكوب • فوقبت الفتاة اذ ذاك بين أمرين: فهي اما أن تقبل الكوب منها ، متأثرة بدافع الطاعة ، أو التأدب ، أو الخوف ، أو ترفضه محبة بذلك نداء طبيعيا ، وهو رفض ما تتقزز منه نفسها • وحدث اذ ذاك في نفس الفتاة صراع مؤلم عنيف بين أمرين ، كلاهما يشق عليها التغلب عليه ، أحدهما الطاعة وقبول الماء الذي تعافه نفسها ، والآخر رفض الماء ، والظهور بمظهر عدم التأدب والعصيان • و انتهت المعركة النفسية بقبول الماء وشربه ، وكبتت الفتاة رغبتها الطبيعية في رفض ما تجزع منه نفسها • و انتهت المعركة النفسية في هذه الحالة لم يكن الا انتهاء مؤقتا ، فالتقزز الطبيعي مما تعافه النفس لم يمت ، وإنما انحدر الى « اللا شعور » ، وظل هناك قويا فعالا • وظهرت فاعليته في أن أصيبت الفتاة بمرض عصبى من أعراضه عدم القدرة على شرب الماء •

ويصح أن نورد هنا بيانا مختصرا جدا لبعض العقد ، فمن العقد الشائعة المعروفة عقدة النقص (Inferiority Complex) ومنشؤها الأصلى تكرار النقد والاذلال • وكل الأجواء والمعاملات التي تؤدي الى شعور بالنقص يكبت ويترتب عليه الظهور بمظهر الذلة والخضوع أو الظهور بمظهر العظمة • وعقدة الأب (Father Complex) ومنشؤها قسوة السلطة ، وصرامتها ، وشدة الجو المنزلى • ويترتب على قسوة السلطة ، وامتصاص الطفل لها أن يعكسها على نفسه ، ويعكسها على الناس • وعندما يعكسها على نفسه يكون قاسيا عليها شديد النقد لها ، كثير التبرم منها ، غير راض عنها ، شاعرا بخطئه على الدوام ، يخشى لوم الناس وتقدهم ، ويحسب لهم ألف حساب • وعندما يعكسها على الناس يكون أيضا شديد النقد لهم ، قاسيا عليهم ، يتمتع بابرار خطاياهم • وأما عقدة الأم (Mother Complex) فمنشؤها عادة التدليل الشديد ، الذى يترتب عليه أن يصبح الشخص اتكاليا أنانيا ، يعامل نفسه كما تعامل الأم الضعيفة ابنها • وقد يظهر

الشخص بنوع خاص من القوة لتغطية الضعف الذي أشرنا إليه حتى لا يكون مكشوفاً للمجتمع ، وليس من الضروري أن يكون منشأ عقدة الأم هو الأم نفسها ، ولا أن يكون منشأ عقدة الأب هو الأب نفسه .

وهناك عقدة أديبوس (Oedipus) وهي تتميز بعنصرين : حب الولد لأمه ، وكرهيته لأبيه . أما عقدة الكترا (Electra) فانها تتميز بحب البنت لأبيها وكرهيتها لأمها . وهاتان العقدتان احدهما أو كلاهما ضروريتان — كما يرى فرويد^(١) لتكوين ما يسميه بالذات العليا .

العواطف والعقد :

بينا باختصار كيف تتكون العقد ، وسبق أن بينا قبل ذلك كيف تتكون العواطف . ونظرا لما بينهما من تشابه عظيم يرى بعض علماء النفس الانجليز أن يطلق عليهما اسما واحدا وهو (Complex) بالنظر الى تركيبهما . ونرى لهذا أن نقيم بينهما موازنة قصيرة توضح معنى كل منهما .

الأساس الأول في تكوين العقد هو الكبت نتيجة للصراع ، وأما الأساس في تكوين العواطف فهو الاندماج والانسجام مع الـ « أنا » ، التي تقبل هذه العواطف . ينتج عن هذا أن تكون العقد لاشعورية ، وأما العواطف فانها شعورية . ولهذا السبب الأخير تخضع العواطف للتجارب الجديدة ، فتتعدل بها . وأما العقد فانها لا تتعدل بالتجارب العادية . فاذا كانت لدى عاطفة حب أو احترام لشخص ما ، فان عاطفة الحب هذه يمكن انماؤها ، وتغذيتها ، أو يمكن أن تتعدل من نفسها على ضوء المعرفة الجديدة . وأما العقدة فانها في الغالب ثابتة ، فالضابط الذي كان يخاف الأماكن المظلمة ، لم يتعدل سلوكه رغم معرفته بعدم وجود أساس لمخاوفه .

وتؤثر العاطفة عادة في سلوكنا كل الوقت تقريبا ، وهي ضرورية لسلوكنا . وأما العقد فانها تظل عادة كامنة ، الى أن يأتي الظرف

(١) Freud : The Ego and The Id; ch. III.

المناسب لظهارها • وهى ليست ضرورية لتوافق الحياة العقلية • ولها فوق ذلك قوة خاصة بها ، بخلاف العواطف فهى فى قوتها تابعة لبقية الشخصية الشعورية • فبينما تتعاون العاطفة مع بقية عناصر الشخصية فى حكم الفرد ، نجد أن العقدة نائرة من نفسها على بقية عناصر الشخصية • ومن أمثلة ذلك أن يعيش المرء فى حياته عيشة هادئة معقولة ، وفجأة يجد نفسه فى موقف يثير فيه الخوف الشديد • ونجد أن هذا الخوف الشديد لا يتفق مع معلومات الفرد ، ولا تفكيره السليم ، ونجد أيضا أن له قوة عظيمة خاصة به ، يطغى بها على بقية الشخصية • فالعقدة هنا قوة ديناميكية عظيمة مستقلة تؤثر فى الفرد • وهناك من حالات الأمراض العقلية من الأمثلة ما لا حصر له ، مما يدل على صحة ما تقول ، فمن هذا مثال القسيس الايرلندى الذى خرج من منزله فى لندن صبيحة يوم من الأيام ، وبدلا من أن يذهب الى الكنيسة ركب القطار وسافر الى ادنبره ، ووجد نفسه فجأة فى شوارع بلدة غريبة • وحاول أن يتذكر اسم نفسه والجهة التى بجاء منها ، فلم يتمكن • ثم سلم نفسه للبوليس ، وأخذ هذا فى البحث واذااعة النشرات ، حتى عرف كل شئ عن هذا القسيس • هذه حالة اقتبستها من محاضرات الأستاذ هادفيلد (Hadfield) فى جامعة لندن ، وكان قد أتى بها ليدل على ما يسمى عادة حالات فقد الذاكرة المصحوبة بالابتعاد عن المكان الذى يعيش فيه الانسان (Fugue states) وتدل هذه الحالة على أن الحياة الدينية التابعة لد « أنا » (The Ego Life) ، لا تتفق مع نزعاته الفطرية التابعة لد « هى » (The Id) • وزيادة على ذلك فإن الرقيب أو الضمير اللاشعورى أو الذات العليا (Super Ego) لم يكن بحيث يوفق بين ال « أنا » وال « هى » ومطالب العالم الخارجى • بذلك طغت ال « هى » على ال « أنا » •

وهناك مثال آخر اقتبسته أيضا من محاضرات الأستاذ هادفيلد ، وهو مثال لتاجر مشهور فى سيلان من تجار الشاي ، وكان قد اختفى عن أنظار أهله وأصدقائه فى يوم من الأيام • وبعد البحث وجدوه هائما على وجهه ، ينام على ضفاف القنوات المائية فى الهواء الطلق ، ويأكل أى شئ يقابله

من حشائش وغيرها • وكان اذا اقترب منه أو شاكسه أحد قابله بالعويل والصراخ • وبالجملة فإنه وجد يعيش عيشة تمزج بين عيشة الفطرة والطفولة • ولكنه لما أعيد الى مزارعه أمكنه أن يتذكرها وعادت اليه حالته الأولى • فهذا التاجر ولو أنه كان ناجحاً في الظاهر إلا أن تحمل المسؤولية — الذى هو وظيفة النفس الشعورية — لم يكن في لحظة ما قادراً على مقاومة المحتويات اللاشعورية • فكان من السهل على اللاشعور أن يسيطر على حياة هذا التاجر سيطرة تعفيه من المسؤولية (١) •

وهذه القوة الديناميكية المستقلة المخالفة في اتجاهها لبقية الشخصية ، تفسر تناقض الأشخاص في سلوكهم ، وتفسر اندفاعهم بما لا يقصدون من حركات وألفاظ • ويشكو الآباء كثيراً من هذا التناقض ، فيقول الواحد منهم مثلاً ان ابنه يكون أحياناً هادئاً لطيفاً ، يتكلم بعقل • وأحياناً أخرى يكون هائجاً ، معاكساً ، معانداً لغير سبب ظاهر • وكثير من حالات اجرام الأحداث التى بحثناها كان السلوك الاجرامى يصدر فيها بقوة لا حيلة للحدث فى مقاومتها ؛ فالحدث أحياناً يسرق ، أو يكذب ، أو يهرب ، أو يعتدى مندفعاً بقوة غريبة عنه • ويعبر عنها مخلصاً بأن الشيطان هو الذى دفعه الى ذلك • وقال لى أحد الصغار الذين درستهم لمحكمة أحداث القاهرة ما معناه : انه كان يسمع الشيطان وهو يوسوس له فى أذنه اليسرى ويدفعه للسرقة •

مظاهر اللاشعور

من أهم خواص اللاشعور اندفاعه لتحقيق رغباته ، ويتبع فى ذلك أساليب متعددة • فأحياناً يحققها عن طريق فقد الذاكرة ، مما يساعد على إبعاد الشخص عن تحمل مسؤولية لا يريد أن يتحملها • وشبيه بفقدان الذاكرة حالة الاغماء ، ففيها يفقد الانسان شعوره ، فلا يحس بالموقف

(١) يشبه هاتين الحالتين تماماً حالة التيسيس Ansel Bourne المشروحة فى كتابه :
B. Hart : Psychology of Insanity, p. 49.

الذى لا يمكنه تحمله • وكذلك شبيه بهذين كثرة النوم ، فالنوم يعد
الانسان عن مواجهة الواقع • ومن أمثلة ذلك نوم بعض السيدات فى أثناء
وجودهن فى منازلهن • ويصاحب هذا النوم انهماك وهى ، ويساعد على
اغفائهن من رؤية أزواجهن أو أولادهن أو القيام بمسئولياتهن المنزلية •
ويحقق الاشعور دوافعه كذلك عن طريق النسيان ، فالمرء ينسى ما يحدث
الألم أو عدم الارتياح ، فينسى ما عليه من دين ، ولو أنه لا ينسى عادة ما له ،
حتى ولو لم يدونه فى مذكراته • وينسى بعض المواعيد التى لا يرغب فى
قرارة نفسه فى الذهاب اليها ، وهو ينساها رغم تذكير نفسه بها مرارا وتكرارا •
وينسى شيئا ما فى منزل صديق لأنه يود عدم الابتعاد عنه فيعود ليأخذ
ما نسى • وينسى فى الصباح ، وهو خارج الى عمله ، شيئا ما يضطره للعودة
الى المنزل لأنه لا يرغب فى ترك المنزل ، أو لا يرغب فى الذهاب الى العمل • وتنسى
السيدات مواضع المفاتيح فيعفين أنفسهن من بعض العمل بالمنزل • وينسى
المرء أسماء بعض الناس لارتباط هذه الأسماء بانفعال مؤلم اما بأصحابها ،
أو بمشابهاتها • وقد لاحظت مرة أننى حفظت أسماء تلاميذى فى سنة من
السنين حفظا جيدا ، ما عدا اسما واحدا ، رغم محاولتى المتعددة فى أن أعلقه
بذهنى • ولما فكرت فى المسألة وجدت أن اسم هذا الطالب يستدعى الى
ذهنى اسما مشابها آخر لقرب لى كنت — على ما يظهر — أكرهه كراهية
شديدة رغم اضطرارى للتعامل معه • ومن ذلك الوقت لم أنس اسم هذا
الطالب رغم مرور السنوات العديدة على ذلك •

وتحقق رغبات الاشعور فى الحياة اليومية فى النكات غير المقصودة ،
وفى فلتات اللسان • ومن أمثلة فلتات اللسان أن شخصا معينا أراد أن يقول:
ان الكتاب أخذته (زاهية) • فقال : ان الكتاب أخذته (داهية) • وكان
متغيظا بحق من أخذ هذه السيدة للكتاب ، ومن حجبها اياه مدة طويلة •
ويحقق الاشعور رغباته فى أخطاء المطالعة وأخطاء الادراك ، وغير ذلك من
أنواع الخطأ التى نينت الدراسة الحديثة أنه لا يرجع لمحض الصدفة ، وانما
هو فى الغالب نتيجة حتمية لقوى يمكن معرفتها •

كذلك يحقق اللاشعور غاياته في المظاهر المرضية الجسمية كالصداع والتهتمة ، وبعض حالات الصمم ، والعمى ، والشلل ، وفقد الاحساس ، والانهاك العصبي ، والحمل الكاذب ، والتهاب القولون ، وغير ذلك من الظواهر المرضية ، التي كثيرا ما تؤدي وظيفة هامة لرغبات الانسان بطريقة لا شعورية *

ومن وظائف هذه المظاهر أنها تحمي الانسان من موقف مؤلم ، فالمرض قد يدفع المرء للاعتذار عن ميعاد أو أداء امتحان أو تحمل مسئولية أو ما شابه ذلك^(١) *

ومن الظواهر الشبيهة بالظواهر السابقة الأحلام بنوعها : أحلام النوم ، وأحلام اليقظة ووظيفتها الأساسية تحقيق رغبات الانسان *

الأحلام

ومن الظروف الملائمة لظهور نشاط اللاشعور الظرف الذي تتخذ فيه الحالة الشعورية باستعمال المخدرات أو المسكرات^(٢) أو الحالة التي ينم فيها الانسان * وإذا أخذنا بفرض فرويد يمكن أن نقول ان الرقيب أثناء النوم يكون أقل تحكما منه في حالة اليقظة ، وبذلك تتاح الفرصة للرغبات المكبوتة في اللاشعور فتعبر عن نفسها تعبيرا صادقا الى حد كبير *

ويستثير الحلم عادة مثير خارجي ، كخبر أو فكرة أو مشاهدة في أثناء حياة اليقظة ، أو مثير حسي في أثناء النوم * فقد تقوم مناقشة حادة بين عدة أشخاص عن يوم القيامة والحساب والعقاب وما شابه ذلك ، فيحلم الشخص في أثناء نومه حلما محوره يوم القيامة كما سنرى * وقد يكون هناك مثير حسي في أثناء النوم ، فيحدث الحلم مباشرة * فوخذ ابرة قد تثير حلما بأن

(١) قام المحذون بافراد قسم من علم الطب يدرس هذه النواحي وسموه

Psycho-Somatic Medicine

(2) W. Brown in his Psychology and Psychotherapy says : « With a very depressed person one find that the super-ego is ruling with excessive severity which alcohol can relieve ».

الشخص يعذب بدق المسامير في جسمه • والشعور بالتبلل في القدمين قد يثير حلما بأن الشخص يخوض في الطين • وسقوط قطرات المطر بانتظام وتتابع على زجاج النافذة قد يثير حلما فيه باستماع أصوات المدافع الرشاشة وضغط الغطاء على القم قد يثير حلما بأن الشخص يختنق ، وهكذا • ومن الخطأ أن ينتهى تفسير الحلم عند هذا • ولكن هذا الجزء من الحلم يدخل عادة تحت ما يسمى بالمحتويات الظاهرة (Manifest Content) وهي الوصف الظاهر للحلم ، وله بالخبرات أو المشيرات الخارجية القرينة أو الحسية المباشرة علاقة ظاهرة • ولكن الحلم في العادة له معنى أعمق من هذا ، فالمحتويات الظاهرة ما هي الا صور مقنعة (أو تنكرية أو رمزية) لأمر أخرى • مثال ذلك ما يحدث عادة من أن والدا يشتد على ولده مثلا بأن يضربه ، فالرد الطبيعي على هذا هو أن يغضب الولد ، وأن يرد على هذا بالأساليب القطرية غير المهذبة • ولكن الآداب العامة وتقاليده المجتمع تحتم عليه أن يقابل هذا بالرضا ، وتحتم عليه أن يعتبر أنه انما يعمل لصالحه ، وأنه يجب عليه أن يحب والده • هذا كله يفرضه المجتمع على الـ «أنا» فيضطر الـ «أنا» ازاء هذه النظم والتقاليد أن يكبت — بمساعدة الذات العليا — كراهية الأب • والنزعة إلى الانتقام منه • وفي ليلة ما قد يحلم أنه قتل أسدا ، أو ثعبانا ، أو صار ملكا ، أو قتل ملكا • وصور الأسد أو الثعبان أو الملك كلها صور رمزية أو مقنعة يمكن أن تمثل الوالد • فالحلم يعبر عن نزعات الفرد المكبوتة ، لا تعبيرا صريحا ، وانما تعبيرا رمزيا أو مقنعا •

ومن أمثلة ذلك : ولد في سن السابعة ، كان والده قد توفي فجأة وتركه في الثالثة • وكان الوالد وابنه متعلقين بكل منهما بالآخر تعلقا شديدا ، وبعد ٤ سنوات من الوفاة ابتدأت الأم تفكر في الزواج • فتغير الولد لهذا ، وكرهته أمه واعتبرته (على ما يظهر) عائقا في سبيل زواجها • وكانت له أخت أصغر منه دلتها الأم ، وكانت تشجعها على اهانة الولد • وكان كثير

من أحلام الولد يدور حول الثعابين ، واعتدائها عليه • ونعتقد أن الثعابين تمثل زوج الأم المعتدى • وكان الولد يتبول في أثناء نومه ، وكان اذ ذاك يسمع وهو يتكلم في الحلم غاضبا ، مهددا ، شاتما • وكل هذا موجه نحو سيدة لعلها أمه ، أو من يمثلها •

ومثال آخر : لشاب في سن التاسعة عشرة من عمره ، وكان على درجة كبيرة من العناد والتمسك برأيه • وكانت علاقته بوالده قد ساءت الى حد أن أصبح الوالد يجاهر بأنه يعتبر أن لا ولد له • وكان الولد شديد التملل من جفاء والده نحوه • فاذا غاب الولد عن المدرسة وأرسلت المدرسة لوالده خطابا تسأله عن سبب الغياب ، أرسل الوالد هذا الخطاب مع الخادم لولده يسأله عن سبب الغياب • والأمثلة المتعددة من هذا النوع من المعاملة الجافة كانت تحز في نفس الولد بشدة ، وكان الولد فوق هذا معجبا بوالده ، يجمع صوره ، وكتاباتة ، ويتتبع أخباره • وللولد ظروف عديدة لا مجال للدخول فيها هنا • ولكنه رأى في الحلم — ذات ليلة — أن يوم القيامة قد حل ميعاده • ورأى الله سبحانه وتعالى جالسا على عرش كبير عال • ورأى أهل الكتاب من مسلمين وغيرهم يرمون عليه • ورأى الله يرمى على المسلمين سائلا أبيض كاللبن ، ويرمى على غير المسلمين سائلا أحمر. ساخنا ، ويكتفى بهذا كعقاب ، ثم يصفح عنهم جميعا •

وبعد أن قص الشاب حلمه صمت قليلا ، ثم تنهد تنهدا عميقا ، وقال من تلقاء نفسه بشيء من التأثر : « ولا أدري لم لا يكون الوالد هكذا ؟ لماذا يستمر الوالد في تجهمه وجفائه استمرارا لا يقطعه شيء ما ؟ ... الخ » • نرى من هذا أن « الله » في هذا الحلم رمز للوالد • وأن الولد يحقق لنفسه في الحلم ما كان يود أن يحققه لنفسه في الواقع بشأن والده •

يبين هذان المثالان معنى المحتويات الظاهرة والباطنة ، ومعنى الرمزية أو التقنع (Symbolism) والرمزية في نظر فرويد قائمة على النواحي الجنسية

بأعضائها وعملياتها وظروفها المختلفة، مما يتفق مع نظريته عن الطاقة الغريزية . ولكن ليس هناك ما يحتم ترجمة الرموز بهذه الصورة . ففى الحالة الأخيرة السابقة كان الشاب يرى عيونا تحقق فيه ، وكان يخاف منها . واتضح أن هذه العيون تمثل الذات العليا نفسها ، وهى ترقبه ، وتنقده ، وترعجه ، وتشتد عليه .

ومن حيل الأحلام حيلة التكثيف^(١) (Condensation) وتتحقق بها رغبتان أو أكثر فى وقت واحد . ومن الأمثلة البسيطة لهذا حلم الطالب^(٢) الذى كان يدرس الطب ، وقام من نومه فى ساعة مبكرة ، ولكنه أحس برغبة شديدة فى النوم ، وهذا لا يتفق مع وجوب الذهاب الى المستشفى ، وأحس فى نفس الوقت برغبة فى الذهاب الى المستشفى ، وهذا يتعارض مع الرغبة فى النوم . فنام قليلا ، وحلم أنه مريض ونائم على سرير المستشفى . هذا مثال للتكثيف الذى حقق به الطالب رغبتين فى نفس الوقت، وهما النوم والذهاب الى المستشفى . ومعظم الأحلام — ان لم تكن كلها — تكثيفية .

ويلاحظ أنه كثيرا ما تكون الأحلام صورا مضطربة خالية خلوا تاما من اتباع المنطق ، ومراعاة التقاليد . ونظرا لأنها هى نفسها ناشئة من اللاشعور ، فانه سرعان ما يتولاها الكبت والنسيان . فالأحلام تنسى بغاية السرعة . ولذا وجب لمن أراد دراسة أحلامه ، أن يكتبها مباشرة بمجرد استيقاظه ، وأن يتحاشى عوامل النسيان ، وعوامل التعديل ، التى يدخلها الـ « أنا » ، حتى يبدو الحلم على شىء من الاتفاق مع المنطق والأخلاق ، وحتى لا يبدو بالسخف الذى يحدث به الحلم . هذه العوامل كلها تبعد الحلم عن حقيقته . ولذا كان الانسان فى حاجة الى التمرن ، حتى يمكنه

(١) ويظهر أثر التكثيف كحيلة لا شعورية فى الحياة العادية ، فنجد واحدا يكثر الكلام بدافعين متناقضين : أحدهما الرغبة فى اثبات الذات ، وثانيهما الدفاع عن الذات حتى لا يقوم المستمع بتوجيه أسئلة أو اعتراضات .

(2) Valentine : The Psychology of the Unconscious p. 99. quoted from Freud.

أن يدون جلما أو يقصه كما حدث بالفعل • والدارسون لعلم النفس ،
المقدرون لهذه النقطة صعوبتها ، يشكون في صحة كثير من الأحلام التي
تقص عليهم • وكثير من الناس يقولون انهم لا يحلمون مطلقا ، وانهم
ينسون جميع أحلامهم • ولكن بعض التمرين يمكنهم أن يلاحظوا أنهم
يحلمون بكثرة ، وأنهم يمكنهم تدوين هذه الأحلام بشيء من الدقة •
ويختلف تذكرنا للأحلام باختلاف بُعد وقوع الحلم من فترة الاستيقاظ ،
وباختلاف عمق النوم • ويلاحظ أن النوم ان كان عميقا ، وقع الحلم
بصورة جديده • ولكن في حالات النوم الخفيف يقع الحلم ، وكثيرا ما يعرف
الشخص أنه يحلم •

وشبيه بأحلام النوم أحلام اليقظة ، وهي الأفكار والخيالات التي
يسترسل فيها الشخص عندما يقال انه شارد الذهن • فالطفل قد يضع
أصبعه في فمه ويسترسل في خيالاته • وكذلك البالغ يسترسل في كثير من
أحلامه في أثناء اليقظة • ويتم في أحلام اليقظة اشباع كثير من الرغبات ،
كالرغبة في التخلص من الأب ، أو الأم ، أو المدرسة ، أو حالة العزوبة ،
أو تحمل المسؤولية ، أو الحصول على الغنى ، أو الشبع ، أو الزواج ،
أو الشهوة ، أو غير ذلك مما تشتاق اليه النفس ، ولا يسهل أحيانا تحقيقه
في الواقع •

والطفل في لعبه كثيرا ما يحقق رغباته بطريقة شبيهة الى حد ما بما يتبع
في أحلام النوم أو أحلام اليقظة • فالأطفال لا يلعبون عبثا ، أو لهوا ، لمجرد
قتل الوقت • وانما يلعبون ليصيبوا أهدافا معينة • وهم يقومون في ذلك
بأدوار تمثيلية ، يعبرون فيها عن رغباتهم ومخاوفهم • والذين يفهمون هذه
اللغة الخيالية للأطفال يكشفون في العادة الأشخاص والحوادث التي يرمز
لها في هذه الأدوار • ومن أمثلة ذلك الطفل الذي يمثل وضع « القطرة »
في عيني دميته انما ينفس عن رغبة كامنة في نفسه ، لأن أمه أمسكته ،
وضغطت عليه ووضعت « القطرة » في عينيه • وهذا في مجموعه عملية غير

سارة لا يرضاها ، وانما يقبل الاذعان لها تحت الضغط فهو يؤذ لو ينتقم ممن حوله . ولكن من له بهؤلاء حتى ينتقم منهم ؟ فيقوم بتمثيل هذا الدور ، وفيه الفرجة الكافية عن نفسه ، والاشباع لرغبته في الانتقام . كذلك الطفل الذى يجلس دميته أمامه ، ويطلب منها أن تسمع الكلام ، وألا تتحرك ، وأن تجلس هادئة ، انما يبين بصورة أخرى ثورته على مثل هذه الأوامر التى تلقى عليه من وقت لآخر ، ويريد أن يشعر بالسرور والنشوة اللتين يشعر بهما الكبار عند اخضاعه لأوامرهم . والطفل الذى يجمع لعبه ويسمى كل واحدة منها اسما ويلعبها جميعا ألعابا مختلفة ، هو فى الغالب طفل وحيد تنوق نفسه الى الزملاء من سنه ليؤنس وحشته بهم ، ولكنه لا يجدهم فى الواقع فيخترعهم من « مخيلته » . وهذه كلها أنواع من الأحلام ، نلمس من ذكرها أهميتها فى دراسة عقل الفرد للتعرف على طريقة تكونه من ظروفه وماضيه .

أما علاقة الأحلام بالمستقبل فيمكن أن تفسرها بما نسميه التوقع اللاشعورى ، ومعناه أن هناك دلالات مرت بالعقل يمكن أن تؤخذ لما يصح أن يقع فى المستقبل . فان كان لى قريب مريض جدا فهذا دلالة يمكن أن نتوقع معها ما يصح أن يحدث من وفاته . وتخفى هذه الدلالة عادة فى اللاشعور لأسباب عدة منها محبة هذا المريض أو الانشغال بالحياة اليومية ، أو ما الى ذلك . وربما يحلم النائم بوفاة قريبه فيتحقق الحلم فى الواقع بعد ذلك . فيظن أن الحلم يساعد على التنبؤ مما سيحدث . وقد أورد الأستاذ محمد فتحى بك^(١) بضعة حالات تؤيد هذا رأى . وأما ما عدا ذلك مما يقال عن علاقة الأحلام بالمستقبل دون رجوع الى التوقع اللاشعورى الذى أشرنا اليه فليس بجثا من مباحث علم النفس كما فهمه ، وان كان حولها مباحث متعددة فى ما يسمى بالعلوم الروحية ، ولا نعلم عن قيمتها التحقيقية شيئا^(٢) .

(١) محمد فتحى بك : علم النفس الجنائى صفحة ٢٤٨

(2) H. G. Wells, G. P. Wells, J. Huxly : The Science of Life Book 8 chapter IX.

المراجع

- Bannister : Psychology and Health.
Brown : Science and Personality.
Brown : Psychology and Psychotherapy Chs. II, III, IV & V.
Brown : Suggestion and Mental Analysis.
Burnham : The Normal Mind. Chs XII, XIV.
Burnham : The Wholesome Personality Ch. VI.
Cattell R. : Crooked Personalities in Childhood and After.
Coster : Psycho-Analysis for Normal People.
Anna Freud : An Introduction to Psycho-Analysis for Teachers.
S. Freud : New Introductory Lectures in Psycho-Analysis.
Freud : The Ego and the Id.
Freud : Psychopathology of Everyday Life.
Freud : Beyond the Pleasure Principle.
Freud : An Autobiographical Study.
M. Nicol : Psychopathology.
Valentine : The New Psychology of the Unconscious.

محمد فتحي بك : علم النفس الجنائي

الفصل السابع

العمليات العقلية اللاشعورية

(الحيل اللاشعورية)

مقدمة :

ذكرنا أن الـ « أنا » أو الشخصية الشعورية تقع تحت تأثير ثلاث قوى :
وهي الـ « هي » (اللاشعور) « والذات العليا » (الضمير اللاشعوري)
والواقع (العالم الخارجى) . وتحت تأثير هذه القوى الثلاث لا بد أن
تصل الـ « أنا » الى حالة اتزان أو استقرار ترتاح لها ارتياحا ولو مؤقتا .
وقد أشرنا فى مظاهر اللاشعور الى بعض الحيل التى توصل الـ « أنا » الى
حالة الارتياح ، فأشرنا الى النسيان ، وفقد الذاكرة ، والاعماء ، والاحلام ،
والحالات المرضية ، وغير ذلك .

ويمكن تلخيص هذه الحيل فى أنها حيل دفاعية (Defence Mechanism)
كالتعاضل لتغطية النقص ، أو حيل هروبية (Escape Mechanism)
كالانكماش والابتعاد فى حالة النقص ، أو حيل كبتية (Repression Mechanism)
كابتعاد الخبرة المؤلمة نفسها من الشعور . وفى هذا التقسيم كثير من
التداخل ، ولكن يصح أن نفصل بعض هذه الحيل فيما يأتى :

١ - الكبت والنسيان (Repression)

إذا وجد فى الحياة العقلية عنصران متعارضان ، فقد يترتب على هذا
التعارض كبت أحد هذين العنصرين . فإذا كان لدى ميعاد فلا بد أن
أحافظ عليه . ولكن إذا كان هذا الميعاد مع شخص أتضايق من مقابلته ،

فكثيرا ما يحدث أن ينسى هذا الميعاد • وعملية فصل هذه الفكرة من الشعور الى اللاشعور تتم عادة بطريقة لاشعورية ، وبدون قصد • ولذلك يكون الشخص فى الغالب مخلصا عند اعتذاره بالنسيان ، ولكن الطرف الآخر وان قبل الاعتذار ظاهريا ، الا أنه لا يقبله بينه وبين نفسه قبولاً كاملاً على الأقل • ولا بد لنا أن نفرق بين نوعين من النسيان : أحدهما النسيان بالترك وهذا يحدث بالتدريج ، كما يحدث فى نسيان كثير من المعلومات • وأما الثانى فهو النسيان بالكبت وهذا يحدث بسرعة كبيرة ، وبطريقة شبه فجائية •

ويلاحظ أن الدروس والنصائح والأوامر التى ترتبط بنوع من الايلام ، كالعقاب البدنى أو التوبيخ أو غير ذلك ، تكون مكروهة • وينزع العقل عادة الى كبتها ونسيانها هى وما يتعلق بها •

ومن أمثلة الكبت ما يحدث للأحلام من أن حوادثها وتفاصيلها سرعان ما تكبت وتنسى ، الا اذا بذل مجهود خاص فى الاحتفاظ بها وتدوينها بمجرد الاستيقاظ •

والكبت ظاهرة يتكرر وقوعها فى معظم الحالات ، ولنورد مثالا من هذه وهو مثال الطالب الذى أشرنا اليه سابقا (صفحة ١٢٣) ، والذى رأى فى حلمه أن القيامة قد قامت ، ورأى ربه وشاهده كيف يعامل الناس على اختلاف أديانهم • ذكر هذا الطالب فى إحدى جلساته أنه تذكر فجأة حادثة مؤلمة حدثت له وهو صغير ، وذكر أنها مع ذلك تافهة ، ولا يمكن أن يكون لها قيمة • ذكر أنه يوما ما قبل أن يرسل الى الروضة — أى عندما كان فى الرابعة — كان يلعب مع أخيه الأكبر منه بثلاث سنوات فى فناء المنزل ، ودخل الوالد ومعه دمية (عروسة سوداء اللون) وزهرية • واعتقد الولد أن الدمية له ، ولكنه كان هادئا ، وكان أخوه — على حسب

تقريره هو — أكثر منه حيوية ونشاطا • فتقدم الأخ من أبيه ، فسلمه الدمية • فقال الأصغر وماذا أحضرت لى ؟ فقال الوالد انه أحضر له الزهرية • وسلمه اياها لحظة • ثم سحبها بسرعة حتى لا يكسرها • ويقول الأخ الأصغر — أثناء هذه الجلسة — انه تألم جدا من هذا الحادث ، ونسيه ولم يتذكره الا فى أثناء الجلسة • وقال تعليقا عليه ، ان والده لم يكن يوما ما يعتبر له وجودا • هذا حادث كبت ونسى ، ولو أنه ظل يؤثر فى سلوك الولد وموقفه نحو أبيه •

ومثال آخر لطالب يتعثر فى حديثه ، وبدأ هذا فى سن الخامسة بعد أن دخل دورة المياه وأغلق بابها عليه ، ولم يتمكن هو من فتحه ، ولم يتمكن أهل المنزل أيضا من فتحه ، وذعر الولد ذعرا شديدا • وبعد فتح الباب وخروجه منه بدأ يتعثر فى حديثه • أما الحادث نفسه فقد نسى نسيانا تاما •

٢ - النكوص (Regression)

هو رجوع المرء الى الأساليب التى كان يتبعها فى مراحل نموه الأولى للتعبير عن دوافعه الغريزية^(١) • وهذا يحدث عادة اذا فشل الانسان فى تحقيق بعض رغباته • ونلاحظ أنه اذا فشل رجل فى حبه ، فانه فى بعض الأحيان يضرب عن الاتصال بالمرأة والزواج ، ويقنع نفسه بأنه يجب أن يعيش فى كف أمه ، أو احدى قريباته ، أو سيدة عجوز تعطف عليه • فكأن هذا الفشل فى الحب الذى هو وظيفة طبيعية للانسان البالغ نتيجة رجوع الى حالة الطفولة ، التى يكون الانسان فيها فى حماية أمه ، أو من يقوم مقامها • ومن أوضح أمثلة التراجع ، ما نشاهده فى الفتى الذى يتطلع عند زواجه الى زوجة لا تقوم منه الا مقام الأم الحنون ، والفتاة التى تتطلع عند زواجها الى رجل لا يقوم منها الا مقام الأب المرشد الشفيق • وكذلك

(١) Regression is a tendency on the part of the libido to revert to some channel of expression which belongs to an earlier phase of Libido Development (cf. Warren : Dictionary of Psychology).

البنت التى تخشى كبر السن قبل أن يتحقق لها الزواج فتظهر بمظهر الفتيات الصغيرات فى ملابسها وحركاتها وحديثها ونغمة صوتها الى غير ذلك •

وكان يونج (Jung) أول من تكلم عن النكوص على أنه العملية الوحيدة التى يقابل بها الفرد المواقف التى تصل صعوباتها الى حد لا يمكن التغلب عليه • ولذا نرى يونج يتوسع كثيرا فى معنى النكوص ، فيجعله شاملا لجميع أساليب مقابلة المواقف التى يفشل أمامها الانسان • ويلاحظ أن الكبار أنفسهم اذا واجهتهم صعوبات كبيرة فقد يقابلونها بالبكاء ، أو بأحلام النوم أو بأحلام اليقظة • واذا شعر الطفل بغيرة شديدة من أخ أصغر منه ، فانه أحيانا يعود الى الحبو ، وعدم القدرة على ضبط نفسه فى التبول والتبرز ، وكثرة الصراخ ، ومص الأصابع وما شابه ذلك • ويحدث هذا النوع من النكوص عادة فى أبناء الأمهات اللاتى يعملن لكسب عيشهن • ويؤدى هذا السلوك وظيفة هامة وهى الرجوع لمرحلة سابقة تستلزم رعاية الأم وعدم ابتعادها •

٣ - الإسقاط (Projection)

وعملية الإسقاط شبيهة بإسقاط الصورة من داخل الفانوس السحري على (ستارة) أو حاجز موجود فى الخارج • فالصورة لا تنتمى فى الأصل الى الحاجز الذى أسقطت عليه ، وانما تنتمى الى الفانوس من داخله • والإسقاط الذى نحن بصددده هو تفسير أعمال الغير بحسب ما يجرى فى نفوسنا • فصفتان كالبخل أو الغرور نجد فيهما أن البخيل أو المغرور أكثر الناس اتهاما لغيره بهما • كل صفة من هذه يخجل المرء من نسبتها الى نفسه فقط ، فيريح نفسه بأن ينسب لجميع الناس الصفة الموجودة فى نفسه ، أو ينسبها لغيره ، ويرى نفسه منها • وفى كثير من الحالات نجد رجلا سيئا الخلق الى أقصى حد يستطاع تصويره ، ومع ذلك يتهم زوجته البريئة مرارا وتكرارا بسوء الخلق • وفى كثير من الحالات التى نجد فيها الشخص متدينا الى حد بعيد ، ويتهم الناس باستمرار بالكذب ، أو عدم الأمانة ، أو التوجه

الجنسى ، أو ما شابه ذلك ، ويشتد على أولاده وزوجته فى هذه الناحية ، نجد أنه فى قرارة نفسه ميل الى كل ذلك • أما التدين فهو صفة النفس الشعورية ، ويساعد على كبت الرغبات الأخرى فى اللاشعور •

وقد ذكر برنارد هارت^(١) مثالا مما سماه جنون العوانس ؛ حالة لسيدة طيبة محترمة ، كانت تشكو من أحد معارفها أنه يحاول جذب انتباهها ، ومداعبتها • وأكدت أن الرجل مشتاق للتزوج منها ، وهو يتبعها فى كل مكان ، وبلغ بها الأمر أنها كتبت للرجل فى يوم ما خطابا شديدا تؤنبه فيه على سوء سلوكه • وأتبع ذلك بإبلاغ الأمر « للبوليس » • وقد أخذ التحقيق مجراه ، وتبين منه أن الرجل برئ من كل ما نسب اليه ، ولم يظهر ما يدل على أن الرجل كان عنده أقل ميل نحو هذه السيدة ، اذ لم يكن يشعر بوجودها كثيرا • وأدت كل هذه الحوادث الى اثبات أن المرأة مصابة بنوع من الجنون ، والى وضعها فى مستشفى الأمراض العقلية • ولتحليل هذه الحالة نقول : ان النزعات الجنسية لم تجد لنفسها منفذا طبيعيا عند هذه السيدة • وبعد طول المدة أدى هذا الى الكبت ، ولكن أمكن للغريزة الجنسية أن تعبر عن نفسها بأسلوب غير مباشر عن طريق الاسقاط • فالسيدة كانت تحب هذا الرجل ، وتعجب به ، وتتمنى أن يتزوجها • ولكن الرغبة الجنسية مكبوتة لأسباب متعددة ، فمن طريق الاسقاط اتهمت الرجل بأنه يضايقها رغبة منه فى مداعبتها والتزوج منها ، فأسقطت بذلك الرغبة اللاشعورية القوية الموجودة عندها فى هذا الرجل • وبذلك تشبع رغباتها دون أن تمس كرامة ال « أنا » •

ونلاحظ فى بعض الحالات أن ولدا ينسب السرقة التى ارتكبها الى اغراء شخص آخر له ، رغم تعدد سرقاته هو • وفى احدى الحالات كان يشعر صاحبها بضيق الصدر والتبرم وعدم القدرة على تركيز نفسه فى عمله

(١) B. Hart : Psychology of Insanity p. 122 (Old Males Insanity).

ويرجع هذا الى ضيق ذات يده ، وشدة رغبته الجنسية المكبوتة ، كما دلت على ذلك أحلامه وقراءته • ولكنه كان يرجع حالته كلها الى أمه • ونلاحظ كل يوم في أنفسنا وفي غيرنا أننا ننسب مثلاً سوء الخط الى القلم الذى نكتب به أو الى نوع الحبر ، وننسب قلة المهارة فى اللعب الى المضرب الذى نستعمله ، وننسب التأخر عن العمل الى سوء المواصلات • ومن أمثلة الاسقاط أننا نحاسب الناس بشدة على تأخرهم فى عملهم ، أو عدم ضبطهم لمواعيدهم ، ونحن أكثر الناس اتصافاً بهذه الصفات ، وأننا لا نطبق عدم وضوح التفكير فى الغير ، ونحن أكثر الناس اضطراباً فى التفكير^(١) وأن نكثر من نقد السيدات على خلاعتهن وتبرجهن ، ونحن أكثر الناس شوقاً الى الاستمتاع بكل ذلك • وهكذا مما لا نهاية له من الأمثلة التى نلاحظها كل يوم فى الحالات العادية ، أو غير العادية •

٤ - التحويل (Transference)

ومعناه أن الحالة الانفعالية اذا وجدت عائقاً فى موضوعها ، فإنها قد تتحول الى موضوع آخر يغلب أن يكون به بعض الشبه أو الصلة بالموضوع الأول • فكراهية تلميذ لمعلمه قد تكون ناشئة من كراهيته لوالده التى لا يمكنه أن يعبر عنها تعبيراً صريحاً • وكراهية التلميذ للسلطة الأولى وهى سلطة الوالد ، قد تتحول الى كراهية سلطة المدرسة فيهرب منها ، والى كراهية سلطة المجتمع والقانون ، وبذلك قد تبدأ النزعات الاجرامية من سرقة واعتداء وغير ذلك • وكثير من التلاميذ يكرهون مادة دراسية معينة ، ويكرهون معلمها ، لأن أول من علمهم اياها كان مكروهاً لهم • فتتحول هذه الكراهية لديهم منه الى المادة وأحياناً الى بقية معلمى نفس المادة • وكثيراً ما نجد فتاة تكره الرجال أجمعين ، ولا تثق بهم ، واذا حلت ما عندها

(١) Bernard Hart Says : The one thing that a muddle-headed man cannot tolerate is a lack of clear thinking in other people ». p. 114 ibid.

تجد أن المبرر الوحيد لذلك ، هو أنها تكره أباهها ولا تثق به ، أو لأن أخاها الوحيد عومل معاملة ممتازة ، لأنه ذكر ، ونال امتياز هذا على حسابها • ولو أنها لا تجرؤ على أن تعبر عن كراهيتها الأصلية ، ولكن يمكنها أن تعبر عن كراهيتها الناتجة منها عن طريق التحويل • ويفسر جزء كبير من الحب والكره على أساس التحويل المبني على بعض التشابه • وليس من الضروري أن يكون الشبه واضحا لكل انسان ، فقد يكون الشبه موجودا فقط بصورة لاشعورية في ذهن من يحب ويكره ، وقد يكون شباها تافها جدا • وكثير من الشبان قد يحبون لتشابه مع أمهم ، أو يكرهون لتشابه مع أمهم ، وكذلك الحال في الفتيات^(١) بالنسبة للرجال •

ويحدث عند التحليل النفساني أن يكره المريض من يعالجه ، أو يحبه حبا شديدا • والمريض في موقفه هذا يرى عادة في الذي يعالجه شيئا من الشبه بوالديه أو بأحدهما ، ويسمى المحللون التحويل المصحوب بالكراهية تحويلا سلبيا ، وأما التحويل المصحوب بمحبة فانهم يسمونه تحويلا ايجابيا • ولا يشمل التحويل حالتى المحبة والكراهية فقط ، وانما يتعداهما الى جميع الحالات الانفعالية • فقد يغضب الرجل من زوجته فيحول غضبه هذا على من يعمل معهم ، أو يتقابل معهم خارج المنزل • وقد يحترم المرء شخصا ما ثم يقابل شخصا آخر يشبهه أو يمت له بصلة القرابة فيحترمه • وبعض الناس لا يسهل عليهم تلقي العلم من سيده لأنهم يشعرون بقوتهم بالنسبة اليها ، أو بضعفها الشبيه (في نظرهم) بضعف أمهاتهم أو أخواتهم •

• - التقمص (Identification)

وهو أن يمتص المرء مجموعة من صفات شخص يعجب به • وامتصاص هذه الصفات يتضمن الحسن منها والسيئ • فالمرء يقلد دون أن يشعر

(١) N. Haire : Encyclopaedia of Sexual Knowledge; Love is no longer a Mystery Ch. XI and The Alchemy of Love Ch. XXVIII.

حركات أستاذ يعجب به • ويقلد أسلوبه في الخطابة ، واللقاء ، والمعاملة ، وأسلوب المناقشة وغير ذلك • ولا حظنا أن كثيرا من الخطباء في مصر كبارهم وصغارهم كانوا يقلدون سعد باشا زغلول حتى في قلب القاف كافا في أثناء النطق بها • وأعرف طالبا كان له في دور المراهقة أستاذ يده اليمنى أقصر من يده اليسرى ، فكان يقلده — وهو في ذلك الدور — دون أن يشعر ، في حركات يده القصيرة • أما كون عملية التقمص حيلة لاشعورية فهذا سببه أن التقمص فيه تسليم ضمني بالنقص ، وفيه تكميل للنقص عن طريق التقمص • فالنقص والاعتراف به أمران لا يقبلهما الـ « أنا » فيقيان لاشعورين •

والتقمص في السنوات الأولى ضرورى لنمو الطفل • فعليه يتوقف كسب الطفل للغة ، ولهجتها ، ونعمة الصوت ، ونوع المشية ، وأسلوب المعاملة ، والاتجاهات نحو الدين والتقاليد ، وغير ذلك • وتقمص السلطة المحيطة بالطفل عامل مهم في تكوين الذات العليا • وقد سبق أن بينا ذلك (ص ١٠٦) •

٦ - التبرير (Rationalisation)

هو بمعناه الواسع تحليل السلوك بأسباب منطقية يقبلها العقل ، مع أن أسبابه الحقيقية افعالية • ولتوضيح ذلك نفرض أن شخصا ما أهانك ، فأنت قد ترد هذه الاهانة ردا مضاعفا ، وبسرعة • وتقول : انك فعلت ذلك حتى لا يفعل مثله مع غيرك • والواقع أنك فعلت هذا من غيظ لا غير • كذلك قد آكره شخصا ما الى حد بعيد ، وأحاول دائما ذكر أسباب منطقية معقولة لهذه الكراهية ، فأقول : انى آكرهه لأنه مغرور ، أو غير مؤدب ، وربما يكون السبب الحقيقى انى آكرهه لأنى أشعر أنه أقوى منى فى ناحية ما • فاعطاء أسباب منطقية لما هو مبنى فى الواقع على أسباب افعالية يسمى تبريرا •

وأعرف سيدة تصف شخصا معينا بسعة العقل ، وكثرة الخبرة ، وحدة التفكير ، والواقع أنها ترى فيه ذلك لأنه يعيرها اهتمامه . وهذه السيدة نفسها تصف شخصا آخر بضيق العقل والغباوة . والسبب الحقيقي الذى ألمسه تماما ، هو أن هذا الفرد قوى الشخصية لا يسمح لشخصيتها بالظهور على شخصيته . كذلك اعتناقنا لدين من الأديان قد نبنيه فى الظاهر على أسباب منطقية ، والواقع أن تمسكنا به قد لا يخرج سببه الأول عن كونه تحيزا ناتجا من العادات والتقاليد والتأثر باتجاه الأسرة التى نشأنا فيها . ويحدث أحيانا أن رجلا يؤدى الفرائض الدينية على أحسن وجه ، ولكنه يبتز الأموال فى أعماله التجارية بطريقة غير شريفة . هذا كما يظهر لنا نحن، وليس كما يظهر له هو . فإذا ناقشته أجابك بأن هذه أصول التجارة . ورجل آخر يركب الترام مثلا ولا يجد مانعا من عدم الدفع اذا أمكنه ذلك ، ويقول : ان هذا عمل له ما يبرره ؛ فشركة الترام شركة أجنبية ، أو هذا المبلغ البسيط لا يضر الشركة عدم دفعه ، الى غير ذلك من الأسباب التى تظهر عادة — بعد نجاحه فى الافلات من الدفع .

والتبرير يسهل على الـ « أنا » (النفس الشعورية) قبول السلوك ما دام يستند الى أسباب منطقية . فكأن وظيفة التبرير ايصال الـ « أنا » الى حالة ارتياح عن طريق خداعها ، والتمويه عليها . ويمكن معرفة التبرير فى مناقشة ما اذا لاحظنا أن الانفعال الظاهر فى المناقشة أكثر مما تتطلبه المناقشة المنطقية الهادئة . فالمناقشة التى تجرى بين شخصين يعتنقان دينين مختلفين حول موضوع دينى يظهر معها انفعال شديد . ونفس هذا يحدث فيما يجرى من مناقشة بين شخصين ينتميان لحزبين مختلفين حول موضوع حزبي . وهذا بعينه ينطبق على جميع حالات التحيز التى لا تستند فى منشئها على أساس منطقي ؛ وانما تستند على أساس « شخصي » .

ونظرا لكثرة التجاء العقل لهذه الحيلة يعتبر المشتغلون بعلم النفس أن الأسئلة المباشرة التى توجه لشخص ما ، لمعرفة أسباب قيامه بعمل معين ،

لا تؤدي عادة الى نتائج صحيحة ، وانما تؤدي الى تبريرات فقط ، رغم اخلاص الشخص ومحاولته اعطاء الاسباب الصحيحة . ولذا يلجأون عادة الى طريقة الحديث الحر المرسل الذي يتصف بالانطلاق وعدم التقيد بأى قيد منطقي أو خلقى ، والذي لا يترتب عليه الاحتياط فى الاجابة من جانب الطرف الآخر .

٧ - التعويض (Compensation)

التعويض هو الظهور بصفة ما بقصد تغطية صفة أخرى . والصفة الظاهرة فى العادة صفة طيبة مقبولة عند الشخص . وأما الصفة المستترة فانها صفة غير مقبولة . ويكون هناك فى الغالب شىء من المبالغة (over-compensation) فى الصفة الظاهرة . ووظيفة المبالغة هى الوصول بعملية التغطية الى درجة النجاح . فاذا كان لدينا مثلا طفل يضربه أبوه ضربا شديدا ، فالنتيجة الطبيعية أن يكره الطفل أباه . ولكن حيث ان الطفل فى حاجة الى أبيه ، وقد جرت العادة أن يجب كل طفل أباه ، وحيث ان الطفل لا يمكنه أن يكره أباه ويحبه فى نفس الوقت ، فلا بد اذن من كبت الكراهية لأنها لا تتفق مع منطق ال « أنا » المشتق من منطق المجتمع وتقاليده وآدابه . ولأجل أن ينجح كبت الكراهية واخفاؤها لابد من المبالغة فى اظهار الحب . كل هذه العمليات تتم بطريقة لاشعورية . فالطفل يكون مقتنعا بينه وبين نفسه اقتناعا تاما بشدة حبه لوالده . فظهور الحب الذى يؤدي الى تغطية الصفة الأخرى يعتبر تعويضا لها . ويشك بعض الناس أحيانا فيما يظهر ممن يتصلون بهم بمظهر الأدب الجهم ، أو الكرم الحاتمي ، أو التقوى الشديدة ويعتقدون أن هذه الصفات قد تغطى صفات أخرى مخالفة لها . وبنفس الطريقة يمكن تفسير ما يظهر من شدة المبالغة فى الحزن العلنى على وفاة بعض الأقارب كالوالد الذى يتصف بالشدة والصرامة والذي يعامل أولاده مهما كبروا فى السن معاملة صغار الأطفال .

ويرى آدلر أن الأصل في التعويض هو تغطية شعور بالنقص — أى للوصول الى الشعور بالتفوق^(١) — وهذا صحيح الى حد ما • فمن الحالات التي يكون فيها صحيحا حالات الذين لا ينجحون في أعمالهم الدراسية ، ويحاولون الظهور في الألعاب الرياضية مثلا ، أو في الحياة الاجتماعية بصورة ما من صورها المختلفة • فالشعور بالنجاح في الألعاب يعطى الشعور الناشئ من الفشل في الدراسة • وكثيرا ما يؤدي الفشل في الحياة الدراسية الى الجنوح الى السرعة ، والاعتداء ، وما شابه ذلك • والمتصفون بالغرور هم في العادة الذين يتصفون في قرارة نفوسهم بالشعور بالضعف • فاحساس القدرة الظاهرة في الغرور يعطى احساس الضعف • وكثيرون من الناس يدعون علنا حيازة المال ، أو القوة ، أو العلم • وهذا النوع من الكذب المسمى بالادعائي ، انما يستعمل كثيرا من غير قصد لتغطية نقص • ويرى البعض اعتبار مظاهر الغرور عقدة من نوع خاص يطلقون عليها عقدة التفوق (Superiority Complex) ، ولكن هذه المظاهر لا تعدو أن تكون أعراضا لنقص مكبوت •

ومن المصادر الأساسية في كثير من اجرام الأحداث النقص الجسماني • فحالات فقد الذراع ، أو فقد الرجل ، أو فقد السمع ، أو فقد النطق ، كثيرا ما يصحبها نزوع الى تعويض النقص الناشئ عنها • وقد أشرنا الى بعضها عند بيان الأثر المتبادل بين الجسم والعقل (ص ٣٦ — ٤٠) •

ومن الحالات التي يظهر فيها التعويض بوضوح حالة سيدة^(١) أصيبت بالسرطان ، واكتأبت من التفكير فيما قد يؤول اليه أمر زوجها وأولادها بسبب هذا المرض • وبعد مدة زال اكتئابها ، وانقلب رقصا ، وغناء وضحكا ومرحا ، وسرورا يكاد لا ينقطع • وهكذا يفسر المرح الشديد الذي يظهر به بعض المصابين بأمراض فتاكة لا أمل في الشفاء منها •

(١) ويرى أن الشعور بالنقص في أول الحياة هو شعور بالنقص العضوي Organic Inferiority

(٢) Bernard Hart : Psychology of Insanity; p. 105.

ومن أمثلة التعويض الواضحة حالة شخص كان يعمل بوابا في أحد مباني القاهرة • وعضوه التناسلي به شيء غير قليل من النقص ، ورغم أن الرجل عمره اثنتان وأربعون سنة ، إلا أن جهازه التناسلي كجهاز طفل حديث الولادة ، وله خصية واحدة في حجم الحمصة • ويعتقد في نفسه أنه من أولياء الله الصالحين ، وإن الله خلقه هكذا ليخلصه من فتنة النساء • لذلك يتظاهر بالفخر بما عنده من نقص جسماني • ولا يتسع المقام هنا لذكر تفاصيل حياته ، ومتناقضاتها • ولكن مما حدث له أن أخاه غيره يوما ما بنقصه ، فخاصمه منذ عشر سنوات ولم يصالحه الى الآن • واستقال من عمله مرة ، لأن أحد السكان — في سياق حديث — قال له انه ليس برجل وهو الآن لا يسير الا وفي يده عصا غليظة ثقيلة • وأصبح يشبه « الفتوات » في ملبسهم ، وسهرهم ، وأغانيهم • وتقتصر هذه الأغاني عنده على أغاني عنتر بن شداد ، والزناتي خليفة ، وأمثالهم من شجعان الرجال • وقضى وقتا طويلا يصاحب المقامرين ، ورواد الحانات • ثم عاد واعتكف ليكفر عن سيئاته ، ووقف نفسه على غسل دورات المياه لثلاثة مساجد مشهورة • واعتكف كذلك مدة من الزمن عارى الجسد في مقبرة من مقابر الامام الشافعي عليه يعاقب نفسه ويكفر بذلك عن سيئاته •

هذه الحالة يظهر فيها التناقض الشديد ، وتظهر فيها مواجهة النقص الجسمي بتعويض يصل به أحيانا الى اعتبار نفسه من أولياء الله ، وأحيانا أخرى يصل به للسكر والمقامرة والتشبه بأقوياء الرجال مما قد يوصله بحسب تفكيره الى مراتب الأبطال من الرجال •

وحالة أخرى لتلميذ قبض عليه بمدينة القاهرة متلبسا بسرقة لمبات الترام مع آخرين • وبدراسة حالته اتضح أن عمر الولد يقع بين الحادية عشرة والثانية عشرة ، ومع ذلك فهو في السنة الأولى الابتدائية ، وليس متقدما فيها • أى أن مستواه التعليمي هو مستوى ولد متوسط عمره بين الثامنة

والتاسعة تقريبا • أما مستوى ذكائه فبقياسه اتضح أنه يقع أيضا بين الثامنة والتاسعة • أى أن مستوى تحصيله ومستوى ذكائه متفقان •

ولعل تأخره العقلى عن زملائه هو أحد العوامل التى تدفعه للهرب من المدرسة ، والاختلاط بأمثاله ، وارتكاب ذنوب أخرى غير السرقة خارج المدرسة • وهناك عامل آخر يشعره بالنقص الشديد ، وهو أن أخاه الأصغر منه موجود فى نفس المدرسة ، ومتقدم عنه فى الفرقة الدراسية •

كل هذه عوامل اذا أضيفت إليها عوامل أخرى ، كمعاملة المنزل ، وتعيير والديه له ، أمكننا أن نفهم أن سلوك الولد يعوض عن فشله فى نظر نفسه •

الاعراض المرضية والدفاعية والهروبية :

وفى كثير من الحالات يحقق اللاشعور رغباته بطريقة ظهور أعراض جسمانية • وهذه الأعراض تكون دائما مؤقتة ، وتؤدى وظيفة هامة للحياة العقلية • والأعراض ولو أنها تتناول وظيفة العضو ؛ إلا أنه لا يكون لها أصل جسمانى كاف لتفسيرها • ولذلك تسمى أعراضا وظيفية (Functional symptoms) ومن أمثلة هذه ما ذكرناه من حالات الصداع التى تنتاب الطلبة قبل الامتحان ، والحالات التى ذكرناها فى الصفحات (٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧) وحالات الصمم والعمى والاعماء وغير ذلك •

ونذكر حالة^(١) بنت فى سن الثامنة عشرة لم تكن محبوبة فى المنزل ولا فى مقر عملها • ويوما ما بعد مقابلة غير سارة مع رئيسها فى العمل زلقت رجلها وهى تنزل السلم فانشى المفصل الكعبي قليلا • ولكن بدل أن تشفى بعد بضعة أيام كما هو منتظر ، أصابها شلل فى رجلها كلها • وبذلك نجحت فى ألا تذهب الى عملها ، وأن تلقى عناية خاصة من كل من فى المنزل •

(١) لقد وقع فى خبرتنا أكثر من هذا النوع • ولأسباب فنية نجعم عن ذكرها ونهتس حالة مشابهة تماما من كتاب Rees : Health of the mind; p. 100

خاتمة

ليس معنى ما تقدم أن العمليات العقلية السابقة تظهر كل منها منفردة ؛
وانما نجد أنه يتجمع منها اثنان أو أكثر عادة في وقت واحد • فإذا أخذنا
حالة الولد الأصم الأبكم (ص ٣٦) الذي عود نفسه السرقة من المنزل ومن
محل عمله ، ووصل به الحد الى السرقة من قبور الموتى ، نجد أنه يجيب
الناس بأنه يسرق خواتم الموتى لانعدام فائدتها لهم ، ولأن أحدا لن يستفيد
منها بعد ذلك • هذا تبرير يفسر به عملا اعتدائيا يقوم به ليشعر بمهارته
فيعوض بذلك عن فكرته عن قصصه لصممه وبكمه •

المراجع

- Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Gillespie : Psychology and Life.
Hadfield : Psychology and Morals.
Haire, N. : Encyclopaedia of Sexual Knowledge.
Hart, B. : The Psychology of Insanity.
Jung : Analytical Psychology.
Meninger : The Human Mind.
Pear : Remembering and Forgetting.
Rees : The Health of the Mind.
Shaffer : Psychology of Adjustment.
Wallace : Personality Maladjustments and mental Hygiene.
Warren : Dictionary of Psychology.

الفصل الثامن

مراحل النمو

مقدمة :

يسير الطفل في نموه في مراحل مختلفة ، كل مرحلة منها لها خصائص تتميز بها • ووجود هذه الخصائص يحتم على القائمين بتربية الطفل من آباء ومدرسين ، أن يجعلوا معاملتهم للطفل ملائمة لها • فلا يصح مثلا أن نحاول التعجيل بالنمو إذ أن هذا غير ممكن ، ولا أن تفرض خصائص مرحلة ما على مرحلة أخرى • فإذا كان الطفل في مرحلة رياض الأطفال مثلا ، وجب أن نلاحظ الخواص التي تلائم هذه المرحلة من التربية والتعليم • فلا يجوز أن نقوم بتعليم الطفل في الروضة وهدفنا الأساسي الوحيد هو اعداده لمرحلة التعليم الابتدائي ، إذ أن الطفل إذا نما نموا كاملا في مرحلة الرياض ، أعده هذا اعدادا طبيعيا للمرحلة التالية • ولا يجوز إذا بدأ الطفل يبلغ أشده مثلا أن نستمر نعامله كطفل ، بل يجب أن نلائم معاملتنا له مع خصائصه الجديدة ، ونحرر أنفسنا مما تعودناه معه في سنى الطفولة الطويلة • وهكذا يجب أن نلائم بين أساليب المعاملة والتربية والتعليم وأجواء هذه كلها ، وخصائص الفرد وحاجاته واستعداداته في المرحلة التي تتناوله فيها • ويلاحظ أن مرحلة الطفولة هي مرحلة نمو مستمر للفرد في جميع نواحيه • وتبعاً لذلك نجد أنها مرحلة مرونة وقابلية للتربية والتعليم • وهى الوقت الذى يكسب فيه الطفل العادات والمهارات ، والاتجاهات العقلية ، والاجتماعية والجسمية • ومدة هذه الطفولة فى النوع الانسانى أطول منها

في أى نوع آخر • وهى تختلف عند أنواع الحيوان قصرا وطولا باختلاف مكائته في نظام التطور • فكلما ارتقى الحيوان في سلم التطور طالت في العادة مدة طفولته •

يلاحظ كذلك أن غريزة الوالدية التى تكون عند الوالدين ازاء أولادهما ، والتى ترمى الى حماية الصغار حتى يكبروا ، أرقى عند الانسان منها عند الحيوان • فرعاية الوالدين لطفلهما تبلغ أقصاها عند الانسان ، وتنخفض في الحيوان ، وتختلف عند الحيوان باختلاف نوعه • فكلما ارتقى الحيوان زادت مروته ، وزاد ضعفه عند ميلاده ، وطالت مدة طفولته ، وارتفعت غريزة الوالدية عنده • وهذه الغريزة توجد بالقدر اللازم لخروج الكائن الحى من طفولته الى اكتمال نموه •

وتوجد ظاهرة أخرى تتمشى مع كل هذه الظواهر ، وهى أن ارتقاء النوع الحيوانى يصحبه عادة قلة في التوالد • فكثرة التوالد في الأنواع الدنيئة يصحبها قلة الوالدية ، وتعرض لعوادي الطبيعة • على حين أن الحيوانات الراقية نجد التوالد فيها قليلا ، والوالدية أوسع مدى وأعمق أثرا • وهذه كلها ظواهر تتمشى جنبا الى جنب ، وتدلل على ما يمكن أن نسميه اتزان الطبيعة •

التقسيم الى مراحل :

يلاحظ على وجه العموم أن الطفل ينمو من الناحية الجسمية الظاهرة بعد ولادته نموا سريعا ، ثم يبطئ نموه عند السابعة أو الثامنة ، ويستمر نموه ببطئا الى الثانية عشرة تقريبا ، ثم يسرع نموه مرة أخرى الى الثامنة عشرة تقريبا ، ثم يبطئ نموه الى أن يستقر في سن الخامسة والعشرين على وجه التقريب ، فكأن نمو الفرد يحدث على فترتين ، يتبع كلا منهما دور شبه استقرار • ويمكننا إذن أن نقول ان مراحل النمو هى الطفولة الأولى (من الولادة — ٧ سنوات) تقريبا ، فالمتأخرة (٧ سنوات — ١٢ سنة)

تقريباً ، ثم المراهقة (١٢ سنة — ١٤ سنة) تقريباً ، ثم البلوغ (١٤ سنة — ٢٠ سنة) تقريباً ، ثم اكتمال النمو (٢٠ سنة تقريباً — ٤٠ سنة) وتقسم الطفل الى مراحل أخذ صوراً أكثر تفصيلاً ، وأكثر دقة من هذا كما سنرى .
وهناك تقسيمات عديدة يختلف كل منها باختلاف وجهة النظر الى الفرد في التقسيم ، وباختلاف الخبرة الشخصية والعلمية لصاحب التقسيم .
فقسم جرين^(١) عند دراسته لأحلام اليقظة مراحل النمو الى أربعة أقسام أساسية بحسب الاهتمام الرئيسى الذى يشغل الفرد وهى :

الأولى — مرحلة التغذية ، وهى تمتد من الولادة الى السنة الثالثة .
والثانية — مرحلة نمو الفرد ، أو نمو الذات ، وتمتد من الثالثة الى العاشرة .

والثالثة — مرحلة نمو الاهتمام بالجماعة من رفاق وماشابه ، وتمتد من العاشرة الى الثالثة عشرة .

والرابعة — مرحلة نمو الاهتمام بالنواحي الجنسية ، وتمتد من الرابعة عشرة الى ما بعد ذلك .

ويقسم كل مرحلة من هذه الى ثلاث مراحل ، وهى مرحلة عدم الاهتمام (diffidence) ثم مرحلة الصعوبة (difficulty) ، مرحلة الثقة والاستقرار (confidence)

ويقسم فرويد وأتباعه^(٢) نمو الفرد الى مراحل بحسب الاهتمام الجنسى الغالب . فهناك قبل المراهقة مرحلة اللذة الذاتية (Auto-erotic stage) وفيها يشتاق الطفل لذة من مختلف أجزاء جسمه ولا سيما الأجزاء ذات الفتحات المغطاة بالأغشية المخاطية . ومرحلة عشق الذات (Narcissistic stage) ثم مرحلة حب الفرد للوالد من الجنس المخالف ، ثم تأتى مرحلة تسمى بالدور

(١) G. H. Green : The « Day Dream ».

(٢) Flugel : Psycho-Analysis.

الكامن (Latency stage) ، وعند انتهائها في سن المراهقة تتكرر المراحل السابقة كلها بصورة أخرى أكثر تركيزاً حول العضو التناسلي . هذا اذا أدمجت نواحي النمو الجنسي المختلفة تبعاً لمناطقها في الجسم وتبعاً لموضوعاتها بحسب رأى أتباع فرويد ؛ فان فرويد نفسه لم يضع مراحل مفصلة ، الا أن أتباعه أمثال جون وكريتون ملر وغيرهما لهم محاولات في هذا الاتجاه لا تفيد الاطالة فيها في هذا المقام .

وظهرت كذلك تقسيمات عدة منها تقسيم كيركباتريك^(١) ، وهوايت^(٢) ، وكلابايد^(٣) ، وستانلى هول^(٤) ، وجونس^(٥) ، وكريتون ملر^(٦) ، وبياجيه^(٧) ، وغيرهم .

وسأخذ التقسيم الذى يبدى بعض الخصائص الظاهرة في كل مرحلة ، وهو الذى يقسمها الى المراحل الآتية :

١ - سن المهد ، وهو ينتهى في العادة بالتقريب بعد نهاية السنة الأولى وقبل نهاية السنة الثانية .

٢ - الطفولة الأولى ، وهى تنتهى تقريبا في سن الخامسة .

٣ - الطفولة المتأخرة ، وهى تنتهى في سن الثانية عشرة على وجه التقريب .

٤ - المراهقة أو المراحل الأولى من البلوغ وما قبله مباشرة .

٥ - البلوغ .

(1) Kirkpatrick : The Science of Man in the Making.

(2) White : Mental Hygiene of Childhood.

(3) Claparede : Experimental Pedagogy.

(4) Hall : Adolescence.

(5) Jones : Some Problems of Adolescence, B. J. p. 1923, XIII 31.

(6) C. Miller : The New Psychology and the Teacher.

(7) Piaget : The Child's Conception of the World.

السنتان الأوليان :

فى خلال السنتين الأوليين تحدث — الى جانب الولادة — عدة حوادث هامة فى حياة الطفل ، وهى الفطام ، والتسنين ، والمشى ، والكلام . والفطام حادث له أثره عند الطفل ، لأنه انتقال من طعام له خواص معينة ثابتة من حيث درجة الحلاوة والسيولة والحرارة ، وهو لبن الأم ، الذى يرضعه أيضا فى ظروف معينة ، تشبع فيها روحه المتعطشة الى الحنو . والانتقال من هذا الى أطعمة صلبة أو نصف سائلة ، تختلف كثيرا فى نوعها ، وطريقة تغطايتها ، عن لبن الأم ، يصحبه غالبا انفعالات ، وأزمات نفسية شديدة . لهذا كان واجب الأمهات دقيقا جدا ، من حيث مراعاتهن التدرج ، الذى لا يؤدى الى ظهور الأزمات الانفعالية . وتتضح أهمية ذلك اذا تذكرنا أن تناول الطعام هو أهم ما يشغل الطفل فى هذه المرحلة .

ولنشاط الفم فى هذه السن أهمية خاصة ؛ فهو الأداة التى يفحص بها كل شئ ، وهو أداة اشباع الرغبات ، وأداة الانتقام ، وأداة الاتصال بالعالم الخارجى ، وأداة الوصول الى الادراك والمعرفة . وهو أول جزء يشتق منه الطفل خبرة متكررة ذات قيمة فى نموه . ومما يجعل للفم قيمة خاصة ظاهرة التسنين ، وعند حدوثه ينتقل الطفل الى حالة القوة بعد الضعف . فيمكنه أن يأكل الأشياء الصلبة . ويمكنه أن يعض وينتقم . وتتسع بذلك دائرة خبرته ، اذ يتسع مدى الأشياء التى يمكن أن يتعامل معها عن طريق الفم . ويتسع أيضا مدى المقدرة التى يمكن أن يبديها عن طريق الفم .

أما الكلام والمشى ، فانهما — فوق أنهما دالتان للنمو — عاملان مهمان لما يتلو ذلك من النمو . فالطفل يستطيع عن طريق الكلام أن يتصل بغيره ، ويتفاهم معهم لتحقيق رغائبه . ولا شك أن عقله ينمو وتزداد خبرته بالتخاطب ، والمشى يجعله قادرا على الانفصال عن أمه ، والاستقلال عنها

بعض الشيء . وبه يكتشف العالم المحدود المحيط به ، فيدرك المساحات ، والمسافات ، والارتفاعات ، والعلاقات المكانية ، وبعض العلاقات الزمنية المختلفة . هذه خبرات لا يكتسبها الطفل صحيحة ، الا عن طريق الجرى والمشي ، والحركة ، وبوساطة هذه الانتقالات يتصل بغير أمه فتتسع دائرة خبرته بالناس .

المرحلة من سن ٢ الى سن ٥ :

والمرحلة التالية ، تتميز بالميل الى الحركة ، واللعب ، واجراء التجارب في الأشياء المحيطة . وذلك لأن العالم جديد بالنسبة للطفل ، فهو يميل الى فهمه بالتجربة الشخصية ، مما يسميه الكبار أحيانا تخريبا أو تجريبا أو هدمًا أو بناء أو لعبًا ، أو غير ذلك . وعن طريق هذا اللعب يكتسب خبرة ، ويكتسب مهارة ، ويصبح أكثر ثقة في نفسه وأكثر اطمئنانا الى بيئته .

ولا يقتصر نشاط الطفل على اختلاف ضروبه على تعامله مع البيئة المادية ، بل يتعداها الى الأشخاص من سلطة وزملاء . وبذلك يفهم غيره ويفهم نفسه ، ويبدأ الطفل تكوين فكرة عن ذاته ، وفكرة الـ « أنا » ، أو فكرة « الفردية » . وهى — كما رأينا — لا تنمو الا بالتعامل مع البيئة . والطفل عن طريق التقليد ، وتقمصه للسلطة المحيطة ، وتجربته هذه السلطة على الخارج ، يتضح رأيه في نفسه ، وفي غيره (راجع ص ٩٢ ، ١٠٥) .

وتجدد الطفل في هذه المرحلة شديد التقليد ، كثير اللعب التمثيلي ، أو الايهامى ، الذى قد يساعده على أن يعوض ما ينقصه في الواقع . وهو عنيف في افعالاته ، كثير المخاوف ، شديد الغيرة . وفي أخريات المرحلة تكثر أسئلته الدالة أحيانا على تعطشه للمعرفة والكشف ، وأحيانا على ما وراءها من قلق وخوف . فهو يسأل عن أسماء الأشياء ، وأسباب الظواهر المتعددة ، ويسأل من أين ولد ؟ وكيف يكبر ؟ والى أين يذهب ما يأكله ؟ . الخ . هذا النشاط المتعدد النواحي يزيد من مهارة الطفل وخبرته المتعددة

الأوجه • وإذا أمكن توجيه الطفل وتهئته البيئة بما يتفق مع المبادئ العامة للتربية ساعد هذا على تكوين الطفل تكويناً هادئاً متزاناً • فمعاملتنا للطفل في هذه السن بنوع خاص يجب أن تكون ثابتة ، لا تذبذب فيها • إذ أن التذبذب يوقع الطفل في حيرة وارتباك ، فلا يجوز أن نشجع الطفل إذا اعتدى على غريب بالضرب أو الشتم ، ثم نعاقبه إذا اعتدى على أخيه أو والدته • بل يجب أن نقابل اعتداء الطفل على غيره بأسلوب ثابت • كذلك لا يجوز أن تنهره إذا عبث بما يخصك ، ثم تشجعه إذا عبث بما يخص غيرك • فالمعاملة الثابتة توقف الطفل على ما يجب عليه عمله وما يجب عليه الكف عنه • ويلاحظ أن الطفل نفسه لا يجب الحرية المطلقة^(١) ، لأنه يميل إلى الاسترشاد وإلى معرفة ما يصح أن يفعله وما لا يصح أن يفعله • وبهذا النوع من التوجيه المبني على أسس ثابتة يصل الطفل إلى تقدير قيم السلوك بالنسبة للمستويات الثابتة التي وضعها أهله أمثلة له ، ومصادر لتوجيهه • وثبوت المعاملة من العوامل التي تؤدي إلى تكوين الفردية بنجاح وسرعة ، على أن تكون هذه المعاملة الثابتة في جو مليء بالعطف والحنان بعيد عن الجفاف غايته صالح الطفل •

ويبدأ الطفل في الأجزاء الأخيرة من هذه المرحلة ، يبحث عن رفاق من سنه تقريبا • ويجب أن يوفر له هذا ، حتى يتعامل معهم على أساس الأخذ والعطاء • فهذا أسلم لتكوينه من تعامله دائماً مع من هم أكبر منه أو أصغر منه • وتعتبر هذه كلها من أسس التربية الاجتماعية الصالحة •

المرحلة من سن ٥ إلى سن ١٢ :

هذه مرحلة اتقان للخبرات والمهارات اللغوية والحركات العقلية السابق اكتسابها • وبهذا تنتقل هنا تدريجياً من مرحلة الكسب إلى مرحلة الاتقان • والطفل في هذه المرحلة ثابت ، قليل المشكلات الانفعالية ، كثير النشاط • ويميل في منتصف هذه المرحلة إلى الانتقال من مرحلة الخيال والابهام

(١) راجع حاجات الطفولة ص (٧٢ - ٧٦) •

والتشيل الى مرحلة الواقعية ، أو الموضوعية^(١) . فالطفل من سن ٨ الى سن ١٢ مخلوق عملي ، واقعي ، على وفرة من النشاط . ويميل الى جمع الأشياء وادخارها ، وتنظيمها . ويميل ميلا شديدا الى الملكية التي تبدأ تنمو قبل ذلك بكثير . ويتجه قرب نهاية هذه المرحلة الى الانتماء الى الجماعات المنظمة ، بعد أن كان يميل ميلا شديدا قبل ذلك لمجرد الاجتماع بمن هم في سنه . ويجب التنافس والتفاخر في النواحي الجسمية والحركية بنوع خاص . ولما كانت هذه المرحلة مرحلة اتقان لما سبق كسبه من حركة ولغة وتفكير ، فيمكن الاكثار في المدارس من دروس الأشغال ، والموسيقى ، والغناء ، والأناشيد ، والألعاب الجماعية ، والرقص والتمثيل وغير ذلك . فهذه كلها تشبع في نفس الطفل الحاجة الى الاتقان والتنافس والشعور الواقعي بالنجاح .

ويقسم بعض الباحثين هذه المرحلة الى اثنتين : احدهما تنتهي في سن الثامنة ، والأخرى تنتهي في سن الثانية عشرة تقريبا . والمرحلة الأولى استمرار للمرحلة السابقة . فهي كما قلنا مواصلة للنمو الحركي ، وزيادة فهم العالم المحيط بعناصره المادية والاجتماعية ، وهي مرحلة يبدأ فيها ظهور بعض مبادئ الاستقرار الانفعالي . وأما المرحلة الثانية التي تبدأ في سن الثامنة وتنتهي في العاشرة ، فهي مرحلة استقرار في النمو الجسمي ، واستقرار في الحياة الانفعالية ، وهي مرحلة اتقان للمهارات الحركية ، والعقلية . وتكون فيها القدرة على الاستفادة من التمرن والتكرار كبيرة جدا . وهي كما قلنا مرحلة الوقاية ، والاصرار على التمسك بالحقيقة ، فيضعف عندها التلذذ

(١) أو بحسب رأى بياجيه ينتقل الطفل من التمرکز الذاتى Ego centrisim الى الغيرية أو الموضوعية (Realism or objectivity or Allo-centrisim) حوالى سن الثامنة .

من اللعب الالهامى ، ويبدأ الاهتمام باللعب والتمثيل القريين من الواقعية •
والطفل فى هذه المرحلة يجب اللعب الجمعى ، ولو أنه لا يهتم باللعب الجمعى
المنظم فى شكل فرق (Teams) اهتماما كبيرا الا فى أخريات المرحلة • وميل
الأطفال الى التجمع غير المنظم فى هذه المرحلة جعل بعض العلماء ^(١) يسمونها
(The Red Indian Age) أو (The Gang Age) وتبدأ الاتجاهات الاجتماعية
تظهر فى هذه المرحلة كالزعامة أو الميل للمساعدة أو الميل للحنو أو الميل
الاستبدادى أو حب التهكم أو غير ذلك •

وهى مرحلة قليلة المشكلات فى العادة اذا قورنت بالمرحلة التى قبلها
والتى بعدها • ولكن المشكلات لا تلبث أن تظهر اذا أهملنا خصائص الطفل
فى هذه المرحلة من ميل الى الكشف والمعرفة والتجول والمخاطرة والمصادقة
والاهتمام بالعالم الخارجى من مواد وأشخاص اهتماما لم يسبق له عنده
مثيل ^(٢) •

وبطء النمو الجسمانى فى هذه المرحلة يجعل الطفل حسن الصحة ، قليل
القابلية للتعب ، شديد الميل للحركة والنشاط ، قادرا على التحمل ومواصلة
العمل ساعات طويلة •

أما من الناحية العقلية فكل القوى العقلية من تذكر وتفكير وانتباه وغير
ذلك تبدأ تنضج فى هذه المرحلة خصوصا بعد سن التاسعة • ولذلك يرى
علماء النفس أن الفكرة القديمة القائمة على أن يحفظ الطفل حفظا آليا كثيرا
من مواد الدراسة فى هذه المرحلة خصوصا قبل العاشرة فكرة خاطئة ، ويجب
الاعتماد على البحث والتفكير ، وعلى الذاكرة المنطقية ، وعلى تحفيز الطفل
للعمل والتكرار عن طريق ميوله ومصادر الشوق لديه •

(1) Hollingworth : Mental Growth and Decline.

(2) « If at this stage contact with reality is firmly established, then the risks of morbid day-dreaming and of over-stimulated imagination, to which the adolescent is often prone, would be largely reduced »; The Primary School : Board of Education Report p. 41.

المراهقة والبلوغ

تنتهى الطفولة عادة عند الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة تقريبا • ويبدأ الفرد يدخل بعد ذلك فى دور جديد تظهر فيه تغيرات كثيرة ، بعضها ظاهر ، وبعضها خفى • ومن التغيرات الظاهرة مثلا : استطالة القامة ، وبدء نمو الشعر على العارضين ، وعلى الشفة العليا عند الولد • وينمو الشعر كذلك على العانة وحول الأعضاء التناسلية ، وتحت الإبطين عند كل من الولد والبنت • وتنمو بعض أجزاء الجسم بنسب تختلف عن النسب التى كانت تنمو بها قبل ذلك ، والثديان عند البنت مثال لهذا النوع من النمو • ومن الظواهر الهامة بدء تضخم الصوت عند البنين ، ومرحلة الانتقال يتكسر فيها الصوت عادة بين الرفيع وغير الرفيع • أما التغيرات الخفيفة فأهمها ما يطرأ على بعض الغدد من ضمور كما يحدث فى الغدة التيموسية والصنوبرية ، وما يطرأ على بعض الغدد الأخرى من نمو ونشاط كما يحدث فى الغدة النخامية والغدة التناسلية • وافرازات الغدد ترجع إليها التغيرات الجسمية الظاهرة التى أشرنا إليها ، كما يرجع إليها كثير من الظواهر النفسية التى تظهر فى هذا الدور •

وهذه المرحلة على وجه العموم مرحلة نمو سريع فى الوزن ، والطول ، وبصحبها مؤقتاً شىء من رعونة الحركة ، وفقدان بعض الدقة والتوازن فى الحركات • وينتج عن هذه المظاهر وما يشبهها حساسية شديدة فى النشء ، وحالات انفعالية تحتاج لرعاية • فبعض البنات والأولاد يخافون على أنفسهم خوفاً شديداً ، اذ يظنون أن هذا النمو قد يستمر استمراراً مطرداً ، وبعضهم يمشون على أطراف أصابعهم حتى لا يرجوا المكان ويزعجوا من فيه • وبعضهم لا يجرون على التكلم أمام الناس ، لعدم ثقتهم فى أصواتهم ان كانت ستخرج مألوفة أو غير مألوفة • وبالجملـة فإن الطفل فى هذه المرحلة

ينتقل من الطفولة الى اكتمال النمو ، وعلى هذا الممر الواقع بين المرحلتين يمر الطفل فى دور المراهقة والبلوغ ، وهى مرحلة مليئة بالصعاب بالنسبة للناشئ ، ويكون فيها الفرد فى أشد الحاجة الى المعونة ممن حوله •

التغيرات الجنسية :

أهم ما فى هذه المرحلة نشاط الغريزة الجنسية ، واستيقاظ الحاسة الجنسية عند الناشئ • ويصاحب الغريزة الجنسية — كما قلنا — تغيرات شديدة فى افرازات الغدد ، يصاحبها مشاعر واقفعالات جديدة • وسبب كثير من صعوبات المراهقين أنه لا توجد مطابقة بين سن النضج الجنى ، والسن التى تسمح فيها تقاليد البيئة بالاشباع الجنى ، اذ أن البيئة لا تسمح بهذا عادة الا عند اكتمال سن الاستقلال الاقتصادى • وحكمة التشريع الأولى فى هذا التقليد أن الاتصال الجنى يؤدى الى التوالد ، ولابد من حماية الأولاد ورعايتهم فى جو الأسرة • ويحتاج جو الأسرة ورعاية الأولاد الى كيان اقتصادى معين لابد من الوصول اليه •

لذلك نجد أنه كلما زادت المدنية تعقدا بصورتها المألوفة لنا ، وكلما قلت الفرص أمام الناشئين فى الحياة ، طالت المدة الواقعة بين النضج الجنى ؛ وامكان الاشباع المشروع للغريزة الجنسية ، وزاد بذلك احتمال زيادة صعوبات المراهقين والبالغين •

وتحاط الغريزة الجنسية وما حولها من أعضاء تناسلية ، ووظائف جنسية ، وغيرها ، بكثير من التكتم ، والغموض ، والخوف ، والاشعار بالقذارة أو الخطيئة والاجرام ، أو احاطتها بالتقديس الذى يجعلها فوق كل مناقشة • كل هذا يؤدى الى صعوبة فهمها أو استحالة هذا الفهم على الشخص أحيانا الا اذا كان على أبواب حياة زوجية • والاتجاهات العقلية التى يتخذها الكبار نحو المسائل الجنسية تظهر عادة ازاء الناشئين صغارهم وكبارهم ، مما يغرس الكثير من بذور المشكلات الجنسية فى الأطفال منذ السنوات

الأولى • ومن أمثلة ذلك أن والدا كان يناقشني في حالة أولاده ، ونصحته بأن يأخذهم في نزهة خارج المنزل ، حتى يتسع أفقهم • وضربت له أمثلة بالمتحف الزراعى : أو الأهرام ، أو حديقة الحيوان ••• فذعر الرجل للاقتراح الأخير ، ورفضه من أساسه • وكانت حجته أنه يخشى أن يرى أولاده القردة فى اجتماعاتهم الجنسية • فقلت له : أولا يرون ذلك من الكلاب فى الشوارع ، أو من الدجاج ، أو غير ذلك ؟ فقال : ولكنهم يرون ذلك رغم أنقى ••• ومثال آخر يبين مدى خوف الآباء من المسائل الجنسية ، ما كان يفعله والد وصل به الأمر الى أنه يعلق فى غرفة بناته لوحة عليها رسوم بيانية لبناته الثلاث ويوضح فى هذه الرسوم مواعيد العادة الشهرية عندهن ، حتى يطمئن بذلك على صحة سلوكهن • وكان شديد الرقابة على كل صغيرة وكبيرة تصدر من بناته • وكان ينام معهن فى غرفة واحدة •

وموقف الكبار نحو المسائل الجنسية وموقف المجتمع عامة نحوها ، يؤدى الى الوقوف حائلا ضد قوة هائلة من قوى الطبيعة تنزع للتعبير عن نفسها ولهذا تظهر فى أدوار المراهقة والبلوغ مشكلات عديدة مختلفة فى مظاهرها ، قد ترجع الى الكبت الواقع على الغريزة الجنسية •

التغيرات الوجدانية :

يمر المراهق لهذه الأسباب ولغيرها فى حالات اضطراب انفعالى شديد • فقد تراه يشور على غير عادته على من حوله من والدين أو اخوة أو زملاء • وقد تراه يتذبذب بين الثوران والهدوء وقد تراه متناقضا على وجه العموم ، فهو أحيانا يرم بالحياة يمتقها ويتمنى الموت ، أو ينتقد نفسه أشد انتقاد • وفى وقت آخر قد تراه راضيا عن الحياة ، سعيدا بنفسه ، ومعجبا بها كل الاعجاب • وأحيانا يكون منقبضا وأخرى منشرحا • وأحيانا يجنح للعزلة ، وأحيانا أخرى يميل الى الاجتماع بغيره • وتراه فى هذه المرحلة قد يبحث فى الدين ، ويمارس بعض ما يأمر به ، عله يجد فيه ملجأ لحل مشكلاته •

وأحيانا لا يجد فيه ما يحل مشكلاته ، فيتذبذب بين التدين وعدم التدين ، أو بين الايمان والكفر • ويصحب هذه التغيرات أزمات نفسية حادة تؤدي الى ظهور الأحلام بنوعيهما • وتكون وظيفة أحلام اليقظة بنوع خاص الهرب من الواقع ، وتتمركز محتوياتها عادة حول تخيل الاشباع الجنى ، وتخيل النجاح فى المستقبل المهنى ، والزواج ، والانتقام من السلطة ، أو القضاء على الذات • لهذا نجد أن فترة المراهقة والمراحل الأولى للبلوغ فترة ثورة وصراع نفسى شديد ، يزيد من ظهوره تعقد المدنية ، وبعد المسافة الزمنية بين سن البلوغ والسن التى يسمح له فيها بالاشباع الجنى ، وسوء معاملة السلطة المحيطة بالمراهق له ، وانعدام الاطمئنان للمستقبل والمجتمع عامة •

التغيرات الاجتماعية والخلقية :

يتميز هذا الدور بالميل الى التحرر من المنزل والانتماء الى مجموعة من الزملاء وعند انفصال المراهق عن الانتماء النفسى للمنزل يميل الى البحث عن بطل يعجب به • ولعل سبب هذا هو تفتح ذهنه لآفاق جديدة ، واكتفاؤه بما عرفه عن والديه من خبرة ، وكرهية الخضوع لسلطتهما عليه ، خصوصا أن هذه السلطة تذكره بطقولاته ، اذ يعامل الآباء المراهق عادة — ولو لفترة من الزمن — بنفس المعاملة التى تعودوها معه فى أدوار الطفولة الطويلة السابقة • يبدأ المراهق ينتقد والديه علنا ، أو سرا بينه وبين أصدقائه ، أو بينه وبين نفسه • وقد يعتبر والده رجلا رجعيا ، ضيق الذهن ، قليل الجرأة والميل الى التجديد ، قليل الحيلة •

يبدأ المراهق على وجه العموم يستقل عن المنزل ، ويتصل بالمجتمع • ويبحث عن شخص يتجسّم فيه المثل الأعلى الذى يرتضى لنفسه أن يحتذيه • ويصل اعجابه بالبطل الجديد أحيانا الى درجة تشبه العبادة • وتسمى عادة عبادة البطل (Heroworship) وتصل عبادة البطولة الى درجة يصعب على الكبار تصورها • ففتاة فى مدرسة من مدارس البنات بالقاهرة كانت تكتب

لبطلتها — وهى معلمة بالمدرسة — الخطابات المطولة ، وترسل اليها بالهدايا التى تضحى فى سبيل الحصول عليها بالشيء الكثير . وفتاة أخرى فى مدرسة ثانوية لم تكن لديها وسائل الافصاح لبطلتها بالهدايا والمكاتبات ، فعكفت على حفر اسم بطلتها (المعلمة) على رسغها مستعملة سلاحا مدببا حادا ، مما أدى الى جرح رسغها ، وتقيح الجرح ، وكان الاسم فى غاية الوضوح حتى بعد تقيح الجرح . وتصل عبادة البطل عادة الى تقمص المراهق لشخصيته وامتصاص خصائصه .

ولهذا نجد المراهقة والبلوغ يكونان مرحلة مناسبة لتكوين المثل العليا . ولكن يجب أن يتطور المثل الأعلى الى أن يصبح « فكرة » بدلا من أن يبقى متجسما فى شخص . وهذا يكون عن طريق دراسة الأبطال ، والزعماء ، وقادة الفكر ، سواء فى ذلك الشخصيات المعاصرة أو التاريخية . ويجب ألا يبهز المعلم فى هذه الأحوال اعجاب المراهق به ، وعليه أن يساعده على كسب الخبرة الواضحة ببطولات أخرى وكشف بعض نواحي قصوره .

ويظهر فى هذه المرحلة — كما قلنا — ميل الفرد الى الانتماء الى البيئة الاجتماعية المحيطة . ويظهر هذا فى حساسية الفرد للجماعة التى ينتمى اليها ، وميله الى تقليد أفرادها . ويجب استغلال ولاء الفرد للجماعة وميله الى الجماعات المنظمة لانماء روح التعاون الاجتماعى ، وتقوية الشعور الاجتماعى عند الفرد . كذلك يجب أن نستغل ميل المراهق لارضاء المجتمع فى تكوين الخلق ، على أن تعتبر هذه خطوة للمرحلة التالية فى التكوين الخلقى ، وهى مرحلة العمل على ارضاء ضمير خلقى (١) .

ويلاحظ أن الاعتماد على رضاء المجتمع وسخطه ، وعلى بدء ارضاء مثل أعلى ذاتى من أهم الوسائل المؤدية الى تكوين الخلق . ولكن علينا أن نلاحظ أن المراهق قد يشتط فيشعر فوق كل ما تقدم بالحاجة الى

(١) راجع الفصل الخامس صفحة (٨٥) .

اصلاح المجتمع ، وينقد المسئولين عن المجتمع تقدا مرا ، ويضع أحيانا مشروعات كاملة لمجتمع كامل ، أو لمدينة فاضلة^(١) ، أو لأى اتجاه يخطر على باله للاصلاح الاجتماعى .

تحرر المراهق من السلطة ونمو فرديته :

وينزع المراهق فى هذه المرحلة الى اكمال رجولته ، والاعتزاز بكيانه . ويعمل على الاستقلال فى فكره وعمله . ويجرب أساليب متعددة ، ليحقق لنفسه شعوره بخروجه من دور الطفولة ، واكتمال نموه واستقلاله . وفى أثناء تجربيه الأساليب المتعددة قد يقع فى نزاع مع السلطة المشرفة ، وقد يترتب على هذا نزاع نفسى أو سلوك غير مرغوب فيه . فتجد الميل الى الخروج على سلطة الوالدين والمعلمين وعصيانها ، واحتقار آراء الكبار ، والميل أحيانا الى الكذب بأنواعه من ادعائى للإيهام بالعظمة والقوة والجاه ، أو وقائى لدفع أذى السلطة ، الى وفائى لوقاية الزملاء من أذى السلطة ، وكذلك الميل الى السرقة ، والتدخين والكلام بصوت مرتفع ، واستعمال العنف ، والقسوة ، والشدة مع الأخوة والزملاء ، واستعمال العنف فى الانتقام من السلطة ، والميل الى الهروب من المدرسة ، سعيًا وراء تحقيق لذة خاصة يفهمها جماعة الزملاء على أنها من أعمال الكبار ، ويتمنون من لا يتبعونهم بالجبن .

هذا كله الى جانب النزوع الى متابعة اللذة الجنسية من استمناة أو استغلال جنسى للزملاء أو مغازلة الجنس الآخر ، فهذه كلها فى نظر المراهق أدلة على استكمال النمو والخروج من الطفولة .

والى جانب هذا السلوك قد يحدث لدى المراهق اغراق شديد فى أحلام اليقظة ، وتدور هذه — كما سبق أن بينا — حول مستقبله وعظمته وزواجه وتحرره من السلطة وغير ذلك مما يدور حول نمو فرديته .

(١) حدث هذا بالفعل من عدد غير قليل من المراهقين الذين درستهم جيدا

النمو العقلي :

يتم في هذا الدور نمو الذكاء • ودلت البحوث المختلفة على أن نمو الذكاء يقف حوالى سن الخامسة عشرة • وليس معنى هذا أن النمو العقلي يقف • ولكن النمو العقلي — بمعنى نمو الخبرة — يستمر ما دامت عملية كسب الخبرة فعالة •

ويشتد الخيال في هذه المرحلة ويأخذ اتجاهات واضحة في الرسم ، أو النحت أو الكتابة الأدبية أو الموسيقى ، أو الشعر • ويجد الخيال مجاله في أحلام اليقظة التى سبق أن أشرنا إليها ، حيث يحلم الفتى بمستقبل ناجح ، أو زوجة جميلة أو انتحار ، أو وفاة أحد أصحاب السلطة عليه الى غير ذلك • ويصل اغراقه في هذه الأحوال الى حد أنه يبكى فعلا أو يصفق لنفسه فعلا ...

وبالجملة فعقل المراهق أو الفتى الحديث البلوغ عقل خصب الخيال كثير الاتناج • ويفكر الفتى الناشئ تفكيرا فلسفيا ، فهو يفكر في أسباب الظواهر الطبيعية وعللها ، وينتقل تدريجيا من التفكير في المحسوسات الواقعية ، الى المعنويات والأفكار المجردة • ولذا نجد ميلا الى الدقة والنقد • ويتسع أفق الفتى أو الفتاة فيفكر فيما وراء خبرته المادية المحسوسة ؛ يفكر في الدين وفي مبدع الكون وفي أصل الكون ومصيره • ويزداد ميله الى البحث والاطلاع والسفر ومعرفة الشعوب ، وتزيد نفسه شغفا بالخبرات الجديدة زيادة واضحة •

وفي هذه المرحلة يبدأ ظهور الفروق في الميول والاتجاهات العقلية أوضح مما كانت قبل ذلك ، ففي الأعمال الدراسية تظهر الميول اللغوية والرياضية والعلمية والعملية ، وتظهر الاتجاهات الى أنواع الفنون من تصوير وموسيقى وغير ذلك بصورة أوضح من ذي قبل •

الكبار وموقفهم نحو المراهق :

وموقف الكبار نحو المراهقين لا يرقى في العادة لسوء الحظ ما يحدث لهم من تغيرات ، ولعل سبب هذا يرجع الى تعود الكبار معاملة المراهق على أنه طفل لمدة اثنتى عشرة سنة تقريبا قبل حدوث التغير . وقد يرجع الى تلذذ الكبار من استعمال السلطة وخوفهم من عدم التمتع بها اذا تحرر المراهق منهم . كذلك يرجع هذا الموقف الى أن الكبار نسوا كل ما حدث لهم في دور المراهقة ، لطول المدة من ناحية ، ولخضوعها للكبت من ناحية أخرى ، اذ أن كثيرا من هذه الخبرات يكون مؤلما لعنفه أو فشله أو ارتباطه بالشعور بالخطيئة .

من هذا نرى أن موقف الكبار يجب أن يكون موقف فهم لتطورات عقلية المراهقين ، وعطف على أزماتهم ، وتوجيه صحيح لنزعاتهم .

المراجع

- Averill : Adolescence.
- Board of Education Reports on :
- Infant and Nursery Schools Ch. III.
 - The Primary School Ch. III.
 - Secondary Education Ch. III.
- Bridges : The Social and Emotional Development of the
Preschool Child.
- Brooks : The Psychology of Adolescence.
- Brooks : Child Psychology.
- C. Buhler : Testing Child Development.
- C. Buhler : The First Year of Life.
- C. Buhler : From Birth to Maturity.
- M. Curti : Child Psychology.
- J.A. Green : An Introduction to Psychology.
- Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
- G. Hall : Youth.
- Hazlitt : The Psychology of Infancy.
- Hollingworth : Mental Growth and Decline.
- Hollingworth : The Psychology of the Adolescent.
- S. Isaacs : Nursery Years.
- S. Isaacs : The Children We Teach.
- S. Isaacs : Social Development in Young Children.
- Murchison : A Handbook of Child Psychology.
- Pringle : Adolescence and High School Problems.
- Slaughter : The Adolescent.
- Valentine : Psychology of Early Childhood.
- O. Wheeler . Youth.
- O. Wheeler : Creative Education.

الباب الثاني

الطفل في بيئته الاجتماعية

- الفصل التاسع : الطفل ووالداه *
- الفصل العاشر : الطفل وأخوته *
- الفصل الحادي عشر : المدرسة ومشكلات النشء *
- الفصل الثاني عشر : المعلم وعلاقته بالتلميذ *

الفصل التاسع

الطفل والديه

اعتماد الطفل على والديه وتحريره منه

يتجه ذهننا عادة عند درس حالة ما الى بحث أنواع العلاقات التي ينشأ فيها الفرد وبخاصة في السنوات الأولى * وأهم هذه العلاقات علاقته مع والديه ، وأهمها جميعا علاقته مع أمه * وهذه العلاقات تتغير في مجموعها تغيرا طبيعيا بحكم نمو الطفل ، وقلة حاجته بالتدريج للاعتماد على والديه * وتتغير كذلك بحكم ما يحدث في بيئته من تغيرات ترجع الى ميلاد اخوة له ، أو الى تغير العلاقات بين والديه أنفسهم ، أو الى تغير والديه نحوه بسبب تغير المستوى الاقتصادي للأسرة ، أو غير ذلك *

واعتماد الطفل على والديه كبير جدا في السنوات الأولى ؛ فالطفل له غرائزه وحاجاته التي يرمى الى اشباعها ؛ فهو يرمى الى المحافظة على نفسه ، ويرمى الى الراحة والدفع عند الشعور بالبرد ، وغير ذلك * والطفل يفوز عادة بجميع رغباته ، معتمدا غالبا على أمه ، فهي التي تطعمه ، وتدفئه ، وتقضى حاجاته ، وتوفر راحته ، وتجري لاسعافه عند بكائه وغير ذلك * وعلاوة على كل هذا ، فهي لا تعاقبه ان أزعجها طول الليل بصياحه وعويله ، ولا تضربه اذا كسر أو أتلف شيئا ما * فحياة الطفل في هذه السن حياة سعيدة محفوفة بالأمن والطمأنينة * والشعور بالأمن في هذه السن هو بدء الثقة بالنفس * والانتقال من هذا الدور الى ما بعده يجب أن يكون انتقالا تدريجيا *

ومن عوامل استمرار ثقة الطفل بنفسه أن يتصل بعد أمه بأفراد الأسرة ، ثم يتصل برفاقه وأصحابه • ويمكننا أن ننظر الى نمو الطفل على أنه سلسلة من مراتب استقلالية ، تتحقق كل حلقة منها باتساع الدائرة التي يعيش فيها • فالطفل يستقل عن أمه ليصبح عضواً في مجتمع الأسرة ، ويستقل عن مجتمع الأسرة ليندمج في مجتمع الرفاق ، ثم يتسع هذا الى مجتمع المدرسة ، ثم الى المجتمع الأكبر • وهذه الخطوات متصلة ، ويجب أن تذكر أن تحقيق أى مرحلة تحقيقاً مرضياً لا يمكن أن يتم الا بتحقيق المرحلة السابقة • ويجب أن تذكر مع مراعاة خصائص الطفل وهو في مرحلة ما ، وجوب اعداده للرحلة التالية • وفوق أن هذه الخطوات متصلة فهي متداخلة ، ولا يمكن أن نضع حدوداً فاصلة ، فنقول : هنا تنتهى مرحلة الاعتماد على الأم ، وتبدأ مرحلة الاندماج في مجتمع الأسرة • والسبب في هذا التداخل هو أن لدى الطفل حاجتين تعملان دائماً في وقت واحد : وهما الحاجة للأمن ، والحاجة للمخاطرة • وهما موجودتان في كل لحظة • وسبق أن قلنا : ان التعبير عن الحاجة للمخاطرة لا يتم في أكمل صورة الا اذا أشبعت الحاجة للأمن • وما يلاحظ في لعب الأطفال مثلاً أن الواحد منهم في سن الخامسة تقريباً يميل الى الخروج للعب مع رفاقه ولكنه لا يبتعد كثيراً عن المنزل • فخروجه الى رفاقه يحقق النزعة للمخاطرة ، ولكن في احتفاظه بالقرب من المنزل تحقيقاً للنزعة الى الأمن •

فواجب الآباء اذن أن يساعدوا أطفالهم على اشباع حاجاتهم ، ولكن يجب عليهم ألا يبالغوا في مساعدتهم الى الحد الذي يجعل الأطفال يفقدون القدرة على الاستقلال عنهم • فيجب أن يسارع الآباء مثلاً بجعل أبنائهم يعتمدون على أنفسهم في تناول الطعام وفي لبس ملابسهم بأنفسهم ، وفي المحافظة على لعبهم ، وأدواتهم ، وترتيبها بأنفسهم ، وفي قيامهم بأنفسهم بواجباتهم التي يكلفونها من المدرسة •

وبعض الآباء والأمهات يبدو عليهم انحراف خاص أحيانا في شخصياتهم بسبب ظروفهم الأولى كالتنشئة على الأسباب الاتكالية ، أو ظروفهم الراهنة كتكرار فقد الأطفال أو عدم توافر الهناء الزوجية أو غير ذلك . لذلك قد يشتقون لذة كبرى من أن أولادهم لا يعتمدون الا عليهم . وأحيانا يفاخرون بهذا ، ويصل الأمر ببعض الأمهات الى أنهم يضعفون في أولادهم كل ميل للاعتماد على النفس ، ويقتلون فيهم القدرة على الاتصال بالغير اتصالا منتجا . ففي بعض الحالات التي قمنا بدراستها كانت الأم تصاب بالاغماء أو الانهالك الشديد أو غير ذلك من الأعراض المرضية ، اذا حاول الابن في سنه المتقدمة أن ينفصل عن أمه ، ويستقل عن سلطانها بأى صورة كانت . وبعض الأمهات يهيئن للابن أساليب المرح ، وأحيانا أساليب الاتصال الجنسي غير المشروع ، حتى لا يلجأ الى الزواج ، أو الى البحث عن متعة بعيدا عن أمه . وهذا النوع من الأمهات يجد أولادهن عند اكتمال نموهم صعوبة شديدة في الزواج . وحتى بعد الزواج قد يتوقعون من زوجاتهم أن يكن على شاكلة أمهاتهم . وتحدث كثير من المشكلات بسبب انعدام هذا التتابع . ويجد أبناء هذا النوع من الأمهات مشقة في المخاطرة بوجه عام كالسفر البعيد أو غير ذلك .

وتسهيل اتصال الأولاد بآخرين يجعل كلا من الأخذ والعطاء في حياة الأطفال أكثر حدوثا مما لو كان محيط الطفل مقتصر على والديه ، الأمر الذى يترتب عليه أن الطفل يأخذ عادة من والديه ولا يعطى . وأما اتصاله باخوة أو بزملاء فانه يوجد مجالا لأن يأخذ الطفل فيه ويعطى كما يأخذ . فاذا اعتدى على غيره يعتدى عليه . واذا أخذ لعبة من زميل لابد أن يتنازل له عن لعبته في مناسبة أخرى . ولذا كان اختلاط الأولاد بمن في سنهم تقريبا من اخوة وزملاء أسلوبا طيبا لتعليم الأخذ والعطاء ، والسرور والألم ، وغير ذلك من الخبرات الضرورية لتعويد الطفل التحمل وصلابة العود وعدم

الأنانية • ولكسب الخبرة في الأخذ والعطاء أهمية خاصة ، فهو الفرصة الأولى لتعلم فكرة الحق وفكرة الواجب • وإذا لم تنهياً هذه الفرصة تهيئاً كافياً فقد يتعذر على الطفل عندما يكبر أن يكسب هذين الجانبين • وقد ينشأ شعوا بما له من حقوق ناسيا ما عليه من واجبات • وهذا عيب خطير في كثير من المجتمعات •

ولفصل الطفل فصلا جزئيا عن أمه واختلاطه بغيره ميزة أخرى ، وهي أن الطفل يكون عن نفسه فكرة صحيحة • ففكرة المرء عن نفسه تزيد درجة دقتها وقربها من الحقيقة بكثرة تعامل الفرد مع غيره • لنضرب مثلا تخيليا لتوضيح هذا : لنفرض أن شخصا ما يعيش مع أناس أقل منه باستمرار ، فانه قد يكون عن نفسه فكرة أنه شخص عظيم جدا • ولكنه اذا احتك بأناس أحسن منه بدرجات متفاوتة ، وأقل منه بدرجات متفاوتة ، فإن الاحتمال أكبر في أنه يكون عن نفسه فكرة أقرب الى الاعتدال من الفكرة الأولى • ولذلك كان اتساع دائرة اتصالات الشخص وتنوع عناصرها عاملا مهما في تكوين المرء فكرة صادقة عن نفسه بعيدة عن تعظيمه أو تحقيره لها • لهذا كله كان توسيع دائرة الطفل توسيعا تدريجيا عاملا مهما جدا في تكوين شخصية الطفل تكوينا متماسكا مركزه فكرته عن نفسه •

وهناك طفل كان الذكر الأول بين اخوته ، وكان أبوه ذا صناعة لها مركز اجتماعي غير محترم • ويظهر أن الأم أرادت أن يتحقق لها في ابنها ما لم يتحقق لها في زوجها ، فعنيت بتعظيمه واحترامه ، وجعلته محور الأسرة كلها ، وأهملت والده • وكانت تدلل ابنها تدليلا شديدا جدا وتجب له أغلب رغباته ، وتتلذذ من هذا تلذذا شديدا • وكان اذا احتك بأطفال آخرين أفهمته أنهم أطفال حقراء ، وأنه ليس مثلهم ، وأنه عظيم جدا ، وأنهم يشعرون بالغيرة منه ، الى غير ذلك • ثم كبر الولد وذهب الى المدرسة ، فاذا رسب — وكان كثير الرسوب — كانت تقول: ان المدرسين يفعلون ذلك عن قصد •

ثم خرج وشغل وظيفة من الوظائف الصغيرة ، وكان في غاية الشدة على أمه ، يجبرها على تعظيمه واحترامه ، واجابة طلباته الى أن ضجرت نفسها • وكان يعتقد باستمرار أن زملاءه يعملون دائما ضده وأنهم يكيدون له ويدبرون المؤامرات لغيرتهم من ذكائه وقوة شخصيته • وكان يشكو باستمرار من خسة هؤلاء الزملاء ، وسوء أخلاقهم ، وكان يعمل دائما للاتصال — على قدم المساواة — بأناس يرتفعون عنه كثيرا في المستوى العقلي والاجتماعي ، وكان يعتقد اعتقادا راسخا أنه عبقرية مدفونة ، غير مقدرة من هذا المجتمع الحاقق الظالم •

وهناك حالة أخرى لتلميذ في مدرسة ثانوية تقدمت الشكوى عنه بأنه يميل الى العناد ، والعصيان ، وعدم الميل الى المذاكرة ، ويميل الى الشره في الأكل ، ويخالط من هم أقل منه في المرتبة العقلية والاجتماعية ، ويجتمع بخادمت المنزل اجتماعا جنسيا وللحالة أعراض أخرى ، ليس هذا مقامها • وبدرس التاريخ الأول للحالة اتضح أن الولد هو الذكر الأول ، وأن الوالدين أغدقا عليه في طفولته الأولى عطفًا وتديلا كبيرين جدا ، ثم انه ما كاد ينمو ويصل الى سن الثالثة حتى اتتبه المرض تلو الآخر ، فانتقل من « تيفويد » الى « حصبة » الى « التهاب رئوي » ، مما زاد في قلق والديه ، وزاد في عنايتهما به ، فزادا فيما يقدان عليه من امتيازات • ولكنهما لم يرتبا بعد شفاؤه أسلوب اتصاله بالآخرين ، فظل معتمدا على والديه في جلب السرور لنفسه ، بل صار ملحا في هذا الاتجاه ، مما جعلهما يخضعان للاحاحه ، ومما أفقد الولد قدرته على الاعتماد على نفسه • فاذا خلع ملابسه ترك كل قطعة منها في مكان • واذا كتب ترك قلمًا في جهة وورقة في جهة أخرى وكتابا في جهة ثالثة • واذا أعطى واجبا منزليا فانه لا يعمل الا اذا ساعده فيه والده أو مدرس خصوصي • ومما زاد الطين بلة أن الولد أرسل في سن الخامسة الى روضة الأطفال ورتبت له الدروس الخصوصية اليومية من أول سنة التحق فيها بالروضة •

أما اتصاله الجنسي بالخدم ، فقد يكون من عوامل ظهوره أن الولد لم يعرف كيف يقاوم رغبة له ، فاذا ما تحركت عنده النزعة الجنسية ، وهى إحدى رغباته ، فهو لا يقاومها وانما يشبعها بأسهل الطرق وأقربها له • وهذا التفسير بعينه قد يبين سبب شرهه •

وحالة أخرى لطفل تقدمت الشكوى عنه بسبب التبول اللاإردي • ومن ضمن أعراضه حسب شكوى أمه منه : أنه لا يعتمد على نفسه قط ، وأنه يرهقها بمطالبه وظهر السبب فى هذا بمجرد سؤاله عن اسمه ، فقد تبرعت بالاجابة بدلا عنه • ثم بسؤاله عن عمره ، أجابت كذلك نيابة عنه • وهكذا فى السؤال عن اخوته ومسكنه ... الخ فقد كانت اما أن تجيب عنه واما أن تتعجله الاجابة بتوبيخه ثم تجيب هى بالنيابة عنه بعد ذلك •

وهناك حالات كثيرة جدا ، أساس مشكلات السلوك فيها هو المبالغة فى اعتماد الطفل على والديه ، أو على واحد منهما • وفى عدد غير قليل من هذه الحالات نجد أن الوالد المعتمد عليه لا يطيق فقدان هذه الصلة •

مدى تدخل الآباء فى حياة الأبناء

من المسلم به أن الآباء قد وصلوا الى ما وصلوا اليه من خبرة بعد تجارب طويلة فى زمن غير الزمن الذى يعيش فيه أبنائهم • ووصلوا الى خبرتهم هذه بالمحاولة وارتكاب الأخطاء ، وتصحيح هذه الأخطاء • وكثير منهم يريد مع ذلك أن يفرض نتائج خبرته على أولاده ، وينسى أنها ربما لا تلائمهم مطلقا • وبعض الآباء يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة أبنائه ، فيرتبون لهم مواعيد عملهم ، ومواعيد راحتهم ، وطريقة اتحاق نقودهم ، ولون الملابس التى يختارونها ، والأصحاب الذين يخرجون معهم ، ونوع التعليم الذى يختارونه الى غير ذلك •

والأولاد الذين ينشئون فى هذا الجو يكبرون متصفين بالتردد وضعف الشخصية وعدم القدرة على القطع برأى فى موقف ما • وذلك لأنهم لم

يتدربوا التدريب الكافي على القطع برأى لأنفسهم ؛ اذ أن هناك من يفكر لهم باستمرار • ويخشى الآباء اذا تركوا أبناءهم يفكرون لأنفسهم أن يخطئوا ، ولكنهم ينسون أن المرء يتعلم من خطئه ، ويكفى أن يكون موقفهم ازاءهم موقف ارشاد •

وهنا تتساءل : الى أى حد يمكن للآباء أن يتدخلوا فى أعمال الأبناء ؟ بعض المربين ينادى بوجوب ترك الأبناء يتعلمون كل شئ بأنفسهم ، وذلك عن طريق احساسهم بنتيجة عملهم • فاذا كانت النتيجة مؤلة ، كان طبيعيا للطفل أن يتجنب العمل الذى أدى الى الألم • وان كانت النتيجة سارة ، كان من الطبيعى أن يزاوله حتى يصبح عنده عادة • وهؤلاء هم الذين يؤمنون بما يسمى مبدأ (التربية الطبيعية أو التربية السلبية) ايمانا خاليا من المرونة • وليس فى امكاننا ترك الطفل يكتسب كل تجاربه بنفسه • ولكن يمكننا أن نتركه يكتسب كثيرا منها عن طريق خبرته الشخصية المباشرة • ويصح أن نذكر بعض المواقف التى يجب أن يتدخل فيها الآباء • فمن أهم هذه المواقف تلك التى يكون فيها خطر على حياة الطفل أو صحته • فلا يجوز مثلا أن تتركه أمام النار لتحرقه ، أو الماء العميق ليغرقه ، أو السم ليقتله ، أو الطعام غير الصالح ليلحق به ضررا ، بحجة أننا نترك الطفل يتعلم بنفسه فقط ولنفسه فقط • فلا بد لنا من أن ننبه الطفل فى هذه المواقف وأمثالها الى ما يجب عليه عمله • وعلينا أن نعوده أن يطيعنا فى مثل هذه المواقف طاعة تامة •

ومن المواقف التى تتدخل فيها الأعمال الممنوعة لغير سبب ظاهر للأطفال أنفسهم ، وهذه تشمل عادة ما يسمى بالآداب العامة ، كوضع المرفقين على مائدة الطعام ، وكالشرب بصوت مسموع ، وكأن يضع المرء رجلا على أخرى بحيث يواجه أسفل حذائه وجه أحد الحاضرين ، أو تسليك الأسنان ، أو مص الأصابع ، أو تنظيف الأنف ، أو عصر حب الوجه ، أو قص الأظافر ،

أو استعمال السكين لا يصل الطعام الى الفم ، أو غير ذلك من الأعمال .التي يأتيها بعض الأفراد عفوا أمام الناس • هذه كلها أفعال تنبه الطفل الى تركها اذا أداها • وكل السبب الذى يمكن أن نبديه اذ ذاك أنها خلو من الآداب ، أو سلامة الذوق أو غير ذلك • وبعض هذه الأفعال ليس له سبب ظاهر للطفل كما قلنا ، وبعضها له سبب حقيقى ، ولكن يعجز الطفل عن ادراكه اذا نحن نبهناه اليه •

وهناك أعمال يأتيها الأطفال للعبهم وتسليتهم ، ولكن يصح أن يترتب عليها أحيانا تفكير صفو غيرهم ، وإقلاق راحتهم ، كالصياح وكثرة الحركة ، والتخريب ، وما شابه ذلك • وهذه الأنواع من السلوك لا يجوز لنا أن نعمل على منع الطفل عنها بالطرق التقليدية • فاذا نحن نجحنا فى منع الطفل بهذه الطرق نشأ الطفل متصفا بالخجل والجبن ، أو زاد ميله الى التخريب والإقلاق • ولكن يصح أن ننبه اليها ، وأن نخصص له مكانا منعزلا يمرح فيه كيفما يشاء ، وأن نيسر له اللعب والصياح والمرح معنا فى بعض الأحيان • والقاعدة العامة هى أن يعطى الأطفال فرصة كافية للوصول بأنفسهم الى أحكامهم ، والى البت لأنفسهم بأنفسهم فيما يريدون ، الا فى بعض الحالات الشبيهة بما سبقت • ويجب أن تتخذ موقف الموجه الناصح لا موقف المتحكم المستبد •

التدخل اللاإرادى للآباء فى حياة الأبناء

وعلى الرغم من اقتناع بعض الآباء بوجوب ترك الأبناء يتعلمون بأنفسهم ولأنفسهم الا فى بعض المواقف ، فاننا نجد الآباء مدفوعين الى التدخل فى حياة أبنائهم بعوامل خفية لا شعورية خارجة عن ارادتهم •

ومن هذه أن الآباء أحيانا يكونون مدفوعين ليحققوا فى أبنائهم ما لم يتحقق لهم — حسب رأيهم — فى أنفسهم • فنلاحظ مثلا أن بعض الآباء

يتجهون بشدة ليعلموا أبناءهم سواء أكان لديهم الدافع أم لم يكن ، وسواء أكان للتعليم قيمة حقيقية في الحياة أم لا ، وسواء أكان لدى الآباء المقدرة المادية أم لا . فرجل يعتقد أنه لم تتح له فرصة التعليم الكافية ، فيدفع ابنه في التعليم دفعا يحتاج لقوى ليست أحيانا في متناول الأب أو الابن .

ومن أمثلة هذا حالة تلميذ في سن الرابعة عشرة يتقاضى والده ثلاثة جنيهات شهريا ، وللوالد أسرة كبيرة يتكفل بها وتعيش معه في جهة تعتبر صاحبة من ضواحي الجيزة . وقد أكمل ابنه التعليم الابتدائي بصعوبة كبيرة . فصمم والده على إلحاقه بالمدارس الثانوية ، وحصل له على محل مجاني بعد جهاد عنيف . ولكن الولد لم يتمكن من السير في التعليم وأخفق فيه ، واستمر الوالد مع ذلك مصمما على أن ابنه لابد أن يتعلم ، وأرهقه بالضرب والجس والاشراف والدروس الخصوصية . واتتهى الأمر بأن سرق الولد أدوات زملائه بالمدرسة وباعها ، وأخيرا هرب من والده . ولم يعرف مكانه الا حديثا ، بعد أن اشتغل الولد بأحد معسكرات الجيش البريطاني براتب قليل . وبعد هذا كله ظل الوالد عاقدا نيته على أن الولد لابد أن يتم تعليمه . وكان الرجل في حديثه يشير الى أن ابنه جزء منه ، وهو يمثل من بعده ، فلا بد أن يمثله تمثيلا حسنا . ومن بين أسباب الفشل الدراسي في هذه الحالة سوء الجو المنزلي من ناحية المعاملة ومن ناحية المستوى المادي . أما مستوى ذكاء الولد فانه يؤهله للنجاح في التعليم الثانوي .

ومن قبيل تحقيق الآباء لرغباتهم المكبوتة عندهم في أشخاص أولادهم أن يعطى الآباء أبناءهم حرية تامة ، لأنهم هم عوملوا في صغرهم تحت ضغط شديد . ومن الحالات التي تمثل تحقيق رغبة مكبوتة للأب في شخص الابن ، حالة ولد كان في مدرسة ابتدائية ، وفي معرض من المعارض المدرسية أحضر من منزله أشغالا للعرض ، فيها كثير من مساعدة الكبار . وقد تكرر هذا على الرغم

من تكرار تنبيه الولد الى وجوب الكف عن ذلك . ولو حظ كذلك أن الولد لا يعبأ بالنظام اطلاقاً ؛ فلا يتعاون كما يجب في ملعب المدرسة ، وهو مصدر فوضى . اذ أنه لا يلزم مكانه المرسوم له في الملعب ، ويريد أن يكون في موقف ممتاز . وقد اتضح بمقابلة الوالد وزيارة المنزل أن الوالد رجل ضعيف جداً ، وأن مركزه في المنزل مركز ثانوى . ومن مظاهر ذلك أن غرفة الاستقبال مثلاً لم توضع له صورة واحدة فيها على حين وضعت صور عدة لزوجته . وتدل أوضاع صور الزوجة على قوتها وطغيان شخصيتها على جو المنزل . وعلمنا أن الرجل يدفع بابنه الى الظهور ، ويترك له الجبل على الغارب ، ويعتبر أن هذا يكون شخصيته . فبين آونة وأخرى كنا نرى صورة الولد لمناسبة تافهة منشورة في المجلات الأسبوعية ، ويجوز أن تدل هذه الحالة على أن الولد ربما اتجه في الطريق غير السليم ليحقق في ابنه ما لم يتحقق فيه من قوة الشخصية .

ويحدث أحياناً أن يعامل الآباء أبناءهم ، كما عوملوا هم من قبل ، فرجل يشتد في معاملة ابنه أو يضربه لأقل سبب ، لأن هذه هى الطريقة التى ربى عليها هو . ولو أنه لا يذكر هذا السبب الا عرضاً وعن طريق الصدفة .

فهناك اذن احتمال بأن يحقق الآباء فى أبنائهم ما منع عنهم ، وهناك أيضاً احتمال آخر بأن يمنعوا عنهم ما منعوا هم عنه .

ويتجه الآباء أحياناً للتدخل فى شئون أبنائهم — على الرغم من ارادتهم — لمخاوف عندهم . فبعض الآباء تجدهم قلقين على مستقبل أبنائهم فى التعليم ، ويتجهون الى دفع أبنائهم للتعليم فى سن مبكرة قبل أن ينضجوا النضج الكافى . وقد ذكر لى أحد الآباء أن ابنه بليد وكسلان ، فلقت نظره الى أن عمر ابنه احدى عشرة سنة فقط ، وهو مع ذلك فى نهاية السنة الأولى الثانوية ، فقال ما معناه : ان الزمن يتقدم بغاية السرعة ، وان المستقبل سيكون غاصاً بالمتنافسين ، وان زملاءه هو كانوا يأخذون الشهادة الابتدائية فى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، وأصبح متوسط السن ينقص تدريجياً الى

أن أصبح الأولاد ينالون الشهادة الابتدائية في عمر ينقص أحيانا عن عشر سنوات • وقال : ان هذا كله دليل على الاتجاه السريع نحو المنافسة • الى غير ذلك • هذا الحديث يمثل الأسلوب العام للوالد ، ويمثل قلقه وخوفه من المستقبل ، ويفسر انكباب الوالد بشيء من العنف على الاشراف على ابنه وتربيته • وقد اصبح الولد على درجة كبيرة من الاضطراب العصبى ، وهو يتعثر فى نطقه بشكل مؤلم • وقد تكون هذه الأعراض نتيجة لما شرحناه من موقف الوالد نحو ولده •

وقد تتركز المخاوف حول صحة الأولاد • ومن أمثلة هذا ، حالة طبيب مات أحد أولاده وكان من أعراضه قبل الوفاة فقدان الشهية • ومن وقت وفاة هذا الولد انحنى الأب على الولد التالى يريد أن يشرف على تغذيته ويريد أن يعطيه المقويات بأنواعها ، ويريد أن يمنعه من اللعب خوف الاجهاد الى غير ذلك • كل هذا يقوم به الوالد ، وعليه علامات القلق الشديد • وكانت نتيجة هذا أن الولد على الرغم من أنه كان عاديا جدا فى المدرسة ، كان شديد الحساسية شديد التأثير مضطربا أمام والده فى كل جهة يكون فيها • هذه كانت حالة الولد من عامين ثم اعترتها تغيرات أخرى كان لحلول دور المراهقة بعض الأثر فى ظهورها •

وحالة أخرى لعلام يتعثر كثيرا فى نطقه ، وينام مع أمه فى سرير واحد — مع أنه لا مبرر اطلاقا لهذا — الى سن الثالثة عشرة ، والأم تخاف عليه خوفا شديدا من خفة الملابس ، وتغير الجو ، وعبور الشارع ، وكثرة المشى ، على الرغم من أنه فى السنة الثانية الثانوية • ولعل سبب هذا ، أن الوالد كان قد مات بسبب تدرن فى العظام ، وكان قد ترك هذا الولد ضعيفا ونحيفا جدا ، فربطت الأم بين ضعف الولد وسبب وفاة الوالد فركزت همها وقلقها فيه • والولد على الرغم من أنه من المتقدمين جدا فى دراسته ، الا أنه يتلعثم بشدة ويخاف الظلام ، وهو على درجة كبيرة من الجبن عامة • ونعتقد أن حالة القلق عند الأم انتقلت الى الابن عن طريق الايحاء والمشاركة الوجدانية ، وأصبح الولد قلقا على نفسه فاقد الثقة بها •

وبعض الآباء تكاد تنعدم ميولهم ، وأوجه اهتمامهم ، فيصبون طاقتهم كلها على أولادهم يوجهونهم ، ويهتمون بأمورهم ، فيقتلون فيهم النزعات الطبيعية للنمو الحر ، ويتعذر على الأولاد بسبب ذلك أن يتكونوا تكونا استقلاليا •

جزاءات الآباء

يتدخل الآباء في سلوك الأبناء عن طريق الجزاء ، وهو يشمل الثواب والعقاب • فالأطفال يثابون عادة على أعمالهم ، تشجيعا لهم ، وحثا لغيرهم • وأنواع الثواب هي الجوائز العادية ، كالنقود ، والحلوى ، واللعب ، والهدايا ؛ والجوائز المعنوية عن طريق اظهار علامات الرضا والاستحسان بالعبارات الطيبة ، أو بسط أسارير الوجه ، أو غير ذلك • ومن أنواع الثواب العفو عن ذنب سابق ، فإذا قام الطفل بعمل طيب ، وكانت له سابقة سيئة يصح أن يعفى من العقاب عن هذه السابقة اثابة له على العمل الطيب •

والقاعدة العامة في الثواب أنه لا يجوز اثابة الطفل على عمل يجب عليه أدائه • فهذا النوع من الاثابة يخلق من الطفل شخصا ماديا ، يتوقع فائدة شخصية مباشرة لكل عمل يقوم به • وانما يثاب الطفل اذا قام بعمل نافع ليس من الواجب المحتم عليه أن يقوم به • فلا داعى لاثابة الطفل لأنه يتناول الطعام في المواعيد المقررة ؛ ولكن تجوز اثابته اذا أعطى لعبته لطفل آخر عن طيب خاطر ليلعب بها ويردها له وعلى العموم يحسن أن تحل الجوائز المعنوية تدريجيا محل الجوائز المادية • والاثابة المعنوية اذا أجيد تطبيقها تؤدي تدريجيا الى تكوين الضمير الحى ، والى انماء الشخصية القوية المطمئنة الى ما تأتية من الأعمال^(١) • ومعنى هذا أن الثواب سواء أكان

(١) راجع فصل تكامل الشخصية •

ماديا أم معنويا يجب ألا يكون غرضا في ذاته ، وانما يعتبر وسيلة ليتعلم الفرد بها قيم السلوك •

وأما العقاب فانه يتضمن ايلاما • والألم الناتج من العقاب يجب أن يكون أكبر من السرور الحادث من ارتكاب الذنب • ولتوضيح هذا نأخذ مثالا حسابيا غير واقعى ، وهو أنه اذا سرق أحد الناس عشرة قروش ، وعوقب بغرامة قدرها ثمانية قروش ، فلا شك أن من مصلحته المادية على الأقل أن يثابر على السرقة ، لأنها تضمن له ربحا • وكثير من أطفال المدارس لا يقلعون عن ذنوبهم رغم عقابهم عليها ، ، اما لأن النشوة التى يحسونها عند ارتكاب الذنب أكثر بكثير من الألم الذى يحسونه من العقاب ، واما لأن العقاب مرغوب فيه ، لأنه الطريق الوحيد لتكوين صلة وثيقة بينه وبين شخص هو يحبه (١) •

فعلىنا أن نتأكد — ان لم يكن من العقاب بد — أن الألم الناتج منه أكبر من السرور المشتق من ارتكاب الذنب • وزيادة على ذلك ، يجب أن يأتى العقاب مباشرة بعد وقوع الذنب • ويرى بعض الآباء وجوب تأجيل العقاب حتى يعطى الطفل فرصة للتحسن • وهذا معقول الا فى الحالات التى يكون فيها عند الطفل معرفة سابقة بوجه التحريم فى الذنب •

ومن أكبر أخطاء الآباء ، شدة انفعالهم فى أثناء العقاب ، وإيقاعه بصورة يقوم عادة بتوقيع العقوبة (٢) • ومن الخطأ كذلك تهديد الطفل بعقوبة اذا اقترف ذنبا ما ، ثم عدم تنفيذ العقوبة بعد وقوع الذنب • فهذا يضعف من سلطة الوالد وقد يقلل من قيمة تهديداته وأقواله عامة فى نظر الطفل •

(١) هذا فى رأى فريق من علماء التحليل النفسى هو احدى طرق نمو الماسوكية

(٢) وتكبّت هذه الكراهية عادة ، وتعرف غالبا بمظاهرها غير المباشرة

وله تأثير في شخصية الطفل نفسها في اتجاه الضعف ، أو في اتجاه العنف ، لأن مثال القوة الذى يحتذيه الطفل قد ضعف في نظره •

ويعتمد بعض الآباء والمدرسين على العقوبات البدنية ، وهى سهلة التطبيق ، وتنتجها الظاهرية سريعة • فهى تؤدي في المنزل والمدرسة الى نظام ظاهرى شكلى سطحى • وهذا منشأ الخداع والاغراء فيها ، فتنتجها الظاهرية السريعة تخدع الوالد أو المدرس بقيمتها وكفايتها ، وتغريه بوجوب الالتجاء اليها • ويمكننا أن نؤكد أنه ليس بالأمر العسير تربية الأطفال من أول الأمر تربية حسنة ، دون الالتجاء اطلاقا الى العقوبات البدنية من أى نوع • ويحسن بالآباء والمدرسين أن يعملوا قدر جهدهم على تربية الأولاد دون الالتجاء الى العقوبة البدنية • ويوقع بعض المدرسين عقوبات بدنية بحجة أن الأطفال يضربون في البيت ، ولا يمكن تنشئتهم في المدرسة دون اتباع نفس الطريقة ، وهذا ما لا نشجع عليه •

ويطلق على العقوبات غير البدنية العقوبات النفسية ، وكثيرا ما تكون هذه أقسى من البدنية ، لذا ننبه الى الحرص في استعمالها • فلا يجوز تذكير الطفل بخطئه وتوبيخه عليه يوما بعد آخر • فتكرار التوبيخ على عمل مرت عليه مدة طويلة ، يجعل الطفل يمر عادة بمراحل ثلاث : أولاها مرحلة التألم من الشعور بالذنب • وبالتكرار تأتى مرحلة التضايق من التوبيخ والكراهية لمصدر التوبيخ • وبزيادة التكرار تأتى عادة مرحلة ثالثة وهى عدم اعارة التوبيخ أو مصدره أى اهتمام • فالواجب أن يعود الآباء والمدرسين أنفسهم نسيان كل ما يتعلق بالذنب ، بعد توقيع العقوبة بمدة قصيرة • فلا يجوز أن يسمح للذنب أن يترك في نفوسهم أثرا باقيا مستديما •

وبعض الآباء يتطلبون من أبنائهم الندم والاعتذار بعد توقيع العقاب عليهم مباشرة • ولا يجوز ارغام الطفل على شئ كهذا ففيه اذلال له ، وعدم اعتبار لما يجب انماؤه في الأطفال من الشعور بالكرامة وعزة النفس • والقاعدة

العامة هي أن يترك الطفل بعد وقوع العقاب عليه مباشرة فلا يناقش ، لأنه يكون اذذاك غاضبا • وليس من العدل أن تتوقع منه متابعة مناقشة منطقية وهو في هذه الحالة النفسية الحادة •

وبلغ من عدم اعتبار الآباء للحالة النفسية عند الأبناء أن رأيت مرة والدا يضرب ابنه ضربا مبرحا ، لأنه أقلق راحته وبكى الولد عند ضربه بصوت مرتفع ، فاستمر الوالد في ضربه ، طالبا منه عدم البكاء ، وصمم الوالد على الاستمرار في الضرب حتى يسكت الطفل ، ولكن الولد لا يمكنه الا أن يبكي بصوت مرتفع للألم الشديد الذي يحسه من شدة الضرب الواقع عليه • ولما هالني خروج الأب عن صوابه في تلك اللحظة وقرب اختناق الابن من شدة البكاء ، تدخلت بين الوالد وابنه، وفصلتهما ، وأقنعت الوالد بأنه كان يطلب أمرا مستحيلا •

ويلجأ الآباء أحيانا الى تهديدات وهمية بالنسبة للطفل ، فيهددونه بأن الله سيعاقبه يوم القيامة (١) ، وسيحرقه في نار جهنم أو يهددونه « بالحرامي ، أو بالعسكري أو بالحبس في غرفة الفيران ، أو بما يشابه ذلك » ولمثل هذه التهديدات نتائج سيئة ، فبعض الأطفال يدركون أنها تهديدات وهمية ، وبهذا تقل قيمة التهديدات وقيمة مصادرها ، وتصير في نظرهم مجالا للسخرية • وبعض الأطفال يتأثرون بها فعلا ، وينشئون على شيء غير قليل من الجبن أو الخوف (٢) •

السياسة الثابتة والطاعة

ويجب أن يتذكر الآباء ، وكل من له علاقة بتربية الأطفال ، أن خير طريقة

(١) يلاحظ أننا قلنا ان هذه التهديدات وهمية بالنسبة للطفل لا بالنسبة للبالغ •

(٢) لم نتعرض هنا لما للعقاب من دلالات سيكولوجية في الوالد أو المعلم أو صاحب السلطة • فقد يدل العقاب على رغبة لا شعورية في التعبير عن النزعات الاعتدائية ، وعلى رغبة لا شعورية في التمتع بارتكاب الذنب الذي يقع ممن يوقع عليه العقاب ، أو على ما يسمى أحيانا الاحساس اللاشعوري بالذنب (Unconsciousness of guilt)

لتربية الأطفال ، هي أن تكون لهم سياسة ثابتة ، ليست على شئ من التذبذب بين رأى وآخر . فإذا أظهرت في وقت ما أنك لا توافق على سلوك معين ، فلا يجوز أن تظهر في وقت آخر أنك توافق عليه ، اللهم الا اذا بينت أسبابا قوية كافية ، تدعم وجوب الاختلاف في الرأى . افرض أن طفلا ما صدر منه لفظ ناب في وقت ما ، فلا يجوز أن تضحك منه ، ثم اذا تكرر منه اللفظ تعاقبه عليه ؛ بل الواجب أن تفهمه خطأه من أول مرة . وتقدير الطفل لقيم السلوك يتم بسرعة وفي الاتجاه الصحيح اذا كان موقف الآباء منه موقفا ثابتا غير متغير ؛ فالسياسة الثابتة الحازمة هي التى تساعد الطفل على سرعة الوصول الى الحكم الأخلاقى الصحيح . ويحدث أحيانا أن يعاقب الوالد ابنه فاذا بكى الابن ، تأثر الوالد ، وتصل الحالة ببعض الآباء أن يهبط الواحد منهم باكيا معتذرا . وهذا النوع من التذبذب والضعف يخلق في الطفل القلق ، والاضطراب ، وضعف العزيمة ، وعدم القدرة على البت في بعض المواقف . وهناك كثير من حالات الانهيار العصبى عند الشبان والناشئين ، يرجع سببها الأسمى الى هذا النوع من الضعف فى الآباء .

ويرى هادفيلد^(١) أن الشدة الثابتة خير من اللين مع التذبذب . ولكن خير من هذا وذاك أن يكون هناك حزم وثبات مع عطف معقول . واذا رجعنا الى حاجات الطفل نجد أن هذا الرأى يتفق مع ما نعلمه عن حاجة الطفل الى سلطة ضابطة أو الى نوع من التوجيه . ولو أن لديه فى الوقت نفسه حاجة الى الحرية ، وحاجة الى العطف يجب مراعاتهما .

ونشير هنا الى أن السياسة الثابتة تسهل على الطفل طاعة السلطة . وعلى الآباء ألا ينظروا الى الطاعة كغرض فى ذاتها . فاذا هم فعلوا ذلك ، فانما يطلبون من الصغار الخضوع لهم لمجرد الخضوع ، ليشبعوا فى أنفسهم ميلا خفيا الى السيطرة قد يكون ناشئا من نقص مكبوت . وجرت العادة

(١) محاضرات الأستاذ الدكتور هادفيلد لطلبة جامعة لندن سنة ١٩٣٣

قديمًا أن يسمى الناس الطفل الذي يجلس هادئًا ، منكشًا ، خاضعًا بأنه حسن الخلق • وأما الطفل النشط ، الكثير الكلام ، الدائم الحركة ، فجرت العادة أن يسموه جامحًا ، وقحًا • ولكننا اليوم قد نسمى الأول جبانًا ضعيفًا • وأما الثاني فقد نسميه جريئًا قويًا ، على أنه ينبغي أن تترث في الحكم في كلتا الحالتين •

والذين يستعملون قوتهم وسلطانهم ليضمنوا طاعة أولادهم ، وخضوعهم ، يشبعون كما قلنا حب القوة والسلطان في نفوسهم • ولكنهم يضحون في سبيل ذلك بالحب وتبادل العطف والثقة التي يجب أن توجد بين الآباء والأبناء ، وقد يضحون تبعًا لذلك بقوة الشخصية في أبنائهم •

وليس معنى هذا أننا نفضل التمرد على الطاعة • فالطاعة مرحلة يجب أن يمر فيها الطفل ، ويجب أن يخرج منها بعد ذلك مستقلاً في رأيه وعمله • الطاعة هي انقياد الطفل للكبير ؛ ليسترشد به في الفكر والعمل ؛ حتى يكبر ، ويصير قادراً على الاستقلال بنفسه فيهما • إذا فهمنا الطاعة على هذا الأساس أدركنا أنها طريق لغاية أخرى في صالح الطفل ، وليست غاية في ذاتها •

الروابط بين الوالدين

وللروابط بين الوالدين أهمية خاصة في تكوين الأبناء ، فتعاون الوالدين واتفاقهما والاحتفاظ بكيان الأسرة ، يخلق جواً هادئاً ينشأ فيه الطفل نشوءاً متزاناً • وهذا الاتزان العائلي يترتب عليه غالباً إعطاء الطفل ثقة في نفسه وثقة في العالم الذي يتعامل معه بعد ذلك • وبدراستنا لما يزيد عن ثلثمائة حالة من حالات الأحداث المجرمين والمشردين تبين أن ٧٥٪ تقريباً من الحالات يرجع فيها الاجرام والتشرد رجوعاً مباشراً الى انهيار صرح الأسرة ، مما يمكن أن يدل على أن تماسك كيان الأسرة له أثره القوى المباشر في سلوك الأبناء •

ومن دواعي تفكك روابط الأسرة مشاجرات الوالدين ، واختلافهما •

وربما كان هذا راجعا الى سوء الحالة الاقتصادية ، أو الى الاختلاف على طرق تربية الأبناء ، أو الى سوء سلوك أحد الوالدين أو غير ذلك مما يضطر الطفل الى الانحياز الى أحد الوالدين ضد الآخر ، ومما يجعل جو المنزل أحيانا جوا ثقيلًا لا يطاق ، فيهرب منه الطفل الى الشارع حيث يحتمل أن يبدأ سلسلة من سلوك غير مرغوب فيه • وإن لم يتمكن من الهرب الى الشارع ، ففى أحلام اليقظة متسع لفراره من الواقع • وأحيانا يصب أحد الوالدين جام غضبه على الطفل نفسه ، وكل هذا يقلل من ثقة الولد فى قوة الكيان العائلى ، ويحتمل بالتالى أن يقلل ثقته فى نفسه ، وأن يجعل ثقته معدومة فيمن يتصل بهم فى الحياة بعد ذلك •

وقد يحدث التفكك بسبب وفاة الأب ، أو وفاة الأم ، أو وفاتهما معا • وقد تظهر للولد زوجة أب ، أو زوج أم ، أو اخوة غير أشقاء • وقد يحدث التفكك عن طريق الطلاق أو الانفصالات المؤقتة أو الدائمة ، واضطرار الوالدين للعمل خارج المنزل لكسب العيش أو غير ذلك •

وتختلف درجة متانة الروابط بين الوالدين اختلافات واسعة النطاق جدا • ويمكننا أن نقول انه كلما قلت هذه الاختلافات ، زاد فى العادة احتمال صلاحية الجو العائلى لتربية الأطفال تربية صالحة • وتوافق الوالدين أو اختلافهما يتوقف الى حد كبير على عوامل قد تكون ظاهرة ، وكثيرا ما تخفى على الوالدين نفسيهما ، كما يحدث بسبب عدم التوافق فى العلاقات الجنسية • وهذا مبحث طويل لا مجال للدخول فيه هنا •

المراجع

- A. Adler : Guiding the Child.
A.S. Neill : The Problem Child.
A.S. Neill : The Problem Parent.
C. Burt : The Young Delinquent.
C.W. Valentine : The Difficult Child and the Problem of Discipline.
D. Thom : Everyday Problem of the Everyday Child.
Foster & Anderson : The Young Child & his Parents.
F. Howard : Mental Health.
Groves & Blanchard : Introduction to Mental Hygiene.
J.C. Flugel : The Psycho-Analytic Study of the Family.
Kanner : Child Psychiatry.
R. Cattell : Crooked Personalities.
S. Gruenberg : Parent Education.
S. Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Sayles : The Problem Child at Home.
Shaffer : The Psychology of adjustment.
White : The Mental Hygiene of Childhood.

الفصلُ العِثَّاشِرُ

الطفل وإخوته

مركز الطفل بين إخوته

والمجال الذي يعيش فيه الطفل يتدخل في تكوينه عامل هام وهو الاخوة ، ومركز الطفل منهم ، وما يترتب أحيانا على هذا المركز من اتجاه الوالدين اتجاهات تختلف من طفل الى آخر • فمجموع العلاقات الموجودة في مجال حياة الطفل تتأثر بكون الطفل هو الأول ، أو الثاني ، أو الأخير وتتأثر بعدد الأولاد ان كان كثيرا أو قليلا • وتتأثر بكون الطفل هو الذكر الأول مثلا وبعده عدد من الاناث ، أو بأنه الذكر الأول بعد عدة بنات؛ أي أنها تتأثر بالمركز الناشئ عن جنسه وجنس من قبله ومن بعده • وتتأثر كذلك بما يحدث بين الاخوة من وفيات ؛ فقد يجيء الطفل بعد عدة وفيات ، أو قد يجيء بعده عدة وفيات • وتتأثر كذلك بالفترات الواقعة بين الاخوة ، وتتأثر بالكثير من أمثال هذه التشكيلات •

والتشكيلة العامة للأسرة ومركز الطفل فيها عامل مهم يتدخل في توجيه تكوين الطفل ولو أنه بالطبع ليس العامل الوحيد في ذلك • ويرجع الفضل في اهتمام علماء النفس بمركز الطفل في الأسرة كعامل هام في تشكيل شخصيته الى ألفرد آدلر (Adler) وأتباعه^(١) •

الطفل الأول والثاني :

لنأخذ الطفل الأول ، وهو الغالب في حالات العيادات السيكولوجية •

(١) Adler : Understanding Human Nature

يأتى الطفل الأول وليس فى الأسرة غالبا سوى والديه ، وفى العادة يجيبان كل مطالبه ، ويوجهان اليه كل حبهما واهتمامهما ، أو قلقهما ، أو غير ذلك من الاتجاهات • بهذا قد ينشأ الطفل كما لو كانت عنده الفكرة أنه فى هذا العالم يأخذ ولا يعطى • وفى كثير من الأحيان تمر فترة طويلة أو قصيرة ، ويأتى بعدها للأسرة طفل آخر ، فيحتل الطفل الثانى ، ولو بصورة جزئية ، مركزا كان يحتله الأول • وهذا قد يهز فى نفس الطفل الأول كثيرا من ثقته فى نفسه ، وكثيرا من ثقته فيمن حوله • وبهذا تنشأ الغيرة بأعراضها المختلفة المعروفة ، وينمو الطفل فى كثير من الأحيان شديد الأنانية ، شديد العناد ، كثير التحدى لمن حوله صغارا وكبارا • واذا حدث أن والدين أنجبا عددا من الأطفال ، ثم مضت فترة طويلة مدتها سبع سنوات أو ثمان مثلا ، ثم أخذوا يجيبان بعد ذلك ، فإن الطفل الجديد فى هذه الحالة قد يكون شبيها الى حد كبير بالطفل الأول كما وصفنا •

ونلاحظ فى أحيان كثيرة أيضا أن الطفل الثانى من ناحية السلوك أصعب عودا وأقوى بأسا من الطفل الأول • ولعل سبب ذلك هو أن الطفل الأول عندما يولد وتنشأ لديه مشكلة ما ، فإن الطرف الثانى فى المشكلة يكون عادة أحد الوالدين • وشتان بين مقدرته ومقدرة والديه • وهذا الفرق الكبير قد يحدث عنده اليأس • وكثيرا ما يحدث أن يتبع الطفل الأول طرق اللف والدوران والمداينة والمكر حتى يحل مشكلته • يأتى الطفل الثانى وكثيرا ما يكون الطفل الأول طرفا ثانيا فى مشكلاته والفرق بينهما قليل ، فيحاول التغلب عليه ، وكثيرا ما ينجح بالصياح وما شابه ذلك خصوصا اذا تدخل الوالدان فانهما ينصحان الكبير بالتسامح والاستسلام والتنازل لأنه أكبر ، ويترتب عادة على هذا أن يكون الطفل الأول أقل صلابة فى ارادته وتمسكا برغباته من الطفل الثانى • ولذلك كثيرا ما تجد الطفل الثانى أكثر نجاحا فى الحياة من الطفل الأول •

وعلى سبيل المثال نذكر حالة أخوين من حالات محكمة الأحداث •
اتهمهما أبوهما بالمروق ، وطردهما من منزله ، وكانا يبيتان طول الليل تحت
المقاعد في ميدان من ميادين القاهرة • واتضح بالبحث أن الولدين هما الذكر
الأول والذكر الثاني في الأسرة • أما الذكر الأول فقد اتضح أنه كثير السرقة ،
وأن الذى كان يغريه بها هو الطفل الثانى الأصغر منه ، وكان هذا غنيا كثيرا
الاعتداء على غيره بالضرب ، كثير الهروب ، يخطف من الناس أكثر مما
يسرق • وعند محاولتنا توجيه الولدين كنا نجد استسلاما وقبولا من الطفل
الأول ، ونجد مقاومة عنيفة من الطفل الثانى •

وحالتان أخريان من حالات العيادة أحدهما الطفل الأول في الأسرة ،
وثانيهما أخوه الذى يليه في الترتيب • وكان الأول يتعثر في النطق ، وهذا
من مظاهر ضعف الثقة بالنفس ، وكان يميل الى النقد والتهكم ، خصوصا
مع من هم أقل منه • وكان الثانى ميالا الى العناد ، والتخريب ، والمقاومة ،
وكان يعذب الحيوان ، وبلغ به الأمر أن احدى هواياته كانت أنه يمسك
(بالسحالي) ويفتح فم (السحلية) ويمسك بفكيها ثم يشدهما الى أن
تتمزق (السحلية) نصفين • وكان مغرما بتمزيق الحيوان والحشرات الصغيرة
وهى حية • وقد قام مرة بإشعال النار في ورقة كبيرة كانت مفروشة على
مائدة المطبخ تحت المواقد (الوابورات) • وقام مرة أخرى بتقطيع بعض
الجبال الرئيسية في خيام معسكر من المعسكرات التى أخذ إليها • كل هذا
حدث منه ولم يكن قد وصل الى السابعة من عمره ، وكان أخوه كما يتضح
مضادا له في خلقه وسلوكه •

ويحدث في أحيان كثيرة — كما قلنا — أن يعامل الطفل الأول على أنه
كبير مكتمل النمو ، وأما الثانى والأخير بنوع خاص فانه يعامل على أنه
فرد صغير • وقد يلاحظ بعض الآباء أن طفلهما الثانى والأخير مثلا في سن
الخامسة يكون أصغر في أساليبه من طفلهما الأول عندما كان في هذه السن •

ومن دراسات شارلوت بولر^(١) ما قامت به من درس حالات عادية ، منها أن بنتا في سن العاشرة لها أخت عمرها ست سنوات ، وكانت تنتمي إلى أسرة متوسطة الحال تعيش في «ثينا» . وكانت الأخت الكبرى قاسية في معاملتها لأختها إلى حد بعيد ، فإذا اتهردتا معا فإن الكبرى تؤنب الصغرى وتؤذيها وتقسو عليها ، على الرغم من طاعة الصغرى للكبرى ومحبتها لها . وبالبحث وجد أن سبب ذلك هو أن حالة الأسرة لم تكن تسمح بوجود خادمة ، وكانت الأم تقوم بطبيعة الحال بكل عمل المنزل ، وكانت لهذا مرهقة جدا . فما كادت بنتها الأولى تكبر حتى أشركتها في عمل المنزل ، وحرمت عليها اللعب ، وهي ما زالت بعد في دور طفولتها . أما الصغرى فقد سمحت لها الأم أن تظل طفلة تلعب وتمرح كما تشاء ، وكانت الكبرى على ما يظهر تحسد الصغرى على ما هي فيه من نعمة ، وتتمنى لو أنها استطاعت أن تكون مثلها . وكانت الأم لا تعلم بالطبع ما يدور بخلد بنتها الكبرى ، بل كانت تعتقد أن الكبرى لم تعد طفلة بعد . فكانت الكبرى تنتهز الفرص لتسيطر على أختها كما تسيطر أمها عليها ، وبذلك تثار لنفسها من أمها في شخص أختها الصغرى .

الطفل الأخير

تبين هذه الحالات أغلب الاحتمالات في نوع شخصية الطفل الأول والطفل الثاني . أما الطفل الأخير فإنه يشعر بأنه أقل قوة وأقل نموا وأقل قدرة على التمتع بالحرية والثقة ممن هم أكبر منه . وزيادة على ذلك فإن الوالدين يعاملانه عادة على أنه طفل ، ولو لمدة أطول من المدة التي عومل فيها من أتى قبله على أنه كذلك . ولذلك فهو ينشأ مدلا شاعرا بنقصه . وقد يترتب على هذا اما تعويض ناجح لهذا الشعور بالنقص أو تعويض غير ناجح . ولهذا فانا نجد أن عددا كبيرا من الحالات بينها الطفل الأخير .

(١) من محاضرات الدكتورة شارلوت بولر لطلبة جامعة لندن سنة ١٩٣٣ .

الطفل الوحيد

ويشبه الطفل الأخير الى حد كبير الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد . فالطفل الوحيد يحاط برعاية أكبر بكثير من حاجته . ولا يختلط بمن في سنه اختلاطا يؤدي الى احتكاكه معهم في المصالح على قدم المساواة احتكاكا كافيا يؤدي الى صقله وتعويده العطاء كما تعود الأخذ . لذلك ينشأ الطفل الوحيد غالبا مؤمنا حق الايمان بحقوقه ، ولكن لا يشعر كثيرا بواجباته . وينشأ بسبب هذا غير قادر على التعامل الناجح في الحياة . أما الطفل الشبيه بالوحيد فهو الطفل الذي يعيش مدة طويلة منفردا بمركز ممتاز جدا في الأسرة . وهذا يحدث في حالة طول الفترات الواقعة بين طفل وآخر ، وقد تكون الفترة طويلة بالطبيعة أو بالقصد أو بسبب الوفيات بين طفل وآخر .

وهذه الفترة تعطى الطفل مجالا للتمتع بما يتمتع به الطفل الوحيد عادة من رعاية زائدة وتدليل . ويشبه الطفل الوحيد كذلك الأثنى الوحيدة مع عدد من الذكور ، أو الذكر الوحيد مع عدد من الاناث ، ولو أن حظ الذكر الوحيد أعلى عادة من حظ الأثنى الوحيدة .

والتفضيل الواضح في معاملة الذكور على معاملة الاناث يترتب عليه كثيرا تقمة البنت على أخيها تقمة تكبتها في العادة . وهذا يفسر مبالغة البنت في حبها لأخيها ، وتقمتها على الطبيعة التي جعلت منها امرأة . ويفسر كثيرا جدا من المظاهر الأخرى التي لا يتسع لها هذا المقام .

لنأخذ مثالا حالة سيدة كانت تميل الى السيطرة على زوجها حتى كانت لا تسمح له بالبت في أموره الخاصة . وبلغ بها الأمر أنها كانت تحزن حزنا شديدا اذا خالفها في أمرها . وتفاقم معها الحال ولم تر بدا من استشارة اختصاصي . وبحث حالتها اتضح أنها كانت محبوبة في صغرها . ثم ولد لها أخ ، وكانت معاملة الوالدين له أحسن بكثير جدا من معاملتهما لها ؛

أى أن الولد اغتصب مكاتها • وفى أثناء دراستها ذكرت بعض أحلامها ، وكان منها أنها رأت فى بعضها أنها كانت تكلم زوجها ، فلما اقتربت منه وجدت أنه امرأة • وبذلك حققت فى الحلم رغبة كانت مكبوتة فى نفسها ، وهى الرغبة فى التخلص من جميع الرجال حتى زوجها ، الذى تخلصت منه بأن حولته الى امرأة •

دراسة حالات :

ولتدعيم ما تقدم فى هذا الفصل وفى الفصل السابق له ، رأينا أن نعرض ملخصا لبعض حالات العيادة السيكولوجية بمعهد التربية ، مشيرين فى كل حالة الى نوع الشكوى ، والى مركز الحالة فى الأسرة ، والى ملخص مختصر عن الوالدين ومعاملتها وموقفهما ، وحذفنا من حالات العيادة كل حالات الضعف العقلى ، وحالات التأخر الدراسى المسبب من غباء طبيعى ، والحالات المسببة أعراضها من عوامل جسمية كالزوائد الأتقية أو تضخم اللوز أو الديدان أو ما شابه ذلك • ولم نشر كذلك الى الحالات التى لم تتم دراستها لعدم تعاون الوالدين ، خصوصا بعد كشفهما أن الاستفادة من التوجيه يتطلب وقتا وصبرا ، ويتطلب منهما تغيير ما تعودا أن يعاملا به أطفالهما وهذا ليس عادة بالأمر السهل •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
١	ذكر	١٤	متأخر فى الحساب ولا يميل للألعاب ، قليل الثقة بنفسه .	الآخر	حازمان ومهتمان بصالح أولادهما .
٢	ذكر	٩	اغراق فى أحلام اليقظة اهمال ، تأخر دراسى راغم أن ذكاه فوق المتوسط	الأولى بعد خمس وفيات وبعده بنت	الأم ضعيفة ، كثيرة المرض والأب رجل محافظ يهتم بأولاده .
٣	ذكر	١٤	كذب ، تبول ، تأخر دراسى .	الثالث	عاديان إلا أن الوالد كثير التبكي لأولاده .
٤	ذكر	١٠	تأخر دراسى على الرغم من ذكائه .	الذكر الأول والوحيد وبعده ثلاث بنات .	الأم ضعيفة جدا ، والأب مريض ، والولد مدلل منهما ومن خالته وجدته لأمه .
٥	ذكر	١٦	تمرد وعصيان وتأخر دراسى .	الذكر الأول والوحيد وبعده ثلاث بنات	الأم تستعمل مع أولادها الشدة ، وأغلب وقتها تقضيه خارج المنزل . الأب توفى وعمر الولد ست سنوات بعد أن دله تديلا شديدا ،

رقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
					وقام في حياته بوظيفة الأب والأم في العناية بأولاده .
٦	ذكر	١٢	تغير من نشاط الى خمول وأصبح أميل الى الوحدة والاعتكاف	الذكر الأخير (الخامس)	تدهور تدريجي شديد في موارد الأسرة نقلها من مستوى في المعيشة الى مستوى آخر أحط منه بكثير ، أصبح الوالدان لهذا متوترى الأعصاب . الأب عنيف جدا ، الأم تحمى أولادها منه ، الولد مدلل .
٧	ذكر	١٢	تأخر دراسى رغم علو ذكائه ، صعوبة فى النطق وميل الى التفاخر .	الذكر الأخير بعد بنتين	الولد مشغول جدا ، ولكنه هادىء ، الأم قلقة جدا على الولد ، وتحوطه بأنواع الرعاية القلقة .
٨	ذكر	١٢	كذب .	الثانى وقبله بنت ، أى أنه الذكر الأول فى الأسرة .	الوالد عصبى غيور جدا محترم للغاية . قاس جدا يضرب أولاده الى أن يصلوا الى حالة قريبة من الاغماء ، يحرم على ابنه مصادقة زملائه . الأم ضعيفة تنفذ فقط أوامر الأب وتتستر أحيانا على الأولاد .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٩	ذكر	٧	تبول لا ارادى - عناد	الخامس	نفس الوالدين السابقين
١٠	ذكر	٨	عناد وتبول .	الثاني بعد بنت وبعده ولدان أى أنه الذكر الأول	الأم ضعيفة ، والوالد يعوض هذا بفرض اشرافه على الأولاد على الرغم من كثرة أعماله ، ويبالغ في دقة هذا الاشراف .
١١	أنثى	١٤	عصيان ، وانقباض ، ومشاكسة .	الأولى	الأب شديد جدا . يضرب بنته ويهددها بالارسال الى مستشفى المجاذيب . الأم ضعيفة وعصبية ، تشور وتضرب الأولاد ، تبكى ضعفا أمامهم .
١٢	ذكر	١١	مشاكسة . وصعوبة فى النطق .	الأول والوحيد تقريبا اذان له أختا غير شقيقة	الأب متوفى . زوج الأم لا سلطة له . الأم شديدة جدا فى معاملتها .
١٣	ذكر	٦	عصبية . لعب مستمر تقريبا فى أعضائه التناسلية عنيد قليل التركيز وكثير الحركة كثير المشاغبة .	العاشر من اثنى عشر بين بنين وبنات	الوالد متوفى . الأم ضعيفة تخشى سطوة الولد وتعجب له كل طلباته .
١٤	ذكر	١٣	تبول لا ارادى ، وخمول دراسى .	الأخير	ماتت والدته - مات والده وقتل أخوه الأكبر ويعيش مع بعض أقاربه الذين يطمعون فى ثروته الضخمة .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
١٥	أنثى	١٠	العناد - الكذب - الغيرة وشدة الحساسية بذاعة اللسان	الأخيرة	الأم عصبية جدا وتأتيها نوبات • الوالد يهتم بأولاده ودلل البنت أول الأمر ، والآن يقسو عليها •
١٦	ذكر	١١	تأخر دراسي - يميل الى الانوثة أكثر منه للرجولة •	الأخير	كان مدللاً جداً من والدته وتوفيت ثم توفي والده الذي كان على درجة كبيرة من التعلق به • وقد أخذ بالشدة بعد وفاتهما •
١٧	ذكر	٢٢	تشتت انتباه - قلق - ضعف عام •	الوحيد	تزوج والده بغير أمه ، ثم تزوجت أمه بغير أبيه ، وأصبح الولد تقريباً بلا ملجأ من زمن غير قصير •
١٨	ذكر	١١	تهتة • بعض جلد أصابعه وشفتيه •	الثاني بين بنتين أي أنه الذكر الأول والوحيد •	الوالد والوالدة في شجار وخلاف مستمرين ، مما أدى الى انفصالهما بالطلاق وكان الأولاد يستعملون للتنكيل بأبيهم •
١٩	ذكر	١٥	صعوبة في النطق •	الوحيد وله أخت غير شقيقة	الوالدة طلقت وهي حامل به وهي عصبية كثيرة التشكك والغيرة ، مضطربة في أحوالها ، الأب هادئ وزوجة الأب هادئة •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٢٠	ذكر	٩	تأخر دراسي - عناد - كذب - تمنع عن بعض المأكولات ..	الثالث وبعده وفاة ثم بنت ثم ولد أي أنه ظل الذكر الأخير مدة طويلة .	الأم لينة - مرهقة - الأب في المعاش - مريض بأمراض الشيخوخة كالسكر وضغط الدم . تتردد المعاملة بين الشدة والتدليل والتراخي .
٢١	أنثى	٦٠	غيرة - حساسية - تشتت في الانتباه - أحلام مزعجه عن أخيها بصوت مرتفع .	الأولى والوحيدة لمدة خمس سنوات جاء بعدها ولد اغتصب المركز الممتاز الذي اعتادته مدة طويلة .	الأب هادي يدلل البنت ، الأم ضعيفة . عصبية تترك أغلب عنايتها بالأولاد للأب .
٢٢	ذكر	٧٥	شدة الحجل - بطء في الإجابة - ميل إلى الوحدة والتلهي بعمل بدوي فردي .	الأول وبعده بنتان .	الأم مرهقة - كثيرة الوسواس على صحة أولادها دلت الولد تدليلاً شديداً . الأب كثير المشاغل .
٢٣	ذكر	٢٣	وسواس - انصراف عن العمل .	الثاني وبعده اخت أي أنه الذكر الأخير	عاديان في الظاهر .
٢٤	ذكر	١٣	تأخر دراسي - خجل شديد .	الرابع والأخير	الأم لينة - محافظة - الأب محافظ ، شديد - يميل إلى الانزواء .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٢٥	ذكر	١٢	تأخر دراسي - خجل •	الأول - بعده أختان أي أنه الذكر الأول والوحيد	الوالد ضعيف - والوالدة ضعيفة ويسيطر عليهما وعلى الولد الاخوال وهم كبار السن غير متزوجين • الوالدان مشغولان بالأمراض التي تجعل جو المنزل قاتما جدا •
٢٦	ذكر	١٠	تهته شديدة جدا •	الأول وبعده ثلاث بنات	الأم شديدة الخوف كثيرة الوساوس • الأب يستحث ابنه على الاتصاف بصفات الرجولة من الصغر •
٢٧	ذكر	١٠	تهته شديدة جدا • ميل الى النقد والتهكم	الأول وبعده بنتان وولدان	الأم تحب البنات أكثر من البنين • الأب يدلل أولاده الى سن معينة ، ثم يشدد عليهم جدا • ويقوم لهم بوظيفة المدرس الخاص ويضربهم ضربا موجعا في أثناء ذلك • شديد الحث لأولاده • هذا كله على الرغم من شدة انشغاله بأعماله الخاصة •
٢٨	ذكر	٧	عناد • تخريب • تعذيب للحيوان • ميل للشر عامة •		

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٢٩	ذكر	١١ ١/٣	تهتهة • مشاكسة •	الأول وبعده بنتان	الوالد قاس جدا مع ابنه (كان أبوه من قبل قاسيا معه) • يعطيه دروسا خصوصية يتخللها الضرب • الأم تضرب أولادها ومع ذلك فهم لا يخشونها •
٣٠	ذكر	٧	تبول لا ارادى - عناد	الأول وبعده بنت	الوالد توفى بعد أن دلى الولد { سنوات تدليلا شديدا ، الأم تميل للبنت وتضرب الولد ، وشغلت بعد وفاة زوجها بزواج آخر •
٣١	ذكر	١١	سرقة - كذب •	الأخير بعد بنتين وولد	الأب شديد وأناني وهو الكل فى الكل فى المنزل ، الأم ضعيفة ، ومسالة ، حريصة للغاية •
٣٢	ذكر	٩ ١/٣	التأخر الدراسى - الخمول - الخجل - الكذب - الغيرة - العناد - الجبن - التأفف من الطعام •	الثانى بعد بنت وبعده بنت	الأم كثيرة النقد والموازنة بين أولادها وأولاد غيرها تمطف علنا على البنات دون الولد ، الوالد عادى ولو أن معاملته لأولاده تتذبذب بين الشدة واللين •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٣٣	ذكر	٨	عنيد - عنيف - له حركات عصبية - مخرب - قاس مع أخوته والخدم .	الأول وبعده ولدان	الوالدان قلقان ، وليس لهما ميول سوى الاهتمام بالأولاد ، وهذا القلق أشد في الوالد منه في الوالدة معاملتهما غير ثابتة .
٣٤	ذكر	١١ ½	تأخر دراسي على الرغم من ذكائه ، عناد ، وعصيان ، وإهمال ، وزيادة مطردة في الوزن .	الولد الوحيد وجاء بعه ولد مات في حادث ترام .	يتدخل الوالد في كل كيرة وصغيرة من شئون الولد ، الوالد عصبي يعتريه انقباض ، الأم مريضة تخالف زوجها في معاملته ابنها . كل منهما يعتقد أن الآخر سبب فساد الولد .
٣٥	ذكر	١٠	كذب - عسر - سرحان تأخر دراسي - سوء معاملة للمدرسين والخدم .	الولد الأول وبعده بنت وولد .	الأب شديد التضييق على ابنه وعلى نفسه ، يقضي يومه كله في المنزل ليشرف على مذاكرته . فوق ذلك يوجد مدرس خصوصي . الأم قست على الولد ثم تعامله الآن باللين .
٣٦	أنثى	٧	— تخريب — متقلبة في أحوالها تقلبا شديدا عصبية مشاكسة .	الأولى بعد اجهاض وبعدها ثلاثة أولاد .	الأب تزوج مرتين . الجدة من ناحية الأب تزوج بأخت زوجة الأب الثانية . هذه لم تلد . أخذت

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
					البنيت عندها وتعلقت بها حتى أنها لا تقوى على مفارقتها . الأم عصبية وضعيفة . الوالد ضعيف . الحالة تتحكم في الأب والأم والجد والبنيت . تفضل البنيت الإقامة مع والديها وأخوتها لتلعب معهم .
٣٧	ذكر	١١	تهتة شديدة - حساسية .	الآخر بعد ولد .	الأب توفي صغير السن جدا . بسل العظام . الأم قلقة وتصبأهتمامها كله عليه دون أخيه .
٣٨	ذكر	٧	تهتة - تبول لا ارادى يخاف الظلام - عصبى	الخامس من بين ٧ ذكور واثاث .	الأم تكثر من عقاب الأولاد وشكايتهم للوالد . ضعيفة لينة فى كثير من الأحيان الأخرى ، مرهقة ، الأب عصبى ، يتهتة ، يهمل جدا تعليم أولاده على الرغم من ضيق ذات يده .
٣٩	ذكر	٧	التأخر الدراسى - العناد . العنف . غير محبوب من زملائه .	الآخر بعد ولدين والفترة بين كل ولد	الوالد توفي وكان يدلل هذا الولد كثيرا . الوالدة عصبية وضعيفة . أخوة

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الاسرة	بيانات عن الوالدين
				والآخر تزايد على خمس سنوات	الولد قسوا عليه بغاية الشدة بعد وفاة الأب الذي كان يدلله .
٤٠	ذكر	٥ ١/٢	تأخر دراسي . تبول . لا ارادى . تشبعت انتباه .	الآخر بعد بنتين .	الوالد عصبي . قلق على أولاده ، بخلاف الام .
٤١	ذكر	١٠ ١/٢	عناد . عصبية . تأخر دراسي .	الرابع من سبعة بين بنين وبنات ولكنه الذكر الأول	الوالد كان ليناً مع ابنه الى أن رسب مرة فانقلب والد دفعة واحدة عليه وعامله بالشدة والضرب . الأم ضعيفة أمام الولد . الولد سيد المنزل اذا غاب الوالد عنه .
٤٢	ذكر	١٢	تهتة .	الثاني بعد بنت ؛ أى أنه الذكر الأول . وبعده ولدان .	الأب مهمل لاسرته . الأم ترى أن زواجها فاشل . والأب نفسه يتهته قليلاً .
٤٣	ذكر	١٠	تأخر دراسي . تبول	الأخير من سبعة بينهم خمس بنات	الوالدان عاديان الا أنهما يعطيان المنزل جواً جاداً لا مجال فيه للعب الاطفال وهرجهم ومرجهم .
٤٤	ذكر	١٠	خمول . تأخر دراسي رغم ارتفاع الذكاء .	الوحيد .	الوالدة عادية لكن الوالد لين وضعيف وقلق . ويميل الى شدة تدليل الولد .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٤٥	ذكر	٩	تأخر دراسي • مع ميل للعزلة والسرхан تبول • خوف من الظلام ومن الكبار عامة •	الأول •	الوالدان يعامل كل منهما الآخر بغير تسامح • قلقان من ناحية الولد • ويكلفانه دائما فوق طاقتهم
٤٦	ذكر	١٠ ١/٣	تهتية •	الوحيد •	الأم تدلل الولد ، والوالد شديد جدا عليه ، ويضربه ويحرمه من مخالفة الآخرين •
٤٧	أنثى	١١	ضعف شديد مفاجيء في الابصار وصداغ شديد مفاجيء • حساسية وسرعة بكاء	الأول بعد اجهاضين وبعدها وفاة ثم ولد وبنت	الوالدان يخافان الأمراض خوفا غير عادي ويعاملان أولادهما معاملة حسنة الا أن الأب مشغول جدا والاتجاه العام يرمى الى التحيز لبقية الأولاد دونها
٤٨	ذكر	١٩	نوبات عصبية • تمرد •	الآخر •	الأم مطلقة • ويعيش الولد مع أبيه وزوج أبيه • ويشعر أنه ضيف ثقيل عليهما • الجفاء مستحكم بينه وبين الوالد •
٤٩	ذكر	١١	عناد وهروب من المنزل •	الأول وبعده بنت واحدة	الأم مهيمنة على جو المنزل وتميل للبنت جدا على حين تكره الولد كرها ظاهرا • الوالد كثير النقد للولد •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
					مشغول جدا وأعصابه مرهقة • الأم أوربية والوالد مصرى •
٥٠	ذكر	١٨	تمرد • عناد • عدم رغبة فى التعليم • اعتداء لاغتصاب مال • تهديد بالقتل حتى لوأله •	الوحيد •	الأم متوفاة وهى أوربية الأصل • كانت مريضة طول حياتها تقريبا • الأب رجل ضعيف جدا مع ابنه ، ومعجب الى درجة كبيرة بذكائه وجماله وخفة روحه •
٥١	ذكر	١٦ ½	تأخر دراسى ، خمول ميل للانوثة •	الأول	الأب رجل عادى ، وأما الأم فانها متشككة وتفرض ارادتها على المنزل بما فيه الأب الى حد ما ، وتقضى لاولادها حاجاتهم صغیرها وكبیرها ، لا تزور ولا تزار
٥٢	ذكر	٩ ½	تأخر دراسى •	الثالث بعد ولدين ؛ بعده بنت وولد •	الأب والأم عاديان الا أن الأب يضرب أولاده أحيانا وهو عصبي نوعا ما •
٥٣	ذكر	١٧ ½	تهتة •	الثانى بعد ولد وبعده بنتان •	الأم ضعيفة جدا والأب شديد جدا ، كان سيئ السلوك واستقام أخيرا عندما أدركته الشيخوخة

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الاسرة	بيانات عن الوالدين
٥٤	ذكر	٥٣	عصبى • قليل الصبر • يميل للعناد والعصيان •	الآخر بعد ولدين وبنتين توفيتا أحدهما وهى التى قبله مباشرة	الأم متعلقة بالطفل تعلقا شديدا جدا ، ودلت كثيرا بعد وفاة البنت ، والاب رجل متساهل جدا كثير المشاغل •
٥٥	ذكر	٢١ ١/٢	صعوبة نطق اعترته بعد سن العشرين •	الاول •	جو المنزل قاتم حزين •
٥٦	ذكر	١٤ ١/٢	تأخر دراسى • كسل • عدم قدرة على التركيز • عنف شره • اهمال • استمناء اجتماع جنسى بالخدم •	الاول وبعده بنتان	دل الولد تدليلا شديدا من والديه اللذين أشرفا على عمله ودراسته أشرفا تاما •
٥٧	ذكر	٢٠ ١/٢	اهمال للعمل • تضايق • عدم قدرة على ضبط النفس •	الاول •	هذا هو الاخ الاول لحالة رقم ٥٣ •
٥٨	ذكر	٩	احلام يقظة • فقد شهوة الطعام •	الاول بعد وفاة وبعده بنتان	الأم مرحلة ومتساهلة ولكن الأب قلق شديد العناية والاهتمام بابنه بنوع خاص •
٥٩	ذكر	٥٣	عناد • عنف • تبول لا ارادى أحيانا • كثرة اللعب فى العضو الجنسى لدرجة الادماء أحيانا •	الوحيد •	الأم انفصلت عن الوالد وهى حامل • الرجل هزواج مستهتر والام من النوع المحافظ جدا •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
					والولد يسكن مع أمه في منزل به جده وجدته وأخواله ، والأم مسلوكة السلطة مع ابنها في هذا الجو .
٦٥	ذكر	١٤	تهتة من سن الخامسة	الرابع ومجموع الاولاد ثمانية	الرجل رقيق الحال ويشغله كسب العيش عن كل شيء . يعطف على أولاده . الأم ضعيفة ومرهقة .
٦١	ذكر	١٨	تهتة .	الاخير .	عاديان ظاهريا .
٦٢	ذكر	١٨	اكتئاب شديد . ضيق صدر . افراط في عملية الاستمنااء لدرجة ينسى معها عدد مرات ممارستها في اليوم أحيانا .	الثاني بعد ولد وبعده خمس أولاد وبنت	الوالدة توفيت وتزوج الوالد من بعدها . والوالد رجل هادئ مستقيم يحب أولاده حبا شديدا .
٦٣٠	ذكر	٢٠	ضيق صدر ، عدم القدرة على المذاكرة . كراهية المنزل .	الخامس بعد ولدين وبنتين وبعده بنت تصغره بست سنوات .	الوالد توفي وكان ميالا للهوالمستور ، وبعد وفاته فقط بدأ أخوة الولد يضربونه ، وكان الولد يحب والده . حدث بعد الوفاة تدهور اقتصادي شديد جدا نقل الأسرة من الغنى الى حالة أقل من المتوسط . الأم سيدة حازمة .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٦٤	ذكر	٢٠	ادمان للاستمناء •	الآخر •	الأب متدين جدا والام عادية في الظاهر •
٦٥	ذكر	١٩½	سرعة الغضب • كثرة الصياح •	الثاني وبعده بنتان ثم ولد	الوالد عصبي كثير الغضب والوالدة عادية •
			سرقة من زملائه بالمدرسة وهرب من المنزل وتأخر دراسي رغم توسط ذكائه •	الاول وبعده بنت •	الوالد شديد التدين غليظ القلب • يخافه كل من في المنزل بما في ذلك الأم - الوالد والوالدة يغاران بشدة على الاولاد ويتابعان بعنف مصالهما المدرسية هذا على الرغم من رقة حالهما الى درجة كبيرة •
٦٧	ذكر	١٤	اهمال النظافة لدرجة تلفت النظر • السرحان التأخر الدراسي •	الاول وبعده ولد	الأم توفيت • الأب يعنى بالاولاد من ناحية الاتفاق عليهما فقط وليس له بهما صلة أخرى •
٦٨	ذكر	١٢½	سرحان • تأخر دراسي شديد • ضعف جسمي •	الاول وبعده خمسة بنين وبنتان •	الزوج يكبر الزوجة بـ ٢٥ عاما ، تزوج قبل زوجته الحالية وطلقها لأنها لا تنجب أطفالا ، ثم جاء هذا الولد بعد وفاتين ، والوالد يدلله ويقلق لكل صغيرة وكبيرة خاصة به

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
					الرجل شاذ في تصرفاته والام مشغولة بأولادها .
٦٩	ذكر	١٧	حركات عصبية بالفم .	الثالث بعد بنتين وبعده ولد يصغره بسبع سنوات	الرجل المنزلى عادى ، ويشتغل الوالد بالتجارة ، وتربية الاولاد متروكة كلها للام .
٧٠	ذكر	١٦	اضطراب عصبى .	الاول .	الام عصبية والوالد عصبى كلاهما شديد التدخل فى حياة الابن .
٧١	أنثى	١٧	نوبات عصبية . انقباض .	الاخيرة .	الاب توفى وكان رجلا متدينا جدا ، والمنزل تشرف عليه الام والاخوات الكبار وقد مات أخوهم أيضا .
٧٢	أنثى	١٩	ضيق شديد . بكاء بدون سبب ظاهر . قلق . شعور بالعجز عن مواجهة الحياة	الاولى	الام عصبية شديدة ، وتعتقد أن زوجها أقل منها بكثير . الرجل يحاول ارضاءها فى حدود كرامته .
٧٣	ذكر	١٥	تأخر دراسى مع استهتار شديد .	الآخر	من الاثرياء المشغولين .
٧٤	ذكر	١٧	ضيق صدر . اكتئاب . وساوس مع طموح وخيال وذكاء .	الاول بعد وفاة الاول .	الوالد توفى ، وكان عاجزا من الناحية الجنسية ، بعد حياة مليئة بالمغامرات ، الوالدة سيدة متمسكة .

ولأجل أن يكون لهذا البيان قيمة علمية واضحة ، كان من الواجب أن تقوم بدراسة احصائية ، الى جانب دراستنا لهذه الحالات ، لعدد آخر من الحالات العادية المشابهة لها في الظروف ، حتى تكون هناك مجموعة للحالات ذات المشكلات ، وبجانبا مجموعة مساوية لها من الحالات التي لا مشكلات لها . ولكن لا مانع من أن نعرض نتائجنا اذ أن لها بعض الدلالة . فالطفل الأول ظهر في مجموع الحالات بنسبة $\frac{38}{100}$ ، والطفل الأخير ظهر بنسبة $\frac{26}{100}$ ، والطفل الوحيد ظهر بنسبة $\frac{11}{100}$ ، والذكر الوحيد مع عدة أناث ظهر بنسبة $\frac{18}{100}$ ، وأما الأثني الوحيدة مع ذكور فقد ظهرت بنسبة $\frac{3}{100}$. يبدو من هذا كله أن مركز الطفل ان كان يعطيه امتيازا خاصا في مجال الأسرة ، فان هذا الامتياز يحتمل أن يكون أحد العوامل الهامة في خلق صعوبة تكيف الطفل مع بيئته التكيف المناسب .

وهذه النتائج تتفق مع نتائج دراسات آدلر ، وبعض الأرقام قريبة من أرقام الأستاذ «بيرت»^(١) . فقد وجد بيرت في دراسته للمجرمين الأحداث أن الطفل الوحيد يظهر في حالاته بنسبة $\frac{122}{100}$ ، على حين يظهر في حالاتنا بنسبة $\frac{11}{100}$ ، والنسبتان قريبتان جدا احدهما من الأخرى . ويظهر الطفل الوحيد في المجموعات العادية بحسب بحث «بيرت» بنسبة $\frac{17}{100}$ ، ومن ذلك يتضح أن النسبة بين المشكلين والعاديين في الطفل الوحيد هي ٦ : ١ .

خاتمة :

من كل هذا نرى أهمية دراسة مركز الطفل في مجموعة الأسرة ، حتى نفهم سلوكه ونواحي شذوذه . ويستفيد الآباء من هذه الدراسة في تحديد سياستهم نحو أطفالهم ، فيجب أن يعاملوا أطفالهم بحسب مراكزهم ، وبحيث لا يتعرض الطفل لما يتعرض له عادة نتيجة هذا المركز . ويستفيدون كذلك من حيث سياستهم في انجاب الأطفال . فهل يكتفى الوالدان بطفل واحد أو بطفلين ، وماذا يكون طول الفترة التي تفصل طفلا عن آخر ؟ هذه كلها أسئلة يسهل الاجابة عنها على ضوء ما تقدم .

(١) C. Burt : The Young Delinquent, p. 64.

المراجع

- A. Adler : Guiding the Child.
Adler : Understanding Human Nature.
Adler : Education of Children. Ch. VIII.
C. Burt. The Young Delinquent.
R. Cattell: Crooked Personalities.
J.C. Flugel : The Psycho-Analytic Study of the Family.
Foster & Anderson : The Young Child and His Parents.
Groves & Blanchard : Introduction to Mental Hygiene.
S. Gruenberg : Parent Education.
S. Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
F. Howard : Mental Health.
Kanner : Child Psychiatry.
Murchison : Handbook of Child Psychology.
A.S. Neill : The Problem Child.
A.S. Neill : The Problem Parent.
Sayles : The Problem Child at Home.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.
C.W. Valentine : The Difficult Child and the Problem of Discipline.
Wexberg : Individual Psychology.
White : The Mental Hygiene of Childhood.

الفصل الحادى عشر

المدرسة ومشكلات النشء

مقدمة :

اتتهينا من التكلم عن الطفل فى بيئته المنزلية بمختلف مؤثراتها من والدين واخوة ، وغيرهم • ولا يكاد الطفل يصل الى السادسة من عمره حتى يكون قد أرسل الى المدرسة ، حيث يقوم بقضاء جزء كبير من الوقت للتعلم ، وكسب المهارات بمختلف صنوفها ، ولتكوين الاتجاهات الاجتماعية الضرورية لحسن تكيفه مع البيئة الاجتماعية الكبرى • معنى هذا أنه يضاف الى المؤثرات المنزلية مؤثرات مدرسية أو تعليمية ، تستمر فى الناشئ الى أن يخرج الى الحياة • لهذا كانت المدرسة كبيرة الأهمية لخطورة الأغراض التى تعمل لها ولطول مدة تأثيرها • ولهذا كانت تستحق بعض التفصيل فى بحث مؤثراتها فى تكوين النشء •

المدرسة وعلاقتها بكل من المنزل والمجتمع :

من المسائل المعروفة ، أن المدرسة هى تلك البيئة الصناعية ، التى خلقها التطور الاجتماعى ، لكى يمر فيها الطفل ، بحيث يصبح بعد ذلك معدا اعدادا صالحة للحياة الاجتماعية ، أى أن المدرسة حلقة متوسطة ، يمر فيها الطفل فى دور يقع عادة بين مرحلة الطفولة الأولى التى يقضيها الطفل فى منزله ، ومرحلة اكتمال نموه ، التى يضطلع فيها بمسئولياته فى المجتمع • لهذا وجب أن يكون هناك اتصال وثيق جدا بين الحلقات الثلاث ، وهى المنزل والمدرسة والمجتمع • وواضح أنه لأجل أن ينمو الطفل نموا تدريجيا ، متعدد النواحي ، بحيث يحتفظ باطمئنانه ، بل بحيث يتسع شعوره بالأمن وينمو ، يجب أن يكون

هناك تدرج بين هذه البيئات الثلاث ، بحيث يسهل على الطفل الانتقال من واحدة الى التى تليها • وبطبيعة الحال يجب أن يتحقق التدرج فى النمو العقلى والاجتماعى ، فى داخل البيئة الواحدة • فيراعى على الأقل أن الانتقال يتدرج من البيت الى المدرسة ، ومن هذه الى المجتمع ، بحيث يستوفى الطفل حاجاته فى المرحلة التى هو فيها ، مع تذكر البيئة التى سينتقل اليها بعد ذلك • مثال ذلك ، أنه لا يجوز المبالغة فى تدليل الطفل فى المنزل ، والا أحس بفقد امتياز التدليل عند انتقاله للمدرسة أو للمجتمع • ولا يجوز للمدرسة أن تغفل مثلاً انماء المسؤولية الاجتماعية ، أو الولاء الاجتماعى عن طريق الممارسة الشخصية ، لأن عدم الاتصاف بهاتين الصفتين يعرض صاحبهما لصعوبات فى علاقاته مع غيره فى المجتمع • ولا يجوز أن نكيف أساليب تربية الطفل ومعاملته بما يتطلبه الفرد عند اكتمال نموه فحسب ، فنهمل حاجاته وميوله واستعداداته فى المرحلة التى تتناوله فيها بالتربية •

ومعنى ما تقدم أنه يجب أن يتحقق للطفل فى جو المدرسة كثير مما يتحقق له فى جو المنزل الصالح ، من حاجة الطفل لعطف الكبار والأخوة ، وتقديرهم له ، وشعوره بالانتماء اليهم بصورة تحقق حاجته للشعور بالاطمئنان • ويجب الارشاد وانماء الاحساس بالمسؤولية الاجتماعية • وأن يكون النشاط فى المدرسة متعدد النواحي ، وفى حدود مقدرة الطفل ، بحيث يعطيه فرصة اشباع الحاجة للشعور بالنجاح ولتقدير نفسه تقديراً مرضياً فى نظر نفسه • وبالجمله ، يجب أن يكون جو المدرسة ، بحيث يحقق النمو المتعدد النواحي ، مع شعور الطفل بالاطمئنان شعوراً كاملاً بقدر الامكان •

أما من حيث علاقة المدرسة بالمجتمع ، فيجب أن يكون هناك تدرج فى الصلة بينهما ، فلا يجوز أن تكون هناك فجوة سحيقة ، أو أن يستدعى الانتقال من المدرسة للمجتمع من الناشئ قفزة يتعذر عليه أداؤها • ولأجل أن يتحقق هذا يلزم أن تكون المدرسة قطعة من المجتمع أو صورة منه ، فيجب أن تكون المادة المستعملة لاستثارة نشاط التلاميذ مستمدة من البيئة

المحيطة • وتختار هذه المادة بحيث تؤثر في التلميذ تأثيراً يجعله قادراً على التكيف للمجتمع • ومع ذلك يجب أن يكون المجتمع المدرسي أكثر صلاحية من المجتمع الخارجى ، وبذلك تصبح المدرسة مركزاً لتخريج الأفراد القادرين ، لا على التكيف للمجتمع فحسب ؛ بل على النهوض به ورفع مستواه أيضاً • ومن ثم يجب أن نعتبر المدرسة بيئة ، تغذى بنشاطها من البيئة المحيطة بما فيها من مجتمع ، وتغذى المجتمع بأفراد صالحين للنجاح فيه ، والنهوض به •

نرى مما تقدم أنه يجب أن يراعى فى جو المدرسة استمرار لروح جو البيت الصالح ؛ وعن طريق اتصال الآباء بالمدرسة ، واتصال المعلمين بالمنزل ، يمكن أحداث التعديلات اللازمة لحل الصعوبات البسيطة ، التى تطرأ من آن لآخر • كما يجب أن يراعى فى أن يكون جو المدرسة أنموذجاً صالحاً لجو المجتمع ؛ أى لا يمثل المجتمع بصورته فحسب ؛ وإنما يمثلها أيضاً بحيث يفضلها ، حتى يهيئ من يمرون فيه الى النهوض بجو المجتمع • وإن لم نراع هذا التدرج فى حياة الطفل بين المنزل والمدرسة والمجتمع ولا سيما فى اشباع الحاجات النفسية الأساسية كلها من أمن ، وعطف ، وتقدير ، وحرية مضبوطة موجهة ، ونجاح — فإن الطفل يشعر بصعوبة فى ملاءمة نفسه ملاءمة مقبولة ، وقد ينشأ حينئذ كثير من المشكلات النفسية ومشكلات السلوك المعروفة •

ففى احدى الحالات نال تلميذ شهادة الدراسة التوجيهية فى سن مبكرة ، ثم دخل احدى كليات الجامعة ، فهاله التغير الفجائى بين الدراستين • فبعد أن كان تلميذاً فى فرقة عددها خمسة وعشرون ، صار يحضر محاضراته فى مدرج ، به أكثر من ثلاثمائة طالب • وبعد أن كان يفهم الدروس درسا درسا وبنوذة • وتقدم له المادة مهضومة ، وما عليه الا أن يستوعبها ، صار يعطى المحاضرات غير الواضحة ، ويعطى لكل محاضرة عشرات من المراجع ؛

فيطلب منه أن يعتمد على نفسه في البحث والاطلاع ، ولم يسبق له أن اعتمد على نفسه قط . وبعد أن كانت الكتب قليلة العدد ، وكل منها قليل الصفحات ، صار يكلف بمطالعة المجلدات الضخمة . وكان في المدرسة الثانوية يشعر بعلاقة وثيقة بينه وبين مدرسيه ، وفي الكلية لا يوجد شيء من هذه العلاقة ، بل لا أمل له في تكوينها .

بدأ هذا الطالب يستذكر دروسه ، ولا يفهم أو يحفظ منها شيئا ، لأنه انتقل من حال كان يطمئن فيها الى نتيجة جهده ، الى حال يشعر معها أن جهده لن يوصله الى نتيجة . فبدأت تظهر عليه أعراض الانصراف عن المذاكرة ، والاكتار من النوم ، ثم ازدادت الأعراض بأن قصص ما يأكله وازداد اعتكافه ، وازداد عدد الساعات التي يصرفها في مضجعه لا هو بالنائم ، ولا هو باليقظ ، وبدأ يشكو الضعف العام . وللولد من تاريخ نموه وظروف حياته ما هيأه لهذه الأعراض . ولكن لعل هذه الأعراض ما كانت لتظهر لولا الانتقال الفجائي من جو مدرسي الى جو مدرسي آخر يختلف عنه تمام الاختلاف .

وهناك حالات كثيرة جدا من هذا النوع ، تظهر في مراحل التعليم العالي في مصر . ويمكن معالجتها أو منع ظهورها بطريقتين : أولاها : الاستئناس بمطالب المجتمع الخلقية والثقافية والمهنية ، ومحاولة تحقيقها في دور التعليم . وثانيتهما : ارشاد التلميذ الى مسالك الحياة ، وفرصها ، وظروفها ، وارشاده حسب استعداداته الوراثي والمكتسب لما يصلح له منها . وقد قطعت دور التعليم في الخارج أشواطا بعيدة في هذا الاتجاه .

الغاية من المدرسة واثر الامتحانات :

من أهم العوامل التي تلعب دورا بارزا في تكيف جو المدرسة ، الغاية منها في نظر المشرفين على التعليم . هذه الغاية قد تكون صريحة أو ضمنية وقد تتعدد الغايات ، ويكون بعضها صريحا وبعضها ضمينا ، وقد يكون

بين هذه الغايات تنافر يؤدي الى الفوضى في التعليم • ومن الغايات المتفق عليها الاعداد للحياة عن طريق التعلم أو كسب المعرفة • ويقصد بهذا كسب نوع من المهارة العقلية يجعل الفرد أقدر على التكيف العقلي مع الحياة ، ويلاحظ أنه لا بد مع عملية كسب المهارة العقلية من وجود نوع من الاختبار لمعرفة مدى استفادة المتعلمين ، ومدى صلاحية أساليب التعليم ، ومناهجه • ومن هنا نشأت الاختبارات ، وكانت النتيجة النهائية لهذه الاختبارات أنها تؤهل المرء لمركز ينظر اليه المجتمع نظرة تقدير واحترام • وبذلك اكتسبت الامتحانات أهمية كبرى ، فصارت هي هدف التلميذ ، والوالد ، وجميع أفراد الهيئة المشرفة على التعليم • وأخذت هذه الحالة صورة بارزة في مصر ، ولو أن الأذهان قد تنبهت لها أخيرا وأخذت تعمل الآن على معالجتها • وما زالت الامتحانات في مصر تستعمل سلاحا يتحكم في مستقبل المتعلمين ، وكان الواجب أن تكون وسيلة لارشادهم وتوجيههم •

ومن ثم فقد أصبح هدف المتعلمين هو تحصيل المعرفة بصورة يسهل استعمالها يوم الامتحان • والمدرسون كذلك صار هذا هدفهم الذي يهيمن على اتجاه تفكيرهم • فكأن الغرض الضمني للمدرسة هو تحصيل قدر من المعلومات بصورة يسهل الامتحان فيها بالطرق التي ألفها المعلمون والمتعلمون • لهذا حاول كثير من الآباء دفع أبنائهم دفعا الى التعليم على الرغم من صغر سنهم ، أو قلة استعدادهم ، اعتمادا على أن المعلومات يمكن دائما تبسيطها ، والمثابرة على حفظها ، أو مجرد تعليقها في الذهن حتى يوم الامتحان •

وقد ترتب على هذا أشياء كثيرة جدا منها : أنه يكفى أن يذهب التلميذ الى المدرسة ، ويجلس أمام معلمه ليستقبل ما يعطى له من معلومات ، وبجانبه تلاميذ آخرون لا تربطه بهم أية علاقة ، وليست لديه الحاجة لأن تربطه بهم أية علاقة • والمدرس كذلك صار ولا ضرورة لأن تربطه بتلاميذه أية علاقة أكثر من علاقة التلقين • ومن ثم يمكن للتلميذ أن يذهب للمدرسة ، ويجلس

هائدا لا حراك به ، ويفتح حواسه لاستقبال مختلف ضروب المعرفة ، ثم يعود الى منزله آخر النهار • فكان المدرسة يمكنها بهذه الصورة ، أن تستغنى عن جو اجتماعي فعال يشترك فيه التلميذ ويتفاعل معه ، ويندمج فيه ، ويتمى اليه • ويمكن للتلميذ عندئذ أن يبقى منتبيا الى جو المنزل ، ويبقى هكذا الى أن يتم تعليمه ، دون أن يتقدم خطوة واحدة في الكفاية الاجتماعية ، بل يبقى أيضا كما كان رضيع المنزل لم يقطع منه ، وعلاقته بالمدرسة علاقة سطحية مؤقتة ، قائمة على امتصاص بعض المعلومات • وهذا الجو التعليمي الذي تخلقه الامتحانات بصورتها المألوفة يقتل الحياة الاجتماعية ، بل قد يخلق معه أجواء اجتماعية غير صالحة ، ولا سيما أن التعليم بهذه الطريقة لاثير فاعلية التلاميذ ولا نشاطهم • ولهذا نراهم يفصحون عما عندهم من نشاط وفير بطريقة غير موجهة في التدخين ، والتخريب ، والاضراب ، وتكوين العصابات ، وأحلام اليقظة وغير ذلك •

وبسبب هذه النظرة للتعليم ، لم يكن هناك مانع من حشو الفصول الدراسية بأكبر عدد ممكن من التلاميذ ، مما زاد عدد التلاميذ في المدارس زيادة لا يتأتى معها أى تعليم أو ارشاد مثمر • واستحال على النظار والمعلمين معرفة تلاميذهم معرفة حقيقية • ونعلم أن شعور التلميذ بأن مدرسيه يعرفونه ، يشعره بتقديرهم له ، مما يشبع فيه الحاجة الطبيعية للتقدير ، ويجعله يشعر بأنه ينتمى الى مجموعة قوية سواء أكانت منظمة أم غير منظمة ، مما يحقق عنده الحاجة للاطمئنان ، ومما يسهل ضبط سلوكه وتوجيهه الى حد بعيد ، إذ أن التلميذ يهيمه اذ ذاك أن يكون عند حسن ظن معلمه به •

يتبين من هذا كله أهمية نظرة المعلمين والمعلمين وولاة الأمور الى هدف التعليم ، وما يترتب على هذه من تعديل جو المدرسة ونظامها العام • وما يترتب على هذا كله من نتائج بالنسبة للتلاميذ أنفسهم • وترتبط أهداف التعليم أيضا بقيم المواد الدراسية وطرق تدريسها وغير ذلك •

قيمة العمل المدرسى :

وهناك عامل آخر يرتبط بأهداف التعليم ، ويؤثر في الحياة المدرسية ، هو قيمة العمل المدرسى في حياة التلميذ الحالية ، وفي حياته المستقبلية . فيجب أن نسأل أنفسنا دائما عما اذا كان العمل المدرسى يشبع في نفس الطفل حاجة حقيقية من الحاجات التى سبق أن أشرنا إليها .

والعمل المدرسى يمكن أن يشبع الحاجة للأمن ، بأن يعطى التلميذ فرصة فهم أسرار العالم المادى ، والعالم الاجتماعى اللذين يحتك بهما . ويمكنه أن يهيئ للتلميذ فرصة التعبير الحر عن نزعاته المختلفة تعبيرا يساعد على زيادة نموه وكسبه للمهارات العقلية واللغوية والاجتماعية ، وغير ذلك من المهارات العديدة التى يشعر معها الطفل باحترام نفسه ، لازدياد قدرته على العمل والانتاج . ومعنى ذلك أن التلميذ يجب أن يشعر فى المدرسة بكسب حقيقى بالنسبة لعقليته وشخصيته يفيد فى صلاته بالبيئة التى لا بد له من التعامل معها .

يضاف الى ما تقدم أن نوع المهارة الذى يكتسبه التلميذ من المدرسة يجب أن يكون بحيث يشعره بالاطمئنان الى المستقبل ؛ فيشعره على الأقل بأنه سوف يمكنه من كسب عيشه ويمكنه فى الوقت نفسه — أو فوق ذلك — من أداء خدمة للمجتمع الذى ينتمى اليه ، ويحافظ على نفسه فيه .

ويحدث أحيانا ألا يخرج عمل المدرسة عن أن يكون مجموعة معلومات أو مهارات لا تمت لحياة التلميذ بصلة ، وعلى ذلك فهو لا يشتق منها لذة ، ويترتب على اضطراره الى الانكباب عليها الانصراف عن النشاط الصادر من منابع الطاقة الحيوية . ولذلك يجب ألا ندهش لذبول حيوية الطفل كلما انغمس فى هذا النوع من العمل .

ويحدث كذلك أن ينظر التلميذ الى المجتمع الذى سيخرج اليه فى المستقبل ، فيجد أحيانا أن المدرسة لا تعدّه بحيث يجد لنفسه فى مستقبل

حياته فرصة العمل الناجح ، وبذلك يشعر بانعدام قيمة العمل المدرسى اذا نظر الى الحياة المستقبلية • فاما أن يرغم نفسه على مواصلة عمله المدرسى ويفقد ثقته فى المستقبل ، وبذلك يقع أمام نفسه فى صراع بسبب ارغامه لنفسه على عمل ما فى حين أنه لا يود فى قرارة نفسه أن يقوم بهذا العمل ؛ لأنه ليست له فى نظره قيمة فى المستقبل • واما أن يتخلى عن عمله الدراسى تخليا تاما •

بهذين العاملين — وهما عدم اشباع العمل المدرسى حاجات التلميذ النفسية ، وعدم تحقيقه للأمن الاجتماعى فى المستقبل — قد يتحدد الاتجاه العقلى عند التلميذ • وبذلك يسهل تفسير بعض الظواهر ؛ كتشتت انتباه التلاميذ ، وانصرافهم عن الدروس ، وتلبية أول داع خارج العمل الذى يعمل فى المدرسة • ويسهل تفسير هروب التلاميذ من المدارس ، وأحلام اليقظة ، والكسل ، والخمول ، وسهولة انزلاقهم الى مثل التدخين ، أو العادة السرية ، أو الشره ، أو غير ذلك من ضروب الملذات الجسمية ، وسهولة قابليتهم للاضراب عن العمل لأتفه الأسباب التى ربما لا تعنيهم اطلاقا ، وازدياد الحاجة الى المجهود العنيف اللازم حتى يواصل التلميذ عمله ، مقاوما بذلك أثر المغريات الأخرى ، وغير ذلك من الظواهر العديدة •

وفى احدى الحالات التى يظهر مثلها كثيرا جدا ، تكرر رسوب التلميذ على الرغم من صغر سنه وارتفاع ذكائه • وتكرر فى نفس الوقت استهتاره ، وميله للتدخين ، ومتابعة المسائل الجنسية ، والهرب من المدرسة ، وما شابه ذلك ، وبمناقشته تبين أنه يعتقد اعتقادا راسخا فى أن المدرسة لا تخرج عظيما ، وضرب أمثلة بعض عظماء الرجال ، وأنهم تكونوا خارج المدرسة ، وكان مثله الأعلى فى ذلك هتلر •

وحالة أخرى لطالب تكرر رسوبه بالسنة الثانية باحدى المدارس الثانوية بالقاهرة ، وكانت حجته أنه لا يجب المذاكرة ، لأنه يعتقد أن النجاح فى الحياة

المصرية بأنواعها المتعددة ، يتوقف على عوامل أخرى غير عوامل الكفاية الحقيقية ، وهو يعد نفسه لاكتساب هذه الأساليب •

وحالة ثالثة ، سبق أن أشرنا إليها وهي لتلميذ فقير كان في السنة الثانية بمدرسة ثانوية ، وتكرر رسوبه مرتين ، وارتكب حوادث سرقة متعددة من المدرسة ، وكان غير راغب في العودة الى المدرسة ، وبالفعل التحق بخدمة الجيش البريطاني ، ليكسب بعض النقود ، ويجمع رأس مال ليبدأ به عملا حرا ، لا اعتقاده الراسخ أن هذا السبيل هو أحسن وسيلة وأسرع أسلوب يمكن أن يعده لحياة ناجحة • ولكن والده أرغمه بعد كل هذا على العودة للمدرسة •

هذه الحالات الثلاث تمثل اتجاهها غالبا على أذهان كثير من التلاميذ ، ولكنهم لا يفصحون بصراحة عما بأذهانهم ، وعن تشككهم في قيم ما يدرسونه • وهنا يصح أن نسأل : وهل يتحتم أن يشعر كل تلميذ بقيمة كل علم يدرسه ؟ والجواب على ذلك ، أنه من المهم جدا أن يشعر التلميذ بالقيمة العملية المباشرة أو البعيدة لما يدرسه • وان لم يكن هذا ممكنا ، فيتحتم توافر شرط آخر ، وهو ارتباط ما يدرسه التلميذ بعاطفة ، أو بأى مصدر مباشر أو غير مباشر ، من مصادر الغرائز أو الحاجات النفسية ، وإذا توافر الشرطان في وقت واحد تحققت أمنية المعلم من عمله •

طرق التعليم المتبعة :

ومن أهم العوامل المؤثرة في تكوين التلاميذ ، واستقرارهم ازاء عملهم وتقبلهم له ، واقبالهم بشغف عليه الطرق التى تتبع في التعليم • فإذا كانت من الطرق التى تستثير نشاط التلميذ ، وتوجهه توجيها ينتج الى أبعد حدود الانتاج ، فان التلميذ يشعر اذ ذاك بالغبطة لنجاحه ، ويكسب ثقة في نفسه ، واحتراما لذاته ، ويكتسب شغفا بمواصلة البحث والعمل ، والاهتمام الايجابى بالعالمين المادى والاجتماعى • وهذا الأسلوب المبني على النشاط

الذاتى للتعلم ، لا تظهر معه المشكلات التى تظهر عادة مع الأساليب المألوفة ، التى قد تكون مملة ، أو محالة بحليات صناعية سطحية لا تلبث أن تزول • ونجد عادة فى التعليم المرتكز على نشاط المتعلم حياة ونشاطا ، وروابط قوية بين التلاميذ بعضهم وبعض ، وبينهم وبين مدرسيهم ، بخلاف نوع التعليم المرتكز على نشاط المعلم فحسب ، فنجد الجو مملا ، ذا روابط اجتماعية ضعيفة ، ونظام شكلى ظاهرى ، مبنى على الارهاب • ونجد التلاميذ خارج الفصول هائجين هياجا لا نظام فيه ، ويبحثون عن أنواع من اللذة غير الموجهة والتلميذ فى ذلك يتوقف ضلاله أو هداه على عنصر الصدفة لا غير •

وسواء فى ذلك قيم المواد المعطاة ، أو الطرق المتبعة أو نوع مواد الدراسة، فانها جميعا قد تحل لنا مشكلة الفراغ ، ولو حلا جزئيا ، اذ يحدث أحيانا أن ترتبط المهارة التى يكسبها التلميذ فى المدرسة — اما لنوعها ، أو لطريقة تكوينها عنده ، أو لقيمتها — برباط وجدانى سار يدفعه الى متابعتها، وانماؤها فى وقت فراغه •

لهذا وجب مراعاة عنصر الشوق الذاتى (Intrinsic Interest) ^(١) فى مناهج التعليم وأساليبه ، ووجب اعطاء عناية خاصة لوقت الفراغ •

وهناك حالة لتلميذ كان يشكو من نوبات عصبية ، وقد تبين من دراسة مشكلته أنه الى جانب شكواه ، كان يدخن وكان يمارس العادة السرية بافراط شديد ، وكان يعاقل الفتيات • وفى أثناء مناقشة مشكلاته هذه قال : انه ليس أمام التلميذ فى المرحلة الثانوية فى الصيف الا التدخين ، والمغازلة ، والعادة السرية • وليست هذه النواحي الا أساليب شغل بها التلميذ نفسه ، وما كانت لتظهر لو أنه وجد أساليب خيرا منها يملأ بها أوقات فراغه •

(١) J. Dewey : Interest and Effort in Education.

الشعور بالنجاح :

ويؤثر في حياة التلميذ داخل المدرسة عامل مهم ، ينشأ عن نظرتة الى مركز نفسه بالنسبة لبقية الأشخاص في هذا الجو ، أو بالنسبة لما ينتظر منه حسب ما هو معروف عن مقدرته . وهذا العمل هو مقدار شعور التلميذ بنجاحه . ونقصد هنا النجاح الاجتماعي ، والنجاح الشخصي — وان كان النجاح الشخصي في أصله نجاحا اجتماعيا . ويمكن أن تنظم المدارس بحيث لا يشعر التلميذ باخفاقه ، فتكون هناك مثلا وحدات تعليمية متجانسة الاستعداد . وبذلك تمحى الفروق العقلية الكبيرة بقدر الامكان ، لأن هذه الفروق تشعر المتأخر بنقصه ، وعجزه عن مداركة هذا النقص أو علاجه . كما أنها قد تزيد المتفوق غرورا بنفسه . وكل من الشعور بالنقص والشعور بالغرور ، قد يؤدي الى ظهور مشكلات عدة كالمعاكسة ، وكثرة النقد ، والكسل ، وأحلام اليقظة وغير ذلك .

وليس المقصود نحو الفروق هو منع المنافسة؛ ولكن الواجب منعها اذا كانت بالصورة التي يمتلئ بها الجو المدرسي أحيانا . ويجب كذلك ألا يتعرض لها بعض الناس تعرضا فوق ما تحتمل طاقتهم ، أو تحت ما تحتمل بدرجة كبيرة ، اذ لا مانع مطلقا من أن تتنافس القوى المتقاربة . ولكن لا يجوز أن يوضع في الفصل الواحد تلاميذ ذوو قوى متباعدة ، بحيث يغتر القوى ويكسل ، لشعوره بتفاهة العمل بالنسبة اليه . ولهذا السبب ينحدر كثير من الأذكياء في مستوى تحصيلهم ، وذلك لأن العمل المدرسي ليس من القوة والكفاية ، بحيث يتحدى قواهم العقلية تحديا كافيا . أما الضعيف فسرعان ما يستولى عليه اليأس ، وينصرف عن العمل المدرسي الى عمل آخر .

علينا كذلك أن نتذكر أن نواحي النشاط الاجتماعي من تمثيل ، وألعاب ، وموسيقى ، وهوايات وغيرها ، يجب أن تكون بحيث يبرز كل تلميذ في ناحية منها أو أكثر بحيث استعداده وميله . وبذلك يمكن لكل تلميذ أن يسدى

للمجتمع المدرسى ما يشعره بأنه فرد ذو قيمة اجتماعية ناجحة ، كما يشعره بأنه يعطى لهذا المجتمع كما يأخذ منه •

وكثير من التلاميذ لا يتقبلون الاخفاق العقلى ، أو الاجتماعى ، أو كليهما • فينزعون للتعويض عن أحدهما أو كليهما بطرق مختلفة كالكذب ، أو السرقة ، أو الانزواء ، أو الاعتداء ، أو غير ذلك • ولا شك أن جل الأجواء المدرسية بحالتها الراهنة ، لا بد أن ينقسم فيها التلاميذ الى طبقات عقلية أو اجتماعية • ولذلك نراهم يتجمعون فى وقت فراغهم فى مجموعات منفصلة بعضها عن بعض ، ونجد أن أفراد كل مجموعة متجانسون من الناحية العلمية أو الاجتماعية •

غير أن بعض التلاميذ ، كما يحدث فى مدارسنا المصرية ، يجدون صعوبة فى الانسجام مع المجموعة التى تلائمهم • وفى سبيل محاولتهم التغلب على هذه الصعوبة ربما انصرفوا عن السلوك السوى •

من أمثلة ذلك : حالة تلميذ فى إحدى المدارس الثانوية ، تكرر رسوبه فى السنة الثانية ، وارتكب عددا من السرقات ، وكان اتجاهه أن يسرق كتب زملائه ، وأدواتهم لبييعها ؛ وهذا التلميذ ابن لرجل لا يزيد دخله على ثلاثة جنيهات ونصف ، ويعيش فى جهة بعيدة عن المدرسة ، بحيث يضطر الولد الى المشى الطويل ، والى ركوب الترام • والولد هو الابن الأكبر ، ولم يرزق أبوه من بعده غير بنت واحدة • ولم يقطع هذا الرجل من التعليم الا مرحلة التعليم الابتدائى • وكانت نفسه تشاق الى أن يتم تعليمه • وازداد شغفه بالتعليم ، حتى رأيناه يقوم بتعليم زوجته الأمية ، كما كان يعلم أولاده بنفسه ، ويشرف عليهم اشرافا دقيقا ، يتخلله الضرب الشديد والايذاء •

وكان دخل الوالد عندما أنجب ابنه هذا فى مستوى أعلى من دخله الحالى بدرجة كبيرة ، وكان الولد مدللا ، تجاب له كل طلباته ، فنشأ الولد غير قادر على مقاومة رغباته الخاصة • فخرج الولد بعد انخفاض دخل الأسرة ،

وزيادة مسئوليات والده العائلية الى المدرسة محروما من تلبية رغباته ، غير متمرن على مقاومة نفسه • يضاف الى هذا أن انخفاض دخل الوالد ربما كان السبب في حنقه وقسوته على أولاده عند ملاحظته إياهم •

قطع الولد مرحلة الدراسة الابتدائية في مدرسة قريبة من المنزل ، ثم انتقل الى مرحلة التعليم الثانوى ، وفيها هبط مستواه بالنسبة لغيره من التلاميذ ، وربما كان سبب هذا الهبوط عدم ملاءمة ظروفه المنزلية لأداء واجباته ، أو حالته الانفعالية السيئة الناشئة من فظاظة معاملة والده له • كان هذا الولد متوسط الذكاء وكانت معاملة والده له تختلف تمام الاختلاف عما يجب نحو شاب في سن المراهقة • وبالإضافة الى ذلك فجو المدرسة خال من العمل المشوق ، وليس به نوع من الاتصالات الاجتماعية الصالحة بين التلاميذ بعضهم وبعض • أو بين هؤلاء ومدرسيهم ، فلا عطف ولا فهم ولا تقدير ولا توجيه ولا نجاح •

ويجب ألا ننسى أن الجو المدرسى كثيرا ما يسمح بظهور فوارق بين الطبقات يتميز فيها الفقر الشديد الى جانب السعة الواضحة • وتتضح عادة هذه الفروق وتبرز أهميتها حين يكون العمل المدرسى قليل التشويق ، عديم القيمة ، فتكتسب الفوارق بين الطبقات قيمة كبيرة في نظر التلاميذ • نرى مما تقدم أن هذا التلميذ لا يشعر بقيمته في المنزل أو في المدرسة من الناحية العلمية ، أو الاجتماعية ، فاندفع ليسرق • وربما التجأ الى السرقة كي يحقق مجموعة رغبات في وقت واحد • فهو يسرق كتب زملائه انتقاما للناحية التى كان يود أن يتفوق فيها وهى الناحية العلمية ، ويبيع هذه الكتب ليشتري بئونها لفافات (سجائر) وليذهب الى الخيالة ، مثل زملائه الأغنياء •

وتعليقا على هذه الحالة قد يقال : ان جو المدرسة ليس مسئولاً عن السرقة ، وانما المسئول عنها هو معاملة الطفل في منزله • غير أن المدرسة لو أعطت هذا التلميذ فرصة النجاح في أى عمل ذى قيمة ، لشعر بالرضا

عن نفسه ، ولم يتجه الى السرقة • ويجب أن نتذكر أن بكل تلميذ نواحى طيبة ، يمكن كشفها وإبرازها ، بحيث ينجح فيها ويشعر اذ ذاك بقيمة نفسه أمام اخوانه • فلا يجوز اذن ادخال التلميذ مدرسة ما ، الا اذا تمكنا من معرفة استعداداته وصلاحيته للنمو والترعرع فى جو هذه المدرسة •

ويلاحظ أيضا أن الشعور بالتمايز الاجتماعى ليس واضحا فى أنظار التلاميذ فى الصغر ، وأقل وضوحا فى المدارس الحديثة التجديدية منه فى المدارس المألوفة • ومن أسباب الظاهرة الأولى — على ما أعتقد — أن صغار الأطفال مشغولون عادة بلعب لذيذ ، صادر من غرائزهم الفطرية ؛ أى أنهم مشغولون عن أنفسهم بنشاط مشوق فى ذاته • ثم ان الشعور بالتمايز الاجتماعى شعور مكتسب ، توحى به البيئة المحيطة بطبقاتها المختلفة ، ويوحى به سلوك كل طبقة منها نحو غيرها من الطبقات • ولذلك فقد يكتسبه الطفل متأخرا فى حياته • أما الظاهرة الثانية ، ظاهرة انعدام التمايز الاجتماعى فى المدرسة الحديثة التجديدية ، فسببها — كما ذكرت — أن العمل المدرسى ان كان مشوقا فى ذاته ، وكان ذا قيمة حقيقية ، فانه يستغرق نشاط التلميذ واتباهه وجهده ، ويكون هو الأساس الوحيد للتمايز • وينعدم بذلك التمايز القائم على أسس أخرى سطحية ، عرضية ، زائلة • ولذلك كان نظام المدرسة وجوها عاملين مهمين فى تثبيت القيم غير المادية أسسا للتمايز ، ومحو القيم المادية التى لا يجوز أن يقوم عليها •

وقد يعترض بأن مجتمعا كهذا الذى نعيش فيه ، والذى يبرز فيه التمايز الاجتماعى المبني من أسسه على التمايز الاقتصادى ، لا يسهل فيه حل مشكلة الطبقات فى التعليم • ولكننا اذا غرضنا النظر عما يقترح أحيانا من انشاء مدارس خاصة ، أو تغيير شامل فى سياسة التعليم العامة كلها ، فان أية مدرسة يجتمع فيها تلاميذ من أوساط اجتماعية مختلفة ، يمكن أن تخفض قيمة التمايز الاجتماعى عند التلاميذ فيها الى أقل درجة ممكنة • هذا اذا خلقنا

جوا مدرسيا — عن طريق الأمثلة العملية وترسيخ التقاليد الدائمة — يحترم النواحي ذات القيم الحقيقية المبنية على المثل العليا الخلقية كالدقة في العمل ، والأمانة ، والصراحة ، والاخلاص الاجتماعي ، وغير ذلك ، وإذا ما أهمل القائمون بالأمر الفروق الناشئة عن التمايز الاجتماعي الاقتصادي تمام الاهمال • ويمكن كذلك أن نخفض قيم هذه الفروق عن طريق التفاعل الاجتماعي المستمر بين التلاميذ ، تفاعلا تسوده مصلحة الجماعة التي ينتمى إليها التلميذ ، ويقوم على العدل الاجتماعي بين أفرادها • ويلاحظ أن جميع القيم الاجتماعية التي نحتاجها في المجتمع الأكبر يمكن غرسها بصورة راسخة في مجتمع المدرسة وكذلك في مجتمع المنزل •

الحياة الاجتماعية :

يترتب على كل ما تقدم وجوب وجود جو مدرسي عام ، له وحدة متماسكة تماسكا تاما ، ويسهل على الطفل أن يجد مكانا فيه كما يسهل عليه أن يتفاعل مع عناصره تفاعلا يترتب عليه فهمه لنفسه وفهمه لغيره على أساس صحيح • ويترتب عليه أيضا نشوء عاطفة حب وانتماء للمجتمع المدرسي ، يسهل عليه الانتقال من الاتكال على المنزل ، ويحرره منه تدريجيا حتى يندمج في مجتمع المدرسة اندماجا لا يفقده احترامه لذاته ، ويحتفظ فيه بكيان فرديته • ويجب أن يكون هذا النوع من التفاعل ، بحيث يؤهل للاندماج في البيئة الاجتماعية الكبرى خارج المدرسة ، كما يجب أن يكون بحيث يشعر التلاميذ بحبهم لبعضهم البعض ، وتقدير الواحد منهم للآخر • ويكون هذا النوع من المجتمع في العادة مجتمعا سعيدا منتجا لا يثور عليه التلميذ (ولا يضرب عن العمل فيه لأتفه الأسباب) ، ولا يحاول أن ينتقم من أفراد ، أو يتعد عنه ، بل بالعكس يحاول أن يندمج فيه ، ويعمل لصالحه • والمجتمع الذي ينتمى إليه الطفل في المدرسة سواء أسمىناه أسرة ، أو أى اسم آخر ، يجب أن يتصف بالحرية مع مراعاة صالح الغير ، وأن يتصف كذلك بالمساواة

في مبدأ المعاملة ، والعدالة الاجتماعية ، والمقولية ، والنشاط ، والحماس ، والاتاج ، والتقدم ، والترقى ، مع ثبوت المبادئ والتقاليد والدساتير التي يسير عليها المجتمع المدرسى •

ولا يمكن بالطبع أن نفعل كيف يتأثر الجو المدرسى بالجو الاجتماعى العام تأثرا في الاتجاه السيئ أو الصالح • ومع ذلك فيجب أن ننظر الى الجو المدرسى على أنه وسيلة لاصلاح المجتمع • ويتوقف مبلغ نجاح المدرسة في هذا الاتجاه على المدرسة نفسها وقدرة من تخرجهم في الاصلاح الاجتماعى ، كما يتوقف أيضا على حالة المجتمع الأكبر ، وعلى مبلغ استعدادة لقبول هذا الاصلاح •

نوع المعاملة السائدة في المدرسة :

ومن أهم العوامل التي تؤثر في الجو العام للمدرسة المعاملة السائدة من قبل النظار والمدرسين والمشرفين • ومن المعلوم أنه يجب أن تكون هناك سياسة ثابتة ؛ وهذه لا تبنى على أساس السلطة الضاغطة ، التي لا بد أن يترتب عليها نظام شكلى مؤقت • وقد يبدو هذا النظام كاملا ولكنه يزول عادة بزوال ما يعمل فيه من ضوابط ؛ وانما يجب أن تقوم سياسة المدرسة على التوجيه والارشاد المبني على العطف على التلاميذ ، ومراعاة صالحهم ، وفهم نزعاتهم ، ودوافعهم الداخلية • وهذا العطف يجب أن يصحبه الحزم ، وألا يشوبه التراخي والتذبذب بين الشدة واللين • وهذا النوع من الدستور لا يمكن النظر اليه منفصلا عن الجو المدرسى العام وعوامله الأخرى من حياة اجتماعية ، وطرق تعليمية ، وتنظيم مدرسى ، وغير ذلك •

ولا يقصد بالسياسة الثابتة أن تكون هناك حلول معينة جامدة لكل مسألة ، وانما يقصد بها أن يكون هناك أسلوب واحد للروح التي تعالج بها المواقف المتشابهة ، فلا يجوز أن تعامل المواقف المتشابهة معاملة متناقضة • ويترب على ثبوت السياسة شعور بالعدل الاجتماعى داخل المدرسة •

وبوجود العدل الاجتماعى ينمى أهم عامل يترتب عليه استهتار بعض التلاميذ ، وكراهية بعضهم الآخر لزملائهم ومدرسيهم ، وشعورهم بانعدام الاطمئنان للمدرسة وما فيها ، مما يترتب عليه كثير من أنواع السلوك الشاذ ، كالاغتهاء واستعمال العنف • والسرقه والغش ، والحقد ، وإثارة الاضطرابات وما شابه ذلك •

وللسياسة الثابتة أهمية أخرى ؛ هى أنها تسهل على التلميذ سرعة الوصول الى تقدير قيم السلوك • ولكن السياسة المتغيرة يضرب الطفل غالبا أمامها ، فلا يعرف الفرق بين ما يجب أن يعمل وما لا يجوز أن يأتيه من أعمال •

أضف الى هذا أن الجو الثابت ، المشبع بالعطف مع الحزم ، يطمئن اليه الطفل ، ويكيف سلوكه وموقفه عادة نحو هذا الجو ، مهما كان تكوينه الأول فى المنزل • فالطفل الذى دله والداه فى منزله قد يجد صعوبة فى أول الأمر ، ولكنه سرعان ما يتعود نظامه • والطفل الذى سبق له أن عاش فى جو جاف قاس ، لابد أن يرحب بما فى الجو الجديد من عطف •

وإذا توافر ما ذكرناه من حزم ، وعطف ، وفهم ، وتقدير ، قلت الحاجة الى أساليب النظام الشكلى ، والى اهتمام السلطة بوجوب الطاعة العمياء وغير ذلك ، مما يتضمن عادة خوف السلطة على سلطانها •

المدرسة ومشكلات النشء :

يتبين مما تقدم ، ومن بضع الحالات التى أشرنا اليها ، أن للتلميذ حاجات أساسية ينزع الى اشباعها وهو يشبعها عادة فى أثناء تعامله مع البيئة التى يعيش فيها • ففى حياته الأولى قد يكون متمتعاً ببيئة تشبع له حاجاته ، وقد يكون فى بيئة تعطل هذا الاشباع ، أو تقف دونه • وإزاء هذه العقبات تحدث أساليب عديدة للتكيف • ويغلب أن تكون أساليب السلوك الشاذة

— سواء آكان ذلك كسلا ، أو عصبية ، أو سرقة ، أو كذبا ، أو غشا ، أو تدخينا ، أو تمارضا ، أو تمردا ، أو أغمالا جنسية ، أو غير ذلك — أساليب تعويضية أو دفاعية ، تشتق فكرتها الأخيرة من البيئة • وقد تكون هذه البيئة التى يجد فيها الطفل الفكرة ، هى البيئة الكابتة أو غيرها مما يشبهها •

مثال ذلك : حالة الطالب الذى كانت تصيبه نوبات عصبية ، ووصفته المدرسة بأنه عنيد جدا فهو لا يؤدى واجبا ، ويكثر من التغيب ، ويكثر من احراج المدرسين فى الأسئلة التى يوجهها اليهم • واذا وقع الناظر أو أحد المدرسين عليه عقابا يرفض تنفيذه ويحاول تبرير اتجاهه هذا بأن العقاب الذى توقعه عليه المدرسة ينبو عن المعقول • ولذلك تعقدت العلاقة بينه وبين معلميه وناظره تعقيدا أدى الى ضرورة التخلص منه ، فذهب الى مدرسة أخرى ، ثم الى الثالثة ، وهكذا •

ولعل سبب ثورة الولد على السلطة فى المدرسة هو تشابهها مع سلطة والده • وكان لأمر ما أثرا عليها • فحدث تحويل من ثورته على والده — ولا يمكنه أن يعبر عنها اطلاقا — الى ثورته على السلطة على وجه العموم ، بما فى ذلك سلطة المدرسة •

وكان الولد فى أثناء مناقشته يعيب على المدرسين والنظار ، أنهم لا يحاولون فهم تلاميذهم ، وأنهم يعاملونهم « كقطع من الخشب » فلا يحترمونهم ولا يقدرونهم ولا يدركون أن بينهم فروقا من أى نوع • والمشكلة هنا نابعة أصلا من المحيط العائلى • ولكن جو المدرسة ، وقد كان فى امكانه أن يخفف من أثرها ، زادها صعوبة وتعقيدا • والمدرسة لم تخلق فى هذه الحالة مشكلة جديدة ، ولكن المشكلة التى وضعت بذورها فى المنزل ، ساعدت المدرسة على ابرازها ، بدلا من أن تساعد على حلها • فالجو المدرسى اذا توافر فيه العطف ، واحترام شخصيات التلاميذ ، وعدم

وضعهم في مأزق تسبب الاخفاق ؛ واذا كانت الطرق المتبعة معهم شائعة ،
والعلاقات الاجتماعية علاقات متينة سعيدة يشعر التلميذ فيها بالانتماء
للمجتمع المدرسى ، أمكن أن تقوم المدرسة بتخفيف أثر المنزل أو علاجه
في مثل هذه الحالات .

وتكون المدرسة أحيانا عاملا أصيلا في ظهور الكذب ، أو الغش ،
أو أحلام اليقظة ، والبحث عن اللذة غير الموجهة ، لما قد يكون فيها من انعدام
العدالة ، وسوء استعمال السلطة ، أو سوء أساليب التدريس ، أو عدم
صلاحية المدرسين للتلاميذ أو غير ذلك مما سبق أن فصلناه .

والمدرسة اذا فهمت رسالتها فهما واضحا ، واذا أدرك من فيها حقيقة
الصلة بين المدرسة والمنزل من ناحية ، وبينها وبين المجتمع الأكبر من ناحية
أخرى ، فانه يمكن أن تهيم جوها بحيث ينال التلميذ مرانا كافيا على
الصفات الخلقية التى يحتاجها المجتمع والتى نشكو عادة أنها تنقصه .
والدخول في تفاصيل الكيفية التى ينفذ بها هذا يتطلب مباحث مطولة ليس
هذا مكانها .

المراجع

- Adler : The Education of Children.
Craig : School Life and Mental Instability.
C. Miller : The New Psychology and the Teacher.
G.H. Green : Psycho-analysis in the Classroom.
Gruenberg : The Guidance of Childhood and Youth.
Hildreth : Psychological Service for School Problems.
Neill : The Problem Child.
Neill : The Problem Teacher.
Neill : The Dreadful School.
Sayles : The Problem Child in School.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
Symonds : Mental Hygiene of the School Child.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.
Valentine : The Difficult Child and the Problem of Discipline.

الفصل الثاني عشر

المعلم وعلاقته بالتلميذ

مقدمة :

سبق أن تكلمنا عن المدرسة وأثرها في تكوين النشء • وحيث أن المعلم هو أهم عامل في الجو المدرسي ، فمن الواجب أن نقر له مبحثا خاصا • والمعلم هو العامل المفروض أنه يأخذ بيد الطفل ، ويعده أو يساعده على التهيؤ للحياة المستقبلية • ويعد المعلم لهذا العمل أحيانا بمحض رغبته ، وأحيانا تدفعه الظروف القاهرة دفعا لهذا الاعداد • وكذلك الطفل ، مخلوق يرسله البيت أول الأمر الى المدرسة على غير ارادته في كثير من الأحيان • وهذان الطرفان عندما يتقابلان يكون كل منهما وحدة معقدة ، وراءها تاريخ طويل جدا • فالمدرس محمل بآثار طفولته ومشكلاته فيها ، وما يطرأ في أدوار نموه من مشكلات مختلفة • وهو متأثر كذلك باختياره لمهنته أو إجباره عليها ، ودرجة حبه أو كراهيته لها • ويحمل في نفسه نوع نظرتة لمهنته ، من حيث انها مجرد أداة لكسب العيش ، أو من حيث شعوره بتوافر الكرامة لنفسه عن طريقها • ويحمل كذلك درجة شعوره بمسؤولياته ورسالته • وللمدرس فوق كل ذلك مشكلات حياته الخاصة ، وغير ذلك • ويأتي الطفل كذلك الى المدرسة يحمل آثار حبه لوالديه أو كراهيته لهما ، وغيرته من اخوته أو حبه لهم ، ويحمل آثار النمو الطليق أو النمو المقيد ، وغير ذلك من آثار نموه وصعوباته في البيئة غير المدرسية • يتقابل هذان الطرفان المعقدان ، فيطلب منهما أن يكيف كل منهما نفسه للآخر ، تكيفا يكون في العادة محدودا ومرسوما من قبل • وتحدث المحاولة للتكيف في ظروف قد تكون أحيانا ملائمة ، وأحيانا غير ملائمة لنجاح التكيف المطلوب •

درجة شعور الطفل بالحاجة الى المدرس :

ولكن ما مبلغ حاجة الطفل النفسية للمعلم ؟ يهتم الطفل في مراحله الأولى — كما نعلم — بالحاجات الأولية من مأكله ، وملبسه ، وحماية حياته . والى جانب ذلك يشعر بالحاجة للاتصال بالعالمين المادى والاجتماعى ، ليقف على أسرارهما ، حتى يكون أقدر على التكيف المطمئن لهما . أما الحاجات الأولية ، فانه يعتمد فيها غالبا على والديه ، وأما حاجته للوقوف على أسرار العالم المحيط به ، فانه يشبع كثيرا منها قبل مجيئه الى المدرسة عن طريق اللعب . ولذلك لا يشعر الطفل فى أول الأمر بحاجة قوية للمعلم ؛ ولكنه على الرغم من ذلك يوضع فى كنفه ، فيفرض المعلم سلطته عليه . وهنا توجد حاجة المعلم الى السلطة ، لأن ما يعطيه الطفل كثيرا ما لا يمت لنفسه بصفة كبيرة . ولكن المعلم الماهر ، المحب لعمله ولتلاميذه ، يمكنه أن يخلق الجو الذى ينمو فيه الطفل نموا يتفق مع طبيعته من ناحية ، ومع حاجات المجتمع من ناحية أخرى . وكلما كان الجو متقنا وطبيعة الطفل ، قلت الحاجة الى ما نألفه من السلطة المعروفة الضرورية لحفظ النظام .

درجة اغتباط المعلم بعمله :

ومما يؤثر فى علاقة المعلم بتلميذه درجة تحمس المعلم لعمله واغتنباطه به ، ولكى نوضح هذا يجب أن نوازن بين عمل المدرس وعمل بعض أصحاب المهن الأخرى . فالمدرس يأتيه عدد من الأطفال مرغين عادة ، فيجلسون فى غرفة واحدة ، يدرسون عليه أو يتعاملون معه . وعليهم فى العادة أن يتقبلوا ما يلقنهم ، والا ساءت نهايتهم . ولكن هب أن هؤلاء الأطفال يأتون بمحض ارادتهم ، فهل لو تركوا وحريرتهم التامة ، يستمرون معه ؟ أغلب الظن أن الجواب يكون بالنفى . والمدرس يحس احساسا خفيا بهذا . ولهذا السبب يختلف موقفه عن موقف الممثل من عمله ؛ إذ أن الممثل يأتيه الناس من تلقاء أنفسهم ليستمتعوا به . ولذلك فلا حاجة به — ان كان

ناجحا في عمله — الى محاولة حفظ نظام من أى نوع • ولهذا نجد أن كلا من الممثل والخطيب الحر يشعر باغتراب شديد من عمله • ولكن المدرس العادى الحالى لا شك أنه لا يشعر بنفس الدرجة من الاغتراب • واذا أراد أن يشعر بها حتى يتحمل عمله عن طيب خاطر ؛ بل ليقبل عليه متحمسا جادا أيضا ، وجب عليه أن يغير فى أساليبه ومناهجه ونظمه ... الخ ، بحيث تكون التلبية من تلاميذه جالبة للغبطة والحماسة • وهذا ممكن الى حد بعيد •

وهناك أمر آخر يتميز به عمل المدرس دون كثير من الأعمال ، وهو أن أغلبها ذو نهاية محسوسة • فالمهندس مثلا يمكنه بعد فترة معينة أن يرى طريقه ، أو جسره ، أو منزله ، أو تصميمه ، أو غير ذلك • والطبيب كذلك يمكنه أن يرى نهاية علاجه بطريقة محسوسة • وعلى العموم نجد أن كثيرا من المهن يشعر صاحبها بأن قطعة محسوسة من عمله قد انتهت • ففكرة النهاية — وخصوصا النهاية الملموسة بالحواس — غير موجودة لدى المعلم ، ولذا كان احتمال اشتقاقه لذة من عمله فى الصورة التى نألفها اليوم أقل من احتمال اشتقاق المهندس أو الطبيب للذة من عمله • ولكن اذا علم المدرس هذا فى ضوء ما سبق ، يمكنه أن يمارس عمله بحيث يستشعر تتيجه استشعارا يجلب له الغبطة • وتساعد الطرق الاحصائية والتجريبية الحديثة على تحقيق هذا ؛ اذ يمكن تطبيقها مع اشتقاق لذة كبرى فى فهم العلم لمشكلات التعليم عامة ، والمشكلات الخاصة التى تقابله فى كل يوم ، وفى شعوره بالنجاح عند كشفها وتحديدها ، وجمع الحقائق لفهمها ثم تفسيرها والتغلب عليها •

وهناك عامل آخر قد يقلل من درجة غبطة المعلم بعمله ، وهو التكرار ، وندرة التجديد ؛ فالمعلم قد يقوم بتدريس منهج معين سنة بعد أخرى ، أو قد يعلم الدرس الواحد مرتين أو أكثر فى أسبوع واحد • وأحيانا يعلم الدرس أكثر من مرة فى اليوم الواحد •

هذه العوامل الثلاثة وغيرها ، تشترك في تحديد ما يشعر به المعلم العادي من الغبطة في عمله ، وتؤثر في حالته النفسية • ولها كذلك أثرها في علاقته بتلاميذه سواء في ذلك العلاقة التعليمية أو العلاقات الأخرى •

ويلاحظ أن معرفة المعلم لهذه العوامل تجعله أقدر على التحكم فيها بدلا من الخضوع لها •

قسوة المعلمين :

أتقل الآن الى نقطة شائعة ثابتة في أذهان الناس ، وهي اقتران المعلم بما يظهر منه أحيانا من قسوة وشدة ، وخوف المتعلم منه تبعاً لذلك • ويمكننا أن نشير هنا الى ما سبق أن ذكرناه عن معاملة الآباء للأبناء ، ودرجة تدخلهم في أعمالهم ، وموقفهم من الثواب والعقاب ، وما يجب أن يفهموه من معنى الطاعة ومعنى السياسة الثابتة المقررة بالعطف المعقول • ونشير كذلك الى ما سبق أن ذكرناه عن نوع المعاملة التي يجب أن تسود جو المدرسة • ولكننا نقصد أن نخص بالذكر هنا ما يعرف عن قسوة المعلمين • يغضب المعلم عادة اذا حدث ما يمنع تحقيق رغائبه الخاصة • فهو يغضب اذا أهينت كرامته عن طريق مباشر أو غير مباشر ، أو اذا كان مصدر رزقه^(١) أو ما يشبهه في خطر جزئي أو كلي ، أو غير ذلك • وهو اذا ما غضب قد يثور ، وحينذاك يكره التلاميذ تصرفه ، ولا يستفيدون من غضبه هذا أية فائدة تعليمية •

ويغضب المدرس أيضا متى كان هناك شعور خفي بعجزه عن تناول الموقف بأية طريقة أخرى • والغضب وما يتلوّه من اعتداء يترتب عليه خلق روح العداء بين المعلم والمتعلم ، ويتبع ظهور هذه الروح أن يقل أو ينعدم ما يستفيده التلميذ من المعلم • والغضب بدرجاته المختلفة قد يكون منظويا على حب القسوة • وللقسوة تفسيرات كثيرة في علم النفس ، منها أن الانسان

(١) راجع الفاية من المدرسة في فصل المدرسة ومشكلات النشر (ص ٢١٢ - ٢١٥)

— بما قد يكون عنده من نزعات شريرة مكبوتة — قد يتولد عنده ما يسمى « احساس الذنب » تتبعه رغبة لا شعورية في عقاب الذات وعقاب غيرها •
أو قد تكون القسوة نابعة من ميل مكبوت للانتقام يتكون في حياة الطفولة •
وليس لدينا من حالات المدرسين ما يمكننا تحليله لنصل الى هذه النتائج •
ولو أن القسوة عند الآباء كما درسناها ، منشؤها الاحساس بالذنب أو حب الانتقام • وكل من هذين يتكون عادة في الأيام الأولى من حياة المدرس أو حياة الوالد •

ولا يقتصر ظهور القسوة على صورة العقاب البدني الشديد لأقل سبب ، وانما تظهر أيضا في صورة نقد ، أو تهكم ، أو توبيخ ، أو إبراز للأخطاء ، أو ارهاق بالعمل ، أو شدة في وضع النظم وتطبيقها أو غير ذلك •
ومهما كانت الصورة التي تظهر عليها القسوة ، فانه يترتب عليها غالبا كراهية لا تظهر عادة كرد مباشر للسبب الأصلي • وقد تظهر في صورة مستترة أو ظاهرة نحو المدرس وأمثاله أو ما يماثله من قوانين ونظم • فربما يظهر أثر القسوة في الثورة العاجلة أو الآجلة نحو المعلم أو ما يشبهه ، أو يكون لها أثر الانكماش الذي يسمى الطاعة أحيانا • والقسوة من جانب المعلم ، وما يترتب عليها من الخوف أو الكراهية من جانب المتعلم ، تؤدي كلها الى عكس المقصود من غاية التعليم •

مشكلات المعلم ومشكلات المتعلم :

ويرجع جزء كبير من علاقة المعلم بالمتعلم الى عوامل خارجة عن ارادة كل منهما خروجاً تاماً ، وذلك لأن المعلم والمتعلم كما سبق أن بينا طرفان يتقابلان ، وكل منهما محمل بأثر الماضي والحاضر وبنوع نظرته للمستقبل •
فالتلميذ قد يأتي الى المدرسة كارها لأبيه مثلاً بسبب قسوته عليه ، فيجد في المدرسة منفساً لا يستطيع أن يجده في المنزل • وقد تنتقل الكراهية الناشئة عن قسوة الأب الى المعلم بحكم ما بين المعلم والولد من أوجه شبه

فى عقل الطفل • وربما قام التلميذ بالثورة على المعلم ومعاكسته ، والاخلاق
بالنظام مدة طويلة ، ولغير مبرر كاف • فيلزم ألا يقابل المعلم سلوك التلميذ
بما يزيد فى هذه الكراهية نحوه ، وانما ينبغى أن يقابله بما يخففها بالتدريج •
ويحدث أحيانا أن يكون لدى الطفل مشكلات حديثة العهد ، كشجار عائلى
بين أمه وأبيه ، أو مرض أحد والديه ، أو تدهور اقتصادى ، أو سوء علاقة
بينه وبين أبيه ، أو تأخر فى الصحة ، أو غير ذلك • فإذا ظهرت أعراض هذه
الأحداث أمام المعلم ، وجب عليه أن يقابلها بالصبر والأناة والدرس والتفهم
وحسن التوجيه •

أما المدرس فله أيضا مشكلات عدة تلقى بأثرها على المتعلم وعلى عملية
التعليم • ومن هذه المشكلات نتائج التربية الأولى • فربما ينشأ المعلم وقد
تكونت لديه من صفه دوافع خفية نحو الانتقام • فيجد فى صغار التلاميذ
أمامه مجالا سهلا لهذا الانتقام يظهر — كما قلنا — فى الضرب وتقييد الحركة
والإرهاق والتشديد فى الامتحانات وغير ذلك •

وقد يكون عند المدرس من حياته عقدة نقص يحاول التعويض عنها
فى مهنة التدريس ، وفى التدريس مجال لهذا التعويض قل أن يوجد فى
مهنة أخرى •

وقد يكون المدرس كارها لمهنة التدريس على الرغم من ممارسته لها
بسبب اخفاقه فيها ، أو بسبب خطورة مسئولياتها وكثرة صعوباتها ، وعدم
تقديره درجة قصوره فيها عند بدئه ممارستها • وقد تظهر كراهيته للمهنة
ضد الأطفال أنفسهم ، أو تظهر فى شكل حساسية شديدة فى العمل • وقد
يفقد اتزانه تماما فى أثناء قيامه بعمله ، بحيلة من الحيل اللاشعورية •

هذه كلها مشكلات أسبابها قديمة فى تكوينها ، بعضها يرتبط بالمهنة ،
وبعضها لا يرتبط بها ، ومع ذلك يكون لها أثر فى علاقات المعلم بالمتعلم
وبالعكس •

وهناك فوق ذلك ظروف حاضرة تؤثر في علاقة المعلم بتلاميذه عن طريق ما يسمى بالتحويل أو الاسقاط أو غيره (ص ١٣٢، ١٣٤) • وقد يكون من هذا قلة المرتب والعين وضغط الامتحانات والمفتشين والنظار • الخ • وقد يكون من هذا أيضا ما يحدث في نفسه من صراع بين أصول التربية الحديثة التي تعلمها في أثناء اعدادة ، والتربية المألوفة الشائعة التي يضطر لاتباعها دون الموافقة على شيء منها • وقد يكون من هذا أيضا درجة تقدير الدولة له ، وموازنة نفسه من حيث المكانة الاقتصادية أو الاجتماعية بأصحاب المهن الأخرى •

وقد يكون من هذا مشكلاته في الأسرة أو في العلاقات الزوجية والمشكلات الاقتصادية وغير ذلك •

ومن ثم يأتي المدرس محملا بهذه المشكلات ، بعضها أو كلها ، فيقف أمام ثمر من الأطفال ، كل له مشكلته ، وتاريخه ، ويكلف حينذاك أن يظهر بأحسن خلق ممكن ، وأن يكون لتلميذه — مهما صدر منه — في مقام المرشد والأخ الأكبر •

ليس معنى ما تقدم أن نرسم صورة قائمة عن الموقف ، ولكن الغرض هو أن نبين كيف أن علم النفس يساعدنا على أن نكشف مشكلاتنا بصورة صحيحة فنصبح أكثر مقدرة على التحكم فيها •

المعلم قائد أو مرشد للطفل :

والمدرس في ميدان التعليم قائد للأطفال ، فبحكم خبرته ، ورجاحة تفكيره ، وبحكم وجوده معهم في مجتمع واحد ، يصبح هو المتبرع ويصبحون التابعين • وفي هذه الحالة ننتظر أن تكون علاقة المعلم بتلاميذه اما علاقة من يأمر فيطاع ، واما كعلاقة الأخ الأكبر باخوته الصغار • أما العلاقة الأولى ، وهي علاقة من يأمر فيطاع ، فهي ان دامت ، فلفترة قصيرة • ويصح أن نسأل في هذه الحالة : أيطيع الطفل معلمه لأن المعلم يريد منه أن يطيع ، أم أنه

يطيعه لأن الطفل نفسه يريد ذلك ؟ ويصح أن نسأل كذلك عما يقصد بمعنى الطاعة ؛ أي فهم منها مجرد الاستسلام والخضوع ، أم يفهم منها الاسترشاد وتقبل التوجيه المعقول ؟

وأما الحالة الثانية ، وهى التى تكون فيها علاقة المعلم بتلاميذه كعلاقة الأخ الأكبر بأخوته الصغار ، يهيم لهم الجو ، ويعيش معهم فيه ، ويشترك معهم فى كل نواحي نشاطهم ، فأننا ننتظر فيها أن يكون المعلم أقل صرامة منه فى الحالة الأولى ، كما يكون أقدر على مشاركة الأطفال فى حياتهم . ولكن الى أى سن يمكن المعلم العادى أن يعيش مع الأطفال بروح الطفولة أو بروح الأخ الأكبر ؟ تتوقف الإجابة عن هذا السؤال على عوامل عدة منها عمر الأطفال أنفسهم ، ومنها بعض العوامل النفسية الخاصة بالمعلم ، والتى قد تكون خارجة عن حياته المهنية ، وعوامل نفسية أخرى مشتقة من حياته المهنية نفسها . ويلاحظ أن المعلم أحيانا تقل قابليته ومقدرته على الاشتراك الفعلى مع الأطفال فى حياتهم كلما تقدم فى العمر بعد سن معينة ، وتقل تبعاً لذلك مقدرته على قيادته لتلاميذه قيادة الأخ الأكبر لأخوته الصغار . وهناك حالات كثيرة لمعلمين يحتفظون بروح الطفولة ، وبالقدرة على حسن التعامل مع تلاميذهم الى أعمار متقدمة جداً وذلك بالنظر لقوة شخصياتهم وطول مرانهم وهؤلاء هم المثل الذى يجب احتذاؤه .

وإذا كان المدرس قائداً يقتدى به الأطفال ، فهل يظهر لهم على طبيعته ؟ أم يظهر لهم كنموذج مثالى عال يصعب عليهم التمثل به ؟ وأعتقد أن المعلم يجب أن يظهر على طبيعته ، لأن الظهور بغير ذلك تفاق ورياء يحسه الأطفال فى العادة . ومتى أحس الأطفال بروح الرياء فى شخص ما . فإنهم لا يطمئنون إليه ، ثم انهم قد يكسبون منه صفة الرياء ، وقد تتولد فيهم الكراهية له ، خصوصاً إذا كانت هذه الصفة تتعارض تعارضاً كبيراً مع وظيفته . وفوق ذلك فتكلف الظهور بمظهر نموذجى عال جداً قد يغطى الطفل صورة

يستحيل معها تحقيقها في نفسه ، وبذلك قد يئس من اصلاح نفسه ، ويترتب على هذا اليأس ما يترتب عادة من شعور بالنقص واحتقار للذات وما شابه ذلك من نتائج • ولذا وجب أن يظهر المعلم للأطفال على طبيعته في حدود ما تتطلبه حياة الجو المدرسى القائم • وإذا لم يمكن المعلم أن يفعل ذلك نظرا لتأصل بعض الصفات السيئة في نفسه التى يصعب التغلب عليها ، والتى يتحتم ظهورها في الجو المدرسى ، فليس خليقا به أن يمتن التدريس اطلاقا •

تنقلنا هذه النقطة الى نقطة أخرى قريبة جدا منها ، وهى التكلف في المظهر • فأغلب المدرسين يرون (أو كانوا يرون الى عهد قريب) أن مظهر الوقار ضرورى لهم ، والا فقدوا سلطانهم ، وساء النظام الضرورى لسير العمل • ولكن سيكولوجية الظهور بمظهر الوقار والتكلف بسيطة واضحة ، فالمرء يلجأ للوقار عادة بطريقة لا شعورية حتى يدفع عن نفسه مظنة معينة ، كالجهل أو التقاهة أو القصور في أية ناحية من النواحي • فالوقار هو ما يعطى الانسان به نفسه حتى لا يكشفه غيره • وإذا كان المدرس وقورا جدا ، فانه لا يمكنه النزول عادة الى مستوى الأطفال ، ولا أن يندمج معهم ، لأن الوقار المصطنع والطفولة لا يندمجان بسهولة •

وبسبب تمسك بعض الناس بالظهور بمظهر الوقار نرى المجتمع الذى ينتمون اليه مقسما الى طبقات نميز فيها بين الضعة والتظاهر بالعظمة^(١) ، ولذا كان التمسك بالتكلف منافيا لروح الديمقراطية في التعليم •

والتخلص من غلاف الوقار يظهر المعلم طبيعيا صريحا مخلصا ، ولكن التكلف فيه ينفر التلميذ منه ، ويوحى اليه بأنه يتصف بطابع التمويه والرياء ، فاذا نجح المعلم في التخلص من هذا الغلاف أوحى الى تلميذه بأنه يتخلق بالصراحة والاخلاص ، وجعله يشعر بالاطمئنان اليه • وعندما يكشف

(١) لذلك يسهل فهم حكمة تقاليد الحج في خلع الملابس العادية والاكثفاء بالازار ، لأنها تزيل غلاف الوقار الصناعى الظاهري ، وبذلك يتحقق نوع من المساواة يحس به الحجاج ، ويطربون له أشد طرب •

التلاميذ نواحي القصور في معلمهم يصح له أن يفسرها ، ويفسر ضررها ،
وينصحهم بعدم التخلق بها ويبين لهم صراحة وجه صعوبة تخلصه هو منها ،
ووجه تضايقه منها * ومثل هذا الاتجاه يمكن أن يؤخذ مثالا في حالة التدخين.
على أن يكون المعلم مخلصا في ذلك *

فكان الصورة التي يجب أن يكون عليها المعلم هي أنه أخ أكبر ،
مكتشف ، على طبيعته ، يسترشد به الأطفال ، يطيعونه ، يحبونه ، ويحيا
معهم حياتهم ، ويبادلهم حبا بحب واحتراما باحترام ، ويشعرون أنه يعمل
لصالحهم بحماس واهتمام *

المراجع

- Adler : The Education of Children. Ch. X.
Craig : School Life Mental Instability.
Gates and others : Educational Psychology.
G.H. Green : Psycho-analysis in the Classroom.
Gruenberg : The Guidance of Childhood and Youth.
Hildreth : Psychological Service for School Problems.
C. Miller : The New Psychology and the Teacher.
Neill : The Problem Child.
Neill : That Dreadful School.
Neill : The Problem Teacher.
Sayles : The Problem Child in School.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
Symonds : Mental Hygiene of the School Child.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.
Valentine : The Difficult Child and the Problem of Discipline.

الْبَابُ الثَّالِثُ

مشكلات تربية النشء

- الفصل الثالث عشر : المشكلات المتعلقة بالتغذية •
- الفصل الرابع عشر : » » بالنوم •
- الفصل الخامس عشر : التبول اللاارادى •
- الفصل السادس عشر : } الحركات العصبية • مص الأصابع وقرض
الأظافر }
- الفصل السابع عشر : صعوبات النطق •
- الفصل الثامن عشر : الخوف وضعف الثقة بالنفس •
- الفصل التاسع عشر : الكذب •
- الفصل العشرون : السرقة •
- الفصل الحادى والعشرون : الميل للاعتداء والتشاجر ونوبات الغضب •
- الفصل الثانى والعشرون : التخريب •
- الفصل الثالث والعشرون : الغيرة •
- الفصل الرابع والعشرون : التأخر الدراسى •
- الفصل الخامس والعشرون : المشكلات الجنسية •
- الفصل السادس والعشرون : التربية الجنسية •

الفصل الثالث عشر

المشكلات المتعلقة بالتغذية

مقدمة عامة :

شرحنا في البابين السابقين أهم الأسس التي يمكن أن نستند عليها ، لتتبر لنا السبيل لاقامة دعائم الصحة النفسية • وتفيدنا معرفة هذه الأسس في حالات السويين والمرضى • ووضحنا ما أثبتناه من مبادئ مستعينين بالحالات التي درسناها ، وبعدد قليل من الحالات اقتبسناه من دراسات الآخرين • ونرمي في هذا الباب الى دراسة بعض المشكلات التي تقابلنا في تربية النشء • وحيث ان أهم المشكلات تنبع أصلا من تلك التي تظهر في مرحلتى الطفولة والمراهقة ، فقد اقتصرنا على هذه ؛ اذ أن دراستها تمكننا من وقاية النشء ، مما قد يظهر عند اكتمال نموه من مشكلات أكثر رسوخا وأشد خطورة • وسنبداً بمشكلات الطفولة الأولى ، وغايتنا أن يستتير الآباء ومن لهم صلة وثيقة بالأطفال في هذه المرحلة في طرق معاملتهم ؛ حتى يتمكنوا من مواجهة المواقف البسيطة بأسلوب حكيم يحل المشكلة ، والى جانب حلها ، يمنع ظهور ما هو أخطر منها في المستقبل • وتبدأ مشكلات الطفولة الأولى من وقت الولادة مرتبطة بتغذيتهم ، ونومهم ، وعاداتهم ، وحالتهم الصحية الجسمية ، وما الى ذلك • والتغذية من أولى هذه المسائل وأهمها •

وقد يسأل سائل : وما الصلة بين التغذية والصحة النفسية ؟ ولكن سبق أن بينا بعض ما يجيب عن هذا السؤال ؛ عندما تكلمنا عن الأثر المتبادل

بين الحياة الجسمية والحياة النفسية • وكذلك عند تعرضنا لموضوع الحاجات أثبتنا الوجه النفسى لأفضلية الرضاعة الطبيعية على غيرها • كذلك نعلم أن هناك فرقا بين الأثر الناتج من اجابة الطفل الى كل ما يطلبه من طعام وبأسرع طريقة ممكنة ؛ واجابته الى بعض ما يطلب ، وبشيء من عدم الهلع فى الاجابة • يترتب على مثل هذه المواقف منذ اللحظة الأولى أساليب للسلوك يواجهها الطفل بها • من هذه : أسلوب العنف والالاحاح ، وأسلوب التحايل ، وأسلوب الخضوع والتسليم • وأمثال هذه التشكيلات السلوكية أو الأساليب السلوكية قد تظهر مرتبطة بمواقف ، ربما تبدو لنا بسيطة ضئيلة الأثر ؛ كمواقف التغذية على اختلاف أنواعها • ولكنها فى الواقع تترك أثرا راسخا قد ينتشر الى أنواع السلوك الأخرى عند التقدم فى العمر • وعملية التغذية عملية حيوية هامة بالنسبة للطفل ، اذ تكاد تكون الشيء الوحيد الذى يشغله فى الأشهر الأولى ، ويرجع أثرها الى تكرارها مرات عديدة كل يوم ، والى ارتباطها فى ذهن الطفل بالأم • وهى أول شخص تتكون حوله عواطف الطفل • وتتكون هذه العواطف مرتبطة بعملية التغذية والافعال المصاحبة فى أثناء مواجهة مشكلاتها •

وهناك كثير من مشكلات السلوك تشتق أسبابها من مناسبات تناول الطعام • وأساس هذه المشكلات ما سبق ذكره من أن تناول الطعام له مواقف وله معاملات معينة ، تكاد تكون ثابتة ، من جانب الوالدين • ويرد الطفل على هذه المعاملات والمواقف بأسلوب أو أساليب معينة تكون فى الغالب لاشعورية • ونظرا لأن مناسبة تناول الطعام تتكرر منذ ولادة الطفل مرات عديدة فى كل يوم كما قلنا ، وترتبط فى ذهن الطفل بهذه المناسبات افعال الارتياح والتألم والتضايق وعواطف الحب وعواطف الكراهية ؛ فان الاحتمال قوى فى أن يكون لمواقف تناول الطعام أثر ثابت فى تكوين شخصية الطفل • فاذا أخذنا عملية مص الثدي فى الأشهر الأولى ، نجد أنها أهم الخبرات

الحيوية عند الطفل • ونجد أنه يقابل في مواقف الرضاعة مشكلات ، قد نستعين بها ، وقد لا نشعر بها على الإطلاق ؛ كتدفق اللبن أو قلته ، أو عدم القدرة على المص لعدم ملائمة « الحلمة » ، وما الى ذلك • وقد يتوقف على طرق مواجهة الطفل مشكلات مواقف الرضاعة تكوين جانب كبير من طابع « الشخصية » الذي يلاحظه بعض الآباء ، مما يسميه آدلر بأسلوب الحياة أو طابع السلوك (Style of Life)

كذلك مواقف الفطام لها مشكلاتها ، ولها أزماتها عند الطفل • وينجب مقابلة هذه الأزمات بصورة تحل المشكلة ، وتمنع ظهور مشكلات أخرى في حياة الطفل • ولأجل أن تمر فترة الفطام بسلام ، يجب أن يمهّد لها من الأشهر الأولى ، بتمرين الطفل على تناول السوائل من ملعقة أو من كوب ، وأخذ بعض الأغذية التكميلية التي لا بد أن تستوفى شروطاً معينة •

وخلاصة ما تقدم أن تناول الطعام مناسبة لها أهميتها الكبرى عند المشتغلين بالدراسات السيكولوجية للأطفال في مراحل نموهم المختلفة مبتدئين في ذلك بالشهر الأول •

حالات :

من النادر أن تعرض على العيادات السيكولوجية حالات أساس الشكوى منها صعوبات تتعلق بالتغذية فقط • ولكن تظهر صعوبات التغذية عادة — كغيرها من الصعوبات — ضمن مشكلات أخرى تكون في الغالب أكثر لفتاً لنظر القائمين برعاية الطفل من مشكلات التغذية نفسها • وتظهر مشكلات التغذية ضمن مشكلات نوبات الغضب ، والغيرة ، والتأخر الدراسي ، وفقدان القدرة على التركيز ، وضعف الثقة بالنفس ، والقلق النفسي ، والاغراق في أحلام اليقظة ، وما الى ذلك •

لأخذ حالة ولد كان في سن العاشرة من عمره ، وكانت شكوى والديه منه أنه خمول ، خجول ، عنيد ، شديد الغيرة من اخوته ، لا يميل الى العمل

الدراسى ، ميال الى الكذب ، وهو فوق ذلك كله يتأفف من الكثير من أنواع الطعام ، وقد استرعى نظر والدته تأفقه بنوع خاص من بعض الخضروات المتزجة أجزاؤها بعضها ببعض « كالقرع والسبانخ » وما شابه ذلك ، وبعض أنواع الفواكه كالْموز • فكان لا يكاد يعض الموز بأسنانه حتى تظهر عليه علامات الاشمئزاز والتأفف ، ويصرخ ثم يقذفه من فيه • وكان يقبل على الأطعمة الواضحة الأجزاء كالبطاطس ، وبعض النشويات ، وبعض أنواع الحلوى ، والبيض ، واللبن •

هذا النوع من الصعوبة موجود عند أغلب الأطفال ، ولكنه يختفى عادة مع التقدم فى السن • ولكن هذا الطفل كان اشمئزازه يزداد مع تقدمه فى السن • ولعل من أسباب ذلك أن الأم كانت تلجأ الى طرق الاغراء المختلفة ، وكانت أحيانا تلجأ الى العقاب ، حتى ترغمه على تناول ما لا يجب •

وقد يكون بعض صعوبات هذا الطفل — لا كلها — راجعا الى مكانة الطفل فى المنزل • فالأم تعلن أنها تحب البنات أكثر من البنين ، وتفضل — بناء على ذلك — أخته عليه تفضيلا واضحا ، لا مراعاة لشعوره فيه •

وحالة أخرى كانت الشكوى الأساسية منها شدة الخجل ، والحساسية للنقد ، وفقدان الشهوة للطعام ، وطول المدة التى يقضيها الطفل على مائدة الطعام مع تناوله قسما صغيرا جدا منه • وقد اتضح أن الوالد قلق على أولاده وعلى ما يأكلونه وكميته الى أبعد حدود القلق • ويحتمل أن يكون هذا القلق هو العامل الأساسى • وليس هذا مجال تفسير قلق الوالد ، وشرح نوعه وطريقة تأثيره فى الابن •

وحالة ثالثة أرسلت للعيادة لتأخر فى النطق • وقد تبين فى أثناء دراستها أن الولد يرفض كثيرا من أنواع الأطعمة • وهو فوق ذلك ميال الى الكذب والمعاندة ومخالفة الأوامر • ولعل السبب فى ذلك أن الولد يجاب له كل

طلب اشفاقا عليه • والبيئة غنية جدا بحيث يمكنها أن تلبي كثيرا من مطالبه • والولد لتأخر نطقه وسمعه وتأخره العقلي العام يجد في اصراره على مطالب خاصة مجالا طيبا لاثبات ذاته • وللولد مربية تعنى بأمره ، وهي شديدة قاسية ، مما قد يفسر ميله للمعاندة والكذب ومخالفة الأوامر • ولعل الحادثة الآتية توضح موقف المربية نحوه بوجه عام • هذه الحادثة هي أن الطبيب قد نصح الأسرة بأن تغذى الطفل « مخا » من آن لآخر ، ولكن الطفل رفض أن يأكله • فوضعت المربية المخ بين شطرين من الخبز ، وقدمته له على أنه « فراخ » ثم اكتشف الولد في أثناء تناوله الطعام أنه « مخ » فرفض أن يأكله ، ولكن المربية أجبرته على تناوله ، وأطعمته إياه رغم الاحتجاج والرفض •

ومن بين الحالات النادرة التي اتجهت الشكوى الأساسية فيها الى قلة الاقبال على الطعام ، حالة طفل في الرابعة من عمره ، على جانب كبير من الذكاء — كما دل على ذلك اختبار ذكائه — جم النشاط والجرأة والظرف ؛ اذ تجده باش الوجه ، اجتماعيا ، حسن الحديث ، قليل الخجل • مليئا بالحيوية •

اذا جلس هذا الطفل الى مائدة الطعام فانه يكاد لا يأكل ، وكثيرا ما يضع اللقمة في فمه ويتركها مدة طويلة يشرد في أثناءها بذهنه • فاذا نبه الى ذلك فانه يشرب كمية كبيرة من الماء لتساعده في عملية الابتلاع •

ويقول والده : ان ما يتناوله الولد من الطعام ضئيل جدا على الرغم من كل ما يبذله معه من محاولات الاغراء ، ومحاولات التهديد ، والاهمال أحيانا • ولعله من الواضح أن هذه المحاولات الايجابية هي التي تصرف الولد غالبا عن تناول الطعام •

وبدراسة ظروف الولد وحياته ، اتضح أنه يكاد يكون عاديا في كل شيء ، لولا أن الأم تخاف الأمراض خوفا خارجا عن الحدود المعقولة • فاذا

سلم الولد على شخص غريب فلا بد أن ترى بنفسها أنه غسل يديه جيدا بعد ذلك ، خوف احتمال انتقال عدوى مرضية • وإذا جلس الولد ليأكل فإن عملية الأكل تحاط بأشد الاحتياطات ، خوف الذباب والأتربة والتلوث وما الى ذلك • وفي أثناء تناول الطعام ينصرف الكل اليه يرجونه أن يأكل هذا ، وأن يأكل ذاك •

ويضاف الى ما تقدم أن كل من بالمنزل يتحدثون عن أن الولد لا يأكل ، وأنه فاقد الشهوة • ويشترك في ذلك أحيانا الجيران والأصدقاء والخدم • ويحدث كثير من هذا على مسمع من الولد ، ويكون مصحوبا بعلامات التأثير من جانب الوالدين • هذا كله مع العلم بأن الولد في صحة جيدة ، بحسب مظهره ، وبحسب الفحص الطبى الدقيق •

ويلاحظ كذلك أن الولد يعتمد على أمه في أتفه المسائل من لعب ، ولبس ، ونوم ، وما الى ذلك •

معنى ما تقدم أن الولد مركز العناية فى المنزل ، وأنه نجح فى تحويل كل من بالمنزل الى التكلم عنه ، ومراقبته ، والمناقشة فى أمره • وبذلك أصبح بطل المنزل • واستغل — بطريقة لاشعورية — عملية الاضراب الجزئى عن الطعام للوصول الى هذه البطولة • على أنه يجب أن نعلم أن كل ما يجذب الانتباه فى أثناء تناول الطعام كفىل بأن يصرف الطفل عن تناول هذا الطعام • وهناك ظروف أخرى ، لعلها ساعدت على جعل هذا الطفل مركز اهتمام الأسرة ، وهى أنه وحيد والديه • ويعيش فى نفس المنزل أولاد آخرون من زوجة أخرى • هذا الطرف يجعل للولد مركزا ممتازا ، لا لسبب الا لأن له والدين بالمنزل ، وأما بقية الأولاد فليس لهم فيه الا الوالد • وبحكم صغر سن هذا الولد تجده يتمتع بأغلب عطف أبيه • فهناك نوع من التميز الشديد يشعر به الولد • رغم كل ما يعمله الوالدان لازالة الفروق بينه وبين اخوته غير الأشقاء •

ولعل سائلا يسأل : وكيف يضمد الولد لكل هذا الجوع ؟ ولكن الواقع أن الولد يتناول كمية غير قليلة من الحلوى والأكلات الصغيرة المتكررة — شأنه في ذلك شأن أغلب الأولاد المتميزين بمركز خاص •

وقد نصحننا الوالدين بوجوب اهمال كل ما يجعل الولد مركز اهتمام الجميع فيما يختص بتناول الطعام • ونصحننا الأم بمنع كل مراقبة في أثناء الأكل ، وبوجوب انشغالها عنه قدر الامكان • نبهنا الوالدين كذلك الى وجوب تنظيم النزهة اليومية — وكانت معدومة تقريبا خوفا. على الولد من الحوادث والأمراض • ونصحننا كذلك بوجوب تنويع الطعام ، وبوجوب تعويد الطفل تناول غذائه بين آن وآخر مع أطفال آخرين ؛ اذ يلاحظ أن أى طفل يأكل عادة مع زملائه وأصدقائه بشغف أكثر مما يفعل مع والديه •

ووجهنا الوالدين كذلك الى أن الاحتياطات الشاذة المصحوبة بخوف مستمر ، تضر بصحة الطفل النفسية والجسمية ، وتهزم الأغراض المقصودة منها • فالقلق الذى تظهره الأم بصورة واضحة مرتبطا بالطفل ، خصوصا فيما يتعلق بطعامه ، يجعل عملية تناول الطعام عند الطفل مرتبطة ببعض المخاوف • ونتيجة ذلك اما أن يكره الطفل عملية تناول الطعام وينفر منها ، واما أن يستغل مناسبة تناول الطعام للتحكم فى والديه ، ويحدث هذا كله غالبا بطريقة لاشعورية • لا يتحكم فيها الطفل تحكما اراديا صريحا •

أنواع المشكلات وطرق تحديدها :

يتبين من الحالات السابقة ، ومن غيرها ، أن من أبرز مشكلات التغذية فقدان الشهوة (Anorexia) • وعند بحث هذا النوع من المشكلات ، يجب أن نعرف ان كان فقدان الشهوة دائما أم مؤقتا • فان كان دائما يعزى الى عوامل مزمنة ، وان كان مؤقتا فانه يرجع الى عوامل طارئة • ويجب أن نعرف كذلك ان كان ظهوره فجائيا أم تدريجيا • ويكون فقدان الفجائى فى غالب الأحيان مصحوبا بأعراض أخرى ظاهرة ، كارتفاع درجة الحرارة

أو التقرز أو الحالات النفسية الحادة كالغضب واليأس والحزن وما شابه ذلك . كذلك علينا أن نعرف ان كان فقدان الشهوة عاما يتناول جميع المأكولات ، أم خاصا يتناول بعضها دون بعضها الآخر . ويجب أن نتقصى لنعرف ما اذا كان ذلك يظهر في جميع المناسبات أم في مناسبات معينة كالأكل المنفرد ، أو الأكل على مائدة غير منسقة أو غير متنوعة الأصناف أو غير ذلك . ويظهر فقدان الشهوة بصورة مختلفة منها : انعدام الرغبة في تناول الطعام ومنها البطء الشديد في ذلك . ومنها التأفف وما الى ذلك .

والى جانب فقدان الشهوة بمختلف صورته نجد الشره ، فبعض الأطفال يزددون الأكل ازدرادا ، وبعضهم يأكل كميات كثيرة جدا . وما ذكر هنا عن فقدان الشهوة يمكن أن يذكر عن الشره ، فيجب بحشه ان كان عاما أم خاصا ، فجائيا أم مؤقتا ... الى غير ذلك .

ومن المشكلات الحادة النادرة ما يرتبط بتناول الطعام ارتباطا شديدا كالتقيؤ أو الشعور بالغثيان وترجيع الطعام وغير ذلك .

ويجب أن نذكر عند بحث هذه المشكلات ، الصلة الشديدة بين النشاط الغدي العام ، وتمثيل الطعام والقابلية لأخذه . وعلينا كذلك أن نذكر ما بين الأجهزة الهضمية والتغيرات الجسمية المصاحبة للانفعال من صلة شديدة .

ومعروف أنه في أثناء الانفعالات الشديدة لا يقوم الجهاز الهضمي بأداء عمله أو يؤديه ناقصا^(١) . فالعصارة الهضمية يقل افرازها أو يقف . وتعطل كذلك جميع العمليات اللازمة للهضم^(٢) (راجع حالة ص ٥٤) . ونلاحظ

(١) وعلى العكس من ذلك الجهاز التنفسي والجهاز الدوري فانهما يؤديان عملهما بغاية الكفاية في أثناء التهيج الانفعالي : D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

(٢) ويلاحظ أن بعض الأمراض المعدية والمعوية قد اكتشف حديثا انها قد تكون سيكلوجية الاصل - أي ناشئة من حياة انفعالية غير سوية . مثال ذلك القرحة المعدية ، والتهاب القولون .

عادة أننا في أثناء الحزن أو الغضب أو اليأس فقد شهوتنا ازاء تناول الطعام •
فيجب أن نؤجل للطفل وجبة طعامه ان كان في حالة افعالية شديدة حتى
يهدأ منها • ويستثنى من الحالات الالتهالية حالات الضحك الخالى من
التهيج الشديد • فهذا النوع من الضحك يكون مصحوبا بحالة تراخ •
والوصول الى حالات تراخ قبل بدء تناول الطعام من العادات الطيبة •
كيف ندرس مشكلات التغذية :

بعد أن حددنا المشكلة تحديدا واضحا تتجه الى دراسة العوامل التى
تؤدى الى ظهورها ولو أن دراسة العوامل وتحديد المشكلة يتداخلان أحيانا
تداخلا كبيرا •

ففى فقدان الشهوة تتجه أولا لدراسة العوامل الجسمية ، فيقوم الطبيب
المختص بفحص ما قد يكون هناك من امساك ، أو سوء هضم ، وما هناك
من أعراض ظاهرة كالتقيؤ ، واتساخ اللسان ، وسقوط المعدة ، وما الى
ذلك • كذلك عليه أن يدرس ان كان هناك اشتباه فى مبادئ سل ، أو ان
كان هناك مصادر « للتوكسينات » تقلل من الحيوية العامة • كذلك تدرس
حالة الغدد • وهناك فوق هذا بعض الخصائص الجسمية العامة التى تصاحب
عادة فقد الشهوة • فصاحب الجسم الطويل الرفيع يكون قليل الشهوة ،
بخلاف صاحب الجسم العريض الواسع • وقد وجد أحد الباحثين أن ٨٢٪
من الأطفال الفاقدى الشهوة للطعام من النوع الرفيع الطويل •

والأعراض الجسمية تكون فى حالة فقدان الشهوة أحيانا سببا لها وأحيانا
نتيجة لها • وعلى أى حال يجب فحصها فحصا جيدا ، والعمل على تحديد
الدور الذى تلعبه •

تتجه الدراسة أيضا فى مثل هذه الحالات الى نوع التغذية ، فيجب
درس غذاء الطفل درسا جيدا ، لمعرفة درجة اتفاق ما يأخذه مع ما يحتاجه
الجسم من «فيتامينات» ، وأملاح معدنية ، ودهنيات ، وما الى ذلك • ويلاحظ

أن كثيرا من الأطفال لا يجوعون في الميعاد بسبب كثرة أكلهم للمواد الدسمة،
التي تحتاج في هضمها الى مدة طويلة ، أو لتناولهم مواد شديدة الحلاوة
قبيال الأكل ، أو لعدم انتظام المواعيد ، أو للنقص في « فيتامينات » معينة ،
أو غير ذلك •

بعد دراسة الناحيتين السابقتين نتجه لمعرفة ما اذا كانت هناك عوامل
مسببة للانهاك العصبى كقلة النوم وسوء التهوية وقلة الرياضة ، وكالعمل
المستمر القليل التنويع • ويلاحظ أن تلاميذ المدارس يأكلون في الاجازات
الصيفية أكثر مما يأكلون شتاء في أثناء العمل • هذا على الرغم من أن
حاجتهم للغذاء شتاء أكثر منها في الصيف • وسبب ذلك : العمل المستمر
القليل التنويع الخالى من فترات الراحة • ومما يؤدي الى الانهاك العصبى
وجود الطفل في بيئة تستثير فيه حالات حادة كالغيظ ، أو الضحك ، أو كثرة
الكلام ، أو الضجيج ، وما الى ذلك بسبب ما يفعله الكبار أحيانا مع الصغار
عادة لتسلية أنفسهم •

علينا فوق ما تقدم ، أن ندرس الحياة الانفعالية للطفل من غضب ،
أو حزن ، أو يأس ، أو غيرة ، أو فقدان للشعور بالأمن ، أو تضايق من
تقييد الحرية ، أو ما شابه ذلك من حالات الانفعال ، التي لا بد لدراستها
من ملاحظة الطفل ، واعطائه فرصة التعبير الحر عما عنده من اتجاهات
نفسية ، ومن دراسة ظروف الطفل نفسها ، من حيث علاقته بوالديه واخوته
ورفاقائه ، وسلوكه في أثناء لعبه وعمله بالمدرسة ، وما الى ذلك •

والوالدان من أهم ما يتجه اليه الذهن عند درس هذه المشكلة ؛
فبعض الأمهات يضرين أسوأ المثل لأطفالهن ، بأن ينقطعن الى حد كبير عن
تناول الطعام لتخفيف أوزانهن • وبعض الآباء لا يتناول وجبة الافطار •
أما بسبب قصر المدة الواقعة بين الاستيقاظ ؛ وترك المنزل للعمل ، أو بسبب
التدخين ، أو بسبب الانهاك الناشئ من السهر في الليلة السابقة ، أو غير

ذلك • وبعض الآباء يكثرون من التنبيهات في أثناء تناول الطعام ، فينتهزون فرصة تناول الطعام لتلقين الطفل آداب الأكل ، وتقاليده ، مما يصرف الأطفال عن الطعام نفسه • ويجب أن يذكر الآباء أن الطفل يتعلم آداب المائدة بمرور الزمن عن طريق المثال والممارسة المتدرجة ، لا عن طريق التلقين والشرح • كذلك يخطئ بعض الآباء اذ يقومون باغراء الأطفال، أو باجبارهم، أو باقناعهم بمختلف الأساليب لتناول الطعام عامة ، أو لتناول نوع معين منه ، وهذا النوع من الآباء يكون عادة قلقا ، اما على الطفل ، واما على نفسه • وفي الحالة الأخيرة يستقط قلقه الذاتى على الطفل • ويكون فقدان الشهوة لدى الطفل أحيانا حيلة شعورية أو لاشعورية لعقاب الوالدين ، أو لعقاب الذات ، وهذا يحدث اذا أذنب الطفل ، فقد يعاقب نفسه بالاقتلاع عن الطعام • كذلك اذا عوقب الطفل من والديه ، فقد يقلع عن الطعام عقابا لوالديه ولنفسه في الوقت عينه •

وتلخيصا لما تقدم نقول ، انه بعد درس جميع العوامل الجسمية المحتملة ، ندرس الظروف والمواقف التى تظهر فيها المشكلة ، وبنوع خاص الموقف الذى ظهرت فيه أول مرة ، وعلينا كذلك أن ندرس الوظيفة التى تؤديها المشكلة لصالح الفرد • أما المواقف ، فأهمها معاملة الوالدين للطفل عامة ، ومعاملتها له في أثناء الطعام خاصة • كذلك من المواقف ما يربط الطعام في ذهن الطفل برباط منفرد أو غير سار ، كان يغرى الطفل على شرب شاي مثلا على أنه شاي خالص ، ثم يكتشف في أثناء شربه له أنه مخلوط بزيت الخروج مثلا • أما الوظيفة التى يؤديها فقدان الشهوة ، فأهمها جذب الانتباه ؛ فمن الجائز أن تمنع الطفل — دون أن يقصد دائما — يثير حوله اهتماما من والديه لا يحصل عليه عادة بغير هذا التمنع • ومن الجائز — كما قلنا — أن اضراب الطفل عن الطعام يشعر الوالدين بذنبهما لايقاعهما عليه عقابا معينا •

البطء في تناول الطعام :

ويتصف بعض الأطفال ببطء شديد في تناول الطعام • ولعل أهم سبب لذلك ، هو أن تناول الطعام ينظر اليه في بعض الأحيان كنوع من اللعب يصرف الطفل فيه من الوقت ما شاء كيفما شاء • ولكن هناك الى جانب هذا ، صعوبات المصغ الناشئة من أسباب محلية في الأسنان أو في الفكين أو غير ذلك ، أو أسباب عامة كالتعب والانهاك • كذلك قد يرجع السبب الى عدم الرغبة في تناول الأطعمة المعروضة ، أو استمرار تناول الطعام رغم الشبع ، أو انشغال الذهن ، أو الاغراق في أحلام اليقظة وكثير من الأطفال يشغلون في أثناء تناول الطعام بمشكلاتهم الخاصة ، أو بملاحظة ما يجرى حولهم من الكبار في أثناء تناول الطعام • وجميع النواحي التي اتجهنا الى دراستها في فقدان الشهوة يمكن أن نتجه اليها عند دراسة حالات البطء في تناول الطعام •

موقف الآباء وما يترتب عليه :

وينظر الآباء للأكل ومواقفه نظرة خاصة ، ولهم ازاء ذلك اتجاهات معينة تكاد تكون محدودة في كل والد • وسبب ذلك أن درجة اقبال الطفل على الطعام تعتبر عادة دليلا على الحالة الصحية • ويختلف الآباء بعضهم عن بعض في درجة اهتمامهم بصحة الأطفال ، ذلك الاهتمام الذي يصل في أقل درجاته الى الاهمال ، وفي أكبر درجاته الى القلق • ويختلف تبعا لذلك الاهتمام عناية الآباء بغذاء الطفل • ونظرا لأهمية الأكل في نظر الأطفال أنفسهم ، فانا نجد أن الأطفال في حالة اهمالهم قد يحلون مشكلاتهم بأنفسهم • وأما في حالة القلق على الطفل ، فانا نجده يفقد ثقته في والديه ، اذا أدرك ضعفهما ، وبذلك ينهدم المثال الأول للقوة الذي كان ماثلا أمامه • ويحتمل أن ينتقل قلق الآباء نحو الأبناء الى الأبناء أنفسهم ، فيصبح الابن قلقا على نفسه ضعيف الثقة فيها • وينظر الآباء عادة الى قلقهم هذا على أنه نوع من العطف يجب على أبنائهم أن يحمدهم عليه • ويجب أن يعلم

الآباء أن حالات القلق عندهم تؤثر في أطفالهم من أعمار مبكرة جدا ، لا عن طريق الادراك والتحليل والمعرفة الصريحة ، وانما عن طريق المشاركة الوجدانية البدائية^(١) .

ويساجب القلق عادة ما يمكن أن يسمى بالتقنين^(٢) (Standardisation) ويقصد به تحديد كميات الأكل اللازمة لكل فرد . ويلاحظ أن بعض الآباء يعتقد أن الطفل في سن معينة لا بد أن يأكل كميات معينة . ويشغل الآباء أنفسهم بكمية الوجبة ، ونوعها ، وعدد الوجبات . ويشغلون أنفسهم بحيث اذا سقطت وجبة منها قلقوا ، وخافوا من عواقب هذا على صحة الطفل . ويجب على الآباء أن يتذكروا أن الأطفال يختلفون في أوزانهم وفي سرعة نموهم ، وفي نوع نشاطهم ، وما يتطلبه نشاطهم من طاقة . والكمية التي يحتاجها الطفل تختلف عادة من طفل الى آخر . وتختلف كذلك في الطفل الواحد من وقت الى آخر اختلافات كبيرة في بعض الأحيان . وتتوقف هذه الاختلافات على الحالة الوجدانية ، وعلى نوع النشاط الذي يبذله وكميته ، وعلى الظروف التي يتناول فيها طعامه ، وعلى نوع الحياة التي يمر بها . . الى غير ذلك .

على أن نوعا من التقنين الخاص بنوع الأكل ، وكميته ، ومواقيته ، يجب أن يراعى ليحقق الغاية الأساسية ، وهي أن يأخذ الفرد طعامه ، بحيث يهضمه ، ويتمثله جسمه ويتحول الى قوة يستفيد منها في نشاطه ، ويشترط ألا يكون تقنينا جامدا لا مرونة فيه . ولكن اذا لوحظ أن أكل الطفل قد نقص في كميته وبعض عناصره وعدد مراته نقصا واضحا فانه حينئذ يجب البحث في حالته .

والتشبث بالتقنين يكون ، كما قلنا ، مصحوبا بقلق من جانب الآباء .

(١) راجع صفحة (٦٨) .

(٢) D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child. (٢)

ويكون مصحوباً عادة بشيء من الاغراء ثم الارغام ، مما يربط الموقف كله — بما فيه من أكل ووالدين وأسلوب معاملة— برباط انفعالي غير سار ، وقد يترتب على هذا نشوء كراهية الطفل للوالدين ، مما قد يؤدي الى أعراض مرضية . ويلاحظ أن مراقبة الآباء للأبناء تصرف الطفل عن الطعام ، وتعطيه سلاحاً قد يستغله بنجاح ضد والديه . وتنشأ هذه المراقبة عادة من قلق الآباء الناشئ بدوره من الخوف من الأمراض أو من الوفاة ، فكثيراً ما يحدث أن يموت للطفل قريب بمرض كالسل ، فيكون هذا الحادث بداية لحملة شديدة على الطفل في التغذية . كذلك قد يحدث أن يموت قريب بمرض « التيفويد » فتحاط عملية الأكل باحتياطات شديدة جداً لمنع الذباب ، فتصرف هذه الاحتياطات ، ومصاحبات الخوف الطفل عن تناول الطعام . فضلاً عن أنها قد تغرس فيه خوفاً شاذاً مرتبطاً بالطعام ، وتؤدي الى ما قد تؤدي اليه من المشكلات العديدة الأخرى .

ويلاحظ أن شدة قلق الآباء تعطي الأطفال فرصة الشعور الزائد بأهميتهم ، واعتراف السلطة بهم . وهذه نتيجة تسرهم ، فتدفعهم أحياناً الى التمسك بما يثير هذا القلق . والطفل عنده بطبيعته نزعة قوية للسيطرة ؛ وذلك لضعفه ، وقوة من حوله . فهو يتلمس الفرص الى التعبير عن هذه النزعة للسيطرة . فإذا أضرب مرة عن تناول الطعام ، وأثار هذا الاضرار قلق والديه ، أو غضبهما ، أو حفزهما على ضربه ، فانه يصل بسلاحه هذا الى احداث حدث عظيم محسوس . لذا كان خير الطرق ازاء هذا التصرف من الأطفال الاهمال والهدوء التام من جانب الآباء .

وكثيراً ما يحدث أن تقوم الأم باغراء الطفل ، ورجائه ، والتوسل اليه . وأحياناً يجري الطفل في أرجاء المنزل ، والأم تجرى وراءه بغذائه عله يتناوله . هذا منظر يشعر الطفل بسيطرته وتملكه الموقف . وكثيراً ما تأمر الأم طفلها بتناول الطعام ، فان رفض تلجأ الى تهديده . فإذا صمم فقد تعود الى اغرائه ،

وتتنازل عن تهديدها . وهكذا قد تتأرجح الأم بين الأمر ، والاغراء والتهديد ، والاقناع ، والوعد بثواب ، أو الوعيد بعقاب ، وما الى ذلك من الأساليب المضطربة التي يترتب عليها أحيانا اضطراب الطفل نفسه ، وأحيانا يترتب عليها زيادة تمسكه بموقعه ، لأنه يشعر فيه بقوته . وأحيانا تشكو الأم حال طفلها الى جيرانها أو زوارها ، وتشفع شكواها بأن تقول : انها غلبت على أمرها معه ، ولا تدري ماذا تفعل . وتحدث هذه الشكوى أحيانا على مسمع من الطفل ، الذي يشقى لذة كبرى من أنه وصل الى ما تشتاق اليه نفسه من القوة ، مما جعل شخصا كبيرا كأمه يفضل أمامه ، ويعترف بذلك . ويلاحظ أن رفض الطعام يكثر عادة في الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد أو المدلل — أى الطفل الذي يحتمل أن تضعف الأم أمامه .

ويدفع القلق بالآباء أحيانا الى كثرة التكلم عن المرض والتسمم والأغذية الثقيلة والأغذية المفيدة وما الى ذلك . ويصحب التكلم عن هذه النواحي — خصوصا الخوف من المرض والتسمم — حالة انفعالية . ويسمع الأطفال هذه الأحاديث اما عرضا ، واما لأنها موجهة اليهم ، ولا يفهمون منها شيئا ، ولكنهم يتأثرون بما بها من اتجاه انفعالى ، يترتب عليه خوف وصدوف عن تناول الطعام في غالب الأحيان .

ويؤثر الآباء في أبنائهم دون أن يشعروا عن طريق الإيحاء^(١) ؛ فكثيرا ما يحدث أن طفلا يرفض اللبن ، لأن الأم قالت : انها لا تحب اللبن . أو يرفضه لأنه رفضه مرة ، فقالت الأم : ان ابنها لا يحب اللبن . بذلك تثبت لديه الفكرة عن طريق الاتجاه الذى وجهته فيه الأم . وثبوت الفكرة يؤدى وظيفة هامة ، وهى أن الطفل تصبح له خاصية مميزة يتكلم عنها الناس . ويلاحظ أن كراهية الأطفال والبالغين لكثير من أنواع الطعام ، وحبهم لكثير من الأنواع الأخرى يأتى غالبا عن طريق الإيحاء ، بمعنى أن اتجاهات الكبار نحو الطعام

(١) راجع ص ٥٧ .

من حب وكرهية قد تخلق في الطفل اتجاهات مماثلة • ويجب أن نشير الى أن احياء السلوك أقوى دائما من احياء الكلام ، فرؤية علامات الاشمئزاز التي تبدو على الوجه أقوى أثرا من سماع الألفاظ الدالة عليه • خلاصة هذا أن الأطفال يتأثرون كثيرا من موقف آبائهم ازاءهم عند تناول الطعام وكذلك من موقف الآباء أنفسهم ازاء الطعام •

الشره :

ومن المشكلات التي يندر أن يشكو منها انسان مشكلة الشره ، وهي تبدو بصور مختلفة منها : أن يأكل الانسان أكثر مما يحتمل ، أو أن يزدرد الأكل ازدرادا دون أن يحسن مضغه • وما قلناه عن فقدان الشهوة يمكن أن يقال عن الشره من أنه قد يكون عاما ، وقد يكون خاصا ، وقد يظهر في مناسبات معينة دون أخرى • الى غير ذلك •

وعلينا أن نذكر بهذه المناسبة أن الناس يقال عنهم : انهم يأكلون غالبا أكثر مما تحتاج اليه جسامهم • فتناول الطعام لا يحدث عادة لسد حاجة جسمية فحسب ، وانما يحدث لأنه عادة معينة يريد أن يمارسها الفرد في أوقات معينة • وهذه العادة ينظر اليها بعض الناس على أنها نوع من النشاط اللذيذ المقصود لذاته • ولذا يصبح بعض الناس شغوبا بالأكل ، ينظر اليه كنوع من الهواية التي يصرف فيها ماله وتفكيره ونشاطه •

واذا اتجهنا لدرس حالة شره ، فأول ما يجب أن يتجه اليه الذهن هو درس الحالة الجسمية كالديدان واضطراب الغدد أو غير ذلك • ثم ندرس حياة الفرد الاجتماعية • فكما يكون الشره ظاهرة للحرمان ، كذلك يمكن أن يكون ظاهرة للتدليل • فالشخص المدلل لا يمكنه عادة أن يضبط نفسه أمام رغبة من رغباته ، بل يهيئ لنفسه فرص التلذذ الذاتي ، وكأنه في ذلك يدلل نفسه • ويلاحظ أن أصحاب النزعات « البوهيمية » — على وجه العموم — كانوا أصلا محرومين أو مدللين •

ويكون الشره أحيانا مظهرا من مظاهر النزعات الاعتدائية ؛ ففيه مجال العض والاقضاض والفتك • وكثير من الناس في حالات الغضب المكتوم يعبرون عن غضبهم هذا بالانكباب على التدخين ، أو السكر ، أو تناول الطعام ، أو ما شابه ذلك •

كذلك يمكن أن يكون الشره دالا على فقدان الشعور بالأمن^(١) ؛ فهو يظهر أحيانا في حالات اليأس ، وفقدان حب الغير ، والشعور بالانكباب المصحوب بالحاجة الحادة الى التفرج عن النفس عن طريق الأكل والشرب • وكثير من الناس يزداد وزنه بسبب الافراط في السكر والأكل والشرب والنوم بعد فقدان زوجاتهم أو أزواجهن ، وقد يكون الأكل في هذه الحالات وفي غيرها نوعا من النشاط اللذيذ يتلهم به الفرد عن مشكلاته الأخرى •

كذلك يمكن أن يرجع الشره الى ضيق الميول ، وسعة وقت الفراغ ، والملل •

أما أصحاب مدرسة التحليل النفسى فقد ينظرون الى الشره على أنه تثبيت لمرحلة اللذة الذاتية المرتبطة بالقلم (Oral Auto-erotic Fixation) غالبا ما يرجع في أصله الى مشكلات مرتبطة بعملية الرضاعة •
القيء :

من المشكلات التى ترتبط عادة بتناول الطعام مشكلة القيء ولبحث حالة القيء يعرف أولا ان كان متكرر الحدوث أو عارضا ، ويعرف ان كان مرتبطا بمناسبة معينة أم عاما ، وبعد أن تحدد المشكلة تفحص الناحية الجسمية أولا ، ثم تدرس الحياة الانفعالية وتدرس المناسبات التى يظهر فيها القيء •

(١) فى بعض الأحيان يزدرد بعض الاطفال ما امامهم من طعام حتى ينتهوا منه بسرية ليتناولوا طعاماً آخر يحبونه ويخشون من أن يجهز عليه •
كذلك يبطيء أحيانا بعض الاطفال فى أكل ما امامهم لكى يطيلوا مدة تليذهم به لا سيما ان كانوا يحبونه حبا شديدا •

وكثيرا ما يحدث أن يكون القيء ناشئا من ارغام الطفل على تناول طعام لا رغبة له فيه^(١) ، وهذا الارغام يؤدي الى ثورة نفسية مكبوتة غالبا ، ويعقبها عادة قيء . وقد يحدث القيء — كما يحدث أى عرض جسمانى — على أساس « الهستريا » التحويلية ؛ أى أن التقيؤ يقوم بجذب انتباه الغير ، أو بتخويف الكبار ، أو يكون تعبيرا عن عقدة نفسية أساس انفعالها التقرز أو الخوف وما الى ذلك .

كذلك يمكن أن يحدث التقيؤ بالايحاء أو بالمشاركة الوجدانية . فبعض الأطفلة قد توحى للطفل بمواد أخرى تشمئز منها نفسه ، وقد يتقيأ الطفل لأنه رأى غيره يتقيأون . وقد يكون الايحاء فى حالة التقيؤ ذاتيا أو فرديا أو اجتماعيا ، وقد يكون ايحاء صيت أو اجماع ، ويمكن ايراد أمثلة كثيرة لبيان مختلف هذه الحالات (ص ٥٧) .

ويشبه التقيؤ ترجيع الطعام ، وهو قاصر غالبا على صغار الأطفال . ويرجع لوضع اليد فى الفم أو ابتلاع بعض الهواء فى أثناء الرضاعة ، ويمنع بأن يترك الطفل نائما على ظهره بعد الرضاعة بضع دقائق . هذا الا اذا بدأ فعلا فى الترجيع فيحسن رفعه حتى يتخلص من الطعام الذى يرجع . ولترجيع الطعام غير هذه الأسباب البسيطة أسباب طبية لا يمكننا التعرض لبحثها هنا .

خاتمة :

يتبين من كل ما تقدم فى هذا الفصل وجوب الاهتمام بتغذية الأبناء مع وجوب التخلص من القلق . ويجب أن نذكر أن مناسبة تناول الطعام فرصة ملائمة لما يسمى بالتعلم العرضى (Concomitant Learning) ففيها يتعلم الطفل

(١) مارى فتاة أمريكية عمرها سنتان ونصف ، جلست مع أمها الى مائدة الطعام . وكان المنزل على روبة مرتفعة ، وفى أثناء جلوسهما قامت زوبعة شديدة جدا شعرا بها شعورا واضحا . وفى أثناء تناول الطعام قدم للطفلة قرع ، فرفضت أن تأكله ، فنهرتها أمها وأرغمتها ونجحت . وكانت النتيجة أن البنات بدأت تتقيأ ، واستمرت أسبوعين تخاف العواصف خوفا شديدا .

The Mother's Encyclopaedia, p. 273.

اعتماده على نفسه ، ويتعلم التعاون ، وما الى ذلك . واذا أخذنا القلق مثلا ، فالى جانب ما ينشأ عنه من مشكلات عدة ترتبط بالأكل ذاته ما ينشأ عنه من مشكلات أخرى كضعف الثقة بالذات ، وكراهية السلطة ، وما الى ذلك . واذا امتنع القلق أصبح سقوط أكلة من بين الأكلات ينظر اليه على أنه أمر عادي ، وقلت الفرص التي يتخذها الطفل لاثبات ذاته بطرق غير مقبولة . ولا يصح بحال أن تصبح التغذية مسرحا ينصب للطفل ويمرض عليه لمن حوله . فيجب أن يقل من يراقبون الطفل في أثناء تغذيته . واذا كبر فيحسن أن تنشغل عنه أمه في أثناء تناوله الطعام ، ولو أنها تكون قريبة منه اذا احتاج اليها الأمر .

ويجب أن يراعى أن الطفل عند تناوله غذاءه يكون منشرحا هادئا ؛ لا مهتاجا ، ولا مشغول الذهن . فلا يصح نزع فجأة من لعب نشط لذيد في نظره هو ليتناول طعامه ، ولا يصح ارغامه على تناول طعام وهو في حالة غضب أو تضايق ، بل لا يصح ارغامه على تناول الطعام ، أو تناول طعام معين ، ما دام يفهم أن قاعدة المواعيد المنتظمة قاعدة محترمة لا يجوز اختراقها . كذلك اذا ضرب الطفل عن تناول طعامه لأمر ما ؛ فبغاية الهدوء يقابل اضرابه . ويؤجل تناوله الطعام الى الوجبة القادمة^(١) . هذه هي القاعدة العامة ولكنها تطبق بشيء من التصرف والحكمة .

(١) حدث أن كان طفل انجليزى يلعب مع زملائه على شاطئ البحر ، فعهد اليه اخوانه بحراسة القلعة التي بنوها من الرمال وانصرفوا ، ولما جاء وقت طعام الغداء نادته أمه فقال لها انه مكلف بحراسة القلعة . فقالت له : ولكن الوجبة القادمة لك هي وجبة الشاي اذا أنت لم تحضر الآن لتناول طعام الغداء ، فقال : « ليكن » . فتركته وشأنه ، ولم يتناول طعامه الا في وقت تناوله الشاي ؛ اى في الساعة الخامسة بعد الظهر . في هذا المثال ضحى الولد تضحية كبيرة في سبيل وفائه لزملائه وشعوره بواجبه نحو مسئوليته . وكان في هذا المثال فرصة طيبة لتعويده النظام واحترامه لنفسه وحسن تقديره لها ، ولاسيما أن والديه أظهرهما لولائه لزملائه . وبمناسبة هذا المثال تلفت النظر الى وجوب التفريق بين الحزم والثبات ؛ والشدة والارغام على الطاعة .

ويسهل احترام قاعدة المواعيد المنتظمة اذا منعت الاكلات الصغيرة التي تتكون من الحلوى وما شابه ذلك • ويحسن التدقيق الشديد في هذه النقطة ، اذ أن كثيرا من الأمهات يراعين هذا ؛ ولكن قد يفسد عليهن القاعدة الجادات أو الخالات أو أمهالهن من الأعمام أو الأخوال أو الضيوف أو المضيفين •

ويجب كذلك أن يراعى تقديم الطعام بطريقة شيقة جذابة • وأن يكون فيه مجال للتنويع من يوم الى آخر ؛ وأن يقدم بقدر الامكان في أوان خاصة بالطفل اذ أن في هذا فرصة لتفهمه معنى الملكية ، واحترام الناس لملكيته ، وتعويده احترام ملكية الغير • كما أن في هذا مجالا صالحا لتعويده الاعتماد على نفسه في تنظيم أدواته ورفعها ووضعها وغير ذلك • ويجب أن يشجع الطفل على تناول طعامه بغير مساعدة في أول فرصة ممكنة • وترجع قيمة هذا من ناحية التربية الى أن تناول الطعام عملية يكررها الطفل مرات في كل يوم • ولذا كان تناول الطعام مجالا صالحا للتربية ، واعتماد الطفل على نفسه في اطعام نفسه يؤدي الى اعطائه ثقة في نفسه • مما يجعله لا يتأخر في استقلاله عن أمه واعتماده على نفسه في بقية أمور • وقد يعترض على هذا بأن الطفل لا يمكنه أن يستعمل أدوات الأكل • ولكن يرد على هذا أيضا بأنه لا يتعلم الا عن طريق الممارسة والمحاولة الشخصية وارتكاب الأخطاء وتصحيحها بنفسه ، وبشيء من ارشاد من حوله له • ويشترك الطفل سرورا عظيما اذا قل ارشاد من حوله له ، وتمكن من كشف أخطائه وتصحيحها بمجهوده الشخصي • ويحسن — اذا احتاج الأمر — مراعاة قدرة الطفل باعطائه أدوات الأكل المناسبة من حيث حجمها ووزنها وسهولة استعمالها ، ويراعى نفس هذا في المقاعد والموائد بحيث لا تكون الحركات اللازمة شاقة على الطفل ، لأن صعوبة هذه الحركات مما يصرف الطفل عن الطعام • ويراعى في تناول الصغار طعامهم مع الكبار ملاءمة طعام الكبار لهم وحاجتهم

الى الاجتماع ، وشعورهم بالسرور من مصاحبة الكبار والتمثل بهم .
ويجب أن يعطى الطفل فرصة تناول طعامه مع صغار من سنه بين آن
وآخر ، لأن هذا مما يثير شهوته^(١) . ويلاحظ كذلك أن ميل الطفل لنوع
معين من الطعام ليس من الضروري أن يتكون بصورة مباشرة ؛ فلا فائدة من
شرح فوائد الخضراوات واللحوم للطفل . ولكن من أساليب تكوين الميل
أن يساعد الطفل مثلاً في شراء الطعام أو في زراعته^(٢) أو في تجهيزه ، ويجب
ملاحظة شدة قابلية الطفل للتأثر والايحاء مع العلم بأن ايحاء السلوك ، كما
قلنا ، أقوى كثيراً من ايحاء الألفاظ .

كذلك يلاحظ أن قابلية الأطفال لتناول الطعام وسهولة هضمه واستمرائه
تتوقف على نشاطهم ومرحهم ، وسرورهم وانتظام غذائهم ، وانتظام نزهتهم ،
وخروجهم للمسحة في الهواء الطلق ، وتتوقف كذلك على جو المنزل ،
وشعورهم بمركزهم منه ، وتتوقف كذلك على جو المدرسة وشعورهم
بالنجاح فيها .

(١) ونشير هنا الى التجارب الطريفة التي أجراها كاتز (Katz) على الدجاج ،
فبرهن على أن الدجاجة تأكل مع غيرها أكثر مما تأكل بمفردها ، وأنها تأكل ،
إذا قدم لها الأكل بكميات صغيرة تتلو كل منها الأخرى أكثر مما لو قدم الأكل
دفعاً واحدة بكمية كبيرة (From D. Katz: Animals and Men)
(٢) عالجت إحدى الأمهات عدم ميل ابنتها الصغيرة للخضراوات بأن شجعتها
على مساعدتها في زراعة بعض الخضراوات في حديقة المنزل . فقامت بوضع
البذور وريةا وتمهدها وملاحظتها يوماً بعد يوم . وما نضجت هذه الخضراوات
حتى قطفتها ثم تناولتها طعاماً بشيء غير قليل من الشغف .
From The Mother's Encyclopaedia, pp. 244-246.

المراجع

- Adler : Guiding the Child.
Blanton : Child Guidance.
Beatz & Bott : The Management of Young Children.
Boenheim : Practical Child Psychotherapy.
Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
Patri & Angelo : Child Training.
Shaffer : Psychology of Adjustment.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الرابع عشر

المشكلات المتعلقة بالنوم

مقدمة:

عند دراستنا لمشكلات الأطفال والناشئين والبالغين يهنا عادة معرفة كمية النوم ونظامه ، إذ أن كثيرا من المشكلات قد ينتج مباشرة من الاجهاد الجسمي والعصبي الذي لا سبيل الى التغلب عليه الا عن طريق النوم . وكثير من حالات الانقباض ، ونوبات الغضب ، والكسل ، وضعف القدرة على التركيز ، وانعدام الاستقرار ، وكثرة الوقوع في الخطأ ، وفقدان التوازن الحركي ، وما الى ذلك ، قد يرجع عند الصغار والكبار الى قلة النوم أو سوء نظامه أو اليهما معا . ويلاحظ أن حالات الأطفال العصبية من تهته ، ومص أصابع ، وقرض أظافر ، وما الى ذلك تزداد سوءا في الأيام التي لا ينامون فيها نوما جيدا كافيا .

ويدعى بعض الناس أحيانا أنهم لا ينامون اطلاقا ، ولكن هذا غير ممكن . فهؤلاء الناس ينامون نوما خفيفا متقطعا لا يكادون يشعرون به . وقد دلت التجارب على أن الانسان لا يمكن أن يواصل حياة عادية اذا ترك النوم مدة تزيد على ثلاثة أيام أو أربعة ؛ حيث تبدأ حالات انقباض و (هلوسة) ، وفقد للتوازن ، وقد شديدا للقدرة على التذكر وما الى ذلك . وقد أجريت تجارب على الحيوان فثبت أن الكلاب تموت اذا لم تنم بضعة أيام .

ونظرا لأهمية النوم الحيوية ، ولشدة غرابته كظاهرة ؛ اتجه لبحته كثير من العلماء ، وأجروا حوله التجارب ، ووضعوا النظريات . ولا يمكننا في

هذا المجال أن تتعرض لهذه البحوث الفسيولوجية والكيميائية والهستولوجية والسيكلوجية ، وانما نكتفى بالاشارة الى نظرية «كلاباريد»^(١) ، الذى يرى أن النوم ليس نتيجة لحلول التعب ، وإنما هو وظيفة حيوية يقوم بها الكائن الحي ليقى نفسه من حلول التعب . فالنوم فى رأى « كلاباريد » هو صمام الأمن . هذه هى النظرية البيولوجية المقبولة ، وهى تفترض كذلك أن النوم من خصائص الكائنات الحية الراقية ، ذات المجموع العصبى المركزى .

تدل هذه المقدمة على القيمة الحيوية للنوم ، وعلى أن النوم تهماً دراسته من النواحي الوقائية والعلاجية ، ويهنا بنوع خاص أن يكون الناشئ فيه عادات صالحة .

الحاجة الى النوم عند الأطفال :

يلاحظ أن الطفل الصغير ينام كثيراً جداً ، اذ لا يستيقظ بعض صغار الأطفال الا للتغذية ؛ ولكن مدة النوم عند الأطفال تقل تدريجياً الى أن تصل الى حدها الأدنى وهو ثمانى ساعات تقريباً عند البالغين ، ولا يتجاوز عادة هذا الحد الأدنى الا فى مرحلة الكهولة . وحاجة الطفل الى النوم الكثير حاجة طبيعية ، فعملية النمو السريع التى تبطن تدريجياً بتقدم الطفل فى عمره ، تستنفد منه مجهوداً كبيراً يستغل فى عملية الهدم والبناء اللازمين لأنسجة الجسم ، ولا بد له من تعويض هذا المجهود فى أثناء النوم ؛ باراحة نفسه راحة تكاد تكون تامة . ويخطئ من يعتقد أن الطفل لا يبذل مجهوداً فى أثناء ساعات يقظته ، فملاحظة الطفل تدلنا على أنه دائم الحركة ، لا ينقطع نشاطه ، فهو يجرى ، ويمشى ، ويقذف ، ويتأمل ، ويفكر ، ويمرن عضلات يديه ورجليه وأعضاء نطقه ، وهذا كله مما يساعده على فهم العالم المحيط به ، ويؤدى الى كسب مهارة عقلية وحركية تمكنه من حسن التعامل معه والملاءمة له ، وبذلك يصير أكثر شعوراً بالأمن فيه ، وأجراً على تناوله ، وتكييفه

(١) Quoted by Coriat : Abormal Psychology; pp. 88-96.

لرغباته وحاجاته • هذا كله يستنفد منه مجهودا كبيرا ، لا يشعر به في أثناء بذله له ؛ إذ أنه يصرف أغلب هذا الجهد في صورة لعب لذيذ • وهذا المجهود الذي يبذله لابد — كما قلنا — من تعويضه عن طريق الغذاء والراحة • وحيث ان النمو يقل تدريجيا بتقدم العمر ، وكذلك النشاط التلقائي الذي أشرنا اليه يقل أيضا مع تقدم السن ، فيحل محله عمل جدى محدود ، فان الحاجة الى النوم نفسها تقل كلما كبر الطفل ، ولكنها لا يمكن أن تنعدم • ففى الشهر الأول ينام الطفل عشرين ساعة تقريبا^(١) ، ثم ينخفض ما يحتاجه من ساعات النوم ، الى أن يصل الى اثنى عشرة ساعة فى سن الرابعة ، والى ما يقرب من تسع ساعات أو عشر فى دور المراهقة ، ثم الى ما يقرب من ثمانى ساعات عند اكتمال النمو^(٢) •

D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child. (1)

العمر بالسنوات	٢-٣	٣-٤	٤-٥	٥-٦	٦-٧	٧-٨	٨-٩
ساعات النوم في أثناء الليل	١٢-١٤	١١ $\frac{1}{4}$ -١٣	١١ $\frac{1}{4}$ -١٢	١٠ $\frac{1}{4}$ -١٢	١٠ $\frac{1}{4}$ -١١	٩ $\frac{1}{4}$ -١١	٨ $\frac{1}{4}$ -١٠
ساعات الراحة في أثناء النهار	٢	١ $\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$

نظام النوم :

يتناول نظام النوم مسائل عديدة بعضها خاص بمواعيده ، وبعضها خاص بأمكنته ، وبعضها خاص بحالة الشخص الجسمية والعقلية • ويمكن أن نقول : ان الشخص اذا كان في حالة شبع دون امتلاء ، واذا كان خاليا من الأوجاع والهموم ، وكان في حالة عقلية هادئة غير متوترة ، وكذلك اذا كانت الظروف المحيطة عادية من حيث الهدوء والتهوية والراحة • وما الى ذلك فانه يمكنه أن يحصل على نوم مفيد اذا كانت مدته كافية (١) •

ويحتاج كل شخص كما قلنا ، الى عدد معين من ساعات النوم في كل أربع وعشرين ساعة • ويجب أن يكون قسط غير قليل من هذه المدة في أول الليل • كذلك يجب أن يحصل كل فرد على فترة راحة كاملة في أثناء النهار • وهذه الفترة يحسن أن تكون قبل تناول طعام الغداء • ويرى البعض أن تكون هناك مرة أخرى قبل تناول طعام العشاء •

وهناك عدد من المبادئ يتعلق بعضها بالظروف التي ينام فيها الطفل • فهل يحسن أن تهيأ ظروف الراحة التامة والهدوء التام للنوم ، أو يخشى أن يتعود عليها الطفل ، بحيث اذا جدت عليه ظروف أخرى فقد قدرته على النوم ؟ للجابة عن هذا نذكر أن الانسان في حالة الضوضاء أو ارتفاع درجة الحرارة أو عدم ملائمة الظروف بأي صورة أخرى فانه قد ينام ، وفي أثناء نومه يحدث ما يسمى تكيفا سلبيا (Negative Adaptation) وبه يبذل الانسان مجهودا اضافيا لمنع أثر هذه المؤثرات الخارجية ، ولذا نجد أن من ينام بحالة جسمية وعقلية طيبة في ظروف طيبة يحتاج لساعات نوم أقل ممن ينام في ظروف غير مريحة • ولكننا نذكر هنا أيضا أن القدرة على بذل هذا

(١) أما دراسة الأحداث المجرمين والمشردين فانها تكشف عن بيوت لا يمكن بحال من الأحوال أن ينام فيها الطفل نوما مفيدا •

المجهود الاضافي يجب أن تكون موجودة الى حد ما عند كل شخص ، حتى يستعملها ان جدت ظروف لا تكون في الحسبان •

ولا يمكننا التعرض هنا لكل قواعد نظام النوم^(١) ، ولكن يهنا معرفة اتجاهات الآباء نحوه • وأول هذه الاتجاهات أن نظام النوم لا يجوز أن يفرض على الطفل بروح الارغام ، لأن ارغام الطفل وتحديه فيما يتعلق بالنوم ، يترتب عليه عادة انتصار الطفل وقد يترتب عليه تعويده المعاندة وربما ينتج عنه كراهية الوالدين • ثم ان الارغام نفسه يخلق في الطفل مقاومة ، ولو غير ظاهرة ، وبذلك ينعدم التراخي اللازم قبل النوم • بالاضافة الى ذلك لا يجوز أن يستعمل النوم أداة من أدوات التهديد ، لأن أقل ما في هذا ، أنه يوحي للطفل بفكرة أن النوم أمر يجب تفاديه وتجنبه • ويجب أن يكون موقف الآباء نحو النوم موقفا طبيعيا هادئا ، ولا يجوز أن يكون النوم موضوعا يكثر ما يدور حوله من النقاش ، خصوصا على مسمع من الأطفال •

ويحسن بالطفل أن ينام في سرير مستقل من أول الأمر • ويجب على العموم ألا ينام في غرفة والديه بعد سن السنة والنصف ، لا سيما أن كثيرا من حالات الاضطراب النفسى تنشأ من مشاهدة الاتصال الجنسي بين الوالدين في سن مبكرة ، والأطفال في هذه الحالة كثيرا ما يدعون النوم • وإذا كان الأطفال مختلفي الأعمار فيحسن أن يذهب للنوم صغارهم أولا ، ولا يرسلون جميعا في وقت واحد حتى لا يحدث احتكاك بينهم •

ويحسن أن تراعى حالة الطفل قبل نومه ، فيكون هادئا مسرورا ، وليس من الحكمة مفاجأة الطفل بمنعه من اللعب ثم ارساله للنوم • بل يحسن انذار الطفل ، واعطاؤه مهلة كافية ، كأن يقال له انه بعد عشر دقائق مثلا

(١) لاستيفاء هذا الموضوع يحسن قراءة كل ما يتعلق بالنوم في الكتابين الاتيين :

D. A. Kennedy : « The Management of Babies, » The Family Book.
Len Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.

سينام ، فليدبر أمر نفسه لايقاف لعبه فترة ، ويبدأ بالاستعداد لنومه .
ويلاحظ أن كثيرا من الأطفال يخافون الانتقال من حالة اليقظة الى حالة
النوم ، لأن النوم والظلام كثيرا ما يرتبطان في ذهن الطفل بأمور مخيفة ،
ولأن كثيرا من الآباء يتركون المنزل بعد نوم الأطفال دون علم الأطفال أنفسهم
بذلك ، ولأن الانتقال من حالة اليقظة المعروفة الواضحة الى حالة النوم
الغامضة غير المفهومة يخيف ، بحسب ما لاحظنا على بعض الأطفال في سن
تقع تقريبا بين الثانية والرابعة^(١) . لهذا كله يحسن قدر الامكان تفادي
كل ما يجعل النوم مخيفا أو مكروها حتى يتمتع به الطفل كما يجب .

ويحسن أن ينام الطفل بمجرد ذهابه الى فراشه أو بعد ذهابه اليه بـمدة
قصيرة ، فان لم يحدث هذا فليؤجل ميعاد نومه نصف ساعة مثلا ، على أن
يعوض له ذلك النقص في وقت آخر . وتعديل بسيط مثل هذا — اذا احتاج
الأمر اليه — تكون له في العادة نتائج طيبة . كذلك يحسن أن يقوم الطفل
مباشرة بعد استيقاظه لأن بقاءه مدة طويلة في فراشه بعد استيقاظه يعطيه
فرصة للجلبة أو لأحلام اليقظة ، وفي مثل هذه الأوقات التي تقضى في الفراش
في حالة اليقظة تبدأ عادة ممارسة العادة السرية .

ومن حالات العيادة حالة ولد في الخامسة والنصف له مشكلات عدة منها
التبول ، والعناد ، وحك عضو التناسل الى درجة الادماء ، وغير ذلك من
المشكلات ؛ ولكن من مشكلاته أيضا أنه يصحو مبكرا جدا ويصيح ، ويعنى ،
ويخرب الى أن يزجج كل من في المنزل ؛ ولكن أمكن توجيه أهله الى ارساله
مبكرا الى فراشه ، وكان ذلك من أسباب سهولة التغلب على هذه العادة .
وأمكن كذلك توجيه أهله الى ما يجب أن يتبع معه من تنظيم النشاط ،
وتحسين المعاملة ، وتوضيح بعض ما كان غامضا بالنسبة للطفل من حيث

(١) شغلت مشكلة الدخول في حالة النوم والخروج منها الى حالة اليقظة
أذهان الفلاسفة والعلماء قديما وحديثا ولم يصلوا الى أجوبة شافية .

العلاقات المختلفة الموجودة بين أفراد المنزل • وذلك لأن انفصال أم الولد عن أبيه قبل أن يولد الولد ، وكتمان ذلك عنه ، وتعويده مناداة جده على أنه أبوه ، ومناداة أمه لجده في نفس الوقت على أنه أبوها ، أوقع الولد في ارتباك شديد • ويغلب أن يكون هذا — بالإضافة الى الأثر الناشئ من حالة أمه — بعض ما يفسر جزءا من مشكلاته •

بعض المشكلات العيادية :

ومن المشكلات الهامة نقص قدرة الطفل على الانتقال من حالة اليقظة الى حالة النوم الا بمساعدة خارجية ، كأن تحمله أمه على كتفها ، أو في حجرها ، أو تهزه ، أو أن تنام الى جانبه ، أو أن يضع أصابعه في فمه • وأعرف أن طفلا كان الى سن الخامسة لا ينام الا اذا جلس في حجر أمه ووضع أصبعه في فمها • وخير طريقة ازاء هذه المشكلات هي منع ظهورها بتاتا من أول الأمر ، لأن تشيئها يجعل من العسير التغلب عليها أو على مشتقاتها المتنوعة العديدة بتقدم السن • وصعوبة التغلب عليها ناشئة من ارتباطها بالنوم ، فنظرا لأهميتها للانتقال من حالة اليقظة الى حالة النوم ، فانه يصعب جدا ضبطها والتحكم فيها •

ومن أخطاء الأمهات حمل الطفل وهزه لأقل صوت يخرج من فيه • مع أن صراخ الطفل ليس كله صراخ ألم ، فبعضه مجرد تمرين لعصلات الصوت : وبعضه صراخ احتجاج ، وبعضه صراخ ألم • فمواجهة الصراخ تكون بازالة أسبابه لا بمحاولة إيقافه إيقافا ظاهريا مؤقتا • وبعض الأمهات يحملن الطفل لا لسبب الا بقصد التسلي به • ولا يجوز أن تنظر الأم للطفل كدمية جيء بها لتسليتها الخاصة ، وانما يجب أن تنظر اليه كفرد له كيانه الخاص به • والأمهات اللواتي يكثرن من حمل أبنائهن والالتصاق الجسماني بهن هن في العادة الأمهات اللواتي لم يكن ميولا أو هوايات أو لا يشعرن بحب أزواجهن أو من حولهن ، فلا يجدن اللذة لأنفسهن الا في أبنائهن • وهؤلاء يصعب عليهن جدا تربية أبناء يعتمدون على أنفسهم • وفي كثير من الأحوال ينال

الطفل ما يناله من حمل وهز واكثار من الضم الى غير ذلك ، وعندما تصل سنه الى الرابعة أو الخامسة ، وتجدر الأم أن الطفل قد كبر ، ولم يعد كالدمية كما كان من قبل ، أو تجدر الأم أنها أنجبت طفلا آخر به مجال أصلح ممن قبله للتعبير عن انفعالاتها المكبوتة ، تحدث صعوبات كثيرة من الطفل الكبير ، ويقال عنه علنا عندئذ : انه صار ثقيلًا غير مقبول بعد أن كان خفيف الروح . وقد يبدأ عندئذ يخرب ، أو يثور ، أو يقلق في نومه ، أو يظهر بغير ذلك من المشكلات العديدة الناشئة من أنه لا يرغب في التنازل عن امتياز معين بعد أن ناله وتمتع به زمنا ، وصار بطريقة ضمنية حقا مكتسبا في نظره .

وقاعدة عامة حكيمة هي أن يسأل الآباء أنفسهم ان كانوا يريدون استمرار أسلوب المعاملة الذي ينتهجونه مع طفلهم الى أن يصل الطفل الى مرحلة اكتمال النمو أم لا . فاذا لم يريدوا استمرارها الى اكتمال النمو ، فلا يجوز الالتجاء اليها في أى عمر مهما كان صغيرا ، بدعوى أنه يمكن الاستغناء عنها مع تقدم السن . ولا يجوز تجربتها ، الا اذا كانت ضرورية لهذه المرحلة ، ويسهل تحرير الطفل منها بالتدريج مع النمو .

ويلاحظ أن في تعويد الأطفال ألا يناموا الا اذا كان الكبار قريين . منهم مجالا طيبا لاثبات ذاتية الأطفال بصورة لا مبرر لها ، ولاخضاع الكبار لارادتهم ، مما يؤدي حتما — ان عاجلا أو آجلا — الى احتكاك ارادة الطفل مع ارادة الكبار . ويمكن بسهولة أن نستنتج ما قد يؤدي اليه هذا الاحتكاك عند تفاد صبر الآباء .

ومن أخطاء الوالدين اقلال راحة الطفل في أثناء نومه لأسباب تافهة . فلا يجوز في حالة حضور الضيوف متأخرين في أثناء الليل أن يزج الطفل من نومه ، ليراه الضيوف . وقد يكون الدافع أنانيا من جانب الأم ، أو جانب الضيوف ، أو كليهما ، كحب سماع كلمة ثناء ، أو حب المفاخرة ، أو غير ذلك . ومثل هذا يحدث من بعض الآباء اذا لم يروا أبناءهم طول النهار

لا نشغالهم ، فيوقظونهم ليتسلوا بهم ، وقد يحضرون لهم بعض أدوات
الاعزاء كاللعب والحلوى وغير ذلك . وهذا يستثير الأطفال ويهيجهم ،
ويجعل النوم عسيرا عليهم بعد ذلك . ولا يجوز اقلاق الطفل ليلا بعد أن
ينام ؛ اللهم الا اذا كان قد استوفى مدته من النوم .

وفي حالات كثيرة نجد الطفل تكثر طلباته عند النوم ؛ فهو يريد أن
يتبول ، أو يشرب ، أو يقول لأمه كلاما أو غير ذلك ، وهذا في العادة معناه
أن الطفل يعتمد اعتمادا كبيرا على شخص معين ، ويساوره شعور بالقلق
خوفا من أن يتخلى عنه هذا الشخص مما يترتب عليه فقد امتياز معين .
وعلى وجه العموم يكون معناه أن الطفل غير شاعر بالأمن الكافي ، فيتلمس
الطرق التي قد تشعره به . وفي هذه الحالة علينا أن ندرس ظروفه ، لنرى
ما يكون قد أدى الى هذه الحالة . فربما كان السبب أن خادمة تركت
المنزل ، بعد أن تعلق بها الطفل تعلقا شديدا لا يقدره الكبار في الغالب ،
ويجب قدر الامكان ألا تهيأ الظروف بحيث يلتصق الطفل بأناس يحتمل
جدا أن يختفوا من بيئته . وربما كان السبب أن في ذهن الطفل احتمالا
غامضا بأن والديه سيتركان المنزل بعد نومه دون أن يصارحاه بذلك ،
أو يروضاه على ألا يخاف النوم بمفرده أحيانا ، وربما كان السبب أن والدته
عودته أن ينام في حضنها ثم تتركه بعد اغفائه فيقوم ولا يجدها الى جانبه . . .
الى غير ذلك من مئات الأساليب التي تقلل من شعور الطفل بالأمن أو بالثقة
فيمين حوله ، والتي يرتبط كثير منها في ذهن الطفل بالنوم .

ويشبه كثرة طلبات الطفل عند النوم تأرقه ، من حيث الأسباب التي
تؤدي اليه ، ولهذين النوعين من المظاهر أسباب أخرى ، كالتخويف بالقصص
المزعجة وبأساليب التخويف والتهديد المختلفة ، وما الى ذلك .

ولعل أهم أسباب التأرق في أجزاء الليل المختلفة هي الرغبات المكبوتة ،
ومعروف أن الذات العليا أو الضمير اللاشعورى عنصر كابت يقع عادة في

نزاع مع الـ « هي » ، ولذا ينسب التارق أحيانا الى يقظة الضمير (خوفا من طغيان النزعات) ، أو الى الاحساس بالذنب ، أو الى الخوف من الوقوع في الخطأ ؛ ومن أسباب التارق الهموم والرغبات المعلقة غير المشبعة ؛ ومن حالات هذا النوع حالة طالب في سن الثامنة عشرة يشكو من أنه يتبدل ذهنه آخر النهار ، ويصير غير قادر على الفهم أو المناقشة ، ويشعر بحاجته الى النوم ، فاذا ما ذهب الى سريره تبدأ أفكار كثيرة في الظهور ، ويصبح غير قادر على النوم ساعات طويلة ، بل يستمر غالبا طول الليل ، لا هو بالنائم ولا هو باليقظ ، الى أن تدوخ رأسه من كثرة الأفكار ، وتتلخص حالته في أن لديه شعورا بالنقص ظهر بوضوح بعد وفاة أخيه الأكبر الذي مات بعد وفاة والده ، وسبب شعوره بالنقص أنه يشعر بعدم قدرته على سد الفراغ الذي حدث بوفاة أخيه ، وهناك أسباب أخرى لشعوره بالنقص منها شدة صغر جسمه ، وعدم نجاحه في مغامرات صغار الشبان ، سواء في تكوين الأصدقاء ، أو في شهرته بينهم بما يناسب مقدرته ، أو في قدرته على محادثة البنات دون وقوع في الاضطراب ، ومن مصادر مشكلاته أيضا مبالغة أمه في العطف عليه مبالغة أفقدته ثقته في نفسه ، فهي تقضى له كل طلباته ولا ترغب في بعده عنها ، واذا خالفها أصابها المرض ، وأشعرته أنه السبب في مرضها • فأمه تسيطر عليه سيطرة شديدة بنوع من الضعف الذي تظهره ، حتى أصبح الولد ضعيفا جدا أمام ضعفها • ولكنه ممزق بين خضوعه لضعفها ، ورغبته في التخلص من هذا الخضوع • ووصلت به الحال الى أنه يتمنى الموت بسبب ما هو فيه ، ويشفق على أمه أن يؤدي بها ذلك الى الحزن والمرض • والذي يقض مضجع الولد هو الأفكار ، وأحلام اليقظة ، وخیالات ترتبط بما عنده من رغبات مكبوتة ، وصراعات نفسية عنيفة معقدة • وترجع كل هذه المظاهر في هذه الحالة الى أسباب أخرى أعمق من هذه بكثير يرجع تاريخها الى سنى الطفولة الأولى ، ولا يمكن الافاضة في بسطها في هذا المقام •

التقلب والمشى والكلام فى أثناء النوم :

ويشبه الأرق النوم المصحوب بالتقلب ، وكثرة الحركة ، والمشى ، والكلام والصياح وبعض هذه المظاهر قد تحدث فى صغار الأطفال ، وكثيرا ما تكون عرضية لا يجوز أن يعلق عليها كبير أهمية • فكل شخص يغير وضعه فى أثناء النوم • والشخص العادى يغير وضعه حوالى ٣٥ مرة فى الليلة الواحدة ، وذلك ليعطى كل جزء من أجزاء جسمه فرصة كافية للاسترخاء والراحة • ولكن يجب توجيه الاهتمام اذا تكرر التقلب والمشى والكلام وما الى ذلك بدرجة غير عادية • ويجب اذ ذاك أن ندرس الحالة أولا من ناحية الأسباب الجسدية كسوء الهضم ، أو الامساك أو الإفراط فى الأكل قبل النوم ، أو بعض اضطرابات الغدد كالغدد الدرقية ، أو وجود الديدان ، وأن ندرس كذلك نوع الغطاء ونوع الفراش ونوع التهوية وما شابه ذلك • واذا تأكدنا أن هذه الأسباب لا ترجع اليها مظاهر النوم المضطرب فلنبحث عن احتمال فقدان الطفل شعوره بالأمن ، أو اختفاء شخص معين عزيز على الطفل عن طريق الوفاة أو السفر أو الطلاق أو ما شابه ذلك • وطبيعى أن اضطرابات الأطفال كاضطرابات الكبار تكون ممنوعة من الظهور فى أثناء النهار ، وذلك لانشغال الفرد بمجرى الحياة العادية من عمل ولعب ، وهذا نوع من الكبت • وتجدر النزعات المكبوتة فرصة طيبة للظهور فى أثناء الليل فى الأحلام ، وتكون هذه المظاهر وهى التقلب ، والمشى ، والكلام ، وغيرها أجزاء من الأحلام • والحالة النفسية الأساسية التى ترتبط عادة بهذا النشاط فى أثناء الليل هى الخوف ، ولو أن هناك أنواع نشاط أخرى يكون قد عاش فى جوها الفرد فى أثناء النهار ، ولكنه لم يعيش فيها بحيث يشبع رغبته اشباعا كاملا منها فيعيش فيها فى أثناء الليل • فاذا شاهد أحد الأولاد مباراة فى كرة القدم ، وكانت له رغبة فى اللعب يمنع من تحقيقها ، فانه قد يحلم بالليل أنه يلعب • وقد يأتى ببعض الحركات المصاحبة لذلك كالرفس مثلا • وكان أحد الطلبة فى مصر فى أثناء ثورة ١٩١٩ يقوم بالليل فى سريره ويخطب ويهتف •

وكان هذا الطالب يتمنى العظمة والشهرة والقدرة على الخطابة ، ولكن والده كان يقيد حركاته وسكناته ، وكان يمنعه من الاشتراك في نشاط الحركة الوطنية وما فيها من خطب وهتافات ومظاهرات وغير ذلك . ومن بين الحالات التي درسناها حالة شاب يجلس في سريره مفتوح العينين كأنما يراقب شيئا والمرجح من دراسة تاريخ حياته ، أن عاملا مهما في ذلك ، هو أنه كان أحيانا يرى حدوث العملية الجنسية بين والديه مما جعله يفزع ويهم لمراقبتهم . واستمر معه هذا الى أن كبر وتزوج .

ومن الحالات النادرة ، حالة غلام كان يقوم بالليل ، ويلبس ملابسه ويخرج من غرفة نومه ويفتح الأبواب ويمشي ، وكان يقطع ما يقرب من الميلىن ، الى أن يصل الى المقابر حيث دفن والده ؛ وهناك يركع ويتلو عليه أدعيته وصلواته ، ثم يعود الى منزله وينام في سريره^(١) . وحالة أخرى لبنت كانت تقوم من سريرها وتذهب للمطبخ وتوقد « شمعدانا » وتمسك به وتمشى الى الباب الرئيسى للمنزل وتقف « بالشمعدان » فى يدها وتظهرها ملصق بالباب . وكان محور حالة هذه البنت أنها كانت تخاف اللصوص ، فكانت بعملها هذا كأنها تحرس المنزل منهم^(٢) .

ومعظم حالات النوم المضطرب بأنواعه تكون فى الأطفال عرضية ولكن اذا تكررت بحيث يحتاج الأمر لدراستها بطريقة مستفيضة ، فليتنجى البحث بعد استيفاء الناحية الجسمية الى الحياة الانفعالية للفرد ، والبحث عما هو مكبوت عنده من نزعات يراد تحقيقها بطريقة مشبعة .

ومن أنواع الاضطراب الشائعة فى النوم التبول ، لاسيما بعد انتهاء المرحلة التى يجب أن يكون قد وصل الشخص فيها الى المقدرة على ضبط الجهاز البولى . ونظرا لشيوع هذه المشكلة سنفرد لها بحثا خاصا .

(١) D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child; p. 81.

(٢) من حالات احدى العيادات السيولوجية بلندن عن لسان الدكتور هاملتون بيرسون (Pearson) الاختصاصى النفسانى بمعهد علم النفس الطبى بلندن .

المراجع

- Blanton : Child Guidance.
Blatz and Bott : The Management of Young Children.
Boenheim : Practical Child Psychotherapy.
Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.
Hutchinson : Motives of Conduct in Children.
Kanner : Child Psychiatry.
Kennedy : The Management of Babies : The Family Book.
Patri, Angelo : Child Training.
D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الخامس عشر

التبول اللاإرادی

مقدمة:

كثيرا ما نجد بعض الأطفال يتبولون في أثناء نومهم بالليل في سن كان ينتظر منهم فيها أن يكونوا قد تعودوا ضبط جهازهم البولي والاستيقاظ لتفريغ ما تجمع في مثانتهم من بول • وسن ضبط الجهاز البولي تختلف من طفل الى آخر اختلافات كبيرة يرجع بعضها الى حساسية الجهاز البولي ، والى حجم المثانة وسعتها • وسن ضبط هذا الجهاز تقع بالتقريب في الثالثة من العمر ، ولو أن بعض الأطفال يضبطون قبل سن الثانية بكثير^(١) • واذا استمر الطفل يتبول وهو نائم الى ما بعد الرابعة ، فعلى الآباء أن يفكروا جديا في الأمر • وفي بعض الحالات ينجح الطفل في ضبط نفسه في سن مبكرة • ولكن لسبب عارض ، قد يحدث أن يتبول الطفل وهو نائم في سن متقدمة ، بعد أن يكون قد مر في سنوات عديدة دون أن يحدث منه ذلك • ومن هذه الأسباب العارضة الاصابة بالبرد العادى أو كثرة أخذ السوائل قبل النوم كمص القصب ، أو ما شابه ذلك • وقد يكون السبب العارض انفعاليا • مثال ذلك أن طفلا كان قد نجح في تكوين عادة ضبط الجهاز البولي من سن الثانية ، وأريد ازالة لوزتيه وزوائده الأنفية لتضخمها تضخما شديدا في سن السابعة ، وفي مساء اليوم الذى تقرر فيه اجراء العملية

(١) وهناك حالة لبنت تمكنت من ضبط نفسها في الشهر الرابع من عمرها ، وقد ذكرتها الدكتورة اليس هتشينسون في كتابها Alice Hutchinson : Motives of Conduct in Children p. 155.

تبول في أثناء نومه • وواضح أن التبول اللاارادى في هذه الحالة مرتبط بحالة الخوف الطارئة على ذهن الولد •

وعلى هذا فعلى الآباء ألا يعيروا حادثة واحدة من حوادث التبول من الاهتمام ما قد يثبتها في ذهن الطفل ، ويشعره بالذنب ، وبالنقص ، وبالدلة بسبب هذا الحادث المفرد •

ولكن الذى يجب أن يسترعى الاهتمام التبول المتكرر في أثناء النوم بعد سن الرابعة أو الخامسة • وقد يستمر بعض الناس هكذا الى سن العشرين • وقد يستمر البعض الى ما بعد ذلك •

الاسباب الجسمية وعلاجها :

الواجب الأول في دراسة حالات التبول هو الفحص الجسمى الدقيق الشامل ، فقد يكون هناك أسباب جسمية عامة كققر الدم ، أو الاضطرابات العصبية العامة، أو انتشار «التوكسينات» في الجسم لوجود بؤرة «للتوكسين» (Septic focus) يجب البحث عنها ومهاجمتها ، وقد يكون هناك أسباب جسمية محلية كائنة في الجهاز البولى كالكليتين ، أو المثانة ، أو مجرى البول • وقد تكون الأسباب الجسمية المحلية مما يؤثر في الجهاز البولى كالتهاب المستقيم مثلاً • ويبالغ بعض الناس في أهمية الأسباب الجسمية دون غيرها • ويبالغ آخرون في أهمية الأسباب النفسية دون غيرها • ولكننا ندعو الى ضرورة الاهتمام بهما معا ، وندعو كذلك الى ضرورة التثبيت من علاج ما يحتمل وجوده من عوامل جسمية • ويمكن تقسيم العوامل الجسمية التى يجب فحصها في التبول الى ما يأتى :

١ — حالة البول ووجوب معرفة ما اذا كانت درجة حموضة البول عالية ، أو اذا كان هناك التهاب في حوض الكلية (Pyelitis) أو التهاب في المثانة (Cystitis) أو التهاب في الحالب أو وجود حصوات في أى جهة من الجهات (الكلية أو الحالب أو المثانة) •

٢ — حالة التهاب مجرى البول المعروفة في الذكور باسم (Urethral Inflammation) وفي الاناث باسم (Vulvo Vaginitis)

٣ — كثرة التبول (Polyuria) وقد يكون هذا متسببا من مرض السكر (Diabetes) بنوعيه • وأحدهما ينشأ من اختلال افراز بعض أجزاء الغدة النخامية، واسمه (Diabetes Insipidus)، والثاني ينشأ من عدم كفاية الأنسولين الذى تفرزه الغدة الموجودة فى البنكرياس واسمه (Diabetes Mellitus)

٤ — التهابات المستقيم (Proctitis)

٥ — الديدان المعوية والبلهارسيا والانكلستوما •

٦ — عدم التحام العمود الفقرى فى أجزائه السفلى واسمه (Spina

Bifida Occulta)

٧ — الامساك وسوء الهضم •

٨ — تضخم اللوز والزوائد الأنفية •

٩ — الحالة العامة كالانهاك العصبى وفقر الدم ونقص « الفيتامينات »

وما الى ذلك •

ويجب علاج الحالة الجسمانية التى يحتمل أن تكون أحد العوامل الأصلية أو المساعدة التى تؤدى الى التبول علاجا حاسما عند بدء ظهورها • ومن الجائز أن يستمر التبول حتى بعد علاج العامل الجسمانى بحكم العادة • فيجب بعد ذلك العمل على تكوين العادات اللازمة للتغلب على البول فى أثناء النوم •

ومن الحالات التى أرسلت الى العيادة السيكلوجية ، ولد عمره ثلاث عشرة سنة كان يتبول وهو نائم ، وكان ضعيفا شاحب اللون ، واتضح أنه مريض بالبلهارسيا ، والتهاب فى قناة مجرى البول ، وكان يسعل صباحا ومساء ، وعنده بعض التواء فى العمود الفقرى • وكان الولد بالقسم الداخلى فى إحدى المدارس ، وأمكن علاجه من الكثير مما كان به من الأمراض مما حسن فى صحته العامة ، ومكنه من بذل جهد مثير • وأمكن عمل الترتيب اللازم لاعطائه الطعام المغذى المناسب ، وأرشد الى عدم

الاكثار من المواد الحريفة أو الشديدة الملوحة ، أو الخلاوة ، حتى لا يضطر الى كثرة شرب الماء • وأمكن عمل الترتيب اللازم لزيادة الأغذية المقررة له ، وتشجيعه على الاستيقاظ حوالى الساعة الحادية عشرة ليذهب الى دورة المياه ، وزيادة تشجيعه بعد نجاحه فى محاولاته ، وجعل الجو المحيط به جوا طبيعيا ازاء مشكلته ، الى أن تحسنت حالته الجسمية والنفسية تحسنا واضحا •

وهناك حالة أخرى لولد أرسل فى سن السابعة والنصف الى العيادة لما عنده من تهته ، وتبول ، وبعض حركات عصبية • واتضح بفحصه أنه شره وضعيف البنية ؛ اذ أن وزنه أقل من العادى بالنسبة لطوله وسنه بمقدار خمسة كيلوجرامات تقريبا ، واتضح كذلك أن عنده احتقانا فى اللوزتين ، وأن لديه زوائد أنفية متضخمة • وتحليل البراز وجدت به بويضات وديدان « الأكسيروس » (Oxyuris) وكان واضحا بدراسة ظروف الحالة من الناحية الاجتماعية أن أول وأهم ما يحتاجه هو العلاج الجسمانى • وقد تعاونت الأسرة مع العيادة تعاوننا كاملا ، فأزيلت اللوزتان والزوائد ، وعولج من « الأكسيروس » ، ونصحنا الأسرة أن ينام الطفل بمفرده — اذ كان ينام مع أخت له كانت تتبول أحيانا — وألا يذهب للمدرسة حتى يتقوى جسمه وذلك بأن يلعب اللعب الكافى ويتغذى • وبالفعل تحسنت حالته كلها ، فقلت حركاته العصبية وقلت تهته • وللحالة ظروف وأعراض أخرى غير ما ذكرنا •

الأسباب النفسية :

وفى بعض الأحيان يرجع التبول الى عوامل نفسية أهم عنصر فيها هو عنصر الخوف ، سواء أكان قائما بذاته أو داخلا فى تكوين اتصالات مركبة • وقد يكون الخوف قائما بذاته ، كما فى الخوف من الظلام ، أو من الحيوان ، أو من التهديد ، أو بعد سماع قصة مزعجة ، أو غير ذلك • وقد يدخل

الخوف في تركيب افعال آخر كالغيرة ؛ فمن الانفعالات الداخلة في تركيب الغيرة خوف الشخص من فقد امتياز معين فقدانا نهائيا • ففي حالة مجيء مولود جديد في الأسرة ، قد يهتم به الوالدان ويهملان من قبله ، فتبدو على هذا مظاهر الغيرة بصورة أو أكثر من صورها المتعددة ، ويصحبها في ذهن الطفل خوف من أنه فقد اهتمام والديه به الى الأبد • ويصحب هذا أيضا شعور بالنقص ، وكثيرا ما يصحب الغيرة من مولود تبول ، أثناء النوم • وليس من السهل ارجاع حالة التبول الى عامل عائلي واحد ، كظهور مولود في الأسرة ، أو تفضيل أحد في الأسرة على صاحب الحالة ، أو وفاة عزيز ، أو غير ذلك بل نجد عادة أنه يترتب على تغير الجو الذي يسود البيئة التي يعيش فيها الطفل فقدته ثقته بنفسه ، وخوفه على مركزه في الحال أو الاستقبال ، مما يسبب له أحلاما مزعجة في أثناء الليل ، يصحبها أحيانا فقدان القدرة على التحكم في ضبط عضلات الجهاز البولي •

لنأخذ حالة توضح ما نقول ، وهي لولد في سن الثامنة كان يتبول في أثناء نومه مرات عديدة في كل ليلة ، وقد بدأ ذلك عقب وفاة والد الطفل وهو في سن الرابعة ، أي بعد أن كان قد قطع مرحلة طويلة في ضبط نفسه من التبول • وبدراسة الحالة وجدنا أن الحالة الصحية طيبة وخالية من جميع الأسباب الجسدية التي يحتمل رجوع الحالة اليها • وأن الأسرة كانت حائلتها المالية فوق المتوسط ، وكان الوالد شابا ناجحا جدا في عمله ، وكان كل من الوالد والولد متعلقا بالآخر تعلقا شديدا • فكان الوالد يأخذ ابنه معه في نزهاته ، وفي الحفلات الكثيرة التي يدعى اليها • وكان الولد لحييته وجمال شكله وذكائه ولباقته موضع فخر والده ، وموضع التفات أصدقائه • فكان الوالد بذلك مرتبطا في ذهن الولد برباط جميل سار • مات الوالد فجأة ، وشاهد الولد بعض ما يصحب الوفاة من أمور مزعجة غير عادية • وبذلك حدث انقلاب فجائي في مجال حياة الطفل ، ويلاحظ أن الأم كانت

أقل تعلقا بالابن من الوالد ، وكانت أكثر تعلقا بابنتها الصغرى منها بالولد ، وبعد وفاة الوالد حصل هبوط شديد في مستوى موارد الأسرة منا اضطرها إلى تغيير مستوى معيشتها تغييرا كبيرا جدا • فقد أخذت الأم أولادها وسكنت مع أمها في مسكنها الذي لم يكن يتسع أصلا إلا لها ولابنتها الأخرى وابنها • ومع ذلك رتب المنزل لاختلاء غرفة للولد وأمه وأخته • وبعد مدة قصيرة تضايقت الجدة من الأولاد ومن ميلهم إلى الحركة واللعب والصياح ، الأمر الذي لم تعتده في سنواتها الأخيرة • فكانت تعلن سخطها وتضايقها على مسمع من الأولاد ، ونظرا لأن الولد أكثر نشاطا وقلقا من البنت ، كان يخصه من سخط جدته النصيب الأكبر ، وما وصل الطفل إلى سن السادسة حتى بدأ يحدث في مجال حياته تغيير جوهرى آخر وهو أن أمه بدأت تفكر في الزواج ، وكان الولد غير راض بهذا الزواج • وعدم رضائه قد يكون بعضه بوحى ممن حوله . من جدة وخال وخالات وأقارب ، وبعضه قد يكون لأنه كان يحس احساسا غامضا أنه يمكنه أن يحل محل الوالد بعد وفاته ، فكان يريد أن يحتفظ بهذه المكانة • وبعضه قد يكون راجعا لأن نفسه تأبى أن يحل شخص غريب محل أبيه • وبعضه قديكون راجعا لما يسمعه من أن زوج الأم يجعل جو المنزل عادة غير سائغ لأولاد من زوج آخر • خلاصة الأمر أن الولد كان كارها لهذا المشروع وكارها لأمه ^(١) وبالتالي أصبحت أمه تكرهه ^(٢) وكانت تؤلب أخته الصغيرة عليه لدرجة أنها كانت تطلب منها أن تبصق في وجهه اذا هو غاظها ، ولهذا أصبح مركز الطفل في مجال حياته ينتقل بسرعة من سبىء إلى أسوأ ، فبعد أن فقد الولد أباه ، لم يجد في أمه ولا جدته عوضا ، بل بالعكس ، وجد فيهما خصما على حد تقديره • وأخذت هذه الخصومة تزداد ، وبذلك ازدادت مخاوفه وازداد ضعف ثقته ببيئته زيادة كبيرة •

(١) ، (٢) دلنا على وجود هذه الكراهية أساليب التعامل المتبادلة بين الولد وأمه ، وأغلب الظن أنها كانت غير شعورية •

لوحظ الولد فى أثناء نومه ، وكان يتقلب وينام نوما مضطربا ، وكان عند تبوله فى أثناء نومه يصيح ويشتم موجهة شتائم له لساء ، وكان تبوله مصحوبا بشبه كابوس شديد ، وكان من أحلامه أن يحلم بمصارعة الثعابين ، التى كانت تعضه وتغلبه على أمره • ولعل الثعبان كان فى أحلامه رمزا لخطيب الأم •

حاولت العيادة الحصول على تعاون الأم فى المساواة فى المعاملة بين الولد والبنت ، وفى بذل جهد فى معاونة ابنها على تكوين عادة الاستيقاظ ، وفى تحسين مركز الولد بتحسين مجال حياته • والوصول به الى شعوره بحب والدته وتقديرها له ؛ ولكن الأم لم تتعاون مع العيادة بالمرة ، وكانت تريد أن تعالج ما عند ابنها دون أن تبذل هى من جانبها أى نوع من المجهود أو التضحية • فكانت تريد دواء تعطيه لابنها ليتناوله حتى يشفى ما به • أما أن يطلب منها بذل جهد ما ، فهى تفضل عليه أن يستمر ابنها فيما هو فيه • ومعظم الحالات الأخرى يرجع فيها السبب الى أن مجال حياة الطفل يفقده الشعور بالأمن ، فتصبح حياته قلقة ، ويبدو قلقه هذا فى مظاهر متعددة لا يخرج التبول فى أثناء النوم عن كونه واحدا منها • فحالات التبول تظهر معها التهته أحيانا وأحيانا يكون معها الجبن وضعف الثقة بالنفس ، ويظهر معها أحيانا الميل الشديد الى التخريب ونوبات الغضب والميل الشديد الى المعاندة كما فى الحالة التى فصلناها •

ويلاحظ فى حالات كثيرة أنه ليس من السهل تحديد السبب أو مجموعة الأسباب التى يرجع اليها التبول فى أثناء الليل • ففى احدى الحالات التى وردت للعيادة وهى حالة تلميذ بالقسم الداخلى بمدرسة ابتدائية كان فى الثالثة عشرة من عمره • وقد أرسل للعيادة لخموله الدراسى الشديد ، ولتبوله فى أثناء الليل ، وكان الولد ضخيم الجسم سمين الصدر والردين ، مما يشعر باحتمال اضطراب فى افرازات الغدة النخامية ، ولا سيما أنه

متأخرا بعض الشيء فى النمو الجسمى ، وقد أدت ضخامته وغبابة شكله وسلوكه الى استهزاء التلاميذ به ، وأغرتهم بآثارته ، وهو قليل الاستقرار ، كثير الحركة ، كثير الكلام يميل الى العمل المدرسى اليدوى كالرسم والأشغال ، ولا يميل الى العمل العقلى . وهو مرح لا يشعر بالمسئولية ، ولا يعرف ما له وما عليه . وهو يهمل نفسه كثيرا ، ويتهيج اذا أثاره زملاؤه . والداه متوفيان ، وقتل أخوه بعد وفاتهما وأصبح الولد فى هذه السن المبكرة وحيدا ، ولا يوجد على قيد الحياة من أقاربه سوى خاله وابن عم أبيه .

وهو بالإضافة الى هذا كله مصاب بالبلهارسيا ، وعنده زوائد أنفية ، وهو يميل كثيرا الى أكل الأشياء الشديدة الحلاوة . هذا الولد لديه مجموعة من العوامل الجسمانية والاجتماعية التى يصح أن يترتب عليها التبول فى أثناء الليل . ويجب عدم البدء بأى نوع من أنواع العلاج الأخرى الا بعد التأكد التام من أن جميع الاحتمالات الجسمانية التى يصح أن يرجع اليها التبول قد أزيلت . فالواجب الأول هو علاج البلهارسيا ، وإزالة الزوائد الأنفية ، وبحث حالة الغدة النخامية ، وعلاج ما قد يكون بها من نقص باعطاء مستخلص بعض الغدد اللازمة مثلا . بعد هذا كله يمكن أن يمرن على عادة الاستيقاظ فى الأوقات المناسبة للتبول ، ثم تعالج نواحي النقص الاجتماعية الأخرى ما أمكن . ولم تتمكن العيادة من تطبيق الخطوات السابقة الذكر لانتقال الولد من القاهرة الى الاسكندرية وانقطاع صلته بالعيادة .

ومن أهم أسباب التبول اعتماد الطفل على أمه ، أو حاجته للالتجاء اليها . ففى كثير من حالات التبول نلاحظ أن الطفل يعتمد كثيرا على أمه ، فهى تطعمه ، وتلبسه ، وتقوم له بكل صغيرة وكبيرة ، والتبول هنا قد يكون حيلة لا شعورية تساعد على تحقيق ما تشاق اليه نفس الطفل مما تعود . ويلاحظ أيضا أن الحالات التى يكون فيها الأب قاسيا على الطفل يكون الطفل فيها فى حاجة الى الالتجاء الى الأم ، والتبول قد يأتى

بأمة قريبة منه • ونجد في الحالة التي شرحناها بالتفصيل في (ص ٢٨٣) أن العامل الهام هو أن فقد الأب ربما زاد في حاجة الطفل الى أمه ، وقد كانت الأم بالاضافة الى كل ما تقدم لا تتركه يعتمد على نفسه في شيء ، حتى أنها كانت هي التي تجيب عن الأسئلة التي نوجهها اليه ، ووصل به الأمر أنه — وهو في سن الثامنة — لم يكن يعرف كيف يلبس حذاءه ولا قميص نومه ، وربما كان هذا الاعتماد على الأم عاملا آخر يتدخل في حدوث تبوله •

وربما كان اعتماد الطفل على أمه تفسيراً مقبولا لما يلاحظ في حالات عديدة من تبول الطفل الأخير أو الشبيه بالأخير ، أو الوحيد ، أو الشبيه بالوحيد • وربما أمكن أحيانا أن يفسر بنفس الطريقة تبول الطفل الذي يمرض كثيرا وهو صغير ، فينال من أمه عناية زائدة ثم يشفى بعد ذلك ، ويكبر ، ثم يبدأ يفقد هذا الامتياز وهو لا يقوى على فقدته • من هذا كله تتبين قيمة تحرير الطفل من اعتماده على أمه في جميع أموره بما في ذلك التبول وغيره •

وفي ضوء ما تقدم نرى أن التبول اللاإرادي يمكن النظر اليه — في عدد غير قليل من الحالات — كتعبير لاشعوري من النوع الذي سميناه النكوص (ص ١٣١) — أي الرغبة اللاشعورية للرجوع الى حالة الطفولة التي يتمتع فيها الطفل برعاية الأم • وقد وجد بعض الباحثين أن أكثر من ٥٠٪ من حالات التبول اللاإرادي التي ترسل الى العيادة السيكولوجية في أوروبا فقد الطفل فيها عطف أمه ورعايتها وعنده حاجة شديدة اليهما •

مصاحبات التبول :

للتبول في أثناء النوم مصاحبات بعضها نتائج للتبول نفسه ، وبعضها نتائج للأسباب التي تتج عنها التبول • ولعل أبرز هذه هي النتائج المحسوسة ، اتساخ الفراش وتعرضه للتلف وتلوين هواء غرفة النوم ، التي تكون عادة قليلة التهوية غاصبة بالنائمين ، ومن هذه المصاحبات كذلك الأعراض

السيكولوجية التي تنتج من الشعور بالنقص ، أو فقدان الشعور بالأمن • وهذه الأعراض اما أن تكون من نوع الشعور بالنقص ، أو فقد الشعور بالأمن ، كالفشل الدراسي ، والشعور بالذلة ، والخجل ، والميل الى الانزواء ، والتهته ، والنوبات العصبية ، والاستمناء ، وغير ذلك ؛ واما أن تكون الأعراض تعويضية كالعناد ، والتخريب ، والميل الى الانتقام ، وكثرة النقد ، وسرعة الغضب ، وغير ذلك • ويصاحب التبول — في كثير من الحالات — النوم المضطرب ، والأحلام المزعجة ، وتدهور الحالة العصبية • ويبدو أن هذه الأحلام هي مجرد مصاحبات للتبول وليست سببا له • وقام أحد الباحثين بدرس أنواع الشخصية في حالات التبول فوجد بعد استثناء حالات الضعف العقلي وما يشبهها أنه يمكن تقسيم أصحاب الحالات الى نمطين اثنين • أحدهما النمط العصبى الهائج الزائد النشاط ، وثانيهما النمط الليمفاوى الخامل القليل النشاط • والنوع الثانى يكون عميقا فى نومه ، ويغلب أنه لا يحس بامتلاء مثاقته • أما النوع الأول فيغلب أن يكون العامل الأساسى عنده هو اضطراب حياته الاتفعالية بسبب اضطرابه فى مجال حياته •

ويحدث التبول أحيانا عند المراهقين مصاحبا لبعض الأحلام الجنسية • ويبالغ بعض أتباع فرويد فيعتبرون أن نشاط التبول شبه جنسى ، فبعضهم يتكلم عن التلذذ الجنسى للمجارى البولية (Urinary Sexuality or Urethral Erotism) ، وهذا رأى قليل الأنصار •

ومن الملاحظ أن النجاح فى علاج حالة التبول تنقشع معه كثير من مصاحباته ، لأن الذى يعالج عادة ليس هو التبول فقط ، وانما هو المجال الذى يعيش فيه الطفل والذى يترتب على صفته العامة فقد الشعور بالأمن ، والذى يكون التبول فيه عرضا واحدا من مجموعة غير صغيرة من الأعراض • وتزول مع حالة التبول فى كثير من الأحيان نتائجها المباشرة كالشعور بالذلة ، والخجل ، والتأخر الدراسى ، والميل للوحدة ، وما شابه ذلك •

العلاج والوقاية :

سبق أن ذكرنا أنه يجب التأكد أولا من سلامة الجسم من كل ما يحتمل أن يكون عاملا فعلا أو عاملا مساعدا في عملية التبول • ولهذا يجب فحص حالة الجسم العامة والمحلية فحصا دقيقا ، ويجب تحليل البول والبراز والدم لهذا الغرض • ويبالغ بعض المعالجين أحيانا في علاج الناحية الجسمية بمحاولة اعطاء أنواع من الحقن أو توسيع مجرى البول أو تنظيف المثانة ••• وغير ذلك وكان الأطباء الى ما يقرب من ربع قرن مضى يعتقدون أن المشكلة جسمية صرفة ، ولكنهم بدأوا يرون في السنوات الأخيرة أنها يمكن في غالب الأحيان أن تكون ذات أصل سيكولوجي •

ويجب أن يتجه الذهن بعد استكمال الفحص الجسمي الى تحسين حالة البيئة التي يعيش فيها الطفل • فيجب أن يعيش الطفل مطمئنا ، ولذلك يعالج ما قد يكون بين الوالدين من خلاف ، وتعالج طريقة معاملة الوالدين للطفل ، ويعالج كذلك ما قد يكون هناك من غيرة أو فشل دراسي •• أو ما الى ذلك • ويلاحظ أن الوالدين — عند مواجهتهما للتبول — يقعان عادة في كثير من الأخطاء • ويؤدي بعض هذه الأخطاء الى تثبيت المشكلة ، أو الإيحاء بشدة أهميتها وصعوبة التخلص منها ، أو الإيحاء بشوئها في طبيعة الطفل لدرجة لا يفيد معها بذل أى مجهود ازاءها • ومن هذه مثلا أن يعلن الآباء أن الطفل يشبه في تبوله في أثناء نومه بعض أقربائه ، مما قد يوحي بأن المشكلة وراثية وبألا أمل في التخلص منها •/كذلك قد ينسب الآباء المشكلة الى سبب جسماني ، فيهملون العلاج النفسي ، وقد يفتلون عن السبب الجسمي رغم أهميته فيصعب على الطفل اذ ذاك تكوين العادات اللازمة للتغلب على مشكلته لأن السبب جسماني صرف كالتهاب المجارى البولية أو غير ذلك • ومن أخطاء الآباء أن يعلنوا أن الطفل سيتغلب على مشكلته هذه بعد نموه نموا كافيا ، وبذلك يكفون أنفسهم مثونة بذل الجهد في مساعدة الطفل للتغلب على مشكلته •

ويجب التنبيه الى ضرورة عدم اذلال الطفل ، وعدم ضربه وتوبيخه
أو معاملته بالغضب ، أو لصق وضمة به ، أو اعتباره بأثما مسكينا ...
الى غير ذلك • فهذه كلها أساليب من شأنها أن يتعود الطفل توقع الشر
ويفقد القدرة على ضبط المثانة بسبب الخوف والاحساس بالنقص ، ولكن
يجب أن يعامل بالعطف والارشاد العاديين ، على ألا يبالغ الآباء في العطف
فيشتطون في مراعاتهم شعور الطفل الى حد أنهم يخفون مثلاً معالم التبول
قبل أن يشعر بها الطفل نفسه بأن يغيروا له ملابسه أو فراشه قبل أن يستيقظ
من نومه ، وهذه المبالغة في مراعاة احساس الطفل توحى له بخطورة المشكلة
وأهميتها ، وصعوبة التغلب عليها •

ويراعى في معالجة حالة التبول أن يشعر الطفل بضرورة معالجتها ، وأن
علاجها أمر بسيط يتوقف نجاحه كله عليه شخصيا ، وأن المشكلة خاصة به
وليست مشكلة أمه أو أبيه ، ولو أن العلاج يحتاج في أول الأمر الى
مساعدة الكبار المحيطين بالطفل ، كإيقاظه في ساعة معينة من الليل تقع غالبا
حوالي الحادية عشرة تقريبا • وأكبر صعوبة تقابلها العيادة أنها لا تحصل
عادة على المعونة الكافية من الكبار المحيطين بالطفل • فالأمهات لا يردن
عادة أن يبذلن المجهود الكافي • ولا صبر لهن على التطبيق المنتظم المتكرر
لقاعدة معينة جديدة • وكثيرا ما كن يقلن انهن طبقن كل التعليمات التي
أعطيت ، ولا فائدة ، ولا نتيجة • وبلاستقصاء الدقيق يتضح أن التعليمات
لم ينفذ منها شيء قط • فاذا أمكن التأكد من معاونة الأمهات ، كانت عملية
غرس فكرة في الطفل عن مقدرته على التغلب على صعوبته عملية سهلة يقوم
بها الاختصاصي النفساني •

ويمكن تلخيص عوامل نجاح معالجة حالات التبول في : المواظبة ،
والدقة في تنفيذ النظام الذي تضعه العيادة ، وفي وجود الاهتمام الكافي من
جانب الطفل والأم وفي الثقة بالنجاح • وهذه الثقة في النجاح تزداد عادة

بالنجاح نفسه والشعور بمقداره ، ويأتى هذا كله بعد التأكد من إزالة الأسباب الجسمية أو العوامل الانفعالية الناشئة عادة بدورها من مجال حياة الطفل .

ويصح أن نضيف هنا بعض القواعد التى يجب أن تراعى بوجه عام مع كل طفل وبنوع خاص مع الطفل الذى تكون لديه حالة تبول فى أثناء النوم :

١ — اتباع نظام دقيق جدا لمواعيد التبول وتنفيذ هذا النظام من الأشهر الأولى (١) .

٢ — تعويد الطفل نهارا ضبط نفسه مدة كافية ، وذلك بالمباعدة بين أوقات ذهابه للتبول نهارا ، ويمكن الناشئ بعد تمرنه أن يتبول مرة كل أربع ساعات أو خمس . ومع ذلك يجب تعويد الطفل تلبية الحاجة للتبول فى الوقت المناسب ، لأن حبس البول مدة طويلة جدا يفقد المثانة قدرتها الطبيعية على حجز البول .

ويجب تعويد الطفل الاستيقاظ ليا وذلك بإيقاظه إقاظا تاما لهذا الغرض بعد أول ذهابه للنوم بساعة ونصف تقريبا ، ثم يوقظ مرة أخرى بعد ذلك بأربع ساعات أو خمس ، ويمكن كل أم أن تكتشف الوقت المناسب لايقاظ طفلها . ويجب تعويد الطفل التبول قبل نومه مباشرة .

٣ — استيفاء الشروط الصحية المعروفة للتغذية ، واللعب ، والنوم ، من حيث الكمية والنوع والمواعيد .

٤ — منع أكل الأشياء التى تتطلب شرب كميات كبيرة من الماء ، كالمواد الحريفة أو الشديدة الملوحة أو الحلاوة .

(١) هذا النظام يمكن الاطلاع عليه فى أى كتاب من كتب تربية الأطفال مثل :

١ — دستور الطفل للدكتور مصطفى الديوانى - الفصل الخامس .

ب — Alice Hutchinson : Motives of Conduct in Children pp. 154, 170.

ج — G. Aubyn : The Family Book.

د — L. Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.

- ٥ - منع تناول السوائل بكميات كبيرة قبل النوم •
- ٦ - منع جميع المهيجات المحلية في الأجهزة البولية وما حولها ومنع مسببات الامساك •
- ٧ - مساعدة الطفل على التغلب على ما يجعل عملية التبول صعبة • وهذه الصعوبات قد تكون في الملابس ، فيجب أن تكون الملابس بحيث يسهل حلها عندما تظهر الحاجة الى ذلك • وقد تكون الصعوبة في المكان المخصص للتبول كبعده أو اظلامه أو اظلام الطريق المؤدى اليه ، أو في عدم ملاءمته لأمر ما ، مما قد يدفع الطفل اذا هو استيقظ للتبول في أثناء الليل الى تأجيل عملية تفرغ البول الى الصباح وبذلك قد تفرغ مثانته رغم ارادته •
- ٨ - اذا كان الطفل يخاف الظلام فليكن في غرفة نومه ضوء بسيط جدا أو (بطارية) أو اثناء خاص للتبول ، أو فليصاحبه أحد الكبار المحيطين به الى دورة المياه •
- ٩ - زيادة ساعات النوم والراحة للطفل الذي يتبول في أثناء النوم ؛ اذ يكون هذا النوع من الأطفال عادة منهك الأعصاب • ولزيادة ساعات الراحة ، - خصوصا في القيلولة - أهمية أخرى وهي أنها تقلل من عمق النوم بالليل • لأن هذا العمق في النوم يجعل الاستيقاظ أمرا عسيرا • وأغلب الذين يتبولون في نومهم ليلا لا يوقظون عادة الا بصعوبة كبرى •
- ١٠ - توفير ما يؤدي الى اشباع الطفل حاجاته الأولية من أمن وتقدير وعطف وحرية ••• وما الى ذلك •

التبول في أثناء اليقظة :

وتوجد بعض حالات للتبول في أثناء اليقظة ، ولو أن هذه العادة عرضية ، وقليلة الوقوع ، وتحدث غالبا في المواقف التي ينشغل فيها ذهن الطفل انشغالا كبيرا باللعب أو المشاجرة أو المناقشة أو غير ذلك • ويظل الطفل

يُرجل عملية افراغ مثاته الى أن تأتى اللحظة التى لا يقوى فيها على ضبط نفسه ، ويكون الوقت اذ ذاك غير كاف للذهاب الى المكان المناسب لعملية التفرغ . وبعض الأطفال ينسون أنفسهم ، وينصرفون للعبهم ، فتتفرغ مثاتهم ، ولا يتنبهون الا فى لحظة وقوع الحادث . وواجبنا فى هذه الحالات أن نتحدث الى الطفل ، ونفهمه ما يجب عمله بمجرد الشعور بالحاجة الى التفرغ ، ونفهمه أنه ان تكرر منه هذا فانه ربما لا نسمح له باللعب مع أصدقائه ، ذلك اللعب الذى ينسيه أداء هذه العملية ، ويكون هذا فى العادة كافيا لمعالجته .

ويحدث هذا نفسه أيضا فى تلاميذ المدارس الأولية والرياض عند أول ذهابهم اليها وعدم تقديرهم لبعد دورات المياه عن حجرات الدراسة ، ولتخرجهم أحيانا من طلب الخروج من الفصل ، وغير ذلك من الأسباب العادية البسيطة التى يسهل معرفتها ، ويسهل التغلب عليها اذا قدرت وحسب لها حسابها .

وقد يرجع التبول فى أثناء اليقظة للغيرة ، أو الخوف ، أو عدم الشعور بالأمن . وقد حدث مرة أن كانت أم ومعهما طفلها الوحيد ، وعمره ثلاث سنوات ، وكان قد تعود أن تحمله أمه على كتفها ، وأن تجلسه فى حجرها . . . الى غير ذلك . وبينما هم فى منزلهم اذ جاءتهم سيدة زائرة ومعهما ابنتها فى سن السنة ونصف السنة . وكما هى العادة أخذت الأم ابنة السيدة الزائرة ، وحملتها على كتفها ، ولاعبتها وداعبتها . وكان ابن سيدة البيت واقفا ، فبدت عليه علائم الغيرة ، وأخذ يشد أطراف ملابس والدته وأظهر علامات الضجر . فأنزلت الأم ابنة السيدة الزائرة ، ثم حملت ابنها . وفى الحال تبول وهو على كتف أمه ، وهذا موقف قد يكون فيه غيرة ، وخوف ، ونكوص ، وانتقام من الأم . . . الى غير ذلك .

ومن حالات التبول فى أثناء اليقظة وفى أثناء النوم على حد سواء ، حالة

لبنت في السابعة من عمرها حولت الى العيادة السيكولوجية ، لعنادها وبذاءة ألفاظها ووقاحتها ومخالفتها كل أمر وتدلها على كل من حولها • واتضح أن هناك أمرا آخر لم يذكر في الشكوى وهو قبول البنت (على نفسها) في حالتى النوم واليقظة ، وبدراسة الحالة اتضح أن البنت تعيش مع جدها لأبيها في ضاحية من ضواحي القاهرة ، وجدها هذا متزوج بخالتها التى لم تكن تنجب أطفالا الا ماتوا في الأسابيع الأولى من عمرهم ، فقد وضعت ما يزيد على عشر مرات (خمسة بنين • وثلاث بنات ، وبضع سقطات) • أما والد البنت وأمها وبقية أولادهما فانهم يعيشون في بلدة بعيدة عن القاهرة • وهؤلاء الأولاد عددهم جميعا أربعة بينهم ثلاثة ذكور تتراوح أعمارهم بين الخمس السنوات والسنة الواحدة ، وكانت البنت التى نحن بصدددها هى أولى أخواتها وأثاهم الوحيدة •

وظهر أن زوجة الجد أو خالة البنت تسيطر على الجميع ، فكلمتها هى المسموعة من الوالد • وهى بالرغم من قوتها ضعيفة للغاية مع البنت ، فهى تدللها ، وتجيب كل ما يمكن تصوره من طلباتها ، وتستجدى رضاها حتى تبقى معها ولا تطلب العودة الى أمها وأبيها • ويظهر أن البنت وقعت في صراع عنيف بين أن تمكث مع خالتها حيث يمكنها أن تتمتع بكل ما تريد متى شاءت ، وأين شاءت ، وكيف شاءت ، وبين أن تذهب الى مكانها الطبيعي مع أمها ، وأبيها ، وأخوتها ، حيث يمكنها أن تلعب ، وتتسلى ، وحيث يوجد بعض النظام والضبط • يظهر أن البنت وقعت في هذا الصراع ، وكان من نتائجها أنها أصبحت مزعجة من كل ناحية فهى تغنى ، وترقص ، وتنظر في المرأة الساعات الطوال ، وتأكل ما تشاء دون مراعاة للكيف أو الكم ، أو الوقت المناسب ، وتذهب للمدرسة متى تشاء • وهى تعاند ، وتخرب وتصرخ ، وتشتم الجميع من الجد الى أصغر خادم في المنزل بأقذر الألفاظ • وتقطع الزرع ، وتفتح صنايير المياه لتغرق الحديقة كلها ، وتكسر الأشياء

عمدا • وتصر على طلبات في أوقات يستحيل تنفيذها فيها ••• الى غير ذلك • وقد اشتكت منها الروضة مرارا وتكرارا • وهى بالاضافة الى كل هذا تبول نهارا وليلا • أرسلت البنت الى أطباء اختصاصيين ، ولم يجدوا بها ما يبرر عصبيتها وتبولها الا بعض الامساك • وقد نصحننا الجد بوجوب ارسالها الى أبويها ، فتنهد الرجل وقال ان زوجته ستموت كمدا اذا هى أرغمت على مفارقتها ، ولم يكن هناك سبيل الى ارغامها في نظره • ونصحناه أيضا بوجوب تنظيم حياة البنت في منزل أبيها • والى أن يتم نقلها هناك نصحناه بوجوب منع الأكلات الصغيرة بين الأكلات الرئيسية لأن هذه هى التى تقلل ظاهريا من شهيتها وتدفعها لكثرة شرب الماء • ولكن في الزيارة الثانية للعيادة لاحظنا أن جيوب البنت محشوة بأنواع الحلوى ، فلما وجهنا نظر الجد أقسم بأن هذا قليل جدا ، ولم يدفع فيه أكثر من قرشين اثنين ، اذ تعلقت البنت ببائع الحلوى في الترام فاضطر ألا يقهر رغبتها • وبعد زيارات طويلة متتالية وافق الجد على ارسال البنت الى أمها وسافرت فعلا • ثم انقطعت أخبارهم عنا زغم تكرر كتابتنا لهم •

ويتلخص علاج حالات التبول في أثناء اليقظة في أساسه في إعادة تنظيم مجال حياة الطفل حتى تزول أسباب قلقه ، وحتى يعود عدم التسويف اذا ما شعر بالحاجة الى التبول •

خاتمة:

يتبين من كل ما تقدم أن التبول اللا ارادى يكون في الغالب نتيجة لمجموعة عوامل جسمية ونفسية ، غير أن أهم عامل يجب أن تتجه اليه بعد استيفاء درس جميع النواحي الجسمية هو توفير الأمن للطفل • وقد لوحظ أن علاج التبول يؤثر في حالة الشخص النفسية والجسمية أثرا واضحا ، كما أنه يتأثر بهما الى حد بعيد ولم يتسع المجال للافاضة في مختلف البحوث والآراء التى ظهرت عن صلة العوامل الجسمية بالتبول ، ولا عن كيفية التحكم الارادى في عضلات المثانة ، ولا عن أثر الخوف في هذه العضلات ،

كذلك لم نستوقف رأى بعض أتباع « فرويد » عن أن التبول نوع من النشاط الجنسي ، فقد رأينا كثيرا من أتباع « فرويد » الآخرين لا يأخذون بهذا الرأى . وهناك بحوث حديثة غير مستوفاة عن صلة التبول بطابع شخصية الطفل وصلته بطابع شخصية الوالدين ، وصلته بطابع البيئة ، وصلته بدرجة عمق النوم ، وصلته بطابع الأحلام ، وصلته بنشاط الغدد ؛ ولكن هذه البحوث تعتبر ضئيلة القيمة فى هذه المرحلة التى وصلت إليها من الناحية العملية .

ولهذا نكتفى بأن نقول : ان على الأمهات تعويد أطفالهن العادات الملائمة للتبول من سن مبكرة جدا . فاذا تم لهن هذا فان الحياة الصحية من الناحيتين النفسية والجسمية كفيلة باحتمال عدم حدوث التبول اللاارادى ويلاحظ أن حدوثه مرة أو مرات قليلة متباعدة لا يجوز أن نعلق عليه أى أهمية . ولكن اذا كان حدوثه مصاحبا فى هذه الحالات لنوبة نفسية معينة مثلا ، فيجب علاج هذه النوبة والاكتفاء بذلك .

ويشبه التبول اللاارادى التبرز اللاارادى ، ولكن حالاته نادرة جدا اذا قيست الى حالات التبول ، فهى تكاد لا تتجاوز ٤٪ منها . ولعل هذه الندرة ترجع فقط الى أن ضبط البراز أسهل من ضبط التبول . ولكن الظاهرتين تتفقان فيما عدا ذلك اتفاقا يكاد يكون تاما من حيث النتائج والأعراض والأسباب وأساليب العلاج والوقاية .

المراجع

- Aubyn : The Family Book.
Blanton : Child Guidance.
Blatz and Bott : The Management of Young Children.
Boenheim : Practical Child Psychotherapy.
Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
Patri : Child Training.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل السادس عشر

الحركات العصبية : مص الأصابع وقرض الأظافر

مقدمة :

من طبائع الأطفال كثرة الحركة ، والميل الى اللعب ، وندرة تركيز الانتباه في أمر واحد لمدة طويلة . ويلاحظ أن الطفل لا يستقر نشاطه الا في حالة واحدة ، وهي انشغاله بأمر سار لذيذ يركز فيه كل اهتمامه وانتباهه . هذه كلها ملاحظات عادية يستفيد منها الانسان بأنه اذا لاحظ أن طفلا ما قليل الاستقرار ، فليتدبر ما يصح أن يركز فيه الطفل انتباهه ؛ وبذلك يصير الطفل سعيدا مستقلا ، ويصير الكبير قادرا في بعض الأحيان على الانصراف عنه والتفرغ لعمله . واذا كان هذا الذي يشغل الطفل عملا ايجابيا له نتيجة يشعر الطفل بقيمتها بالنسبة له كان فيه خير وقاية للطفل من تعود الاستغراق في أحلام اليقظة ، وكان فيه خير تدريب على وضع بذور الميل نحو النشاط المنتج وبذل الجهد .

ولكن يلاحظ أن عدم استقرار طفل معين قد يكون بصورة عامة بارزة يختلف فيها عن أغلب الأطفال وقد يأخذ عدم الاستقرار صورة خاصة في حركة معينة كرمش العين ، أو هز الكتف ، أو «فرقة» الأصابع ، أو اتيان حركة بالأثف أو بالقلم أو مص الأصابع ، أو الشفاه ، أو اللسان ، أو قرض الأظافر ، أو عض الأقلام ، أو تنظيف الأثف بالأصابع أو عصر حبوب الوجه ، أو اللعب بخصلة من الشعر ، أو حك الرأس أو اللعب بالأعضاء التناسلية . أو غير ذلك من مئات الحركات الخاصة التي تكون بؤرة يتركز فيها النشاط العصبي غير الموجه .

العصبية العامة وانعدام الاستقرار :

إذا لوحظ انعدام الاستقرار أو العصبية العامة في طفل ما فيجب دراسته أولاً من نواحيه الجسمية والوراثية ، فيصح أن ندرس ما إذا كان لدى الطفل حالة جسمية يصح أن يتسبب عنها عدم الاستقرار ، أو العصبية العامة ، ومن هذه الحالات الديدان ، وما يقلل من كفاية التنفس كتضخم اللوز أو الزوائد الأتقية وسوء الهضم والاضطرابات الغدية ؛ وبالجملـة كل ما يؤثر في الصحة العامة أثراً سيئاً • وأما من حيث الناحية الوراثية • فكثيراً ما نلاحظ عدم الاستقرار • أو العصبية العامة في عدد من أقارب الطفل نفسه ، وفي هذه الحالة يحتمل أن يكون الطفل قد ورث خصائص عصبية ساعدته على تكوين صفة العصبية أو عدم الاستقرار • ومن أمثلة ذلك حالة لبنت في سن السابعة أرسلت للعيادة بسبب التبول اللاإرادي نهـارا وليلا ، ووصفتها الأسرة بأنها عصبية ، فهي تغضب ، وتبكي لأتفه الأسباب ، وإذا غضبت فانها تثور وتضرب نفسها ، وتخط برأسها الحائط ، وترفس برجلها ، وبالجملـة يكون كل جسمها في حالة اضطراب عند غضبها ، وهي تغضب في أغلب المناسبات • والبنت لا تعتمد على نفسها ، وهي قليلة الثقة بها ، وأما هي التي تطعمها وتلبسها ، وتقضى لها كل لوازمها • وتوصف الأم بأنها عصبية المزاج ، وتصاب أحيانا بتشنجات • والوالد كذلك عصبى وهو يصاب بنوبات انقباض شديدة ويشعر بضيق الحياة وباليأس • ويصل به الأمر في النوبات التي تصيبه الى أن يبكي بكاء شديدا لغير سبب ، الا أنه يبكي سوء حظه — على حد قوله •

وللوالدة أخت مصابة بالشلل ، ولها أربع أخوات ، لكل منهن طفل أو طفلان ؛ أحدهما أو كلاهما مصاب بضعف في النطق أو تهتة أو ضعف عام • أما جدة البنت فانها شديدة القلق والخوف قليلة الاستقرار •

وقد حضرت البنت الى العيادة السيكولوجية مع أمها وجدتها ، فكانت الأم ترتدى ملابس ذات ألوان عديدة متضاربة • ففى الرداء الواحد اجتمعت ألوان الأحمر القانى الى جانب الأصفر الفاقع ، والى جانبه

البنفسجى الباهت ، وبقرب هؤلاء جميعا لون أسود لامع • وحتى اللقافة (السيجارة) التى دخنتها الأم كان ما بها من تبغ ملفوفا فى ورق أحمر قان غير مألوف • أما الجدة فكانت تنتقل بسرعة من سؤال الى آخر • فسألت عن الطب الروحانى ، والتنويم المغناطيسى ، وعن الحياة الخاصة الداخلية لكل عضو من أعضاء العيادة • ولا يمكن الجزم فى هذه الحالة بأن هناك استعدادا عصيبا موروثا على الرغم من كل ما ذكرنا ، ولكن هناك احتمال الوراثة • ويلاحظ أن مصادر الوراثة والبيئة قد تكونان فى هذه الحالة حلقة متصلة الأجزاء يقوى كل منهما عمل الآخر • وهذا ما يجعل نسبة الحالة لأحدهما دون الآخر أمرا غير سهل ^(١) •

ومن مصاحبات العصبية العامة وعدم الاستقرار فى عدد غير قليل من الحالات ضعف العقل أو الغباء • ويظهر أن المتأخرين فى ذكائهم أقل من غيرهم استعدادا لتوجيه نشاطهم وتوجيه وضبط حركاتهم وتنسيقها • لذا نجدهم متأخرين فى النمو الحركى • وقد يستمر تأخرهم هذا الى أن يكبروا • ونظرا لعدم قدرتهم على مسايرة زملائهم ممن فى سنهم فى لعبهم وحركاتهم ونشاطهم ، تجددهم يتضايقون ويتصفون بالعصبية وتزداد عادة حالتهم سوءا على سوء •

ومع استثناءات قليلة جدا نجد كل حالات الضعف العقلى التى ترسل للعيادات السيكولوجية تتصف بضعف القدرة على التركيز ، أو بالعصبية العامة ، وعدم القدرة على الاستقرار • ويتصف كثير منها فوق ذلك بالرعونة فى الحركة • ولو أن هذه الرعونة لا يخلو منها بعض العادين والأذكاء • وتكون هذه الحالات الأخيرة مصحوبة بالانطواء النفسى (Introversion)

ومن أهم الأسباب السيكولوجية فى عصبية الأطفال ، وعدم استقرارهم شعور الطفل بالبوأس الناشئ من الشعور بعدم تحصيل المستوى الذى تشاق نفسه اليه (Lack of achievement) أو الناشئ من الشعور بعدم توافر القدرة أو توافر الفرصة لتحصيل مثل هذا المستوى ، وقد يشعر الطفل

(١) راجع الفصل الثانى •

بهذا ان كان متأخرا ، كما قلنا ، في قدرة عقلية أو حسية أو جسمية كحالة التأخر العقلي ، أو العمى ، أو الصمم ، أو البكم ، أو ضعف البصر ، أو السمع ، أو صعوبة النطق ، أو العرج ، أو العسر ، أو ما شابه ذلك من مئات الحالات • ولو أنه يندر لصاحب الحالة أو لمن يعيشون معه أن يقرنوا عصبية الشخص وعدم استقراره بعاهته أو ضعفه من الناحية العقلية أو الحسية أو الجسمية ، وينتج مثل هذا أيضا ان كان الطفل أقل في الجمال أو خفة الروح من غيره ممن يوازنون به باستمرار كالاخوة أو الأقارب ، أو الزملاء • وكثيرا ما يحدث هذا بين الاخوة بنوع خاص ، فيوجه الآباء والأقارب والمعارف انتباههم لطفل دون آخر ، فتنتج حالة عصبية أو عدم استقرار عند الطفل الذي لا ينال التقدير ، وبذلك يحرم الطفل اشباع حاجة نفسية أساسية • وربما ينشأ هذا دون شعور من صاحب الحالة •

وبالجملة فكل مجال يشعر فيه الطفل بالشقاء — خصوصا ان كان المجال مستمرا ، بمعنى أن الطفل يقضى فيه جزءا كبيرا من وقته كل يوم كمجال المنزل أو المدرسة مثلا — يحتمل جدا أن ينتج عنه عصبية وعدم استقرار • والمجال الذي يشعر فيه الطفل بالشقاء هو الذي تقف فيه العراقيل دون تحقيق حاجاته الأساسية التي سبق أن ذكرناها ، وهي الحاجة الى الحرية واللعب والحركة ، والحاجة الى السلطة الضابطة غير المتذبذبة الحازمة الخالية من الضعف ، والحاجة الى العطف والشعور بخنو من حوله • نحوه وعطفهم عليه وحبهم له ، والحاجة الى النجاح عند انماء مهاراته وكفاياته بأنواعها المتعددة •

ولتوضيح ما تقدم نأخذ حالة تلميذ في سن التاسعة والنصف ، وهو الابن الوحيد لوالديه ، وقد أحيل الى العيادة لتأخره الدراسي ، وضعف بنيته • وباجراء اختبارات الذكاء عليه اتضح أن ذكائه في مستوى ذكاء ولد متوسط عمره احدى عشرة سنة • ومعنى ذلك أن لديه من المقدرة العقلية الطبيعية ما لا يبرر تأخره ، بل بالعكس ، كان ينتظر منه تفوق باهر • وتصفه والدته بأنه مهمل جدا في ملابسه ، وغير منظم في قضاء حاجاته

المختلفة ؛ اذ قلما يضع شيئا في موضعه • لا يميل الى استذكار دروسه بمفرده •
يميل الى الرسم وقص الورق ويصرف فراغه كله في هذا • وأمه تقرر وتعلن
دائما أنه لم يرسم مع كل هذا رسما مقبولا قط • يصرف كثيرا من وقته
بمنزل جدته لأمه • وجدته تعطيه النقود والحلوى والأكلات الصغيرة التي
تفسد عليه بالطبع انتظام مواعيد الأكلات الرئيسية ، وينام على سرير منفرد
في نفس الحجرة مع والديه^(١) • وينام عادة نوما هادئا ، الا اذا نام بجانب
والدته ، فانه يكون اذ ذاك على جانب كبير من القلق •

والمعاملة المنزلية في مجموعها متغيرة جدا ، فالوالدة شديدة قاسية
كثيرة النقد للولد • والوالد ضعيف لين لا يهتم بشكوى الوالدة من ابنه ،
ويخاف أن يجرح احساسه ، ويصل خوفه هذا الى أنه يتردد ويتلعثم في
أثناء حديثه مع ابنه ، على حين نجد أن ابنه أحيانا يتحداه • ولا يضرب^(٢)
الوالد ابنه أبدا ، وانما الذي يقوم عادة بهذه المهمة هي الوالدة • وقد
ضربته ضربا مبرحا عندما اطلعت ذات مرة على نتيجة عمله في المدرسة • مع
هذا كله يتدخل أبوه في نشاطه ، فالولد مغرم بتأليف القصص الصغيرة ،
ووالده يرى أن هذا لا يتمشى مع المناهج التقليدية للمدارس المصرية ،
وفيه مضیعة للوقت ، فيمنعه بكل وسيلة من هذا • يضاف الى كل ما تقدم
قلق الجميع على صحة الولد ؛ اذ أنه ضعيف من صغره ، ولعل من أسباب
القلق على الولد أن أخاه الذي يكبره بأربع سنوات مات وهو في سن
السادسة •

وقد أجمع كل مدرسيه على أنه مشتت الانتباه شارد الذهن ، وينشغل
بمعاكسة جيرانه ، وقد وصفه أحد المدرسين بأنه في الفصل لا يستقر على
حال من القلق ، فهو يزحف مرة عن يمينه ، وأخرى عن يساره ، يتطلع الى
هذا والى ذاك من زملائه ، ويعبث في أثناء ذلك فيما أمامه من الأدوات •
فاذا لم يجد أمامه ما يعبث به أخذ شيئا من درجه أو من جاره لهذا الغرض ،

(١) راجع فصل المشكلات المتعلقة بالنوم •

(٢) ليس معنى هذا أننا نشجع الضرب •

ويتبادى في ذلك اذا لم ينبه • وهو قليل الصبر على مواصلة عمله ، ولا يميل الى اتقائه ، وحر كاته دائما عصبية •

وقد ضربه والده مرة واحدة وهو في حالة غضب عصبية عند ما كثرت الشكوى منه ، وبعد أن ضربه تولاه الندم الظاهر • ووصلت الحال بالوالد أخيرا أنه لا يمكنه ضرب الولد اطلاقا ؛ ولكنه مع ذلك يوصى المدرسة دائما بوجود ضربه بشدة ، وواضح ما في هذا من تناقض عجيب • فهذه حالة طفل فقد السلطة الضابطة الحازمة في المنزل ، وفقد كثيرا من الشعور بالأمن لشدة ما يحيط به من القلق ، ويعوزه كثير من التمتع بالحرية وربما كانت هذه كلها عوامل قوية في احداث ما عنده من عدم الاستقرار • وهناك ظاهرة أخرى في معاملة هذا الولد تفرد لها حادثة معينة لنين دلالتها ، وخلاصتها أنه كان قد ادخر من تقوده مبلغا من المال فاقترضه منه والده به ليستعين به في سفره الى جهة ما على أن يرده له بعد عودته • ولكنه لم يرده اليه وقد مضى عليه أربع سنوات ، وقد يظن الوالد أن الحادث تافه ، وأن على الطفل أن يعلم أن كل ما يملكه الوالد فهو له • ولكن المهم عند الطفل في الواقع شعوره بالملكية واشباع هذا الشعور اشباعا حسيا ، ولروح العدالة المتعلقة بحق الملكية أهمية كبرى في اشباع الحاجة الى الأمن •

ويتلخص علاج هذه الحالة بعد العناية الصحية بها في تحويل الجو المحيط بالطفل في منزله الى جو ثابت المعاملة يتوافر فيه العطف والحزم والعدالة والحرية وحسن التوجيه ، ويجب أن يتوفر فيه النشاط مع الهدوء من جانب الوالدين ومن جانب الطفل نفسه •

مص الأصابع :

ومن الحركات الخاصة التي تلفت النظر مص الأصابع ، وكثيرا ما يظهر منذ الأسابيع الأولى^(١) ، وقرض الأظافر الذي يظهر في العادة متأخرا قبل

(١) يقال ان كثيرا من الاطفال يعضون أصابعهم وهم في بطون امهاتهم. كما جاء عن Minkowski and Levy في كتاب : Kanner : Child Psychiatry

السنة السابعة تقريبا • وفي الأشهر الأولى يمكن النظر الى مص أصابع اليد أو الرجل كأنه عملية عادية يقوم بها كل طفل تقريبا ، ويشتق منها لذة ، وفي اجرائها شئ من المهارة • فمن المهارة بالنسبة للطفل الصغير تحريك يده أو رجله ووضعها في فمه دفعة واحدة دون أن يخطئ الهدف • وفي التمرن على هذا شئ من التمرن على التوافق العصبي العضلي •

ولكن الخطورة في استمرارها ، والاصرار عليها عند التقدم في السن • وبعض الأطفال يظلون يمصون أصابعهم الى سن الثانية عشرة • ورأيت ذات مرة فتاة في حديقة عامة جالسة شاردة الذهن تمص أصابعها وهي مستغرقة في ذلك استغراقا شديدا ، وكان يبدو أن عمرها لا يقل عن السادسة عشرة • وضرر الاستمرار في هذه العادة يتلخص في أمر واحد ؛ وهو أنها أسلوب لنشاط لا يؤدي الى نتيجة ايجابية ملموسة • ومعنى ذلك أنها نوع من العمل غير المنتج يقوم الطفل به ويتعود عليه • ولهذا كان مص الأصابع عاملا مساعدا يسهل معه الاغراق في أحلام اليقظة ، شأنه في ذلك شأن جميع الأعمال التكرارية غير المنتجة •

ويلاحظ أن الطفل الصغير عند ممارسته مص الأصابع يكون سعيدا ، ويمارسها على فترات • وأما الطفل الكبير فيبدو عليه وهو يمارسها أنه غير سعيد • وتجده يكب عليها باستمرار ، مثله في ذلك مثل المدمنين لتعاطي المكيفات • وتزداد فترات ممارستها لمن اعتادها عند اعتلال صحته ، أو عند عدم تحقيق رغباته ، أو عند محاولته حل مشكلة صعبة ، أو عند عدم الرغبة في النوم • ويكون عادة عند ممارستها بعيدا عن الصلة بهذا العالم الواقعي •

ويقوم الطفل بتخبئة عملية مص الأصابع ، خصوصا اذا حذره أبوه منها • ويستر عمله هذا عادة بأساليب مختلفة ؛ من أكثرها شيوعا تخبئة اليد التي توضع في الثم باليد الأخرى ، ويظن الطفل أول الأمر أن الكبار لا يرونه • وبعض الأطفال يلجئون لهذه الحيلة قبل نهاية السنة الأولى وتثبت الحيلة عندهم فتصبح عادة •

وهناك عدة اعتقادات فيما يختص بآثار مص الأصابع ، وأغلبها مشكوك في صحته ، منها أنه يؤثر في شكل الأصابع ، ويشوه القم وسقف الحلق ، ولكن هذا في العادة لا يحدث . ويعتقد بعض الآباء كذلك أن مص الأصابع في الطفولة مقدمة لعادة الاستمناء في المراهقة ؛ وليس هناك ما يبرر الجزم بهذا ، وإن كان هناك بعض الاحتمال في صحته ؛ لا سيما أن كليهما نوع من التلذذ الجسماني الذاتي الذي لا يعطى نتيجة ايجابية ويصعبه استغراق شديد في أحلام اليقظة . ويعتقد من يفسرون كتابات «فرويد» تفسيراً ضيقاً أن مص الأصابع عملية جنسية (Sexual) في صميمها . هذه كلها اتجاهات قد تزعج بعض الآباء . ولكن ما يزعج الآباء أكثر من كل هذا ، أن مص الأصابع ظاهرة قبيحة المنظر يشتمز منها الناس ، ويصحبها السرحان ، وهو شبيه في ظاهره بالبله .

ومص الأصابع في ذاته ليس مهماً ، إلا أنه دليل على حالة عقلية يجب الاهتمام بها ، وهو يبدأ عادة في السنة الأولى مرتبطاً بالتغذية . فإذا كانت التغذية غير كافية أو بعيدة الفترات ، أو لا تستوفي شرطاً هاماً من الشروط الضرورية ، فإنه يحتمل أن يلجأ الطفل معها الى مص أصابعه^(١) . وهذا نشاط يشغل الطفل ، ولو أنه لا يؤدي الى نتيجة ايجابية . ويترتب على ممارسته أن الطفل يحتمل أن يلجأ اليه كلما قابلته صعوبة ، أى أنه أسلوب قابل للانتشار من موقف الى مواقف أخرى ؛ ففي مواقف الغيرة أو الشدة ، أو الحرمان ، أو ما شابه ذلك ، يحتمل أن يركن الطفل الى ملجئه الذي تعودده وهو مص الأصابع . ومعنى ذلك أن يقنع الطفل بنشاط لا يؤدي الى نتيجة . وهذا الأسلوب الذي يواجه به الطفل مشاكله أسلوب سلبي انسحابي يبعد صاحبه عن مواجهة الواقع . ولذا كان مص الأصابع دليلاً يصح أن نتنبأ به عن احتمال ظهور الصفات النفسية السلبية في الكبر ، كالميل الى العزلة والانكماش ، والخجل ، وقلة الجرأة الاجتماعية في الحديث أو في حصول المرء على حقوقه ومحافظة عليها ، وقلة الميل الى الصراحة ، وشدة

(١) حقيقة أن الطفل كثيراً ما يترك غذاءه ليمص أصابعه ، ولكن هذا لا يحدث الا بعد ثبوت العادة .

الميل للتكتم ، وضعف روح المخاطرة واعتباره كل أمر من أموره سرا
خاصا لا يجوز اطلاق أحد عليه ، وشدة الحساسية ، وسرعة التأثر ، وغير
ذلك من الصفات التى يدخل كثير منها تحت صفات الشخصية المنطوية على
نفسها (Introvert) وهذه الصفات السلبية ليست نتائج لمص الأصابع وانما
هى فى الغالب مصاحبات له .

ولا يجوز أن يقتصر علاج مص الأصابع على الظاهرة نفسها ، وانما
يجب أن يتجه كذلك — بعد التأكد من علاج الحالة الجسمانية التى قد
تساعد على وجود الحالة العصبية — الى معرفة سبب شقاء الطفل فندرس
علاقة الطفل بوالديه واخوته ومدرسيه وزملائه ، ومبلغ تحقق حاجاته الأولية
فى ميادين حياته المختلفة من منزل ومدرسة وعمل ومجتمع ، وبعد دراسة
كل هذا يعدل مجال حياة الطفل بما يحقق هدوءه ونشاطه وسعادته
ويجب أن يعود الطفل شغل يديه فى عمل شائق منتج . ومن الأساليب
الطيبة التى تقترح أن يشغل الطفل بلعب فيه مجال لتركيب قطع بعضها مع
بعض لتكوين شئ معين ، أو يشغل باستعمال آلة موسيقية يشغل فيها
يده أو فمه أو كليهما ، أو يشغل فى مساعدة الأم فى عملها (كادارة آلة
الخياطة ، أو حل كرات الصوف ، أو لفها ، أو المساعدة فى قص أو تقطيع
أو تنسيق . وما الى ذلك) أو أى عمل يدوى يشغل فيه يديه ويشعره بأنه
يؤدى مساعدة حقيقية لغيره مما يشعره عادة بقيمته فى نظر نفسه .

واذا أمكن ضمان تعديل مجال حياة الطفل الذى يعالج من مص
الأصابع ، وأمکن كذلك تعويده اشغال يديه فى عمل منتج ؛ فمن الجائز
— ولو أنه ليس من الضرورى — أن يتفق مع الطفل على طريقة تذكره ، فى
حالة النسيان بوجوب الاقلاع عن هذه العادة ، والطرق كثيرة منها وضع
صبغة المر على أصابع اليد ، وما شابه ذلك من الأساليب التى يعرفها أغلب
الناس . ولكنهم يخطئون عادة بالاعتصار عليها مما يجعل الضرر الناشئ .
منها أكثر من فائدتها ، ويجب أن تؤكد هنا أن هذه الطريقة وأمثالها تستعمل
كأساليب للتذكير فقط ولا يجوز أن تستعمل كعقوبات . ويجب — بقدر

الامكان — أن تصدر فكرتها من الطفل بعد اقتناعه بقبج العادة ووجوب اقلاعه عنها وشعوره بالحاجة الى ما يذكره بذلك في حالة النسيان •

قرض الأظافر :

كل ما قيل عن مص الأصابع يمكن أن يقال عن قرض الأظافر ، الا أن الانفعال المصاحب عادة لقرض الأظافر أو عض الأصابع هو انفعال الغضب • والحالة النفسية في قرض الأظافر حالة توتر وغضب ، أما في مص الأصابع فهي حالة استسلام وخضوع وانسحاب ، والذي يقرض أظافره يفعل ذلك بشدة وبكثرة اذا واجهته صعوبات ، فنلاحظ مثلا أنها تظهر من صاحبها أكثر عندما يسأل أو يختبر • وما قيل في علاج مص الأصابع يقال في قرض الأظافر وهو حسن التغذية ، وتنظيم النزهة ، وتحسين الصحة ، وشغل اليدين بطريقة شائقة منتجة • واشباع حاجات الطفل في ميادين حياته المختلفة بطريقة تجعله قانعا مسرورا من نفسه •

اللزجات العصبية (Tics) :

وهناك مجموعة من الحركات العصبية تتم بشيء من المفاجأة والسرعة والتكرار وعدم تدخل الارادة ؛ كرمش العين ، أو تحريك الأفت أو جوانب الفم ، أو تحريك الكتف ، وما شابه ذلك ، وتتميز هذه الحركات بأنها تتناول مجموعة كاملة من العضلات ، وأنها تحدث بتكرار منتظم في غالب الأحيان •

وتبدأ هذه الحركات عادة بسبب تهيج محلي ، وبعد زوال التهيج تستمر الحركة في الظهور بين آن وآخر ، فبعد الإصابة ببعض التهابات العين مثلا قد تظهر لزمة رمش العين بين آن وآخر • وأحيانا تكون الحركة دالة على اتجاه نفسي كالغضب أو الخوف أو التقرز •

ويحسن مع معالجة الأسباب المحلية اهمال الظاهرة من جانب الوالدين ومن يحيطون بالطفل اهمالا تاما ، لأن الانتباه اليها والتهيج من حدوثها يثبت ذهن الطفل عليها ، ويؤدي عادة الى تثبيتها ، ويحسن مع هذا مراعاة روح العلاج الذي سبق أن ذكرناه في هذا الباب •

ولتوضيح ما تقدم نأخذ حالة لتلميذ في سن السابعة عشرة ، بدأ من سن الخامسة عشرة يقوم — بين آن وآخر ، على الرغم من ارادته — بحركة عصبية في الرقبة والعينين وجانب الهم • وذكاء هذا الولد فوق المتوسط • وله مركز ممتاز جدا في الأسرة ، اذ أنه الذكر الأول بعد بنتين • وبقي الذكر الوحيد مدة سبع سنوات • ولهذا تمتع وحده بتدليل شديد من أمه واخته ووالده مدة سبع سنوات • ونشأ حساسا رقيقا لا يتحمل مهاجمة أو أذى • فهو لهذا لا يحب الرياضة البدنية لعنفها ، ولأنها تضطره للاحتكاك بغيره من الأولاد • يفضل أن يشغل وقت فراغه بالذهاب الى الخيالة ، وهو من النوع الهادئ الجاد المغلق القليل المرح القليل الاختلاط ، وتطبق عليه كل صفات الانطوائيين • بدأت لديه حركات الرقبة عندما كان يلبس ياقات من النوع المقوى ، ثم استمرت اللازمة بعد ذلك • أما حركة الهم فانها بدأت من وقت أن تعدى عليه تلميذ فضربه في جانب فمه بسن الريشة وتقيح الجرح الذي ظل ظاهرا مدة طويلة • وبدأت الحركات العصبية ، بعد أن كانت مقتصرة على الرقبة ، تنتشر الى الهم والعينين • ولعل اتجاه والديه نحوه يتضح من المثال الآتي : وهو أن الولد كثيرا ما يشكو من لوزتيه ، ونصحه الأطباء بوجوب استئصالهما ، والوالدان يرفضان رفضا باتا خوفا عليه • يشفق الوالدان على الولد ويعتبرانه عصيا مسكينا ، وعرضاه بالفعل على أطباء الأعصاب ، فشخصه أحدهم بأن عنده « نيوراسينيا » ومثل هذا التشخيص العلني يساعد على تثبيت الحالة وزيادة شدتها وتركيزها • ومما ساعد على تثبيت الحركات العصبية عند هذا الطالب معاكسة التلاميذ له وشدة انتباههم لحركاته واطلاقهم عليه أحيانا بسببها اسم مجنون •

يبدو من هذه الحالة كيف أن التكوين الأول قد يهيء صاحبه لتكوين الحركات العصبية عند مجيء الظرف المناسب • وهذه الحركات غالبا ما تثبت وتصبح عادة بفعل التكرار وبفعل توجيه الانتباه اليها •

ومثال آخر : حالة ولد في سن الثامنة أرسل الى العيادة لبطء شديد في

تفكيره ، ولخموله العام ، ولأنه يحرك أنه حركة عصبية شديدة ، ويتحرك معها كل وجهه تقريبا . واتضح ببحث الحالة أن الولد في المدرسة سلبى خامل كثير السرحان . وأما في المنزل فهو مخرب عنيد ، يطاع ولا يطيع . وهو الولد الأول ، وأبوه رجل عصبى قلق ، يتدخل في كل شئونه بشئ من الضعف ، والأم عصبية كثيرة النقد ، قليلة التحمل لضوضاء الأطفال وحركاتهم . وسواء في المسكن أو في الحى الذى تعيش فيه الأسرة لا يوجد مجال للعب الأطفال أو فسحتهم .

وقد تحسنت حالة الولد كثيرا بتوجيه الأب الى عدم الالتفات الى الحركة العصبية وبذلك تلاشت تقريبا ، ولم تزل تماما لارتباطها بتهييج محلى بسبب الزوائد الأنفية المتضخمة عند الولد . ومما زاد في تخفيف الحالة تقليل ضغط والديه عليه ، والتخفيف من تدخلهم في كل صغيرة وكبيرة من شئونه ، وادخاله مدرسة نجحت في تخليصه من سلبيته ، وانطوائه على نفسه . وصار أكثر جرأة وأقدر على الاختلاط .

ومما يدل على قلق الوالد وشدة التفاته لابنه أنه قال بعد تحسن الولد : ان حركة الأنف قد زالت تقريبا ، ولكن حركة خفيفة أخرى بدأت تظهر حول العين ، فنبهناه الى وجوب الانصراف التام عن كل هذا . فقال : انه يخشى أن يكون عند الولد ضعف في بصره أو في سمعه لأن شهادته في المدرسة تدل كذلك على بعض التأخر . وقال كذلك : ان وجوده في هذه المدرسة الجديدة وتخفيف رقابة والده عليه قد يقلل من احترام الولد لأبيه ، لأن حبه لمدرسه آخذ في الازدياد .

كانت عبارات الوالد المتكررة تساعدنا من ناحية على فهم اتجاهه وتساعدنا كذلك على توجيهه أولا بأول ، مما أدى الى نتائج طيبة يرجع الفضل فيها الى اهتمام الوالد ودقته في تنفيذ التوجيهات ، ولكن يلاحظ أن أهم ما يتجه اليه الذهن في مثل هذه الحالة الأخيرة هو وجوب انشغال الوالدين عن مراقبة حركات الطفل ، ووجوب انشغال الولد نفسه عن هذه الحركات ، وتوجيه نشاط الطفل العقلى والبدنى توجيها لذيذا منتجا ،

وتهدئة الجو المحيط بالطفل في كل من المنزل والمدرسة تهدئة لا تؤدي الى الخمول ، وانما تؤدي الى استثمار نشاط الطفل الزائد لصالح حياة عقلية وبدنية صحيحة .

خاتمة :

كان عدد الحالات التي قمنا بدراستها في الحركات العصبية بأنواعها قليلا لا يسمح برسم صورة صحيحة عن كل ما يقع منها . ولهذا لم نشر الى النوبات الصرعية واللاصرعية ولا الى الخوريا (Chores) ولا الى الرعونة ولا الى كثير من أنواع اللزمات العصبية . ولكن يتبين مما أشرنا اليه من حالات أن أهم ما تتطلع اليه في كل من الوقاية والعلاج هو توطيد الهدوء النفسى للطفل ولوالديه ولعلاقته بهما وللجو المحيط به بوجه عام . وقد لوحظ في الحالات العصبية أن الجو المحيط في المنزل يتميز بالتوتر والقلق وبعض العصبية والنشاط الزائد غير المنظم . وهذه الصفات نجدها عادة في الطفل وفي والديه : أحدهما أو كليهما . وقد ظهرت عدة نظريات لتفسير هذه الظواهر ، بعضها آت من ميدان الطب ، ويرجعها الى انعدام التوافق العصبى ، والى اختلال في المراكز المخية المحلية . وبعضها آت من ميدان التحليل النفسى ، ويربط بين هذه الظواهر ومشكلات الأطفال الجنسية ، فتعتبر «ميلانى كالان»^(١) أن جميع هذه الظواهر العصبية ترجع الى ملاحظة الأطفال (باستراق السمع أو بمحاولة الرؤية) لوالديهم في أثناء العمليات الجنسية أو ما يرتبط بها ، وأصحاب الخبرة في علاج الأطفال العصبيين يكتفون عادة بالرأى الذى أثبتناه ، ويرون أن الحقائق العلمية لا تبرر تعميم رأى أصحاب التحليل النفسى .

ومن القواعد الهامة سواء في العلاج أو في الوقاية هي كما قلنا : تهدئة الطفل وما يحيط به من علاقات ولا يجوز أن نفهم التهدئة على أنها وصول الى مرتبة الخمول ؛ بل بالعكس ننصح — كما أشرنا — بانماء الهوايات ، وبالرياضة البدنية ، وبتنظيم العمل ، وبتنظيم الراحة ، وما الى ذلك . أما

(1) Quoted by Boenheim, op. cit. p. 124.

العلاج فيتلخص اتجاهه في ازالة عوامل القلق والهياج ، وفي تمرينات خاصة^(١) لكل نوع من الاضطراب على أنه يخشى من هذه التمرينات ، ما أشرنا اليه من احتمال تثبيت الانتباه على هذه اللزمات ، فيجب تفادي هذا بالأساليب الشاملة الأخرى التي تبعد الانتباه عنها • ويصاحب هذا العلاج تمرن على الاسترخاء التام فترة من الزمن في كل يوم •

(١) ينصح « يوينهيم » مثلا في لازمة رمش العين بتمرينات معينة للتمرن على فتح العين واقفالها بانتظام ولتمرن على ضبطها مفتوحة أو مقفلة مدة قصيرة • ذلك مع وجوب اقضاء الانتباه عنها في غير أوقات التمرين بأساليب أخرى Boenheim, op. cit. p. 127.

المراجع

- Blatz and Reginald : A Study of Tics in Preschool Children.
Blatz and Bott : The Management of Young Children.
Boenheim : Practical Psychotherapy.
Cameron : The Nervous School Child.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
Patri : Child Training.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل السابع عشر

صعوبات النطق

مقدمة :

سبق أن تكلمنا عن الحركات العصبية بما فيها من مص الأصابع ، وقرض الأظافر ، ورمش العين • وغير ذلك • وهناك نوع من الحركات العصبية له أهمية خاصة وهو المتعلق بالنطق • وعملية النطق لها مكانة كبيرة في حياة الإنسان ، ويشبهها عند الحيوان اخراج الأصوات • ومعروف أن الأصوات عند الحيوان تؤدي له وظائف حيوية هامة ، فبالأصوات يحدث النداء الذي يترتب عليه تجمع أفراد النوع الواحد بعضهم مع بعض ، بقصد الوقاية من الخطر المحدق • وبوساطة الأصوات تدعو الحيوانات بعضها بعضا للاجتماع الجنسي وحفظ النوع • وبها تتحقق على وجه العموم أنواع الحياة الجمعية عند الحيوان بغاياتها المختلفة • ولهذا نجد أن نوع الصوت وتنظيمه يختلف عند الحيوان الواحد باختلاف حاجاته ، التي يدعو تحقيقها الى وجود طرف آخر • فالذين يهتمون بتربية الحيوانات المنزلية يعرفون في القط مثلا صوت الاستجداء لطلب الطعام ، وصوت التخويف والتحدى عند الشجار ، وصوت الفزع والاستنجا عند احداق الخطر ، والصوت الدال على الاطمئنان والسرور عند الشعور بالدفء والشبع والراحة ، وصوت الانتصار عند الفوز بالفريسة ، وصوت نداء الأثني عندما يحل موسم الاجتماع الجنسي ، وصوت تلبية الذكور لصوت الأثني في هذه الحالة ، وصوت نداء القطة الكبيرة لصغارها ، وصوت سرورها لوصولهم ، الى غير ذلك من أنواع الأصوات التي يرتبط تنوعها بتنوع الحاجات التي يعبر عنها الصوت •

ونرى من هذا أن وظيفة الصوت الاتصال بآخر اتصالا يصح أن يساعد على تحقيق حاجة نفسية • كذلك النطق عند الانسان ؛ فهو يعبر عن حاجة يراد تحقيقها بالاستعانة بكائن حي آخر يغلب أن يكون انسانا مثله •

فكان عملية النطق عبارة عن نشاط اجتماعي يصدر عن الفرد وتتدخل فيه عدة توافقات عصبية دقيقة مركبة ، يشترك في أدائها مركز الكلام في المخ الذى يسيطر على الأعصاب ، وهذه تقوم بتحريك العضلات التى تقوم باخراج الصوت • وكذلك تشترك الرئتان ، والحجاب الحاجز ، فتقوم الرئتان بتعبئة الهواء ، وتنظيم اندفاعه • وبمرور الهواء على الأوتار الصوتية ، وداخل الحنجرة ، والفم ، والتجويف الأنفى ، تحدث تشكيلات مختلفة من الأصوات • وكذلك تساعد تغيرات أوضاع اللسان والشفيتين على زيادة التنوع فى الأصوات • ويحتاج النطق السليم الى مران طويل جدا يبدأه الطفل عادة منذ ولادته ، فهو يبدأ بالصراخ ، ثم الضحك والمناغاة ، ثم يسمع نفسه ويسمع من حوله ، ويبدأ يجرب تشكيلات مختلفة من الأصوات ، ثم يبدأ يقلد من حوله الى أن ينجح فى اخراج الألفاظ وفى الكلام • وهذه عملية طويلة شاقة يبذل فيها الطفل جهدا كبيرا ، ويتعاون فيها السمع والبصر وأجهزة النطق — الأصلية منها والمساعدة •

ويتضمن النطق — كما قلنا — نشاطا لفرد يقصد به الاتصال بالغير، ومن هذا تبدو أهمية الكفاية الحركية للسان واندفاع الهواء وتنسيق الحركات كلها تنسيقا يؤدي الى النطق الصحيح • وتبدو أيضا أهمية الحاجة النفسية المراد التعبير عنها ، وضرورة مطابقة الاخراج التعبيري لما هو موجود فى النفس ، وكذلك قيمة ثقة المرء فى قدرته على التعبير • ويلاحظ أن جزءا غير قليل من هذه الثقة يشتق من الاتجاه الذى يأخذه المخاطب عادة نحو المتكلم فى أثناء سير الحديث •

لهذا كله كان النطق أهم وسائل الاتصال الاجتماعى ، وكانت له قيمته الممتازة فى نواحى نمو الفرد المختلفة سواء فى ذلك نمو تفكيره أو طابع شخصيته بوجه عام •

بعض الحالات :

يتلخص وصف أعراض صعوبات النطق في أنها اختلال في التوافق الحركي بين أعضاء النطق المختلفة • ونظرا لكثرة أجزاء هذه الأعضاء • ولتنوع أساليب نشاطها ، ولتعدد التشكيلات المختلفة لها ، فإن صعوبات النطق كثيرة ، وتختلف في شدتها ونوعها باختلاف درجة الاضطراب ، ونوع العضو البارز فيه • لذلك نجد بعض الصعوبات مثلا مرتبطا بتشوّه الأسنان أو بانسحاق الشفة العليا ، أو بوجود الزوائد الأنفية ، أو غير ذلك • وتعددت تبعا لتعدد أنواع صعوبات النطق أسماء هذه الصعوبات فهناك التمتمة • والتأتأة ، والعقلة ، والحجسة ، واللثغة ، والخنة ، والرتة وغير ذلك • وأما كلمة تتهته ، فانها كلمة دارجة أصبحت تستعمل الآن لكل أنواع صعوبات النطق^(١) •

ويلاحظ أن نوعا من أنواع صعوبات النطق يحدث عادة لكل انسان ففى المواقف التي يفاجأ فيها الانسان ، ويرغم على التكلم في أمر يعرف عنه ولا يريد لأمر ما أن يتحدث فيه ، فانه قد يتعثر اذ ذاك عند النطق • ويمكننا أن نقول : ان الانسان يتعثر في نطقه في الأحوال العادية لأسباب ثلاثة : أولها الخوف ، ولذا كانت خير طريقة يعبر بها الممثل على المسرح عن الخوف هي طريقة التعثر في النطق ، وثانيها : أن يكون اللفظ قاصرا عن الأداء ، وبذلك يضيع وقت في البحث عن الألفاظ المناسبة ، وثالثها : أن يكون تدفق الأفكار أسرع من تعبير الانسان عنها لعجز أساليب تعبيره بسبب قلة المحصول اللغوي مثلا • والسببان الأخيران يمكن مشاهدة أثرهما بوضوح وفي أبسط صورة عند محاولة الكبير التكلم بلغة أجنبية لا يتقنها تماما ، فهو يتعثر اذ ذاك ، بينما لا يتعثر عند التكلم بلغته العادية • ويمكن مشاهدته كذلك في الأطفال في سن الثالثة والرابعة تقريبا •

ولأجل أن تتبين أسباب العي المختلفة يصح أن نعرض بعض الحالات :

(١) هذه الظاهرة الخاصة بتعدد مصطلحات صعوبات النطق والميل الى استعمال واحد منها دون الأخرى ليست قاصرة على اللغة العربية ، وانما هي موجودة في اللغات الأجنبية أيضا •

أولى هذه الحالات لولد في سن العاشرة أرسله والده للعيادة لصعوبة شديدة في النطق . وقد فحصت في أول الأمر حالة الولد من النواحي الجسمانية للتأكد مما اذا كان هناك مرض عضوى يمكن أن يكون عاملا أصليا أو عاملا مساعدا في وجود العي ، وقد قام بفحصه المتخصصون في الأمراض العصبية ، وفي أمراض الأنف والأذن والحنجرة ، وفي الأمراض الباطنية ، ودلت كل هذه الأبحاث على أنه ليس هناك أى مرض جسمانى يصح أن يكون سببا مباشرا للعي . ولو أنه ظهر أن لديه تقيحا في اللوزتين ونصحت الأسرة بازالتها وبالفعل أجريت له العملية اللازمة لذلك ، وكان لها أثر ظاهر من حيث التحسن العام .

وقامت العيادة كذلك بدراسة الولد من الناحية النفسية ، فتبين أن ذكاءه فوق المتوسط بكثير ، وأنه يتعثّر في النطق اذا شعر بأنه مراقب وبأن أخطائه ستوضع موضع النقد . ويصاحب النطق عادة حركات عصبية يقوم بها يديه وبأجزاء وجهه المختلفة .

والولد هو الذكر الأول الوحيد ، وله ثلاث أخوات كلهن أصغر منه ، وكلهن يجدن الكلام . والوالدان متعلمان تعليما جيدا ، وحالتهما المادية طيبة ، وهما على وفاق تام . والأم تخاف الظلام ، وأما الوالد فانه هادىء في الظاهر ، غير أنه في الواقع قلق على ابنه ومستقبله ، ويهتم بأمره ويلطفه ويعامله بعطف زائد . غير أن الوالد نفسه سريع الكلام ، ويبدو كأن لديه بقايا عى قديم . وللولد جد من أمه ، وهو شديد الخوف من أمور كثيرة ، وللولد كذلك قريب من ناحية أمه متأخر جدا في ذكائه وتصرفاته عامة . أما الولد نفسه فانه رقيق هادىء حساس سريع التأثر ، محب للدقة والنظام ، حريص جدا على ارضاء والديه ومدرسيه ، شديد الخجل ، ميال الى العزلة والعمل الفردى .

وكانت ولادته عسرة واستعملت في ذلك الآلة الخاضة بالولادة ، مما أدى الى تمزق بسيط في أربطة العنق ، ومما جعل رأسه تميل في ناحية دون الأخرى مدة طويلة من الزمن . وكانت الرضاعة والفظام والمشى وما الى

ذلك كلها طبيعية . وفي سن الثانية غمس الولد فجأة ذات مرة في الماء البارد فذعر ذعرا شديدا وصرخ صراخا مؤلما طويلا ، وصار منذ ذلك الوقت كثير البكاء ، فكان يبكي أحيانا من أول اليوم الى آخره . ولما كبر أرسل الى روضة الأطفال ، وفي يوم من الأيام ، وهو في سن السادسة ، كان عائدا من الروضة فنبج عليه كلب كبير ، وجرى وراءه ، وحدث كذلك أن أصيبت أخته الصغرى في حادث تصادم وذعر لهذا الحادث ذعرا شديدا وكانت لديهم قبل هاتين الحادثتين خادمة مصابة بالتعثر في النطق ، وكان قد بدأ يقلدها ، وهذا هو مبدأ تعثره في الكلام ولكنه استمر فيه بعد ذلك الى الوقت الحاضر .

وأما معاملة الولد في المنزل فنظرا الى أنه الذكر الوحيد والأول . فقد ووجد عناية فائقة ؛ كان مدللا في صغره من الوالدين ومن جميع الأقارب . وكانت تجيب الأم له كل طلباته ويكاد يعتمد عليها في كل صغيرة وكبيرة ، وهي تخاف عليه خوفا شديدا . أما الأب فانه يلاحظ ابنه ملاحظة دقيقة حتى انه يلاحظ مثلا أنه في يوم كذا مرت عشرون دقيقة أو نصف ساعة دون أن يتعثر الولد في نطقه . وهذا النوع من الملاحظة يمكن تسميته بالملاحظة القلقة . ويعطف الوالد كما قلنا على ابنه عطا مبالغا فيه ، ويستثير همته ، ويستحثه ، ويشجعه على الاهتمام بعمله ، والتخلق بالرجولة ويظهر أن الولد قد بالغ في هذا مبالغة شديدة من سن مبكرة ، ترتب عليها أن الولد لم يتمتع كثيرا بما يتمتع به الأطفال من لعب ومرح وعدم حمل المسؤولية . ومما يدل على صحة هذا أني كنت أحدث الوالد ذات مرة على مسمع من الطفل قائلا : اني أحب أن يلعب الولد قليلا فقال الوالد بصورة جدية « ولكن ولدي لا يحب اللعب مطلقا ؛ وانما يحب المذاكرة والعمل الجدى » وبصعوبة كبيرة أمكن اقناع الوالد بوجوب تشجيع الولد على الاشتراك في نوع من اللعب .

وأما حالة الطفل في المدرسة فانها طبيعية جدا ، الا أن المدرسين والتلاميذ يرتكبون بعض الأخطاء في تصرفاتهم معه ، فيحدث أحيانا أن

يعيره بعض التلاميذ ، ويحدث كذلك أن يناديه أحد المدرسين بلقب ينتمى الى العي . ومن أمثلة أخطاء المدرسين أن عقدت العيادة لهم اجتماعا خاصا بهذا الولد للمناقشة فيما يجب عليهم اتباعه نحوه ، وفي صباح اليوم التالى دخل أحدهم الفصل ، وناداه وأبلغه بصوت مرتفع يسمعه بقية الأولاد أنه أضاع بالأمس ساعتين من الزمن فى اجتماع خاص بما عنده من عي ، وأنه سيعمل جهده لمساعدته . وكان لهذا الحادث أثر مؤلم جدا فى نفس الولد وهدم كل ما كانت قد وصلت اليه العيادة من نتائج ملموسة .

ويمكن تلخيص الحالة بأنها حالة توتر عصبى شديد ناشئ من احساس الولد بضعفه وعدم ثقته بنفسه لأنه يعامل من والدته التى تجيب كل طلباته : ووالده الذى يبالغ فى ملاطفته ، معاملة يشعر معها أنه مخلوق ضعيف . ومع احساس الولد بضعفه هذا ، فإن والده وأهله جميعا يستثيرونه لبذل مجهود عظيم لا يتناسب مع طفولته من ناحية ، ولا مع احساسه بضعفه من ناحية أخرى ، ويظهر أن هناك عنصرا وراثيا مت دخلا فى استعداد الولد للضعف العصبى الذى يساعد على ظهور العي متى توافرت الظروف الملائمة لذلك . ويتبين احتمال وجود هذا الضعف العصبى الوراثى مما ذكرناه آنفا عن الأقارب . ومن الأسباب التى ساعدت على نجاح حالة التوتر فى تأثيرها فى الولد — بالاضافة الى ما قد يكون هناك من ضعف عصبى وراثى — احتمال وجود ضعف عصبى ناشئ من الصدمات المتكررة التى أصابته ، وهى عسر الولادة وحادثة غمسه فى الماء البارد ، وحادثة الانزعاج من الكلب ، وحادثة الانزعاج من صدمة أخته ، وتشرب الخوف من الظلام من والدته وجده . . . الى غير ذلك . أما تقليده للخادمة فليس فى رأينا سببا أساسيا . وكل ما فى الأمر أن الخادمة ظهرت كعامل ملائم ومساعد للحالة النفسية الناتجة من مجموع العوامل الوراثية ، ومجموع الصدمات السابقة ، ومن مجموع الاتجاهات المتخذة نحوه من والديه وأقاربه وزملائه ومدرسيه ، ويمكن تصوير حالة الولد بأن العي ذاته يشعره بالضعف ، والعوامل المتعددة الأخرى تشعره كذلك بالضعف ، وفى نفس الوقت تستثير بعض هذه العوامل همته فيزداد التوتر ويزداد العي ، وتزداد الحالة سوءا .

ومما يدعم صحة هذا الاستنتاج أن الولد — وهو في حالة عدم توتر داخلي — يتكلم بطلاقة فهو لا يتعثر في أثناء اللعب ولا يتعثر عادة مع زملائه ؛ ولكنه يتعثر بشدة مع والديه ومدرسيه . ويقول والده : أن الولد يتكلم في أثناء أحلامه بطلاقة غريبة وإذا قرأ شيئا بصوت مرتفع فانه لا يتعثر إلا إذا أحس أحدا قريبا منه . ومما يدعم هذا الرأي أيضا أن الولد بقي يتجاشى مقابلة والده وجها لوجه مدة طويلة ، لأن المدرسة أرسلت للوالد تبليغه أن الولد ضعيف في اللغة الانجليزية . فكان لهذا يحرص على أن يخرج من المنزل مبكرا في الصباح قبل أن يستيقظ والده من النوم ، وكان الولد فخورا جدا بشدة تألم ابنه من نفسه وخجله منه .

ويلاحظ أن احساس الولد بضعفه هو الذي أدى في الغالب الى جعل الولد سلبيا منكمشا قليل الاختلاط شديد الحياء ، شديد الخجل والخوف ، قليل الثقة بنفسه قليل الكلام ، خاملا ، حساسا سريع التأثر ، يحرص على شعور الناس وعلى فكرة الناس عنه حرصا لا يصدر عادة من الصغار مثله . وحساسيته وخوفه من النقد أدبا الى جعله دقيقا في عمله وفي ملبسه . ويحتمل جدا أن تكون دقة الولد مع نفسه ، ورقابته لها طول الوقت ، عاملا مهما في احداث التوتر وتثبيت العي .

واتجه العلاج أولا للناحية الجسمية باستئصال اللوزتين . ثم اتجه للناحية النفسية بتعويده التكلم وهو في حالة تراج ، منا أعطى الولد ثقة كبيرة في نفسه . وقد أكدنا على الوالدين وجوب تخفيف المراقبة ، ومنع القلق ، وتعويد الولد الاعتماد على نفسه . وقد اشترك في معسكر صيفي قامت به العيادة ، واشترك في ناد ليتمكن فيه من اللعب وحسن قضاء الوقت ، وليتمكن من النمو الاجتماعي المتزن . وقد تحسن بالفعل تحسنا كبيرا ، ولو أنه كان ينتكس بعض الشيء بسبب المرض أو الاجهاد أو رجوع الوالدين الى ما تعوداه معه من معاملة . وقد تقدم الولد — بسبب نموه ، وتحسن صحته ، وكسبه ثقته في نفسه — تقدما محسوسا أساسه أنه بذل بنفسه جهدا كبيرا شجعه عليه ما رآه من قدرته على التكلم السلس في بعض المواقف .

وهناك حالة ثانية تختلف عن سابقتها في نوع شخصية صاحب الحالة •
فبينما نجد صاحب الحالة الأولى حساسا منكشها هادئا منقبضا قليل
الجرأة ميالا للعزلة نجد صاحب هذه الحالة مجبا للسيطرة ميالا للنقد
والسخرية والتهكم كثير الكلام مرحا مجبا للاتصال بالغير •• الى غير ذلك •
وهو تلميذ في سن العادية عشرة ، ذكاؤه فوق المتوسط ، وهو الأخ الأكبر
لخمس أخوة • وهو كما قلنا يميل الى بسط سلطانه على اخوته ، شديد
الخيال ويظهر هذا في رسومه وقصصه ونكاته ، ويميل في رسومه الى تشويه
صور الناس بدرجة بالغة •

كان الولد يعيش في القاهرة مع عمه وجدته فقط في بيت ممل بالنسبة
له كطفل يريد أن يلعب أحيانا ولا يجد من يلعب معه • والوالد على درجة
كبيرة من الكفاية والذكاء والمرح ، الا أنه قلق جدا على مستقبل أولاده •
ويعتقد أن الزمن تغير كثيرا فما دام هناك أولاد ينالون الشهادة الابتدائية
في سن تسع سنوات فتكون المنافسة في المستقبل شديدة جدا ، ولذا تشعر
معه أنه مسوق الى دفع أولاده لسرعة التحصيل والتعلم • وهو يفعل ذلك
بشيء كبير من القلق • الوالد متغير في معاملة أولاده فهو يدلهم تديلا
شديدا الى سن معينة ، فاذا جاوزوها وبدءوا سن التعلم اقلب الى شخص
شديد صارم يقوم لأولاده بوظيفة المدرس رغم كثرة مشاغله ، ويتدخل
تدريسه لهم ضربه اياهم بشدة وعنف • والوقت الذي يقوم فيه بالتدريس
لأولاده هو الوقت الذي يكون قد أنهكه فيه العمل • وقد لوحظ أن الوالد
اذا سأل أحد أبنائه سؤالا ولم يجب في الحال فانه ينهره بشدة مزعجة وبذلك
يتعثر الولد • وأما الأم فانها سيدة عادية في كل شيء ، الا أنها كثيرة النقد
لأولادها • وهى تعلن أنها تحب البنات ولا تحب البنين • وينال صاحب
الحالة بالطبع شيئا غير قليل من تفضيل اخوته عليه •

وكانت ولادة صاحب الحالة طبيعية ورضاعته طبيعية الى أن جف لبن
الأم في الشهر الرابع من عمره • وكان المشى والكلام والتسنين وعادات
المأكل والمشرب والتبول والتبرز طبيعية الا أن الولد أصيب بـ « الباراثيفود »

فى سن الثالثة ، وبعد شفائه منه قل كلامه ، وضعفت قدرته على التعبير عن مطالبه ، وصار كثير البكاء لغير سبب ظاهر ، وكانت أمه تضربه لبكائه ضربا شديدا وبدأت التهمة فى ذلك الوقت •

أرسل الولد لمدرسة بنات فى سن الرابعة والنصف ، وكان هو الولد الوحيد بها ، وكان متضايقا من هذا الوضع ، ولكنه أبقي بها رغم أنه سنة ونصف سنة • وبعد اتمام تعليمه فى المدرسة الابتدائية أرسل الى القاهرة ليعيش مع جدته وعمه • وقام عمه بتشديد الرقابة عليه لدرجة بالغة حتى لا يكون ملوما ، وكان الولد يعمل كل شئ تقريبا ضد ما يرغب •

ويمكن تلخيص الحالة فى أن مرض الولد بـ « الباراتفود » ربما يكون قد أضعف صحته العامة ضعفا جعله حساسا شديد التأثير • ولو كان قد عومل فى ذلك الوقت برفق وصبر ، وحجز فى البيت مدة كافية لاسترد صحته تماما قبل ارساله للمدرسة • ثم ان ذهابه لمدرسة البنات — وهو لا يجب البنات لأنهن مفضلات عند أمه على البنين — كان مصدر ألم مستمر له • كذلك معاملة والده المتقلبة من اللين الى الشدة ، وقلق الوالد على تعليم أولاده ، وتعجله إياهم فى الكلام ودفعهم فى التعليم دفعا فيه شئ من العنف ، كل ذلك كان له أثره فى الولد ، خصوصا أنه الأكبر ، وقد كان نصيبه من كل ذلك أوفر من نصيب أى واحد من اخوته •

ولم فصل مع هذا الولد الى نتيجة مرضية لعدم كفاية ما حدث بينه وبين العيادة من اتصال ، ولو أن المعاملة التى عومل بها فى معسكر العيادة — الذى سبقت الإشارة اليه — أدت معه الى نتائج طيبة ، ولكنها لم تدم لانقطاع صلته بالعيادة بعد ذلك •

التشخيص والعلاج :

وليس من السهل فى الحالتين السابقتين أن نحدد سببا واحدا تنسب اليه التهمة ، فهناك مجموعة عوامل ، بعضها جسمى ، وبعضها يرجع الى المعاملة ، وبعضها يرجع الى الوراثة ، وبعضها يرجع الى التقليد ... تتضافر كلها فى احداث الحالة أو فى المساعدة على بقائها بعد حدوثها •

ويغلب على الظن أن العامل الأساسى هو القلق أو الخوف المكبوت • وهذا القلق أو الخوف ينشأ اما بالتأثير فنجد الوالدين أحدهما أو كليهما على درجة من القلق • وقد ينشأ مما يحدث للطفل من حوادث التخويف أو المعاملة غير الحكيمة • ويترتب على حالة القلق النفسى اما خجل وانزواء وعزلة وقلة جرأة ، وما الى ذلك من الصفات السلبية التى شاهدها فى الحالة الأولى • واما أن يترتب عليه تعويض نفسى فتنشأ الجرأة والمرح والنقد ، وما الى ذلك من الصفات الايجابية التى شاهدها فى الحالة الثانية • ويتلخص علاج مثل هذه الحالات فى اعطاء الطفل ثقة فى نفسه ازاء الكلام خاصة وازاء مجالات حياته بنوع عام • أما أسلوب اعطاء الثقة فى النفس فانه أسلوب طويل يحتاج الى زمن والى صبر من كل من المعالج وصاحب الحالة •

ويصح أن نورد باختصار حالتين أخريين لنوضح أثر عامل القلق أو الخوف وأثر العوامل الأخرى الى جانب هذا العامل :

أما الحالة الأولى فهى لولد فى سن الثانية عشرة عنده تعثر فى النطق ، وهو فى السنة الثانية الابتدائية ، ومستواه العقلى يوازى مستوى ذكاء ولد متوسط عمره ٨/٥ سنة — أى أنه متأخر فى ذكائه عما ينتظر لسنه — والولد خامل شاحب اللون قليل الابتسام ، وعنده كبرياء مصطنع يحاول أن يعطى به ما لديه من نقص • ثم هو مع ذلك يميل أحيانا للانزواء • وهو سريع الغضب ، ولكنه يكظم غضبه ، فاذا ضربه أحد معلميه — وهذا كثيرا ما يحدث — فانه لا يبكى مطلقا • والولد يخاف أباه بدرجة بالغة • أما الأب فانه رجل عصبى يتعثر فى النطق ويعتقد أن التعثر فى النطق أمر تافه لا يجوز اعارته أى اهتمام ، لأنه هو أيضا يتعثر فى النطق ومع ذلك صار — بحسب رأيه فى نفسه — رجلا عظيما •

ويلاحظ أن كل فرد فى الأسرة عنده نوع معين من أنواع الشذوذ : فالأب يتعثر فى النطق ، والأم عصبية جدا ، وبنتهما غير مترنة ، والولد الكبير عصبى ويتعثر فى النطق ، وقد تأخر فى ضبط عضلات الجهاز البولى ،

والولد الذى يليه شديد الخنف ، وعيناه ليستا باتساع واحد • والولد ، الذى نحن بضد حالته ، مع شدة خوفه من أبيه معجب به اعجابا شديدا (١) • والعلاقة بين الأم والأب سيئة جدا ، ولكن الأب نجح فى اشباع أنانيته باستعمال القوة ، ورغم سعيه يضيق على أسرته تضيقا شديدا ويمتص نفسه خارج المنزل • كل هذا قد يدل على أن احتمال الوراثة عن كل من الأب والأم ، وكذلك تقليد الأب ربما اشتركا فى تكوين التهمة • وأما حالة التوتر فقد تكون ناتجة من حالة التناقض النفسى الظاهرة فى اعجاب الولد بأبيه وخوفه الشديد منه فى نفس الوقت ، ومن سوء العلاقات فى الجو المنزلى •

وبذلك قد تكون التهمة فى هذه الحالة نوعا من العصبية الموروثة التى أخذت اتجاهها معينا وتبلورت فى شكل معين بفعل البيئة بما فيها من تقليد وتخويف واغلاق •

وهناك حالة أخرى لطالب عمره ثمانية عشرة عاما قد بدأ يتعثر فى النطق بعد حادثة وقعت له وهو فى سن الخامسة ، وهى أنه دخل دورة المياه وأقفل عليه الباب ولم يتمكن من فتحه وعجز أيضا من فى الخارج عن ذلك فلم يتمكنوا من فتحه • وذعر الولد ذعرا شديدا • وهو الأصغر فى الأسرة وليس له سوى أخ واحد والعلاقة بين والديه بها شئ غير قليل من الخلاف مما يقلل من الشعور بالأمن فى جو المنزل (حالة ص ١٢٩) •

عوامل ظهور صعوبات النطق :

يبدو مما تقدم ومن دراسة مختلف أنواع الحالات أن صعوبات النطق تشترك فيها عوامل جسيمة وعوامل نفسية ويمهد لظهورها طريقة نمو الشخص وتكوينه • وهذه يشترك فيها عوامل بعضها وراثية وبعضها بيئية • والعامل النفسى الأساسى فى التهمة هو التوتر النفسى المصاحب للقلق أو الخوف أو فقدان الشعور بالأمن أو الشعور بالنقص • وقد وجد « بيرت » (٢) أن ٦٢٪ من الحالات التى درسها وعددها ٩٧ يوجد بها العامل

(1) Identification and Ambivalency

(2) C. Burt : The Backward child.

الوراثي لاستعداد عصبي عام ، وأن في ٢٣ ٪ من هذه الحالات الأخيرة لم يكن الأطفال قد اتصلوا بأبائهم اطلاقا ، حتى يقال : ان التهمة انتقلت اليهم عن طريق التقليد •

ووجد « بيرت » كذلك أن ٣١ من حالاته بها زوائد أنثوية و ١٩ منها بها تضخم في اللوز و ١٣ منها بها أسنان فاسدة ، وبين أن العامل الجسماني اذا وجد فانه يكون عاملا مساعدا فقط •

وقد لاحظ كل من « بيرت »^(١) وبوم ورتشاردسن^(٢) « أن الأعمار الملائمة لظهور التهمة هي سن الخامسة ، والسابعة أو الثامنة ، ثم الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ويعمل هذا بأن سن الخامسة هي سن بدء الذهاب للمدارس • أما سن السابعة أو الثامنة فهي سن الانتقال الى مرحلة جديدة من التعليم ، وأما سن الثالثة عشرة فهي سن بدء مرحلة أخرى من مراحل التعليم ، وأهم من ذلك أنها سن بدء دخول المراهقة بصعوباتها النفسية المعروفة •

وقد لاحظ « بونهيم »^(٣) أن عددا غير قليل من حالات التهمة يظهر في السنة الثانية من العمر ، وهذا هو سن بدء تعلم الكلام وبدء اتقان التوافقات الحركية اللازمة له ، ويحتمل معها أن أى اضطراب اتعالي في ذلك الوقت يؤدي الى اختلالها •

وقد لوحظ أن التهمة في البنين أكثر منها في البنات ، وهذا الفرق يرجع الى فروق طبيعية في كفاية أجهزة النطق وسرعة نضجها ، وقد يرجع الى أن الضغط التعليمي على البنين أكثر منه على البنات • كذلك لوحظ أن التهمة أكثر انتشارا في المدن منها في الريف ، وهذا يرجع الى أن الأعصاب أكثر تعرضا للاجهاد في المدن منها في الريف •

مصاحبات التهمة :

يلاحظ أن الطفل الذي يتعثر في النطق يكون عنده شعور مكبوت بالنقص بسبب التهمة ، فتجده يميل أحيانا الى الدلة والانكسار والانزواء ،

(١) Boome and Richardson : The Nature and Treatment of Stammering.

(٢) Boenheim : Child Psychotherapy.

ويتصف عادة بالصفات التي سبق أن ذكرناها فيمن يمسون أصابعهم • ويحدث أحيانا مع هذا محاولة لتعويض هذا الشعور فيبدو الولد جريئا يحاول الاكثار من الحديث ويعوض تهتهته بأن يحكى قصصا مثيرة اذا أمكنه • وقام بعض الباحثين بتقسيم حالات التهته الى أنماط ، فوجدوا أن هناك نمطين : أحدهما وهو الغالب يتصف بأنه خجول ، جبان معتكف ، منعزل يميل للوحدة ، شديد الحساسية ، شديد الانفعالية • ويكون هذا النوع هزيلا نحيفا (Asthenic) (ص ٣٤) • وأما النوع الثانى ، وهو قليل ، فتجده جريئا ، متسعا ، مندفعاً في أفعاله وفى كلامه • ولكن يخرج كلامه وتصدر منه أفعاله كالمقذوفات بشيء من السرعة والانطلاق • ويكون هذا النوع حسن الصحة سمينا لا نحف فيه • ويصاحب التهته عادة حركات عصبية عامة أو خاصة تنطلق فيها الطاقة المكبوتة • والتهته تؤدي عادة وظيفة دفاعية للشخص ، فالناس لا يوجهون اليه أسئلتهم بحجة أنه يتهته ، ثم انه قد يظن أنه يقنع من حوله بأن المسألة ليست صعبة في الفهم وانما هي فقط صعبة في التعبير ، وهى لهذا تؤثر أثرا سيئا في الناحية التعليمية ، اذ لا يشترك صاحبها في النشاط التعليمى الجمعى الاشتراك اللازم • وهى قد تؤثر كذلك في الناحية الصحية ، فالذى يتعثر في النطق تجده عادة هزيلا شاحبا ، ولعل هذا يرجع للجهد العصبى الضائع في مجرد التوتر النفسى • أما النوع غير الهزيل فهو نادر كما بينا •

ويتأثر الذى يتعثر في النطق بالمعاملة التى يلقاها من حوله • فان كان غيره يهزأ منه فان هذا يزيد شعوره بنقصه ، وان كان يعطف عليه ، فان عطفه يذكره بعاهته • ولهذا نجد الاحتمال كبيرا فى أن صعوبات النطق تجعل الشخص شاعرا بنقصه شعورا مباشرا ، وشعورا مشتقا من مسلك الناس نحوه • ويترتب على هذا نوعان من السلوك كثيرا ما يجتمعان فى حالة تهته : نوع يدل على الخوف من الغيز والانكماش منهم ، ونوع قد يدل على ثقته على الغير وكرهيته لهم • فأحيانا قد نجد التلميذ الذى يتعثر فى نطقه منكشما فى المدرسة ، وان قام بنشاط فهو نشاط فردي فى الغالب •

وقد نجده في المنزل ناقدا لآخوته مشاكسا لهم • ومن أمثلة هذين النوعين من السلوك ، ما بدا من حالة طالب أشرنا اليه ضمن حالات التهته ، فبينما كان هذا الطالب منكشاً هادئاً قليل الكلام كتب مرة في كراسة الانشاء نقداً مرا للمدرسة التي كان يتعلم فيها اذ ذاك ، وحلل المجتمع والحكومة القائمة في ذلك الوقت تحليلاً يعتبر جريئاً جداً (حالة ص ٣٢٢) •

المدرسة والتهته :

وتكون المدرسة في بعض الأحيان مسئولة عن ظهور التهته عند بعض الأولاد ، وكثيراً ما تكون المدرسة جوا صالحاً لتثبيت التهته وزيادة وضوحها • ولعل سبب ذلك هو أن جو المدرسة يعيش فيه الطفل مدة طويلة • ولحياته فيه أهمية خاصة بالنسبة لحفظ كرامته في نظر نفسه ، وبالنسبة لمستقبله وشعوره بالأمن عند النظر اليه ؛ فان كان جو المدرسة يشعره مثلاً بالفشل العقلي لعدم ملاءمة العمل له ، أو لسعة الفارق بينه وبين زملائه في الكفاية ، أو يشعره بالفشل في اللغات بنوع خاص ، أو بالفشل الاجتماعي ، فان هذا يزيد حالة الخوف وحالة التوتر • وإذا ظهر هذا الشعور بالفشل في المدرسة فان المنزل عادة يزيده تدعيماً مما يزيد الحالة سوءاً على سوء • ومما يساعد على ظهور التوتر في العلاقات بين المدرس وتلميذه شدة الاهتمام بالامتحانات وما تحدثه من قلق وما يترتب على ذلك من ارهاب وعقاب وارهاق بالعمل وتوتر عام في الجو المدرسي كله •

ولكن من الأخطاء المعروفة في الموضوع الذي نحن بصدد اطلاق الأسئلة على التلاميذ اطلاقاً سريعاً والالاحاح في طلب الاسراع في الاجابات ، أو ارغام الطفل على سرعة الاجابة وهو في حالة خوف أو غضب ، أو ارغامه على التزام الصمت في الحال اذا كان يصرخ من ألم ، أو ييث شكوى ، أو يدفع عن نفسه ظلماً ، أو ما شابه ذلك •

كذلك من الخطأ تعليم الأطفال لغات متعددة جديدة في وقت واحد ، أو ما يحدث أحياناً من القفز في تعليم اللغة القومية الصحيحة دون مراعاة للصلة بينها وبين اللغة الدارجة ، ولا لوجوب التدرج من هذه الى تلك •

والتلميذ الذى يتعثر فى نطقه تثبت عنده هذه الصعوبة اذا هزأ به اخوانه أو مدرسوهم أو اذا أظهروا أنهم منتبهون للتهته أو متوقعون لحدوثها .

وقد لوحظ فى أحيان كثيرة أن طفلا أو طفلين يتهتان تبدأ بهما فرقة دراسية معينة فى أول العام الدراسى قد تنتشر العدوى منهما الى عدد من الأطفال . ففى مدرسة مصرية كان فى فصلين خمسة أولاد يتهتون من مجموع الأولاد وهو ستون ، وفى نهاية العام الدراسى زاد عددهم الى سبعة عشر ولدا . وربما يبدو أن هذه الزيادة وقدرها ٢٠٪ زيادة كبيرة ، لولا أن «بيرت» أيضا يذكر أن بين خمسين طفلا فى مدرسة ما ارتفع العدد من طفل واحد الى تسعة أطفال فى خلال السنة الدراسية ؛ أى أن الزيادة حدثت بنسبة ١٦٪ والعدوى بالتقليد لا تحدث الا اذا كان هناك أسباب كافية مهينة لذلك .

علاج التهته :

تعالج بعض أمراض التهته فى الخارج فى مراكز خاصة لذلك ، لأن علاج التهته وصعوبات النطق بوجه عام يحتاج الى وقت طويل جدا فى كثير من الأحيان ، ولأن جو المدرسة العادى يعرقل تقدم العلاج ، اذ فيه يشعر الطفل بأنه أقل ممن حوله مهما كانت الطريقة التى يعامل بها .

ولكن كثيرا ما ينجح علاج بعض حالات التهته فى الجهات التى لا توجد فيها مراكز للعلاج والتى يمكن المعلم فيها تنفيذ تعليمات الاختصاصى المشرف على العلاج . وبعد بحث الحالة من نواحيها المختلفة يجب أن يتجه العلاج أولا الى الناحية الصحية فتقوية صحة الطفل — حتى فى النواحي التى ليس لها بصعوبة النطق علاقة مباشرة — تسهل العلاج الى درجة كبيرة . أما العلاج من الناحية النفسية فأهم ما فيه اعطاء المعالج ثقة فى نفسه . وقد لاحظنا أن الفرد الذى يتهته يتكلم عادة بسهولة وهو فى حالة تراج (Relaxtion) . فاذا أمكن احداث حالة التراجى فى المريض ، وجعله يتحدث وهو فى هذه الحالة ، فإن هذا يعطيه ثقة كبيرة فى نفسه . وفى أثناء تحدث المريض وهو فى حالة تراج يمكن كشف بعض العوامل التى تسبب التهته ، وهذا يؤدى عادة الى تحسنه .

ومن أساليب انماء الثقة فى النفس أن يعود الشخص الذى يتكلم أحيانا فى مجتمع مدرسى أو غير مدرسى بأن يحضر حديثه تحضيراً جيداً ، لأن التهمة فى كثير من الأحيان تكون فى مثل هذه المواقف العامة • ومن يهاب الكلام فى هذه المواقف العامة فليعد نفسه جيداً وليكتب ما يريد أن يقوله اذ أن هذا يساعد أولاً على تحديده وثانياً على حفظه مما يجعله واثقاً من نفسه قليل العرضة للتعثر •

فكان العلاج يعتمد فى أساسه على الايحاء ، وعلى حل مصادر التوتر ومصادر المشكلات الانفعالية ، وعلى توجيه المريض توجيهها يقلل من هذا التوتر • هذا التوجيه يعدل قدر الامكان اتجاه عقل المريض نحو الحياة ، ويعدل مجال حياته فى المنزل والمدرسة من حيث الفرص التى تعطى ، وسياسة التقدير ، وملاءمة العمل لاستعداد الشخص ، وغير ذلك من القواعد التى تضمن تحقيق الشعور بالأمن ، والثقة بالنفس ، وتضمن بعبارة أخرى توافر شروط الصحة النفسية المعروفة •

وبجانب تحسين الصحة العامة وتعديل مجال حياة الطفل وحل مصادر التوتر عنده ، لابد من تناول العمليات الآلية والمهارات اللازمة للنطق ، فيعلم صاحب الحالة طرق التنفس والاخراج والتنغيم وغير ذلك ، مما يتعلق بعلم حركات الكلام واخراجه •

ومن الخطأ أن يقتصر العلاج — كما يحدث أحيانا — على أن يعود الطفل صرف ذهنه عن عملية النطق بالقيام بحركة معينة كالضرب على جانب فخذه أو التوقيع بقدمه على الأرض أو غير ذلك • هذه الحركات لها أساس من الصحة ، وهى أنها تسحب كثيراً من الطاقة العقلية الموجهة لعملية النطق ذاتها ، فتبتج حالة تراخ متعلقة بها يسهل معها اخراج الكلام • ويمكن فهم هذا جيداً اذا علمنا أن انتباه المريض فى أثناء الكلام يكون عادة موزعاً بين الفكرة ، وحركات النطق • وأما فى السليم فان الانتباه يتركز فى الفكرة ، وأما حركة النطق فانها تحدث بطريقة آلية صرفة • لهذا كان محتملاً أن الانتباه الجزئى لحركة جديدة يحرر أجهزة النطق من تركيز الانتباه فيها •

ولكن وجه الخطأ في هذا أن العلاج ينصب على العرض دون السبب الأصلي • وما دام السبب الأصلي موجودا دون معالجة فإن الابتكاس محتمل الظهور في أى وقت •

خاتمة :

يتبين من دراسة هذا الموضوع ودراسة سابقة أن صعوبات النطق والحركات العصبية بوجه عام ليست مجرد اختلالات محلية خاصة بالمواضع التى تظهر فيها ، فصعوبة النطق ليست خاصة بالنطق فى ذاته • بدليل أن الذين يتعشرون فى النطق يتكلمون بطلاقة عندما يغنون ، أو يلعبون ، أو يحلمون ، أو يتحررون من الخوف أو الرقابة ، وبدليل أن الأشخاص العاديين يتعشرون فى النطق أحيانا عندما يريدون التكلم مع الغير وهم فى حالة خوف ، أو فى حالة انفعالية أخرى يبرز فيها عنصر الخوف •

فالنطق نظرا لأنه أداة الاتصال الاجتماعى ، يعثره الاختلال بحيث يترتب عليه صعوبة هذا الاتصال • ولم يتفق العلماء اتفاقا تاما بشأن العامل الأساسى المسئول عن صعوبة النطق ؛ واختلفوا فى أى ظاهرة أخرى من ظواهر الشذوذ ، فبينما يرى البعض أنه يرجع لاختلال المراكز العصبية ، يرى البعض الآخر أنه يرجع لضعف التوافق بين سهولة التعبير وسرعة التفكير • واختلف كذلك علماء النفس المحدثون ف يرى المحللون النفسيون منهم أن أساس التهمة قلق مكبوت مرتبط أصلا بالشكوك والمخاوف المتعلقة بالمسائل الجنسية • ويذهب « دنلاب »^(١) الى أن التهمة تحدث مع الألفاظ البذيئة أو ما يرتبط بها بأى رباط • ومدى هذه الألفاظ واسع للغاية • فهناك فى نظره كبت مرتبط باللغة الجنسية • ويرى آخرون أن القلق أو الخوف لا يخرج عن كونه عاملا مساعدا على جانب كبير من القوة ، ولا يفسر فى نظرهم صعوبات النطق فى جميع الحالات ، وبذلك يدخلون التقليد والوراثة والتأخر فى نضج أجهزة النطق ، وما الى ذلك •

ولكن الجميع اتفقوا ، رغم اختلافهم فى التفسير ، على طريقة العلاج •

(1) K. Dunlap : Journal of Abnormal Psychology, 1917.

فقد أجمعوا على أن التحليل النفسي وحده غير كاف للعلاج • فقد قرر بريل (Brill) أنه عالج ستمائة حالة تهمته ، ولجأ الى طريقة التحليل في تسع وستين حالة منها ، ولم ينجح الا في أربع حالات ، وحتى هذه الحالات الأربع يقول عنها بنفسه : ان نجاحه فيها قد لا يكون راجعا اليه • ويلاحظ أن بريل من أكبر أنصار التحليل النفسي • وقد دعم رأيه في ذلك الكثيرون (١) •

ويتلخص العلاج في اعطاء الطفل ثقة في نفسه بجعله يتحدث وهو في حالة تراخ وبتمرينه تمرينا متدرجا على الكلام ، ويشترط أن يكون التمرين بما يناسب كل حالة على حدة • ويسبق التمرين على النطق عادة تمرينات على التراخي • ويجب بجانب هذا كله ، أن يدرس مجال حياة الطفل في المنزل والمدرسة دراسة جيدة ، وأن تعالج هذه المجالات المختلفة بما يعطى الطفل شعور الهدوء والقوة والثقة بالنفس ، وبما ينمي شخصيته من جميع نواحيها •

معنى ذلك أنه الى جانب علاج العرض تعالج الشخصية كلها بنواحيها المختلفة • ويرى البعض أنه يجب الانصراف عن تركيز ذهن الطفل في الأعراض ، ولكن اذا اقتصر العمل على احداث هذا التركيز على القائم بالعلاج دون غيره من الدين ومعلمين ، فان النتيجة النهائية تكون عادة في صالح الطفل • وقد ثبت من خبرة المجربين أن الاقتصار على علاج الشخصية عامة دون الاتجاه الى العرض نفسه لا يؤتي ثمرات مؤكدة •

(1) Hollingworth : Abnormal Psychology; P. 440.

المراجع

- Blanton : For Stutterers.
Boenheim : Practical Child Psychotherapy.
Boome and Richardson : The Nature and Treatment of
Stammering.
Burt : The Backward Child.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
Lewis : Infant Speech.
Patri : Child Training.
Seth and Guthrie : Speech; Its Development and Disorders.
Stinchfield : Speech Disorders.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.
Ward : Defects of Speech.

الفصل الثامن عشر

الخوف وضعف الثقة بالنفس

الخوف العادى والشاذ :

لاحظنا من دراسة ما تقدم من مشكلات السلوك ، سواء فى ذلك التهمة أو التبول اللا ارادى أو الحركات العصبية أو النوم المضطرب أن عاملاهما يدخل فى أغلب أنواعها وهو عامل الخوف • ويرى كثير من المشتغلين بالعلاج النفسى أن الخوف لا يقتصر فقط على بعض هذه المشكلات ؛ وانما يوجد فى كل حالات اضطراب الشخصية سواء فى ذلك حالات الصغار أو حالات الكبار • فالخوف بصورة اما صريحة واما مقنعة يظهر — بحسب رأى ألرز (Allers) — فى مشكلات السلوك بمختلف أنواعها (١) •

ويرى فرويد أن الخوف أو القلق أساس جميع الحالات العصبية ، غير أن الخوف يرتبط فى رأيه بالمسائل والمواقف الجنسية وما يتعلق بها (٢) • وسواء أخذنا بهذه الآراء أو لم نأخذ فموضوع الخوف جدير بالدراسة ، لا سيما أن الخوف حالة يحسها كل انسان فى أثناء حياته • ونعلم أنه من الطبيعى للكائن الحى — سواء فى ذلك الانسان أو الحيوان — أن يخاف فى بعض المواقف التى تهدده بالخطر أو يصح أن تهدده به فاذا واجهته فجأة سيارة فى الطريق ، فلا بد أن أشعر بالخوف ، واذا جرى خلفى كلب كبير وهو

(1) R. Allers says : « There is no case of characterological anomaly either in children or in adults, no case of dissociation, as in neurosis, no case of difficult upbringing, or of childish shortcomings, in which open or variously disguised fear does not lurk ». The Psychology of Character; p. 115.

(2) S. Freud in his Introductory Lectures on Psychoanalysis; p. 336., says. « It remains incontestible that for the average human being anxiety is closely connected with sexual restrictions ».

ينجح، فلا بد أن أشعر بمثل هذا الشعور • فالخوف حالة انفعالية داخلية طبيعية يشعر بها الانسان في بعض المواقف ، ويسلك فيها سلوكا يبعده عادة عن مصادر الضرر • وهذا كله ينشأ عن استعداد فطري أوجده الخالق في الانسان والحيوان ، ويسمى كما قلنا غريزة • ولا بد أن يكون الخالق قد أوجد هذا الاستعداد الغريزي لحكمة تتعلق بصالح الكائن الحي • فالخوف هو الذى يدفعنا لحماية أنفسنا وللمحافظة عليها • فاذا كنا لا نخاف النار مثلا فقد تحرقنا ، واذا كنا لا نخاف الحشرات والحيوانات الضارية فقد تقتلنا ، واذا كنا نخاف الجراثيم فقد تفتك بنا • وهناك كذلك الخوف من الزلزل ، وخوف الانسان على سمعته • • وما الى ذلك • ومن الطبيعي أن تقترن الحالة الشعورية الانفعالية — وهى الخوف — بالسلوك الملائم وهو الخلاص من الخطر • والحالات التى يفصل فيها بين الخوف والخلاص ويكتفى فيها بالشعور الانفعالى تعتبر حالات غير صحية •

فالخوف أمر طبيعى معقول ضرورى يؤدى الى حماية الفرد مما يجوز أن يسبب له ضررا • وجميع الطرق الوقائية التى نتخذها لوقاية أنفسنا عوادم الطبيعة ، أو المرض أو سخط المجتمع أو غير ذلك تدل على نوع من الخوف نسميه الحذر أو الخيطة ، ويصح أن نسميه الخوف الواقى ، وما لا شك فيه أنه فى درجاته المعقولة صفة طيبة يجب الاتصاف بها •

واذا تأملنا أدر كنا ان كان الخوف فى وقت ما حالة طبيعية أو شاذة • وحيث ان الشاذ هو ما يشذ عن المألوف أو يخرج عنه ، فالخوف الكثير المتكرر الوقوع لأية مناسبة يكون شاذا ، وكذلك تضخم الخوف فى موقف ما ، تضخما خارجا عن النسبة المعقولة التى تتطلبها هذا الموقف عادة يعد أمرا شاذا • فاذا وجدنا طفلا فى السابعة يخاف هبوب الهواء ، أو يخاف الصراخ أو الققط ، أو يخاف الظلام نعد هذا أمرا غير عادى • واذا وجدنا طفلا فى الثالثة يخاف الظلام قليلا نعد هذا أمرا عاديا ، ولكنه اذا خافه لدرجة الفرع والجزع ، ووصل فى انفعاله لدرجة ينقلب فيها اتزانه فلا شك أننا نعد هذا أمرا غير عادى • فكأن تضخم الخوف فى موقف ما تضخما خارجا عن الحد.

المعقول ، وكذلك تكرر الخوف تكررًا خارجيًا عما هو مألوف يعد أمرًا شاذًا يحتاج إلى تأمل وفحص وعلاج •

وكذلك يمكننا أن نأخذ بقيض الخوف ، فانعدام الخوف في شخص ما أمر غير عادي ، وهو نادر للغاية ، ويغلب أن يكون سببه قلة الإدراك • وذلك كالطفل الذي يكون في سن الثانية ويرى لأول مرة في حياته عقربًا تجرى قد يظنها (كما حدث بالفعل) لعبة لطيفة يحسن إمساكها واللعب بها • والسبب في ذلك أن الطفل لا يدرك خطر هذا الكائن المتحرك غير المألوف • وكثيرًا ما يحدث أن يكون الطفل ضعيف العقل (Mentally Defective) فيقوم بأعمال تدل على عدم إدراكه مواقف الخطر أو الضرر • ومن أمثلة ذلك أن طفلاً ضعيف العقل قفز ذات مرة من الطابق الثاني في منزله إلى الطريق العام • ونفس هذا الطفل أصيب في رأسه بجرح كبير سال منه دم غزير لأنه كان يلعب ويمثل خروفاً وأخذ يناطح درج سلم من الحجر مرات متوالية •

نرى مما تقدم أن لدينا خوفاً معقولاً من حيث درجته ، ومبلغ تكرره ، واكتمال حلقاته من أفعال وسلوك • ولدينا خوف شاذ من هذه النواحي الثلاث : والخوف الطبيعي المعقول مفيد لسلامة الفرد • وأما ما عدا ذلك فهو ضار بشخصية الفرد وسلوكه • وقد لاحظنا في الفصول السابقة أن الخوف قد يكون من مظاهره الانكماش ، وعدم الجرأة ، والتهتة ، وغير ذلك من الخصال المعطلة عن النمو •

انواع المخاوف :

يقسم « فرويد » ^(١) المخاوف إلى قسمين كبيرين : الأول ويسميه المخاوف الموضوعية أو الحقيقية • والثاني ويسميه المخاوف العامة أو غير المحددة • والنوع الأول يرتبط فيه الخوف بموضوع معين محدد ، كالخوف من الحيوان أو من الظلام أو من الموت ••• أو غير ذلك • أما النوع الثاني فلا يرتبط فيه الخوف بأي موضوع • فحالة الخوف تكون كأنها هائمة عائمة لا تستقر على موضوع ما • وصاحب هذه الحالة الأخيرة متشائم

(1) Freud; op. cit P. 333.

حزين يتوقع الشر والرعب وسوء الطالع في أى لحظة وفي أى شيء • ويسمى فرويد هذه الحالة باسم القلق العصبى (Anxiety Neurosis) • أما المخاوف الموضوعية فيقسمها فرويد الى ثلاث مجاميع ، بحسب ما يتوقعه الشخص العادى منها من خطر • فالنوع الأول يكون فيه عنصر الخطر بارزا ، كالخوف من الثعابين أو من النار • والنوع الثانى فيه عنصر الخطر ؛ ولكن وقوع هذا الخطر يرجع للصدفة المحضة ، كالخوف من السفر في قطار أو باخرة ، أو الخوف من دخول زحام خشية انتقال مرض اليه كالتيفوس ، أو الخوف من التلوث (Misophobia) والنوع الثالث ليس فيه عنصر الخطر اطلاقا ، كالخوف من الخنافس والصراصير ، والخوف من صعود الأماكن المرتفعة (Acrophobia) والخوف من السير في مكان متسع كالميادين والحدائق (Agoraphobia) ، والخوف من الأماكن المقفلة (Claustrophobia) الى غير ذلك •

ويقسم آخرون المخاوف بحسب واقعيتها ومثيراتها الى قسمين : أحدهما المخاوف الحسية أو الواقعية ، وثانيهما المخاوف الوهمية أو الذاتية أو غير الحسية •

مخاوف الاطفال ومصادر تكوينها :

ومن المفيد من الناحية العملية التربوية أن نقسم مخاوف الأطفال — وهى التى تهمنا — بحسب موضوعاتها الى حسية وغير حسية • فموضوعات الأولى يمكن الطفل ادراكها بحواسه المختلفة بخلاف موضوعات الثانية ؛ اذ لا يمكن الطفل ادراك حقيقتها • فمن النوع الأول الخوف من (الشحاذ أو العسكرى) مثلا ، أو من بعض أنواع الحيوان كالحصان أو القرد أو الصرصور أو غير ذلك • أما النوع الثانى فهو المخاوف غير الحسية كالخوف من الموت ، والخوف من جهنم ، أو العفاريت ، أو الغيلان ، أو غير ذلك • ويمكن أن يضاف الخوف من الظلام والخوف من النوم في حالة صغار الأطفال الى النوع الثانى • وسواء أكانت المخاوف حسية أو غير حسية فإن الطفل — شأنه شأن غيره — يخاف على العموم من الأمور الغريبة عنه

غرابة كبيرة ، ويخاف كذلك من الأمور التي ترتبط في ذهنه برباط الخوف .
من هذا تتبين بساطة الخطة التي يمكن اتباعها للوقاية من الخوف
وعلاجه ، وهى توضيح الغريب وتقريبه من ادراك الطفل ، ثم ربط مصادر
الخوف بأمر سارة محببة بدلا من ربطها بأمر تثير الخوف فحسب . فان
كان الطفل يخاف الكلاب مثلا فيصح أن نساعدته على تربية كلب صغير
فيطعمه ويتعهدده ويحميه ويلعبه ويلاحظ نموه يوما بعد يوم الى غير
ذلك ، ثم يصح أن نوجه ذهنه الى دراسة أنواع الكلاب ومزايا كل نوع
وعاداته ، وأن نجعل له غرفته بصور لطيفة لهذا الحيوان . وبعبارة أخرى
نجمعه يدرك الكلاب وخصائصها ادراكا واضحا يربطها في ذهنه برباط جميل
وينمى اهتمامه بها وشوقه اليها . ويجب علينا كذلك أن نوقفه على مدى
ما يجب أن يتبعه ازاء هذا الحيوان من حرص واحتياط .

ومن الأمثلة الواقعية أن طفلة في الثالثة من عمرها كانت تخاف الخيل
خوفا شديدا ، وتكرر منها الخوف بدرجة تلفت النظر . وتحليل الموقف من
وجهة نظر الطفلة أمكن الظن بأنها قد لاحظت أن وسائل النقل في مجموعها
هادئة قليلة الجلبة ، أما الخيل فانها عندما تدب بأرجلها تحدث صوتا عاليا ،
فطبيعى أن تخاف الطفلة . وفى ساعة من ساعات هدوئها سألت والدتها
(لماذا يفعل الحصان هكذا ؟) . وبالمناقشة اتضح أن الطفلة تريد أن تعرف
الصوت أو مصدره . وكانت الأم قد فهمت ما تقصده ابنتها فقالت لها
(لأنه لايس جزمة حديد) . فسألت البنت (ولماذا يلبس الجزمة الحديد ؟) .
فقالت لها (لتحفظ أرجله) ، وحدث بعد ذلك أن ركبت البنت مركبات
تجرها الخيل وكانت تنصت لصوت (الجزمة الحديد) ، ثم أبدت رغبتها
في رؤية (جزمة الحصان) ورأتها بالفعل ، وكان هذا مصدر سرور عظيم لها .
ثم ظلت مدة تقلد حركة الخيل وتقلد أصواتها . وأصبح ركوب المركبات ،
ورؤية الخيل ، والاقتراب منها ، أمورا محببة الى نفسها . وأدت هذه الطريقة
الى زوال عنصر الغرابة ، وربط الموضوع في ذهن الطفلة برباط الاهتمام
والشوق واللذة . هذه حالة عادية يعرض مثلها كثير للأباء ويتبين منها كيف

أن خوفا نراه بسيطا ربما يكون مؤلما للطفل • والاحتمال كبير في أنه قد يرسخ ويقوى بسوء التوجيه ، ومع ذلك يمكن بسهولة محوه وتحويله الى مصدر تعليمي قيم للطفل نفسه •

وبهذه المناسبة أشير الى أن بعض الآباء أو بعض الخدم يكتشفون غالبا خوف الطفل من أمر معين كالحصان أو الكلب أو القرد ، ويستغلونه اما لتسليتهم الخاصة أو لدفع الطفل للقيام بعمل معين ، أو الاحجام عن عمل آخر • أما تخويف الأبناء للضحك والتسلية من جانب الكبار فهذا أمر متكرر الوقوع ؛ فخوف الطفل من القرد مثلا قد يكون مثارا للضحك عند الكبار من اخوة وخدم وأحيانا من الآباء أنفسهم وما دام الأمر مصدرا للضحك والتسلية فلا غرابة أن يندفع بعض الكبار فيه لسرورهم الخاص على حساب تألم الصغار وانزعاجهم • وليس هناك أقسى من أن يجلس الوالد أمام ابنه ويثير خوفه ، والولد يصرخ والوالد يضحك • ومن المحتمل جدا أن يكون لتكرار مثل هذه المواقف نتائج سيئة من حيث علاقة الطفل بوالده ، وفي شخصية الطفل وفي سلوكه بوجه عام •

ومما يقوى الخوف في نفوس الأطفال استشارته لحفظ النظام أو لدفع الطفل لعمل معين ، أو منعه من القيام بلعب أو ضوضاء أو غير ذلك • فكثيرا ما يخوف الطفل ليقطع عن اللعب والحركة ليهدأ جو المنزل حتى يتمكن الوالد مثلا من النوم ، أو تركيز انتباهه فيما يشغله • وفرق بين أن يقلع الولد عن لعبه ونشاطه خوفا من العقاب ؛ وأن يفعل ذلك ليؤدي خدمة لوالده • وما دام المقصود هو هدوء الجو ، فيمكن توجيه الطفل للعب في مكان آخر ، أو لنوع من اللعب أكثر هدوءا أو غير ذلك • والمهم أن يكون هناك تفاهم مع الطفل • وقد يظن أن الصغير لا يدرك المقصود في مثل هذه المواقف ، والواقع أنه يدرك أكثر مما نظن • ويرى بعض الآباء والمدرسين أن أساليب التخويف والعقاب تنجح دائما أكثر من أساليب التفاهم في الحصول على سلوك طيب من الأطفال • ولكن ليست العبرة بالسلوك الطيب وانما العبرة بالسلوك الدائم الذى يستمر مع الشخص طول حياته بعد انفصاله عن منزله

وعن مدرسته • والعبرة كذلك بالسلوك التلقائي المقصود لذاته ، وليست بالسلوك الذى يؤتى خوفاً من عقاب الوالدين أو المدرسين وتوبيخهم •

وكثيراً ما يهدد الطفل الصغير فى مثل الأحوال التى أشرنا إليها بأن يقال له : « اذا لم تلتكف عن كيت وكيت فسيأخذك العسكرى أو الشحاذ أو الزبال أو القرد ، أو سنضعك فى الغرفة المملوءة بالفيران » • وتكون النتيجة أحد أمرين : اما أن الطفل لا يقلع عما يفعل ، ولا توقع عليه العقوبة ، فيكتشف بذلك ضعف الوالدين وعدم تحقيقهم لوعيدهم ، ويدرك مبلغ قوته عليهم تبعاً لذلك ، واما أن يصدع بالأمر ، ويهدأ ، ويشل نشاطه ، ويشب جباناً خضوعاً لغير سبب معقول • والنتيجة وبال فى كلتا الحالتين •

- وقد قال لى طفل جرىء ذات مرة : « لقد حبستنى المدرسة فى غرفة الفيران » • فدهشت وقلت له : « اذن ستقلع عما فعلت » • فضحك وقال : « لا ، لأننى عندما حبست قتلت جميع الفيران ، ولا مانع عندى من أن أحبس فى الغرفة مرة أخرى » • ويبين هذا المثال مبلغ احترام الطفل الجريء لهذا النوع من أساليب حفظ النظام ، ومبلغ استعداده للتحدى فى عبثه • وهذه النتيجة التى يكشف فيها الطفل خطأ من حوله من الكبار ، ويواجه فيها المواقف مواجهة صريحة جريئة — رغم ما فيها مما لا يروق أصحاب الأساليب التقليدية للتربية — خير من النتيجة الأخرى وهى الجبن والانكماش ، وضعف الشخصية •

ومن أخطاء الآباء المعروفة أنهم لاستشارة الخوف فى أبنائهم قد يربطونهم بأمر لم يقصد به أن يكون مخيفاً ، وانما قصد به أن يكون مفيداً ، فالطبيب مثلاً وهو انسان يقوم بخدمات انسانية واجتماعية مفيدة لمن يتصل به يستعمل اسمه فى كثير من الأحيان أداة للتخويف ، وكذلك الدواء والشرطى والمعلم والمدرسة • وهذه الموضوعات المختلفة التى يجب أن ترتبط فى ذهن الطفل بفائدتها وقيمتها الحقيقية • تستعمل أحياناً — كما قلنا — وسائل للعقاب أو لاستشارة الخوف فيقلب معناها فى ذهن الطفل فتصبح مصدر خوف له ، وتقل قدرته على الاستفادة منها • فأحياناً يعاقب الطفل بأن يرغم على النوم ،

أو على المذاكرة ، أو بأن يعطى دواء ، أو توضع في عينية قطرة ، أو ما شابه ذلك . هذه كلها أشياء يجب أن تكون محببة للأطفال وأن يربوا على الاقبال عليها من تلقاء أنفسهم ، ولا يجوز أن تصبح رموزا للارهاب ووسائل للتخويف والعقاب .

ولعل أشد مثيرات الخوف ذات الأثر الثابت هي خوف الآباء أنفسهم ؛ فحالات الخوف كغيرها من الحالات الانفعالية تنتقل من فرد الى آخر بالتأثير . وهذا ما سبق أن سميناه المشاركة الوجدانية . ويدخل معها في حالة صدور الخوف من شخص كبير عامل آخر وهو عامل الایحاء . ومن الأمثلة التي توضح ذلك أن معلمة كانت تلقى درسا في روضة من رياض الأطفال عن الضفدعة ، وكانت هي تخاف الضفادع ، ولكنها تشجعت وأخذت معها ضفدعة في صندوق صغير ، ولما فتحتة قفزت الضفدعة ففزعت المعلمة وصرخت فصرخ كثير من الأولاد ، ورفض معظمهم بعد ذلك أن يقربوا الضفادع . هذه حالة خوف انتقلت الى الأطفال عن طريق التأثير ، فحالة الفزع انتقلت الى الأطفال بفعل المشاركة الوجدانية ، وبفعل إیحاء سلوك شخص له مكاتبة في نظر الأطفال وانتقلت معها فكرة أن الضفدع حيوان مخيف .

وكثيرا ما يحدث أن يبدى بعض الآباء والأمهات خوفا وقلقا على أبنائهم ، وتنتقل هذه الحالة عادة الى الأبناء فيصبحون بذلك قلقين على أنفسهم . فاذا جرح الطفل جرحا صغيرا ، أو وقع على الأرض ، أو ارتفعت درجة حرارته تجدد الأم تذعر وتظهر — بسخاء شديد — كل علامات الخوف من جرى وارتباك واصفرار الوجه وغير ذلك . ينتج عن هذا أن الطفل نفسه يذعر ، وبعد أن كان لا يشعر بأي ألم أو بألم قليل يمكنه تحمله ، يصير عادة غير قادر على تحمل الألم . وفي العادة نجد الأسرة التي يقلق فيها الآباء على أبنائهم ينمو الطفل فيها وهو سريع التأثر ، شديد الحساسية لأقل ألم ، شديد الاهتمام بنفسه ، فاذا أصابه جرح صغير تألم وبكى وبالنسبة في الاهتمام به ، واذا أصابه صداع خفيف اعتكف ، واذا شعر بارتفاع في درجة حرارته نظر الى وجهه في البرآة ليرى مبلغ صفرة لونه ، وتأمل لسانه ليرى ما قد

يكون عليه من علامات ، وجس نبضه ، وقاس درجة حرارته • وبهذه الطريقة يتضاعف مظهر المرض الخفيف الذي قد يكون لديه • ونجد عادة أن أسرا بمجموعها من هذه النوع تكون عادة سريعة التأثير ، كثيرة المرض ، وأفرادها مفرطون في العناية بأنفسهم • ويغلب أن يكون هذا هو نوع الجو الذي تتكون فيه حالات الرعب من المرض (Hypochondria) •

وأعرف طفلا نشأ هذه النشأة بكى بكاء شديدا في يوم ما وجرى الى أمه يقول لها ان رجله قد جرح • فنظرت الأم الى الجرح المزعوم ، فاذا به لون أحمر وليس بجرح • وسببه أن الطفل كان يلبس جوربا جديدا أحمر اللون وابتل بالماء فترك أثرا أحمر على ساقه • فاذا لم يكن هناك جرح ولا ألم فمن أين ينشأ الخوف والتألم ولماذا الصراخ ؟ نشأ هذا من أن الطفل شديد الخوف على نفسه ، لأن من حوله شديدو الخوف عليه • وهناك من هذا النوع أمثلة واقعية كثيرة منها أن فتاة احمر ذراعها وسبب هذا الاحمرار ذعرا شديدا • وفكرت بسببه فيما قد يتبع هذا الاحمرار من نتائج غير محمودة • هذا مع العلم بأن السبب الحقيقي بسيط للغاية ، وهو جلوسها في الشمس فترة طويلة • وحتى عندما ذكر لها ذلك لم يزل خوفها وظلت قلقة على نفسها يومين كاملين حتى زال أثر الشمس زوالا تاما • نشأت هذه الفتاة في نوع الجو الذي نحن بصدده • وفي العادة نجد الخوف من الآلام الجسمانية ، والخوف من الأمراض ، والتعرض في كثير من الحالات للأمراض «الهستيرية» ، ويمركز المرء حول نفسه ، وخوفه عليها من كل طارئ خارجي ، سببه امتلاء الجو المنزلي بالقلق والخوف على من فيه • ومن المهم أن تذكر أن الخوف على من في المنزل يكون في العادة اسقاطا للخوف على الذات • فلتكن اذن خطة الآباء والأمهات اذا أصاب أبناءهم شيء ما أن يكونوا عمليين فيلتزموا الهدوء ، ويضبطوا انفعالاتهم ويقللوا من جزعهم ، ومن كل ما يركز انتباه الطفل على ما أصابه من مرض أو غير ذلك وليقوموا بعمل ايجابي هادئ لتخفيف الاصابة وعلاجها •

ومما يساعد على اثاره الخوف عند الأطفال تشاجر الكبار ، كشاجر

الأب والأم ، أو كثرة صخب الأب وغضبه • ولهذا كله تأثير سيء لأنه قد يززع ثقة الطفل بوالديه ، وكثير من حالات الاضطراب العصبي في الكبر تنشأ من تززع ثقة الطفل بالعلاقات التي بين والديه •

وهناك نوع من الخوف في غاية الخطورة وهو الخوف من المسائل المجهولة غير الحقيقية أو التي لا يمكن للطفل ادراكها ادراكا حسيا ، كالغول وجهنم والموت • والخوف من مثل هذه الأمور يكون عادة أعمق أثرا في حياة الطفل من الخوف من المحسوسات • والواجب هو عدم اثارها اطلاقا وإذا كانت موجودة فيجب البحث عن سبب تكوينها ، وإزالتها من أساسها ، مع شرح حقيقتها — قدر الامكان — بما يلائم عقل الطفل ، أو السماح له على الأقل بالتحدث فيها وعدم كبتها باعطاء الموقف الصحيح ازاءها •

الخوف من الموت :

ومن أمثلة هذا النوع الخوف من الموت • ويصاب كثير من الأطفال به بدرجات مختلفة ، ويكون سببه أحيانا أن يعيش الطفل مع كبار يخاف أحدهم الموت بشكل بارز ، وقد يكون سببه أن يموت للطفل قريب أو رفيق له به صلة شديدة • والسبب الأصلي لهذا أن موت القريب المهم يهز في الطفل ثقته في بيئته التي يحتوى بها وينتمى إليها هزا عنيفا ، فتصبح دنياه في نظره خلوا من الأمن • فكما ماتت جدته مثلا يصح أن يموت أبوه أو أن تموت أمه في أى لحظة ؛ أى أن بيئته تصبح خلوا من القاعدة الثابتة ؛ مضطربة ، أو عرضة للاضطراب والانقلاب • وهذا يؤدي الى اضطرابه • وهناك سبب أصلى آخر هو أن موت القريب يهز ثقته في نفسه فيشعر أنه يصح أن يموت هو في أى لحظة • والسبب الثالث هو أن الموت ظاهرة غريبة غامضة في ذاتها وليس من السهل على الطفل — بل على الكبير — أن يتصور نفسه في حالة الموت ، أو فيما يحدث لجثته بعد الموت رغم معرفته الأكيدة بتعرضه له • ولهذا يطرد الناس هذه الفكرة عن أذهانهم ، بل لا يدخلونها فيها في غالب الأحيان • ومن أهم أسباب خوف الأطفال من الموت ما يحاط به الموت مما يأتيه الكبار عادة من بكاء فردى وجمعى وغير ذلك مما تقضى به بعض

التقاليد ، فخوف الأطفال من الموت ليس كله خوفا طبيعيا وانما أغلبه مشتق من خوف الكبار وسلوكهم ازاءه •

وللحصول على بعض الوقاية للأطفال من هذا النوع من الخوف ، يحسن أن يكون بالمنزل أو في خبرة الطفل المتكررة بعض الحيوانات • ولا بد أن يموت بعض هذه الحيوانات فيدرك الطفل الموت بذلك ادراكا طبيعيا هادئا خاليا مما يحيط بموت الانسان عادة من انفعالات ، ومن محاولات لتخبئة الموت وظواهره من ناحية ، وتجسيمها من ناحية أخرى • ويحدث أن يسمع الطفل بوقاة جار ليس له به قرابة فيسأل والدته أسئلة عن الموت ومعناه وميعاد حدوثه • الخ ، ويندفع الى السؤال بدافع الرغبة في الاطمئنان • وهذه فرصة ذهبية للتحدث الهادىء مع الطفل عن الموت ، لأن الخوف من الموت يكون أسوأ أثرا اذا كانت الخبرات الأولى بالموت ترتبط في ذهن الطفل بصدمة شديدة حادة تتعلق بقرب أو عزيز • ويحسن — قدر الامكان — ألا يحاط الموت بما يحاط به من تقاليد تثير في الأطفال رعبا شديدا دون أن ندرك ذلك غالبا • واذا لم يكن هناك بد من متابعة هذه التقاليد ، فيحسن ابعاد الطفل عن جوها الى أن تنتهى • على أنه من الخطأ الفاحش ، اذا مات للطفل قريب محاولة التمويه عليه وعدم ايقافه على الحقيقة بمختلف الأساليب ، وذلك لأن التمويه والتغيير الفجائى يكونان مصحوبين بجو غير عادى يثير شكوك الطفل وحيرته • والحيرة أشد أثرا في نفس الطفل من الصدمة الناشئة عن المواجهة المؤلمة للواقع •

الخوف من الظلام :

يمكن أن يكون خوف الأطفال من الظلام أمرا طبيعيا كما يمكن أن يكون غير طبيعى • ويجب أن يتجه العلاج منه بتعويد الطفل النوم في الظلام ، وألا يكون بتعويده النوم في مكان مضاء • وخوف الطفل من الظلام يكون عادة لارتباط الظلام في ذهنه بالعفارىت أو ما شابهها مما يشيره الكبار • ولكن قد يكون الخوف من الظلام — كما قلنا — طبيعيا • وذلك لأن الطفل في صغره له خيال قوى وخبرة ضئيلة ، ولأن الظلام نفسه يساعد على

ظهور الخيالات والأشباح • فالظلام في ذاته لا يثير خوفاً غريزياً فطرياً وإنما يخيف لما يستثيره في الأطفال عادة بطبيعته من عناصر مخيفة ، وذلك لأنه إن كان الظلام حالكا فإنه يكون في ادراكه مجرداً من الحدود والنهايات • وإن كان الظلام جزئياً فإن ما به من مرئيات يسهل أن تتحول في نظر الطفل الى أشباح غريبة • فالطفل قد يقوم من نومه غامض الشعور والادراك ، وجو الغرفة يكون وسطاً بين النور والظلام ، فيرى المشجب مثلاً في ركن الغرفة وفي أعلاه طربوش وعليه سترة فيخيل إليه أنه رجل • وربما هب الهواء وهز ذراعى السترة ، مما يساعد على وضوح الصورة المتكونة للرجل في خياله • وإذا كان لدينا طفل يخاف الظلام فيمكن أن ينام في غرفة بها ضوء ، ويقلل الضوء ليلة بعد أخرى ، ولا مانع من أن يحتفظ بنصباح (سهارى) ، ولا مانع من (بطارية) يحفظها تحت وسادته ليضىء بها إذا شعر بالحاجة لذلك ، ثم يفهم الطفل بالدليل المحسوس وبالمناقشة أن الظلام لا يدعو لكل هذا الخوف • ومن أهم العوامل التى تساعد على زوال الخوف من الظلام أن يكون الكبار أنفسهم ممن لا يخافون الظلام • ويصح ألا يعود الطفل الظلام فجأة وإنما يعود بالتدريج • ويجب أن يراعى لوقاية الطفل أو علاجه من الخوف من الظلام نوع القصص التى تحكى له قبل النوم مباشرة ، فيجب أن تنتقى بحيث تخلو بقدر الامكان من عناصر الازعاج ، ويجب كذلك أن تمتنع استثارة الخوف عند الأطفال وهم في الظلام ، لأن مجال الظلام يصعب على الأطفال تحديد موقعهم فيه ، خصوصاً إذا اضطربوا •

القلق والخوف العام :

ونلاحظ في بعض الناس قلقاً أو خوفاً عاماً ، فنجد شخصاً يخاف أى نوع من المخاطرة ويخشى مقابلة من لا يعرف ، ويخشى التكلم في مجتمع ، ويخاف الامتحان • وهو يشك في مقدرة نفسه في كل خطوة من خطوات حياته • وإذا درسنا حياة هذا النوع من الناس — وهو موجود بدرجات مختلفة — نجد أن من حوله من الكبار كانوا يحذرونه باستمرار أو ينتقدونه باستمرار

أوتبعون معه غير ذلك من الأساليب المسببة للقلق. وليس معنى هذا أن التحذير المستمر أو النقد المستمر لا يؤدي إلا إلى القلق ، وانما يحتمل أن يؤدي إليه أو إلى تقيضه • فهو اما أن يضعف ثقة المرء بنفسه ، أو ثقته بالناس فيقف منهم موقف المتحدى •

واجب الآباء ازاء مواقف الخوف :

ومن القواعد الوقائية الهامة التي يجب أن تراعى أنه اذا حدث لطفل ما حادثة مزعجة فلا يجوز أن تترك الطفل ينساها لأنه ينساها غالبا بفعل الكبت ، وبذلك تصير في حالة لاشعورية ، ولكن أثرها لا ينتهي اذ يحتمل أن تصير مصدرا للاضطرابات النفسية • وقد حدث أن طفلا صرخ صراخا شديدا X للغاية ، كله ذعر وخوف ، وظهر أن السبب في ذلك أنه كان قد رأى قطته تأكل أولادها • هذا الحادث ربما كان يترك أثرا دائما في نفس الطفل لولا أن من حوله عالجوا المسألة بكثير من الحكمة • وكان من أسئلته التي سألها في ذلك الوقت : « هل كل أم تأكل أولادها ؟ » والظاهر أن الطفل خيل إليه أنه كما أن القطة الكبيرة أكلت أولادها ، فمن المحتمل ألا يكون هناك ما يمنع من أن الأم البشرية قد تأكل هي أيضا أولادها ، وعلى ذلك فقد تأكله أمه في يوم من الأيام ، ولكن أفهمه من حوله اذ ذاك أن القطة الشرسة فقط هي التي تأكل أولادها • ثم ان الموضوع لم يترك لينسى ، بل كان من حوله يتحدثون معه فيه من آن لآخر ، ويطلبون منه أن يصف طريقة القطة عند أكلها لأولادها الى غير ذلك من التعليقات حول الحادث • وكان من المحتمل أن يقوم الكبار المحيطون بالطفل بالاستهزاء من خوفه من الحادث التافه في نظرهم ، ويضحكون على سؤاله ، أو يجيبونه كذبا بأن كل أم تأكل أولادها الى غير ذلك ، مما يثبت آثار الخوف في نفسه •

وعلى العموم ، فليتذكر الآباء والأمهات أن الخوف يتكون غالبا بالاستشارة والتكرار • فالقاعدة العامة اذن هي منع الاستشارة • وعليهم أن يتذكروا أن فهم الشيء على حقيقته وتكوين عاطفة طيبة نحوه من أهم العوامل التي يجب اقامتها لتعمل ضد الخوف •

ومن أهم القواعد التي يجب توكيدها أن الخوف ينتقل بالايحاء والمشاركة الوجدانية ، ولنتذكر أن ايحاء السلوك أقوى من ايحاء الألفاظ .
فاذا أردت لأطفالك ألا يخافوا الدواء مثلا ، فلا معنى لأن تظهر علامات التألم وأنت تأخذ الدواء ، أو في الوقت الذي تعطى فيه الطفل دواء ثم تطلب منه التجلد ازاءه . فعليك أنت أولا ألا تخاف هذه الأشياء ، وان كنت تخافها فلترض نفسك على تحملها ، واذا استجال عليك ذلك فاستر خوفك عن أطفالك . ومن الوسائل السهلة التطبيق التشجيع الجمعى ، فتعطى مثلا طفلا شجاعا دواء تحت تأثير التشجيع أمام آخرين ، ثم تعطى الآخرين دواءهم بعد ذلك تحت تأثير التشجيع أيضا ، وبالتكرار تجد أن هذه الأشياء تنفذ بسرعة وسهولة ، وعلينا أن نتذكر في مثل هذه المواقف ما يحسه الأطفال من نشوة عند التغلب على الخوف .

ويجب على الآباء أن يروضوا أنفسهم على عدم القلق على أبنائهم ، أو أن يخفوا عنهم قلقهم ان كان خارجا عن ارادتهم ، وأن يقللوا من التحذير والمبالغة في النقد وأن يمتنعوا عن الاستهزاء بالأطفال والسخرية بهم .
وعلى الآباء أن يتذكروا كذلك أن أغلب أخطائنا في تربية الطفل سببها أن المرء ينسى ما كان فيه من عالم الطفولة بسرعة وسهولة . فعالم الأطفال عالم دقيق الحس سريع التأثير ، شديد الانفعال ، قليل الادراك ، نادر الخبرة ، ضئيل الحيلة . وهذه من أهم العوامل التي تسهل احتمال نمو الخوف بصورة غير سوية .

ضعف الثقة بالنفس :

ويرتبط بموضوع الخوف ارتباطا شديدا صفة كثيرة الشروع وهى ضعف الروح الاستقلالية في الأفراد . ويكون هذا دالا في الغالب على فقد الأمن أو وجود الخوف . ومن مظاهر هذا الضعف التردد ، وانعقاد اللسان في المجتمعات والتهمة واللجلجة ، والانكماش ، والخجل وعدم القدرة على التفكير المستقل ، وعدم الجرأة ، وتوقع الشر وزيادة الخوف وشدة الحرص ، وتضييع الوقت بعمل ألف حساب لكل أمر — صغيرا كان

أو كبيراً — قبل البدء فيه حتى لا يخرج منحرفاً قيد شعرة عن الكمال •
ومن الغريب أن من مظاهره كذلك التهاون والاستهتار وسوء السلوك
والاجرام •

وهذه الصفات كلها يجمعها أو يجمع ما وراءها ما يسميه الناس عادة
شعوراً بالنقص أو ضعف ثقة بالنفس أو جبناً •• أو ما إلى ذلك • ولا شك
في أن هذه الخصلة الهدامة للرقى المفككة للشخصية ، إنما تكون عادة في
السنوات الأولى من حياة الطفل ، ويغرسها في نفسه أعز الناس إليه وأقربهم
إلى قلبه ، وهما الوالدان •

الثقة عند الطفل الصغير :

وأول ما نلاحظه أن الطفل الصغير العادي يعيش عادة في جو كله أمن
واطمئنان • فحاجات الطفل كلها مشبعة ورغباته مجابة • فإذا صرخ فإن الأم
تهرع إليه لترضعه ، أو لتغير له الملابس أو لتدفئه في حالة البرودة ، إلى غير
ذلك مما يحتاج إليه • فالطفل الصغير عادة لا يرفض له طلب ، ولذا نجده
يبدو كأنه يتحكم في دنياءه ، فهو يأمر ويصرخ ولا يصبر حتى تحضر له أمه
في تأن وهذوء ، وإنما يرفض ويصرخ بعنف والاحاح إلى أن يجاب طلبه ؛
فكأن نفس الطفل تشعر بشيء كثير من الاطمئنان إلى من حوله والثقة بهم ،
وكأنه يشعر شعوراً ضمناً بأن من المسلم به ألا يرفض له طلب بحال من
الأحوال •

ولكن يلاحظ أن الطفل قرب السنة الثانية يتعلم المشي والكلام ، ويزداد
نشاطه ، وتكثر حركته ، ويكون مملوءاً ثقة بنفسه وتزداد رغبته في اللعب
والصياح والحركة ، ويتضاعف شوقه للمس الأشياء وفحصها • وهو
لا يعرف منعا ولا زجراً • ولكن ازدياد النشاط عنده لا يجد من الكبار
عادة تشجيعاً ولا قبولاً • فالحركة واللعب ولمس الأشياء وفحصها — خصوصاً
إن كانت مما يملكه الكبار ويقدرونه — تجد معارضة ومقاومة • فكلما لمس
شيئاً منعه الكبار ، وكلما صاح ضربه ، وكلما فعل ما لا يروقهم زجروه •
والمنع والضرب والزجر وما إلى ذلك كلها أمور جديدة بالنسبة للطفل في

هذه السن ، فلم يكن يآلف منها شيئا من قبل ، ولم يكن يعرف غير السعادة ، والرضا والطمأنينة . وأما الآن فهذا كله يقل ، أو ينعدم ، ويحل محله اضطراب نفسى ، وقلق داخلى ، وشعور بفقد السند ، وفقد ما كان عنده من قوة يسخر بها من حوله لقضاء مصالحه واجابة مطالبه .

فكأن هذا الانتقال الفجائى فى المعاملة — وهو يحدث عادة حوالى السنة الثانية من حياة الطفل ، ويحدث دون قصد سيىء من الوالدين ، بل قد يحدث وفيه قصد التوجيه والتأديب والتربية — هو الذى ينقل الطفل من الامتلاء بالثقة الى فقدها ، ومن الايمان بالقوة الشخصية الى التشكك فى وجودها . فيجب أن تكون القاعدة الأساسية أن الانتقال فى المعاملة من السنتين الأوليين الى ما بعدهما — بنوع خاص — يجب أن يكون انتقالا تدريجيا ، وأن يعطى الطفل الفرص الكافية لتصرف ما عنده من النشاط فى جو تتوافر فيه العوامل المحققة لحاجات الطفل النفسية من تقدير وعطف ونجاح وحرية وتوجيه وشعور بالأمن والاستقرار .

بعض العوامل الطبيعية للشعور بالنقص :

ويلاحظ كذلك أن مجموع الظروف المحيطة بالأطفال تجعلهم عادة يشعرون بشيء غير قليل من النقص ، فالطفل بطبيعة طفولته نظرا لصغر جسمه ، ونظرا لضعفه ، ونظرا لاعتماده على والديه ، ونظرا لقصور ادراكه يشعر بأن أمه وأباه بنوع خاص مخلوقان قويان عظيمان ، وبالتالي يشعر بأنه فرد ضعيف . ولذا نلاحظ أن نفس الطفل تشاقق للكبر ، وتتعطش للنمو وكسب القوة . فهو يقلد أمه وأباه فى كل أمر تقريبا ، لأنه يريد أن يكبر مثلهما ، وهو يفرح لأى ظاهرة عنده من مظاهر النمو ، فاذا شعر مثلاً بأنه صار قادرا على أن تصل يده الى الصنبور أو الى مزلاج الباب بعد أن كان غير قادر على ذلك فإن هذا الشعور يكون مصدرا عظيما للنشوة والفرح ، فكأن ضعف الطفل وقوة من حوله يشعرانه بقلته ونقصه وضعفه . ولكن يتضاعف أثر هذا العامل الطبيعى بفعل بعض التغيرات الحادثة فى مجال حياته كتكرار الحوادث التى تقع بفعل القضاء والقدر أو بفعل معاملة الوالدين .

العصور الجسماني والعقل :

وقد يكون لدى الطفل بالإضافة الى ضعفه الطبيعي الذي يشترك فيه مع بقية الأطفال نقص جسماني خاص به كالحول ، أو العرج ، أو العسر ، أو النحافة ، أو البدانة ، أو فرط القصر ، أو فرط الطول ، أو تشوه جسماني معين ، أو غير ذلك . ويجب في هذه الحالات أن يكون موقف الكبار مع الصغار موقفا عاديا ، كأن الطفل ليس به شيء غريب اطلاقا ، فلا تجوز الموازنة ، ولا تجوز السخرية ، ولا يجوز العطف الزائد . فالعطف الزائد من شأنه أن يركز انتباه الطفل على عاهته ، بل يجب أن يكون سلوك الكبار من هذا الطفل كسلوكهم مع أي طفل آخر ، فأى سلوك غير السلوك العادي يصح أن ينتج لنا شخصا منكسرا ، راكدا ، متباعدا ، منزويا ، غير ميال للنشاط ، أو شخصا ناقما ، ثائرا ، يتجه في كثير من الأحيان بنقمة وثورته ضد المجتمع وأنظمتة وآدابه ، وتقاليده . هذا كله من ناحية الشعور بالنقص المتكون من الضعف الجسمي ، وأهم ما يراعى فيه أن حساسية الطفل لنقصه أو لموقف الكبار نحو نقصه الجسمي ، حساسية كبيرة للغاية ، فليكن موقفنا الوقائي ازاء الصحة النفسية للطفل أن نضمن أولا صحة الطفل الجسمانية ، وأن نساعد على أن يشعر بقوة وصحته شعورا معقولا معتدلا .

وهناك نوع آخر من الشعور بالنقص ، وهو الشعور بالنقص العقلي أو بالضعف العقلي ، فمن الجائز أن يتأخر الولد عن زملائه في المرحلة الدراسية كأن يجد نفسه في سنة دراسية كل أطفالها أصغر منه في السن . ووجوده في هذه البيئة قد يشعره بالبوؤس ويفقده احترام نفسه وتقديره اياها . ومن الجائز أن يكون سبب التأخر هو كثرة تنقلات الوالدين من جهة إلى أخرى ، وبالتالي كثرة تنقل الطفل من مدرسة إلى أخرى ، وارتبائه في تحصيله العقلي تبعا لذلك . فإذا حدث هذا التأخير ، وكان المعروف أن ذكاء الطفل يسمح له بالتقدم فيحسن مساعدته حتى يصل إلى المستوى المناسب له ، ثم يتركه بعد ذلك ليشتق طريقه بنفسه . ويحسن أن يقف الطفل على الأسباب التي أدت إلى تأخره ، فكثيرا ما تغيب هذه الأسباب عن ذهن الطفل بل عن ذهن

الوالدين أنفسهم • ووقوف الطفل والوالدين والمعلمين على عوامل تأخر الطفل يجعلهم أقدر على التحكم فيها • ومن الجائز أن يتصف الطفل بقصور حقيقى فى استعدادة الادراكى • وفى هذه الحالة لا يجوز وضع الطفل فى عمل دراسى أكثر مما يتحملة مستواه الادراكى ، لأنه سيشعر دائما ازاءه بضغفه وعجزه وعدم مقدرته •

ومن أحسن ما يقوى فى الطفل ثقته بنفسه نجاحه وشعوره بالنجاح ، فإذا قام بعمل ونجح فيه فهذا هو أحسن حافز له على مواصلة العمل والنشاط ، فإذا كنت تكلفه عملا ما فمن الجائز أن يكون العمل صعبا جدا فيبأس أمامه ، ويظن أنه ضعيف ومن الجائز أن يكون العمل سهلا جدا لا يشعر الطفل معه ببذل المجهود ، أو بلذة النجاح ، وينشأ عنده احتقار للعمل أو شعور بالغرور . فيحسن أن يكون العمل الذى يكلفه عملا أعلى من مستواه بحيث يتحدى قواه العقلية ونشاطها ، وبحيث يهيب له فرصة للنجاح ، وبالتالي فرصة احترام نفسه لنجاحه • وهذا هو نوع النشاط الذى يحفزنا لى الاستمرار فى النشاط بعد ذلك •

بالموازنة :

ومما يشبط همة الطفل أن نخط من قيمته بالموازنة • فكثيرا ما يوازن الآباء بين طفل وطفل آخر بقصد تحسيس الطفل المتأخر الى العمل والنشاط وهذا النوع من الموازنات يأتى غالبا بأسوأ النتائج •

ومن بين الحالات التى عرضت لنا حالة ولد متوسط الذكاء وله أخت تصغره سنا وتفوقه ذكاء ، وكان الوالدان يوازنان علانية بينهما موازنة تشعر البنت بأنها قد بلغت الذروة وتشعر الولد بأنه قد هبط الى الحضيض • وهكذا ثبتت همة الولد ، وانكمش فى نفسه ، وتراخى فى عمله ، وتشجعت البنت ، وتقدمت فى عملها ، وكلما ازدادت الموازنة زاد الولد تألما ، وزاد انحرافا عن عمله ، وزادت البنت نشاطا وتحمسا فى عملها • فإذا نظرنا لهذا الولد وجدنا أن كل ما حوله يفقده شعوره بالقوة فهناك توبيخ الوالدين ، وهناك رسوبه ونجاح أخته • وهذا كله يترك فى الطفل آثارا يترتب عليها شعوره بعدم الجدارة ، وبنقص الكفاءة ، وبعدم القدرة على العمل •

وكان الولد يعمل في الظاهر أحيانا ويستذكر ؛ ولكنه يقول أنه يستذكر ولا يفهم ، وانه اذا جلس يستذكر يتشتت فكره ، ويطير عقله ، ويشرد اتباهه مما أمامه . وعقل الولد في هذه الحالة مقسم بين قوتين : احدهما الرغبة في النجاح والتفوق ، والأخرى شعور خفى يستولى عليه ، ويمزق جهوده ، ويشعره بأن الاخفاق أمر لا بد منه . والولد في كل هذا مخلوق بائس يرغب ويعجز عن تحقيق رغبته ، ويعقد النية ولا يقوى على تنفيذها . وهو لا يدرك سر القوى الخفية التي تعمل بداخله ، والتي هي من غرس الجو المنزلى المحيط به ، والتي تجعله غير قادر على العمل . وبالإضافة الى هذا فإن الأب والأم لا يسمحان له بالاشتراك مع بقية الأسرة في الحديث أو الفسحة ، أو المجالسة ، أو غير ذلك . وكل هذا بالطبع يزيد في شعوره بنقصه وعدم جدارته .

وطفل آخر له أخ أصغر وأذكى منه بكثير . ذكاء الأكبر أقل من العادى بدرجة ضئيلة . بدأت الموازنة بين الأخوين بتشجيع الوالدين للأصغر وتقريبه منهما . والعطف عليه ، واقصاء الأكبر والاكتار من توبيخه وضربه وحرمانه من كل امتياز . كل هذا اذا أضيف الى شعور الطفل باخفاقه الدراسى ، لا يربى فيه شعورا بالقوة ، بل يهدم فيه كل ما يمت للشعور بالقوة بصلة . وخير لوالد هذين الطفلين وأمثالهما أن يدرك أن الاخوة يختلفون في قواهم العقلية ، وأن الواجب توجيه كل للتعليم الذى يلائم قواه العقلية . فاذا اتجه الأصغر للتعليم الثانوى المعروف يصح أن يتجه الأكبر للتعليم الصناعى ، مع احترام نوعى التعليم في نظر كل من الطفلين .

ويجب أن تكون القاعدة هي عدم الموازنة ، وأن يستبدل بالنقد والتوبيخ والزجر وما الى ذلك تشجيع الطفل واشعاره بما فيه من النواحي الطبيعية وابرار هذه النواحي بصورة عملية محسوسة . وليس من المعتاد أن تكون الموازنة دائما صريحة . فقد تكون ضمنية ، اذ يكون جو المنزل أحيانا بحيث يشعر بالمحابة ، وتقريب طفل وابعاد الآخر ، واطهار علامات الحب وعلامات الاستلطاف لطفل دون الآخر . فالمساواة في المعاملة قدر الامكان شرط أساسى لاعادة الثقة في البيئة المحيطة ، واعادة الثقة في الذات .

ويحدث أحيانا أن يكون هناك طفل يعادل مستوى ذكائه مستوى ذكاء

طفل آخر أكبر منه في السن بكثير • هذا الطفل يجد نفسه غير قادر على التعامل مع من يساوونه ذكاء لأنهم عادة أكبر منه جسما وأقوى بأسا ، ويجد نفسه كذلك غير قادر على التعامل مع من يساوونه سنا ، لأنهم أقل منه ذكاء ولهذا تضعف ثقته بنفسه ، لأن الثقة بالنفس — خصوصا في هذه السن الصغيرة — تكون مبنية على المقدرة الجسمية • وهذا ما يؤدي الى شعور المتفوقين في ذكائهم بالحساسية وضعف الثقة بالنفس رغم التفوق العلمي • وتعالج هذه الحالة في الخارج أحيانا بافراد فصول خاصة للمتفوقين في ذكائهم •

اعتماد الطفل على نفسه وعلى غيره :

ولعل من أكبر أخطاء الآباء أنهم لا يتركون الأطفال يفكرون لأنفسهم ، أو يعملون لأنفسهم • فبعض الآباء يتدخلون في تفكير الطفل وخديثه وعمله ولعبه بمناسبة وبغير مناسبة • وواجبنا أن نترك الطفل يكسب كثيرا من خبراته بنفسه ، فتركه يلعب ، ويتسلق ، ويجري ، ويقفز ، ويفحص عن الأشياء ، ويجرب • الى غير ذلك • ولكن الآباء كثيرا ما يخافون على الطفل ، ويمنعونه من عمل هذا ولس ذاك بقصد حمايته • ولكنهم بهذه الحماية التافهة يفقدونه صفات استقلالية هامة لناخذ مثلا عايدا وهو رغبة الطفل في الدق ، أو في القص • ومعروف أن الطفل تشتاق نفسه لمثل هذا النوع من النشاط ، فيعتمد الآباء الى ابعاد (الشاكوش) أو المقص عن الطفل ، ومنعه من اجراء تجاربه ، وكسب خبراته ، خوفا عليه من أن يجرح أصبعه • ولكن حتى اذا جرح الطفل نفسه ، فهذا يكون مدعاة لتعليمه الطرق الصحيحة لاستعمال هذه الأدوات • وجرح صغير في الأصبع يستمر أثره يومين أو ثلاثة أقل أثرا في تكوين الطفل من جرح كبير دائم يتناول ثقته بنفسه ، ويضعف أهم ركن من أركان شخصيته •

وبعض الآباء لا يتركون الطفل الصغير يطعم نفسه ، أو يلبس نفسه • وحجتهم في ذلك أنهم اذا أطعموه فانهم يوفرون على أنفسهم بعثرة الطعام ، واتساخ الملابس ، ولكن الطفل اذا أطعم نفسه ، أو ألبس نفسه فانه يكسب مهارات يدوية بسرعة كبيرة ، ويكسب عادات الأكل الصحيحة في زمن قصير • ويشعر بالاضافة الى ذلك بمقدرته وقوته التي زادت عنها في أيام الطفولة الأولى ويوفر كثيرا من وقت أمه في المستقبل •

وبعض الأمهات يذهبن في مساعدة أبنائهن الى حد بعيد جدا ، فالى سن السابعة أو الثامنة يلبسن أطفالهن الملابس • وأعرف أما من نوع هذا النوع كانت لا تترك لابنها (وكان في سن السابعة) شيئا يعمل قط ، فهي تلبسه ، وتطعمه ، وتوصله الى المدرسة • ولما قوبل الطفل وسئل عن اسمه تبرعت بالاجابة عنه • هذا الطفل يشعر شعورا خفيا بضعفه الشديد ، ويشعر بحاجة دائما الى المعونة ، وبالإضافة الى ما تقدم فإن الولد له أخت تجد من الأم معاملة حسنة جدا ، فالأم تقول : ان البنت حسنة ، وأنها تسمع الكلام ، الى غير ذلك • وأما الولد فانها تصفه بجميع الصفات السيئة ؛ فالى جانب أنها تشعر بضعفه بعدم تركه يعمل شيئا لنفسه ، تشعره أيضا بعدم جدارته بموازته بأخته موازنات سيئة • فالنتيجة أن الولد شذ في سلوكه من نواح عدة ، بحيث أصبح من الصعب علاجه الا اذا أقلت الأم عن خطتها في كثرة المساعدات وفي التفرقة في المعاملة بينه وبين أخته (حالة صفحة ٢٨٣) •

ومن نوع المساعدة التي تفقد الطفل ثقته بنفسه ارسال خادم أو غيره لحراسة الأولاد عند ذهابهم للمدرسة وإياهم منها الى سن متقدمة ، وكذلك الدروس الخصوصية في بعض الحالات ، واعطاء النقود ثم الاشراف على اتفاق كل ملهم منها ، والتفكير للطفل في نوع التعليم الذي يجب أن يتعلمه ولون الحلة التي يلبسها ، والصديق الذي يختاره لنفسه • الى غير ذلك مما يبالغ فيه الآباء أحيانا مبالغة كبيرة ، ويترتب عليه اما تكوين أفراد ضعفاء جبناء مترددين ، أو تكوين أشخاص تأثرين مترددين ميالين للتحكم والاستبداد ، أو تكوين أفراد يجمعون بين هذين الاتجاهين المتناقضين • وتأخذ ثورة الفرد ضد هذا النوع من المعاملة أبرز صورها عادة في دور المراهقة والسنوات الأولى من البلوغ •

السلطة الوالدية :

يفرض الآباء على الأبناء أحيانا سلطة جائرة • والشغف بالسلطة يكون في الغالب مظهرا من مظاهر الضعف المستتر • فيتحكم الكثير من الآباء في الطفل ويشعرونه بأنه لا حول له ولا قوة بجانب سلطتهم وقوتهم ، ويرغم الطفل اذ ذاك على اطاعة الوالد دون أن يفكر أو يتردد ، أو يتأمل • فيطلب

الوالد من الطفل اطاعته من أجل مجرد الطاعة ؛ لا لغاية أخرى أهم منها • وكذلك ترى الكبار يسخرون من الصغار ويستهزئون بهم وبقوتهم العاجزة وتفكيرهم القاصر ، ويجعلون من ضعف الطفل وعدم اكتمال نموه مصدرا لسرورهم وتسليتهم كل هذه الأمور من آثار للحساس بالضعف الطبيعى ومن سلطة جائرة ، وطلب للطاعة العمياء ، وتهكم واستهزاء — تفقد الطفل أهم سلاح يجب أن نسلحه به وهو الثقة بالنفس • والى كل ما تقدم نضيف جفاء الكبار ، وعدم اظهارهم عطفهم • ويبالغ بعض الآباء فى مخاصمة الأبناء ومقاطعتهم ، أو ابداء اهمالهم اياهم ، فيحدث أحيانا أن نجد الوالد مثلا يتحدث الى شخص آخر ، ثم يجيء الصغير يطلب من الوالد شيئا ، فيهمله اهمالا تاما ، وربما لا يدرك وجوده • ويحدث غالبا أنه ينهره ويبعده ويذره ولا يستمع له •

ليس معنى هذا أننا نريد أن يربى الطفل على مقاطعة الناس فى أحاديثهم ، وانما معناه ألا يهمل باستمرار ، فيشعر على الأقل أننا نحسن وجوده • وأما تكرار اهماله وعدم اقامة أى اعتبار لوجوده فانه يشعره بأنه ليس جديرا بالالتفات اليه ، ويشعره بأنه مخلوق حقير أو على الأقل بأنه ضعيف عديم القوة • هذا النوع من المعاملة لا يسهل على الطفل تكوين عاطفة احترام الذات ، وهى المركز الذى تنمو حوله الشخصية نموا متزا •

ومن أخطر مظاهر السلطة الوالدية تذبذبها ، مما يزعزع ثقة الطفل بها وقد يترتب على هذا اضطراب ثقة الطفل بنفسه •

العلاقات بين الوالدين :

ومن أهم العوامل التى تجب الاشارة اليها الجو المنزلى نفسه • فإذا كان الجو المنزلى مليئا بالمحبة والعطف والهدوء والثبات يكون الطفل فى الغالب مطمئنا على نفسه • ويلاحظ أن شعور الطفل بقوته وثقته بنفسه وظهوره بمظهر الاستقرار والثبات يعكس صورة منزل تسوده العلاقات الطيبة • وأما الاضطراب المنزلى والمشاجرات والمنازعات بين الآباء فانها من أقوى العوامل التى تؤدى الى فقدان ثقة الطفل بنفسه • نتيجة لفقدانه اطمئنانه الى الجو المنزلى •

وقد يقول قائل : ومن يدرى الطفل بما بين والديه من نزاع ؟ ولكن الطفل حساس للغاية فهو يلتقط ما فى جو المنزل بنوع غريب من الالهام يطلق عليه المشاركة الوجدانية والايحاء • فليكن جو المنزل متصفا بالطمأنينة والثبات والاتزان، ولتكن سلطتنا مع الطفل مشبعة بروح الحرية والصدقة^(١) دون أن تفقد شيئاً من الحزم فى التوجيه •

وقد تصل العلاقات بين الوالدين الى درجة أن يتعلق كل منهما بالآخر تعلقاً يهمل معه الأولاد • وينسى بعض الآباء واجبهم الى حد أنهم يتغازلون أحياناً أمام أطفالهم • وكثير من الاضطرابات العصبية ينشأ بسبب هذا النوع من المواقف •

التربية والروح الاستقلالية :

لا يقصد بوجود الطفل فى حضانة والديه مدة طويلة أو قصيرة الا أمر واحد ، وهو وجوده فى جو آمن يحميه فى أثناء مراحل النمو الأولى ؛ ولكن لا يجوز أن تصل الحماية الى الحد الذى يجعله غير قادر على الاستقلال بنفسه • ويمكن النظر الى نمو الطفل على أنه سلسلة من الانفصالات أو الاستقلالات • فالطفل يقضى شهوره الأولى شديد الالتصاق بأمه ، ثم يفصل عنها انفصالاً جزئياً ليتصل ببقية أفراد الأسرة ، ويساعده فى ذلك المشى والكلام ، ثم يفصل عن أفراد الأسرة انفصالاً جزئياً ليتصل برفقائه اتصالاً جزئياً ، وتزداد صلته برفاقه تدريجياً الى أن يصل الى دور المراهقة ، حيث تبلغ هذه الصلة أعلاها ، ويصبح شديد الولاء لمجموعة معينة من الناس ، ثم يفصل عن هؤلاء انفصالاً جزئياً ليتصل بالمجتمع الأكبر • فيكون معنى التربية الاستقلالية هو تكوين شخص يعتمد على نفسه فى الفكر والعمل ، ويتصل بالمجتمع ويشعر بمسئوليته نحوه وبحقوقه عليه ، وينسجم مع المجتمع بحيث لا يتلاشى فيه ، بل يحتفظ بفرديته ، ويشعر بالأمن الشخصى ، ويتصف بروح الاقدام ، والمخاطرة ، والشعور بالثقة بالنفس • والثقة بالنفس لا يقصد بها الغرور ، فالغرور هو تقدير المرء لنفسه تقديراً أعلى من الحقيقة ، وتقيضها احتقار الذات ، وهو تقدير المرء لها تقديراً أقل

(١) راجع الباب الثانى : فصل « الطفل ووالده » .

من الحقيقة • وأهم أسلوب يساعد على تقدير المرء لذاته حق قدرها هو التفاعل الكافي مع العالمين المادى والاجتماعى تفاعلا عمليا يترتب عليه وضعه فى المكان اللائق باستعداده ، و يترتب عليه اقناعه بصحة هذا الوضع •

ويلاحظ أن ما يصدر من الآباء من مظاهر الحب ، والافتخار ، والخوف ، والغضب والنقد والموازنة ، والتشجيع والتشيط وغير ذلك ، يمكن أن تكون كلها مظاهر طبيعية اذا بدت بدرجات معقولة • ولكنها قد تصل كلها أو بعضها الى درجة من القوة بحيث تهزم معها الأغراض التى ترمى اليها • وهذه الأغراض هى أن يكون الطفل مسلحا من النواحي الجسمية والعقلية والخلقية أو الاجتماعية حتى يصير مؤهلا للنضال مع زملائه فى الحياة بحيث لا يتقبل محاباة ولا يخاف فشلا ؛ أى أن الغايات التى يجب العمل على تحقيقها هى التحرر من الوالدين أو من يشابههما • وبعض الأطفال لا يتحررون من آباءهم مدة الحياة • وقد سبق أن أعطينا من ذلك أمثلة عديدة (راجع فصل الطفل والوالد) •

مظاهر ضعف الثقة بالنفس :

من مظاهر ضعف الثقة بالنفس الجبن والانكماش ، والتردد ، وتوقع الشر ، وعدم الاهتمام بالعمل ، والخوف منه ، واتهام الظروف عند الاخفاق فيه • وأحيانا يكون من مظاهره التشدد ، والمبالغة فى الرغبة فى الاتقان للوصول الى درجة الكمال • وهذا الاندفاع للكمال يدل عادة على ما تحته من خوف من نقد الآخرين • ومن مظاهره كذلك أحلام اليقظة ، وسوء السلوك ، والمبالغة فى التظاهر بطيب الخلق ، والحالات العصبية ، والمرضية كالتهمة ، والتبول ، وبعض حالات الشلل ، وغير ذلك • معنى هذا أن ضعف الثقة بالنفس — مع اختلاف العوامل التى تؤدي الى ظهوره — قد يؤدي الى أساليب انسحابية أو سلبية كالكسل أو الانزواء أو الجبن وما الى ذلك • وقد يؤدي الى أساليب تعويضية كالنقد والسخرية والتحكم والتنقع بالوقار المصطنع وما الى ذلك • وقد تظهر هذه الأساليب السلوكية بنوعها فى صور مرضية •

خاتمة :

قد يسأل سائل : وما العلاج ؟ والجواب عن هذا أننا أوضحنا مجموع القوى المؤثرة في الفرد والتي يترتب عليها ضعف الثقة بالنفس ، ويكفى الوقوف على هذه العوامل لتعديل موقف الوالدين والمربين تعديلا يترتب عليه معاملة الناشئ المعاملة المؤدية الى تعود الثقة بالنفس أو على الأقل الى عدم فقدانها ؛ ولكن ليس من الجائز أن تقدم أساليب خاصة يتبعها الآباء لمعالجة الناشئين الذين يتصفون بضعف الثقة بالنفس •

المراجع

- Adler : Guiding the Child.
Allers : Psychology of Character.
Blanton : Child Guidance.
Blatz and Bott : The Management of Young Children.
Burnham : The Wholesome Personality.
Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.
Dodge : The Craving for Superiority.
S. Freud : Introductory Lectures on Psycho-analysis.
G. Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
F. Howard : Mental Health.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
H. Lane : Talks to Parents and Teachers.
Miller : Advances in Understanding the Child.
Miller : The Growing Child and Its Problems.
Neill : The Problem Child.
Ponsonby : The Application of Psychology to Everyday Life.
Roback : Overcoming Self Consciousness.
Russell : On Education.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
Thom : Everyday Problems of The Everyday Child.

الفصل التاسع عشر

الكذب

من المشكلات التي تتصل بالخوف اتصالا وثيقا مشكلة الكذب ، ويرى بعض الباحثين أن الكذب الحقيقي عند الأطفال لا ينشأ الا عن خوف ، والغرض الأساسي منه حماية النفس • ونظرا لشيوع الكذب وأهميته البالغة تنجّه لدراسته قائما بذاته • ويرجع الاهتمام بهذا الموضوع الى أسباب عدة : أولها : أن الكذب يستغل في العادة لتغطية الذنوب والجرائم الأخرى ، وثانيهما : وجود علاقة كبيرة بين خصلة الكذب وخصلتي السرقة والغش • وقد وجد الباحثون في جرائم الأحداث بنوع خاص أن من اتصف بالكذب يتصف عادة بالسرقة والغش • ولا غرابة في هذا اذا علمنا أن هذا الخصال الثلاث تشترك في صفة واحدة وهي عدم الأمانة • فعلى حين أن الكذب هو عدم الأمانة في وصف الحقائق ، نجد أن السرقة هي عدم الأمانة نحو ممتلكات الآخرين ، وأن الغش هو عدم الأمانة في القول أو الفعل بشكل عام •

ولنبداً أولاً بتحديد معنى الصدق ومعنى الكذب • فكثيرا ما يشكّل علينا الأمر فيما اذا كنا نعتبر الشخص كاذبا أو صادقا • ويخيل لنا لأول وهلة أن الصدق هو مطابقة القول للواقع • ولكن كثيرا ما يحدث ألا يكون القول مطابقا للواقع ، ومع ذلك نعتبر الشخص صادقا ، كقول القدماء مثلا بأن الأرض مسطحة ، وكقولهم أحيانا : ان الشمس تدور حولها وغير ذلك • وكثيرا ما يحدث أن يكون القول مطابقا للأصل ، ولكننا نعتبر أن الشخص كاذب ، كقول بعضهم : ويل للمصلين ، ثم الوقوف عند ذلك •

ويهمنا في الصدق أن تكون النية متوفرة لمطابقة القول للواقع مطابقة تامة • ويلاحظ في الكذب توفر النية لعدم المطابقة والتضليل • ولا ضرورة

للتوسع في هذا فهو بحث طويل ، ويحسن أن تترك الكلام فيه الى أكاذيب الأطفال • ونحن نعلم أن الأطفال كثيرا ما يكذبون • فليس بغريب على الطفل أن ينكر أمام والديه فعله قد آثاها ، كما اذا كسر آنية أو خرب شيئا ثمينا مثلا • ولكن الغريب أن يتألم الآباء لهذا أشد الألم ، ويقلقون له وينزعجون ، معتبرين أن الكذب فاتحة لعهد تشرد واجرام في تاريخ حياة أطفالهم •

وقد جرت العادة أن ينصب الآباء على الأبناء بالتقريع والاذلال والتشهير والضرب اعتقادا منهم أنهم بذلك يصلحون أبناءهم ، ويقطعون دابر الكذب منهم • ولكن أغرب من هذا أن تأتى هذه المعاملة بعكس ما يتوقع منها من نتائج ، فيصر الأطفال عادة على صحة كلامهم ، ويتفننون في اخفاء الحقائق وتزييفها •

الاستعداد للكذب :

وقبل التوغل في الموضوع يجب أن نتذكر أن الأمانة في القول أو في غيره خصلة مكتسبة وليست فطرية ، وهى صفة تتكون في المرء عن طريق التقليد والتمرين وغير ذلك من طرق التعلم المختلفة • ويجب أن نتذكر أيضا أن الكذب ما هو الا عرض ظاهرى ، والأعراض لا تهمننا كثيرا في ذاتها ، وانما الذى يهمننا هو العوامل والدوافع النفسية والقوى التى تؤدى الى ظهور هذا العرض •

وهناك استعدادان يهيئان الطفل للكذب : أولهما قذرة اللسان ولبقائه ، ولعل هذا يوافق ما كانت جداتنا يقلنه عن بعض الأطفال على سبيل المزاح ، فكن يعتبرن أن الطفل الذى يخرج في الأسابيع الأولى لسانه ويحركه يمنة ويسرة سيكون في مستقبل حياته قولا كذابا • وثانى هذين الاستعدادين خصوصية الخيال ونشاطه •

فخصوصية الخيال هى التى دفعت طفلا صغيرا لم يتجاوز الثالثة من عمره لأن يقول بأن برغوثا كبيرا خرج من كتاب أخته وطار اليه ليلسه ، وذلك بعد أن كان قد رأى صورة مكبرة لبرغوث في كتاب للمطالعة كانت ترقوه

أخذه . وما ذكره الطفل نفسه عن أنه رأى قطة ذات قرون ، وكان هذا بعد احضار أهله خروف العيد فانتزعت مخيلته قرون الخروف وركبتها على رأس قطته ، وصار يقول باسم منشرحا بأنه رأى قطة ذات قرون . وادعى طفل آخر بأنه رأى رجلا ذا أثنين ، وأنه رأى فانوس الشارع يطرح موزا ، الى غير ذلك من الأمثلة المتعددة المألوفة التي تظهر في ألعاب الأطفال المصحوبة بالخيال ، والتي تسمى باللعب الايهامى ، والتي يمثلون فيها آباء وأمهات وعرائس وفرسانا ولصوصا وغير ذلك .

الكذب الخيالى (١) Imaginative or Playful Lie :

يسمى هذا النوع من الكذب بالكذب الخيالى ، واذا حكىنا على الطفل الذى يصدر منه هذا النوع من الكلام بأنه كاذب ، كان ذلك كحكىنا على الشاعر ، أو الروائى أو المسامر بأنه كاذب فى المادة التى يأتينا بها بمساعدة خياله الخصب ولسانه الذلق .

ومما يريح نفوس الآباء والمدرسين أن يعلموا أن هذا ليس الا نوعا من أنواع اللعب يتسلى به الأطفال . وعند كشف هذه القوة الخيالية الرائعة يحسن توجيهها ، والاستفادة منها ، ولتوضيح معنى الاستفادة تأتى بالمثال الآتى : —

كانت هناك بنت صغيرة اعتادت أن تجلس الى والديها ، وتقص عليهما حكايات عجيبة وتدعى بأنها حقيقة . وكانت تسترسل فى حديثها استرسالا مشوقا جذابا يملك تفكير المستمعين واتباهمهم ، فأخذها والدها الى احدى العيادات النفسية الشهيرة فى لندن لمعالجتها من هذا النوع من الكذب . فلما درس المتخصص النفسى حالة هذه البنت وجد أنها على مقدار عظيم من الذكاء ، وأنها رائعة الخيال ، طلاقة اللسان ، فأشار على والديها بأن يفسحوا لها مجال التأليف والتمثيل . وبعد مدة قصيرة نبغت فى التمثيل

(١) التقسيم الذى فى هذه الدراسة هو فى اساسه تقسيم الأستاذ سنيرل بيرت . وقد ادخلنا عليه تعديلا طفيفا ، وقد نشره بيرت فى كتابه :

C. Burt ; The Young Delinquent; p. 376.

والأدب نبوغاً ظاهراً ، فألفت عددا من الروايات وقامت بإخراجها على مسرح المدرسة وكان هذا فاتحة لمستقبل باهر لها •

وإذا لم تتح للطفل فرصة توجيه هذه الملكة وانمائها ، فلا داعي للقلق والاهتمام بعلاج هذا النوع من الكذب ، فالزمن وحده كفيلاً بذلك ولكن قد يفيد إذا نحن سألناه بطريقة لطيفة بين حين وآخر أن كان متأكداً من صحة ما يقول ، وإذا نحن جعلناه يحس من نبرات صوتنا ، بأننا نحب هذا النوع من اللعب ، ونشاركه فيه مشاركة فعلية فنبدله قصة بقصة ، وخيالاً بخيال • ونشعره أيضاً بأن هذه القصص مسلية ، ولكنها مخالفة للواقع •

ويقرب من هذا النوع الى حد كبير نوع آخر يلتبس فيه على الطفل الخيال بالحقائق ولذلك فهو يسمى الكذب الالتباسي •

الكذب الالتباسي : Confusional Lie

وسببه أن الطفل لا يمكنه التمييز عادة بين ما يراه حقيقة واقعة وما يدركه واضحا في مخيلته • فكثيرا ما يسمع الطفل حكاية خرافية ، أو قصة واقعية ، فسرعان ما تملك عليه مشاعره ، وتسمعه في اليوم التالي يتحدث عنها كأنها وقعت له بالفعل •

ومن هذا النوع ما وقع حديثا من أن طفلا شديدا الخيال في الرابعة من عمره رأى في غرفة الزائرين شيخا معهما مستدير الوجه ، واسع العينين ، عريض الجبهة فذهب الى جده وأبلغه أن « الشيخ محمد عبده » ينتظره في غرفة الزائرين • واتضح أن جد الولد كان قبل ذلك بأيام قلائل يصف الشيخ في مجلس من مجالسه لبعض زائريه وكان الطفل يستمع فارتسمت في ذهنه بعض الأوصاف ؛ فلما جاء الزائر قال الولد أن هذا هو « الشيخ محمد عبده » •

وكثيرا ما يحدث أن يقص الطفل قصة عجيبة ، ولو تحقق الوالدان الأمر ، لعرفا أنها وقعت للطفل في حلم • ومن هذا النوع أن بنتا في الرابعة قامت من نومها تبكى بالفعل ، وتقول : ان بائع الثلج المقيم في آخر الشارع ذبح خادمته في منتصف الطريق ، ووصفت بشيء من التطويل كل ما رآته في الحلم • ولم تفرق الطفلة بين الحقيقة والحلم فقصت كل هذا على أنه حقيقة ، وكان ضروريا اذ ذاك توضيح ما جرى للطفلة •

وهذا النوع من الكذب يزول عادة من تلقاء نفسه اذا كبر الطفل، ووصل عقله الى مستوى يمكنه فيه أن يدرك الفرق بين الحقيقة والخيال • وليس معنى ذلك أن تتركه حتى يزول من نفسه ، فشيء من الارشاد مع مراعاة مستوى عقل الطفل يفيد فائدة كبيرة من الناحيتين الانفعالية والادراكية • ويمكن أن نسمى هذين النوعين من الكذب ، بالكذب البريء ، وننتقل منهما الآن الى أنواع أخرى •

الكذب الادعائي :

من أمثلته أن يبالغ الطفل في وصف تجاربه الخاصة ، ليحدث لذة ونشوة عند سامعيه ، وليجعل نفسه مركز اعجاب وتعظيم • وتحقق كل من هذين الغرضين يشبع النزوع للسيطرة • ومن أمثلة ذلك أن يتحدث الطفل عما عنده في المنزل من لعب عديدة أو ملابس جميلة ، والواقع أنه ليس عنده منها شيء • أو يفاخر بمقدرته في الألعاب أو في القوة الجسمية دون أن يكون له فيها أية كفاية وكثيرون من الأطفال يتحدثون عن مراكز آبائهم وكهاتيمهم ، وصدقتهم لحاكم البلد بل سيطرتهم عليه ••• الى غير ذلك مما يخالف الواقع عادة • وأمثلة هذا النوع كثيرة لا حصر لها •

فهذا الكذب الموجه عادة لتعظيم الذات وجعلها مركز الانتباه والاعجاب ينشأ عادة من شعور الطفل بنقصه • وتعظيم الذات عن طريق الكذب ، طريقة لتغطية هذا الشعور بالنقص ، واذا سلمنا بهذا علمنا أن هذا الكذب الادعائي قد يتسبب في بعض الحالات عن وجود الطفل في بيئة أعلى من مستواه في ناحية ما ، وعلمنا أن نفسه تنوق للوصول الى هذا المستوى ، وأنه ان لم يتمكن من الوصول اليه بالطرق الواقعية الحقيقية ، فانه يحاول ذلك بطرق بعيدة عن الحقيقة مخالفة للواقع يخترعها من مخيلته • وبعبارة أخرى قد يتسبب الكذب الادعائي من عدم مقدرة الطفل على الانسجام مع من حوله ، ومن ضيق البيئة التي يعيش فيها كالمزحل مثلاً ، بالنسبة للبيئة التي تضطره ظروفه لها كالمدرسة ، أو من كثرة الازلال والقمع الواقعين عليه ممن حوله من الذين لا يريدون له الظهور • ففى مثل هذه الأحوال يحسن

أن نكشف النواحي الطيبة في الطفل ، ونوجهها لتثبت نباتا حسنا ، ونشعره حقيقة بأنه وإن كان يقل عن غيره في ناجية ما ، فانه يفوقهم في نواح أخرى كثيرة ، فيتمكن الطفل بذلك من أن يعيش في عالم الواقع بدلا من أن يعيش في عالم خيالي واه ينسجه لنفسه . وبهذا ترتد للطفل ثقته ويزول عنه احساسه بنقصه .

ومن أنواع الكذب الادعائي أن الطفل يدعى المرض ، أو يدعى أنه مضطهد مظلوم أو سيء الحظ الى غير ذلك ، وهذا ليحصل على أكبر قسط ممكن من العطف والرعاية . ويحدث هذا عادة من الطفل الذي لم يحصل من والديه على العطف الكافي ، والذي وجد بالتجربة أنه يحصل على قسط وافر منه في حالة المرض أو المسكنة .

هذا النوع من الكذب ، المعروف بالكذب الادعائي ، يجب الاسراع الى علاجه في حالة الصغر ، والا نما مع الطفل وزاد حتى أصبح ديدنا له يصاحبه في غدوه ورواحه . وهذا ما يسمى عند العامة (بالمعر) وكثير من الناس يتحدثون عن رتبهم ، أو كفاياتهم أو أوسمتهم أو شهاداتهم ، وعن أسفارهم وأبحاثهم ، وجلائل أعمالهم وخدماتهم . ونحن على ثقة من أنهم لم يؤتوا شيئا ولم يقوموا بشيء .

الكذب الغرضي أو الاناني :

وقد يكذب الطفل رغبة في تحقيق غرض شخصي ، ويسمى هذا النوع بالكذب الغرضي أو الكذب الاناني . ومن الأمثلة الشائعة لهذا النوع أن يذهب طفل لأبيه طالبا اياه ببعض النقود مدعيا أن والدته أرسلته لاحتضارها منه لقضاء بعض حوائج المنزل ، والواقع أن الطفل كان يريد لها لنفسه لشراء بعض الحلوى . ومثال آخر من طفل — سبق أن أشرت اليه — كان يرسم على حيطان الحجرات بالفحم الذي يشتري في المنزل للتدفئة ، فأحضر له والده سبورة ليرسم عليها ، فيشغل بها عن الكتابة على الجدران أو التخطيط على أثاث المنزل . وفي يوم ذهب الى والده طالبا قطعة من الطباشير فأخرج له أصبعا وأعطاه نصفه فقط . ولما كان يريد الحصول على أصبع الطباشير

كاملا أخذ النصف الذى أعطاه إياه والده وخرج من حجرة الوالد ، ثم غاب فترة قصيرة وعاد يقول ان قطعة الطباشير قد فقدت ، فخرج معه والده وبحث عنها فوجدها مخبأة خلف السبورة فأخرجها له وقال له انها لم تفقد ، فقال الطفل ولكنها لا تكتب . فى هذه الحالة كذب الطفل مرتين ؛ وكان غرضه من هذا الحصول على نصف الأصبع الآخر . ولعل الدافع للكذب الغرضى أو الأنانى هو عدم توافر ثقة الطفل بالكبار المحيطين به ، نتيجة عدم توافر ثقته فى والديه لكثرة عقابهم له ولوقوفهم فى سبيل تحقيق رغباته وحاجاته .

الكذب الانتقامى :

وفى أحيان كثيرة يكذب الأطفال ليتهموا غيرهم باتهامات يترتب عليها عقابهم أو سوء سمعتهم ، أو ما يشابه ذلك من أنواع الانتقام . ويحدث هذا كثيرا عند الطفل الذى يشعر بالغيرة من طفل آخر مثلا ، أو عند الطفل الذى يعيش فى جو لا يشعر فيه بالمساواة فى المعاملة بينه وبين غيره . وكثيرا ما يحدث هذا النوع من الكذب من فتيات فى دور المراهقة ، فتكذب الواحدة منهن متهمة فتى بمحاولة التقرب منها والتجسس اليها . وقد تدل أمثال هذه الحوادث على أن الفتاة تقوم بعملية لا شعورية من النوع الذى سميناه إسقاطا (Projection) والذى يترتب عليه سرورها لأن لديها — حسب ما ترى — من الجاذبية الجنسية ما يحرك الشبان نحوها . وقد تكذب الواحدة منهن لأنها ترغب فى الانتقام من الفتى لعدم قيامه إزاءها بما كانت تتمناه منه . وقد يحدث مثل هذا من البنين .

ويجب أن يكون الآباء والمعلمون فى غاية الحرص إزاء هذا النوع من الاتهامات ؛ إذ أنها تكون فى كثير من الأحيان على غير أساس كاف من الحقيقة .

الكذب الدفاعى :

ومن أكثر أنواع الكذب شيوعا الكذب الدفاعى ، أو الكذب الوقائى ، فيكذب الطفل خوفا مما قد يقع عليه من عقوبة . وظاهر أن سبب الكذب هنا هو أن معاملتنا للطفل إزاء بعض ذنوبه تكون خارجة عن بحد المعقول .

وقد يكذب الطفل ليحتفظ لنفسه بامتياز خاص لأنه ان قال الصدق ضاع منه هذا الامتياز • مثال هذا الطفل الذى يسأل عما بيده فيقول : انه شيء حريف (يح) والواقع أنها حلوى • وكالطفل الانجليزى الذى سئل مرة عما اذا كان يعتقد فى (بابا نويل) (Father Christmas) ، فقال انه بالطبع لا يعتقد فى هذه الخرافة ، ف قيل له : ولم لاتجاهربهذا أمام أمك وأبيك؟ فقال انه يخشى أن يفقد شيئاً من عطفهما عليه ويحرم من هداياهما له فى عيد الميلاد • ومن أمثلة هذا أيضاً ما حدث معى منذ زمن ، ذلك أنى كنت خارجاً للتنزه ، فطلبت من ابن أخى وكان اذ ذاك فى سن الثالثة أن يستعد ليخرج معى ، فذهب ليستعد ، وما مرت دقيقتان حتى عاد الى قائلًا : (المشمش طلع ياعمى وأنا شفته) فلاول وهلة لم أدرك ما يقصده فسألته : (مشمش ايه اللى طلع ؟) ، فقال : (المشمش ، علشان أروح وياك) وحتى بعد هذا لم أفهم ما يقصده ؛ ولكن بعد الاستفهام وجدت أنه كان قد قال للخادم فى فرح وسرور : (أنا رايح أتفسح مع عمى) ، فقال له الخادم : (يه •• ؟ ده لما يطلع المشمش) ؛ فتركه وأسرع الى قائلًا : ان المشمش قد ظهر ، وأنه رآه بالفعل • فهنا كذب الطفل لأنه يخشى أن يحرم من الخروج معى ان هو قال الحق • ولكن مثل هذه الحوادث لا توقفنا على صلة الكذب ببقية الشخصية • وليان هذه الصلة يجب القيام بدراسة تفصيلية لاحدى الحالات •

لنأخذ حالة أخرى لولد عمره « ١٤ » سنة ، وهو متأخر جدا فى فصله بالسنة الثالثة الابتدائية ويتبول ليلا فى فراشه • وهو كثير الكذب ؛ اذ أنه لا يصرح لوالديه بكل ما يفعل • فبعد انصراف المدرسة يذهب الى المنزل فى ساعة متأخرة ، ويقدم أعذارا يتضح من البحث أنها غير صحيحة •

والولد ثانى اخوته ، وهو كسلان فى أداء واجبه ، يميل الى الافراط فى اللعب ، ولكنه هادىء مطيع مسالم ويقبل فى الظاهر على كل ما يفرض عليه • أخوه الأكبر لم يواصل تعليمه ، ويتحدث عنه الجميع فى المنزل حديثا مشينا ، ولو أنه يتمتع بقسط كبير من الحرية فهو يخرج للفسحة وللخيالة دون أى تقيد • وأما صاحب الحالة فانه يحرم من الخروج للتنزه ، ويقضى الأجازة الأسبوعية فى المنزل خوفا عليه من الترام والعربات والبحر وغير ذلك •

ولا يسمح له بالذهاب مع أخيه الأكبر الى الخيالة التي لا يذهب اليها في نظر والديه الا المفسدون الأشرار •

والوالد رجل عادى في الظاهر ، ولكن الأم متشدة جدا • وبلغ من تشدها أن كوت ابنها بالنار في جانبه لتبوله في أثناء الليل في فراشه • والحالة الصحية للولد في حاجة الى بعض العناية •

والذى يعيننا فيما نحن بصده عن هذه الحالة أحد أعراضها وهو الكذب وسببه كما يبدو — الشعور بالنقص ، والرغبة في وقاية النفس من السلطة الجائرة في المنزل • ويلاحظ أن الولد كان يكذب في المنزل على حين لا يكذب قط في المدرسة • ويلاحظ أن العوامل التي أدت مع أحد الأولاد الى الكذب والمخادعة ، أدت هى نفسها مع أخيه الى التمرد والخروج عن الطاعة ويمكن القول بأن الأول تكيف بالضعف والثاني تكيف بالقوة •

وقد عولجت الحالة من الناحية الصحية وعدلت علاقة الولد بوالديه ، وأرشدت الأم الى ما كانت تحتاج اليه كتحديد النسل ، إذ أن من بين أسباب تشدها وعصبيتها ارهاقها بكثرة الأولاد • وأرشدت الأسرة كذلك الى اختيار مسكن تتوافر فيه الاضاءة ، والتهوية ، ودورة المياه الخاصة به والقرب من المدرسة ومن عمل الوالد في الوقت نفسه ، وأرشدت الأسرة كذلك الولد الى ما يعمل ازاء التبول ، والفسحة ، والتغذية وازاء المذاكرة من حيث تنظيمها وطرق أدائها • وقد نجحت الحالة نجاحا باهرا لحسن استعداد الوالدين ، وشغفهما باصلاح الولد ، واصلاح نفسيهما ولم تكرر شكوى الوالدين بعد ذلك من كذبه ، ولا من مشكلاته الأخرى •

ومن أنواع الكذب الوقائي كذلك كذب الاخلاص أو الكذب الوقائي (Lie of Loyalty) وفي هذه الحالة يكذب الطفل عادة على أصحاب السلطة عليه كالآباء أو المدرسين ، ليحمى أخاه أو زميله من عقوبة قد توقع عليه ، ويلاحظ هذا في مدارس البنين أكثر منه في مدارس البنات ، وفي المدارس الثانوية أكثر منه في المدارس الابتدائية • ذلك لأن الكذب الوقائي مظهر من مظاهر الولاء للجماعة ، والولاء للجماعة يقوى في دور المراهقة ، ويكون عادة عند البنين أكثر تبكيرا منه عند البنات •

كذب التقليد :

وكثيرا ما يكذب الطفل تقليدا لوالديه ، ولمن حوله • اذ يلاحظ في حالات كثيرة أن الوالدين نفسيهما يكذب الواحد منهما على الآخر مثلا فتتكون في الأولاد خصلة الكذب • وفي احدى الحالات كان من شكاوى الوالدين كذب الطفل ، واتضح أن أمه كانت توهمه بأنها تريد أن يصحبها للنزهة ، ثم يكتشف أنه يؤخذ للطبيب • وأن والديه يخرجان ليلا ويتركانه بعد أن يوهباه بأنهما ناما معه في المنزل •

الكذب العنادي :

وأحيانا يكذب الطفل لمجرد السرور الناشئ من تحدى السلطة ، خصوصا ان كانت شديدة الرقابة والضغط قليلة الحنو • وقد أشار «توم»^(١) الى حالة تبول لا ارادى وكانت الأم من النوع الشديد الجاف ، فكانت تقول للطفل انه لا يجوز له أن يشرب قبل النوم • ولكن الولد رغبة في المعاندة فكر في أن يقول انه لا بد أن يغسل وجهه قبل النوم • وعند غسله وجهه يشرب كميات من الماء ، وأمه واقفة الى جانبه دون أن تتمكن من ملاحظة ذلك • وكان الولد يشفق لذة كبيرة من استغلال غفلة أمه على الرغم من تشدها في الرقابة •

الكذب المرضى او المزمن (Pathological Lie or Mythomania) :

وأحيانا يصل الكذب عند الشخص الى حد أنه يكثر منه ، ويصدر عنه أحيانا على الرغم من ارادته • وهذا نلاحظه في حالة الكذب الادعائي ، لأن الشعور بالنقص يكون مكبوتا ، ويصبح الدافع للكذب دافعا لا شعوريا ، خارجا عن ارادة الشخص • وحالات الكذب المزمن معروفة في كل زمان ومكان • . .

لنأخذ حالة توضح هذا النوع وهي حالة لولد أرسل بتهمة التشرد ، وجمع أعقاب اللقائف • والولد عمره ١١ سنة ، وقال ان والدته ماتت وهو في الثانية من عمره ، وأبوه مات وهو في التاسعة والنصف ، وان والده كان

(١) Thom : Everyday Problems of The Everyday Child ; Ch. XVI.

مزارعا صغيرا في « شنين الكوم » وليس له أخوة ، ذكورا كانوا أو إناثا . وقال انه هو ووالده كانا يعيشان بعد وفاة الأم في كوخ صغير ، وكثيرا ما كان والده يتركه بمفرده في الكوخ ليلا . وقد مات أبوه منتحرا باحراق نفسه في الحقل ، ولم يترك سوى (ققطان) به ١٧٨ قرشا . وأصبح الولد وحيدا فأخذ المبلغ وذهب الى شنين الكوم . ووجده صاحب سيارات اسمه « حسن عويضة » ، فأخذه وعطف عليه ، وكان يستصعبه معه من « شنين الكوم » الى « الاسكندرية » ليعمل لكسب رزقه . وبالفعل أمكنه أن يعمل كصبي كواء تابع للجمر ك ، ثم نزع من الاسكندرية الى القاهرة ماشيا على الأقدام ، يستريح قليلا في كل بلدة . وسبب حضوره الى القاهرة أنه يبحث عن عمه « سالم محمد سالم » الذي يعمل صانع أحذية في «عزبة الورد» في جهة « الشراية » . وعند وصوله الى القاهرة نام الليلة الأولى في صندوق التليفونات العامة أمام قسم الأزيكية ، واشتغل حمالا في ميدان المحطة الى أن قبض عليه وأحيل علينا لدراسته .

وضع الولد في أحد الملاجيء ، وكان يطلب التصريح له بزيارة عمه ، فبعد أول مرة خرج فيها للزيارة جاء شاب الى الملجأ ، وقال انه يريد أن يرى أخاه . واتضح أنه أخ الولد الذي نحن بصددده ، واتضح أن الولد ليس مسلما كما ادعى ، واتضح أن والده ووالدته على قيد الحياة ، وأن له أخوة كثيرين ، وأن شيئا مما قصه علينا لم يحدث . واتضح كذلك أنه قبض عليه ثلاث مرات قبل ذلك ، وكان يفلت في كل مرة بحيلة . ويشكو أهله من الشكوى من أكاذيبه التي لا تنقطع ، وقد تبين كذلك أن الولد هرب من المنزل عدة مرات واتضح من البحث أن الوالدة مريضة من مدة كبيرة ، وهي مقيمة مع أهلها ببلدتهم بسبب مرضها ، وأن الوالد نجار عادي يكند طول يومه ليكسب قروشا قليلة .

وللولد أخ أكبر عمره يزيد على عشرين سنة ويعمل عند أحد صانعي الأحذية ، وهو ناجح في عمله ويتقاضى عليه أجرا طيبا . ويلى الأخ الأكبر أخت تقيم مع والدتها ببلدة أهلها ، ثم أخ يزيد على الولد الذي نحن

يصدده بسنة واحدة فقط ، وهو في عمل ناجح يكسب منه رزقه • أما الولد
بنفسه فلم ينجح كثيراً ، وكان أخوه الأكبر يضربه ضرباً مبرحاً •

• ويلاحظ أن الوالد مشغول جداً ، والولدة مريضة وبعيدة عن المنزل ،
والأخ الأكبر في غاية القسوة على الولد ، ثم إن الولد أقل نجاحاً في حياته
من أخيه الأكبر منه مباشرة ، ويلاحظ أن الولد بعده بنتان ثم ولد يصغره
يتسع سنوات ، ولذا فقد شغل مركز الذكر الأخير مدة طويلة ، وما زالت
بادية عليه آثار التدليل من أمه في حديثه • يضاف الى كل ذلك أنه فقد
عطف أمه بمرضها وبعدها عنه •

لهذا كله يسهل تفسير هربه وكذبه ؛ ويسهل تفسير أنه في كذبه كان كمن
يحقق رغباته في حلم ، فقضى على أخوته جميعاً ، وعلى والده ثم سافر وخاطر
وعمل ونجح ، وتنصل من والديه ومن دينهم ومن دينه ، ومن أخوته ، ولو
أنه حاول أن يبرر مسلكه بعد ذلك بأن تغيير دينه كان لأجل ألا يضطهد في
الملجأ وتدل الدلائل على أن هذا غير صحيح تماماً • لأنه إذا كان صحيحاً
فكيف تفسر تكرار كذبه طول حياته وتحت ظروف غير التي ذكرناها ؟
فالغلام مدفوع للكذب دفعا قويا بعوامل لاشعورية خارجة عن إرادته •
وقد نصحن بتوجيهه الى ما يلائمه ، واعطائه فرصة اثبات نفسه في ألعاب
الملجأ ، واشعاره بعطف شخص معين عليه • وقد تقدمت حالته كثيراً جداً •

بعض القواعد العامة :

اتهمنا من شرح أهم أنواع الكذب ، ويتبين في كل نوع ما يدفع عادة
اليه ، ويلاحظ أن النوع الواحد لا يظهر غالباً قائماً بذاته • فالخبر الكاذب
قد يؤدي وظيفة وقائية عنادية في نفس الوقت • ويلاحظ كذلك أنه لا ترسل
للعيادة في الغالب حالة تكون الشكوى فيها من الكذب وحده ، وإنما يكون
الكذب عادة عرضاً الى جانب الأعراض الأخرى كالسرقة أو شدة الحساسية
أو الخوف أو ما يشبه ذلك والقاعدة الأولى للباء والمدرسين هي أن يتبينوا
إذا ما كذب الطفل إن كان كذبه نادراً أم متكرراً ، وإن كان متكرراً فما نوعه
وما الدافع اليه ؟ وأن يجمعوا عن علاج الكذب في ذاته بالضرب ، أو الاتتهار

أو السخرية أو التشهير أو غير ذلك • وانما يعالجون الدوافع الأساسية التي دفعت اليه • ويغلب أن يكون العامل المهم في تكوينها هو بيئة الطفل ، كالوالدين أو المدرسين أو أصحاب السلطة على وجه العموم •

ويجب كذلك أن تتجنب الظروف التي تشجع على الكذب ، فمثلا اذا كان لدينا طالب نعهد فيه هذه الخصلة ، فلا نجعله المصدر الوحيد للشهادة في حادثة ما لأن هذا يعطيه فرصة لانطلاق عادة الكذب ، وتثبيتها بالترار والتمرن • وزيادة على ذلك فلا يصح أن يعطى الكاذب فرصة الافلات بكذبه دون أن نكشفه لأن النجاح في الافلات بالكذب له لذة خاصة تشجع على تثبيته واقترافه مرة أخرى ، بل تشجع أيضا على الاسترسال في سلسلة من الأكاذيب المقصودة التي تصدر عن نفس هادئة مطمئنة ، وان أردت ألا يفلت الكاذب بكذبه فسلح نفسك أولا بالأدلة القاطعة ولا تلصق به التهمة وأنت في شك ، لمجرد أنه تعثر في حديثه مثلا ، أو ظهرت عليه علامات أخرى للاضطراب في أثناء مناقشته • وعليك أن تأخذ أقواله بشيء من الثقة والتقدير ، وحاذر أن تظهر أمامه بمظهر الشك أو التردد سواء في حديثك أو حركاتك • يلاحظ كذلك أنه لا يجوز في الأحوال العادية ايقاع العقوبة على الطفل بعد اعترافه بذنبه ؛ فالاعتراف له قدسيته ، وله حرمة • ومن شأن ايقاع العقاب على الطفل — بعد أن نحمله على قول الصدق والاعتراف ضد نفسه — أن يقلل من قيمة الصدق ومكائنه في نظر الطفل • وعلى العموم فمن الخطأ الفاحش أن نعد الى ارغام الطفل على الاعتراف ، لأن الطفل الذي يأتي ذنبا ، كأن يسرق ، أو يخرب ، ينتظر منه عادة أن يكذب • والواقع أن الكذب أسهل الذنوب اقترافا وأولها حضورا الى ذهن الطفل ، والكذب كما نعلم يساعد على تغطية كثير من العيوب والذنوب • من هذا نشعر أن الطفل الذي يعترف بذنبه يمكن اصلاحه ، وأما من يصر على الإنكار فلا يجوز أن نبدأ باستجوابه ، لأن هذا نتيجة الاسترسال في الكذب ، والتفنن فيه ومما يجب على الآباء والمدرسين تذكره باستمرار أن الطفل

لا يسر بما عنده من أسرار الا لأصدقائه ومحبيه • وأما أصحاب السلطة كآبيه وناظره ومدرسيه فانه يخاطبهم عادة بشيء من الخرض والخوف • فالاعتراف والصدق والصراحة كلها امتيازات خاصة لا يحبوها الطفل الا لأخلائه وخلصائه ، ولا يتقدم بها الا لمن تطمئن اليهم نفسه ونرى أنه لضمان الصدق والصراحة ، يجب أن يحل التفاهم والأخذ والعطاء مقام القانون ، والعطف والمحبة محل السلطة والشدّة ، وأن نجح من العقوبات التي لا تتناسب مع الذنوب ، وألا نوقع بعضها الا اذا أدرك الطفل ادراكاً تاماً أنه أذنب ، واذا اقتنع بأنه يستحق العقاب • فالعقوبات التي تجرى على غير هذا النوال تهدم الأغراض التي ترمى اليها، فهي تفقد الطفل توازنه، وشعوره بأمنه وسلامته في بيئته وتدفعه الى تغليف نفسه بأغلفة الكذب والعش لوقاية نفسه من أصحاب السلطة ، ومن البيئة المستبدّة القاسية • فليفهم المهيمنون على تربية الأطفال أن الكذب نوع من التكيف لبعض الخصائص في بعض البيئات ، وأهمها خصائص هؤلاء المهيمين •

واذا كان الأطفال يكذبون ، كما قلنا ، في أحيان كثيرة لتغطية نقص يشعرون به ، فعلينا أن نكثر لهم من الأسفار والرحلات ونواحي الميول والنشاط والهوايات ، فكل هذه تعطي الطفل نواحي حقيقية يظهر فيها ويتحدث عنها • وفي حالة الخياليين البالغين ليس هناك ما يمنع من تشجيع الخيال عن طريق دراسة الشعر والأدب • وأما في حالة الخياليين قبل سن المراهقة فلا تنصح — وفقاً لرأى «بيروت Burt»^(١) — بالقصص الخيالية الخرافية ، ولا برؤية أغلب أسطرة الخيالة ، وانما بالاستزادة من الانشاء الشفهي المبني على المشاهدات الدقيقة والتفكير المنظم • واذا علمنا أن قول الصدق يتطلب مقدرتين هما صحة الادراك ، ودقة التعبير ، رأينا أنه في الامكان تدريب الطفل في هاتين الناحيتين ، وهذا يكون عن طريق اتباع

(١) C. Burt : The Young Delinquent; p. 396

المشاهدات ، والقياس ، والقيام بعمل التجارب ، وتدوين نتائج كل هذا ؛
بمنتهى الدقة • ويتنزه المدرس هذه الفرصة لتعويد تلاميذه الدقة في الملاحظة
والدقة في التعبير في جميع ضروب الحياة ، وبهذه الطرق يعود التلميذ الصدق
في صورة بسيطة ، وهي جعل القول مطابقا للواقع مع توفر النية • ومثل هذا
يمكن أن يقوم الوالد بتدريب ولده عليه بسهولة •

يضاف الى كل ما تقدم وجود انصاف الكبار المحيطين بالطفل بالصدق
بأنواعه فلا غش ، ولا كذب ، ولا تجسس ، ولا اختلاق أعذار ولا تقاضى
للمواقف وكذلك يتحتم وجوب احترام الصدق وتقديره • ويجب ألا تلفظ
بوعد للطفل الا اذا كنت قادرا على تنفيذه بالفعل — متى وعدت — مهما
كلفك ذلك •

العوامل المدرسية التي تشجع على الكذب :

وألخص الآن بعض ما يشجع على الكذب في المدارس • وأول ذلك
العقوبات وما يصاحبها من شدة وصرامة ، فهي تنفر التلميذ من المدرس
وتدفعه الى تغليف نفسه لوقايتها منه • ومن هذه العوامل الواجبات المنزلية
التي تعطى جزافا للطفل • فكل مدرس يعطى في العادة التلميذ واجبا بصرف
النظر عما أعطاه اياه المدرس الآخر ، فيذهب التلميذ الى منزله بعد يوم
مدرسى طويل بكمية من العمل لا بد له من انجازها في الجزء الصغير الباقي
من النهار ، فيضطر التلميذ الى طلب مساعدة شخص آخر ثم يقدم ما أنجز
في اليوم التالي على أنه من عمله الخاص ، وتبالغ بعض المدارس ، وحتى
الرياض أحيانا ، في كمية ما يعطى للأطفال من واجبات • وعامل آخر هو عدم
تناسب العمل الذي يكلف به الطفل مع قدرته ، مما يضطره الى استعمال
حيل للتخلص من الظهور بمظهر العجز • وكذلك عدم تناسب البيئة
مع مستوى الطفل كوجود طفل فقير في وسط غنى ، أو طفل غنى في وسط
أذكياء •

ومن العوامل المهمة التي تدفع المدرسين لدفع التلاميذ لعل ما لا يلائمهم من حيث الكم أو الكيف ضغط الامتحانات وما اكتسبته من قوة وقدسية .
ومن أخطاء المدارس أحيانا عرض بعض الأعمال في المعارض على أنها من أعمال التلاميذ ، وتبرير ذلك بأن جزءا منها من أعمال التلاميذ ، ويكون الواقع أن ما قام به التلاميذ من التفاهة بحيث لا يبرر عرضه على أنه من عندهم ، والتلاميذ يشعرون عادة في قرارة أنفسهم بهذا ، ويتعودون الكذب والتساهل فيه في صميم نشاطهم المدرسي ، وذلك عن طريق المثال والممارسة الذاتية .

خلاصة :

ويمكن تلخيص ما تقدم في أنه اذا نشأ الطفل في بيئة تحترم الصدق ، وفي أفرادها دائما بوعودهم ، واذا كان الأبوان والمدرسون لا يتجنبون بعض المواقف بأعذار واهية كادعاء التغيب والمرض . وبعبارة أخرى : اذا نشأ الطفل في بيئة شعارها الصدق قولاً وعملاً ، فطبعي جداً أن ينشأ أميناً في كل أقواله وأفعاله . وهذا اذا توافرت له أيضاً عوامل تحقيق حاجاته النفسية الطبيعية من اطمئنان ، وحرية وتقدير وعطف وشعور بالنجاح واسترشاد بتوجيه معقول . اذا توافر هذا كله فان الطفل لا يلجأ الى التعويض عن نقص ، أو التغليف ضد قسوة أو الانتقام من ظلم ، أو غير ذلك من الاتجاهات ، التي تجد في أنواع الكذب صوراً مناسبة للتعبير عن نفسها .

المراجع

- Adler : Guiding the Child.
Allers : The Psychology of Character.
Blanton : Child Guidance.
C. Burt : The Young Delinquent.
Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.
Hartsborne and May : Studies in Deceit.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
J. Larson : Lying ; Its Detection.
Miller : Advances in Understanding the Child.
Patri : Child Training.
Russell : On Education.
Thom : Everyday Problems of The Everyday Child.

الفصل العِشْرُونَ

السرقه

حالة في السرقه :

ولد عمره أربع عشرة سنة قام بسرقة كتب زملائه بالمدرسة فضبط وقام ناظر المدرسة — بخلاف ما يتوقع منه — بتسليمه لرجل الشرطة ، وهذا حوله الى نيابة الأحداث ، التي رأت أن تستأنس برأى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة • وقام المتخصص النفسى بالمكتب بدراسة الولد دراسة وافية اتضح له منها أن ذكائه عادى ومستواه الدراسى يتفق مع كل من عمره ومستوى ذكائه ، اذ أنه كان فى السنة الثانية الثانوية • أما الوالد فان دخله لا يزيد عن ثلاثة جنيهاً فى الشهر ، والرجل شغوف الى حد بعيد جداً بأن يعلم أولاده • والولد هو الابن الأكبر ، والذكر الوحيد ، وله أخت واحدة تتعلم مجاناً فى مدرسة أميرية مثل أخيها • وقد بلغ من شدة قلق الوالد على تعليم أولاده ، أنه يشرف بنفسه على مذاكرتهم ، ويضرب ابنه ضرباً مبرحاً ، ويأتى له بالاضافة الى ذلك بالمدرسين الخصوصيين غير الأكفاء للقيام بضربه وتعليمه ، ووصل شغف الوالد بالتعليم الى أنه علم زوجته القراءة والكتابة الى أن أتقنتها ، وقد كانت أمية عندما زوج بها • والرجل يندب حظه لأن تعليمه اقتصر على نيل الشهادة الابتدائية فقط • ويتحدث دائماً عن كفايته ورجاحة عقله ، ومقدرته ، وأنه لو كان قد تعلم لكانت حالته غير ما هى عليه الآن • فالرجل مدفوع بعنف ، ليحقق فى ابنه

ما لم يتحقق له في نفسه^(١) والولد يكره والده من غير شك لمعاملته الشديدة له ، والأم ضعيفة لا حول لها ولا قوة •

لما وصل الولد الى سن الرابعة عشرة وبدأ في دور البلوغ أخذ يتفتح ذهنه للمستوى الاجتماعي الذي يتعلم فيه • ووجد أنه لا يأخذ مصروفا كافيًا يجعله يظهر أمام اخوانه كما يظهرون ، فهم يلبسون الملابس الأنيقة ويدخنون اللقائف الفاخرة الى غير ذلك • فبدأت يده تمتد الى كتب اخوانه ، فيسرقها ، ويبيعها في محلات بيع الكتب القديمة ، ويستغل ثمنها في الظهور مثل اخوانه • ومن الغريب أنه شكلا لإدارة المدرسة غير مرة من أن كتبه تسرق منه • ولعله كان يبيعها ثم يشكو لتبعد الشبهة عنه • ولكنه ضبط في هذه المرة متلبسا بفعلته • وقد يكون واضحا أن الولد يسرق مندفعًا الى التعويض عن شعور بالنقص ناتج من موازنة نفسه بزملائه • وهذا الشعور بالنقص كان من الممكن تعويضه بالتفوق الدراسي ، كما يحدث عادة من الأولاد الفقراء ، العاديين منهم والأذكاء • ولكن الولد كان متأخرا جدا في الفصل بين زملائه ، فكأنه لم يجد لما عنده من النقص إلا هذا المخرج ، وهو السرقة من زملائه •

ولكن الشعور بالنقص الاجتماعي مع عدم التفوق الدراسي ، وعدم التفوق الرياضي لا يكفي لتفسير السرقة • وإذا رجعنا لتاريخ حياته نجد أنه الولد الأول ، وأنه كان مدلا تدليلا شديدا جدا في أول حياته ، فكانت كل طلباته تجاب • فلم يتعلم اذ ذاك كيف يقاوم رغباته الخاصة • وكان

(١) وربما كانت هنا في نفس الوالد عوامل لا شعورية أخرى أكثر خفاء وأشد عمقا مما ذكرنا • فالوالد ، لما أصابه ناغم على الحياة • وقد يحول بحيلة عقلية لا شعورية ، نغمته الى ابنه وكثيرون من الآباء يعاملون أبناءهم عامة والابن الأكبر بنوع خاص كما لو كانوا سبب اخفاقهم وشقايتهم ومحنتهم • الى غير ذلك • وتجد في هذه الحالة مظاهر الاسقاط والتحويل والتبرير وما الى ذلك • وهناك احتمالات أخرى كالنزوع الى تعذيب الذات النابع من احساس مكبوت بالخطيئة (Repressed Sense of Guilt) • وهذا الاحساس المكبوت بالخطيئة بدوره له تفسيره في طريقة تكوينه •

المستوى الاقتصادي للأسرة لا بأس به ، فكان هناك بعض الرخاء ، وكان دخل الوالد لأمر ما أكبر مما هو عليه الآن ، وكان الولد هو الطفل الوحيد . أما الآن — وقد زاد عدد الأطفال ، وكبروا ، وزادت مطالبهم ، وفي الوقت نفسه انخفض الدخل ، وارتفعت تكاليف المعيشة ارتفاعا باهظا (بسبب الحرب التي نشبت عام ١٩٣٩) ، وبدأ الوالد يشدد على ابنه لتوتر في نفسه من حالة الغلاء ، ولتوتر في نفسه من تراخي ابنه — فالولد ينتقل تدريجيا من حالة تمتع ذاتي وتقدير ممن حوله الى حرمان وعدم تقدير وتضييق وعقاب وإيلا . وقد جاءت هذه التغيرات كلها في وقت تنزع فيه النفس نزوعا شديدا الى التقدير الاجتماعي ، واتساع الأفق ، والسيطرة ، وهو وقت المراهقة والبلوغ .

وبعد كشف حوادث السرقة أدى الولد امتحانا آخر العام ورسب فيه ، وما كاد يعلم بالنتيجة ، حتى وقع تحت سلسلة من التعذيبات أجراها عليه الوالد ، فهرب ولم يظهر مدة تزيد على شهرين . وله في أثناء ذلك ، وبعد ذلك ، عدد من التصرفات العنيفة ، والمخاطرات التي تدل على كراهيته لوالده وثورته عليه وميله الشديد الى البعد عنه ، مما لا تهمنا تفاصيله في هذا المقام .

حالة أخرى في السرقة :

فتاة عمرها اثنتا عشرة سنة تشتغل بالخدمة في أحد المنازل ، واتهمت بحق بسرقة ملابس ومصوغات ممن تعمل معهم . وبدراسة الحالة اتضح أن ذكاء البنت أقل من العادي . ولكنها لا تعتبر ضعيفة العقل . فمستوى ذكائها يعادل مستوى ذكاء شخص عادي عمره يقع بين ثماني وتسع سنوات . وتتصف البنت بشيء من عدم الثقة بالنفس ، والجبن ، وشدة الحساسية ، وسرعة التأثر ، إذ أنها تبكي لأقل سبب ، واتضح بالدراسة أن الأمرة التي تعمل البنت في خدمتها مكونة من سيده وزوجها ، وليس لديهما أولاد .

ولا خدم آخرون • وهما سكيران ، ويشربان الخمر معا في منزلهما الى أن يفقد كل منهما صوابه • وفي هذه الحالة يصير البيت بخزاناته وصواوينه المفتوحة تحت تصرف البنت ؛ اذ تصير الرقابة عليها قليلة جدا • ونظرا لجبن الفتاة ، وضعف ذكائها ، فانها يسهل وقوعها تحت تأثير شخص آخر • يلاحظ كذلك أن والدى الفتاة منفصلان بالطلاق ، وأن الأب تزوج بغير الأم وليس له بالبنت أية علاقة • والأم كذلك — وهى فى الخمسين من عمرها — تزوجت برجل أصغر منها سنا بعشرة أعوام ، وهو رجل متعطل كسلان كان يطمع فى بعض ما لديها من النقود ، وهى ضعيفة أمامه ، فهى تعمل وتكسب وهو لا يعمل شيئا ، ويصرف كثير من وقته فى التزهد والجلوس على المقاهى ، وتدل الدلائل على أن الأم تستغل البنت للسرقة حتى تغدق على زوجها وترضيه ، وللبنت — على غير ما كان ينتظر — مكانة لا بأس بها عند زوج الأم •

خلاصة الحالة أن الفتاة نظرا لقلة ذكائها ، ولجبنها ، يسهل اغراؤها • وهى مكروهة من أبيها ومقربة من أمها بقصد استغلالها • وترغب البنت فى المحافظة على الصلة بينها وبين أمها ، وهى الصلة الوحيدة الباقية بالنسبة اليها • ويهم الصغار بنوع خاص أن يكون هناك من يشعرون بالالتواء اليه • وقد نجحت الفتاة فى تحقيق هذا عن طريق السرقة •

السرقة والاستعداد لها :

يتبين من دراسة الحالتين السابقتين أن السرقة ليست حدثا منفصلا قائما بذاته وانما هى سلوك يعبر عن حاجة نفسية • ويمكن فهم هذا السلوك فى ضوء دراسة شخصية الطفل وطريق تكوينها ، والوظيفة التى تؤدىها السرقة لها • فبينما نجد السرقة فى الحالة الأولى وسيلة لاثبات الذات ، نجدها فى الحالة الثانية وسيلة لحماية الذات •

ولا بد من فهم وظيفة السرقة ومكائنها من تكوين الشخصية قبل الاتجاه

نحو علاجها ، والسرقه وما يضادها وهى الأمانة ليست صفات فطرية طبيعية ، وانما هى صفات مكتسبة • وللسرقه أسسها الطبيعية فى الانسان وهى الميل للتملك والاستمتاع بالقوة ، اذ أن السرقه هى الاستحواز على ما يملكه الآخرون بدون وجه حق ، ونظرا لأن السرقه ذنب اجتماعى فان المجتمع يعطيها أهمية كبرى • بخلاف الصفات الشخصية السيئة كالتدخين أو العادة السرية ، فانها لا تهم المجتمع كثيرا لأنها لا تتناول فيما ينسب اليها من ضرر أشخاصا آخرين بطريقة مباشرة • أما السرقه والكذب والاعتداء والتشنيع ، وما الى ذلك فانها تعتبر صفات سيئة للغاية لأن الضرر الذى تتضمنه يؤثر فى الآخرين تأثيرا مباشرا •

وهناك مهارات عقلية وجسمية تساعد على السرقه ، اذا توافرت لدى الشخص الرغبة فيها • ومن هذه المهارات ، سرعة حركة الأصابع ، وخفة الحركة عامة ، ودقة الحواس من سمع ، وبصر ، والقوة الميكانيكية ، ووفرة الذكاء العام ، ودقة الاستنتاج والملاحظة • • وما الى ذلك • ففى كثير من الحالات كان صاحب الحالة يفتح أقفالا معقدة بقطعة من سلك ، ويقطع جيبا لمسافر بموسى دون أن يحس المجنى عليه ، أو يخطف سلعة معينة ويفر هاربا جريا ، أو راكبا دراجة ، أو غير ذلك من مئات الحيل والمهارات التى يلجأ اليها السارق • وكثيرا ما تجتمع لباقة الحديث ، وبشاشة الوجه ، وحسن التسلية والتظاهر بالأدب الجهم والميل للمساعدة مع هذه المهارات فتجعل عملية السرقه تتم بسهولة كبيرة للغاية • وبهنا الوقوف على هذه المهارات العقلية والحركية والحسية حتى يمكننا توجيهها فى اتجاهات لصالح صاحبها وصالح المجتمع نفسه •

الشعور بالملكية والمساواة:

وهناك اتجاه عقلى يبدأ من سنوات الطفل الأولى وهو عدم التمييز ، أو عدم الاهتمام بالتمييز بين ما يملكه وما لا يملكه • وفكرة التمييز

بين ما للفرد فيه حق وما ليس له فيه حق ليست سهلة • فالطفل يعيش عادة في منزل كل ما فيه ملك للكبار ، فليس له ما يعده ملكا له ، وأحيانا يفلق الأمر عليه ، فلا يعرف ان كانت لعبة معينة ملكا له أو لأخته • والآباء بشرائهم لعبة واحدة لجميع الأطفال أو ألعابا مختلفة يلعب بها كل الأطفال ، دون تمييز ، يظنون أنهم يعلمونهم الايثار بدلا من الأثرة • والواقع أنهم يركبون تفكيرهم • فالطفل يشعر بالحاجة للملكية شعورا تلقائيا في سن مبكرة جدا ، اذ يبدأ يشعر بها أحيانا خلال الفترة الأخيرة من السنة الأولى •

ويجب أن يشجع الشعور بالملكية من وقت ظهوره ، ولكن لا يجوز أن يبالغ في تشجيعه الى أن تتكون الأنانية والجشع للتملك ، ولا يجوز أن يهدم بحيث لا يجد الطفل فرصة لفهم حقوقه وحقوق غيره •

واذا أردنا أن يحترم الطفل ملكية غيره وجب أن نبدأ نحن باحترام ملكيته • فيجب — بقدر الامكان — أن يكون للطفل ملابسه الخاصة التي لا يجوز أن تستعمل له ولغيره بدون تمييز ، ويكون له مكان خاص بالنوم ، وكرسی خاص يجلس عليه حين يأكل ، واذا أمكن فليكن له أطباقه ، وملاعقه ، ومنشفته وغير ذلك • ويسهل احضار هذه الأشياء بألوان مختلفة بحيث يسهل على الطفل التفريق بين متعلقاته ومتعلقات غيره • ويحسن أن يكون للطفل أدوات لعبه المختلفة ، وبعض الكتب والمجلات القديمة ذات الصور الجذابة • وفي الأسر التي بها أطفال ذوو أعمار متقاربة ، تحدث أحيانا مشاحنات يحسن ترك الأطفال للفصل فيها بأنفسهم ، واذا تدخلت الأم فلتفصل بالعدل ، فكل طفل يستعمل حقه ، ولكن يصح أن يعطى الخيار في أن يترك لعبته لأخيه أحيانا ، ولا بد من حدوث هذه المنازعات قبل أن يتعلم الطفل الأخذ والعطاء • والتعاون يجيء متأخرا عن تعلم الملكية واعتزازه بها • فلا يجوز أن تتسرع في تعليم الطفل التعاون خوفا من تعوده الأنانية ، اذا ترك الطفل ليعطى — من تلقاء نفسه وبدون تدخل خارجي — لعبته

الخاصة به لأخيه أو لصديقه مدة من الزمن فإنه يشق من هذا التطوع لذة
كبرى لا يجوز أن نحرمه من التمتع بها •

وانماء الشعور بالملكية ثم اتباعها في الوقت المناسب بانماء روح التعاون
والأخذ والعطاء مهم في تكوين الذات Ego Formation وفي التكوين الخلقى
الاجتماعى على وجه العموم^(١) •

ويلاحظ أن تمييز الفرد بين حقوقه وحقوق غيره ، أو اهتمامه بهذا
التمييز ، يبدأ في المنزل ، وينتقل مع الطفل الى المدرسة ، ثم الى المجتمع
الأكبر • ففكرة الأمانة أو عدم الأمانة يمكن تكوينها بحيث تصبح فكرة
عامة تبدأ بدورها في السنوات الأولى من حياة الطفل • ويجب أن يقوم
الوالدان بتفهم الطفل ما يجب عمله في المناسبات التي يمكن أن تسمى
اعتداء على ملكية الآخرين • افرض مثلا أن شخصا له مكتبة جذابة
أو ساعة ، أو غير ذلك • وأراد الطفل أن يتناول الكتب ، أو الساعة ليلعب
بها ، فليكن هناك اتجاهات : الأول تفهم الطفل بمنتهى الهدوء والحزم
أن هذه أشياء ليست ملكا له ، ولا يجوز له اللعب بها • والاتجاه الثانى
الذى يؤخذ في نفس الوقت هو مراعاة أن الطفل تكون له متعلقات خاصة
به ، شبيهة الى حد ما بالتى ينزع الى اللعب بها ، فيكون له كما قلنا ، بعض
الكتب التى لا يحتاجها الوالدان والتى يكون بها بعض الصور لكى يلعب
بها ، وقد تتمزق منه فيعلم كيف يحافظ عليها •

وفي احدى الحالات ، وجدنا أن الولد عنده حقيقة أشياء كثيرة جدا ،
منها مجموعة طوابع يريد منسقة تنسيقا جميلا • ولكن يحفظها الوالد في
صوانه الخاص به خوفا من ألا يحافظ عليها الولد رغم أن سنه
ثنتا عشرة سنة • وهذا هو موقف الوالد من سائر ممتلكات الولد من
طوابع وكتب وصور وهدايا وغير ذلك •

(١) راجع فصل «تكمال الشخصية» وفصل «اللاشعور» •

وفي حالة أخرى أخذ الوالد كمية من النقود كان الولد قد ادخرها ، ولم يردّها اليه • فلا عجب أن كان الولد لا يحترم ملكية والده بنوع خاص ، وقد ينتقل عدم احترام الملكية في مثل هذه الحالات الى خارج المنزل (حالة ص ٣٠٢) •

فكرة الأمانة كفكرة الصدق تكتسب عن طريق الممارسة الشخصية ، والاقتداء بالمثال ، والتعلم عن طريق الفهم والموازنة والارشاد • والمنزل هو البيئة الأولى لتعلم فكرة الأمانة • ولكن ليس معنى غرسها في المنزل أن تضمن فاعليتها بعد ذلك في محيط المدرسة أو المجتمع • فهذه الفاعلية تتوقف على ظروف المدرسة وظروف المجتمع ، من تحقق الأمانة في قادتهما والقائمين بالأمر فيهما ، ومن مبلغ شعور الفرد بالأمن والعدالة الاجتماعية، والاطمئنان على تحقق الحاجات الأولية •

الدوافع للسرقة :

في كثير من الحالات تكون الدوافع للسرقة دوافع مباشرة ظاهرة • فكثيرا ما يسرق الطفل لسد رمق • ويلاحظ أن أطفالا كثيرين جدا يعيشون عيشة الكفاف ، أو يعملون بأجور زهيدة لا تكفي الحيوان الصغير بله الانسان ، فيسرقون • ومن هؤلاء من يسرق نقودا أو أدوات أو سلعا ، ومن هؤلاء من يخطف الأطعمة المعروضة على العربات ، وفي المحال التجارية ، وغير ذلك • وقد وجدنا في بعض الحالات أولادا يسرقون لسد رمق أم مقعدة عاجزة عن أى عمل ، وعدد من الاخوة الصغار ، وذلك يكون مثلا بعد وفاة الأب وتشغيل الولد بأجر لا يزيد يوميا عن قروش لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة ، وكنا نجد عادة أن هذا النوع من الحالات أسهلها علاجاً •

وفي بعض الحالات تحدث السرقة لاشباع ميل ، أو عاطفة ، أو هواية ،

كميل بعض الأولاد لركوب الدراجة ، أو للخيلة ، أو لفتاة معينة ، أو لمجرد الصرف على هواية معينة ، كالتصوير وتربية الحمام ، وغير ذلك • وهذه أيضا حالات لا يتعسر عادة علاجها •

وتحدث السرقة كذلك ليستعين المرء بما يسرق على التخلص من مأزق معين • مثال ذلك : الولد الذى كان يذهب للمكتب ليحفظ القرآن ، ولم يكن له أى ميل لحفظه ، فأغراه العريف بأنه اذا سرق له بعض كتب والده فانه يعفيه من التسميع ، ولا يبلغ شيخ المكتب ، وبذلك ينجو من عقاب صارم فلم يتأخر الولد عن سرقة الكتب وتقديمها رشوة للعريف •

وقد يسرق الطفل من منزله ليعطى زملاءه بالمدرسة مثلاً ، لأنه كشف أن سياسة اعطاء الحاجيات المادية هى الوسيلة الوحيدة التى تجعله مقبولا فى جماعة زملائه •

ولكن يلاحظ أن هذه الدوافع ظاهرية فقط • فالولد الذى يسرق الكتب ليعطيها رشوة للعريف كان متأخرا فى دراسته من أول الأمر ، وكان والده يقسو عليه بعد تدليل ، وكان يوازن بينه وبين اخوته موازنة تحط من قدره • ففقدانه عطف والديه بعد أن كان يتمتع بعطف كبير كان هو العامل الهام فى تكون الاستعداد للسرقة • نرى من هذا أنه يجب البحث عن عوامل أخرى غير الدوافع الظاهرية للسرقة • وفى العادة نجد بعض العوامل اللاشعورية المتكونة نتيجة علاقة الطفل ببيئته ، ونتيجة التغيرات الطارئة على هذه العلاقات •

وهناك سرقة للانتقام ، وسرقة لتعويض شعوره بالنقص ، وسرقة بسبب فقد العطف • ففى كثير من الحالات نجد الطفل يسرق من شخص معين كوالده أو والدته • ويمكن تفسير السرقة فى بعض هذه الحالات بأن الطفل كان حائزا لعطف الوالد مثلا ثم فقد هذا العطف ، فالسرقة منه تشعره بأنه يستحوذ على شئ بدل هذا العطف • نجد طفلا — مثل هذا — يسرق من والده تقوده وكتبه ويضع يده فى جيوبه ليطلع على ما فى جيبيه ويعرف ما فيه من أسرار ويقرأ خطاباته •• الى غير ذلك • كذلك المحب الذى

يتشكك في أنه ربما لا يحصل على كل عطف معشوقته ، كثيرا ما يسرق منها شيئا يكون بمثابة رمز للحب المفقود (١) . وفي هذا النوع من الحالات نجد أن الشخص لا يسرق الا من شخص معين ، وأحيانا يسرق نوعا معينا من الممتلكات ، ويمكن في العادة تفسير هذا التخصص اما على أساس الرمزية (symbolism) أو على أساس الوظيفة . ففي غالب الحالات التي درسناها ، وجدنا فيها أن الطفل يسرق من والده ، وجدنا أيضا أن لدى الولد كراهية مستترة للوالد . فتفسر السرقة هنا على أنها انتقام ، أو على أنها تعويض للعطف المفقود ، أو على الدافعين مجتمعين .

وإذا كان الدافع للسرقة متجها نحو شخص معين فقد ينتقل الى أشخاص آخرين ، فالسرقة من الأب قد تنتقل الى سرقة من أصحاب السلطة على وجه العموم . والسرقة من الأخ قد تنتقل الى سرقة من الزملاء ، وذلك بتحويل الدوافع نفسها من الموضوع الأصلي الى موضوعات مشابهة له . ويمكن أن يكون التحويل أوسع انتشارا وأقل تخصصا مما ذكرنا ، فبعد أن كان يسرق الطفل من والده فقط صار يسرق من أى انسان .

لنأخذ حالة تبين السرقة من شخص معين ، وهي حالة ولد كان يساعد والده في عمله التجارى . ذهب الولد الى أحد عملاء والده ، وكان جالسا في أحد المقاهى وقال له ان والده يطلب منه ثمن بضاعة أخذها في ذلك الوقت الى المنزل . وكان الثمن خمسة وعشرين قرشا الا قليلا . أخذ الولد النقود واختفى ، وانكشفت حقيقة المسألة بعد أن رجع الرجل الى منزله . ثم أبلغ الوالد الذى طلب منه ابلاغ الشرطة . واتضح أن الولد هو أكبر أبناء الأسرة ، وأن الرجل في منتهى القسوة والشدة . وهو متعسف في تمسكه بالدين حتى خرج بذلك عن المعقول خروجا كبيرا . وقد أحاط نفسه بكل الرموز التقليدية للتدين ، واتخذ « السنية » ، مذهبا له ، وكان يشغل وظيفة يكتسب منها ، فاستقال منها لأنه كان يشعر أنها لا تطابق الدين . واتخذ التجارة في أبسط صورها وسيلة للرزق . ومن شدة قسوته

(١) هذا ما يسمى بالفيتيشية Fétichisme



صورة ظهر وجهه صاحب الحالة المشروحة في صفحة ٢٨٩ « وترى على رجله وذراعيه وجهه وظهره ورقبته آثار الضرب والكمى والتقييد في الأغلال

أن الولد اذا أتى ذنبا صغيرا فانه يربطه بالأحبال ربطا وثيقا ، ويتركه ملقى على الأرض ، ثم ينهال عليه ضربا ، ويترك في جسمه آثارا واضحة — كما يتبين في الصورة المقابلة — وكان في بعض الأحيان يتركه موثوقا بالأغلال ثلاثة أيام متتاليات ، ويقذف له برغيف من العيش وكوب ماء في مواعيد الأكل •

بعد أن قابلنا الولد ، ودرسنا الحالة جيدا من كل نواحيها ، اتضح أن السرقة لم تكن الأولى ، فقد كان كثيرا ما يسرق من والده • وظهر عند مقابلتنا لكل منهما على انفراد شدة التجافى ، فقرنا ما بينهما ، وأفهمنا الوالد خطأه ، واتفقنا مع الولد على حسن السير ، ونظمنا علاقة الولد بوالده من حيث الاتفاق ، ومن حيث الثقة التي يجب أن يضعها الوالد في ولده • الى غير ذلك • وقد نجحت الحالة نجاحا كبيرا بموالاته توجيه الولد والوالد وأخذهما بالنصيحة والتوجيه والاشراف والمتابعة •

وقد يكون العامل الأصلي لتكوين الدافع للسرقة هو ما يطرأ على الشعور بالأمن والشعور بالاستقرار من نقص ناشئ من تغيير فجائي في معاملة الوالدين ، أو من تفكك روابط الأسرة ، أو ما يشابه ذلك •

لنأخذ مثالا لهذه حالة تلميذ في سن الرابعة عشرة يهرب من المدرسة يوميا تقريبا ، ويسرق كل ما يمكن أن تصل اليه يده مما خف حمله وغلا ثمنه • هذا على الرغم من وفرة ما يصل الى يديه من نقود ، وعلى الرغم من حسن استعداده للعمل الدراسي • وبمتابعة تاريخ هذه الحالة وجدنا أن والديه انفصلا بالطلاق وهو صغير السن جدا • ثم تزوج كل من والديه بعد ذلك وأنجب كل منهما له اخوة غير أشقاء • وقامت الجدة منذ طلاق الوالدين باحتضان الولد ، ولم تدخر وسعا في اجابة جميع مطالبه ، وبألت في العطف عليه عطفًا كبيرا في شيء غير قليل من الضعف والتساهل والقلق • ولما وصل الولد الى دور المراهقة لم يكن يعرف بالطبع كيف يقاوم كل ما يطرأ على ذهنه من نزوات • واتصل به أولاد آخرون وفتحوا له آفاقا جديدة للاستمتاع بالهروب والفسحة والتدخين والذهاب للخيانة وغير ذلك •

وأغروه بالسرقة ، بل علموه أساليبها ، حتى برع فيها وصار الولد يشعر الآن بعدم القدرة على الاستقرار عند جدته أو والدته أو والده • ولا يشعر أن واحدا من هؤلاء يمكنه أن يطمئن معه الى الجو الذى يعيش فيه • أما المدرسة فلم تكن من التشويق بحيث تصرفه عما يطرأ على ذهنه من نزعات ، ولم تكن بحيث تشبع فيها نواحي القوة التى تتوق اليها نفس المراهق • نتيجة كل هذا هروب من المنزل والمدرسة وعدم استقرار وبحث عن اللذة والسرور وسرقة لتحقيق كل هذا •

ويحدث أحيانا أن تبدأ السرقة بصورة مصغرة كسرقة الحلوى ، أو سرقة السكر ، أو سرقة النقود • وقد يكون الدافع بسيطا وهو الحاجة الى الحلوى أو الحاجة الى تجريب عمليات البيع والشراء أو غير ذلك • وقد يكون لموقف الوالدين نحو الطفل فى السرقة الأولى أثر فى تثبيتها • فيتقن الوالدان فى تخبة ما يخافان عليه مثلا ، ويتقن الطفل فى أساليب الوصول الى هذه الأشياء • ويلاحظ أن المبالغة فى تخبة الأشياء تغرى الطفل بمحاولة الوصول اليها ، وإذا نجح الطفل فى ذلك ، فانه يشق لذة كبرى من انتصاره على الكبار المحيطين به ثم تتكرر سرقاته ، ويتكرر تكوينه لميول وعادات يشبعها عن طريق السرقة كالتدخين ، أو الظهور الاجتماعى ، أو الاشباع الجنىسى ، أو غير ذلك • وبهذا تثبت السرقة وتصير عادة راسخة ، كما نراها عند بعض الأشخاص ، وسبب رسوخها أنها طريق سهل سريع تتحقق به شهوات ورغبات لا يقوى الفرد على مقاومتها ، ولا سيما بعد تعود اشباعها •

دراسة حالات السرقة :

عند دراسة أية حالة من حالات السرقة يجب أن نعرف : أهذه السرقة عارضة أم متكررة ؟ أصحاب الحالة يسرق أشياء معينة أم كل الأشياء • فبعض الأولاد يسرق مصابيح الترام ، وبعضهم يسرق مصابيح الاشارات الأرضية فى الشوارع ، وبعضهم الآخر يسرق الملابس المنشورة للتجفيف فى حدائق المنازل أو فوق سطوحها ، وبعضهم يسرق

مواقد (الغاز) فقط • ويدلنا نوع السرقة — ان كان موحدا بمثل هذه الصور — على اتجاه عقلى منظم ؛ اما من تلقاء نفسه ، واما تحت تأثير زعيم لعصابة مثلا ، أو يدل على اتصاف السارق بمهارة معينة فى اتجاه خاص • وعلينا كذلك أن نعرف أهذه السرقة انفرادية أم جمعية • فكنا نجد فى كثير من الحالات أن الولد يسرق ضمن عصابة من الأولاد الآخرين ، فثلاثة تلاميذ باحدى المدارس نظموا أنفسهم تنظيما محكما لسرقة بعض الأدوات التى يمكن خلعها من عربات السكة الحديدية • وكانوا يبيعون ما يسرقون لتاجر معين كان يمدهم بالنقود لهذا الغرض • وعلينا أن نعرف كذلك فى السرقة الجمعية ، ما اذا كان السارق تابعا أم متبوعا • وفى كثير من الحالات كنا نجد أن شخصا من الأقوياء المتعطلين (البلطجية) يدفع بعض الأولاد للسرقة تحت اغراء • وبعد مرة أو مرتين يستمر بدفع الأولاد تحت التهديد • وكثيرا ما يحدث هذا مع خادمت المنازل الصغيرات السن ، الساذجات العقل • فأحد الباعة المتجولين هدد خادمة بالقتل اذا لم تسرق له من سيدتها بعض النقود ، ووصل ما سرقته فى احدى المرات الى عشرة جنيهات • وأحد باعة الثلج كان يهدد خادمة فى سن الحادية عشرة بالاعتداء الجسدى عليها اذا لم تسرق له ما يريد • وعلينا أن نتبين كذلك المادة المسروقة ، وطريقة السرقة ، وما يدل عليه كل هذا من ذكاء أو غباوة • فبعض الناس يسرقون أشياء كبيرة ظاهرة ، ذات ألوان براقه ، يتحتم ضبطهم بها • وبعضهم يسرقون ما خف حملة وغلا ثمنه فى ظروف لا يمكن ضبطهم فيها اطلاقا •

وعند دراسة حالة السرقة لابد من محاولة الوصول للوظيفة التى تؤديها السرقة ؛ أى أنه لابد من دراسة الدوافع الظاهرة والعوامل المستترة التى تؤدى الى السرقة • وبالإضافة الى كل ذلك لابد من دراسة أنواع المهارة الجسمية كسرعة اليدين ، وخفة الحركة ، وسرعتها ، والقدرات العقلية كالذكاء العام والقدرة الميكانيكية ودقة الحواس ، وكذلك المهارة الاجتماعية كالقدرة على الزعامة وخفة الروح ولباقة الحديث وترتيب المواقف وغير ذلك • وتساعدنا دراسة هذه المهارة على حسن دراسة الشخص وحسن توجيهه توجيها صالحا •

بعض القواعد العامة :

إذا امتدت يد الطفل الصغير الى شيء لا يحق له أن يأخذه فعلمه
بغاية الهدوء أنه يجب عليه أن يستأذن قبل أخذ شيء ليس له ، ثم علمه
بهدوء أيضا ما له فيه حق وما ليس له فيه حق ، ولا تنفعل ، أو تسخط ،
أو تعاقب ، أو تؤنب ، أو تصف الولد بأنه لص — ولو عن طريق المزاح —
فإنك بذلك قد تعلمه لأول مرة في حياته معنى كلمة لص • ومن الجائز أنه
يجد بعض اللذة في هذا العمل فيستمر فيه لأن فيه بعض الجرأة ، أو لأن
فيه انتصارا على الكبار ، أو لأن فيه وسيلة سهلة لاشباع لذاته الأخرى التي
لا يجد سيلا آخر لاشباعها • لهذا يجب أن تتأمل لتعرف الرغبة التي دفعتها
الى السرقة لتشبعها بالطريق السوى — قدر الامكان — ولتعلمه شيئا
عن ضبط رغباته وتحكمه فيها •

وعليك أن تبذل جهدك لخلق شعور بالملكية عند الطفل ثم عوده كيف
يحافظ على ما يمتلكه ، وكيف ينظمه ويهتم به • فيكون للطفل (دولاب)
صغير مثلا يجمع فيه ممتلكاته ومقتنياته من صور الى طوابع يريد الى أقلام
الى غير ذلك • ويمكن أن يعلم كيف ينظم هذه المقتنيات ويحسن عرضها ،
وفخر بها • كذلك يصح أن يعطى الطفل عندما يصل الى العمر المناسب
مصروفا منظما ، ويعلم بين آن وآخر كيف ينفق وكيف يدخر • وأما الخدم
ومن يشابههم فيجب ألا توضع في طريقهم المغريات التي هم محرومون منها
كالحلوى والنقود وما يشبههما •

ويراعى فوق ما تقدم أن الطفل لا يسرق قط ممن يشعر بصداقته له
وغطفه عليه • فلتكن معاملتنا للأطفال — كما بينا مرارا وتكرارا — متجهة
نحو العطف في غير ضعف ، والحزم في غير عنف •

المراجع

- Adler : Guiding the Child.
Allers : The Psychology of Character.
Blanton : Child Guidance.
C. Burt : The Young Delinquent.
Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Hartshorne and May : Studies in Deceit.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
J. Larson : Lying; Its Detection.
Miller : Advances in Understanding the Child.
Patri : Child Training.
Russell : On Education.
H. Smith : Psychology of Crime.
Thom : Everyday Problems of The Everyday Child.

الفصل الحادى والعشرون

الميل إلى الاعتداء والتشاجر ونوبات الغضب

مقدمة :

يدخل الكثير من أنواع المشكلات التى درسناها — تفصيلا أو ايجازا — تحت نوع يمكن أن نسميه النوع السلبى أو الانسحابى ، أو كما يسميه « بيرت »^(١) النوع الضعيف ، ومن هذه التهته والانزواء والحركات العصبية . • وما الى ذلك • ويدخل الكثير مما ذكرناه أيضا تحت نوع يمكن أن نسميه النوع الاعتدائى أو الايجابى ، أو كما يسميه « بيرت » النوع القوى ، ومن هذه قرض الأظافر وبعض أنواع السرقة وبعض أنواع الكذب الادعائى وجنون العظمة . • وما الى ذلك • وتتميز هذه الأنواع الايجابية عادة بطابع معين تستحق أن تدرس من أجله دراسة خاصة قائمة بذاتها •

ويلاحظ هذا الطابع المعين فى الميل للاعتداء والتشاجروالانتقام والمشاكسة والمعاندة ، والميل للتحدى والتلذذ من قد الآخرين وكشف أخطائهم واطهارهم بمظهر الضعف أو العجز ، والاتجاه نحو التعذيب والتنقيص وتعكير الجو والتشهير واحداث الفتن والنوبات العصبية بصورها المختلفة المعروفة • فكل هذه الحالات ومشابهاتها يصاحبها فى العادة الحالة الانفعالية المعروفة بالغضب بدرجاتها المختلفة • والغضب فى صورته المتعددة ودرجاته المتفاوتة تظهر آثاره ومظاهره للآباء والمعلمين بكثرة فى حياتهم اليومية • وليست المشكلة قاصرة على الأطفال وحدهم ، وانما تظهر عادة فى جميع

(١) يقسم بيرت فى كتابه (The Subnormal Mind) جميع الحالات العصبية الى قسمين : أحدهما يمكن أن يسمى عصاب الضعف (Asthenic neurosis) والثانى يمكن أن يسمى عصاب القوة (Sthenic Neurosis)

الأعمار ولا سيما الأعمار التي تحدث فيها تغيرات أساسية في حياة الفرد •
فهي تظهر في السنة الأولى عند الفطام ، وتظهر عند مجيء مولود جديد في
الأسرة ، وعند الانتقال من حياة الحضانة المنزلية الى المدرسة ، وعند دور
المراهقة والبلوغ • وسواء ظهر الاستعداد البارز للغضب في الأدوار الأولى
أو المتأخرة ، فبذوره توجد عادة من سنى الطفولة الأولى •

والغضب حالة نفسية يشعر بها كل انسان ، ولكن الفرق بين فرد وآخر ،
هو أن المواقف المثيرة للغضب تختلف من فرد الى آخر ، وكذلك تختلف
أساليب التعبير عن الغضب من فرد الى آخر اختلافات بينة — سواء في نوعها
أو في درجتها — وكذلك تختلف في ترددها وشدها من شخص الى آخر
اختلافات واسعة المدى • فالمواقف التي تثير الغضب عند تلميذ ما قد تكون
تقدم زميل عليه في الدراسة ، وقد تكون عند آخر الازدراء بملبسه ، وعند
ثالث اظهار الاحتقار لقوته الجسمية • • الى غير ذلك • وأما أساليب التعبير
عن الغضب فقد تكون بتهشيم السبب المثير نفسه بالاعتداء عليه بالأساليب
البدائية من ضرب وعض ، وقد تكون بالاعتداء على ممتلكاته أو ما يتصل
به وذلك بالتدمير والاحراق والسلب ، وقد تكون كذلك باظهار الغضب دون
اعتداء ملموس على الشخص المقصود بالاعتداء ، وانما باللجوء الى
التهديدات والشتائم والنقد وما الى ذلك • هذه كلها أساليب مباشرة
للاعتداء وهناك أساليب غير مباشرة ينتمى معظمها الى أساليب الضعف التي
سبق أن أشرنا اليها ، ومن هذه السرقة والكذب والهروب والاستغراق في
النوم • • وما الى ذلك •

وحيث ان استعداد الانسان للغضب في مواقف معينة استعداد فطرى
الأصل — أى أنه موجود بالطبيعة — فموقفنا نحو الغضب يجب أن يكون
موقف تعهد وتوجيه وانماء في الاتجاه الصالح ، ولا يصح أن يكون موقف
استئصال بحال من الأحوال • فالنزوع للغضب والمقاتلة ليس أمرا يفرس
أو ينزع وانما هو ناشئ عن مصدر ثابت للطاقة لا يمكن القضاء عليه •
ولا شك أن لاتفعال الغضب وغريزة المقاتلة قيمة حيوية كبرى لحياة الفرد •

وغاية نشاط هذه الغريزة التغلب على ما في بيئة الكائن الحي من عوامل تقف دون تحقيق الغايات الحيوية الأخرى • ولها — كما لبعض الفرائز الأخرى — وسائلها وأسلحتها • ومن هذه القرون والقم والأسنان والعضلات والأطراف والأشواك والحمى • • وما الى ذلك ولها عند الانسان بعض هذه الأسلحة ، ولكن ما يضاف اليها ما ينتج عن طريق الحيلة والاختراع • وقد وصل حتى الآن الى حرب الأعصاب والقنبلة الذرية وأساليب المناورات السياسية الدولية ، وصار عنده مدى واسع جدا من أساليب المقاتلة •

ونظرا لفطرية هذا الاستعداد فانه يخضع غالبا لقوانين الوراثة المعروفة ؛ ولكن نظرا لأنه صفة نفسية ، فانه يخضع أيضا لأثر البيئة خضوعا كبيرا • لذا نجد أن أثر الوراثة يخفى في أغلب الحالات — وان كان يتضح في بعضها — وقد عرفت بعض الأمم والقبائل بميلها للمقاتلة أكثر من غيرها • ونعلم أن البنين على وجه العموم أشد ميلا للمقاتلة من البنات ، مما جعل البعض يميل الى اعتبار المقاتلة صفة ذكرية • ويتضح الميل للمقاتلة كذلك في أصحاب مهنة دون مهنة أخرى • وهذه الصورة المختلفة من أساليب توزيع المقاتلة بين مجاميع الناس يعطى أدلة في اتجاه أثر الوراثة ، كما يعطى أدلة في اتجاه أثر البيئة • وقد دلت دراسة بعض الحالات الفردية الشاذة على أن أثر الوراثة يبرز فيها بصورة واضحة لا تحتمل الشك^(١) • ويتأثر الغضب بعوامل بيئية أو مادية مختلفة ، كالتقاليد والمثل والمعاملة ودرجة الحرارة الجوية ونوع التغذية وبعض المشروبات • • وما الى ذلك •

ويرجع الكثير من قيمة هذه الغريزة الى حدة الافعال المصاحب ، والى كمية النشاط العظيمة التي يمكن اطلاقها عن طريقها • وتشارك في هذا النشاط أغلب أجزاء الجسم وأجهزته وغددته وعضلاته • • وما الى ذلك • ولذا كانت غريزة المقاتلة عظيمة القيمة في خدمة أغراض الفرائز الأخرى كالجنسية والملكية والطعام والسيطرة • • وما الى ذلك • وهي تنشط لخدمة الحاجات والميول الفطرية والمكتسبة بمختلف أنواعها ، وبذلك تصير المقاتلة

(١) مثال ذلك حالة ابرين الواردة في كتاب C. Burt. op. cit, p. 434

ضرورة أحيانا لصون الشرف والسمعة والكرامة والمال * * وما الى ذلك *
وحيث أنها قوة ضرورية للتغلب على الصعاب فهي تفيد في نزعات التجريب
والمخاطرة والتفوق وكسب الثقة بالذات * وهي قوة تستغل لتقدم المجتمعات
ومحاربة ما فيها من أمراض جسمانية وخلقية * وهي من العوامل الهامة التي
تعطى العلماء والمكتشفين قوة تغلبهم على ما يتعرض أعمالهم من مصاعب
ومقاومات * وهي من المصادر التي ساعدت على اخضاع الطبيعة بقواها
وثروتها للانسان *

نرى مما تقدم أن النزعات الاعتدائية بمختلف أنواعها صادرة عن استعداد
راسخ في طبيعة الانسان ويمكن أن يتجه نشاطها اتجاها هدميا ضارا * ويمكن
أن يتجه اتجاها مفيدا لكل من الفرد والمجتمع ، وقد قال « مكدوجل »^(١) :
ان غريزة المقاتلة لعبت دورا أكبر مما لعبته أى غريزة أخرى في تطور التنظيم
الاجتماعي *

دراسة حالات :

ولكى نفهم أصل النزعات الاعتدائية الشاذة وصورها وأساليب توجيهها
ندرس بعض الحالات * ومن الحالات التي يمكن اعتبارها كلاسيكية حالة
« جري Jerry »^(٢) ، وهو غلام في السابعة والنصف قتل زميلا له باغراقه عمدا
في النهر * كان « جري » يلعب مع زميله هذا قرب النهر ، وأراد أن يأخذ منه
لعبة كانت في يده ، فرفض هذا الزميل ، وأصر « جري » على طلبه ، وصمم الزميل
على الرفض ، ثم شتم « جري » وعيره بأنه لا أب له ، فهاج « جري » وما كان منه
الا أن دفعه في النهر ، فتشبث المجنى عليه بحافة النهر ، فركله برجله ، وما زال
به حتى أغرقه ، واستراح منه * لا يكفى هذا الحادث وحده لتفسير الجريمة *
فنحن اذا درسنا تاريخ الولد نجد أنه ابن سيدة فقيرة ولدته سفاحا ، وعاش
الولد مع أمه عيشة الكفاف * وكانت أمه تعمل بالخدمة المتقطعة في المنازل ،
ولذا كانت تتركه بغير نظام بلا رقيب وبلا غذاء في غالب الأيام * وكانت
المدرسة التي كان يذهب اليها الولد بعيدة عن مسكنه * فبعد

(1) Wm. Mc. Dougall : Social Psychology; Ch. 5, p. 240.

(2) C. Burt : The Young Delinquent. Ch. 1.

المدرسة وضعف رقابة أمه عليه شجاعه على الهروب من المدرسة في كثير من الأحوال • بذلك صار متأخرا في دراسته ، عرضة للتشرد • وكان الأولاد يعرفون أنه طفل غير شرعى مما كان يدفعهم الى تعييره بذلك ، ومما جعل الولد يحس بالنقص الشديد والنقمة البالغة على من حوله • تراكت آثار هذه الظروف وظلت مكبوتة في نفسه الى أن جاء حادث اللعبة مثيرا له فانهجر الحقد المتراكم من الماضى بالصورة التى ذكرناها •

لم يذكر « بيرت » ما تم لهذا الولد من علاج • لهذا نشرح احدى الحالات التى درسناها وعالجناها بنجاح ، وهى حالة لولد في الثانية عشرة من عمره ، يعيش في حى المذبح — أحد أحياء القاهرة — وكان مصدر الرعب لكل أهل الحى ، فهو يخطف ويسرق ويضرب ولا يبالي • وبلغ من قوته أنه كان يسرق اللحم من الجزارين — وهم قوم عتاة جبابرة — وبلغ من عنفه أن رجل الشرطة كانوا يعملون له ألف حساب ، فاذا قبض عليه خطأ وأرسل الى القسم فسرعان ما يطلق سراحه ، ولا سيما أنه يرشدهم أحيانا الى تجار الحشيش ومهربيه • ولكن حدث ذات مرة أن قبض عليه وهو يسرق صندوق زجاجات (غازوزة) من عربة في أثناء سيرها في شارع خيرت — أحد شوارع القاهرة — ثم أرسل الى القسم ومنه الى النيابة ثم الى مكتب لدراسة الأحداث • واتضح أنه حوكم قبل ذلك مرتين : احدهما لسرقة دراجة والأخرى لسرقة موقد (غاز) • وعندما بدأنا بحث حالة الولد عانى الباحث الاجتماعى كثيرا جدا ، فكان في الغالب لا يعثر عليه ، وعندما يجده يعتدى عليه ، أو يهرب منه ، وعندما تمكن من استدراجه ليسير معه اشتبك في الطريق العام في عدة مشاجرات ، وتكرر هذا مرات عدة حتى ينس من بحث حالته • وأخيرا نجح في أن يصل به الى المكتب ، وما كاد يغفل عنه قليلا حتى فر الولد هاربا ، ثم عاود المحاولة ، وبعد مرات عدة تمكن الولد من أن يثق أن ضررا ما لن يلحقه ، وبأن المتخصص النفسانى والمتخصص الاجتماعى سيعملان لصالحه • وفى احدى مقابلات الولد قال له الاختصاصى النفسانى: « اننا لانريد أن نضطرك لمقابلتنا فان أردت فلصالحك ، وان لم ترد فلك كامل الاختيار في عدم الاتصال بنا » • مثل هذا الاتجاه

السلبى (فى الظاهر) جعل الولد لا ينظر الى الاختصاصى النفسانى نظرات عدائية ، بل اطمأن اليه واستمع لكلامه وجلس بهدوء ليؤدى ما أجهاد عليه من اختبارات • وهكذا وصلنا العمل معه بهدوء وتدرج الى أن ألحقناه بمؤسسة تسير مع أمثاله على أساس استعدادهم • وبالفعل صار من أحسن أولاد المؤسسة ، والتحق بالعمل ، ونبغ فى النواحي الرياضية نبوغا كبيرا وصار غيورا جدا على سمعة « الأسرة » التى ينتمى إليها فى المؤسسة ومهتما بسمعة المؤسسة كلها وصار من قادة الأولاد فى المؤسسة •

وبدراسة حياة الولد اتضح أن أباه رجل شرير مدمن لتعاطى المخدرات ، وكان ينتهز فرصة الاظلام فى أثناء الغارات الجوية فيصطحب ابنه للسرقة من الجيران ، وعلى الرغم من اعتدال مكاسبه فانه لم يكن يعطى ابنه نقودا ، بل كان يشجعه على الخطف والسرقة ليحصل على قوته • وقد تركت الأم زوجها وابنها اشمئزا من سلوكهما ، وعاشت مع أهلها منذ مدة بعيدة • وينام الرجل وابنه اما على طوار واما فى مدخل منزل يملكه بالاشتراك مع أخيه • فالولد صار هو وأبوه منبوذين من الأم • ووالده يقربه اليه بالقدر الذى يتمكن معه من استغلاله ، ويشعر الولد بنقمة عامة على المجتمع ، وهو متوثب دائما للانتقام والاعتداء •

ومن العجيب أننا بعد أن تولينا توجيه الولد الى الحياة الجديدة صارا ميالا الى حياة العمل والكسب الشريف ؛ اذ ألحقناه بعمل « ميكانيكى » وهو العمل الذى يلائم استعداداته الجسمى والعقلى والخلقى ، وصار كثير النقد لوالده الذى يسلك فى نظره سلوكا سيئا للغاية • ووالده الآن فى السجن لسرقة ارتكبها •

نرى من هذه الحالة أن مصادر النزعات الاعتدائية يمكن تحويلها من المسالك السيئة المضادة للمجتمع الى المسالك المقبولة فى المجتمع • وذلك عن طريق وضع الولد فى بيئة اجتماعية تعطيه التقدير والأمن ، وتزوده بنشاط اجتماعى صالح ، وعن طريق اعطاء الفرصة لنزعاته القوية للظهور دون انماء للأناية ، ومع مراعاة انماء الشعور بالمسؤولية الاجتماعية • وليس هنا مجال التفصيل فى هذه الناحية •

حالة في نوبات الغضب لطفل في سن الخامسة :

هذا ولد في سن الخامسة شديد المعاندة والرغبة في الانتلاف ، عنيف جدا في تصرفاته • اذا لم يجب الى ما يطلب فانه يعبر عن غضبه بنوبات يصرخ فيها بشدة ، ويرتمى على الأرض ، ويرفس الى أن يجاب طلبه ، وهو يعيش مع أمه في بيت جده ، لأن الوالدة انفصلت عن زوجها بالطلاق عندما كانت حاملة ذلك الابن • فالولد يعيش في منزل متعدد السلطات ؛ فهناك سلطة الجد ، وسلطة الجدة ، وسلطة كل من الأخوال ، وسلطة الأم • ولذلك انعدمت وحدة السلطة الضابطة أو الهيئة الموجهة ، وعرف الولد كيف يستغل نواحي الضعف الكامنة في جو الأسرة لمصلحته • يضاف الى ذلك أن الولد نفسه مرتبك ، ولا يشعر بأنه ينتمى الى والد كبقية الأولاد • ويشعر في الوقت نفسه شعورا ضمينا بأن هناك غموضا كبيرا حوله وحول مستقبله من حيث اطمئنائه على استمرار بقائه مع أمه ، أو عدم بقائه معها • فالولد يعيش في جو يشعر بأنه لا يفهمه اطلاقا ، ويمكنه مع ذلك أن يصل فيه الى كل رغباته • وقد ساعد ارتفاع ذكاء الولد على سهولة كشفه لخصائص هذا الجو في سن مبكرة ؛ اذ أن مستوى عقل الولد وهو في الخامسة يساوى مستوى عقل طفل في سن السادسة والنصف •

وللولد مشكلات أخرى عديدة تعتبر كلها نتائج لمركزه ممن حوله، حيث انه يعيش في جو غامض غير مفهوم ، ولا يمكنه أن يطمئن اليه تمام الاطمئنان ومع ذلك فهو جو ضعيف في مجموعه بالنسبة اليه ، يخضع من فيه عادة لاجابة طلباته • فتتهيج الطفل ونوبات غضبه في هذا الجو تساعد على اجابة طلباته ، وينم تهيجه فوق ذلك عن ثقته على هذا الجو وعدم اطمئنانه اليه (حالة ص ٢٧٠) •

حالة غضب ومعاندة لتلميذ في السادسة عشرة :

وتلميذ في سن السادسة عشرة تصيبه نوبات عصبية شبيهة بالصرع ، ذكر عنه والده فوق ذلك أنه عنيد ، لا يهتم برأى والديه ، كثير الزجر والمشاكسة لاختوته ، منصرف عن مذاكرة دروسه مما أدى الى تأخره الدراسي

تأخراً كبيراً • وقد اتضح بدراسة الحالة أن هذه الاتجاهات وغيرها ظهرت كلها في مرحلة التعليم الثانوى ، أى في دور المراهقة • ويلاحظ أن الولد يريد أن يثبت وجوده بالأسباب التى يؤدى أغلبها في نفس الوقت الى إثارة الغيظ في والده ، وبذلك تصير وسائل اعتدائية غير مباشرة بجانب وظيفتها في إثبات الذات ، وهذه الأساليب هى :

- ١ — عصيانه لوالديه •
 - ٢ — التدخين •
 - ٣ — المشاجرة وتقديم الشكوى لرجال الشرطة عن يخطئون نحوه مهما كان الخطأ تافها •
 - ٤ — بطاقته التى وضعها بجانب بطاقة والده على صندوق البريد •
 - ٥ — الخروج مع أصدقائه الى ساعة متأخرة جدا من الليل •
 - ٦ — استقبال ضيوفه وأصدقائه أيا كانوا في المنزل في أى وقت يشاء وبغض النظر عن رأى بقية من في المنزل في ذلك •
 - ٧ — رغبته في أن يكون له في حركة المنزل صوت مسموع لا يقل عن صوت والده •
 - ٨ — كتابته مذكرات خاصة عن نفسه •
 - ٩ — خروجه من المدرسة في أى وقت شاء وبغير استئذان •
- ويلاحظ أن والده رجل عنده بعض العصبية ، وهو كثير النقد لابنه هذا ولا سيما أنه ابنه الأكبر وكان يركز فيه كل آماله • يفرض الوالد بعض القيود على ابنه ولو أن بعضها قيود معقولة ، ولكنه يتدخل في كل صغيرة وكبيرة في حياته ، ويهمه أن يكون رأيه هو المتغلب في النهاية ، والوالد فوق كل ذلك يتهيج على ابنه لدرجة تخرجه أحيانا عن حدود صوابه • وهو يخشى ألا يكون هناك أمل في اصلاح حال ابنه ؛ اذ أنه يرى أنها لا بد أن تكون وراثية • ويستند في ذلك الى بعض الأدلة غير القوية • هذه الحالة تعتبر حالة ثوران أو عدم استقرار ، وهى وان كانت لا تتميز بنزعاتها الاعتدائية المباشرة ، غير أن ما بها من النواحي الاعتدائية يظهر مع غيرها من النواحي

الأخرى • وبذلك نرى أن النزعة الاعتدائية في هذه الحالة والحالات السابقة لا تخرج عن كونها عرضاً واحداً من مجموعة أعراض للشخصية كلها • مثلها في ذلك مثل أى سلوك مشكل •

أسباب الغضب في الحالات الشاذة :

ومما يكثر ظهوره عند الأطفال ما يسمى بنوبات الغضب ، وهى تظهر بأسلوبين : أسلوب ايجابى مصحوب بالثورة ، أو الصراخ ، أو الضرب ، أو الرفس ، أو الرجم بالحجارة ، أو دفع الأبواب ، أو إتلاف الأشياء ، أو ما يشبه ذلك • وأسلوب سلبى مصحوب بالانسحاب أو الانزواء أو التجهم ، أو الاضراب عن الكلام أو الأكل ، أو ما يشبه ذلك • أما الأسلوب الأول فهو أسلوب الظاهريين ، أو المنبسطين (Extroverts) وأما الثانى فهو أسلوب الباطنيين أو المنطوين (Introverts) • وهذا النوع الثانى الهادىء في ظهوره — وان كان مريحاً للآخرين — أضر بالشخص من النوع الأول ؛ إذ أنه يصحبه كبت لافعال الغضب ، قد يتبعه — بعد مدة قصيرة أو طويلة — اغراق في أحلام اليقظة التى قد يتصور فيها نفسه منتصراً أو مظلوماً أو مقصوداً بالظلم من غيره ، أو غير ذلك ، أو قد يتبعه انهجار أو تحويل ^(١) (Transfer) ، وأما النوع الأول فمن مميزاته على الأقل أنه يعطينا فرصة لفهم الشخص ، ودراسة سلوكه الظاهر غير المكبوت • ومن مميزاته أيضاً شعور الشخص بشئ من الراحة ، بعد تعبيره عن انفعاله بصورة ظاهرة •

وتظهر نوبات الغضب أحياناً إذا كانت السلطة الضابطة متغيرة ، فإذا طلب طفل من أمه مثلاً أمراً ما وامتنعت ، ثم صرخ فأجابت طلبه ، فانه يغلب أن امتناعها بعد ذلك في فرصة أخرى يؤدي الى صراخه • وكثيراً ما يحدث أن تنبّه الأم الى أن الولد قد يتغلب عليها إذا لم تصمد فتصر على الامتناع ، ويصر هو على رفع صوته في الصراخ ، وقد تستمر الحال الى أن تجيب الأم طلبه • وهذه طريقة من الطرق التى تنشأ بها نوبات الغضب • فالطفل يدرك حدود السلطة في بيئته • لذا نجده قد يصرخ مع أمه ، ولا يصرخ مع

(١) راجع عملية التحويل صفحة (١٣٤) •

أبيه • أو يصرخ مع أمه في حضور جدته ، أو خالته لأنه يضمن اذ ذاك شفيها له به خبرة سابقة • بذلك تصير نوبات الغضب بدرجاتها المختلفة سلاحا يستعمله الطفل بالمقدار الكافي في الظرف المناسب • وتصل أحيانا نوبات الغضب الى درجة شديدة كاحتقان الوجه ، واحتباس الكلام ، أو الاغماء أو القيء ، أو كثرة البكاء ، وغير ذلك • والاغماء في مثل هذه الحالة يكون أسلوبا عقليا لاشعوريا يصدر من الطفل للحصول على حاجة مادية أو معنوية • فمما يترتب عادة على الاغماء ، أن الأسرة كلها تجتمع ذعرا حول الطفل ، وكل فرد منها يقوم بنصبيه في مساعدته ، وينظر اليه نظرة ملؤها الخوف والحنان والتأثر • وهكذا يصير الاغماء وسيلة تؤدي غالبا الى اهتمام الأسرة به ووضعه في مركز عناية كل فرد منها •

هذا النوع من الاغماء نعرفه في الحالات التي تشبع حاجاتها كلها ، وتدل في أول الأمر ثم تعامل بالشدة في المراحل المتأخرة • ولذا فاننا نجدها عادة في الطفل الأول ، أو في الحالات التي يعيش أصحابها في جو تتذبذب فيه المعاملة بين أساليب الشدة وأساليب التراخي الصادرة من شخص واحد ، أو في الجو الذي تتعدد فيه أساليب مختلفة لسلطات متعددة كسلطة الأم والأب ، أو سلطة هذين مضافا اليها سلطة الأجداد والخالات ومن يشابههم •

ومن أسباب نوبات الغضب والعنف في السلوك الشعور بالخيبة الاجتماعية ، كتأخر التلميذ في دراسته أو اخفاقه في التقرب من والديه أو معلميه ، ولذا نجد أن الشعور بالغيب والحق والتعير عنهما كثيرا ما يكون حادا واضحا في حالات الغيرة • كذلك يؤدي الى نفس النتائج شعور الطفل بظلم يقع عليه من المحيطين به من مدرسين أو آباء أو اخوة • وأشد حالات الشعور بالظلم ما كان بجانبها شعور الشخص بمحابة ذوي السلطة لغيره ، اذ أن جزءا كبيرا من الشعور بالظلم هو في الواقع شعور نسبي • ويضاف الى ما تقدم الشعور بفقد الاطمئنان الى البيئة المحيطة •

ومن أهم أسباب الغضب أيضا تقييد الحرية سواء في ذلك حرية الحركة

الجسمية أو اللعب الحر عند الصغير • ويخطئ بعض الآباء في أنهم يتدخلون كثيرا في ألعاب الأطفال ليحلوا لهم مثلا لغزا استعصى عليهم حله أو غير ذلك مما يحرمهم لذة المحاولة الذاتية والنجاح الذاتي • ومن أسباب الغضب كذلك تقييد حرية التعبير عن الرأي ، وتقييد إثبات الذات ولا سيما عند المراهقين والكبار ، ويدهش كثيرا من الآباء ميل أطفالهم الى المعاكسة والمشاكسة بعد بدئهم حياتهم الدراسية ، والسبب في ذلك هو أن جو المدرسة — بكل أسف — جو مقيد في العادة لحرية الحركة ، وحرية التعبير عن الفكر ولا يسمح فيه بإثبات الذات إثباتا كافيا • والطفل لا يمكنه في الغيرة أن يثور مباشرة على السلطة القائمة في هذا الجو ، فيقوم دون أن يقصد أو يشعر بعملية تحويل للثورة أو الغضب الى أشخاص أو أشياء لها بمصدر السلطة بعض العلاقة ، وتكون العلاقة قائمة على وجه شبه بعيد ، وأحيانا لا تكون هناك علاقة ظاهرة اطلاقا • فعند عودة الطفل الى المنزل يغضب على أمه أو على اخوته ويكون كثير المطالب قليل الصبر كثير النقد شديد التدقيق لغير سبب جوهري شديد الغضب • ومثل هذا ينطبق على كل جو يسوده الضغط والتقييد سواء أكان جوا اجتماعيا عاما أو مجالا اجتماعيا محدودا •

ولا يجوز الخلط هنا بين تقييد الحرية ووجود المقاييس الضابطة ، فالطفل في حاجة الى توجيه لمعرفة الحسن والردىء مع عدم تقييد حريته بارغامه على اتباع نظام معين محدود التفاصيل •

وليس من الضروري أن يتم دائما تقييد الحرية بالطرق العنيفة من جانب السلطة ، فقد يتم بطرق تبدو غاية في الضعف • وقد شوهد هذا في عدد غير قليل من الحالات • ومن أمثلته أن شابا ، وهو في سن السابعة عشرة أو أكثر ، كان اذا خرج مع أصدقائه للتنزه بكت أمه ، وبدا عليها الشقاء • وفي ذات مرة مرضت الأم أسبوعا لأن ابنها خالفها ، وسهر في الخارج مع أصدقائه الى ما بعد التاسعة مساء • وكانت النتيجة في هذه الحالة بالذات أن الولد كره البقاء بالمنزل كرها شديدا ، وخشى الخروج منه

خوفا على أمه التي يقول انه يحبها حبا جما * وبهذا وقع في صراع عقلى
عنيف بين نزعتين متناقضتين هما : تشوقه لاثبات ذاته ، وحرصه على ارضائه
لأمه * نتيجة هذا أنه كان ينفجر أحيانا في أمه وأحيانا يدخل غرفته ويحبس
نفسه فيها ، ويصرخ بصوت مرتفع * وقد صار مضطربا قليل الاستقرار ،
يفكر أحيانا في الانتحار ، قليل القدرة على تركيز جهده في أعماله الدراسية *
وحالات كثيرة من المرض العصبى والعقلى منشؤها السيطرة بالضعف من
جانب الأمهات والآباء (١) .

وقد يكون الغضب عند الأطفال صورة من الغضب عند الآباء وقد تحدث
هذه الصورة اما بالتقليد والنقل ، واما تحدث كرد فعل على غضب الوالدين
وما ينتج عنه لأتفه الأسباب ، فبعض الآباء يغضب ان لم يجد طعامه معدا
في اللحظة التي يريده فيها ، أو ان فقد زرار قميصه في أثناء لبسه في الصباح
أو ان قطع رباط حذائه في أثناء شده له * وهكذا تجد بعض الآباء متوثبين
للغضب في كل لحظة * كذلك غضب الأطفال مع اخوتهم أو مع الخدم قد
يكون صورة ظهرت عن طريق التقليد أو الرغبة في الانتقام منشؤها غضب
الآباء معهم * وفي الحالة الثانية يكون الغضب متسببا من كثرة مشاجرات
الوالدين أنفسهم مما يهز ثقة الطفل بالجو المنزلى ، ويجعل الطفل متحزبا مع
أحد الوالدين ضد الآخر (٢) وبذلك يصير ناقما على الجو المنزلى كله ،
أو على جزء منه ، وقد تنتقل معه هذه النعمة الى الجو الخارجى في علاقته
بالمجتمع عامة أو ببعض أجزائه كالزملاء أو المرءوسين أو الرؤساء أو السلطة
الحاكمة أو القانون نفسه .

ومن العوامل التي تساعد على تهيج الأشخاص وتعرضهم لنوبات الغضب

(١) هذه هي نفس الحالة (ص ٢٧٤) ، ويلاحظ أن النزعات الاعتدائية
تتجه نحو أمه فلا تجد منفذا فترتد عليه ، ومثل هذه الحالات كثير في حالات
الانتحار وما هو أخف من ذلك من حالات عقاب الذات (Self Punishment)
ومجاهدة النفس (Asceticism) .

(٢) يتحزب الطفل عادة للشخص الذى يميل اليه ، وقد يعتقد هو أنه
مظلوم أو ضعيف * ويكون الطفل غالبا في جانب الأم ، ويترتب على انقسام
جو الأسرة بهذه الصورة مشكلات عديدة .

حالتهم الجسمية ، فأى نقص عام أو محلى يؤدي الى اضعاف قدرة الشخص على السيطرة على موقف ما قد يجعل الشخص هائجا متوثبا . فبعض الأطفال ، لعدم قدرتهم على المشى أو الكلام أو الرؤية أو اللعب أو ما الى ذلك قد تجدهم فى حالة توثب واستعداد للغضب والهيجان .

مشاجرات الاخوة :

لانىكون مبالغين ان قلنا : ان كل أسرة بها أكثر من طفل واحد لابد أن يحدث فيها شىء من النزاع والتشاجر . فمن الأمور العادية أن يقوم أخ بتعبير أخته مثلا بلون شعرها أو ضخامة قوامها أو غير ذلك . كذلك يحدث أن تغير الأخت أخاها بأمور مختلفة . ويتشاجر الاخوة مثلا عند تسابقهم لعمل ، أو لعب ، أو الحصول على امتياز معين من أى نوع كان . كما يجوز أن ينال طفل ما عقابا بسببه له طفل آخر مثلا ، فيقوم هذا الطفل الآخر بإثارة المعاقب ، فيثير غيظه بكلمات معينة أو بتعبيرات معينة يرسمها على وجهه ، مما يهين الجو لشجار من النوع العنيف . كذلك يحدث أحيانا أن يرغب الأخ الأكبر فى فرض سلطته على الأصغر فيتهيج الأصغر لهذا ، ويلجأ لوالديه . وكما جرت العادة قد يكون الأصغر معززا من الوالدين . يحدث بعد ذلك — على سبيل المثال — أن يخرج الأخوان معا — أصغرهما فى حراسة الأكبر — لقضاء مهمة معينة ، ويريد الأكبر أن يسير الأصغر حسب هواه ، والأصغر يمانع ، فيستعمل الأكبر سلطته ، وينهر أخاه ويدفعه ، وانما يفعل ذلك بشىء من الخوف وعدم الاسترسال فيه ، لأن الأصغر مسنود من الوالدين . فتجد اذ ذاك أن الأصغر يتشاجر بعنف وشدة لنفس السبب — وهو أنه معزز من الوالدين — ولذا تتجدد المشاجرات بين الاخوة ، ويكون لموقف الوالدين بعض الاثم فى اتجاه المشاجرات ودرجة عنفها . ويحدث أحيانا أن يشعر الأخ الأول والثانى أن الثالث مدلل من الوالدين فيتحدان ضده ، ويكثران من التشاجر معه . وأحيانا يتفق الأول والثالث ضد الثانى مثلا لأن الثانى ممتاز عنهما لخفته أو لجمال شكله ، أو لشدة ذكائه ، أو لركة صحته التى جعلت الوالدين يقدان عليه عناية لم يشعر الآخران بمثلها . وهكذا من التشكيلات الأخرى العديدة .

ويتشاجر الاخوة اذا اعتدى أحدهم على مايعتبره الآخر ملكا له ، أو على ما يعتبره أنه ليس ملكا للمعتدى • فالطفل يتشاجر مع أخيه اذا لعب هذا في كتبه أو أدواته ، أو ملابسه ، أو اذا لعب في كتب والده مثلا : الى غير ذلك •

ونجد على وجه العموم أن الاخوة الذين لا يتشاجرون قل أن نسمع عنهم • ومجرد اجتماع طفلين أو أكثر في مكان واحد يقيم في العادة مسرحا لمنازعات تختلف في نوعها وموضوعها ، ودرجة عنفها اختلافات كبيرة • وهذه المنازعات قد تطول وقد تقصر ، وتتخللها عادة معاهدات للصالح لا يراعى في تنفيذها أى نوع من الدقة •

ويتألم الآباء عادة من مشاجرات أبنائهم ، وسبب ذلك أن صوت هذه المشاجرات قد يصل الى مسمع الجيران ، وبذلك يتسولاهم الخجل ؛ اذ يظنون أن الجيران ربما يرمونهم بالخيبة في تربية أبنائهم • ومما يزيد الآباء تألما عنف الأبناء أحيانا في هذه المنازعات ، اذ أن المشاجرات بين الاخوة تصل أحيانا الى درجات يخيّل الى الوالدين معها ، أنه لو أتاحت الفرصة لأحدهم ، فلا مانع عنده من أن يفتك بالآخر • ويعتقد الآباء اذ ذاك أن مثل هؤلاء سيشبون على كراهية بعضهم لبعض ، وسينشئون غير قادرين على حسن معاملة الناس • ولكن الأمر أهون من هذا بكثير ، فكل الاخوة — ولا سيما المتقاربين منهم في العمر — لابد أن يتشاجروا • وتقل عادة هذه المشاجرات كلما تقدم الأطفال في السن • وليس معنى هذه المنازعات كراهية الأخوة بعضهم لبعض ، فكثيرا ما يحدث أن يتشاجر أخوان ، فاذا تدخل غريب للاصلاح بينهما ، فغالبا ما يتضامنان ضد هذا التدخل ، ولا يرضيان به مهما نبّل غرضه وحسنت نيته •

ومن البحوث التي أجريت في الخارج على الأطفال دون الثامنة من العمر بحث خلص منه القائّم به الى النتائج الآتية :

١ — استعداد الذكور للتشاجر أكثر من استعداد الاناث له •

٢ — الاستعداد للتشاجر يقل عادة بالتقدم في السن •

٣ — الاستعداد للتشاجر يكثر بين الأطفال الذين تربط بعضهم ببعض روابط الصداقة •

وإذا أخذنا بهذه النتائج ، وتذكرنا أن الأولاد عموما يفوقون البنات في الميل الى النشاط والعنف والشدة والسيطرة واثبات الذات ، وجدنا أن الشجار قد يدل على الميل الى التمسك بالحق والمثابرة والشدة ، وغير ذلك من الصفات اللازمة لنجاح المرء في الحياة • ويمكن أن يكون الشجار مع حسن التوجيه مقدمة لأمر آخر يكسبه المرء بالخبرة الشخصية وهو القدرة على ضبط النفس ومجاهدتها ومكافحة الصعاب •

وطبيعى جدا أن الأطفال باجتماعاتهم تختلف رغباتهم ، وتختلف طرقهم في الحصول عليها ، وتتعارض هذه الرغبات • وهذا يؤدي الى الاحتكاك الدال على النشاط والحيوية ، ويمكن أن يترتب على كل هذا أن يتعلم الطفل كثيرا من أساليب التعامل ، ومعنى الحق ، ومعنى الواجب ، وأساليب الأخذ والعطاء • ولهذا يكون التشاجر أحيانا دليلا على عدم اكتمال النمو الاجتماعى ، ولكنه يصح أن يؤدي اليه اذا أحسن توجيهه •

يضاف الى كل هذا ، ما سبق أن قلناه في أسباب الغضب ، فمن الجائز أن يكون التشاجر بين الأخوة دالا على غيرة ، أو اخفاق اجتماعى ، أو شعور بظلم الكبار ، أو غير ذلك مما يجب على الآباء أن يبحثوا عنه ليزيلوا أسبابه بادىء ذى بدء •

بحث حالات الغضب والتشاجر :

أول ما يجب الاتجاه اليه — اذا كثر الشجار وظهرت ثورات الغضب — دراسة الحالة الجسمانية ، فقد يكون التوثب وسرعة الغضب ناشئا عن اختلال في مصادر النشاط في الجسم ، كازدياد في افرازات الغدة الدرقية ، أو الغدتين فوق الكلويتين ، أو الغدد التناسلية ، أو ما يشبه ذلك ، مما قد يحدث والشخص غير مهيا للقيام بالنشاط الكافى لتصرف الطاقة المتدفقة فيه • وقد يكون السبب هو تسمم الجسم عن طريق مباشر أو غير مباشر ، بسبب الامساك ، أو التعب الشديد ، أو الإصابة بالبرد العادى ، أو قلة النوم ،

أو سوء التغذية ، أو غير ذلك من الأسباب الجسدية العديدة^(١) . ويمكن في بعض الحالات ارجاع التعرض للغضب الى عاهة أو نقص جسمي يتسبب عنه عجز في القدرة ، أو تعبير من الآخرين ، أو عطف زائد منهم ، مما قد يجعل صاحب العاهة شاعرا بعاهته ناقما على نفسه وناقما على من حوله .

ويلاحظ عادة أن أطفال المدارس يرهقون أحيانا بالعمل . سواء أكانت تسميه المدرسة عملا دراسيا أم رياضة بدنية . ثم يذهب الطفل الى منزله محملا بواجبات منزلية ، وقد تضاف الى هذا دروس خصوصية ، وبذلك يحرم الطفل من الاستجمام ، ومن اللعب الحر ، ومن التنزه الضروري لكل انسان . فعلينا اذن أن نبث حياة الطفل المدرسية ، وعمله الدراسي من حيث نوعه وكميته ودرجة ملاءمته لقواه العقلية والجسمية ، وأن نعرف علاقة الطفل في المدرسة بزملائه ومعلميه . وعلينا أن نبث كذلك في علاقة الطفل بوالديه وعلاقة كل منهما بالآخر ، وأن ندرس أصدقاء الطفل خارج المدرسة ، ونوعهم ، ودرجة ملاءمتهم له ، وكيف يقضى وقته معهم ، وأن نعرف كيف يشغل وقت فراغه ، ونوع هواياته . وذلك لأن الطفل كلما كان مشغولا بهوايات ، وبعمل لذيذ ، كان أقرب الى الهدوء منه الى الغضب . ويجب أن نعرف الكثير عن حياته الانفعالية فربما يكون هناك ما يدعو الى الغيرة ، أو القلق ، أو ضعف الثقة بالنفس ، أو الانشغال بمسائل جنسية أو غير ذلك . وعلينا أن ندرس نظريته الى مستقبله فالمستقبل المظلم غير الآمن قد يكون صاحبه بسببه قليل الصبر كثير الغضب .

يضاف الى كل هذا وجوب النظر الى احتمال وجود عوامل وراثية ، فغريزة المقاتلة وما يصاحبها من نشاط الغدد اللازمة لها ، قد تكون مورثة بنسبة عالية من جيل سابق ، يصير الفرد معها أقل قدرة على تكييف نفسه للمشكلات التي تقابله .

وعلينا بالجملة أن ندرس في نوع المشكلات التي نحن بصدد حلها كل

(١) في الكبار يكون الاستعداد لسرعة الغضب متأثرا أحيانا بتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم .

ما يمكن أن يقلل من شعور الفرد بالسعادة في الحاضر والماضي والمستقبل
من عوامل جسمية وعقلية واجتماعية مختلفة •

بعض القواعد العامة :

وزيادة على ما تقدم عن دراسة الحالات العادية أو الشاذة يجب مراعاة
ما يأتي :

١ — لا يجوز الاكثار من التدخل في أعمال الأطفال ، أو تحديد حركتهم ،
أو ارغامهم على الطاعة لمجرد الطاعة ، وانما يكون التدخل بمقدار ما سبق
أن أشرنا اليه (ص ١٧٠) •

٢ — لا يجوز اظهار الأطفال بمظهر العجز أو الاستهزاء بهم ، والسخرية
منهم ، أو اذلالهم أو كبتهم أو تخويفهم أو العمل على تهدئتهم بالعنف
والشدة • فالسماح لهم بالتعبير عن انفعالاتهم العنيفة أحيانا أمر صحي •
٣ — لا يجوز اغتصاب ممتلكات الأطفال ، أو تخريب أدواتهم خصوصا
في ساعة غضب •

٤ — لا يجوز الظهور أمام الأطفال بمظهر الضعف ، والقلق ، ولا بمظهر
الاهمال لهم ، وعدم الاهتمام بهم •

٥ — لا يجوز أن يسمح للطفل أن يحصل على ما يريد بطريق الصراخ ،
ولا يجوز محايلته أو تدليله في هذه الحالة •

٦ — يحسن عدم توجيه انتباه الطفل اذا قام بثورة غضب لسبب غير
معقول •

٧ — يجب أن نضبط أنفسنا قدر الامكان أمام الأطفال ؛ بل يجب أن
يتعود الآباء الانشراح لاسيما عند عودتهم من العمل •

٨ — لا يجوز استثارة الأطفال لتسلية أنفسنا • ولا يجوز اثاره غضبهم
بمنع امتياز معين عنهم ثم التنازل لهم خوفا منهم أو عليهم •

٩ — لايجوز مناقشة سلوك الطفل مع غيره على مسمع منه •

١٠ — لا يجوز اثاره الغيرة بين الأطفال ولا يجوز الاكثار من الموازنات
العلنية بينهم ولا خلق جو يشعر بالتفريق بينهم •

- ١١ — يجب أن يكون الطفل مشغولا في وقت فراغه بنشاط لذيق منتج كلب أو هواية أو عمل أو غير ذلك • وأن تعطى له فرصة اللعب العنيف أحيانا ، ويجب أن تكون التربية لوقت الفراغ — بمعنى التوجيه لاستغلال وقت الفراغ استغلالا حسنا — غرضا هاما من أغراض التربية •
- ١٢ — يجب أن يكون جو المنزل جو عطف وهدوء وتقدير وعدل وثبات في المعاملة •

- ١٣ — يجب أن يوجه نشاط الناشئ لخدمة المجموعة التي ينتمى إليها وللنواحي الخلقية وللنواحي الابتداعية الايجابية •
- خاتمة :

وبعد ازالة الظروف الخاصة التي أشرنا إليها فيما تقدم ، ومراعاة القواعد السابقة الذكر ، يحسن معالجة الطفل — ان كان من النوع العنيف — بشغله في عمل يحتاج الى جهد كالحركة واللعب الذي يتطلب تحريك الجسم كله كالقفز، والجري ، ولعب الكرة مثلا • والألعاب الجسمية العنيفة أفضل لهذا النوع من الأطفال من الألعاب العقلية • وإذا ظهر على الطفل ميل عام بارز للمشاجرة فيحسن ادماجه مع جماعة من الأطفال يساوونه في القوة حتى يناضلهم ويناضلوه ، فينتصر أحيانا ويغلب على أمره أحيانا أخرى • واندماج هذا النوع من الأطفال في الفرق الرياضية له أحسن الأثر اذا تم تحت اشراف مستنير •

وعند تشاجر الاخوة بعضهم مع بعض يجدر بالآباء تركهم يحلون مشكلاتهم بأنفسهم ، وإذا تدخلوا فليكن تدخلًا موجها هادئا خاليا من التحيز يترتب عليه تعليمهم كيفية حل مثل هذه المشكلات بأنفسهم اذا ظهرت بعد ذلك في مناسبة أخرى •

وعلى الآباء والعلمين أن يترشوا فلا يقابلوا غضبا بغضب ، اذ يحتمل أن يكونوا هم مصدر المشكلة كلها • فعليهم أن يدرسوا دائما تصرفاتهم مع أبنائهم في مثل هذه الحالات وعليهم أن يصلحوا من أنفسهم أولا والا تعذر عليهم اصلاح أبنائهم •

المراجع

- Blanton : Child Guidance.
Blatz and Bott : The Management of Young Children.
Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.
Goodenough : Anger in Young Children.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
Lane : Talks to Parents and Teachers.
Neill : The Problem Child.
Ponsonby : The Application of Psychology to Everyday Life.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الثاني والعشرون

التخريب

ميل الأطفال الى الفحص والتخريب والحركة :

لأجل أن تتفهم ميل أغلب الأطفال الى اتلاف الأشياء يجب أن نبحث بعض القوى الفطرية التي تهيم على الطفل لذلك • وسبق أن عرفنا أن من بين هذه القوى ما نسميها غريزة الاستطلاع وغريزة الحل والتركيب • وهذه الغرائز تظهر في ميل الأطفال الى العمل والتجريب والكشف وسؤال الكبار • ويقوى ظهور هذا الميل أن الطفل حديث العهد بهذا العالم ، ومحتوياته غريبة بالنسبة اليه ، ولا بد له من معرفتها حتى يشعر نحوها بأمنه وسلامته ، لا سيما اذا اضطر للتعامل معها •

وأول ما يشعر الطفل بالشوق الى معرفته وادراكه هو العالم المادى • فهو يريد أن يلمس الأشياء ، ويحملها ، ويقذفها ، ويعضها ، ويمر يده عليها • الى غير ذلك فاذا أعطيت طفلا في السنة الأولى من حياته كرة صغيرة ملونة ، فانه — كما قلنا — يتأملها ويعضها ثم يقذفها ، فتعطيها له ، فيقذفها مرة أخرى ، ومرة ثالثة ، وهكذا • وهذا تحقيق لنزعة التجريب أو ادراك خواص الكرة عن طريق القيام بالتجارب والملاحظات • فالطفل يدرك بطريقته هذه وزن الكرة وشكلها وألوانها ويدرك ارتدادها في الأرض ، ويدرك المسافة التي يلقاها فيها وهكذا ، وفوق كل هذا يشعر بقوته ومقدرته على العمل • لهذا يكرر القيام بتجاربه مرات عدة • ويذكرنا تكراره لتجاربه نوعا ما بما يفعله العالم الذي يتبع المناهج الصحيحة للبحث العلمى ، والذي لا يقطع بنتيجة الا بعد أن يكرر تجاربه ومشاهداته مئات المرات •

وإذا أردنا أن نصف الطفل في هذه الحالة — وهو في معمله الصغير —

قلنا : انه يلعب • وعنصر اللعب — أو بعبارة أخرى عنصر الشعور باللذة والسعادة — ضرورى لاستمرار الطفل في هذه التجارب وانهماكه فيها • هذا اللعب هو الذى يكسب الطفل خبرة سريعة واسعة المدى يدرك بها خواص العالم المادى • فسرعان ما يدرك الفرق بين الساخن والبارد والكبير والصغير، والناعم والخشن ، والأسود والأبيض والحاد وغير الحاد ، وغير ذلك من الصفات الظاهرة بالنسبة إلينا ، والتي لا يكسبها الطفل الا عن طريق المحاولات الحسية العديدة والتجارب الشخصية الطويلة •

ومما نلاحظه من هذا النوع ميل الأطفال الى اللعب بالماء مثلا ؛ فما مصدر هذا الميل ؟ مصدره أن العناصر المألوفة التى يتعامل معها الطفل هى الأجسام الصلبة ، فهو يمسك تفاحة أو كرة أو مفتاحا ، فيجد أنه يستقر في يده • ويمسك بالماء فيجد أنه يزول من يده • وهذه خبرة جديدة أو موضوع جديد يستحق البحث والفحص • ماذا يفعل ؟ يلعب بالماء ، فإذا وجد اناء ماء فانه يضع يده فيه ويحركها ، وإذا وجد الماء نازلا من صنوبر فانه يحاول أن يمسك به ، والطفل كله مرح وسعادة وضحك وهو يحاول أن يمسك بالماء والماء يفلت من يده • فهو في هذا المعمل الخاص يدرك الفرق بين الأجسام السائلة والأجسام الصلبة • وكان طفل صغير فى الثالثة من عمره يلعب بالرمل والماء فكان يملأ كوزا من الماء ويصبه فيسيل الماء فى كل مكان ، ثم يملأ أكواز الرمل ويصبها فتتكون فى شكل قوالب ، ثم سأل أمه عن سر تكوّن الرمل وعدم تكوّن الماء ، وهو سؤال بديع جدا فى الفرق بين الأجسام السائلة والصلبة ، أو فى مبادئ الطبيعة • وهذا بعينه يحدث عند استعمال الطفل للصابون ، وملاحظته لفقاقيعه ، واستعمال أنبوبة مفتوحة من طرفها لنفخ هذه الفقاقيع وتكبيرها وتصغيرها وتطيرها — أحيانا فى الظل وأحيانا فى الشمس — ومشاهدة الألوان المتعددة الناتجة عن انكسارات الضوء فيها • فالطفل اذن يميل بطبيعته الى اللعب والتجريب الحسى ، وبهذه الطريقة يكسب كثيرا جدا من الخبرة الحسية والمهارة الحركية •

يرى الطفل ساعة والده مثلا ، وهذه فى نظره جسم مستدير براق غريب ،

لا تتاح له فرصة لمسه الا لحظات صغيرة من وقت لآخر . وفى هذه اللحظات التى يسمح له فيها بذلك يلعب بها لعبا مقيدا محدودا لا يكفى لاشباع نفسه . وعقل الطفل وحواسه تتعطش لكسب الخبرة وهضمها كما يتعطش جسمه لتناول الطعام وهضمه^(١) ، فيمسك الساعة ويقبها بين يديه ، واثاما للتجربة قد يقذفها على الأرض ، فان تهشمت فقد يصيح فرحا لنجاح التجربة (فى نظره على الأقل) . ولكن سلوك والده ازاء ذلك يكون فى العادة سلوكا غريبا فى نظره . ففى الحال يقطب الوالد جبينه ، وقد يصيح صيحة الغاضب ، فينهر الطفل أو يضربه . هذا السلوك يثير دهشة الطفل ، ويشعره بأن هذا العالم كله ظلم وقسوة وجور . الطفل أراد أن يمسك الساعة ليفحصها ويفهمها ، وقد قذف بها وتكسرت ، فأدرك خبرة جديدة ، وشعر بقوته ، واشتق من كل هذا لذة كبيرة . فلماذا الاتهار ولماذا الضرب ؟ بطبيعة الحال يضرب الوالد ابنه لأن الساعة ثمينة ، ولكن الطفل لا يدرك شيئا من هذا . وقيمة الساعة فى نظره قد تساوى ، أو لا تساوى قيمة أفعه لعبة من لعبه . وما فعل الطفل هذا الا بسبب الدوافع الطبيعية المتدفقة عنده التى تنشط للتعبير عن نفسها ، وترمى الى الاتصال بالعالم الخارجى وفهمه ؛ فاذا بهذه الدوافع تقابل من البيئة بالعقبات الشديدة القاسية . ولكن هذه العقبات لا تقتل ما عند الطفل من دوافع ونزعات ؛ فرغبة الطفل فى لمس الأشياء واللعب بها لا تختفى ؛ وانما ينفذها متسترا خائفا ، ويكون سلوكه اذ ذاك مصحوبا بشيء من الرعونة ، ومن سوء فهم الأشياء وقيمتها ، فيتلف الطفل بذلك أشياء كثيرة . ومن تحليل هذه الأمثلة ندرك أن ما يسمى فى العادة اتلافا أو تخريبا ، أساسه غالبا حب استطلاع طبيعى ينفذه الطفل بطريقة تجريبية حسية ، ويصحبه غالبا سوء تقدير لقيم الأشياء وبعض الرعونة لعدم اكتمال النمو ، وشيء من الخوف والتستر نتيجة سوء معاملة الوالدين . وتلك القوة التى تدفع الطفل للبحث والتجرب ، والاستطلاع ، والتى يريد الوالد أن يخمدها — ولن يقوى على اخمادها — هى من أكبر الوسائل التى

(١) ذلك لاشباع الحاجة للنمو العقلى والحاجة للنمو الجسمى — راجع موضوع الحاجات النفسية .

خلقها الله لصالح الانسان من حيث نموه وتعلمه وكسبه القدرة على فهم البيئة والتأثير فيها وحسن التكيف معها .

وكذلك الطفل يرى والده يقوم بحركات بسيطة حين يكتب مثلا ، فيترك آثارا سوداء على ورق أبيض . وهذه تجربة غريبة بالنسبة للطفل ، فتشتاق نفسه للامساك بالقلم واجراء نفس الحركة والنظر الى النتيجة . اذا تنبه الوالدان لهذا الشوق وأدركا قيمته فانهما قد يعطياه ورقا وقلما ليخط ما يشاء ، وان لم يكن هذا فلوح (اردواز) أو سبورة وأما اذا لم يعط الولد فرصة لهذا ، فانه قد يخطط خفية في كتب والده ، وكراساته ، ويتلفها أشد اتلاف . أو كما حدث من طفل أعرفه أخذ قطع الفصح . وشوه بها الجيطان والأبواب والأثاث .

وطفل آخر يرى والدته تستعمل المقص ، وتقوم بحركات بسيطة تؤدي الى قطع الأشياء وتمزيقها وهذه أيضا عملية جذابة للغاية ، فماذا يفعل الطفل ؟ تشتاق نفسه لاجراء التجربة بنفسه ، فيمسك بالمقص ، فاذا لم يلاحظ ويوجه فقد يقص كتابا ثميناً أو مجلة محفوظة أو مفرشا أو ما يشبه ذلك . وأما اذا لوحظ ومنع ، فهو في الغالب يقوم بالعملية سرا . والنتيجة في الحالتين وبال على الوالدين لما سيحدث من اتلاف ، ووبال على الطفل لما سيلاقه من عذاب وعقاب . أما اذا عرف الوالدان قيمة هذا الشوق الى القص ، وقيمة التجربة الحسية والحركية التي يكسبها الطفل من قيامه به ، فانهما قد يوجهانه الى قص الجرائد القديمة ، أو الخرق البالية الى أن تشبع نفسه من هذه التجربة الجديدة ويتجه لغيرها من التجارب الطبيعية .

نرى مما تقدم أن ما يسمى في العادة تخريبا لا يكون مقصودا لذاته ، وانما يحدث عرضا في أثناء النشاط الطبيعي للطفل وهذا النشاط الطبيعي — الذي نسميه لعبا ، أو حلاوتركيبا أو استطلاعا — يشبه حاجات نفسية، ملحة ويحقق غايات حيوية للطفل وهي نموه وتعلمه بمعانيهما الواسعة . غير أن الطفل في أثناء هذا النشاط ، لا يكون في العادة قد استكمل التناسق الحركي أو التوافق العضلي الذي يساعده على تناول الأشياء وفحصها دون

اتلافها ، ولا يكون كذلك قد أدرك قيم الأشياء على نفس المستوى الذى يدرکها عليه الکبار المحيطون به • اذا أدركنا هذا علمنا أن واجبنا هو أن نعطي الأطفال الفرص الكافية لكسب هذا النوع من الخبرة دون أن تظهر مشكلة تعارض القيم التى أشرنا إليها •

بعض الظروف التى تعارض ميل الطفل الى اللعب :

يلاحظ أن سكان المدن الكبيرة صارت أغلب بيوتهم وشوارعهم غير صالحة للعب الأطفال ، فقد حدث فى البيوت — وبخاصة فى المدن — تطور كبير أساء الى الأطفال أكثر مما أساء الى الكبار • فالمنازل — كما عهدناها قديما — كانت متسعة ، كبيرة الغرف ، كبيرة الأفنية قليلة الأثاث • وكان الأطفال يشعرون فى هذه المنازل بالحرية والمرح • وكانت تكثر فى المنازل الحيوانات والطيور التى يلعب معها الطفل ، ويكسب من اتصاله بها خبرات عدة كلها على جانب كبير من الأهمية • واذا لم يكن بالمنزل فناء فقد كان فى أعلى المنزل سطح متسع تربي فيه الحيوانات وتكثر فيه أدوات اللعب • وكان فى كل ذلك فرص لتوجيه النزعات الغريزية المختلفة توجيهها سليما بعيدا عن مواقف التخرج التى يخشاها الآباء عادة ، وخاصة فيما يتعلق بالثقافة الجنسية • أما فى الوقت الحاضر فقد حلت العمارات فى المدن الكبيرة محل البيوت المعروفة • وصار المسكن الحديث عبارة عن أربع غرف تقريبا ، وكل غرفة منها مزدحمة بالأثاث القابل للكسر ، وغير القابل للمس أو النقل ، وتوجد فوق ذلك عشرات الأدوات البراقة الجذابة التى يسهل كسرها ولا يجوز للطفل لمسها ، وليس للطفل عادة مكان للعب أو الحركة ، فإن دخل غرفة ما فهو مقيد مراقب ، واذا تسلق كرسيه ضرب ، واذا أمسك بزهرية منع • وهكذا صار الطفل غريبا فى منزله ، وصار ثقيلًا على أمه وأبيه • وزيادة على ما تقدم فالطفل لا يمكنه أن ينزل الى الشارع فهو صاحب بالحركة ملئ بالخطر ، ولا يمكنه أن يذهب الى أعلى العمارة فهو ملئ بالخدم ولا يؤمن عليه معهم •

فيجب على الأقل أن تخصص كل أسرة غرفة للطفل ، أو على الأقل ركنًا للأطفال يفعلون فيه ما يشاءون من لعب وحركة وتجريب وتخريب

وتمثيل... وغير ذلك. ويجب أن يتعود الأطفال أن يستعملوا لهذه الأغراض غرفتهم دون أى جزء آخر من المنزل ، ويزود الأطفال فى غرفتهم هذه بما يناسب سنهم من أدوات النشاط ، فيعطون الجرائد والمجلات القديمة ، ليقصوها فى شكل زخارف ، أو لقص صورها ولصقها فى شكل مجموعات . ويعطون سبورة و « طباشيرا » وصلصالا ، وصندوقا خشبيا مملوءا بالرمل النظيف وبضعة مكعبات وبعض اللعب الفارغة ، وغير ذلك مما لا يكلف كثيرا ويساعد على خلق مجال كبير لنشاط لذيذ منتج واسع المدى . وإذا انشغل الأطفال بنشاط لذيذ يلائم سنهم وقواهم العقلية والجسمية كانوا أقرب الى الهدوء منهم الى القلق والغوغاء ، وأمكن الآباء اذ ذاك أن يتحملوهم ، بل يشاركوهم نشاطهم .

ازاء هذا التغير فى طرق المعيشة يتحتم العمل الجدى على اقامة منشآت للأطفال — بل مدن للأطفال ، كما حدث فى سويسرا نتيجة للحرب العالمية الثانية— حيث يتمكنون من تصريف نشاطهم تصرفا مفيدا لنموهم وشعورهم بالسعادة . ولهذا قطعت الأمم الأوروبية أشواطا بعيدة فى تنظيم الحدائق العامة للأطفال وتزويدها بكل ما يهيئ للنشاط المنظم المفيد ^(١) . وقطع بعضها أشواطا بعيدة كذلك فى انشاء أندية خاصة للأطفال ودور للحضانة . وبما يجعل انشاء مثل هذه المؤسسات ضروريا قلة عدد الأطفال فى الأسرة الواحدة وشعور الأطفال بالحاجة الملحة للعب والتعامل مع أطفال آخرين وكذلك انشغال الأم الحديثة بالعمل اما داخل المنزل أو خارجه ، وعدم صلاحية المساكن الحديثة لنشاط الأطفال بحال من الأحوال .

عوامل التخريب :

عرفنا مما تقدم الأسباب العادية المباشرة والظروف العامة التى يمكن أن يعزى اليها الاتلاف على وجه العموم ، وتقيدنا معرفتها فى دراسة الحالات الفردية . ولكننا عند دراستنا لطفل مخرب ، كثيرا ما نجد أن التخريب ناشئ من زيادة النشاط الجسمى زيادة بارزة ، مع عدم توافر المسالك المنظمة

(١) أثبت الأستاذ « بيرت » فى كتابه (The Young Delinquent) أن جرائم الأحداث فى لندن تزيد حيث تقل مساحات الحدائق العامة التى يسمح للأطفال فيها باللعب ، وتكثر حيث تقل مساحات هذه الحدائق .

لتصريف هذا النشاط • قفى بعض الحالات نجد اختلالا فى الغدة الدرقية أو فى الغدة النخامية • مثال ذلك حالة كان الولد فيها ناميا جدا وعنده جميع أعراض زيادة النشاط فى بعض افرازات النخامية • بالإضافة الى هذا كان متأخر الذكاء جدا • والواقع أن جسمه ونشاطه كانا فى مستوى جسم ونشاط ولد كبير السن لا يقل عمره عن عشرين سنة بينما عقله فى مستوى عقل طفل عمره عشر سنوات • فلم يكن له من الذكاء ما يعينه على توجيه نشاطه توجيهها يتفق ومظهره • كان مغربا جدا ، إذ أتلف كثيرا من أثاث المنزل الفاخر • وكان كثير التخريب والتكسير للأدوات الدقيقة الموجودة فى المنزل • وفى حالة أخرى كان الولد متأخرا فى ذكائه ، إذ أنه كان فى الثانية عشرة من العمر ، وذكاءه كان فى مستوى ذكاء ولد عادى عمره أربع سنوات وكان الولد موفور النشاط نحيف الجسم حاد التقاطيع ، له عيانان براقتان غير مستقرتين فى محجريهما • ولما أجرى عليه اختبار (Basal Metabolism Test) وجد ما يدل على ازدياد نشاط غدته الدرقية وكان الولد شديد التخريب الى حد يصعب تصوره • وسبب ذلك أن لديه نشاطا كبيرا لا يتمكن مع ضعف عقله من حسن استغلاله • ومما زاد الحالة سوءا أن الأسرة تعيش فى مسكن ضيق مملوء بالأثاث الفاخر فى جهة مزدحمة جدا بالمباني المتراسة بعضها بجوار بعض • والجهة خالية من الحدائق العامة التى يصرف فيها الأطفال عادة كثيرا من نشاطهم • وقد لاحظنا أن أغلب المتأخرين جدا فى الذكاء إذا كانوا نشطين فانهم يكونون عادة مغربين ، لا سيما إذا كانوا من أسرة متوسطة أو غنية ، وإذا كانوا يقطنون معهم فى المدينة •

نلاحظ كذلك فى بعض الأحيان كثرة حوادث الاتلاف من الخدم وهم فى دور المراهقة ، حيث يزداد نشاطهم العام بنشاط غدهم الجنسية ، ويزداد نموهم • ويتميز دور المراهقة كما قلنا ، ببعض الرعونة فى الحركة وبعض النقص فى التناسق الحركى • وتكثر الحوادث فى المراهقين بنوع خاص إذا كانوا أقل ذكاء من العاديين •

فمن الواجبات الأولى عند فحصنا حالات التخريب الشاذة أن ندرس ما يمكن أن يكون هناك من الأسباب الجسمية التى يصح أن يترتب عليها تهيج عام • هذا التهيج أو العصبية أو نقاد الصبر • أو ما الى ذلك قد يكون

نتيجة مباشرة للحالة الجسمية أو نتيجة غير مباشرة لها • فضعف الحيلة الناشئ عن قصور جسمي قد تنشأ عنه نزعات هدمية تخريبية •

وقد يظهر التخريب نتيجة لعوامل انفعالية مكبوتة ، كما تظهر الأعراض العصبية المعروفة ، كقضم الأظافر ، أو التبول اللاإرادي ، أو ما إلى ذلك • فأحيانا نجد واحدا أو أكثر من العوامل الآتية وهي : الغيرة أو كراهية السلطة الضاغطة غير المعقولة ، أو الشعور بالنقص أو غير ذلك • وبذلك يصير التخريب مظهرا من مظاهر الانتقام أو إثبات الذات •

ومن أمثلة ذلك حالة لبنت في سن السابعة كانت مخربة جدا ، فكانت تفتح صناديق الحديد حتى تفرقها اغراقا • وكانت أحيانا تقطع الأزهار في الحديقة — وهي كبيرة — من أولها إلى آخرها • وتتلغ الزرع اتلافا واضحا • وقد خدشت ظاهر (البيانو) بقطعة من الصفيح • هذه كلها لا تخرج عن كونها نماذج قليلة لسلوكها • وكانت لها فوق ذلك مشكلات أخرى سبق أن أشرنا إليها •

والبنت تعيش بمنزل خالتها التي تزوجت بجدها لأبيها ، وليس للجد والخالة أطفال • فتعلقت الخالة بالبنت وأحببتها وأخذتها من أمها • فيحتمل أن يكون التخريب أسلوبا لا شعوريا للانتقام من الخالة باتلاف ممتلكاتها ، ويحتمل أن يكون مظهرا لعصبيتها وتضايقها لفصلها عن اخوتها ، ولأنها تعيش في جو غير طبيعي بالنسبة لها ، إذ هو خال من الأطفال ، بعيد عن والديها • ويحتمل أن يكون السببان مجتمعين هما اللذان يرجع إليهما هذا السلوك (حالة ص ٢٩٣) •

وكثيرا ما يحدث التخريب بصورة عامة فيتجه لممتلكات الشخص أو ممتلكات غيره بدون أي تفرقة ، أو يحدث بعد تحويل الانتعال المصاحب له أن تجد تلميذا يخرب ممتلكات اخواته في البيت بعد عودته من المدرسة التي كانت تضيق عليه طول النهار • وكثيرا ما نجد تلاميذ يخربون في المدرسة مثلا ، وبالباحث نجد أنهم تعساء في المنزل اما لعدم التوافق بين والديهم ، أو لعدم وجود الأم بسبب الوفاة أو الطلاق ، أو لسوء المعاملة التي يلقاها في المنزل ، أو ما يشبه ذلك •

ولتوضيح ما تقدم نلخص احدى حالات الدكتور «توم»^(١) ، وهى بنت كانت فى العاشرة من عمرها • حالتها الصحية جيدة ومستوى ذكائها وتحصيلها فوق المتوسط ، وسلوكها فى المدرسة حميد • وقد أرسلت له بسبب ميلها الشديد الى التخريب والعناد ؛ ففى أثناء الشتاء تفتتح صنابير المياه الباردة فى خزان المياه الساخنة ، أو تفرغ الخزان مما به من مياه ساخنة ، وأتلفت (البيانو) ، وكسرت ألواح (اسطوانات) موسيقية ثمينة ثم أخفتها ، وكانت تعبث بكل ما فى المنزل من أثاث ، وتعبث بالمنزل نفسه فتتلف حيطانه وأثاثه مياحه •• الى غير ذلك • وبدراستها وجد أنها البنت الكبرى لخمسة أخوة ولم يظهر سلوكها بهذه الصورة الا بعد وفاة أمها • والوالد رجل مشغول جدا فى عمله ، وقد حاول بكل ما فى وسعه أن يهيئ أسباب الراحة لأولاده بعد وفاة زوجته • ولكن يلاحظ أن الزوجة كانت قد بذلت جهدا كبيرا حتى تمكن الوالد من توفير المال اللازم لبناء البيت وتأثيثه • فكانت تعمل بنفسها حتى تستغنى عن الخدم ، وكانت تحرم نفسها من الغذاء والملبس ، ومن شراء الدواء حتى تدخر شيئا من المال لبناء البيت • وبعد أن بنى البيت كانت قد مرضت واشتد عليها المرض ، وبعد أن انتهى الوالدان من تأثيثه ماتت الأم •

وكانت الأم تبالغ فى توضيحيتها لدرجة جعلت الأولاد يشعرون بجسامة هذه التوضيح ، وصار البيت بعد وفاة الأم مرتبطا فى ذهن البنت بفقد والدتها • فكان البنت بسلوكها كانت تنتقم من البيت الذى تكرهه كراهية مكبوتة ، ويدعم ذلك الاستنتاج اقتصار سوء سلوكها على المنزل دون المدرسة •

كانت هذه احدى الحالات التى بذل فيها المعالج جهدا كبيرا ، ولكنه لم ينجح لعدم تمكن الوالد من تنفيذ جميع التعليمات التى أعطيت له • ونعتقد أن نجاح الحالة كان ممكنا لو أن الدكتور «توم» لجأ الى طريقة التحليل النفسى ، وهى طريقة لا تتفق مع مبادئ المدرسة التى ينتمى هو اليها •

(١) D. Thom: Everyday Problems of the Everyday Child, p.185

ومن حالات محكمة الأحداث التي قمت بدراستها بضع حالات من هذا النوع نجد فيها مثلاً أن الأم قد ماتت أو مرضت فتزوج الأب غيرها ، فيقوم الحدث بمحاولة احراق المنزل ، أو باتلاف بعض الأشياء لا سيما ما تملكه زوجة الأب • وهذا النوع من السلوك كان يصدر غالباً من الفتيات ، كما في حالة الدكتور «توم» السابقة الذكر • ولعل الأفعال الأساسية غير مكتوبة •

التدمير وعقاب الذات :

رأينا فيما تقدم أن التخریب يمكن أن يكون عرضياً في أثناء لعب الأطفال وحركتهم وكشفهم للعالم المادى وكسبهم للمهارات الحركية المختلفة ، ويمكن كذلك أن يكون مقصوداً للتجريح أو للانتقام • وتكون دوافعه أحياناً شعورية وأحياناً لا شعورية • ويلخص بعض علماء النفس هذه الاتجاهات في أن التخریب يكون للمخاطرة والبحث عن الخبرة ، ويحدث أحياناً أن يكون التخریب بدافع لا شعورى نحو الانتقام ، وفي هذه الحالة يترتب عليه شعور باللذة والارتياح •

وهناك اتجاه ثالث لم نشر اليه وهو التدمير الذى يتجه للذات أو لممتلكاتها أو ما يشبه ذلك • فيلاحظ أن بعض الناس يقطعون كراسياتهم ، ويتلفون ملابسهم ، كأنهم يفعلون ذلك عمداً ، ويصل بعضهم في عض أصابعهم لدرجة الإدماء ، وبعضهم يأكلون المواد الحريفة بكثرة كأنما يعذبون أنفسهم • فهناك ميل عند بعض الأشخاص الى تعذيب الذات أو عقابها يبدو في مظاهر متعددة منها ما ذكرناه ، ومنها تبديد الممتلكات وتبديد النقود والاسراف الشديد • ومنها ركوب المخاطر بصورة لا يمكن أن ينجو الواحد منها الا عن طريق الصدفة ، كالاسراع الشديد في قيادة العربات والدراجات ، وفي عبور الشوارع وما الى ذلك ، ومنها تعذيب الجسم ومجاهدة النفس ، ومنها الانتحار نفسه أحياناً •

هذا الميل الى تعذيب الذات يكون — كما قلنا — من بين أعراضه اتلاف الممتلكات • ومنشؤه اما شعور مكبوت بالخطيئة ، أو كراهية للذات • وتنشأ الكراهية للذات عادة من كراهية السلطة • وهذه الكراهية للسلطة

لا يمكن عادة مواجهتها والتعبير عنها ، فيعكسها الشخص على نفسه فيكره نفسه ويقضى عليها اما قضاء جزئيا أو قضاء تاما .

لهذا نرى أن التخريب يكون أحيانا من مظاهر النزعات الاعتدائية الموجهة ضد الغير أو ضد الذات ويكون خارجا عن ارادة الشخص خروجا يكاد أحيانا يكون تاما .

ونلخص كل ما تقدم في أن التخريب في حالاته العرضية والمقصودة قد يكون لكسب المهارة وكسب الخبرة المصحوبين بسوء تقدير القيم وبانعدام التوافق الحركى ، وقد يكون لكسب اللذة ، وقد يكون للبحث عن الألم . وهذا البحث عن الألم لاشعورى خارج عن تحكم الارادة . ويلاحظ أن العنصر اللاشعورى ليس هو الألم نفسه ، وانما هو الرغبة في ايلام الذات . ونرى بذلك أيضا أن كثيرا مما قيل في التدمير يمكن أن يضم الى الفصل السابق الذى يبحث في النزعة للاعتداء .

خاتمة :

يتبين مما تقدم أن التخريب في ذاته لا تهمنا دراسته في كثير ولا في قليل فهو لا يخرج عن كونه عرضا لعلّة أخرى . وانما المهم هو الدوافع ومصادر النشاط التى تؤدى الى ظهوره ووظيفة هذا النشاط . فاذا تبينا أن مصدره الثورة على البيئة فعلينا ازالة أسباب هذه الثورة من أساسها في كل من البيئة والشخص . وان كان مصدره الميل للمعرفة فعلينا أن نوجه هذا الميل وجهة تفيد الطفل ، ولا تتعارض مع رغبتنا في المحافظة على ما نملك . واذا تبينا أن مصدره ازدياد النشاط الجسمى ، وعدم تكافئه مع المستوى العقلى ، فعلينا أن نشغل الشخص في عمل يحتاج الى جهد جسمى أكثر مما يحتاج الى جهد عقلى . وعلينا أن نذكر الآباء بأنهم في محاولة جعل أولادهم هادئين ساكنين قليلى الحركة ، قد يسلبونهم مفاتيح المعرفة ، وأساليب التعلم ، ويسلبونهم وسائل انماء روح العمل ويحولون بينهم وبين تحقيق ذاتياتهم والثقة بأنفسهم . فيجب أن يقوم الآباء باعطاء أبنائهم — كما ذكرنا — فرصة النشاط المنتج . وبذلك ينمو تناسقهم الحركى ، وينمو فهمهم للعالم المحيط بهم ،

ويزيد استقرارهم ، ويقل تخريبهم ، ويزيد انتاجهم • ويجب أن يفكروا مليا قبل اختيار اللعب لأطفالهم • وخير الألعاب هي ألعاب الحل والتركيب التي تختار لتناسب السن • وكثير من اللعب الخاصة بالحل والتركيب التي تباع في الأسواق تلائم الكبار أكثر مما تلائم الأطفال • وأما اللعب الميكانيكية فهي لا تسمح عادة للطفل بنشاط كاف الا ان خربها • واللعب الميكانيكية يفرض فيها عادة ادارتها ، ثم تركها تجرى ، والتسلّى برؤيتها • وعملية التسلى — ولو أنها ليست في نظر علماء النفس سلبية صرفة — أقل في الايجابية من عملية النشاط التي تبرز فيها فاعلية الطفل • فلتكن اللعب اذن على وجه العموم مما يسمح بحركة الطفل ونشاطه وفاعليته على مدى واسع يتوافر فيه الانتاج المحسوس •

ومن الخطأ أن يوضع تحت تصرف الطفل لعب كثيرة • فهذا يقلل من قيمتها ويزهده فيها بسرعة ، ويجعله مهملا في استعماله اياها • فاذا كثر عدد اللعب ، فيصح أن يعطى لعبة أو اثنتين في الوقت الواحد ، وأما الباقي فيحفظ • ويصح أن يستبدل بما معه ما هو محفوظ ثم يعود اليه مرة أخرى ان شاء • وبذلك تحتفظ اللعبة باشتياق الطفل اليها • ويلاحظ أن للطفل عادة في اللعبة الواحدة في كل مرة وجهة نظر جديدة ؛ لا سيما اذا تباعدت الفترات التي تعطى له فيها •

واذا لوحظ في بعض الأطفال ميل الى الألعاب العنيفة فيجب اعطاؤهم كل فرصة لهذا حتى يمكن دراستهم عن طريقها ، ويمكن توجيههم توجيهها منتجا ، وحتى يقل — نوعا ما — ضغط الدوافع وحالات التوتر التي تجعل هذا العنف ملحا في غير الوقت المناسب •

ونكرر هنا ما سبقت الاشارة اليه ، وهو أن الغرض من معالجة موضوع التخريب بهذه الطريقة ليس امدادا للآباء بأساليب محدودة لمعالجة أطفالهم ؛ وانما المقصود خلق اتجاه في معاملة الأطفال يبنى على فهم علاقة تصرفات الأطفال ببيئاتهم • وفي ضوء هذا الفهم يمكن أن يتجه الآباء والمربون اتجاها سليما •

المراجع

- Blanton : Child Guidance.
S. Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Hutchinson : Motives of Conduct in Children.
Kanner : Child Psychiatry.
Lane : Talks to Parents and Teachers.
Miller : Advances in Understanding the Child.
Miller : The Growing Child and its Problems.
Neill : The Problem Child.
Patri : Child Training.
Russell : On Education.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الثالث والعشرون

الغيرة

معنى الغيرة

سبق أن أشرنا الى الغيرة كأحد العوامل الهامة في كثير من المشكلات ، فذكرناها عند التكلم عن التخريب ونوبات الغضب والنزعات الاعتدائية والتبول اللاارادى وضعف الثقة بالنفس... وغير ذلك . والغيرة كما نعلم ليست سلوكا ظاهريا ، وانما هى حالة انفعالية يشعر بها الفرد ، ولها مظاهر خارجية يمكن الاستدلال منها أحيانا على الشعور الداخلى ، وفى غالب الأحيان لا يكون هذا سهلا ، لأن الشخص فى العادة يحاول أن يخفى الغيرة باخفاء مظاهرها قدر جهده .

ولعل كل واحد قد شعر فى وقت ما بالغيرة شعورا خفيا أو حادا . وهناك أناس يتعرضون لهذا الشعور أكثر من غيرهم . وهو شعور مؤلم ينتج عادة من خيبة الشخص فى الحصول على أمر محبوب ، كشخص أو مركز أو قوة أو مال ، ونجاح شخص آخر فى الحصول عليه . لهذا نجد أن انفعال الغيرة انفعال مركب من حب تملك ، وشعور بالغضب لأن عائقا ما وقف دون تحقيق غاية هامة . ولا يعترف الفرد عادة بالغيرة ، وسبب هذا ما تتضمنه من الشعور بالنقص الناتج من الاخفاق . بل كثيرا ما تكبت الغيرة لأن النفس الشعورية لا تقبل ألم الخيبة ولا شعور النقص .

إذا طبقنا ما تقدم على الغيرة فى موقف ما كغيرة زميل من آخر تفوق عليه ، نجد أن من يشعر بالغيرة يشعر بعدم حيازته ، أو بعدم قدرته على حيازة المركز الذى ناله زميله ، ويكون مع شعوره بالخيبة والضعف شاعرا بالغيب من نفسه ، أو من زميله ، أو منهما معا . ويكون عنده شوق —

وان كان خفيا — للحصول على ما نال الزميل ، ويقوم صاحب الغيرة عادة باتهام الزميل أو اتهام الظروف أو اتهام سوء الطالع ... أو ما الى ذلك • والغيرة نشعر بها عادة دفعة واحدة ، فهي افعال مركب له خصائصه ، وهو ليس مجموعا حسابيا للاتفاعلات الثلاثة التي ذكرناها ، مثل الغيرة في ذلك مثل المثلث الذي لايمكن أن يوصف بأنه مجموع ثلاثة مستقيمات ، ومجموع زاويتين قائمتين وانما هو مثلث به صفة المثلثية ، وهي صفة ليست موجودة في المستقيمات ، ولا في الزوايا ، ولا في رءوس المثلث •

كذلك افعال الغيرة لا يعتبر أنه غضب مضاف اليه حب تملك ومضاف الى هذين شعور بالنقص ، وانما هو أكثر من ذلك • هذا مع امكان ذكر بعض عناصره كما في حالة المثلث •

ونظرا لتعدد الغيرة نجد أن مظاهرها متعددة يختلف بعضها عن بعض اختلافات بينة ، ولكنها مع اختلافها هذا فقد يفصح كل منها عن مركب من مركبات الغيرة • فمن مظاهر الغيرة الغضب بمظاهره المختلفة من ضرب ، أو سب ، أو هجاء ، أو تشهير ، أو نقد ، أو مضايقة ، أو تخريب ، أو ثورة ، أو عصيان ، أو ما يشبه ذلك • ومن مظاهرها كذلك الميل للصمت ، أو التجهم ، أو الابتعاد ، أو الانزواء ، أو الاضراب عن الأكل ، أو فقد الشهية ، أو التسليم ، أو النكوص ، أو الشعور بالخجل ، أو شدة الحساسية ، الى غير ذلك من مظاهر الشعور بالنقص • وقد تبدو الغيرة في محاولة الطفل الحصول على ما فقدته بمختلف أساليب التحايل • ومن هذا النوع أن يقوم الأولاد أحيانا بتقيل المولود وملاطفته حتى يحتفظ الأكبر بمركزه عند أمه • وبعض الأولاد يتخلقون بأحسن الخلق حتى يرضوا الكبار الذين بدءوا ينصرفون عنهم أو يميلون لغيرهم • وقد يكون السلوك تعويضا للشعور بالنقص ، وذلك بمحاولة الظهور بمختلف الأساليب • وكثيرا ما يكون للغيرة مظاهر جسمانية ، كنقص الوزن والصداع والشعور بالتعب • وهذا التنوع الكبير في أساليب الغيرة من سلوك سلبي الى ايجابي ، ومن سلوك رديء الى سلوك طيب ، يجعل كشف الغيرة أمرا صعبا •

ومما يزيد في صعوبة كشف الغيرة كتبها أو تحويلها • فمظاهر الغيرة بدل أن تتجه نحو المولود ، قد تتجه نحو أى شئ آخر في المنزل • ومن الحالات التي ذكرها الدكتور « توم » في كتابه الذي أشرنا إليه أن بنتا مرضت لها أخت فانصرفت الأم عن بقية من في المنزل الى الأخت ، فقامت البنت بعمليات تخريب عنيفة موجهة نحو حديقة المنزل وأثاثه دون أن يشعر بها أحد •

الغيرة والثقة

ويلاحظ أن كل حالة غير تتضمن درجة من ضعف ثقة المرء من حيث مركزه في البيئة ، ويعبر عن هذا بطريقة أخرى وهي ضعف ثقة المرء بالبيئة • لنأخذ غيرة الأزواج كمثال ، فإن كان أحد الزوجين على ثقة تامة بالآخر ، فإن احتمال ظهور الغيرة يكون قليلا • كذلك الأمر إذا كان المرء شديد الثقة في نفسه • ونجد أن الموقف الواحد يؤدي مع بعض الأزواج الى غيرة شديدة ومع بعضهم الآخر الى غيرة خفيفة ، أو الى لا شئ ، فكأن نوعا من الخوف الاجتماعي أو من قلة الثقة بين الطفل ومن حوله يكون عاملا مساعدا على ظهور الغيرة في الموقف المناسب • وهذا بعينه ينطبق على جميع أنواع العلاقات بين الأطفال والكبار مثلا ، أو بين الرؤساء ومرءوسيه ، أو بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ، أو بين الأفراد والحكومات • • • أو غير ذلك • فالنقص الناشئ من موقف الغير نحو الشخص وضعف الثقة بالنفس — الذي يمكن ارجاعه آخر الأمر عادة اما لنقص ذاتي أو لخيبة متكررة أو لموقف الغير نحو الشخص — يجعله في العادة متهيئا للشعور بالغيرة عند اجتماع الظروف الكافية لذلك •

وأقصى أنواع الغيرة هو ما ينشأ عن شعور بالنقص مصحوب بشعور بعدم امكان التغلب عليه ، كنقص في الجمال أو نقص في القدرة الجسمية أو الحسية أو العقلية • لهذا نجد أن المعرضين للغيرة معرضون للشعور بالنقص ، كما أن المعرضين للشعور بالنقص معرضون أيضا للشعور الشديد بالغيرة • وتكون كل من الغيرة والشعور بالنقص حلقة متصلة الأجزاء يؤثر كل جزء منها في الآخر •

كيف تنشأ الغيرة

لعل أهم أسباب الغيرة أن يشعر الشخص بحقه في امتياز معين (اجتماعي في العادة) ، أو أن يحصل عليه بالفعل ، ثم يفقده كله ، أو يفقد جزءا منه ،

ليحصل عليه شخص آخر . فالذى يشعر بأنه يستحق شهرة معينة ، ولا يحصل هو عليها ؛ وانما يتمتع بها شخص آخر ، يشعر بالغيرة . والاستعداد للغيرة فى الكبار ينشأ فى سنى الطفولة الأولى . وتظهر الغيرة فى حياة صغار الأطفال فى سنواتهم الخمس الأولى عن طريق المصادفة ، أو عن طريق التنشيط المقصود من الكبار المهيمنين عليهم .

ويلاحظ أن الطفل فى أول حياته تجاب له عادة كل طلباته ، ويستمرعى فى العادة انتباه الجميع ، ويسلم بعد مدة قصيرة ، بأن كل شئ له ، وكل جهد له ، وكل انتباه له . ولكن الذى يحدث هو أن العناية التى كانت تستغرق كل جهد الكبار قد تنحصر عنه فجأة أو بالتدريج كلما نما . وقد تنتج هذه العناية الى مولود آخر أو الى شخص آخر فى الأسرة . هذا التغير قد يترتب عليه فقد الطفل ثقته فى بيئته ولا سيما فى أمه ، وفقدته الثقة فى نفسه تبعاً لذلك ، اذ يشعر بأنه غير مرغوب فيه . وبذلك يبدأ شعوره بالقلق ، وشعوره بالكراهية لبيئته ، والميل للانتقام منها أو الابتعاد عنها ، أو شعوره بالنزوع الى سلوك يترتب عليه جلب العناية اليه مرة أخرى ، كال بكاء ، أو التبول اللا ارادى ، أو المرض .

وكما كبرت الامتيازات التى تعطى لطفل ما ، زادت الغيرة عند انقاصها منه واعطائها لطفل آخر . ولذلك كان الطفل الذى يتمتع بامتياز معين ، هو أكثر الناس استعدادا للشعور بالغيرة ، وذلك كالطفل الأول أو الأخير أو الوحيد ، أو الذكر الأول أو من يشبه ذلك من الأطفال الذين يحتلون مركزا يعطيهم فرصة التمتع بامتياز واضح .

كذلك يغار الطفل أحيانا اذا وجهت الأم الى والده عناية فائقة . وذلك لأن الطفل فى سنواته الأولى كان يتمتع — كما يبدو له — بعناية أمه كلها ، ثم يلاحظ أن الوالد يأخذ كثيراً من هذه العناية ، فتبدو عليه علامات الغيرة ، واضحة أو غير واضحة . ويحدث أحيانا أن يتغيب الوالد عن المنزل مدة طويلة ، وبمجرد عودته تنصرف الأم اليه بكلياتها وجزئياتها فيغار الطفل . والغيرة من الأب سببها أنه ينازع الطفل المركز الذى يرغب فيه لنفسه عند

الأم • والسبب في أن غيرة الأخ من أخيه أكثر ظهوراً من غيرته من أبيه يرجع الى الكبت الناشئ عن التقاليد الاجتماعية ، والصراع بين حب الوالد (الذى يطعم ويكسو) من ناحية ، والغيرة منه من ناحية أخرى • ويمكن أن تدخل الغيرة من الوالد تحت النوع الناتج عن الشعور بالنقص المصحوب بشعور بعدم امكان التغلب عليه •

وتدل دراسة الحالات على أن كثيرا من الحالات الشاذة التى تتصف بالقلق والاضطراب الجنسى والتعرض للغيرة الحادة يرجع ما بها من اضطراب الى الغيرة مما يلمسونه من المواقف الجنسية بين الوالدين • وهذا يحدث بنوع خاص عند الأطفال الذين ينامون مع أمهاتهم ، والذين يلحظون أحيانا ما يحدث بين الوالدين من مغازلة أو اتصال جنسى يعتقد الوالدان أنهما غير ملحوظين فيه ، لأن الأطفال عادة يتغافلون أو يتناومون في هذه المناسبات

وتحدث الغيرة كذلك من الموازنة الصريحة أو الضمنية ، وتقصد بالضمنية أن الجو نفسه يوحى بالموازنة ، وبتفضيل واحد على الآخر • تؤدي هذه الموازنات سواء في المنزل أو في المدرسة الى الاضرار بالنقص ، واضعاف الثقة بالنفس لدرجة تجعل الشخص عرضة لهذا الشعور • وتقوم الموازنات عادة حول جمال الخلقة أو القدرة العقلية أو القدرة الاجتماعية ، أو ما الى ذلك مما قد لا يجد الطفل لنفسه حيلة في التغلب عليه •

بعض الحالات

حالة لطفل وحيد — سبق أن أشرنا اليها — كان واقفا بجانب أمه وزارهم بعض الضيوف ، فحملت الأم ابتهم لتقبلها ، فما كان منه الا أن صرخ ، وشد ملابسها ، فحملته فتبول عليها في الحال • والتبول هنا يحتمل أن يكون انتقاما للغيرة تم غالبا بحيلة لاشعورية •

وحالة أخرى لبنت في السادسة والنصف ، بقيت وحيدة مدة خمس

سنوات ، ثم ولد لأبويها طفل ذكر • والأب رجل هادئ يدلل البنت تدليلاً شديداً ، وأما الأم فانها سيدة ضعيفة لا سلطة لها على أولادها ، وهي تترك أغلب العناية بأولادها للوالد ، وحالتها العصبية سيئة • تتصف البنت بشدة الحساسية ، وتشتت في الانتباه ، وتأخر في الدراسة على الرغم من ارتفاع ذكائها ، وهي تحلم بالليل أحلاماً مزعجة بصوت مرتفع ، وتدور أغلب أحلامها حول أخيها ، ويصفونها بالغيرة والحقد في المدرسة والمنزل • ومن المحتمل جداً أن يكون أساس مشكلة البنت غيرتها من أخيها •

وحالة أخرى لطالب في الدراسة العليا عمره أربع وعشرون سنة لا ينجح في كل عام الا في امتحان الدور الثاني ، وشعر في إحدى المرات بتوعك قبل الامتحان ، فقرر ألا يدخله • يلاحظ أن المرض هنا ربما كان حيلة دفاعية من حيل اللاشعور وظيفتها حمايته من دخول الامتحان • وقد نجح جميع من دخلوا الامتحان اذ ذاك فتألم الطالب جداً ، ولم يقو على مقابلة من تقدموا عليه ، وظهر عليه بعد ذلك عدم الاهتمام بالدراسة ، ولم يذهب الى كليته ، وصار شغله الشاغل أن يردد : «وما قيمة التعليم؟» ، «أن زملائي أصبحوا أحسن مني ؟» ، وصار شديد التبرم والحقن ، شديد الاحتقار للناس أجمعين ، يعلن أن معاشره الناس لا قيمة لها لسوء خلقهم ، وانحطاط عقلياتهم • وخير له أن يتعد عن معرفهم ، ويعيش بمفرده بعيداً عن هذا العالم • يلاحظ من هذا أنه يسقط شعوره بالخيبة على الناس ، أما هو فانه أرقى الناس جميعاً ، وأحسن منهم عقلاً وخلقاً ، وهم لا يستحقون معاشرته اياهم • وحتى التعليم نفسه لا قيمة له • فهو لا ينسب انعدام القيمة لنفسه ، وانما ينسبه للتعليم ، وهذا أيضاً اسقاط • ثم صار كثير التدين ، يكثر من الذهاب الى مسجد سيدنا الحسين ، ويطلب أن تقرأ عليه الأوراد المختلفة ، ولعل في تدينه بحثاً عن الشعور بالطمأنينة الذي لا يشعر به في حياته الواقعية وفي علاقته بعالم الناس والعمل • وهذا الطالب هو

الابن الوحيد لوالديه ، ويجب دائما أن يكون قريبا من أمه ، الى حد أنه يقضى وقته دائما معها ، ولا يتركها الا قليلا . واذا جاءهم ضيوف فهو لا يجالسهم ، وانما يلزم أمه الا اذا اضطرت لمقابلة الضيوف ، وفي هذه الحالة ينتظرها على مضض الى أن تفرغ منهم .

وبعد حادثة الملحق التي أشرنا اليها ترك (البنسيون) الذي كان يسكنه في القاهرة ، واستأجر (شقة) واستحضر معه أمه وأباه ليعيشا معه في القاهرة . وبذلك تركا مصالحهما وتكبدا ثقات اضافية باهظة ، ومع كل ذلك لم يقو على الذهاب الى كليته . وفي مرة جلس معه أبوه يرجوه ، ويتوسل اليه أن يذهب الى الكلية ، والولد يقول انه لا يقوى على مواجهة من نجحوا وكانوا معه ، وأخيراً بكى الولد وترك المنزل ، وبكى الوالد وظل يبكى زمناً طويلاً .

يعتقد الوالدان أن « عين السوء » قد أصابت نجلهما . معنى ذلك أن ابنهما كامل من كل ناحية و « عين السوء » هي المسئولة عما هو فيه ، مما يترتب عليه أن الولد ينسج حول نفسه فكرة عظيمة جداً ، ويتهم كل من حوله بسوء النية وسوء الخلق . وبلغ من شدة اعتقادهما في الخرافات أن وقعا في شباك محتال يدعى أنه يحول النحاس الى ذهب ، وباعا في هذا السبيل أربعة أفدنة من عقارهما الذي لا يتجاوز أربعة وعشرين فدانا في مجموعه .

وهناك حالة أخرى شبيهة بالحالة السابقة كان الولد فيها شبيهاً بالوحيد، إذ أنه كان الذكر الأول ، وبعده عدة بنات وعدة فتيات ثم ولد . وكان الوالد يشتغل بحرفة تدر مالا كثيراً ، الا أن المجتمع لا ينظر اليها نظره الى حرفة راقية ، وكانت الأم تشعر لهذا بالنقص . ثم أرادت أن تربي ابنها في المدارس العادية ، وكانت مشغوفة بأن يعوض لها في نظرها النقص الذي

تراه فى زوجها • صلب هذا احتقارها واحتقار الولد بعد نموه للوالد •
نشأ الولد مدلا معظما محترما ، وكان اذا ركب فى امتحان بالمدرسة تعتقد
الأم أن المدرسين يقصدون رسوبه ، وكانت تعلن هذا وتعلن أمثاله من
التصريحات حول زملائه فى اللعب ، وزملائه فى المدرسة ، وبذلك نشأ
الولد وعنده فكرة عظيمة جداً عن نفسه • ولم يقطع فى تعليمه الا سنتين من
التعليم الثانوى ، واشترك بعد ذلك اشتراكا مشرفا فى عمل من الأعمال
الوطنية • وعزا كل خيبته بعد ذلك الى تضحيته فى سبيل الوطن • وبذلك
زادت فكرته عن نفسه عظمة على الرغم من خيبته فى الدراسة التى لم
يحاول إعادة مواصلتها • بعد ذلك شغل وظيفة حكومية ولكنه كان يقضى
كل وقته فى محاربة المؤامرات التى يتوهم أن أغلب زملائه يدبرونها ضده •
وبقى طول حياته متألما أشد الألم ؛ وخاصة كلما رأى غيره — ممن هم فى
نظره أقل منه — يتفوق •

الغيرة عند الطفل الوحيد

يتبين مما سبق أن الطفل الوحيد ينشأ بين أبويه وليس معه أطفال
آخرون يغتصبون امتيازاته ، وينمو محاطا بكل أنواع الرعاية ، فينشأ بفكرة
أنه مركز كل انتباه ، وينشأ أنايا اذ لم يعود من الحياة أخذاً وعطاء ، وحقا
وواجبا • فالحياة كما نشأ فيها أول الأمر كلها أخذ ، وليس فيها عطاء ، وكلها
حقوق وليس فيها واجبات • فاذا خرج الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد
عن دائرة والديه للعب مع الآخرين ، فانه يصدى ، لأن الأطفال لا يدعونه
يأخذ ولا يعطى ، ويعتدى ولا يعتدى عليه • فيحدث مثلا أن يضرب أو
تخطف لعبته ، فيجرب عادة الى أمه باكيا وهذه تضمه اليها ، وتسب الأولاد
الآخرين ، وتفهمه أنه رقيق الطبع ، حسن الخلق ، وأنه من طينة راقية غير
طينتهم • وأما الآخرون فانهم على درجة كبيرة من الشراسة ، وسوء التربية ،
وخير له ألا يلعب معهم ، وأن يمكث الى جانبها •

وبنفس الطريقة يخرج الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد الى المدرسة فيجد أن المعلمة لا تفرده بالتدليل ، بل أنها تعامل الجميع معاملة واحدة تقريباً . وإذا غلبه زملاؤه في لعب أو درس أو غير ذلك ، فهو كما تعلم من أمه له حسناته ونواحي رفته التي لا يعلمها أحد غيره هو وأمه . وهذا يكبر ، ويخرج الى الحياة ويجد أن مجال التمتع بامتيازاته معدوم ، ويقابل الخيبة بزيادة اعتقاده في عظمة ذاته ، وزيادة اعتقاده في سوء حظه في الحياة ومؤامرات الناس حوله ، وأثر عين السوء وما يشبه ذلك وهكذا تصاحبه تلك الحال طوال حياته ، وتخلق له من المشكلات ما يظهر أثره في ميدان الحياة الزوجية ومع أولاده وفي مهنته .

وهذه الحالات كلها يصحبها الانفعال المركب المسمى بالغيرة ، وهو — كما قلنا — مكبوت في غالب الأحيان ، ولذا لا يسهل دائماً تشخيصه . وسلوك الطفل الأخير من هذه الناحية يشبه في حالات كثيرة سلوك الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد . ويلاحظ أن الغيرة التي يشعر بها الطفل الوحيد، أو الشبيه بالوحيد عند خروجه للمدرسة أو للحياة أقسى وأشد من أى نوع من أنواع الغيرة التي تحدث داخل الأسرة .

الغيرة من المولود

يحسن بالوالدين تنظيم الحمل والولادة بحيث تكون الفترات الواقعة بين طفل وآخر لا هي بالقصيرة ولا بالطويلة ، أى أنها لا تكون قصيرة بحيث تحرم الطفل الموجود فعلاً من النمو الكافي ، ولا تكون طويلة بحيث يتمتع الطفل الموجود بامتيازات يصعب عليه التنازل عنها فيما بعد . ونعتقد أن فترة طولها من سنتين الى ثلاث أو أربع سنوات فترة معقولة . ويجب عند الحمل اعداد ذهن الطفل الموجود لما يتوقع حدوثه ، فقبل الولادة بمدة كبيرة ، يجب أن يقلل من الالتصاق بالأم ، ويجب اعداد ذهنه كذلك بأن تفهمه الأم بأنه سيكون له أخ صغير يلعب معه ، ويرعاه .

وكثير من الأطفال يلاحظون ظاهرة الحمل ، وقد ينزعجون للتغير الظاهر غير المفهوم . ويظن الآباء اذ ذاك أن الغيرة بدأت قبل حادث الولادة ، وبعض الأطفال يسألون الأم عن سبب التغير الظاهر ، فيجب على الأم أن تجيبه بهدوء بأنه يوجد بداخلها طفل صغير سيكبر ثم يولد بعد أن ينمو نمواً كافياً . ويكتفى الأطفال عادة بما يقال لهم اذا كان معقولاً صريحاً يلأثم عقولهم . ويصح أن تكمل هذه المحادثات بمحادثات أخرى ومشاهدات عن التوالد عند الطير والحيوان ، وتكون هذه المحادثات جزءاً أساسياً من التربية الجنسية اللازمة لصحة الفرد النفسية (١) . وبعد أن يولد الطفل لا يجوز إهمال الكبير واعطاء الصغير عناية أكثر مما يلزمه ، فيجب ألا يعطى المولود الا بقدر حاجته ، وهو لا يحتاج الى كثير . والذي يضايق الطفل الأكبر عادة كثرة حمل المولود وكثرة الالتصاق الجسمي ، الذي يضر بالمولود أكثر مما يفيده .

فواجبنا اذن تهيئة عقل الطفل الى حادث الولادة وكذلك يجب فطامه فطاماً وجدياً تدريجياً قدر الامكان ، فلا يحرم حرماناً فجائياً من الامتياز الذي سيفقد مثله على أخيه .

الغيرة بسبب الموازنة

نعلم بطبيعة الحال أن الأطفال يولدون باستعدادات مختلفة من حيث الذكاء أو النواحي المزاجية . وينشئون مختلفين اختلافات تكون أحياناً شاسعة . ويوازن الطفل نفسه عادة بغيره من اخوته من حيث الجنس (ذكر أو أنثى) أو من حيث السن (كما بين الصغير والكبير . فالأصغر يفار أحياناً من الأكبر لمجرد أنه أكبر منه) ، أو من حيث المقدرة ، أو من حيث الجمال الطبيعي ، أو غير ذلك . ولكن الخطأ هو في اهتمام الآباء

(١) انظر كتاب « قصة الحياة في جمع الاحياء » للدكتور القوصي والدكتور طنطاوي .

والمدرسين وأصدقاء الأسرة والمجتمع عامة بإبراز هذه الفروق واشعار الأطفال بأنها مهمة في نظر غيرهم • وتختلف درجات إبراز هذه الفروق اختلافات كبيرة ، وتختلف تبعاً لها النتائج المترتبة عليها من غير ، وحقد ، وغرور وغير ذلك •

فيجب على الآباء أن يقلعوا عن الموازنات الصريحة ، وعن خلق الجو الذي يشعر بالموازنة ويجب اعتبار كل طفل شخصية مستقلة لها مزاياها واستعداداتها الخاصة بها ، فاذا نجح طفل في عمل ما فيكفى أن يشجع عرضاً ، ولا يوازن بغيره • وكل طفل — مهما خاب — له ناحية طيبة يمكن كشفها وإبرازها ، والاعتزاز بها • وبذلك يمكن أن يزول الشعور بالخيبة المؤدى إلى الشعور بالذلة والنقص •

ومنعا للموازنات بين الأخ وأخيه أو التلميذ وزميله ، يمكن الموازنة بين الطفل ونفسه في أوقات مختلفة • فإن تقدم في وقت ما عما كان عليه في وقت سابق ، فهذا كاف لتشجيعه ، وإذا كانت المدرسة أو الأسرة تعنى بالهوايات ، فيحسن أن يكون لدى الأولاد هوايات مختلفة كالموسيقى والتصوير ، وجمع الطوابع ، وجمع عجائب الطبيعة من الحفريات ، وأنواع البيض ، وغير ذلك • وبذلك يتفوق كل في ناحيته ، ويوازن نفسه بنفسه • وإن اختار الأطفال هوايات متشابهة ، فيجب الامتناع عن الموازنة التي تقلل من قيمة بعضهم ، مما يجعلهم يكفون عن نشاطهم ، ويفقدون اهتمامهم به •

وتخطئ بعض الأسر بأن تعامل الابن معاملة تختلف اختلافاً تاماً عن معاملة البنت ، مما يخلق الغرور في الأبناء ، ويثير حفيظة البنات ، وينمى عندهن غيرة تكبت وتظهر أعراضها في صور أخرى في مستقبل حياتهن ، ككراهية الرجال عامة وعدم الثقة بهم وغير ذلك من المظاهر ، ومما يجعل الولد أيضاً معرضاً للغيرة عند خروجه للحياة •

وبعض الأسر يخطئ في اغداق امتيازات كبيرة على الطفل العليل كما حدث بالفعل في حالة معينة من احضار علب (الشيكولاته) ، والملابس الحريرية ، واللعب واعطاء النقود ، وغير ذلك مما لاعلاقة له بعلاج المرض نفسه . وهذا يثير الغيرة في الاخوة الأصحاء . وتبدو مظاهرها في تمنى المرض ، وكرهية الطفل المريض ، أو غير ذلك من مظاهر الغيرة الظاهرة أو المستترة . ويستنتج من هذا أنه لا يجوز اعطاء الطفل أى امتياز أكثر من العناية التى تتطلبها المرض ، وان كان المرض شديد الوطأة طويل المدة يتطلب امتيازات كثيرة بارزة ، فيجب أن يحرر الطفل تدريجياً من هذه العناية مع خروجه التدريجى من حالة المرض . وعلى هذا يجب ألا يعطى الطفل فى أى وقت من الأوقات امتيازاً يصعب عليه التنازل عنه فيما بعد ، أو يشعر معه غيره من أخوته بالظلم والتحيز البالغ .

خلاصة ما تقدم أنه يجب مهما كانت الفروق العرضية أو الدائمة بين الأخوة أو الزملاء ، فلا يجوز استثارة الموازنات مما يؤدى الى الغيرة . وهذا لا يمنع بالطبع من اجراء مباريات بين تلاميذ المدارس من آن لآخر مما يحفزهم لبذل الجهد ، ويخلق الفرصة أحيانا لتعويد التلميذ تقبل الخيبة المؤقتة بصدر رحب .

خاتمة :

يصح أن نلخص صفات الذى تغلب عليه الغيرة لنبين مبلغ الضرر الذى قد يحدثه الآباء والمدرسون باستثارة الأطفال بالموازنة الصريحة أو الضمنية فالغيرة شعور مؤلم جدا يجعل صاحبه قلقا ، ناقما ، تعباً لا يستريح لنجاح غيره ، وتجده فوق ذلك قليل التعامل مع الناس ، لا يسهل انسجامه معهم ، ولا يميل الى التعاون أو الأخذ والعطاء ، أنايا يهتم بحقوقه أكثر مما يلتفت لواجباته يميل أحيانا الى الانزواء والى نوع من الهجوم بالتشاجر أو النقد أو التشهير أو الايقاع بغيره . ويشعر عادة فوق ذلك بأنه مظلوم مضطهد سىء

الحظ ، وأن الناس يعملون عادة ضده ، مما يجعله قلقا مبالغا في الحذر من الناس والبعد عنهم •

وفي بعض الحالات ينتحل الشخص الغيران سلوكا طيبا ، ولكنه مع ذلك تجده يتصف ببعض الصفات السابقة الذكر •

ويلاحظ أن الأساس في الغيرة في أغلب الحالات — كما بينا — هو القلق والخوف وضعف الثقة بالنفس ، مما يجعل من الواجب الاتجاه دائما الى زيادة هذه الثقة بالنفس من مختلف النواحي زيادة تخفف من النقص وتقلل من صدمة الخيبة وتزيد من الأخذ والعطاء ، وتزيد من القدرة على التعاون الاجتماعي • وإذا تم هذا ، تم كسر الحلقة المفرغة التي تربط بين الغيرة وضعف الثقة •

وننبه الى وجوب اهتمام الآباء بالطفل الذي لا تظهر عليه الغيرة اطلاقا، اذ يحتمل أن يقوم الطفل بكبت الغيرة والتظاهر بمظهر الانشراح وعدم الاهتمام وما الى ذلك • والغيرة المكبوتة أشد خطرا على النفس من الغيرة الصريحة ، فالنوع الأول يزيد معه التوتر ويزيد معه القلق ان عاجلا وان آجلا •

كذلك لا يجوز أن يبهز الآباء ما يقوم به بعض الأطفال من المبالغة في اطاعتهم ، وتقليدهم ، ومسايرة آرائهم ، والعمل على ارضائهم ، والاعجاب بهم ، والتظاهر بالحب لهم ، الى غير ذلك • ولا يجوز لهم أن يقربوا مثل هذا النوع على حساب النوع الآخر صاحب الرأي الجريء الحر • هذا الموقف من الآباء كثير الانتشار ، وهو سبب من أسباب غرس بذور الغيرة والحقد بين الأخوة ، وتنشئة بعض الأولاد على النقمة على السلطة والمجتمع عن طريق التحويل من النقمة على الوالدين وبعض أفراد الأسرة •

ويجب أن نشير هنا الى أننا أغفلنا اغفالا تاما رأى مدارس التحليل النفسى فى الغيرة ، وهو الرأى الذى يرجع الغيرة كلها الى الاتجاهات الجنسية المثلية ^(١) (Homosexual tendencies) وهو رأى لا يوافق عليه الكثيرون من أصحاب المدرسة الحديثة ، وقد اكتفينا هنا بعرض ما اتفقت عليه الآراء اتفاقا تاما .

-
- (1) a) Flugel: Men and their Motives
b) Flugel: Psycho-analytic Study of the Family
c) McDougall: Abnormal Psychology.

المراجع

- Blanton : Child Guidance.
Blatz and Bott : The Management of Young Children.
Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.
Flügel : Men and Their Motives.
Flügel : Psycho-analytic Study of the Family.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
McDougall : Abnormal Psychology.
Miller : Advances in Understanding the Child.
Neill : The Problem Child.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الرابع والعشرون

التأخر الدراسي

مقدمة

كثيرا ما تتقدم الشكوى من الآباء أو المدرسين عن بعض تلاميذ المدارس لتأخرهم في الدراسة . ويحدث في بعض الحالات أن تكشف مبالغة من جانب الآباء ، فبعضهم يشكو من أن درجات ابنه في السنة الأولى الثانوية ضعيفة ، وبالبحث نجد أن عمر الولد إحدى عشرة سنة فقط . وتكون حجة الوالد إذا عارضت فكرته ، أن هناك أولادا ينالون الشهادة الابتدائية في عمر أقل من عشر سنوات . وينسى الوالد في ذلك أمرين : أولهما أن الآباء يدفعون أحيانا بأبنائهم دفعا في المدرسة ويكون هذا الدفع غالبا على حساب صحتهم ، واضعاف حيوتهم ، وخروجهم في مستقبل حياتهم بأفق ضيق . ويكون له في أغلب الحالات رد فعل سيء على دراستهم نفسها في مرحلة التعليم الثانوي أو العالي . وكثير منهم يقفون في الطريق ولا يتمون تعليمهم ، والأمر الثاني الذي ينساه الوالدان هو أن هناك فروقا شاسعة في استعدادات الأفراد ، إذا أنه ثبت أن ذكاء الأطفال قد يختلف اختلافات شاسعة من طفل الى آخر . ويمكن باستعمال مقاييس الذكاء تحديد مستوى الذكاء الذي يسمى بالعمر العقلي (١) .

(١) لدراسة موضوع الذكاء وأساليب قياسه وبعض نتائج تطبيقية في المدارس المصرية يقرأ كتاب قياس الذكاء للأستاذ « اسماعيل القباني بك » من مطبوعات معهد التربية .

ونظرا لقلة شيوع استعمال مقاييس الذكاء ، فإن الآباء والمدرسين في مصر مثلا يحكمون عادة على تأخر التلميذ في دراسته اذا كان عمر الولد أكبر بكثير مما ينتظر لمثله من نفس مستواه الدراسي ، فاذا تكرر رسوب تلميذ عمره فوق السادسة عشرة في السنة الرابعة الابتدائية فانه يعتبر متأخرا دراسيا ، ولكن يحدث أحيانا أن يتمكن الأب من النظر الى المسألة من ناحية أخرى ، وهي درجة ملائمة المستوى الدراسي لاستعداد الطفل ، اذ يجوز أن يكون عمر التلميذ ستة عشر عاما ، ولكن استعداده العقلي لا يؤهله الا للسنة الرابعة الابتدائية •

تحديد معنى التأخر الدراسي

ولكن ما تقدم يعتبر كله تقديرا وصفيا تخمينيا ، وقد تقدمت البحوث في بعض البلاد مما أدى الى امكان تحديد معنى التأخر الدراسي • وأول خطوة في هذا الاتجاه هي قياس الذكاء •

ويقاس الذكاء بمقاييس مقننة (Standardised Tests) ، اذا طبقت على طفل ما نصل منها الى معرفة مستوى ذكائه أو عمره العقلي • فاذا كان عمر الطفل الزمني عشر سنوات ، وعمره العقلي ثمانى سنوات ، فمعنى ذلك أن مستوى ذكائه هو مستوى طفل متوسط الذكاء عمره الزمني ثمانى سنوات • أى أن ذكاء هذا الطفل أقل من العادى بسنتين عقليتين •

كذلك اذا قسنا ذكاء طفل آخر عمره ثمانى سنوات، ووجدنا أن مستوى ذكائه ست سنوات عقلية ، يكون معنى ذلك أن مستوى ذكاء هذا الطفل يساوى مستوى طفل متوسط الذكاء عمره الزمني ست سنوات ، وبذلك يعد متأخرا في الذكاء بمقدار سنتين عقليتين

وواضح أن الطفل الثانى أكثر تأخرا من الطفل الأول ، اذ أن تأخرا مقداره ستان في الثامنة أكبر نسبيا من نفس المقدار من التأخر في العاشرة • لهذا يحسن حساب ما يسمى نسبة الذكاء ، وهي عبارة عن نسبة العمر العقلي الى العمر الزمني ، ويضرب الناتج في ١٠٠ للتخلص فقط من الكسور •

وواضح أن الشخص المتوسط الذكاء تكون نسبة ذكائه ١٠٠ ، وأما من تزيد نسبة ذكائه على ١٠٠ فهو فوق المتوسط ، ومن تقل عن ١٠٠ فهو دون المتوسط ، ويعين البيان الآتي نسب الذكاء المختلفة (١) :-

وأما الخطوة الثانية لتحديد معنى التأخر الدراسي فهي قياس المستوى الدراسي باستعمال المقاييس الدراسية المقننة ، ويسمى ما تقيسه المستوى التحصيلي (Educational Age) أو العمر التحصيلي ومعنى العمر التحصيلي بالنسبة للدراسة كمعنى العمر العقلي بالنسبة للذكاء . فإذا وجدنا أن تلميذا عمره الزمني عشر سنوات وعمره التحصيلي سبع سنوات مثلا ، كان مستوى تحصيله في الدراسة يساوي مستوى تحصيل طفل متوسط عمره سبع سنوات . وهذا الطفل يعد متأخرا ثلاث سنوات تحصيلية عما ينتظر له بالنسبة لعمره الزمني . ولكن يجوز أن استعداده العقلي لا يتماشى مع عمره الزمني ، أي أنه يجوز مثلا أن يكون عمره العقلي سبع سنوات مثلا ، وبذلك لا يعد متأخرا في مستوى تحصيله عما ينتظر له بالنسبة لمستواه العقلي . وفي هذه الحالة يعتبر عادة من حيث التحصيل .

114

لهذا نشأت فكرة حساب النسبة التحصيلية ، وهي نسبة العمر التحصيلي الى العمر العقلي ، ويضرب الناتج في ١٠٠ لنفس السبب السابق الذكر في حساب نسبة الذكاء •

$$\text{أى أن النسبة التحصيلية} = \frac{\text{العمر العقلي}}{\text{العمر التحصيلي}} \times 100$$

فاذا أمكننا أن نعرف هذه النسبة التحصيلية لتلميذ ما ، ووجدنا أنها أقل من ١٠٠ بدرجة واضحة ، حكمنا عليه بالتأخر الدراسي ، ووجب علينا دراسة العوامل لالتى أدت الى ذلك ومعالجة الحالة •

وفي العادة لا تزيد النسبة التحصيلية (بخلاف نسبة الذكاء) عن ١٠٠ ، الا في حالات نادرة ، وهي حالات التلاميذ الذين يرهقون أنفسهم بالمذاكرة ، أو الذين يساعدون كثيرا بدروس خصوصية • ولكنها في أغلب الحالات تكون ١٠٠ ، وكثيرا ما تقل عن ١٠٠ • وقد دلت بحوث « برت Burt » على أن هذا النقص عن مائة يحدث بنوع خاص عند الأغبياء وضعاف العقول ، اذا أنه وجد في جميع حالاتهم تقريبا أن المستوى الدراسي أقل من المستوى العقلي ^(١) ، ولعل من العوامل المؤثرة في هذا الشعور بالنقص المصاحب عادة للقصور العقلي ، وهذا الشعور بالنقص يجعل مستوى انتاجهم أقل مما ينتظر لهم حسب مستواهم العقلي •

ولو كان المستوى الدراسي لا يتوقف الا على مستوى الذكاء ، لكانت النسبة التحصيلية دائما ١٠٠ ؛ ولكن التحصيل يتوقف على وجه العموم على عوامل أخرى كالظروف المحيطة بالتلميذ وحياته الوجدانية وما عنده من دوافع مختلفة •

وليس من السهل علينا في مصر في الوقت الحاضر أن نحدد بالدقة درجة التأخر الدراسي ، ولذلك أسباب عديدة منها عدم توافر الاختبارات المقننة

(١) C. Burt : The Backward Child p. 35

التي تقيس المستوى التحصيلي ، ومنها عوامل أخرى تدخل في التنظيم العام للتعليم ، كتفاوت الأعمار في الفرقة الدراسية الواحدة تفاوتاً كبيراً ؛ ففي بعض الأحيان نجد في السنة الرابعة الابتدائية تلاميذ عمرهم عشر سنوات ، ونجد آخرين يقرب عمرهم من سبع عشرة سنة . فتصعب الموازنة بين تلميذين كهذين من حيث درجة تأخرهما الدراسي ^(١) . يضاف الى هذا نظام الامتحانات الذي عود بعض التلاميذ وبعض المدرسين الوصول الى حيل خاصة تمكن من حفظ المعلومات بصورة تكفي لوضعها يوم الامتحان على الورقة المخصصة لذلك . وبذلك تقل قيمة التحصيل الدراسي بمعنى كسب قوة معينة ، نتيجة لفهم المواد الدراسية وضمها وحسن تطبيقها والكفاية في استعمالها .

بعض حالات في التأخر الدراسي

وسنعرض الآن بعض الحالات التي عرضت على العيادة السيكولوجية بمعهد التربية للمعلمين بسبب التأخر الدراسي ، وقد بينا مع كل حالة نوع التأخر كما وصفته المدرسة أو كما وصفه المنزل . وبيننا السنة الدراسية ، والعمر الزمني والعمر العقلي . ومن موازنة هذين أحدهما بالآخر وبالسنة الدراسية ، يمكننا أن نتبين على وجه التقريب درجة التأخر الدراسي الظاهري من مقارنة السنة الدراسية بالعمر العقلي . وقد أثبتنا كذلك بعض العوامل الأخرى — غير الذكاء — التي نعتقد أن لها دخلاً كبيراً في التأخر الدراسي .

(١) والصعوبة في هذه الحالة صعوبة احصائية أكثر منها صعوبة سيكولوجية .

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمني	العمر العقلي	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
١	تأخر دراسي عام	٤ - ابتدائي	١١ ١/٢ سنة	١٣ سنة	ضعيف التذكر مشقت الانتباه . زيادة سريعة مطردة في الوزن . الولد شديد التضيق على ولده يتدخل في أتفه المسائل الخاصة به .
٢	تأخر دراسي عام	٣ - ابتدائي	١١ سنة	٩ سنوات	الحو المنزل كله قسوة ، وشدة ، وإشراف مما جعل الولد بائساً كثير السرحان
٣	تأخر دراسي عام	١ - ابتدائي	٨ سنوات	٨ ١/٢ سنوات	انتباه الولد مشقت ، وهو غير محبوب من زملائه . وله أزمات انفعالية بسبب وفاة والده الذي كان يدلله ، وشدة إخوته معه .
٤	تأخر دراسي عام	١ - أولى	٥ ١/٢ سنوات	٤ سنوات	الظروف كلها عادية في الظاهر .
٥	تأخر دراسي عام	٣ - ابتدائي	١٠ ١/٢ سنوات	٩ ١/٢ سنوات	معاملة المنزل له متقلبة جداً . أنيميا شديدة .
٦	تأخر دراسي عام	٣ - ابتدائي	١١ سنة	١٠ سنوات	ضعف صحي عام وسمنة شديدة وروما تزم بالغشاء المبطن للقلب نتيجة لبعض الزلات الروماتيزمية العضلية .

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمني	العمر العقلي	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
٧	تأخر دراسي عام	٣ - ابتدائي	٩ سنوات	١٠ سنوات	تغيب كثيراً بسبب المرض ويمكن معرفة معاملة والديه له من أنهما حولاه قصداً من مدرسة الى أخرى يضرب فيها التلاميذ ضرباً شديداً حتى يعامل هو بنفس الطريقة
٨	تأخر عام	٣ - ابتدائي	١١ ¼ سنة	١١ ¼ سنة	قلة اهتمام بالعلوم المدرسية التي يقول إنها مملة ، وميل للعب ، يسخر كثيراً من المدرسين .
٩	تأخر عام	٣ - ابتدائي	٩ ¼ سنوات	١١ سنة	ضعف صحي : تقلب شديد مع ضعف زائد لوالده من جانب الوالد . الولد قليل الاستقرار والتركيز .
١٠	تأخر عام	٣ - ابتدائي	١٢ ¼ سنة	٨ سنوات	ظروف تبدوا كلها عادية .
١١	تأخر عام	٢ - ابتدائي	٨ ¾ سنوات	٨ ¾ سنة	حرية مقيدة : يأخذ درساً خصوصية باستمرار ويعامل معاملة جافة من والديه
١٢	٤ تأخر عام خصوصاً في اللغات	٤ - ابتدائي	١٢ سنة	١١ سنة	ضعف سمعي والتهابات في مناطق التنفس مصحوبة بكثرة إفراز البلغم الذي ربما

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمني	العمر العقلي	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
					يرجع اليه ما عنده من هبوط عام في الحيوية وضف في القدرة على التركيز وبذل الجهد ، سوء إشراف من الوالدين .
١٣	تأخر دراسي عام	٢ - ثانوى	١٧ سنة	ذكي جداً	هروب من المدرسة ، وانشغال بالسرقة وتنظيم العصابات ، والمسائل الجنسية وشرب الخمر . يعتقد أن أحداً لم يكن عظيماً بسبب التعليم ويضرب مثلاً بهتلر وغيره . وحيد والديه وتوفيت والدته بعد مرض ألزمها الفراش سنوات عدة .
١٤	تأخر عام	٤ - ثانوى	١٦ ½ سنة	١٣ ½ سنة	لم يعتمد على نفسه في حياته قط الى حد أن استحمامه كانت تقوم به والدته الى سن السادسة عشرة (١٥)
١٥	تأخر عام	٢ - ابتدائي	٩ ½ سنوات	٩ ½ سنوات	الولد متوسط في ذكائه ولكنه يقارن في المنزل دائماً بأخوته الذكور والإناث وعندهم جميعاً

(١) هذا التلميذ وصل الى السنة الرابعة الثانوية رغم أن ذكائه اقل من المتوسط بكثير وهذا يدل على أن الامتحانات في مدارسنا لا يمكن بحال أن تعتبر مقاييس مضبوطة للمستوى التحصيلي .

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمني	العمر العقلي	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
					تفوق كبير في الذكاء ، مما جعل الولد منزوياً خاملاً قليل النشاط على الرغم من أنه في الحقيقة متوسط الذكاء
١٦	تأخر دراسي عام	٣ - ابتدائي	١٥ سنة	١٠½ سنوات	ظروفه كلها تبدو عادية.
١٧	تأخر عام	٢ - ثانوي	١٤½ سنة	فوق المتوسط	الولد مركز ممتاز ، وقد دلل كثيراً في صغره وانتابته في صغره أمراض كثيرة ، لم يعتمد على نفسه قط في أي عمل ، قليل التركيز يميل الى اللذات الحسية من أكل ونواح جنسية وما يشبههما .
١٨	تأخر عام	١ - ثانوي	١٤ سنة	أقل من المتوسط	ضعف البصر ، وانحطاط ظروفه الاقتصادية وانحلال جو الأسرة بعد وفاة والده فجأة .
١٩	تأخر عام	٣ - ابتدائي	١٥ سنة	٩ سنوات	ظروفه كلها تبدو عادية
٢٠	تأخر في الحساب	٢ - روضة	٦½ سنوات	٤½ سنوات	ظروفه كلها تبدو عادية .
٢١	تأخر دراسي عام	٤ - ابتدائي	١٤ سنة	١١½ سنة	ضعف في جميع العمليات الأولية من ضرب وقسمة الكسور الاعتيادية والعشرية

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمني	العمر العقلي	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
					كانت كثيرة التغيب بسبب المرض .
٢٢	تأخر دراسي عام	٢ - ابتدائي	٩ ١/٢ سنوات	٨ ١/٢ سنوات	حرية الولد مقيدة جداً ولم يعود أن يستقل بنفسه في عمله .
٢٣	تأخر دراسي عام	٢ - ثانوي	١٤ سنة	متوسط	المستوى الاقتصادي للمنزل منحط جداً ، والوالد في غاية القسوة والقلق على تعليم ابنه ، كانت النتيجة تأخر وسرقة وتلخين
٢٤	تأخر دراسي عام	١ - ثانوي	١٣ ١/٢ سنة	١٣ ١/٢ سنة	الوالدة توفيت والوالد لا يكاد يكون له بابنه إلا صلة الانفاق عليه في مدرسة داخلية ، والولد كثير النسيان والسرхан ، وأخيراً يهمل تنظيف نفسه للدرجة ظاهرة
٢٥	تأخر دراسي عام	٣ - ثانوي	١٦ ١/٢ سنة	متوسط	نوبات عصبية بدأت مع المراهقة ، وسوء علاقته بوالديه للدرجة تؤدي الى الاحتكاك المستمر، انشغاله بالمسائل الجنسية وإفراطه في الاستمناء .

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمني	انحصر العقلي	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
٢٦	تأخر عام وبنوع خاص في اللغات	٢ - ثانوى	١٧ سنة	متوسط	يشارك مع أخيه في صفة عدم الاكتراث بالتعليم. يقول إنه يؤمن من خبرته ببعض أقاربه بأن المركز والمستقبل في الحياة لا يتوقف على التعليم وبذل الجهد المدرسى ولما يتوقف على عوامل أخرى لا تكسب في المدرسة
٢٧	تأخر عام وبنوع خاص في اللغات	٣ - ابتدائى	٩ ١/٢ سنة	٩ ١/٢ سنوات	ضعف عام في المطالعة ، والله شغوف جداً بتعليمه وبخاصة ناحية أخيه الأكبر
٢٨	تأخر عام	٤ - ابتدائى	١٦ ٣/٤ سنة	٩ ١/٢ سنة	ظروفه كلها تبدو عادية .
٢٩	عدم رغبة في المذاكرة	أولى عال	١٨ سنة	ذكى جداً	ينظر الولد للمستقبل فيجده غير براق له بوجه خاص ويجد أن أخوته الذين سبقوه نجحوا جميعاً ، وخرجوا للحياة ، أما هو فما زال أمامه أربع سنوات على الأقل ويشعر أنه غير مهياً عقلياً ومزاجياً للمهنة التى يعد لها ، ويشعر الولد بالفارق الكبير جداً بين التعليم الثانوى والعالى ، إذ كان كل شىء يقدم

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمني	العمر العقلي	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
					له في التعليم الثانوي مهضوماً وكانت هناك صلة بين التلميذ والمدرسة ، وكان التلاميذ قليلين في الفرقة الواحدة والكتب قليلة وصفحات كل كتاب قليلة

العلاقة بين التأخر الدراسي والتأخر العقلي

وإذا فحصنا الجدول السابق نجد في حالات التأخر العقلي أن التأخر الدراسي أقل مما كان ينتظر من التلميذ لما لديه من تأخر عقلي . وذلك لأننا لو حسبنا العمر الدراسي للتلميذ على أنه العمر المتوسط للفرقة الدراسية التي هو فيها فأننا نجد في الغالب أن الفرق بين العمر الزمني والعمر الدراسي أقل من الفرق بين العمر العقلي والعمر الزمني .

فإذا اعتبرنا أن العمر المتوسط على وجه التقريب في السنوات الأولى والثانية والثالثة والرابعة الابتدائية هو ٨ سنوات ، $\frac{1}{2}$ / ٩ سنوات ، ١١ سنة ، $\frac{1}{2}$ / ١٢ سنة على التوالي ^(١) ، وإذا أخذنا من الجدول السابق جميع حالات المتأخرين عقلياً من حالات تلاميذ المدارس الابتدائية ، فأننا نحصل على النتائج الآتية :

رقم الحالة	٢	٥	٦	١٠	١٢	١٦	١٩	٢١	٢٢	٢٨
مقدار التأخر الدراسي بالنسبة للعمر الزمني بالسنوات	صفر	$\frac{1}{3}$	صفر	$1\frac{1}{3}$	$\frac{1}{3}$	٤	٤	$1\frac{1}{3}$	صفر	$4\frac{1}{4}$
مقدار التأخر العقلي بالنسبة للعمر الزمني بالسنوات	٢	$1\frac{1}{3}$	١	$4\frac{1}{2}$	١	$4\frac{3}{4}$	٦	$2\frac{1}{3}$	$1\frac{1}{4}$	$7\frac{1}{4}$

(١) وهذه الأعمار محسوبة على وجه التقريب من الرسوم البيانية الواردة في كتاب قياس الذكاء للأستاذ اسماعيل القباني بك ص ٨٥ .

فبالموازنة بين التأخر العقلي والتأخر الدراسي كل منهما بالنسبة للعمر الزمني ، نجد أن التأخر الدراسي في هذه الحالات أقل مما كان ينتظر بالنسبة لما عند التلميذ من تأخر عقلي .

ومن الغريب أن هذه النتيجة تخالف ما وصل اليه الأستاذ (Burt) (١) من نتائج مع التلاميذ الانجليز ، إذ أنه وجد أن التأخر الدراسي أكبر في العادة من التأخر العقلي في حالات الأغبياء . ولعل السبب في ان نتائجنا جاءت مخالفة لما كان ينتظر هو ماسبق أن أشرنا اليه من أن التلاميذ يدفعون دفعا بالدروس الخاصة مما يرهقهم ويزيد شعورهم بالخيبة . ولعل هناك مجموعة أسباب أخرى ، وهي أن التلاميذ أحيانا ينقلون من فرقة الى أخرى أعلى منها بناء على عوامل أخرى غير المستوى التحصيلي ، وذلك كقل التلميذ رغم ضعفه الى فرقة أعلى حتى لا يفصل من المدرسة .

طريقة بحث حالات التأخر الدراسي

يتبين من الجدول السابق (ص ٤٥٠) أنه لابد لفحص حالات التأخر الدراسي من فحص نواح متعددة ، حتى يمكن أخذ صورة حقيقية للعوامل المختلفة المؤثرة سواء في ذلك العوامل الأصلية والعوامل المساعدة .

فيجب التأكد أولا مما اذا كان التأخر الدراسي عاما في جميع المواد الدراسية أو خاصا بمادة أو بمجموعة معينة من المواد ، ذلك لأنه يحدث أحيانا أن يكون التأخر عاما في جميع المواد ، ويحدث أن يكون في مادة دراسية واحدة . ويجب التأكد أيضا مما اذا كان التأخر حديثا أو مستديما . ونجد عادة أن العوامل المؤثرة يمكن أن تقع تحت الأقسام الآتية :

(١) (C. Burt: The Backward Child) لعل هذا الاختلاف يرجع في الأصل الى اختلاف المقاييس . فبينما اعتمد «بيرت» في الوصول الى نتائجه على مقاييس التحصيل المقننة ، اعتمدنا نحن على الفرقة الموجود بها التلميذ وهذه كثيرا ما لا تدل دلالة صحيحة على المستوى التحصيلي .

(ا) عوامل عقلية عامة كالتأخر في الذكاء أو التأخر في القدرة على القراءة بسبب عدم إتقان أسسها • إذ أن القراءة تدخل في العلوم المدرسية بمختلف أنواعها • أو عوامل عقلية خاصة كالقدرة على التذكر أو إحدى القدرات الخاصة التي يلزم وجودها بنسبة كبيرة للتقدم في مادة دراسية معينة كالقدرة اللغوية أو القدرة الهندسية ، أو غير ذلك •

(ب) اتجاهات عقلية وعوامل وجدانية عامة كضعف الثقة بالنفس والخمول ، أو اتجاهات عقلية وعوامل وجدانية خاصة ككراهية مادة دراسية معينة لارتباطها في الذهن بموقف مؤلم من جانب المدرس أو الزملاء ، أو غير ذلك من الحالات الوجدانية المختلفة التي قد تنشأ داخل الفصل أو خارجه •

(ج) عوامل جسمانية عامة تؤدي الى نقص عام في الحيوية ، فتقل من مقدرة الشخص على بذل أقصى جهده • من ذلك « الأنيميا » والاصابة بنزلات البرد المتكررة والأمراض الطفيلية « كالانكلستوما » وغير ذلك • وكذلك عوامل جسمانية خاصة كضعف السمع العام (الصمم) أو الخاص (المتصل ببعض الأصوات دون غيرها) أو ضعف البصر بأنواعه المختلفة وما يشبههما •

(د) عوامل بيئية تنشأ في المدرسة أو في المنزل أو خارجهما ومن أمثلة ذلك ما يأتي :

١ — كثرة تنقل التلميذ من مدرسة الى أخرى بسبب تنقل الوالد من بلدة الى أخرى ، مما يترتب عليه اضطراب التلميذ بين طرق تعليمية مختلفة ، وضياح لبعض أجزاء المنهج • وكذلك انتقال الطالب انتقالا فجائيا بالنسبة اليه من نوع من التعليم الى نوع آخر كما يحدث عند تنقل التلميذ بين مدارس أجنبية وأخرى مصرية •

٢ — كثرة تغيب التلاميذ عن المدرسة لأسباب قوية أو تافهة •

٣ — هروب التلاميذ من المدرسة لقلة جاذبية العمل بها ، ولوجود مغريات أخرى خارج المدرسة كالخيالة ، أو تأليف عصابات ، أو الجري وراء المسائل الجنسية ، أو ما يشبه ذلك •

٤ — علاقة الطفل بالديه وإخوته وزملائه ومدرسيه وعلاقة والديه أحدهما بالآخر ، وفكرتهما عن التعليم وأهميته ، وما ينشأ عن ذلك من اتجاهات عقلية وحالات وجدانية تؤثر في التلميذ أحيانا بطريق مباشر وأحيانا بطريق غير مباشر •

٥ — مقدار شعور التلميذ بقيمة العمل المدرسي خصوصا بعد سن المراهقة •

٦ — طريقة استغلال التلميذ لوقت فراغه •

٧ — تنقلات المدرسين بعد بدء الدراسة من فرقة دراسية الى أخرى بسبب تغير الجداول •

٨ — درجة ملاءمة المواد الدراسية وطرق التدريس لاستعداد التلميذ ومستوى تحصيله •

٩ — الجو المدرسي العام (راجع الفصل الحادي عشر)

١٠ — ملاءمة جو المنزل واستعداده للعمل الهادى المنتج •

وليس من الممكن فى هذا المقام أن نتكلم بالتفصيل عن هذه النواحي كلها •

مصاحبات التأخر الدراسى

لاحظنا فى الجدول السابق (ص ٥٠) أن هذه الحالات ليست حالات تأخر دراسى فحسب ، وإنما توجد معها مشكلات أخرى كالهرب وشروذ الذهن والاعتداء ، وغير ذلك من المشكلات التى قد تكون مصاحبة فقط للتأخر الدراسى ، وقد تكون مسببة له ، وقد تكون ناتجة عنه •

وقد لاحظنا فى حالات جرائم الأحداث العديدة التى فحصناها ، والتى

كان الأحداث فيها من تلاميذ المدارس أنهم كانوا متأخرين جدا في الدراسة . وكان هؤلاء أحيانا ينظمون أنفسهم في شكل عصابات للسرقة من عربات الترام أو عربات السكة الحديدية أو السطو على المنازل أو غير ذلك . وكانوا يتصلون بأحد الباعة ليكون بمثابة مصرف لمسروقاتهم يبيعونها له .

والتلاميذ الذين يلبون أول داع للخروج على النظام ، والذين يكونون مصدر اضطراب في حياة المدرسة هم في العادة المتأخرون دراسيا . ولا يخرج مسلك التلاميذ الذين من هذا النوع عن أنه تعويض للشعور بالنقص الذي يسببه لهم الاخفاق الدراسي . وهذا الشعور بالنقص أو الشعور بعدم تحصيل المستوى المنتظر لهم ينتج أساسا من موازنتهم بزملائهم الناجحين . كذلك يمكن تفسير هذا المسلك ضد النظام المدرسي بأن التلاميذ يعتبرون أن المدرسة عائق في سبيل تحقيق ذاتياتهم تحقيقا يجلب لهم السرور ، ولذلك فهم يشورون ضد المدرسة .

وفي المراحل المتقدمة يفقد التلميذ ثقته في نفسه ازاء نوع المستقبل المترتب على النجاح المدرسي . وربما لا يجد ما يشعره بالاطمئنان من هذه الناحية فتتسبب عنده أنواع من التألم واليأس ، وما يتبع ذلك من مشكلات نفسية .

ونجد في المراحل الأولى من التعليم أن التأخر الدراسي يصحبه اغراق في أحلام اليقظة ، لأنها الطريق الوحيد للتخلص من صعوبات الدرس ، وفي أغلب حالات التأخر الدراسي نجد سلوكا يحتاج الى اصلاح كالاستكانة ، والاغراق في أحلام اليقظة والشعور بالخجل والنقص . وأحيانا نجد التلميذ يمارس عملا آخر يجد فيه بعض السلوى كالتدخين أو الاستمئاء أو متابعة المسائل الجنسية ، وأحيانا أخرى نجد محاولات للنقد أو المشاكسة أو التسلط أو كشف عيوب الناس أو الثورة على النظام ، وأحيانا نجد أنواعا من الحركات العصبية العامة أو الخاصة .

لذلك وجبت دراسة درجة ملائمة الدراسة للتلميذ من أول الأمر ؛
لا سيما أن التأخر الدراسي قد يكون قليلا في أول الأمر ، ولكنه في
العادة يتضخم أثره كلما تقدم الطفل في الدراسة ، اذا هو لم يعالج . فاذا
فرضنا أن تأخراً قليلا في قدرة الطفل على المطالعة أو الحساب وجد في سن
الثامنة ، فإن أثر هذا التأخر يتضح ويزيد كلما تقدم الطفل في مرحلة
التعليم الأولى أو الابتدائي ، ذلك لأن الدراسات التالية تترتب عادة على
ما يسبقها ، ولذا يجب التيقظ — كما قلنا — لأي نوع من التأخر الدراسي
يوتدركه من أول الأمر بطرق الفحص العلمية .

المراجع

- Board of Education : The Backward Child.
Burt : The Backward Child.
Craig : School Life and Mental Instability.
K. Frazer : The Backward Child.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Hamley and Others : The Backward Child.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Hildreth : Psychological Problems.
Miller : The Growing Child and its Problems.
Sayles : The Problem Child at School.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
Symonds : Mental Hygiene of the School Child.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.
Valentine : The Difficult Child.

الفصل الخامس والعشرون

المشكلات الجنسية

أنواع المشكلات الجنسية

تتجه بعض الآراء في الوقت الحاضر الى أن المشكلات الجنسية هي أساس كل مشكلات السلوك الأخرى ، ذلك لأن الغريزة الجنسية في نظر أصحاب هذه الآراء هي مصدر الطاقة البشرية . فالتوالد والتكاثر هما أهم ظاهرة في الطبيعة ، وكل ظاهرة أخرى في الحياة انما تعمل في خدمة هذه الظاهرة الأساسية . والغريزة الجنسية في الانسان تحوطها قيود وتقاليد شديدة ، تجعلها خاضعة للكبت ، مما يظهر أثره في أنواع السلوك الشاذ بدرجاته المختلفة .

ويتجه الرأي السائد الى أن الغريزة الجنسية ، وان كانت شديدة الأهمية في حياة الانسان ، الا أنه توجد الى جانبها دوافع غريزية أخرى ، كالسيطرة والهرب والوالدية وغير ذلك . ولما كانت الغريزة الجنسية أكثر الدوافع الغريزية خضوعا للكبت والمقاومة ، فهي أكثرها تعرضا للشذوذ في مظاهرها .

وتتلخص مشكلات الغريزة الجنسية في أنها قد تحيد من حيث الموضوع الذي يستعمل للتعبير ، فبدلاً من أن يكون التعبير متجها نحو الجنس الآخر في ظروف توافق عليها التقاليد ، فانه يتجه نحو الأفراد من نفس الجنس كما يحدث في اللواط ، والسحاق ، أو يتجه نحو موضوعات مادية ، أو نحو المومسات ، أو نحو الذات ، كما يحدث في الاستمناء . وقد تكون المشكلة في درجة التعبير من حيث الميل الى الافراط الجنسي ، أو الصدوف عن المسائل الجنسية صدوفاً قد يصحبه التقرز والاشمئزاز ، أو مجرد عدم الرغبة .

وإذا استثنينا اختلال افرازات الغدد التي تعمل في النشاط الجنسي وبعض الصفات التناسلية التي يترتب عليها الافراط أو الصدوف، نجد أن المشكلات الجنسية ترجع غالباً لنتائج الخبرة ، و نتائج التربية الأولى وتدخل العقد وآثار الصراع ضمن هذه النتائج •

الناحية الجنسية في مراحل النمو المختلفة

وجه فرويد وأنصاره نظر الباحثين الى أن الغريزة الجنسية توجد في الطفل منذ ولادته ، غير أن مظاهرها في الطفولة تغاير مظاهرها في المراهقة واكتمال النمو • والطفل في نظر فرويد وأتباعه يشفق في سنواته الأولى لذة من الامتناس بالهم ، ومن التبول والتبرز ، كما يشفق لذة من أجزاء جسمه المختلفة • وهذه اللذة في نظر فرويد لذة جنسية ذاتية (Auto-erotism) وتدخل بعد ذلك في مركبات التلذذ الجنسي المعروف عند الكبار • وفي الوقت نفسه يرى بعض الباحثين الآخرين أن هذه الأنواع من التلذذ ضرورية للطفل ، لقيمتها الحيوية بالنسبة اليه •

ونحن نسلم بأن الطفل يشفق في أول حياته لذة ذاتية ، سواء أكانا نعتبرها جنسية أو غير جنسية^(١) • وقد يحدث تثبيت اللذة في صورة مص الأصابع أو قضم الأظافر أو اللعب بالأعضاء التناسلية ، وقد يستمر هذا التثبيت الى آخر الحياة •

وبعد المرور في دور اللذة الحسية الذاتية تأتي مرحلة يعجب فيها الطفل بنفسه ويقف ساعات أمام المرأة ، ويهتم بجماله الخاص ، ويسمى فرويد وأنصاره هذه المرحلة مرحلة عشق الذات أو النرجسية (Narcissism) ولكن يمكننا أن ننظر اليها كمرحلة اهتمام الفرد بذاته ، ونمو فرديته (Ego Formation) • وتأتي بعد ذلك مرحلة يهتم فيها الطفل بالعالم الخارجي اهتماما بارزا ، ويستقر فيها نموه الجسماني ويزيد نشاطه واتصاله

(١) راجع رأى هادفيلد (ص ٧١) ٢

بالعالم الخارجى زيادة كبيرة ، ويسمى أنصار فرويد هذه المرحلة بالدور الكامن (Latency Period) ويعتبرونها دور كبت للنزعات الجنسية التى تبدو بعض مظاهرها قبل ذلك .

وتظهر عند المراهقة نزعة لاختلاط البنين بعضهم ببعض ، والبنات بعضهم ببعض . ويحتقر البنون البنات لضعفهن ، ويحتقر البنات البنين لخشوتهم وربما كان سبب هذا الانفصال حداثة الاحساس الجسمى ، وبدء النظر الى الجنس الآخر نظرة جديدة تجعل كلا منهما حذرا من الآخر .

وفى سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة يبدأ كل من الجنسين يهتم بالآخر ويبحث عنه . ويسمى أنصار فرويد المرحلة التى يهتم فيها الفرد بأفراد جنسه « مرحلة الجنسية المثلية » (Homo-Sexuality) ، ومرحلة اهتمام الفرد بأفراد الجنس الآخر « مرحلة الجنسية الغيرية » (Hetero-Sexuality) ويرى فرويد وأتباعه أيضا أن الطفل منذ بدء ادراكه لوالديه وبسبب اشتقاق كثير من لذته عن طريق الرضاعة ، واللمس والحمل ، والربت ، والدغدغة ، يربط فى ذهنه والديه بهذه المواقف كمصادر للذة أو للحب ، أو مصادر لعدم اللذة ، أو الكراهية . وتنشأ بحسب رأى المحللين النفسيين من مثل هذه المواقف العقد المعروفة باسم عقدة أوديب (Oedipus Complex) وعقدة الكترا (Electra Complex) . ويرى فرويد أن هذه العقد طبيعة فى نمو الأفراد بحكم الصلة بينهم وبين الوالدين . ومع أننا نسلم بأثر علاقة الوالدين بالأطفال ، وأثر هذا فى نمو علاقتهم الجنسية المستقبلية ، الا أننا نرى أنه يمكن الاستغناء عن مثل هذه التفسيرات كما سنرى فيما بعد .

وكل ما يمكن أن يقال هو أن اللذة الذاتية موجودة منذ الطفولة ، وقد تمر هذه اللذة ، وقد تثبت متصلة بالنشاط الجسمى أو بمظاهر أخرى غير جنسية كالتدخين وما اليه . ثم يأتى نمو الذاتية أو الفردية ثم يتجه جل

الاهتمام الى كسب المعرفة ، وكسب المهارة التى تؤدى الى حسن التعامل مع البيئة المادية والاجتماعية ، ويدخل فى هذه البيئة المحيطة بعض عجائب الطبيعة بما فيها من ظواهر النمو ، والتوالد ، والوظائف الجسمية المختلفة ، وبدء المخلوقات ، وتكونها ونهايتها ، وغير ذلك مما يتصل بالمسائل الجنسية اتصالا وثيقا . ثم يأتى بعد ذلك دور المراهقة والبلوغ بما فيه من نزعات جنسية جديدة قد يكون الفرد مهيا لمقابلتها عن طريق الخبرة السابقة بمعناها الواسع . وقد تأتى فجأة فتحدث صدمات نفسية عنيفة . ومما يزيد فى أثر هذه الصدمات العوائق والتقاليد التى تقوم فى وجه التعبير عن هذه النزعات .

بعض الحالات

ولأجل أن تفهم كيفية ظهور المشكلات الجنسية ، نأخذ حالة شخص وصل الى العقد الرابع من عمره . وتتخلص مشكلته فى أنه لا يمكنه أن يجتمع اجتماعا جنسيا طبيعيا بمن يتزوجها مما يؤدى عادة الى الانفصال . هذا مع أنه يمكنه أداء هذه العملية بسهولة مع المومسات ، ولكنه حاول مع من تزوجهن فأخفق اخفاقا تاما . وبدراسة تاريخه وجد أنه ينحدر من أسرة محافظة متدينة ، لا تشير الى المسائل الجنسية أو ما حولها بأى اشارة، بل تستنكر هذه الموضوعات استنكارا شديدا . نشأ الولد فى هذا الجو ، لا على احترام أمه فحسب ، بل على ما يقرب من تقديسها ، مما جعله يرى فى زوجته صورة الأم التى بلغ من أمر تقديسه لها أنه أخفق مع زوجته اخفاقا تاما . ولكن كان يمكنه مع ذلك الاجتماع بالمومسات ولعل هذا لبعده الشبه فى ذهنه بينهن وبين أمه . ومما زاد مشكلة الرجل أن نصحه أحد الناس فى سن البلوغ المبكر بوجوب الاتصال الجنىسى ، حتى يقى نفسه شر الجنون ، فاتصل بالمومسات ، وبذلك كانت الصورة الأولى التى ارتبطت فى ذهنه بالاشباع الجنىسى هى صورة المومسات . ومما يؤيد هذا

الاستنتاج أنه كان كثيراً ما يحلم بالليل أنه يجتمع اجتماعاً جنسياً بأمه أو بأخته أو بزوجته • وكانت تتحول في الحلم صورة من يجتمع بها أحياناً من الزوجة إلى الأم أو الأخت أو العكس • قد يدل هذا على شدة حب الولد لأمه وأخته واحترامه لهما ، وعلى ادراكه لاشعوريا وجه الشبه بينهما وبين زوجته ، وعلى ما يتمناه من الصلة الجنسية الناجحة مع زوجته التي تشتت صورتها في ذهنه من أمه • ومما زاد في تعقيد الحالة أن حدث له وهو صغير خبرة جنسية مع ولد آخر في مثل سنه ، وقد كان موقفه في هذه الخبرة سلبياً غير ايجابي ، وقد جعله هذا الأمر شديد الشغف في مستقبل حياته بإثبات رجولته مع الخوف من الاخفاق • وزاد الحالة تعقيدا فوق ذلك أن خطيبته الأولى لم تكن تميل إليه ، وكان يعلم ذلك بنفسه ويشعر به شعورا واضحا •

وهذه حالة أخرى لفتى يدمن العادة السرية ادماناً شديداً ، ولا يوفق في علاقاته الاجتماعية ، ولا سيما حين يتحدث مع فتاة أي حديث ولو كان عادياً ليس وراءه أي مقصد سيئ • واتضح من دراسة حالته أن كانت له محاولات جنسية في سن السادسة مع صغار الفتيات بقصد اللعب والتجريب • وقوبلت محاولاته بالاشمئزاز والاستنكار والتعير المستمر من الوالدين ، فنما عنده شعور بالخطيئة ، ترتب عليه في مستقبل حياته تشدده مع نفسه ، وشعوره بحقارتها ، واعتقاده باحتقار الناس له ، وميله للابتعاد عنهم • وترتب عليه أيضاً سلوك تعويضي فيه تعسف في التدين ، والنظافة ، والأناقة لكنه كان في نفس الوقت لا يقوى على مقاومة الرغبة الجنسية ، فلا يجد وسيلة للتعبير عنها إلا في الاستمناء باليد • ويشعر الولد بالغيرة من والده الذي تزوج بعد وفاة والدته بفتاة صغيرة السن ، وكان الفتى إذ ذاك في أول دور المراهقة • والغيرة في هذه الحالة مكبوتة كبثاً تاماً •

وحالة ثالثة لفتى شغل ذهنه ليل نهار بالمسائل الجنسية ، يحلم بها في

يقظته أحلاما يقول انها جميلة ، فيدبر في عقله الحيل للوصول الى التفتيات الجميلات ، ويحلم بها في أثناء نومه أحلاما مزعجة ، تسمئز منها نفسه أشد الاشمئزاز . وكان لا يقوى على القيام بمحادثة ولو كانت بريئة مع أية فتاة ، ولا يقوى على مناقشة أية مسألة جنسية مع أى انسان . ومع شدة اشمئزاه من المسائل الجنسية ، واعتبارها مسائل قذرة ، فانه أحيانا يتكلم عنها كأنها أمور شبه مقدسة ، بل انها فوق البحث العلمى ، وفوق المعرفة الصحيحة . وهو شديد الاحتقار لنفسه يرى أنها قذرة ، وضيعة ، رغم نضج عقليته ، واثقائه نظم الشعر على الرغم من صغر سنه . مات أبوه وتركه صغيراً فعنيت أمه به وباخوته عناية وصلت بها الى أقصى حدود التضحية . وترتب على ذلك أنها لم تترك لهم صغيرة أو كبيرة يفكرون فيها بأنفسهم ؛ مما جعلهم يكبرون ملتصقين بها معتمدين عليها كل الاعتماد . والأم تحزن أشد الحزن ، بل يصيبها المرض أحيانا اذا خالف أحدهم أمرها ، أو حاول أن يثبت وجوده ، كما يثبت الشبان وجودهم ، مما جعل الفتى واخوته يخضعون لأمرهم ، ويستسلمون لضعفها . وكان الأب رجلا ضعيفا من الناحية الجنسية ، وكان لهذا قاسيا مع الأم . والقسوة كثيرا ما تظهر للتعويض عن ضعف جنسى . وكانت الكراهية بينهما مستحكمة ، وكان ذا تاريخ طويل فى المسائل الجنسية لا يتسع له هذا المقام .

نشأ الولد كارها للمسائل الجنسية ، يشمئز منها ، محبا لأمه يعطف عليها ، ولكن يود التحرر من سلطانها ، فلا يقوى ، ومع ذلك فكان أحيانا يتطلع للمسألة الجنسية ويراهم مقدسة فى نظره ، ولعل ذلك لشعوره الغامض بارتباطها بأمه وبوجوده . وأمه تتأفف جدا من هذه المسائل . فعندما كانت تغسلهم وهم صغار ، كانت تتناول كل جزء من أجزاء جسمهم ؛ ولكنها حين تصل الأجزاء الاخراجية والتناسلية تكف يدها وعليها علائم التأفف ، فتأمر أولادها أن يغسلوها بأيديهم . كانت الأم شديدة المحافظة والمراقبة

والدقة مع نفسها ومع أولادها . وقد كان لها مع ذلك من صغر سنها ، وجمال شكلها ، ووفرة ذكائها ما يفسح لها الفرصة في مجال الزواج ؛ ولكنها كانت تقابل عروض الزواج برفض حاسم ، وكانت كذلك تقابل أية إشارة الى أية مسألة جنسية من جانب أولادها بعاصفة من الاثقال والمرض .

لهذا كله نشأ الولد متناقضا في الشعور ازاء المسائل الجنسية ؛ فبينما تجده يقدس الأمور الجنسية ويحترمها احتراما شديداً تجده يحقرها ويستقذرها . فحينما تجده مشغولاً بها منشغل الذهن ليل نهار بأحلام وخيالات تتعلق بأشباع الناحية الجنسية ؛ فهو يدبر في ذهنه الحيل لذلك ، وحيناً آخر تجده منصرفاً عنها يخافها وتتقزز نفسه منها ، وهكذا تجده ممزق النفس في اتجاهات مختلفة ، مما أنهك قواه وشتت مجهوده الذهني ، وجعله متناقضاً في اتجاهاته وأفكاره وأقواله عصيباً مبغض الذهن على الرغم من شدة ارتفاع ذكائه .

هذا الولد مصاب بحالة قلق عصبي أساسها الحياة الجنسية في الأسرة ، وأساسها موقف الأم من العالم الجنسي عامة ، وهذا الموقف من شأنه أن يخيف الناشئ من العالم الجنسي ، مع أنه عالم تدفع الطبيعة البشرية الى دراسته وفحصه والوقوف على أسرارهِ .

وهناك حالة لفتاة تجاوزت العقد الثاني من عمرها بدأت تعتكف ولا تتصل بالناس وتقضى وقتها في نوم وانقباض وشرود ذهني وبكاء . وكتبت كثيراً مما يجيش بصدرها من آمال وآلام في صورة شعر أو نثر . ونعتقد أن أساس المشكلة هنا جنسي ، اذ اتضح بدراسة الحالة أن بين الأم والأب شقاقاً مستمراً ، مع تعاظم من ناحية الأم ، وشعور من ناحيتها بسوء الطالع لتزوجها من رجل تعتبره أقل منها مكانة وثروة وعقلاً . وبذلك نشأت أمام البنت صورة لما قد تتوقعه في المستقبل من شقاء في الحياة الزوجية ، ان هي تزوجت . يضاف الى ذلك أن البنت تعطف على الأب ، والأم تشعر بهذا مما ترتب عليه اضطهاد الأم للبنت . وللبنت أخت أخرى

أصغر منها ، مانت الأسرة في زواجها الى أن تتزوج الكبرى ، مما جعل البنت تشعر بخطيئتها نحو أختها الصغرى ، اذ أنها ترى نفسها عائقاً في سبيل زواجها . والبنت فوق ذلك على درجة كبيرة جداً من الذكاء ، والنشاط ، والحساسية ، ولا تجد منفذا لكل هذا لأنها قابضة في البيت ليل نهار ، بحكم تقاليد الأسرة .

وخلاصة الحالة أن المستقبل الطبيعي للبنت — وهو الزواج — صار في نظرها بعيد التحقق . وان تحقق فصورة زواج أمها لا تغرى البنت بتوقع الخير من زواجها . ومن ثم كانت لا تتوقع خيراً على أى حال . وتتعدد صورة الحالة النفسية هنا بالعلاقة المنزلية الداخلية بينها وبين الوالدين والاخت ، وبين أفراد الأسرة جميعاً ، والأسرة التي تنتمي إليها الأم ، وتلك التي ينتمي إليها الأب الى غير ذلك .

وفي عدد من الحالات نجد أن سبب الشذوذ الأصلي هو المثال الذي يكشف في الأب أو الأم أو كليهما ، وقد يكون هذا المثال ظاهراً ، لا محالة للتخفى فيه ، وقد تكون معه محاولة للتستر . لكنه يصل عادة ، وعلى أى حال الى علم الطفل ، كما يصله عادة ، في نفس الوقت تحذيرات وقيود شديدة مرتبطة بالمسألة الجنسية . ففي الأسرات التي يتصف أربابها بسوء السلوك ، كثيراً ما يصحب سلوكهم محاولة تستر يشتد معها الآباء على الأبناء بدرجة غير عادية ، مما يخلق صراعاً نفسياً شديداً بين الرغبة في اشباع النزعة الغريزية التي تشجعها الأمثلة الواقعية ؛ والخوف أو الاشمئزاز أو غير ذلك مما يفرسه الآباء أنفسهم . ومن ثم نجد تذبذباً ، وعدم استقرار في الاتجاه الجنسي ، تصحبه نوبات من ممارسة العادة السرية ، أو الاجتماع بالمومسات ، أو الاجتماعات الجنسية الشاذة ، أو ما يشبه ذلك . ويبحث الفتيان والفتيات عن اللذة الجنسية لشغفهم باستطلاعها ، وقد تثبت لديهم بحكم الممارسة والتعود . ويبحث بعضهم

عن الاتصال الجنسي للحاجة الى العطف ، ولذا نرى مع بعض الحالات أن تفكك روابط الأسرة عامل أساسى يتبعه أحيانا فقد الطفل لعطف أسرته • ويقع كثير من القتيات فى حبائل الشبان ، ان كن يعشن مثلا مع زوجات آبائهن أو أزواج أمهاتهن ، اذ أن نفورهن من الجو الجاف أو القاسى يسهل لهن الوقوع فى جو آخر يبدو أكثر عطفًا وأكثر حنوًا • والعلاقة الجنسية يشعر فيها الشخص عادة بنوع من عطف الفاعل ، أو على الأقل بنوع من اللذة الجنسية يطفى على الألم أو الشقاء النفسى (١) •

وكنا نجد فى بعض الحالات طفلا ذكرا ، وسيم الوجه ، تعيس النفس — بسبب سوء معاملة والديه له ، أو لجفاف جو المنزل ، أو لتفكك الروابط العائلية بسبب التشاحن أو الطلاق أو غير ذلك — يقع فريسة لآخرين فيستغل استغلالا جنسيا مفرطا • ونجد هذا أحيانا فى المؤسسات التى يعيش فيها الناشئون بالقسم الداخلى • وهناك قد تتخذ المسألة الجنسية أداة للتخويف • ويقع بعض الأولاد فيها بسهولة جريا وراء العطف والحماية ، أو هربا من التهديد بالضرب أو تشويه السمعة • ونعلم كذلك أن العلاقات الجنسية من نوع اللواط والسحاق وما يشبه ذلك ، تكثر حين يكبر العائق بين اختلاط الجنسين ، وتكثر كذلك حين توجد حاجة ملحة للعطف • ولعل هذا يفسر ما يحدث فى السجون والملاجئ من اتصالات جنسية تقع عادة على مدى واسع •

نرى مما تقدم أن المشكلات الجنسية كغيرها من المشكلات توضع جل بذورها عادة من السنوات الأولى بسبب انعدام استقرار الجو المنزلى أو

(١) يلاحظ أن فقد السعادة قد تعوضه اما سعادة أخرى أو لذة حسية • ولذلك يبحث تعساء النفس أحيانا عن شرب الخمر ، أو الاغراق فى التدخين ، أو الشره فى الاكل ، أو الاستمناء ، أو غير ذلك من اللذات الحسية التعويضية التى سبق أن أشرنا إليها فى الفصل الثالث عشر (ص ٢٥٨) •

قلة استقرار العلاقات بين الوالدين وموقفهما من المسائل الجنسية ومقدار ما يوضع عليها من قيود غاشمة • ويتأثر السلوك الجنسي كذلك بالظروف الحالية والآمال المستقبلية ، كما يتأثر بعوامل أخرى كآمنة في كل من الأسرة والمجتمع •

الاستمناء

ومن العادات التي يذعر لها الآباء والمدرسون ما يسمونه بالعادة السرية أو الاستمناء ، وهذه العادة أكثر انتشارا بين المراهقين من البنين منها بين البنات • وتعلل « شرلوت بهلر^(١) » ذلك بأن الحاسة الجنسية عند البنين محلية ومركزة في الأعضاء التناسلية ، ولكنها في البنات عامة وموزعة على مساحة كبيرة من سطح الجسم •

وقد يبدأ اللعب بالأعضاء الجنسية في سنى الطفولة الأولى عن طريق اللعب العادي أو الرغبة في الكشف العادي لأجزاء الجسم أو أى دافع سطحي بسيط • وقد يشتق الطفل من هذه الملامسة لذة كما يشتقها من أى جزء آخر من أجزاء جسمه ولكن يحدث أحيانا أن يلفت الكبار نظر الطفل الى ما يعمل بقصد صرفه عنه ، فتكون النتيجة أن يتجه ذهن الطفل اليه ويكسب في نظره أهمية بالغة ؛ وذلك لما يظهره الوالدان أمامه من علامات الانزعاج والتألم ، والرغبة في منعه من الاستمرار في هذا النوع من اللعب • وقد وصل المنع في إحدى الحالات الى ربط يدي الطفل ورجليه الى جانبي السرير حتى لا يحدث احتكاك من أى نوع • مما ركز اهتمام الطفل بأشد صورة ممكنة في العضو التناسلي وزاد من أهميته في نظره ، ومما وجه انتباه الطفل كذلك الى قبح العضو ، وقذارته ، وارتباطه في ذهنه بارتباطات قد يكون لها أثر سيء في مستقبل حياته •

(1) C. Buhler : From Birth to Maturity.

ومما يساعد على تثبيت اللعب الجنسي عند صغار الأطفال عدم شعورهم بالسعادة لسبب من الأسباب ، أو شعور عام غامض لديهم بحالة القلق وعدم الارتياح وحسرة الطفل على نفسه ، وافراطه تبعاً لذلك في تحصيل نوع من اللذة شبيه بمص الأصابع يصير سلواه في شقاء نفسه ، وهذا النوع من اللذة قد يكتشفه — كما قلنا — عن طريق الصدفة في أثناء اللعب وكشف العالم المحيط به وموقف الناشئ من اللذة الجنسية في هذه الحالات شبيه بما سبق أن ذكرناه عن الشره أو التدخين .. أو ما الى ذلك •

ولذلك يجب العمل على أن ينشغل ذهن الطفل ببعض الميول والهوايات العملية التي يشعر مع تحقيقها بالانتاج الملموس • وبذلك يتجه الى الابتداع والانتاج والعمل اليدوي كمصدر للسُرور ، بدلا من أن يتجه الى أجزاء جسمه المختلفة كمصادر للذة أو لمجرد السلوى • كما يجب أن تراعى القواعد البسيطة التي قد تساعد الطفل على وقايته من الاستمنااء كاتساع الملابس ، والنظافة المحلية ، ومنع المهيجات بأنواعها المختلفة ، والتمتع بالفسحة ، والهواء الطلق ، ومنع كل ما يترتب عليه الشعور بالوخم ، والميل الى النوم وما الى ذلك •

ويجب عند علاج الاستمنااء عند الأطفال أن نلاحظ أنه اذا كان يصاحبه انفعال واستغراق كان راسخاً عميق الأصل ، وان كان لا يصاحبه انفعال واستغراق ، فهو لعب عادي ، بسيط سريع الزوال • ويراعى عند العلاج كذلك عدم تناول العرض الظاهري فقط ؛ وانما ينبغي تناول أسبابه ، والظروف التي تساعد على ظهوره ، فنغير منها حتى ينصرف الطفل عن هذه العادة • على أن جزءاً من العلاج يتجه الى الأغراض نفسها • فيمكن تشجيع الناشئ على الاقلال التدريجي من هذه العادة حتى تزول • ويمكن اقناع الناشئ بالسُرور المترتب على النجاح في ضبط النفس .. الى غير ذلك •

والاستمناء في دور المراهقة عند البنين بنوع خاص وسيلة يتخلص بها المراهق من حالة التوتر النفسى الناشئ من النزعة للتعبير الجسدى وعدم القدرة على اشباعها . ويلاحظ أن أكثر النشء ميلا الى ممارسة العادة هم أكثرهم شقاء ، وأكثرهم فراغا ، وأكثرهم عجزا عن ملء فراغهم بإنتاج يجلب احترامهم لأنفسهم ، واحترام غيرهم لهم . وقد لوحظ أن القردة نفسها لا تمارس الاستمناء الا في حالة الحبس وعدم توافر الفرص للنشاط الحر الوسع المدى .

والاستمناء مضر ولا شك ، غير أننا نبالغ عادة في تصوير درجة اضراره بمن يمارسه مبالغة تجعل أثر ضرره في الناشئ أثرا مضاعفا . وقد نسبوا في الماضى كل ضرر يمكن تصوؤره للاستمناء ، فنسبوا اليه السل ، وفقر الدم ، والجنون ، وضعف البصر ، وفقدان القوى الجنسية والأمراض الروماتيزمية ... وغير ذلك .

وتنشأ بعض أضرار الاستمناء نتيجة الشعور باللذة التى يكتسبها المراهق من العملية نفسها ، لا سيما حين يركن اليها لتخلصه مما يشعر به من توتر جسمى ونفسى . ونتيجة سماعه الكبار يعلنون أضراره ، ومخالفته للخلق والدين ، وغير ذلك . فيحدث عند المراهق صراع بين الرغبة في الممارسة ، وتأنيب الضمير ، فيتكون عنده شعور بالخطيئة واحساس بحقارة نفسه ، وقذارتها ، وعدم لياقتها باحترامه ، أو احترام غيره . وتتكون الى جانب هذا الشعور رغبة ملحة في الممارسة ، مما يمزق نفسه ويشتت قواه في اتجاهات مختلفة لكل منها قوته البالغة . فلاتجاه الغريزة الجنسية قوة كبيرة ، ولاتجاه التقاليد والأخلاق وما الى ذلك قوته البالغة . ومن أضرار الاستمناء أنه ينشط افرازات الغدد التناسلية مما يزيد في الحاجة اليه بعد ممارسته ، ومما يسهل تكوؤن العادة ، ورسوخها ، فتصير مستندة — بجانب العوامل الأخرى — الى حاجة فسيولوجية جسمية ،

يترتب عليها احتمال الافراط فيها ، ويلاحظ أن وسيلة الاستمنااء نفسها غير طبيعية من حيث الوضع العام ، بل من حيث المثيرات المحلية ، إذ أن درجة خشونة هذه المثيرات ، ودرجة حرارتها ، وشكلها عامة ، تختلف عنها في المثيرات الطبيعية • وهذا يجعل من يمارس العادة السرية بكثرة قليل القدرة بعد زواجه على الاتصال الجنسي الطبيعي، وذلك لسبق تعودده ممارسة المسألة الجنسية في جو يختلف اختلافا جوهريا عن الجو الطبيعي ، سواء في خصائصه المحلية أو العامة ، وبذلك قد يكون ادمان الاستمنااء في المراهقة سببا من أسباب عدم توافر السعادة الزوجية في المستقبل • ومع ذلك كله فانه سبب تمكن ازالته ، وتمكن معالجته •

ويعزى الى الاستمنااء أنه أسهل الطرق لمواجهة الصعوبات الجنسية الذاتية وكثرة الالتجاء اليه تؤدي الى الاكتفاء به ، والشعور بالاكتفاء بالذات لتحقيق الملذات • وهذا يجعل النشء بعد اكتمال نموه أقل جرأة على الاتصال بالجنس الآخر ، وأميل الى العزلة ، والابتعاد ، والسلبية ، وأميل الى اتباع أسهل الطرق لاشباع اللذة الجنسية ، بدلا من الطرق الطبيعية التي تتطلب جرأة ، ومخاطرة ، وعملا ايجابيا • والذين يميلون للاستمنااء أميل للاتصاف بأغلب خصائص الانطواء النفسى • وبالإضافة الى ما ذكرنا من أسباب للاستمنااء ، فانا نؤكد أنه مظهر لأسلوب عام للسلوك ، ظهر نتيجة المعاملة الأولى ، فاذا تذكرنا أن الاستمنااء هو اتباع أسهل الطرق وأقصرها لاشباع اللذة الجنسية الملحة ، التي لا يقوى المراهق على مقاومتها ، وحرمان نفسه منها ، تذكرنا أيضا أنه قد يكون نتيجة لأن ظروفه الأولى كانت تشبع فيها كل ملذاته دون أى عائق ، أو لأنه كان محروما فنما مشغوبا بنوع من اللذة يسعى وراء البحث عنه بأية طريقة ، أو لأنه كان يعامل بقسوة جعلته ينمو جبانا ، قليل الجرأة ، يتبع أسهل الطرق لتحقيق رغباته ، أو لآى عامل آخر يترتب عليه الشعور بالشقاء وفقدان الأمن •

وعلى العموم فالاستثناء — كأية مشكلة أخرى — لا يظهر قائما بذاته،
وانما هو جزء من أسلوب السلوك العام ، ولا يجوز أن يعالج بمفرده ؛ وانما
يعالج تبعا لمعالجة الشخصية كلها •

تلخيص المشكلات الجنسية وأسبابها

يتبين من كل ما تقدم أن المشكلات الجنسية بأنواعها المختلفة ، مرتبطة
بنمو الفرد ، وعلاقته ببيئته الأولى ، وخبراته المشتقة من هذه البيئة • إذ
يقف الطفل غالبا في أول حياته من أعضائه التناسلية موقفا بريئا ، ولكن
الآباء قد يكون عندهم اتجاه الاستقذار ، والخوف ، والشعور بالجرم نحو
اللبس الجنسي العرضي ، فيتأثر الأبناء بذلك في الاتجاه غير الصحي •

وقد يحدث تثبيت على الأب ، أو الأم بسبب التدليل ، وميل الآباء أو
الأمهات الى حمل الأطفال ولمسهم والتمسح فيهم والاسراف في تقييلهم
وضمهم اليهم بشره ، واشتقاق اللذة من هذا كله ، مما يثير الأطفال ويجعلهم
ميالين أحيانا الى اشتقاق اللذة من اللمس وما اليه • وقد يترتب على هذا
— كما قلنا — تثبيت على الأم أو الأب ، فيترتب عليه انحراف في الاتجاه
الجنسي ، وهذا أحد التفسيرات التي تعطى لتكوين الأساس للنزعة الجنسية
المثلية (Homosexuality) ، أو التعبيرات الشاذة للنزعة الجنسية الغيرية
(Heterosexuality)

وأما اهمال الأطفال ، وعدم اشباع حاجاتهم الطبيعية الى العطف ، فقد
يترتب عليه رغبة الطفل في الانتقام والايذاء ، حتى يشعر الناس بوجوده •
وهذا أحد الآراء التي تعطى لتفسير نزعة حب التعذيب أو السادية (Sadism)
وقد يفضل الطفل المهمل في بعض الأحيان أن يضرب ويؤذى ، لأن الضرب
والايذاء في نظره مصدر للذة ، لأنه نوع من الاعتراف بوجوده • وهذا أحد
تفسيرات ظهور الميل الى حب العذاب أو ايذاء الذات أو الماسوكية
(Masochism) • وقد تتخذ السادية عند اكتمال النمو ميلا الى ايذاء المحبوب

وضربه ؛ حتى يتم الاستمتاع الجنسي ، أما الماسوكية فقد تتخذ عند اكتمال النمو اتجاهها الى أن يضرب الشخص ويعذب من محبوه ، حتى يتم الاستمتاع الجنسي •

ولا يمكننا أن ندعى أن هذا حصر للمشكلات الجنسية ؛ فهناك البرود الجنسي ، والقوران الجنسي ، والاستهتار والاستسلام الجنسيان ، والبغاء ، والتصرف الجنسي المصحوب بجرائم^(١) ، وغير ذلك مما لا يسهل حصره في صفحات قليلة كهذه •

وقد لاحظنا في دراسة حالات البغاء الجنسي بأنواعه أنها ترتبط بالانحطاط النفسى المعنوى • وهذا الأخير قد ينشأ عن فقدان العطف الناشئ عن انحلال الأسرة أو ما يشبهه •

فالمشكلات الجنسية كغيرها من المشكلات — التى سبق الكلام عنها — تنشأ عن طريق التربية الأولى للطفل وصلته بمجال حياته فى مختلف أدوارها • فعن طريق التربية الأولى ، ومركز الفرد فى مجال حياته ، والتغيرات الطارئة على هذا المركز تتكون عند الطفل اتجاهات نفسية عامة تتخصص بفعل الظروف الحالية من استثارة وتقليد ، وبفعل الحالة الجسمية والمزاجية ، وما الى ذلك • ولعل ما تقدم كله يدلنا على شدة الحاجة الى دراسة التربية الجنسية •

(1) J. Paul De River : The Sexual Criminal

المراجع

- Adler : Guiding the Child.
Blanton : Child Guidance.
Buhler : From Birth to Maturity.
C. Burt : The Young Delinquent.
Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.
De River, J. Paul : The Sexual Criminal.
Gruenerg : Guidance of Childhood and Youth.
Gruenberg : Parent Education.
Hollingworth : The Psychology of Adolescence.
Howard : Mental Health.
Kanner : Child Psychiatry.
Meagher : A Study of Masturbation.
McDougall : Character and Conduct of Life.
N. Haire : Encyclopaedia of Sexual Knowledge.
Neill : The Problem Child.
Neill : The Problem Parent.
Shaffer : Psychology of Adjustment.
Stekel : The Homosexual Neurosis.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.
Thom : Normal Youth.
Van De Velde : Ideal Marriage.
Waters : Youth in Conflict.
Weatherhead : The Mastery of Sex.

الفَصِيلُ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ

التربية الجنسية

لا يفكر الناس عادة في أن هناك مشكلة جنسية يمكن أن تحل عن أى طريق منظما كان أو غير منظم ، مقصودا كان أو غير مقصود . ويرى البعض الآخر أن يتركوا أولادهم يتعلمون ما يتعلمونه من المسائل الجنسية بأنفسهم ، فيرون ألا يكون هناك جهد ايجابى من ناحيتهم كآباء أو معلمين أو مرشدين في هذا الاتجاه . ويرى آخرون ألا يتركوا هذه المسائل للطبيعة ، بل يرون وجوب الحيلولة بين الناشئ ، وكل ما يمكن أن يوحى بالمعرفة عن المسائل الجنسية ، فلا يصح أن يرى ما يحدث مثلا بين الحيوان من اجتماع جنسى . وبذلك تصير المسائل الجنسية في نظر الطفل سرا شائئا ، ولغزا مغلقا . وقد يبقى جاهلا بكل ما فيه ، الى أن تتدفق فيه الأحاسيس الجنسية فجأة تدفقا عنيفا ، والى أن تظهر عليه علامات البلوغ الظاهرية ، مما قد يزعجه ويزيد من تنحيه عن المعرفة أو التوجيه . ويترتب على هذا التدفق الجنى المصحوب بالجهل والخوف ، وبالشعور بالقذارة أغلب المشكلات الجنسية المعروفة في دورى المراهقة والبلوغ . وفي الحياة الزوجية يترتب عليه أغلب أنواع الشقاء الزوجى . وتترتب عليه أيضا مشكلات أخرى تظهر نتيجة لتعقد المشكلة الجنسية ، كجنون التدين وحالات « السيكاستينيا » (وكانت تسمى الى عهد قريب بالنيوراسثينيا) ، و « الهستيريا » و « الملائكوليا » وغير ذلك .

يضاف الى ما تقدم أن تطور المدنية في الاتجاه الذى نألفه يزيد في

الضغط والتقييد والاستثارة في نفس الوقت لنشاط الناشئين من الناحية الجنسية • وهذا يجعل الموقف مليئا بالصعوبات التي تلح في طلب الحل في اتجاه التربية الجنسية •

ويقصد بالتربية الجنسية اعطاء الطفل الخبرة الصالحة التي تؤهله لحسن التكيف في المواقف الجنسية في مستقبل حياته • ويترتب على اعطاء هذه الخبرة أن يكسب الطفل اتجاهها عقليا صالحا ازاء المسائل الجنسية والتناسلية • ومن الواضح أن تكوين الاتجاه العقلي لا يقتصر على اعطاء المعلومات والتفسيرات التي تنير هذا الميدان أمام الناشئ • فالمعلومات الجنسية بمفردها غير كافية لتكوين هذا الاتجاه العقلي الذي لا ينمو الا عن طريق الاحتكاك المستمر بين الناشئ ، وبيئته الاجتماعية من آباء ومعلمين وزملاء من الجنسين • كذلك لابد من كسب خبرة مشابهة عن طريق الملاحظة الحسية وغير الحسية لحياة النبات وحياة الحيوان بأنواعها المختلفة^(١) • هذا الاحتكاك المستمر يؤدي الى كسب المعرفة بنوع خاص ، ويؤدي بوجه أوسع الى كسب الاتجاه العقلي ، ولذا كان من الضروري الاعتماد على التعليم والتقليد والايحاء والتوجيه •

ولهذا كله وجب أن نضع في متناول الطفل مصادر الخبرة الشخصية ، وأن نتصف — نحن الآباء والمعلمين — بالاتجاه العقلي الصالح الذي نرغب أن يكسبه الطفل منا عن طريق الامتصاص أو التقليد والايحاء • ووجب كذلك أن نستنتج أن التربية الجنسية أوسع بكثير من التعليم الجنسي وأنها لا تقتصر على سن معينة بل تبدأ من السنوات الأولى في حياة الطفل •

(١) انظر « قصة الحياة في جميع الأحياء » للدكتور القوصي والدكتور طنطاوي •

موقف الطفل من المسائل الجنسية

ويجب أن يكون موقف الطفل الأول من المسائل الجنسية كموقفه من جميع المسائل الأخرى • والطفل لحدائته في هذا العالم ، ولضرورة حسن تكيفه معه ، لابد أن يكسب خبرة عن البيئة المحيطة به ، فيفحص الأشياء ، ويلعب بها ، ويشقى منها خبرة واسعة ، وبمجرد نمو قدرته اللغوية يكمل وسائل بحثه بالأسئلة التي يوجهها لمن حوله عامة ، ولوالديه بنوع خاص ، وهو يثق عادة في قدرة والديه وصدقهما ثقة مطلقة •

ومما يتجه اليه ميله للبحث ، وشغفه لاستطلاع جسمه ؛ فكما يضع يده في فمه ، وكما يعض أصبع رجله وهو مستلق على ظهره ، قد تمتد يده الى بقية أجزاء جسمه ومن بينها أعضاؤه التناسلية والخراجية ، ولذا كان اللعب في الأجزاء التناسلية عند الأطفال في غالب الأحيان كأي نوع من أنواع اللعب ، ولا سيما ان كان مجردا من حالة الانفعال والاستغراق الشديدين اللذين يحدثان نادرا •

وحين يتقدم الطفل في السن ، يبدأ فيلاحظ الفروق بين مختلف الناس من ذكور واثاث ومن كبار وصغار ، ومن انسان وحيوان ، كما يلاحظ ويدقق في الفحص عن أوجه الشبه والفروق ، فيسأل أسئلة تتعلق بمنشئه ، ومنشأ اخوته ، ومنشأ والديه ، وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة • وميل الطفل لاستطلاع المسائل الجنسية ميل ثقى يتجه الى المعرفة الخالصة • وقد قال « برترند رسل »^(١) في هذا الصدد : ان هذا الميل للاستطلاع الجنسي ليس له لون أو طابع معين في دور الطفولة الأولى ، ولكنه جزء من الميل للاستطلاع العام الذي يتصف به الطفل • وقالت « الدكتور لوراهاتون »^(٢) في هذا أيضا : ان الاستطلاع الجنسي واللعب الجنسي يتخذان صورة الاتجاه

(1) B. Russell : On Education. p. 199.

(2) L. Hutton : Co-education, British Journal of Medical 1939, I, pp. 62-71.

العام للكشف أو النزوع للمخاطرة • ويجب معاملة اللعب الجنسي على أنه لعب ، لا على أنه سلوك سيئ ؛ لاسيما أنه يحدث مجردا عن الانفعال الجنسي •
وانما يعقد الموقف ويخلق الانفعال تدخل الكبار وموقفهم تجاه هذه المسائل • ومن ثم يبدى الطفل زيادة الشغف بالبحث عن طريق الخبرة الحسية وعن طريق الأسئلة عن هذا العالم الذى يقع كله فى خبرته بيئة موحدة الأجزاء ، لا فرق فيها بين المسائل الجنسية وغير الجنسية • ويدهشه بالطبع أن بعض هذه الأسئلة يجد صدرا رجا من الوالدين ويجد بعضها الآخر سخرية أو غضبا أو صمتا أو تخرجاً أو انفعالا من أى نوع ، مما يوحى الى الطفل بغرابة المسائل الجنسية واختلافها بصورة جوهرية عن غيرها من المسائل •

وقد قام الباحثون المختلفون أمثال «بياجيه Piaget» ، وغيره ببحث أسئلة الأطفال فوجدوا أنهم يسألون من تلقاء أنفسهم قبل سن التاسعة أسئلة تبين الاهتمام بالأجزاء الجسمية ووظائفها ، وبالأعضاء التناسلية والفروق بينها ووظائفها ، والاهتمام بالعمليات الاخراجية وبأصل الحياة وعمليات النمو ، والفروق بين الصغار والكبار ، والذكور والاناث ، والانسان والحيوان من حيث تركيب الجسم وحكمة الفروق ، وأوجه الشبه ، وغير ذلك • ويسأل الأطفال أسئلة من النوع الآتى : —

من أين يأتى الأطفال ؟ ولماذا كان لأمه ثدى ، وليس له مثله ؟ وعندما تكبر البنت لتصل الى سن أمها ، فكيف يكون اذ ذاك شكل الأم وحجمها ؟ وعند ما كانت الأم صغيرة مثله ، فأين كان هو نفسه وكيف ولدت أمه ؟ وتسأل البنت هل سيكون لها شارب مثل أبيها ؟ ولم لا ؟ •

ويرى كثير من الباحثين مثل «الدكتورة هتشنسون» ، و«برتراند رسل» أن عبء التربية الجنسية يجب أن يقوم به الآباء • ويرى «رسل» وغيره فوق ذلك أن محور التربية الجنسية هو الاجابة الصريحة عن أسئلة الطفل ، والاتجاه العلمى الخاص الهادى عند الاستماع لها ، والاجابة عنها •

موقف الآباء من الأطفال فى المسائل الجنسية

نعلم أن الأبناء يمتصون الاتجاهات من آبائهم عن طريق الإيحاء ، والأم بحكم كثرة تعاملها مع الطفل لا بد أن يكون نشاط الأعضاء التناسلية والاخراجية ميدانا لهذا التعامل • فإذا كانت تظهر اشمئزازها الشديد عند غسل ابنها أو مسحه ، أو توقع عليه عقوبة شديدة اذا حاول أن يراها عارية ، فإن هذا يوحى اليه بما يجب عليه اتخاذ ازاء المسائل الجنسية من تحرز وشمئزاز • وإذا رأى التجهم ، والصمت ، والتحرج ان سأل أى سؤال يتعلق بالناحية الجنسية ، فانه قد يتجه الى كتمان كل ما يجيش بخاطره عنها • والطفل فى كل هذا ربما لا يدرك الفروق الدقيقة بين مواقف والديه ازاء المسائل الجنسية وموقفهما ازاء المسائل غير الجنسية ، ولكنه مع ذلك يتأثر بهذه الفروق مهما كانت دقيقة •

ويترب على ذلك أن يزداد شغف الطفل بالمسائل الجنسية ، ويشعر بأهميتها ، وضرورة الاندفاع لبحثها ، كما يشعر فى نفس الوقت بأنها تنصف بكثير مما يتصل بالجرم والخطيئة والقذارة والخوف • يضاف الى كل ذلك أنه يعلم بطريقة ضمنية أو صريحة ما يحدث بين والديه ، كما يعلم أن المسائل الجنسية هى التى أدت الى وجوده فى الكون ، وبذلك يقع بين أمرين : أحدهما شدة الشغف بأمر تدل كل الدلائل على أنه مهم شائق مرغوب فيه • وتنشأ أهميته بسبب ارتباطه بلفظ الوجود ، وبسر العلاقة بين والديه ، وبما يحاط به من الخوف والتستر • وثانى هذين الأمرين أن المسألة الجنسية التى يشغف بالبحث عنها مسألة شبه اجرامية قدرة مخيفة شائنة وبذلك تصبح المسألة الجنسية فى نفسه سرا هاما ، لذيذا ، قدرا ، شائنا ، وتبقى بسبب ذلك مصدرا للتناقض فى الاتجاهات النفسية •

ولعل هذا يدلنا على ما يجب أن يكون عليه موقف الآباء ازاء الأعضاء التناسلية والاخراجية والمسائل الجنسية • ومن ثم يكون موقفا طبيعيا ،

هائداً ، مجردا من الانفعال ما أمكن ، وبذلك لا يوحى سلوك الوالدين بما يجعل من العسير على الطفل أن يحقق نزعاته الجنسية تحقيقاً تحفه السعادة عند ما يكبر . ويجب على الآباء أيضاً أن يعنوا بالآثار والخبرات الجنسية الأولى للطفل لتكون صحية وصحيحة ما أمكن . كما يجب عليهم أيضاً أن يشبعوا شغف الطفل بالاستطلاع أولاً بأول ، إذ أن هذا الاشباع مما يهدى من حدة الشغف ، ومما يضمن حصوله على معلوماته واتجاهاته العقلية من مصادر طيبة . وإن لم يشبع الطفل هذا الشغف — كما ذكرنا — فقد يحصل على معلوماته من زملائه أو من الخدم أو السوق والأشرار .

وواجب الآباء أن يجيبوا عن أسئلة الأطفال اجابة صريحة صحيحة ، هادئة تلونها الروح العلمية الخالصة ، وأن يجيبوا عن هذه الأسئلة بما يلائم مقدرة الطفل على فهم الاجابات .

ويجب أن يكون موقف الآباء من أسئلة الأطفال ، ولعبهم وشغفهم بالاستطلاع موقفاً ثابتاً ، سواء أكانت هذه الأسئلة متصلة بالعالم المادى أو الاجتماعى ، أم كانت تتصل بجسمه وأجزائه ، ووظائفه ، وخصائصه ، والفروق بين جسمه من هذه النواحي وجسوم غيره من الانسان والحيوان . ويرى البعض أن الفيلسوف العالمى « برتراند رسل » ^(١) قد تطرف في رأيه حيث قال : انه يجب أن يسمح للطفل من أول الأمر أن يرى والديه وأخوته وأخواته عراة كلما حدث ذلك بصورة طبيعية اعتيادية غير مقصودة . ولا يجوز أن يكون هناك اظهار للتحرج ازاء رؤيتهم عارين . لأنه يكفى أن يعلم الطفل بعد ذلك من ملاحظة مايجرى من آداب التستر أمر واجب . يترتب على ذلك — فى نظره — أن يكشف الطفل فى الحال الفروق بين أمه وأبيه ، ويوازن بينهما ، ويعرف كذلك الفروق بين الاخوة الذكور والأخوات الأنثى . وسواء

(1) B. Russell : On Education p. 170.

أكننا نوافق على هذا الرأي أم لا نوافق فإن « رسل » يرى أنه متى كشف الموضوع الى هذا الحد فإنه يفقد قيمته كموضوع يشغف الطفل بالبحث فيه . ومثل السر المعروف في ذلك مثل الصندوق المفتوح لا يسترعى انتباهها ولا يغرى بالفحص . وكل سؤال يتقدم به الطفل في هذا الدور (السنوات الأولى) يلزم أن يجاب عنه بما يلائمه ؛ كما يجاب عن أى سؤال يرتبط بأى موضوع آخر .

ويخطئ الآباء حين يلتزمون الصمت ازاء أسئلة أبنائهم ، لأن الصمت ليست له نتائج سلبية فحسب ، بل انه يوحى بأفكار ايجابية ، تتضمن خطورة الموضوع ، ووجوب معاملته كسر شائن . ولذا كان الصمت مؤديا الى تقور الأبناء من الآباء ، والى بحثهم عن المعرفة من مصادر غير مرغوب فيها اطلاقا كالخدم مثلا .

التربية الجنسية للآباء

يتبين مما تقدم أن من أولى الواجبات أن يتربى الآباء التربية الجنسية الصالحة . وقد قامت « مسز جرينبرج » ⁽¹⁾ بهذه التجربة في أمريكا منذ أكثر من ثلاثين سنة . وهى ترى أن الآباء — بحكم تأثيرهم الأول والمستمر على الطفل من جميع نواحيه — لهم أهمية خاصة من حيث وظيفتهم في التربية الجنسية للأطفال . ومن رأيها أنه ليس من الضروري أن يصل الآباء الى نهاية المعرفة والخبرة الفنية في التربية الجنسية ، اذ يكفى أن يتمكنوا من معالجة المسائل الأساسية الأولى . وطريقة تربية الآباء تربية جنسية ، هى اشتراكهم في حلقات للدراسة الجمعية ، واستماعهم لأحاديث المتخصصين ، واعطاؤهم فرصة المناقشة ، وتبادل الرأي والخبرة ، مما له أثر من حيث التنوير ، ومن

(1) Gruenberg : Discussing the Work of the Home : Towards A New Education (N. E. F. p. 244).

حيث تهدئة الحالة النفسية • وللمناقشات أثرها القيم بالنسبة للآباء الذين يمنعون التردد والخجل عادة عن المناقشة الحرة الصريحة ، اذ يجرءون — تحت ظروف حلقات الدراسة الجمعية — على التكلم والمناقشة مما يساعد على تخليصهم من كثير من النزعات المكبوتة ، ولو تخليصا جزئيا • وترمى هذه الحلقات أيضا للوصول الى سلوك جنسى طيب قد يؤدي الى توطيد دعائم السعادة الزوجية • ولا بد أن يتوافر في محيط الطفل ازاء الأمور الجنسية مستوى راق وجو يشعره بالسعادة الزوجية ، كي يتكون لديه اتجاه جنسى صحيح •

ويتلخص برنامج التربية الجنسية بالنسبة للآباء ، في درسمهم المبادئ الأولية ، للتشريح وعلم الحياة ، وأسس الصحة الجنسية ، والفروق الفردية بين الذكور والاناث في مراحل النمو المختلفة ، والخصائص العقلية والجسمية للطفل في مراحل النمو المختلفة ، وما يجب اتخاذه ازاء نزعات الطفل ، ووجوب معاملة هذه النزعات كلها — ومنها النزعة الجنسية — على قدم المساواة ، ومراعاة أن النزوع الجنسي ليس في ذاته شرا أو خيرا ؛ انما الخير والشر في طريقة توجيهه وأساليب ممارسته • كذلك عليهم أن يعلموا شيئا عن التربية الخلقية والاجتماعية ، وحكمة التشريع ، والتقاليد ، والآداب الزوجية والتناسلية ، وأن يعرفوا أسس الاجابة عن أسئلة الأطفال والمراهقين والبالغين ، وأن الأساس في التربية الجنسية هو الموقف العلمى المستقر الهادى الخالى من الخوف من جانب الآباء •

وقد وجدت مسز « جرينبرج » ^(١) أن هذه الدراسات والمناقشات الجمعية تخلق بالفعل الاتجاه الوجدانى والعلمى الصحيح فى الآباء ، ولها بالتالى أثرها فى الأبناء •

(1) Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth p. 236.

قواعد عامة للتربية الجنسية

وهناك أسئلة عديدة تتعلق بالتربية الجنسية يمكن أن نلخص أهم اتجاهاتها فيما يأتي :

١ — هل تترك التربية الجنسية لمحض الصدفة ؟ أو يبذل في اتجاه تحقيقها جهد مقصود ؟

٢ — هل يقوم بها الوالدان أو الأطباء أو المدرسون ؟

٣ — وإذا قام بها المدرسون مثلاً فهل تعطى بطرق فردية أو بطرق جماعية ؟

٤ — هل تعطى التعاليم الجنسية قائمة بذاتها مستقلة عن كل ما حولها أو تعطى جزءاً من معلومات أخرى ؟

٥ — في أي سن تبدأ التربية الجنسية ؟

وقد سبق أن أجبنا عن بعض هذه الأسئلة في ثنايا ما تقدم ، وقرنا ألا تترك التربية الجنسية للصدفة ، لأن المسائل الجنسية شائقة وهامة ، ويسعى الطفل الى معرفتها — ان أخفيت عنه — من الخدم والزملاء • ويحتمل أن يقدم له هؤلاء معلومات خاطئة ، ملونة بلون مثير على غير الصورة التي تتوخاها • ويتلذذ عادة بعض الأطفال من تعليم من يجهلون من زملائهم شيئاً عن هذا السر • ونظراً لأنه سر شائن ، فهم يعلمونهم اياه بشيء من التكتّم ، مما يزيد الأمر خطورة في نظرهم • والطفل الذي يقف موقف المعلم ، يستعمل سيطرته ؛ فيلجأ الى وسائل التعذيب العقلي والمنع والتكبر والترفع والمبالغة والاختلاق وغير ذلك • ويمهد أحياناً بعض الأطفال المراهقين لبعضهم الآخر فرصة الحصول على خبرة جنسية حقيقية ، تحت ظروف تترك عادة أسوأ الآثار النفسية وراءها •

ونظراً لمعاملة الزملاء للمسائل الجنسية كأنها سر عظيم فانهم يميلون الى التندر بها في اشاراتهم ، و أحاديثهم ، ونكاتهم ، ورسومهم في دورات المياه ، وغير ذلك •

لهذا يجب أن نعمل على اعطاء المعلومات بطريقة صحيحة في المنزل والمدرسة ، وأن تعطى بحيث لا تصبح سرا شائنا ، أو لغزا عظيم الشأن . وقد اختلف الباحثون في كيفية اعطاء هذه المعلومات ؛ أعطى بطريقة فردية أم جمعية ؟ وان كان بعض أئمة علماء النفس ، أمثال « شتيكل »⁽¹⁾ « Stekel » وغيره يرون الاقتصار على الطريقة الفردية . قال « شتيكل » في هذا الصدد : ان التعليم الجمعي في المدارس يسبب مشكلات نفسية عديدة (Enlightenment en masse in schools, starts countless traumas)

ولكن مع ذلك يتجه أغلب الرأى الآن نحو التعليم الجمعي ، مع اعطاء الفرصة لاجابة الأفراد عن مشكلاتهم في جلسات فردية خاصة ، انهم أرادوا ذلك .

والذين لا يرضون عن التعليم الجمعي يقولون : ان التلاميذ ليس لديهم الاستعداد للاستفادة في وقت واحد من هذا التعليم ، ويقولون : ان لكل تلميذ تاريخه الخاص وخبرته ومشكلاته الخاصة . ويرى بعض هؤلاء أن من مآخذ الطريقة الجمعية أنها تقلل من قدسية الموضوع ، وتسهل التحدث فيه .

غير أن التعليم الجمعي يتميز عن الفردى في ناحية هامة : فالطفل الخجول قد يقل خجله في حالة التعليم الجمعي ، حين يرى زميلا له يسأل سؤالاً ، فيجيب عنه اجابة علمية خالية من التخرج . ولا يحتمل أن يحدث هذا في الجلسة الانفرادية . واذا كان الطفل تلميذا في مدرسة ، فقد تتأثر نفسه اذا استثناه معلمه بهذا التعليم الفردى . يضاف الى ذلك أن التعليم الفردى قد يشعر بأن الموضوع على درجة كبيرة من الخطورة ، ولهذا أثر سيء محتمل الوقوع .

(1) Quoted by Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth p. 236.

وكانت الأسر في إنجلترا وأوروبا تلجأ الى طبيب العائلة لكي يعطى الناشئ ما يلزمه من استشارة جنسية • وفى هذا خطر كبير لأن الطبيب — وان توافرت لديه المعرفة — قد لا تتوافر لديه أساليب الشرح والتوضيح • ثم ان الطفل ربما ينظر الى الموضوع كأنه مرض أصيب به ، وربما ينظر اليه كأمر فى غاية الخطورة ؛ لما يرى فى عيادات الأطباء من آلات ، وأدوات ، وغير ذلك • وبالإضافة الى كل هذا ، فلا يمكن الطبيب عادة أن يوفر الوقت الكافى للناشئ فى موضوع واسع متشعب النواحي كهذا • والاتجاه الى هذا الرأى يحرم الطفل عادة من فرص استغلال التعليم الهادى البطيء ، الذى كان يجب أن يبدأ قبل ذلك بمدة طويلة ليستمر سنوات • ويوجه هذا الرأى جو الأسرة الى زيادة التكتّم ، وتحويل المسئولية من أنفسهم الى الطبيب نفسه • وهذا الاتجاه — وان ظهر فى أوروبا من زمن بعيد — فى سبيله الآن الى الزوال لعدم صلاحيته •

ترى من كل ما تقدم ، أن التربية الجنسية يجب أن تبدأ فى المنزل وتستمر فى المدرسة وتؤدى بالأساليب الجمعية والفردية وبالروح العلمية الصحيحة الهادئة ، ويتفق الرأى على أن تعطى المعلومات الجنسية لا كمعلومات أو دراسات مقتطعة ، قائمة بذاتها ، وانما تعطى كأجزاء متناسقة ومتكاملة مع دراسات أخرى • وقد قال فى هذا الصدد « الدكتور ادسون » رئيس لجنة الصحة المدرسية فى الولايات المتحدة ، ان الخبرات الطويلة قد دلت على أن الدراسات الجنسية القائمة بذاتها تفصل المعلومات الجنسية عن غيرها من المعلومات وتحملها شحنة انفعالية كبيرة وتجعل من الصعب هضمها وتمثيلها فى السلوك اليومى للطفل ^(١) •

(1) Long and varied experience of schools has demonstrated that the so-called «Sex Courses» tend to isolate and emotionalise materials, making it difficult to incorporate them into the everyday conduct of the child.

New Education Fellowship; Towards A New Education p. 242.

ولذلك وجب أن تعطى الدراسات الجنسية بالمدرسة ضمن دروس مشاهد الطبيعة ، وعلم الأحياء ، والصحة ، والتشريح . وفي السنوات المتأخرة تعطى الأمراض السرية ، والصحة الاجتماعية ، والأخلاق التناسلية ، والجنسية وحكمة التشريع الاجتماعى للزواج ، وقواعد تكوين الأسرة تكويننا صحيا .

أما عن سن بدء التربية الجنسية فلا شك أنه يجب أن يبدأ منذ السنة الأولى بتكوين اتجاه عام لدى الطفل ازاء المسائل الجنسية . وعندما يبدأ الطفل أسئلته ، يلزم أن يجاب عنها في حينها بما يلائم قدرته على الفهم . ويجب على العموم أن يلم كل ناشئ ، ذكرا كان أو أنثى ، قبل سن المراهقة بجميع المعلومات الأساسية في هذا الموضوع ، اذ لا تكون الحالة الاتقالية بعد هذه السن ملائمة لتقبل المعلومات بسهولة . ويجب أن تعطى الخبرة والمعلومات في كل مرحلة بالطريقة التى تلائمها . وان كان أغلب الباحثين لا يحدد سنا معينة يتم قبلها الايام بالتعاليم الجنسية ، غير أن جميعهم ينصحون بعدم التأخر الى بدء المراهقة ، وبوجوب البدء المبكر متى جاءت الفرصة . بل يرى « رسل » وجوب اعطاء الطفل جميع المعلومات اللازمة قبل سن العاشرة ، حتى ان كان غير شاعر بالحاجة الى الاستفسار عنها من غيره .

بعض المحاولات فى التربية الجنسية

دأبت بعض الهيئات العلمية والتعليمية فى انجلترا وأمريكا على نشر مايجب اتباعه ازاء التربية الجنسية ، ومن هذه نشرة قامت باعدادها « الدكتور بياتريس وب » للمجلس البريطانى للصحة الاجتماعية ، ومن رأيها أن مهمة شرح المعلومات الجنسية ينبغى أن تقع كلها على عاتق الأم ، على أن يساعدها الأب فى هذه السبيل . ولا يجوز أن يوكل الى الطبيب شئ من هذا العمل . غير أن المدرس يمكنه أيضا أن يتولاه بعد الاتفاق مع الوالدين . وترى أن

يبدأ التعليم الجنسى بالرد على الأسئلة التى يوجهها الطفل ، ويحسن التبكير بالرد كلما أمكن ذلك • ويجب أن تشمل المعلومات التى تعطى له حقائق عن التلقيح والتوالد فى النبات والحيوان ، وبعض الحقائق عن التغيرات التى تحدث فى النمو ، وبعض قواعد الصحة العامة ، والأخلاق والتقاليد المتعلقة بالجنس والتناسل ، وحكمة هذه الأخلاق والتقاليد • وبينت المؤلفة ، ماسبق أن بيناه ، فقالت : ان الموضوع لا يجوز أن يعامل كلغز ، ولا يجوز أن نعتبر أنه لا يهتم الأطفال الا بعد وصولهم الى المرحلة التى يحتاجون فيها للناحية الجنسية احتياجا مباشرا ، اذ أن ترك الطفل الى ذلك الوقت المتأخر يوقعه فى يد من يتطوعون لاعطائه معلومات وخبرات مشوهة •

وأهم ما يراعى عند اعطاء التعاليم الجنسية — فى نظرها — هوالاتجاه العقلى العام للوالد أو المدرس وايجاد رأى عام نحو هذه المسائل (١) •

وقد قامت هيئة المؤتمر السنوى للصحة الاجتماعية بأريكا بنشر ما قررت أنه النقط المتفق عليها نهائيا فى التربية من حيث الصحة الاجتماعية ونلخص أهم هذه النقط — كما أوردها « جرنبرج » — فيما يأتى :-

١ — يقصد بالتربية الجنسية جميع المسائل التربوية التى يترتب عليها اعداد الناشئين لمقابلة جميع مشكلات الحياة التى يكون مركزها الغريزة الجنسية ، والتى تظهر بصورة من الصور فى خبرة كل انسان عادى • وتشمل هذه المشكلات مدى واسعا جدا من خبرة الانسان : أبسطها المسائل الأولية المتعلقة بالصحة الجنسية الشخصية ، وأعقدها المشكلات الجسمية والاجتماعية والنفسية التى تتعلق من قريب أو بعيد بالسعادة الزوجية وحياة الأسرة بوجه عام •

(1) B. Webb : The Teaching of Children as to the Reproduction of Life : British Social Hygiene Council.

(2) Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth p. 243.

٢ — لا يجوز أن يكون هناك دراسات قائمة بذاتها تسمى الدراسات الجنسية ، ولا يجوز أن يكون هناك أجزاء من المناهج الدراسية في المدارس أو الكليات تسمى الدراسات الجنسية •

٣ — تقدم التربية الجنسية في المدارس ضمن دراسات أو موضوعات أخرى • وحيث ان التربية الخلقية الجنسية لاتخرج عن أن تكون جزءا من التربية الصحية أو الخلقية وجب أن يكون التوجيه الجنى والدراسات الجنسية — المقصود بها تكوين اتجاهات عقلية صحية وعادات طيبة ومثل عليا — جزءا لا يتجزأ من المنهج التعليمى والتربوى العام •

٤ — تدل الدراسات السيكولوجية على أن التوجيه الجنى للانسان ، وتدريب سلوكه الجنى يجب أن يبنى على أساس الاختيار الذاتى الحر ، المبني على الادراك والمعرفة وبمعنى آخر يجب أن تكون هناك ضوابط ارادية للدوافع والرغبات الغريزية التى تستثيرها أنواع المعريات والمثيرات المحيطة ، وتقويها ذكريات الماضى المتراكمة من أيام الطفولة •

٥ — ترمى التربية الجنسية الى اعطاء الناشئ أسسا للضوابط الارادية للسلوك ومن هذه الأسس : احترام الرأى العام المتعلق بالمسائل الجنسية ، وتذوق الآداب الجنسية وتقديرها ، ومعرفة النتائج القانونية والاجتماعية والطبية ، والشعور بالمسؤولية الشخصية والاجتماعية ، وتقليد بعض الأشخاص المثاليين ، والتعفف الرقيق المناسب بدلا من الخجل والرعونة اللذين كنا نلاحظهما قديما ، أو الوقاحة التى نلاحظها الآن ، واحترام الأنوثة والرجولة ، وتكوين عادات ضبط الذات ، ومعرفة العلاقات العامة بين المسائل الجنسية والحياة ، وانماء وسائل الترفيه العقلى والجسمى لا كوسائل لاعلاء الغريزة الجنسية ، بل كوسائل لابدائها ، والعلم بجزاء الامتناع والتعفف عند الناشئين ، ودراسة الأدب الذى يصور الحب فى أسمى الصور وأرقاها •

٦ — تدل الدلائل على أن الآباء لا يعرفون أن كانت هناك وقاية كافية ضد معرفة أولادهم للمسائل الجنسية بأسوأ الوسائل • فمن المؤكد أن كل طفل تقريبا سيصل الى المعلومات الجنسية على أقصى تقدير في السنوات الأولى من بلوغه من مصادر غير مرغوب فيها ، و يترتب على هذا فساد الصحة ، وانحطاط الخلق • والطريق الآمن الوحيد هو خلق اتجاه صحى فى عقل الناشئ بتعليمه بالتدريج ، وأولا بأول ، كل ما يتعلق بما يخطر على باله من المشكلات الجنسية •

٧ — تجمع التربية الجنسية بين أوجه من التربية الخلقية والتربية الصحية ، ولذا لا يمكن اكتمالها بكل عناصرها فى وقت واحد ، فهى عملية تدريجية بطيئة تشمل العناية الصحية والتوجيه والتعليم وحسن المثال • وهذا يضع على المنزل جل مسئولية التربية الجنسية المباشرة فى المراحل السابقة للمراهقة • ولهذا يجب اعداد الآباء ، وكل من لهم صلة بالطفل عن طريق النشرات ، والمحاضرات ، والمناقشات ، ليعدوا أنفسهم لتعليم النشء وتوجيههم فيما يختص بالمسائل الجنسية •

وقد عنيت بإيراد هذه النقاط بالتفصيل لسبب هام ، وهو ما يقع فيه الكثيرون ممن يقومون بعلاج الشبان علجا نفسيا ، اذ يوجهونهم أحيانا الى اتباع الحرية فى ممارسة المسائل الجنسية ، مما يترتب عليه الوقوع فعلا فى مشكلات نفسية أخرى أعقد بكثير مما كان لديهم •

ومن أمثلة ذلك أن عرض أحد الشبان نفسه على أحد المعالجين النفسين فقال له القائم بالعلاج — على خلاف ما يتفق مع المبادئ الأولية فى العلاج النفسى — انه يشكو من كبت فى الغريزة الجنسية ، وأفهمه أن التقاليد والآداب الجنسية وغير ذلك انما هى من عمل الانسان ، وليس لها فى ذاتها قيمة • حاول الشاب بناء على هذا أن يشبع نزغته الجنسية ، ثم كف بعد

مدة عن ذلك ؛ اذ تولاه الاشمئزاز والتقرز وزيادة الكبت • وكان اتجاهه العقلي أنه كان كشاب صغير لا يمكنه أن يتمتع بحرية جنسية في نظام تقاليدنا الحاضرة الا مع فتاة منحلة الخلق ، وهذا يبعث فيه الاشمئزاز مما زاد في اضطرابه في ذلك الوقت ، وجعله يتردد بين شدة التدين والانكباب على الاستمناء وادمان شرب الخمر • ووصل به الأمر الى تعاطي الحشيش وأنواع المكيفات وانصرف عن عمله ، وكانت تنتابه حالات شديدة من الانقباض وضيق الصدر وبقيّة أعراض القلق العصبي •

التربية المختلطة :

وقد قامت بعض المدارس بتجارب في التربية الجنسية ، ورأى بعض النظار (١) أن التربية المختلطة وهى تعليم البنين مع البنات ضرورية للتربية الجنسية في جميع مراحل التعليم • فان كان يراد بالمدرسة أن تكون صورة من المجتمع ، فيجب أن تكون صورة حقيقية منه • وحيث أن البنين والبنات يختلطون في المجتمع ، فيجب أن يختلطوا قبل ذلك تحت ظروف المدرسة خاضعين لبعض التوجيه ، وفي هذا اشباع لحاجات الفرد الحالية ، واعداد له في نفس الوقت لمواجهة المواقف المستقبلية •

وترى الدكتورة « هاتون » (٢) وهى تعتمد على ملاحظاتها القائمة على التحليل النفسى أن التعليم المختلط يزيد عادة من النزعات الاستقلالية للبنات ، اذ يحررهن من اعتمادهن على أمهاتهن ، ويجعلهن كذلك أقل قلقا ، وأكثر هدوءا • وللتعليم المختلط — فى نظرها — أثر طيب فى البنين أيضا ، فهو يجعلهم أكثر دقة وحزما مع أنفسهم • فهى بذلك تؤيد التربية الجنسية فى التعليم المختلط من حيث تكوين الاتجاه العقلى العام •

(1) T. Blewitt : The Modern Schools' Handbook.

(2) I. Hutton : On Coeducation : British Journal of Medical Psychology Vol. XVI 1936, 62—71.

وبلاحظ أن مدى الحرية المعطاة في التربية المختلطة يختلف من مدرسة إلى أخرى بدرجة محسوسة * ومن المدارس التي قطعت في الحرية المعطاة شوطا بعيدا «دار تجنتون هول Dartington Hall» ويقول ناظرها الاستاذ «كرى (1)» : إذا كان الطريق الوحيد للأعداد للحياة في المجتمع هو ممارسة الحياة الاجتماعية ، وجب أن تكون البيئة أبعد ما يكون عن الجو الصناعي ، ويجب أن يباح للأطفال مواجهة نوع المشكلات التي سيقدر لهم مواجهتها في مستقبل حياتهم * لهذا وجب جعل التعليم مختلطا ، ولكي يجيء تطبيق التعليم المختلط بأحسن النتائج ، يجب أن تزول كل الحواجز الصناعية بين الجنسين ، ويعتقد ناظر المدرسة أن أساليب الوقاية والتحفيز التي أقيمت بالمدارس التي تمارس التعليم المختلط تؤدي إلى نفس الأخطار التي يراد تجنبها من إقامة هذه العوائق * وإذا كان من ييدهم السلطة يعتقدون أن اجتماع البنين مع البنات اجتماعا منفردا لا بد أن يؤدي إلى أسوأ ما يمكن تصوره من نتائج ، فإن سبب ذلك هو أن الأفراد البنين بالبنات يصحبه في هذه الحالات جو صناعي ملئ بخوف كل منهما مما عساه يحدث ، وبذلك يصير هذا الاجتماع من الخطورة بمكان * لهذا كله فإن مدرسة «دار تجنتون» تسير بحيث لا يوجد فيها أي قوانين أو نظم حول علاقة البنين والبنات بنوع خاص * فالبنون والبنات يعيشون في نفس البيوت (houses) على نظام الأسرة * وتوجد بين أعضاء هيئة التدريس الذين يعيشون بالفعل معهم وبينهم روح الصداقة العميقة ورفع الكلفة رفعا تاما ، مما يضمن وقوف المعلمين على كل ما يمكن أن يحدث ، ومما يضمن التوجيه المقبول إذا احتاج إليه الأمر *

(1) Curry: Dartington Hall: The Modern Schools' Handbook pp. 62, 63.

ويعترف ناظر المدرسة بأن علاقات الحب في مدرسته المختلطة لا بد أن تنشأ ، لكنه يؤكد أيضا أن التربية الالتهالية الجنسية لا تتم الا اذا واجهناها أولا في ظروف خاضعة للإرشاد والتوجيه الصحيح .

وهناك مدرسة أخرى وهى مدرسة « سمرهل » وناظرها « نيل » (١) ، وقد قطعت شوطا أبعد من المدرسة السابقة في مدى الحرية التى تعطى للتلاميذ من الجنسين في اختلاطهم وأحاديثهم ونكاتهم . فناظر المدرسة يسمح للأولاد — ان أرادوا — أن يتحدثوا في المسائل الجنسية علنا وبحرية تامة ، حتى يشبعوا منها وتزهدها نفوسهم ويملوها ، ويترك لهم الحرية التامة في اختلاطهم بعضهم مع بعض ، ولكنه يستغل رأى العام في مدرسته ، ويستغل قيمة سمعة المدرسة في نظر هذا الرأى العام لتكوين المستويات الخلقية اللازمة لتوجيه سلوك تلاميذه . ومن أمثلة ذلك : أنه قبل في مدرسته فتاة وفتى أتى كل منهما من مدرسة أخرى من المدارس العادية ، فتكونت بينهما في الحال صداقة . وبدأ ينفرد أحدهما بالآخر بطريقة مثيرة للشبهة . فقال لهما الناظر الأستاذ « نيل » انه من الناحية الخلقية لايهمه شخصا مايفعله كل منهما مع الآخر ، غير أن سلوكهما هذا سيسئى حتما الى سمعة المدرسة كلها ، واذا هما أنجبا باختلاطهما هذا طفلا فان المدرسة لايمكنها أن تتكفل به (هذا تهكم) ، ولكن النتيجة الحتمية الخطيرة في هذه الحالة هى انتهاء حياة هذه المدرسة والقضاء عليها قضاء تاما . واسترسل قائلا لهما انهما يظنان خطأ أن مايفعلانه يسمى حرية ، وانهما لحدائثة عهديهما بالمدرسة لا يكتنان في نفسيهما شعورا بالاخلاص لها . واستمر نيل يخاطبهما بهذه اللهجة الحازمة المملوءة بالثورة والغضب مما يدل بطبيعة الحال على أن الحرية في هذه المدرسة ليست كما يظن بعض الناس مطلقة بلا حدود ، وانما يحددها — كما قلنا — الرأى العام في

(1) A. S. Neill : Summerhill ; The Modern Schools' Handbook.

المدرسة • ووصلت الحرية حقيقة في هذه المدرسة الى درجة الرقص والسباحة المختلطة للبنين مع البنات • وكانت تسير المدرسة في الظاهر على قاعدة الحرية التامة ، ولكن التلاميذ كانوا يضعون دستور المدرسة وقوانينها في ضوء خبراتهم ومشكلاتهم • وكانوا يعدلون من هذه القوانين والتعليمات على ضوء ما يستجد من المشكلات • وبذلك جاءت كل قوانينهم ونظمهم عن اقتناع ذاتي تام • وذلك في جميع المسائل صغيرها وكبيرها سواء في ذلك المسائل الجنسية وغير الجنسية •

والفرق بين مدرسة « نيل » ومدرسة « دارتنجتون » : أن الأولى أكثر حرية من الثانية ، وأن تقاليد المدرسة يضعها المجتمع المدرسي تبعاً للحاجة الطارئة • ومدرسة نيل قوامها الصراحة التامة في المسائل الجنسية ، فهي تناقش فيها علناً وبكل صراحة • فلا سر ، ولا غموض ، ولا استتذار ، ولا قداسة • وتكون هذه المدرسة مثالية حقاً لو أن المجتمع له تقاليده ومبادئه الدينية والخلقية ، وله قوانينه ومثله ونظمه الثابتة التي يجب أن يخضع لها التلاميذ • فيجب مع استمتاع التلاميذ بالحرية أن نوجههم الى تقدير هذه التقاليد ، وفهم الحكمة منها . ويعترف « نيل » بأن الناشئين لا يمكنهم أن يضبطوا أنفسهم بغير دين أو أخلاق ، ولكنه يريد من التلاميذ أن يكونوا مستويات سلوكهم — كما قلنا — بأنفسهم في المدرسة • وهذه في رأينا مرحلة قد تكون طويلة ، ولا نضمن انسجام نتائجها مع المستويات الكائنة فعلاً في المجتمع •

ومن مدارس التعليم المختلط الأكثر تقيداً من المدرستين السابقتين مدرسة « بدالس » (Bedales) ويقول ناظرها : ان الناحية الجنسية وما يجب ازاءها في دورى الطفولة والمراهقة لها مشكلات تظهر في كل مدرسة • وتظهر هذه المشكلات بنوع خاص في مدارس التعليم المختلط • وأساس معالجتها الصراحة التامة ، وفهم حاجات الطفولة والمراهقة ، والعطف على

الناشئين ازاء هذه الحاجات • وهو يعطى فى مدرسته الدراسات الجنسية ضمن الدراسات العادية بالمدرسة • فهى جزء من التشريع ، وجزء من علم الحياة • وفى السنوات الأخيرة من المدرسة تناقش الصحة الشخصية والاجتماعية المرتبطة بالناحية الجنسية • وهذا يكفى فى رأى ناظر المدرسة ، اذ أنه يعنى فى المدرسة بالتعبيرات الوجدانية عناية كافية فى التمثيل ، والموسيقى ، والشعر ، والفن التصويرى • ويضاف الى ذلك ، الجهد المشترك الذى يقوم به البنون مع البنات فى كثير من أعمال المدرسة ، وفى الدراسات الاجتماعية ، والخدمات الاجتماعية للأسر المجاورة للحي الذى به المدرسة • وتدريب التلاميذ على العمل المشترك بين الجنسين يعودهما الاشتراك فى نشاط يههما دون أن يشغل ذهنهما بالمسائل الجنسية •

ويرى « لين هاريس »^(١) وهو ناظر لمدرسة ناهضة بانجلترا اسمها مدرسة « سان كرسطوفر » أن يعلم البنون مع البنات ، وألا يجبر أحد الجنسين على اتباع نظام معين تكون فيه الخواص الجنسية هى الخواص الأساسية • ويراعى فيمن يقومون بالاشراف على بيوت الطلبة أن يكونوا سعداء فى حياتهم الزوجية ، وأن يشتركوا هم وزوجاتهم فى الاشراف الفعلى والسكنى مع الطلبة والطالبات • ويرى « لين هاريس » أن اشباع الاستطلاع الجنسى وتوجيهه يجب أن يبدأ فى البيت ، ويستمر فى المدرسة ، وألا تعطى معلومات صريحة قائمة بذاتها ، وانما تعطى أجزاء متكاملة مع التربية المستمرة خلال الحياة المدرسية ، وتعالج المسائل الجنسية بتعاون الآباء والمدرسين ، حتى يمكن توحيد وجهات النظر ، وضمان استمرار الوجهة الصحيحة • أما التعليم الجنسى فانه يدخل ضمنا فى مشاهد الطبيعة وعلم الحياة وعلم الصحة •

(1) Lynn Harris: St Christopher School: The Modern Schools' Handbook.

وأما « بول روبرتس Paul Robert ⁽¹⁾ » ناظر مدرسة « فرنشام هيتس » وهى من المدارس الحديثة ، فإنه ينفذ التعليم المختلط ، والتعليم الجنى ، ويسير على أساس أن حرية التكلم فى المسائل الجنسية تزهد نفوس التلاميذ فيها • ويرى أن ما يتعلق بالمسائل الجنسية يجب أن يفصل فيه البنون عن البنات ، وأن يعطى لمجموعات صغيرة ، وأن تعطى فيه أحيانا الفرصة للمناقشات الفردية • ويبدو « بول روبرتس » فى كل هذا أميل الى أساليب المحافظين من زميله السابقين « نيل » و « كرى » •

وتتجه بقية المدارس الحديثة الى العناية بالمسائل الجنسية عناية كبيرة ، ويختلفون اختلافات بسيطة فى درجة الحرية المعطاة ، أو الأسلوب المستعمل ، أو غير ذلك •

تجارب فى التعليم الجنى

نعلم مما تقدم أن التعليم الجنى على الرغم من عظم أهميته لا يخرج عن كونه جزءا من التربية الجنسية العامة ، وقد اتفقت الآراء بين المربين ونظار المدارس الحديثة — كما بينا — على أن تعطى معلومات جنسية كاملة للناشئين على فترات مختلفة فى حياتهم ، وأن تعطى ضمن علوم أخرى كمشاهد الطبيعة ، أو التشريح ، أو الصحة أو علم الحياة ، أو غير ذلك •

وكان المتبع الى عهد قريب أن يكتفى بأن يدرس الأطفال عمليات التلقيح والتكاثر فى النبات ، ثم يتركون ليستمتعوا الباقي بأنفسهم • ويلاحظ أن الاقتصار على دراسة النبات أو الاكتفاء بمد هذه الدراسة الى الأسماك والضفادع عديم الفائدة ، بل قد يضر ؛ إذ أنه قد يثير مشكلات فى ذهن التلميذ لا يمكنه التفوه بها أمام معلمه أو والده •

(1) Paul Roberts : Frensham Heights School : The modern Schools' Handbook.

وقد قام الأستاذ « سمث » ^(١) ناظر إحدى مدارس مقاطعة « لينواس »
بأمريكا بتجربة في إعطاء دراسات جنسية للتلاميذ، ومن رأيه أن تكون الناحية
الجنسية جزءا متكاملا مع الدراسة ، لا يمكن فصلها عنها ، وأن تعالج
بطريقة طبيعية كما تعالج مواد الدراسة الأخرى . فالتلاميذ في السنوات
الدراسية الخمس الأولى يقومون في المدرسة بتربية الدواجن والأسماك
وغيرها ، وملاحظة هذه الكائنات ، ومناقشة ما يحدث لها . كل هذا يعطى
الطفل فكرة أولية صحيحة عن أصل الحياة ، وفكرة التكاثر ، وفكرة
الأسر عند الحيوان ، وغير ذلك . وفي السنوات الدراسية السادسة
والسابعة يتعلم التلاميذ بطريقة منظمة كثيرا من أجزاء الحيوان ، ووظائفها
ويدخل ضمن هذه الدراسات الجهاز الهضمي ، والتنفسى ، مع الموازنة
دائما بين الإنسان والحيوان . وفي السنة الدراسية الثامنة يتعمق التلاميذ
في علوم الحياة أكثر من ذي قبل ، ويقومون بالتشريح العملى . وفي السنة
التاسعة ينتقل التلاميذ الى دراسة الأجنة ، ودراسة التطور ، وبذلك
يستعملون المعلومات المتعلقة بالتشريح والوظائف والعمليات الجنسية .
وبعد ذلك — أى عندما يكون التلاميذ في سن السادسة عشرة تقريبا —
يدرسون شيئا عن الصحة الجنسية الفردية ، والصحة الجنسية الاجتماعية،
والثقافة والآداب الاجتماعية المتعلقة بالناحية الجنسية ، فيدرسون البغاء ،
والإنتاج غير الشرعى ، والأمراض التناسلية وغير ذلك . ثم ينتقلون بعد
ذلك الى الجامعة مزودين بالكفاية من التربية الجنسية ، التى تتوقف الى
حد كبير على نوع جيد من التعليم الجنسى .

وينفصل البنون عن البنات في بعض الدروس في هذه المدرسة من
السنة الدراسية الثامنة ، أى بالتقريب من سن ١٣ الى ١٨ .

(1) P. D. Smith : Towards A New Education ; Ch. 5.

وقد قام اثنان ^(١) من الباحثين في « ويلز » بإجراء تجربة تعليمية في التربية الجنسية في المدارس ، بدأت سنة ١٩٢٩ بعد موافقة السلطات التعليمية المحلية عليها . وهي تعتبر من التجارب الفريدة في نوعها من هذه الناحية ، ومن حيث الروح العلمية التي أجريت بها ، واتساع نطاق اجرائها في المدارس الأولية المختلفة . وقد وصل عدد هذه المدارس الى ٩٢ مدرسة ، ووصل عدد التلاميذ الذين خضعوا للتجربة الى ١٦ ألف تلميذ تقريبا . وقد بدأت التجربة بعمل استفتاء للآباء ، وعقد المؤتمرات لهم . وكانت نتيجة هذا أن وافق ٩٣٪ من الآباء على أن تقوم المدرسة بواجب التربية الجنسية ، وأما الذين لم يوافقوا على ذلك ونسبتهم ٧٪ فبعضهم يرى أن يقوم الوالدان بهذا الواجب ، وبعضهم يرى وجوب عدم التعرض للمسائل الجنسية اطلاقا . وفريق يرفض التعرض لها في المنزل أو في المدرسة على أسس يرى هو أنها دينية . وفريق رابع التزم الصمت ولم يد سببا ما . ويعتقد القائمون بالتجربة والمدرسون الذين ساعدوهم في اجرائها ، أن الحياة الجنسية الخاصة لهذا الفريق الرابع من الآباء محرجة الى حد أنهم لا يتعرضون لابتداء أى سبب ، ويحتمل أن يكون لديهم كبت شديد خاص بالمسائل الجنسية .

وبعد فحص ردود الآباء وافقت السلطات المحلية على بدء التجربة ، وهي اعطاء أحاديث بالفصول الدراسية تبدأ بحديث عن الصحة الجنسية والنمو ، وحديث أولى بسيط عن أثر التفكير في السلوك ، ثم الانتقال الى العدد وشرح قيمتها في النشاط ، والنمو بوجه عام مع تبسيط كبير . فشرحوا الغدة الدرقية ، والنخامية ، والغدتين فوق الكلوتين ، والغدة الجنسية . وبنفس الطريقة العلمية الهادئة التي شرحوا بها وظائف الغدة ،

(1) Tucker and Pout : Sex Education in Schools.

انتقلوا الى شرح الوظائف الجنسية الثانوية للغدد التناسلية مع التكلم عن التشرح التناسلى ، وتناولوا بعض القواعد الصحية العامة التى تتناول وجوب لبس الملابس الواسعة التى لا تضغط على هذه الغدد ، ووجوب النظافة المستمرة حتى لا تهيج هذه الغدد ، وغير ذلك . وأحاديث البنين تختلف عن أحاديث البنات ، وتعطى لكل فريق على حدة ، ويقوم رجل باعطاء أحاديث البنين وسيدة باعطاء الأحاديث الأخرى . بعد هذا تبدأ أحاديث فى علم الحياة متعلقة بالتكاثر والتلقيح ، والبنات ، وما فيه من الأعضاء التشريحية التى تقوم بهذه الوظائف كالميمم ، والقلم ، والمبيض ، والبويضات ، وحبوب اللقاح . ثم يحدث الانتقال بعد ذلك الى تكاثر الأسماك ، وبعض مظاهر الحماية والوقاية التى يقوم بها السمك الكبير نحو صغاره حتى يكبر ، ويستقل فى حياته . ثم ينتقلون بعد ذلك الى الطيور ثم الحيوانات الثديية ، ثم الانسان . ويبين فى هذه الأنواع الأخيرة نمو الجنين داخل الرحم الذى يشبه فى وظيفته المبيض فى النبات . ويسمون الرحم بالعيش (Nest) لأنه شبيه بعش الطير الذى يحفظ فيه البيض الى أن يفقس . أما الحديث فى حالة البنات فانه يضاف اليه شئ عن العادة الشهرية ، ودلالاتها ، ووجوب العناية الصحية ازاءها .

ويشار فى الأحاديث التالية لذلك ، الى أهمية الذكر فى الانسان ، وطريقة وضعه للخلايا الذكرية داخل الرحم ، حيث يقابل الحيوان المنوى البويضة الأنثوية ويتم التلقيح ويبدأ النمو ، ويشار الى بعض القواعد الصحية الواجب مراعاتها أثناء الحمل حتى ينمو الجنين نموا حسنا (١) . ومن أهم الأحاديث مايلى ذلك عن التقاليد الجنسية ، ووجوب مراعاتها ، والحكمة فى ذلك . الى غير هذا .

(1) Tucker and Pout (Ibid) p. 115.

وكانت تتخلل هذه الأحاديث أسئلة يلقيها الأطفال على القائمين
بالتجربة حول هذه المسائل ، ومن أمثلة الأسئلة المتعلقة بموضوعنا
ما يأتى : —

أيخرج الجنين من السرة أم من مجرى البول ؟

لماذا يلد بعض النساء والبعض الآخر لا يلد ؟

لماذا يولد بعض الأطفال ميتا ؟

ماطول المدة اللازمة لانجاب توأم ؟

هل يمكن أن تلد المرأة مهما كانت عجوزا ؟

هل يمكن أن تلد المرأة دون أن تتزوج ؟

ما وظيفة الوالد فى انجاب الأولاد ؟ وما الذى يفعله بالضبط لذلك ؟

لماذا لا يلد الأطفال ؟

وبعد انتهاء التجربة وجه أصحابها الى معلمى المدارس التى أجروا
بها تجاربهم استفتاء لاستيضاح رأيهم فى التجربة • وكان أكثر من ٩٠ ٪
من المعلمين يؤيد التجربة بالطريقة الجمعية التى أجريت بها • كما يؤيد
ترتيب الأحاديث وتسلسلها ، وكذلك فكرة قيام اختصاصى من خارج
المدارس — لا من أعضاء هيئة التدريس — باعطائها • ومما لاشك فيه
أن نجاح التجربة يرجع بعضه الى مهارة القائمين بها ، وبعض صفاتهم
الشخصية الخاصة • وهذا ينطبق على كل نوع من أنواع التربية والتعليم،
بل على كل عمل فنى من هذا النوع • ويرجع نجاح التجربة أيضا الى
موقف القائمين بها ازاء المسائل الجنسية ، والاتجاه العقلى العلمى الهادىء
الذى يمكنهم مواجهة التلاميذ به • ويرجع أيضا الى نوع المصطلحات
والإلفاظ التى استعملوها •

وهذا كله لا يعفينا من أن نتذكر دائما وجوب مراعاة الفروق الفردية في السن والمزاج والتربية الأولى ، والنظرة الاجتماعية العامة الى الموضوع ، ونظرة البيئة الخاصة اليه وغير ذلك •

ويقول وليام براون (W. Brown) تعليقا على هذه التجربة : ان أحسن من يقوم بالتربية الجنسية الوالدان ، ولكن حيث ان أغلب الآباء يعوزهم الوقت والرغبة والمعرفة الجنسية والمزاج الخاص ، فيجب النظر فيما يمكن عمله في المدرسة للوصول الى التربية الجنسية اللازمة •

ويلاحظ أننا لم نشر في هذا الباب الى التربية الجنسية في مصر ، وكيف يجب أن تكون ، ولكننا اقتصرنا على ما يعمل في الخارج ، حتى يتبين ما يمكن عمله عندنا مع مراعاة ظروفنا وتقاليدها الاجتماعية ، ولكن على أى حال يمكننا أن نلمس في الفصلين السابقين أهمية المشكلة ومدى انتشارها وتغلغلها ، ونذكر كذلك الحاجة الملحة الى وجوب العمل من جانب القائمين بأمر التعليم في هذا الاتجاه الجديد •

المراجع

قصة الحياة في جميع الأحياء : للدكتور القوصى والدكتور طنطاوى

B. Webb : The Teaching of Children as to the Reproduction
of Life.

Bennett : The Sex Education of Children.

Hutton : Co-education; British Journal of Medical Psychology,
1936.

Tucker and Pour : Sex Education in Schools.

Russel : On Education.

Schweintiz : How a Baby is Born.

T. Blewitt : The Modern Schools' Handbook.

Valentine : The Psychology of Early Childhood.

ثبت بالمصطلحات

الواردة في هذا الكتاب ومرادفاتها^(١)

Ability	قدرة
Abreaction	التفريغ الانفعالي (المقصود في التحليل النفسي)
Accomplishment Quotient ($100 \times \frac{\text{العمر العقلي}}{\text{العمر التحصيلي}}$)	النسبة التحصيلية
Achievement Quotient	النسبة التحصيلية
Acquired	مكتسب
Acquisition (Hoarding)	التملك (غريزة)
Acrophobia	الخوف من المرتفعات
Adaptation	تكيف (تلاؤم)
Adjustment	تكيف (تلاؤم)
Adolescence (See Puberty & Maturity)	بلوغ (بعد المراهقة)
Adrenal Cortex	قشرة الكظرية
Adrenal Gland	الكظرية (الغدة فوق الكلوية)
Adrenalin	الأدرنالين
Adrenal Medulla	لب الكظرية
Aggressive Tendencies	نزعات اعتدائية
Agoraphobia	الخوف من الأماكن المفتوحة المسماة (كالمادين أو الصحارى ..)
Ambivalence	التناقض الوجداني
Anabolism (See Katabolism & Metabolism)	الهدم الحيوى
Analytic Psychology (See Psycho-Analysis)	علم النفس التحليلي

(١) ملحوظة : رأينا أن نذيل الكتاب بثبت المصطلحات التي استعملت فيه وعددها ٣٠٠ تقريباً ، وقد استعمل أغلبها بنجاح منذ عام ١٩٣٤ وقد روعى عدم التقيد بإيراد كلمة واحدة للمصطلح الواحد . وروعى كذلك عدم التقيد بالترجمة الحرفية للمصطلح ، إذ ثبت لنا بالخبرة أن من الخير أن يترجم المصطلح بحسب معناه لا بحسب تركيبه اللاتيني . وقد اعتمدنا في إيراد ترجمة هذه المصطلحات على ما أفدنا من التجريب بالاستعمال . على أننا أفدنا كذلك من خبرة زملائنا وتلاميذنا ومن سبقونا من الأساتذة .

Anger	غضب
Anorexia	فقدان الشهوة (للطعام)
Anxiety	قلق
Anxiety Equivalents	المعادلات القلقية
Anxiety Hysteria	الهستيريا القلقية
Anxiety Neurosis	القلق العصبي
Appetite (See Needs & Instincts)	شهوة
Asceticism	مجاهدة النفس
Assertion	السيطرة (غريزة)
Association	ترابط (لا تداعي)
Association by Contiguity	الترابط بالاقتران
Association by Similarity	الترابط بالتشابه
Asthenic Type (See Athletic & Pyknic)	النوع الهزيل
Athletic Type	النوع الرياضي
Auto-erotism	الجنسية الذاتية
Auto-Sexuality	التلذذ الجنسي الذاتي
Auto-suggestion	إيحاء ذاتي
Behaviour	سلوك
Censor (Resistance)	رقيب (مقاومة)
Character	خلق
Choleric (See Temperament)	صفراوي (مزاج)
Chorea	الحدور
Chromosomes	الكروموسومات (الصبغيات)
Chronological Age	العمر الزمني
Claustrophobia	الخوف من الوجود داخل أماكن مغلقة
Coeducation	التعليم المختلط (التربية المختلطة)
Complex	عقدة
Complex/Electra	عقدة الكترا
Complex/Father	عقدة الأب
Complex/Homosexual	عقدة الجنسية المثلية
Complex/Inferiority	عقدة النقص
Complex/Mother	عقدة الأم
Complex/Oedipus	عقدة أوديب
Conation (See Will)	نزوع (انظر ارادة)

Concomitant Learning	التعلم العرضى (التعلم المصاحب)
Condensation	تكثيف
Conflict/Mental	صراع نفسى
Congenital (See Hereditary)	ولادى (انظر وراثى)
Compensation	تعويض
Construction	حل وتركيب (غريزة)
Constructive Method	المنهج الانشائى
Contra-suggestibility	القابلية للايحاء العكسى
Contiguity	الاقتران
Contiguity/Spatial	الاقتران المكاني
Contiguity/Temporal	الاقتران الزمانى
Conversion Hysteria	الهستيريا التحويلية
Coordination	توافق
Correlation/Coefficient of	معامل الارتباط
Correlation/Partial	الارتباط الجزئى
Curiosity	الاستطلاع (غريزة)
Customs (See Habits)	تقاليد (انظر عادات)
Cycloid	المتقلب
Cystitis	التهاب المثانة
Dementia Praecox	الجنون المبكر
Destructiveness	التخريب (التدمير)
Disintegration	الانحلال
Dissociation	الفصل (فى اللاشعور)
Dramatisation	التمثيل (التقنع)
Dream	حلم (رؤيا)
Dream/Day	حلم اليقظة
Educational Age	العمر التحصيلى
Educational Quotient	النسبة التعليمية $(100 \times \frac{\text{العمر التحصيلى}}{\text{العمر الزمنى}})$
Ego	الـ ا و أنا ، أو الذات
Egocentrism	ذاتية المركز
Elaboration	التعديل فى الأحلام
Emotion (See Feeling)	انفعال (انظر وجدان)
Emotion/Complex	انفعال ثانوى (مركب)

Emotion/Derived	انفعال مشتق
Emotion/Primary	انفعال أولى
Emotion/Secondary	انفعال ثانوى
Enuresis (See Incontinence)	التبول اللاارادى
Epilepsy	الصرع
Epileptic Fits	النوبات الصرعية
Extrovert	المنبسط
Extroversion	الانبساط النفسى
Faculty	ملكة
Fear	خوف
Feeling (See Emotion)	وجدان
Food-seeking	البحث عن الطعام (غريزة)
Fugue (See Wandering)	النسيان التجولى
Functional	وظيفى
Genes	جينات (مفروض أنها حوامل الصفات الوراثية)
Genetic Method	المنهج التبعى
Genius	عبقرى
Gland/Adrenal (supra-renal)	الغدة الكظرية (الغدة فوق الكلوية)
Glands/Parathyroid	الغدد جارات الدرقية
Gland/Pincal	الغدة الصنوبرية
Gland/Pituitary	الغدة النخامية
Gland/Thymus	الغدة التيموسية (الصعترية)
Gland/Thyroid	الغدة الدرقية
Glands/Sexual (Gonads)	الغدد الجنسية
Gluttony	الشراهة
Glycogen	نشأ حيوانى
Gregariousness	الاجتماعية (غريزة)
Habits (See Customs)	عادات
Happiness (See joy & Pleasure)	سعادة
Harmony	توافق
Health/Mental	الصحة النفسية
Hereditary (See Congenital)	وراثى (انظرولادى)
Heroworship	عبادة البطولة
Hetcrosexuality	الجنسية الغيرية

Heterosuggestion	الايحاء الغيرى
Homosexuality	الجنسية المثلية
Hormones	هرمونات
Hygiene/Mental	علم الصحة النفسية
Hypochondria	توهم المرض
Hysteria	الهستيريا
Id	ال « هى » (النزعات)
Identification	تقمص
Imagination	خيال
Imitation	تقليد
Impulses	الدوافع
Inborn (See Innate)	ولادى
Incontinence (See Enuresis)	التبرز اللا ارادى
Inhibition (See Repression & Suppression)	الكف
Innate (See Inborn)	فطرى
Innervation	استثارة عصبية
Insight	بصيرة
Instinct (See Repression & Suppression)	غريزة
Instinctive behaviour	سلوك غريزى
Instinct of combativeness (pugnacity)	غريزة المقاتلة
Instinct/Escape	غريزة الخلاص (الهرب)
Integration	تكامل
Intelligence Quotient	نسبة الذكاء $\left(\frac{\text{العمر العقلى}}{\text{العمر الزمنى}} \times 100 \right)$
Interest	ميل (استعداد) - اهتمام (عملية)
Introversion	الانطواء النفسى
Introvert	المنطوى
Jealousy	الغيرة
Joy (See pleasure and happiness)	سرور
Katabolism (See Anabolism & Metabolism)	البناء الحيوى
Lalling	لثغة (قلب الرء لاما)
Latency Period	دور الكمون
Latent Content (In Dreams)	المحتويات الباطنة (في الأحلام وهى ليست كامنة)
Libido	الطاقة الحيوية

Lie of loyalty	الكذب الوفاي
Lie or revenge	الكذب الانتقامي
Lie of vanity	الكذب الادعائي
Lisping	لثغة (قلب السين ثاء)
Lying/confusional	الكذب الالتباسي
Lying/exculpatory	الكذب الدفاعي
Lying/excusive	الكذب الدفاعي
Lying/imaginative	الكذب الخيالي
Lying/Pathological	الكذب المزمن
Lying/selfish	الكذب الاناني
Manifest/content	المحتويات الظاهرة (في الأحلام)
Manual skill	المهارة اليدوية
Masochism	الماسوكية (حب العذاب)
Masturbation	استمناء (جلد عميرة - العادة السرية)
Maturity (See Adolescence)	اكتمال النمو (الرشد)
Mechanism/unconscious	حيلة لاشعورية
Melancholia (Temperament)	سوداوى (مزاج)
Memory	ذاكرة
Mental Age	العمر العقلي
Mentally Defectives	ضعاف العقول
Metabolism (See Anabolism & Katabolism)	التاير الميوى (الهدم والبناء)
Migraine	صداع مزمن
Misophobia	الخوف من التلوث
Mood	حالة مزاجية
Moral defect	النقص الخلقي
Moral sense	احساس خلقي
Motives (See Impulses)	دوافع
Nail Biting	قرض الاظافر
Narcissism	النرجسية (عشق الذات)
Need for Adventure	الحاجة للمخاطرة
Need for Affection	الحاجة للحب والمحبة
Need For Being Loved	الحاجة للمعجبة
Need For Control	الحاجة للضبط (التوجيه)
Need For Freedom	الحاجة للحرية

Need For Growing Up	الحاجة للنمو
Need For Loving	الحاجة للحب
Need For Recognition	الحاجة للاعتراف (التقدير)
Need For Security	الحاجة للأمن
Need For Success	الحاجة للنجاح
Needs/Psychological	الحاجة النفسية
Negative Adaptation	التكيف السلبي
Neurasthenia (See Psychasthenia)	الضعف العصبي (نيوراستينيا)
Neurosis	مرض عصبي
Non-Epileptic Fits	النوبات اللاصرعية
Normal	عادي (متوسط)
Old Maid's Insanity	جنون العوانس
Organic Changes	التغيرات العضوية
Organic Inferiority	نقص عضوي
Ouvert Action	الفعل الظاهر
Parasympathetic	الباراسمباتوى
Parental instinct	غريزة الوالدية
Perception	الادراك الحسى
Perceptual Consciousness	الشعور الادراكى
Personality	الشخصية
Perversion	قلب
Phobias	مخاوف
Phlegmatic (Temperament)	بلغمى (مزاج)
Play	اللعب
Pleasure (See joy & happiness)	لذة
Polyuria	كثرة البول
Positive Method	المنهج الايجابى (الانشائى)
Pre-conscious (Pcs)	ما قبل الشعور
Preventive Method	المنهج الوقائى
Proctitis	التهاب المستقيم
Propensities	قوى (استعدادات)
Projection	اسقاط (الصاق)
Psychasthenia	سيكاستينيا (تحل هذه الكلمة الآن محل نيوراستينيا)
Psychiatry	علم النفس الطبى

Psychic Inferiority	نقص نفسى
Psycho-Analysis	التحليل النفسى
Psycho-Neurosis	عصاب نفسى
Psycho-Pathology	علم الأمراض النفسية
Psycho-Somatic Medicine	علم الطب النفسى الجسمى
Psychosis	مرض عقلى
Psycho-Therapy	العلاج النفسى
Puberty	المراهقة
Pyelitis	التهاب حوض الكلى
Pyknic Type	النوع الممتلئ القصير (السمين)
Questionnaire Method.	طريقة الاستفتاءات
Random Movements	الأفعال العشوائية
Rationalisation	تبرير
Reaction	رد الفعل
Realism	الواقعية
Reality	الواقع
Re-education	التعليم المجدد
Reflex Actions	الأفعال المنعكسة
Reflex Actions/Conditioned	الأفعال المنعكسة الشرطية
Regression	نكوص (تراجع)
Relativity	نسبية
Relaxation	تراخ
Relaxation Exercise	تمرين تراخ
Religious Mania	جنون التدين
Remedial Method	المنهج العلاجى
Repression	كبت
Repulsion	النفور (غريزة)
Resistance (See Censor)	مقاومة (رقيب)
Sadism	السادية (حب التعذيب)
Sanguine (Temperament)	دموى (مزاج)
Schizoid	المائل للانطواء
Self Abuse (See Masturbation)	استمناء
Self Punishment (See Masochism)	عقاب الذات
Self Realisation	تحقيق الذات

Sense of Guilt	الاحساس بالخطيئة
Sentiment	عاطفة
Sentiment/Master	عاطفة سائنة
Sentiment/Self Regarding	عاطفة اعتبار الذات
Sentiment of Self Respect	عاطفة احترام الذات
Septic Focus	بؤرة توكسينية
Sexual Aberrations	الحيودات الجنسية
Sexual Abnormality	الشذوذ الجنسي
Spina Bifida Occulta	تأخر التحام العمود الفقري
Spontaneity	التلقائية
Stammering	عق - حبسة - عقلة
Standardisation	التقنين
Stuttering	فأفة - تممة
Sublimation	تسام، اعلاء، تصعيد
Submission	الخنوع (الخضوع)
Substitution	ابدال
Suggestibility	القابلية للايحاء
Suggestion	الايحاء - الاستهواء
Super Ego	ال « أنا » العليا - الذات العليا
Suppression	قمع
Surprise (See wonder)	الدهشة
Symbolism	رمزية
Sympathetic Induction of Emotion	الانفعال بالتأثير المشاركة الوجدانية
Sympathetic Nervous System	المجموع العصبى السمبتاتوى
Sympathy	المشاركة الوجدانية
Taboos	المحرمات
Temper (See mood)	طبع
Temper Tantrums	نوبات غضبية
Temperament (See mood)	مزاج
Tendencies	ميل - نزعات - اتجاهات
Thumb Sucking	مص الاصابع
Thyroxin	الثروكسين
Ties	اللازمات
Tongue Sucking	مص اللسان

Transference	تحويل
Trauma/psychic	الاصابة النفسية
Trial and Error	المحاولة وحذف الاخطاء
Truancy	هروب
Twins/identical	التوائم المتحدة
Unconscious (Ucs)	اللاشعور
Urethral Erotism	التلذذ الجنسي للمجارى البولية
Urethral Inflammation	التهاب مجرى البول (للذكور)
Urinary Sexuality	التلذذ الجنسي للمجارى البولية
Vagrancy	تشرذ
Vulvo Vaginitis	التهاب مجرى البول (للانات)
Wandering (See Fugue)	التجول
Weaning/Psychological	فطام نفسى
Will (See Conation)	ارادة (أنظر نزوع)
Wonder (See Surprise)	عجب (أنظر دهشة)

للمؤلف

- ١ — أسس علم النفس — مكتبة النهضة المصرية
وهي أساس لما يلقى من المحاضرات في علم النفس على طلاب معاهد التربية +
- ٢ — قصة الحياة في جميع الأحياء (مع الدكتور أحمد طنطاوى) — مكتبة النهضة +
- كتاب في التربية الجنسية وضع مخصوصا ليقراه الناشئون في دور المراهقة وقبيلها +
- ٣ — الاحصاء في التربية وعلم النفس (مع الدكتور حين محمد حسين) — مكتبة النهضة +
- كتاب يبحث في الأساليب الاحصائية الحديثة وتطبيقها في ميادين التربية وعلم النفس +
- ٤ — الإدراك المكانى Visual Perception of Space (Cambridge University Press, London)
بحث تجريبي أدى الى الكشف عن العامل المكانى وهو أساس للغدات العقلية المؤهلة للتفوق في المهن الهندسية +
- ٥ — اللغة والفكر (مع آخرين) — توريدات المعارف +
يبحث في سيكولوجية اللغة وطرق تدريسها وينتهى بتقرير عن تجربة الطريقة الكلية (الجملية) +
- ٦ — القراءة العربية (مع آخرين) — توريدات المعارف +
كتاب لتعليم مبادئ القراءة يقوم على تطبيق طريقة الجملة — وهي

- مبنية على أحدث البحوث السيكولوجية المعروفة باسم « الجشتالت » .
وهناك مرشد للمعلم في كتيب مستقل يبين طريقة استعمال الكتاب .
- ٧ - تيسير النحو (مع آخرين) للسنة الثالثة الابتدائية والخامسة الأولية -
عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- كتاب يقوم على الأسس التي أقرتها اللجنة الدائمة لترقية اللغة العربية
وقرارات المؤتمر الثقافي العربي الأول .
- ٨ - أسس الصحة النفسية .
- ٩ - الاختبارات الحسية للذكاء .